الجامعة الأردنية



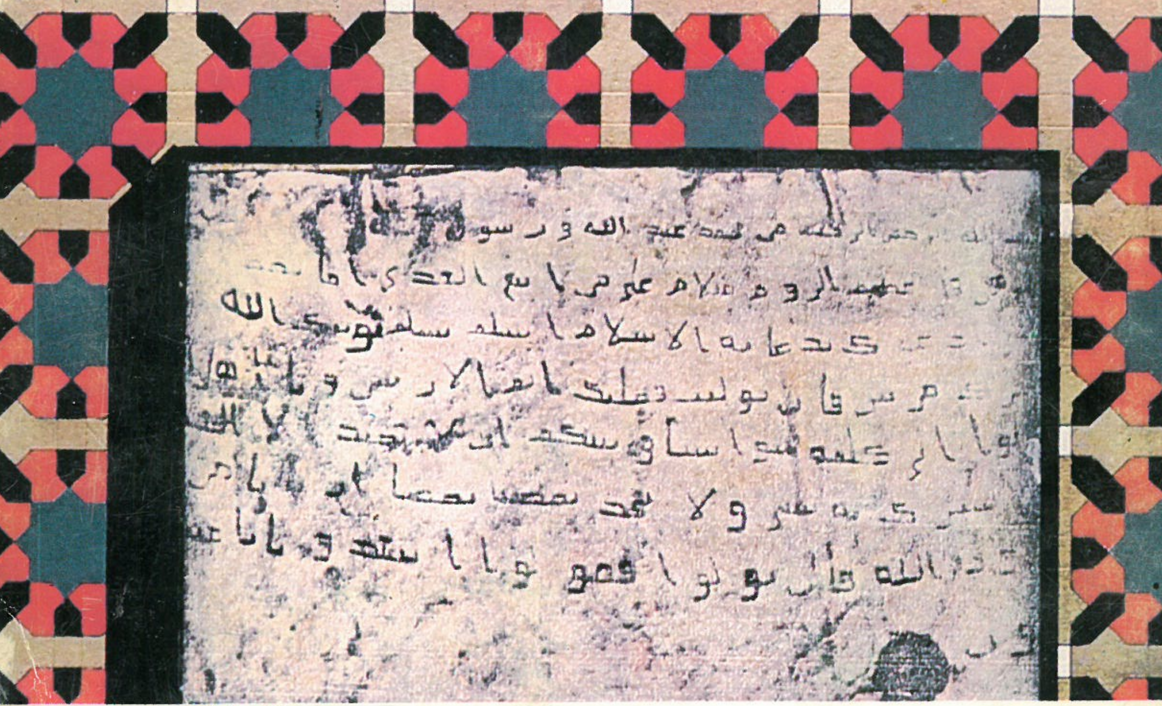
جامعة اليرموك

بلاد الشام في صدر الإسلام

٢٤ ـ ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ ١٦ ـ ٢٢ آذار ١٩٨٥

الندوة الثانية من أعمال

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام



(كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل)

تحرير

محمد عدنان البخيت

إحسان عباس

المجلد الثاني عمان ١٩٨٧

٩٥٦
مؤت المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (الرابع : ١٩٨٥ ـ الجامعة الأردنية).
بلاد الشام في صدر الاسلام : الندوة الثانية/تحرير محمد عدنان البخيت، إحسان عباس.ـ عمان : الجامعة الأرنية، إربد : جامعة اليرموك، ١٩٨٧.
٦٢٠ ص.
١. بلاد الشام ـ تاريخ ٢. خلفاء راشدون ـ تاريخ.
أ. محمد عدنان البخيت (محرر) ب. احسان عباس.
(محرر). جـ. العنوان.

تمت فهرسة هذا الكتاب بمعرفة جمعية المكتبات الأردنية وبموافقتها رقم
(ج ٠ م ٠أ) ١٩٨٧/٢/١

مطبعة الجامعة الأردنية

مقدمة

يتناول المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الذي بدأت الجامعة الأردنية بالاعداد له منذ مطلع عام ١٩٨١، بالتعاون مع جامعة اليرموك، تاريخ هذه البلاد منذ العهد البيزنطي حتى أواخر العهد الأموي.

وقد رأت (لجنة تاريخ بلاد الشام) أن يكون عملها في هذا المجال على شكل ندوات تعقد في فترات زمنية متفاوتة، تتناول كل ندوة جانباً معيناً من الموضوع، وتدرسه دراسة دقيقة مستفيضة، وبمنهجية علمية عميقة، ثم تعقد مؤتمراً عاماً للنظر في القضايا الرئيسية والنتائج الأساسية التي توصل اليها الباحثون والعلماء.

وانطلاقاً من ذلك عقدت اللجنة ندوتين، كان موضوع الأولى منهما: (بلاد الشام في العهد البيزنطي)، وكان موضوع الثانية: (بلاد الشام في صدر الاسلام)، وقد صدرت أبحاث الندوة الأولى في مجلدين.

ويسعدنا أن نقدم إلى القارىء الكريم في هذا المجلد أبحاث الندوة الثانية باللغة العربية بعد أن تم تقييمها حسب الأصول المنهجية والعلمية وهي تقع في ثمانية عشر بحثاً، تعالج جوانب مختلفة من تاريخ بلاد الشام في صدر الاسلام، كالمؤشرات والارهاصات لفتح بلاد الشام، ومصادر الفتوحات، والمراسلات النبوية ودور العرب المنتصرة في الفتوحات، وتموين الجيوش العربية، وعهود الصلح، والتنظيمات الادارية، والفتوح في الشعر العربي.

فقد بين الدكتور إحسان عباس في بحثه (فتح بلاد الشام «مؤشرات وارهاصات») أنواع المؤشرات التي كانت تومىء إلى حدوث الفتوحات، وبخاصة فتح بلاد الشام، ومن أهمها: ـ الخطوات العسكرية والحربية التي تمت في عهد الرسول (ص) أي قبل بداية الفتوحات، والأحاديث النبوية التي تنبىء بفتح الشام.

وتضمن بحث الدكتور كوركيس عواد (مصادر الفتوحات العربية لبلاد الشام ثبتاً بأسماء المصادر والمراجع العربية والأجنبية (الموسوعات والكتب والايمان والمقالات وبعض الروايات والقصائد) المتعلقة بالفتوحات العربية لبلاد الشام.

أما المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، فقد تناولها كل من الدكتور جاسر أبو صفية والدكتور ابراهيم زيد الكيلاني وقد بحثا في الكتب التي أرسلها رسول الله (ص) الى أكيدر بن عبد الله الكندي، ووفد كلب، وأسقف أيلة، وأهل جرباء وأذرح، وأهل مقنا من حيث سندها التاريخي ومصادرها واختلافات رواياتها، كما تناولا متن هذه الكتب بالنقد والتحليل.

واستعرض الدكتور صالح درادكه في بحثه (مقدمات في فتح بلاد الشام) مجموعة التحولات والتفاعلات التي حصلت داخل الجماعات العربية، وأدت عبر تاريخ طويل الى تكوين ما نسميه اليوم ب (الأمة العربية)، فتحدث عن مرحلة قيام الدول في المهاجر:

الأكادية، والأشورية، والبابلية، والكلدانية، والفنيقية، والكنعانية، والأرامية. وعن المرحلة السابقة للاسلام التي تميزت باستقرار المجموعات القبلية التي دخلت بلاد الشام منذ عهد بعيد في تلك البلاد التي ظلت جزيرة العرب تدفع بسيل من سكانها اليها دون انقطاع، وبعد ذلك أبرز الباحث ما تضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الاسلامي من نصوص توحي بحتمية فتح بلاد الشام، وكيف أن الفتح كان حتمية تاريخية اقتضاها بحث العرب عن هويتهم.

والمجموعات القبلية التي دخلت بلاد الشام كان يطلق عليها عند قيام الفتوحات الاسلامية أسماء مختلفة مثل: العرب المتنصرة، والعرب المستعربة، وروم العرب، والعرب المعاهدة، والعرب المسالمة، ومن أهم هذه القبائل: قضاعة وعذرة وبلي وجذام وبلقين وكلب وغسان وتنوخ وسليم واياد. وهذه القبائل التي اعتنق بعضها النصرانية كان لها دور في الفتوحات الاسلامية تمثل في ثلاثة مواقف هي القتال الى جانب المسلمين، والحياد مع الميل الى جانب المسلمين، والعداء للمسلمين والوقوف الى جانب البيزنطيين. وقد بين الدكتور محمد عبد القادر خريسات هذه المواقف في بحثه (دور العرب المتنصرة في الفتوحات).

وفي بحث (تموين الجيوش العربية الاسلامية أثناء فتوح بلاد الشام)، قسم الدكتور نقولا زيادة الفتح بشكل عام الى ثلاثة أدوار يشغل الأول منها سنتي ١٢ و١٣هـ، ويتمثل في الجيوش التي أرسلها أبو بكر للاستيلاء على الريف الشرقي في بلاد الشام، ويشغل الثاني السنوات من ١٣ الى ١٦هـ، وهو يبدأ بوصول خالد بن الوليد من العراق ويمتد الثالث من سنة ١٦ الى ٢٧هـ، وفيه انهارت المقاومة البيزنطية تماماً وتم فتح بلاد الشام بأسرها. وذكر الباحث أن تموين الجيوش الاسلامية خلال الدور الأول كان له مصدران، الأول يتمثل بالصيد، والثاني يتمثل بما كان يحصل عليه الجيش من غنيمة وفيء. وكانت المعاهدات التي تعقد بين القواد والمدن المفتوحة خلال الدورين الثاني والثالث تعين ما يترتب على تلك المدن من قرى للجنود. وظل الأمر كذلك إلى أن أنشأ عمر بن الخطاب (ديوان الجند) في الدور الثالث حيث دخل تموين الجيش مرحلة جديدة وأصبح أكثر تنظيماً.

وفي هذا المجال تحدث أيضاً الدكتور فالح حسين في بحثه (الفروض العينية ــ الضيافة والأرزاق ــ كمصدر لتموين جيش الفتح) عن الضيافة والأرزاق اللذين فرضا على أهل الذمة من أجل تموين الجيش، فذكر أن فرض مبدأ الضيافة بدأ منذ أن عقد الرسول (ص) صلحاً مع أهل نجران وأهل اليمن... وأن الغاية من الضيافة هي تأمين الحاجات التموينية الضرورية لجيش الفتح. أما فرض الأرزاق التي تتألف من القمح والخل والزيت والدهن والعسل والدبس فقد جاء في فترة لاحقة بعد استقرار الوضع في الولايات الاسلامية الرئيسية: الشام ومصر والعراق، وذلك في عهد عمر بن الخطاب. وذكر الباحث أيضاً أن الأرزاق فرضت لغايات التموين الفعلي للجند ولعائلاتهم.

ويتضمن هذا المجلد أيضاً بحثين يتناولان عهود الصلح هما: (مدخل الى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح) للدكتورة وداد القاضي، وتحدثت فيه عن المادة التاريخية التي تتكون منها العهود موضحة أن هذه المادة نوعان هما: ــ الوثائق والأخبار.

وقد جمعت الباحثة سبعة وعشرين عهد صلح بنصوصها، وقارنت بعض خصائصها من ناحية الشكل، بخصائص وثائق ادارية وصلت الينا أصولها، فعززت توثيق هذه العهود.

وأما الأخبار التي تشكل مادة مساعدة لروايات العهود بنصوصها، فقد رأت الباحثة أنها ثلاثة أنواع هي: ــ الأخبار الحكمية، والأخبار الوصفية، والأخبار شبه الوثيقية، وحددت مميزات كل نوع من هذه الأخبار، ثم انبرت لدراسة العهود من حيث كيفيتها وبنيتها ومضمونها، واختتمت بحثها بالتأكيد على أن عهود الصلح مثلا مشرقاً من أمثلة تاريخنا العربي الاسلامي.

والبحث الثاني هو (معاهدة فتح بيت المقدس «العهدة العمرية») للدكتور زكريا القضاة، الذي استعرض نص المعاهدة في المصادر المختلفة، وتناولها بالمقارنة والنقد والتمحيص، مرجحاً أن اختلاف الروايات لنص المعاهدة يرجع الى أنها كتبت أكثر من مرة وفي فترات زمنية متلاحقة، وأضيفت اليها نصوص لتعبر عن صيغ فقهية وضعت لتنظيم أوضاع جدت على الساحة الاسلامية.

وللدكتور ناصر الدين الأسد بحث عنوانه (وقعة أجنادين ــ دراسة تحليلية للمصادر والروايات) تناول فيه الأسباب التي أدت الى تعدد الروايات واختلافها في تفصيلات الحادثة الواحدة عند المؤرخين والاخباريين، وبين دور المنهج العلمي في طريقة تناول الروايات وتحقيقها واستقصاء مادتها وترجيح احداها على غيرها بمرجحات وأدلة واضحة الدلالة على الترجيح. وقد طبق الباحث هذا المنهج على معركة أجنادين فوازن بين ما في المصادر من أخبار عنها، وهي الأخبار التي تتحدث عن موقفها وزمنها وقادة جيوشها، وعدد شهدائها، وبعض الأشعار التي قيلت فيها.

وحاول الدكتور فواز أحمد طوقان في بحثه (الواقوصة) تحديد موقع الواقوصة على الخريطة الحديثة، وذلك بالرجوع الى كتب التاريخ وفتوح البلدان وكتب الجغرافيين العرب والمؤلفات الحديثة وبدراسة الموقع نفسه، وقد توصل الباحث الى أن قرية عقربه وسهلها الممتد الى غربها هما ساح معركة اليرموك في يومها الفاصل الأخير، والواقوصة هي الهاوية الواقعة شمال هذا السهل.

وفي بحث (الفتح الاسلامي وسياسة الاسكان لساحل دمشق «لبنان») بين الدكتور عمر عبد السلام التدمري كيف أن الاحتكاك الحربي بين العرب المسلمين وأهل المدن اللبنانية قد بدأ في وقت مبكر (سنة ١٣هـ)، أي قبل فتح دمشق، ثم تتبع مسار الفتح الاسلامي الذي قامت به القوات الاسلامية، وبعد ذلك انتقل الباحث للحديث عن الاحتواء الاسلامي للشعوب غير العربية من فرس وروم وأقباط وجراجمة وغيرهم موضحاً أن هذه العناصر شاركت في الفتوحات وأسهمت في بناء الأسطول الاسلامي، وتولت قيادة الأسطول وقيادة الجند، وتقلدت المناصب الرفيعة.

وتضمن هذا المجلد أيضاً ثلاثة أبحاث في مجال الادارة ونظام الضرائب في بلاد الشام، كان الأول منها بعنوان (الدور الاداري والثقافي لطبقة الصحابة النازلة بالشام) للدكتور أحمد بدر، الذي استعرض فيه دور الصحابة في البلاد المفتوحة. فقد كان للصحابة، اضافة الى أثرهم الفعال في تبليغ رسالة الاسلام، دور فعال أيضاً في المجال الثقافي والعلمي، كما أن هؤلاء الصحابة ارتقوا فكرياً بفضل ما استثار تفكيرهم من تساؤلات، أو بفضل تحدي البيئة الجديدة لهم، مما دفعهم الى اقامة مركز فكري اسلامي في الشام، أنجب الكثير من التابعين الأفذاذ.

وتناول البحث الثاني وهو (الادارة ونظام الضرائب في الشام في العصر الراشدي) للدكتورة نجدة خماش التقسيمات الادارية، والادارة وأهم الموظفين الاداريين، والمؤسسات الادارية، وديوان العطاء، ونظام الضرائب في الشام في العصر الراشدي، والملكية العقارية وضريبة الأرض أو الخراج، والضرائب الاضافية.

وتناول البحث الثالث (تنظيمات عمر بن الخطاب : الضرائب في بلاد الشام)، فقد ضمن الدكتور عبد العزيز الدوري هذا البحث فكرة أولية عن نظام الضرائب النظامية وغير النظامية في بلاد الشام، وفصل القول في قيمة الضرائب وكيفية توزيعها وطريقة جباتها، وأثرها على الزراع والفلاحين، واطلاق يد المتنفذين في جبايتها، وافادة العرب من الأجهزة الادارية للجباية.

يتضمن هذا المجلد كذلك بحثاً للدكتور سعد الراشد بعنوان (منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة وصلتها ببلاد الشام في صدر الاسلام والخلافة الأموية اعتماداً على الاكتشافات الحديثة)، وهو بحث يوضح مدى عمق الاتصال الحضاري بين المنطقتين، ذلك الاتصال الذي دلت عليه الأواني الفخارية والعملات والكتابات المكتشفة، والآثار المعمارية الباقية.

أما البحث الأخير من بحوث هذا المجلد فهو (فتوح الشام في الشعر العربي) الذي استعرض فيه الدكتور عادل أبو عمشة مواكبة الشعر للفتوح، فتحدث عما قيل من شعر في غزوة مؤتة ومعركة اليرموك ومعركة فحل وغيرها. ثم بين الموضوعات التي عبر عنها الشعراء، وبعد ذلك ذكر الباحث أن الشعر الذي خلفه فتح بلاد الشام كان قليلا اذا ما قيس بالشعر الذي خلفته حركة فتح العراق وفارس لأسباب كثيرة تتلخص في أن المشاركين في فتوح الشام كانوا من العرب اليمنيين الذين لم يكن لهم كلف بالشعر، وأن شعراء الطبقة الأولى لم يشاركوا في الفتوح، كما أن القادة زهدوا في الشعر والشعراء وأعرضوا عن المديح، هذا اضافة الى أن علماء اللغة والنحو لم يهتموا بجمع الشعر الذي نظم في الفتح.

وفي الختام نرجو أن يكون هذا المجلد إضافة قيمة إلى المكتبة العربية، ونسأل الله أن يمدنا بالقدرة لاتمام ما بدأناه من اعداد متواصل، وتحضير جاد لعقد المؤتمر الدولي العام الرابع لتاريخ بلاد الشام.

محمد عدنان البخيت

عمان ١٩٨٧

كلمة سمو الامير الحسن مندوباً عن جلالة الملك المعظم

أيها العلماء الاجلاء

أيها الاخوة والاخوات

يسعدني أن أحييكم اطيب تحية، وأن أرحب بكم أجمل ترحيب، في حمى جامعتكم الأردنية، لنواصل معاً المسيرة العلمية التي بدأتها هذه الجامعة في عقد مؤتمرات لتاريخ بلاد الشام، اتجهت بها إلى أن تكون دولية ليلتقي في رحابها علماء محققون منصفون من مختلف بقاع الأرض، فتتضافر جهودهم على تجلية جوانب هذا التاريخ الذي هو جزء من التاريخ الانساني العالمي، والذي لا تستقيم معرفة صحيحة بتاريخ العالم بغير عرض تاريخ هذا الركن الاساسي من دنيانا، عرضاً موضوعياً بعيداً عن الهوى وعن التعصب، يقوم على بيان النسيج المتلاحم للحياة من جوانبها المختلفة، وربط الاحداث محلياً وعالمياً ربطاً يوضح المقدمات و يرتب عليها النتائج، و يقدم الأسباب و يبني عليها المسببات.

ثم اتجهت الجامعة بهذه المؤتمرات إلى أن تكون مؤتمرات مشتركة بين الجامعات في الأردن والجامعات في سائر بلاد الشام، تأدية لحق الامانة العلمية، ووفاء بالواجب الملقى على عاتق هيئات التدريس في جامعاتنا.

ثم اتجهت الجامعة إلى تفريغ الاجتماعات لمزيد من التخصص في الدراسة المتعمقة، فأخذت تعقد بين دورتي كل مؤتمر ندوات ذات موضوعات محددة لحقب زمنية ضيقة، ثم يأتي المؤتمر تتو يجاً لما عقد قبله من ندوات، شاملا لموضوعاتها، جامعاً لبحوثها، موضحاً لنتائجها.

وهذه هي الندوة الثانية من ندوات المؤتمر الرابع يلتقي عليها هذا النفر الكريم من علمائنا العرب ومن زملائهم العلماء الذين وفدوا علينا من أقطار متباعدة، تكلفوا مشقة السفر ليؤدوا رسالتهم العلمية، إيماناً منهم بوحدة التاريخ الانساني، و بتفاعل أسبابه ونتائجه، وترابط أحداثه تأثراً وتأثيراً.

أيها العلماء الاجلاء

أيها الأخوة والأخوات

إننا ــ ونحن نجتمع في هذا اللقاء العلمي ــ لنستلهم ما استلهمه السلف الصالح من معاني قوله تعالى «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله»، وما أدركوه بعين بصيرتهم من قيمة هذه الارض المباركة في شمالهم، وما فيها من تركيب سكاني يجعلها إمتداداً للجزيرة العربية، ومكملة لحدود أمنها، وما

تقتضيه طبيعة الأمور من تمام الاتصال بين هذا الامتداد في الشمال و بين المهد../ بين الأصل../ بين الأرض الأم،/ جمعاً لصلات الرحم،/ وتحقيقاً لروابط التاريخ.

لقد أدركت القيادة المؤمنة العلاقة بين مهد النبوة و بلاد الشام، وانساح كبار صحابة رسول صلى الله عليه وسلم في اغوار هذه البلاد وعلى بطاحها: بدءا بزيد بن حارثة، وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة، واستمراراً مع أمين هذه الأمة أبي عبيدة عامر إبن الجراح، وعالمها معاذ بن جبل، وقادتها العظماء: خالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، وعشرات غيرهم ومعهم ألوف من المؤمنين الذين روت دماؤهم ثرى هذه البلاد، لتكون بطولاتهم لنا في أحلك الأوقات نوراً، وفيما نستشرف من الأيام نبراسا، وإن فروع هذه الدوحة المباركة من آل هاشم ما زالوا يرفعون الراية و يواصلون المسيرة، إلى ان تطهر هذه البلاد مما اصابها من دنس، وتعود إليها قدسيتها التي وصفها بها الله عز وجل.

أيها العلماء الأجلاء:

باسم الله وعلى بركته افتتح أعمال ندوتكم، وأسأله تعالى أن يوفقكم فيما أنتم مقبلون عليه، وأن يبارك جهودكم في سبيل الخير والحق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الاستاذ الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة

(لايلاف قريش إيلافهم، رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف).

مولاي صاحب السمو الملكي الأمير الحسن ولي العهد المعظم مندوب جلالة الملك الحسين المعظم.

أيها العلماء الأفاضل

أيتها السيدات والسادة

لقاء متجدد، لتاريخ صنع وكتب، في رحاب جامعة أردنية، وتعاون شقيقات، يعقد اليوم برعاية الحسين الدائمة، ودأب ولي عهده المحبوب، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام شامة في الأرض، لتاريخ شامة، لأمة صنعت حضارة عنوانها الانسان، وشعارها العلم، ولحمتها الايمان، تلقت منهجها، توجها نحو السماء، وعمارة في الأرض، واستقلالا في الرأي، تبعيتها لخالق الكون، منحازة إلى الحق في وقت، طغت فيه التبعية، لمعسكرات من فرس وروم، في زمن هامت فيه الأصنام على أصنامها، وانتشرت فوضى الفكر، وانحسرت قيم السماء، في هذا الوقت كانت عناية الخالق، تأذن لشمس الهدى بالبزوغ رو يداً رو يداً ـ لمحمد البشر، والانسان وصاحب الخلق، لترتبط الأرض المشتاقة للسماء ببريد الوحي ـ بعد طول انقطاع، فتخط من جديد سمات المجتمع المرتقب، مجتمع الربانية المحروسة بتوجيه النبوة، المتلقية عن باريء الكون المجتمع القدوة (خلال فترة الرسالة) (مجتمع القاعدة للرسالة الرائدة)، نماذج تأسيس لحركة تفاعلية ـ أرضية كونية ـ محدودة العدد ـ بعيدة الأثر ـ بدءاً بالأقربين وانتشاراً إلى القرى والبوادي بساكنيها ـ ليكون مجتمع الفكرة ـ دولة الفكرة ـ غير محدودة بالزمان والمكان **(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)**.

يمضي صاحب الرسالة مبلغا، يؤذى فيصبر، يضرب الصحب فيصفح، حتى جاء الأذن بالقتال **(أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير)** وتحرس الفكرة بالكلمة والقوة ـ و يدرب المجتمع الجديد في مصنع الرجولة بعد جهاد النفس، جهاد بالسيف، سرايا وغزوات، وتدين الجزيرة، و يؤمن الموطن والحياض، و يبدأ التفكير في الأبعد من الأرض والأبعد من السكان، انسجاماً مع شمولية الرسالة، ورغبة في الهداية، وتبدأ المراسلات مع حكام الأرض وملوكها، وعناو ين الرسائل ومحتواها أدب في الخطاب وطلب محدد (أسلم تسلم وإلا عليك أثم من تبعك) وتبدأ حركة التغيير، نظرة جديدة،

العنصر المتلقي، العنصر التابع، أصبح له دور جديد، يجيب من يجيب، و يرفض من يرفض، لقد بدأت دورة الزمن الجديد شعاراً ومضموناً ومن معالمها ـ الكلمة أولا للهداية ـ ومنع القوى المتسلطة التي تعيق وصول الكلمة للناس ـ منعاً يحقق الهدف ـ بوسيلته المشروعة (الجهاد)، حركة لرد الأذى عن الفكرة ـ وحركة لتأمين الطريق لكي يعرف الناس الفكرة وعندها (**لا إكراه في الدين**) ليبقى هذا الشعار عنوان التسامح والتعايش منذ ذلك الوقت مستمراً مرتبطاً بوجود المنهج وآثاره في النفس والمجتمع، وتكون مؤتة، بعد تبوك حركة على الأطراف ـ والأردن أرضها ـ ودماء الصحابة على ثراه ـ معركة التلاق ـ مع جنس آخر ـ كان التلاق الأول معرفة وتجارة، ومن بين الذين يشتركون الآن لا شك أعداد من التجار، تغير الدور ـ تغير الهدف ـ واستفيد من المعرفة ـ هكذا بدأت حركة الفتح في عهد النبوة المبلغة بواسطة الرسول البشر ـ والذي تجري عليه سنة الله في البشر ليغيب جسمه ـ و يبقى منهجه (**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**) ـ فتحدث القاصمة بموت الرسول ـ و يعجل الله بالعاصمة ـ ببدء مهمة الجيل الذي تربى في مدرسة النبوة، صلابة في الحق، عوناً للضعيف، إيقافاً للقوي المتمادي، حرصاً على الأمة ومالها، غير ضان برجالها وقود الفكر الذي يحيا بالدماء تدافع عن نقائه، توطد الأركان، وتستقر الدولة وتنطلق الجيوش في حركة ـ ما زال الباحثون مختلفين في تفسيرها لسرعة الانجاز وفرط التضحيات، حازت من الأرض موجة إثر موجة (وصيتهم لا تغدروا، لا تقتلوا شيخاً، ولا صبياً، ولا تحرقوا شجرة) الاسلام أولا، وتنقية المجتمع من غباش الفكر ـ صداماً يستوعب المتغيرات، يهضم الواقع ليشكله ـ بحضارة إنسانية جديدة ـ اطارها الاسلام ـ ولغتها العربية ـ ومكوناتها كل عناصر الخير عند كل الأمم، ونلمح اليرموك على أرض الاردن ترنو نحو مؤتة، تحصد نتاج تجربتها وتستفيد درسها، ليشكل العرب الفاتحون ملحمة البطولة على أرض أعزتها سيوف محمد لتسقط حمص ودمشق، وتتوحد بلاد الشام في ظل الاسلام وحدة أرض، ووحدة فكر وعقيدة. ومن مشارف اليرموك إلى الاردن ـ حيث الشواهد على التضحيات لمراقد الصحابة ـ عنوان الفتح الجديد ـ و يقطع النهر الى مغربه في عهد خليفة اقترن اسمه بالعدل، ليكون الفتح العمري لبيت المقدس إيذاناً بتحقيق الربط بين المسجد الحرام والأقصى ـ فتدخل القدس حظيرة الحكم العربي الاسلامي.

مولاي صاحب السمو الملكي
أيها العلماء الأفاضل
أيها السيدات والسادة

ذلكم شريط من الأحداث محفورة في ذاكرة التاريخ نلحظ فيه عناو ين عدة (النبوة، الجاهلية، الاسلام، الجهاد، الحضارة، العرب، الفتح، التمو يل، العلاقات الخارجية،

المراسلات، التنظيمات، الخلافة، المعاهدات، الاستيطان، الادارة، المصادر) كل هذا سيتناوله المؤتمرون بالدراسة، حصيلة التجربة والبحث.

والجامعات الأردنية منارات العلم لها دور المشاركة في عملية البحث والتأصيل، وما هذا المؤتمر إلا واحد من ثمار التعاون بين الجامعات الاردنية وجامعة دمشق.

وحصيلة كل هذا ليست كتبا تضاف إلى تصانيف، وندوات عدها كثير إنما العبرة بما يمكن أن يستفاد، وقضية التاريخ وأثره من أخطر القضايا التي تشكل أثراً في توحيد الرؤية أو تقليل مصادر خلافها، وفي تشكيل العقول نحو وجهة نحن بحاجة إلى استبانتها.

ثم ما هو نصيب مناهجنا من كل هذا، إن انتقاء الايجابيات وحدها أو السلبيات وحدها و بخاصة في المراحل الدراسية المتأخرة، أمر نرى أنه يتعاكس مع نظرية الباحث الذي يرى صورة الماضي (بما فيه) ليعرفها (بأسلوب الحاضر وما يقتضي).

وإننا في الوقت الذي نسعى فيه لمواكبة المعرفة وتنميتها في البحث عن ابرز المجالات التي يمكن من خلالها توظيفها لخدمة الانسان وإسعاده، نحس بأن معرفة التاريخ واحدة من أبرز هذه المعارف ـ ليس من أجل العبرة والتأسي فحسب، إنما من أجل الدرس واستيعاب آثاره، فكم من قيم تغيرت في فترة صدر الاسلام، وكم من موازين عدلت في انطلاقة الفتح، وكم من قواعد حضارية بنيت في هذا الخضم، وهكذا نرى أهمية تعميق الوعي لتوعية هذه القيم، التي عدلت الطبقية وعززت الانتماء، ورسخت مفهوم المجتمع لكل شيء، وليس المستهلك لكل شيء وعمقت أثر الحرية في استعمال العقل، واحترام رأي الآخرين، واستفادت من نتاج كل منتج للفكر وغيره، ضمن رحابة الفكر الاسلامي.

صاحب السمو الملكي

لقد حرصت سموك على دعم نتاج المؤتمر ولا زلت منذ بداياته، واعطيته من وقتك الشيء الكثير فلك منا الشكر والعرفان. وأنتم أيها العلماء الأفاضل يا من تجشمتم عناء السفر، أنتم في جامعات ترى فيكم صورتها لحب المعرفة، و يا أيها الأخوة من أعضاء اللجان والأمانة العامة للمؤتمر ولجان المتابعة شكراً لكم على جهد بذلتموه، وأنتم ترون نتاجه إسهاماً في المعرفة والتطبيق، والى أن نلتقي في مؤتمركم القادم إن شاء الله، نرجو لكم طيب الاقامة في بلدكم الأردن.

والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته

كلمة الدكتور محمد عدنان البخيت
عميد البحث العلمي في الجامعة
مقرر لجنة متابعة المؤتمرات

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال، ولي العهد المعظم رئيس المؤتمر

الأساتذة رؤساء الجامعات
أيها العلماء الأجلاء
أيتها السيدات والسادة

الحمد لله العلي القدير الذي أسعدنا بحضوركم أعمال هذه الندوة المتخصصة والمخصصة لتناول تاريخ بلاد الشام في صدر الاسلام: عهد نبي الله صلى الله عليه وسلم، وفي عهد خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين. حيث يجيء هذا اللقاء الخير امتداداً لجهد علمي شامل ومتكامل، متنام وماض نحو المستقبل، كنا قد بدأناه قبل عقد من الزمان وفاء من الجامعة الأردنية لرسالتها التي حددها الحسين العظيم. وأصبحت مؤتمراتنا – بعون الله – مثالا يحتذى من قبل بقية المؤسسات في الوطن العربي العزيز علينا، وأصبحت موعداً عزيزاً ينتظره أهل العلم والمعرفة بالفرحة والشوق. ليفيؤا إلى أردن الخير من كل فج وصوب، لاستجلاء صورة تاريخنا في المناخ الشريف النزيه المتوافر لدينا، بعيدين به وبهم عن كل هوى سياسي أو شرذمة إقليمية أو دعاوى طائفية وقبلية. إن فرحتنا بلقائهم هي عيدنا في إيلاء الأمانة حقها من البحث والكشف والتنقيب، وإرساء القواعد السليمة من أجل الاسهام في كتابة تاريخ العرب والمسلمين.

صاحب السمو الملكي

أيها الأفاضل

لقد أكرم الله بلادنا عندما مر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمن هنا مر نبي الله إلى بصرى، ومن هنا عرج رسول الله إلى السماء، هنا كان المسجد الأقصى قبل أن يقوم، وهنا إقطاع الداريين قبل أن يكون فتح، هنا استشهد جعفر، وهنا جاهد خالد، وهنا يرقد أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، وهنا ثوى سابق علماء الأمة معاذ بن جبل، وهنا مضى فارس الأمة ضرار بن الأزور.

لقد تربى هؤلاء الصحابة النجوم في المدرسة الايمانية الاسلامية، وخرجوا من بطاح مكة، ومن المدينة المنورة، طاهرين كيوم ولدتهم أمهاتهم، حاملين الاسلام في أفئدتهم ليبذروا الايمان بالله الواحد الأحد، وليحرروا الانسان من طاغوت نفسه، ولتصبح هذه البلاد إلى الآن لا شرقية ولا غربية، بل عربية إسلامية.

يقولون عن الأردن أنه بوابة الفتح، و يصفونه بأنه أرض اللقاء والتصادم بين الحق والباطل، هو حقاً كذلك، بل وأكثر من ذلك إنه العروة الوثقى التي لا ينفصم عراها، تجمع أهل الخير، وتبحث عن أهل الفضل، والحكمة هي ضالته المنشودة، يؤلف بين كل عناصر الخير لتنضم معه في مسيرة الخير.

وإننا بعملنا هذا الذي نقصد به وجه الله، وننشد به الحقيقة، نرى أنفسنا امتداداً لأمانة الأمة.

وإننا ننهج بهذا العمل خالصا لوجه الله وأن يكون من الاحسان إلى يوم الدين.

لقد كان العرب في بلاد الشام قبل البعثة يمثلون التبعية الحضارية إلا إنهم وبفضل الاسلام انتقلوا من مرحلة النسي المنسي إلى أن يصبح التاريخ بعضاً من شموخ إيمانهم، ينثرون فتوحاً، و ينشرون عقيدة، و يغرسون حضارة في ديار المعمورة، فأصبحت الأندلس شاماً ثانية.

أيها العلماء الأجلاء

اسمحو لي أن استمطر شآبيب الرحمة على أسلافنا من المؤرخين المحدثين، ومن المحدثين المؤرخين الذين ذاقوا حلاوة الصدق على لسان محمد، وأن أحيي ذكرى روادنا الذين حذقوا قواعد الحديث وأصول المدرسة التاريخية بمنهج حديث.

والتحية لكل من يصنع تاريخاً على أرض العرب، التحية إلى جلالة الملك الحسين المعظم راعي مؤتمرات بلاد الشام، والتحية أيضاً إلى صاحب السمو الملكي الأمير الحسن الذي يتابع بدأب واهتمام سير أعمال هذه المؤتمرات، و يعطي من وقته الشيء الكثير.

أيها الضيوف الأعزاء

من الأردن درب محمد، وطريق الحاج، والمزدان بالشيح والقيصوم والعابق بأريج النبوة، تحية لكم، ومرحباً بكم، والله يحفظكم، و يوفق مسعاكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فتح بلاد الشام «مؤشرات وإرهاصات»

إحسان عباس
لجنة تاريخ بلاد الشام- الجامعة الاردنية

أحاول في هذا البحث أن أتبين أنواع المؤشرات التي كانت تومىء إلى حدوث الفتوحات و بشكل أكثر تحديداً فتح بلاد الشام، فاصلا بين تلك المؤشرات و بين الحوافز على الرغم من التباسهما في بعض الاحيان. فالدافع المتصل بالجهاد ومنزلة من يصاب بكلم -فكيف بالاستشهاد- في سبيل الله (١) قد يكون حافزاً، ولكنه حين ينظر اليه من حيث اتصاله بدعوة الناس كافة للدخول في الدين قد يصبح ارهاصاً بأن ما بدأ لا بد من ان يستمر حتى يكتمل، وكذلك قل في الناحية الاقتصادية فانها قد تتخذ حافزاً، ولكن حين تقترن بمثل قول الرسول: «إن الله أعطاني كنز فارس والروم...» (٢). وما جرى مجراه، فانها تصبح بشارة بأمر قابل للتحقق. (٣).

والقابلية للتحقق تختلف باختلاف المؤشر: فاما أن تكون في حيز الاحتمال، واما أن تنتقل إلى حيز الضرورة -بمعنى الحاجة الملحة لا بالمعنى الفلسفي- واما أن تقع في دائرة الحتم. و بحسب هذه الدرجات التصاعدية، أحاول أن ادرس المؤشرات سواء أكانت عملية او قولية.

---

١. الشواهد من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف كثيرة و يكفي أن أورد قول الرسول الكريم «والذي نفسي بيده لا يكلم احد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، الا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح مسك» البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، ٩ج، في ٣م، دار احياء التراث العربي، بيروت، د. ت. ج ٤، ص ٢٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: صحيح البخاري. وقد أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجد والدارمي، وأورده مالك في الموطأ.

٢. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٠م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠ج، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧. ج٦، ص ٢١٢، ج ١٠، ص ٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مجمع الزوائد، الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، كتاب المغازي، ٣ج، تحقيق: مارسدن جونز، لندن، ١٩٦٦، اعادت تصويره مؤسسة الاعلمي للمطبوعات. ص ١٠١١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب المغازي.

٣. قد يحاول بعض الدراسين أن يهونوا من شأن الحافز الاقتصادي، ولكن الترغيب في الغنائم قد اقترن دائماً بالاستنفار إلى الجهاد، انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البدان، ٣ج، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج ١، ص ١٢٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

فمن أهم المؤشرات او الارهاصات العملية الخطوات العسكرية والحربية التي تمت في عهد الرسول، أي قبل بداية الفتوحات، وربما اتخذت دليلا على تصويب الأنظار نحو الحدود الشمالية المتاخمة للحجاز. ومن يتتبع هذه «الخطوات» فقد يحكم ـ كما حكمت هنا بحسب ما أوحت به المصادر ـ أن الرسول قبل فتح مكة لم يكن قد وجه اهتماماً مدروساً للمنطقة الواقعة الى شمال المدينة، ولهذا كانت كل التحركات التي تمت في تلك المنطقة في العامين ٦٢٩، ٦٣٠ نوعاً من رد الفعل، فهي في مجموعها تعد ضرباً من أعمال تأديبية أو احتياطية. كذلك أقدر ان يكون ذلك هو نوع الدافع الى ذات أطلاح (٤) التي لا تفصح المصادر عن سببها المباشر، كما تفعل في حال مؤتة التي كان سببها مقتل الحارث بن عمير الأزدي على يد شرحبيل بن عمرو الغساني، والحارث في طريقه الى ملك بصرى حاملا اليه كتاباً من الرسول، (٥) وكما تفعل في ذات السلاسل اذ تمت هذه الغزوة لما بلغ الرسول أن جمعاً من بلي وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف المدينة (٦). وقد منيت الغزوتان الأوليان بالاخفاق، كما أن ما حققته الثالثة غير واضح تمام الوضوح، ومع ذلك فان هذه الغزوات فيما يبدو أشعرت القبائل الواقعة الى شمال المدينة بحاجتها الى مسالمة الرسول، وبذلك اطمأن الرسول الى أنه لا يخافها على المدينة إذا هو اضطر إلى توجيه قوته العسكرية في اتجاه آخر، كما أثبتت الحوادث بعد قليل، حين وجد نفسه على أهبة التوجه لفتح مكة.

ويبدو أن تطلعات الرسول إلى ما وراء حدود الجزيرة اتسمت بطابع الدعوة السلمية قبل الفتح، إذ اقتصر على إرسال الرسل إلى الملوك والامراء: فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر وشجاع بن وهب الاسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني (٧) ملك تخوم الشام (وقيل إلى جبلة بن الأيهم)، ويدل إرسال الرسل على أن الدعوة لم تكن مقصورة على العرب في الجزيرة، وانما كانت موجهة لتجاوزها، فالغاية الكبرى هي نشر الاسلام، ولهذا

---

٤. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، السيرة النبوية، ٤ ج، في ٢ م، تحقيق مصطفى السقا ورفيقه، القاهرة، ١٩٥٥، ج ٢، ص ٦٢١. سيشارلهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة، كتاب المغازي، ص ٧٥٢ (واعتماد الغزوة على خمسة عشر رجلا، قد يعني أنها كانت تأديبية أو محاولة جس نبض ولم تكن جزءاً من تخطيط شامل).

٥. ابن هشام، السيرة، ج ٢: ٣٧٣؛ كتاب المغازي، ٧٥٥؛ ابن سيد الناس، محمد بن محمد (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م) عيون الأثر في فنون المغازي والسير، ٢ ج، مطبعة القدسي، القاهرة ١٣٥٦. ج ٢، ص ١٥٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: عيون الأثر.

٦. كتاب المغازي، ص ٧٦٩؛ ابن هشام، السيرة، ج ٢، ٦٢٣، ان الرسول بعث عمرو بن العاص «يستنفر العرب إلى الشام» وذلك تعبير غامض، وانظر عيون الأثر، ج ٢، ص ١٥٧، ص ٢٧٠.

٧. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، طبعة E. J. Brill، ١٩٦٤، ج ١، ص ١٥٦٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.
وفيه أنه بعثه إلى المنذر بن حارث بن أبي شمر.

كان نص الكتاب إلى قيصر «أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام، اسلم تسلم، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين (٨)» كما جاء في رسالته الى الملك الغساني «واني أدعوك الى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له» (٩) و يهمنا من هاتين الرسالتين قوله في رسالته إلى قيصر «فان توليت فعليك اثم الأريسيين» وفي رواية أخرى «فان أبيت فتخلي عن الفلاحين فليسلموا أو يؤدوا الجزية». (١٠) وسواء أكانت لفظة الأريسيين تطابق لفظة «الفلاحين» أو لا تطابقها فان المهم في هذا المقام هو محاولة الرسالة الفصل بين الحاكمين (البيزنطيين) والمحكومين (من السكان الأصليين) و يلفت النظر في رسالة النبي الى زعيم غسان أنه ربط بين اسلامه وابقائه على ملكه، لانه ليس حاكماً أجنبياً، ولأن استجابته إلى الاسلام اضعاف للحلف القديم بين بيزنطة وغسان.

وبعد الفتح دخلت قبائل المناطق الشمالية في علاقة أوثق مع المدينة، اذ جاءت وفود من تلك القبائل ـ قبل تبوك و بعدها ـ معلنة اسلامها، فجاءت وفود: سعد هذيم وبلي وبهراء وعذرة وكلب وغسان وجذام، (١١) وكان بعض هذه القبائل قد أسلم قبل الفتح. و يجب أن نتذكر أن الحركة التجارية بين الشام والمدينة لم تتوقف، «فكانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط». (١٢) و يبدو أن ارتداد الرسول عن مكة وقبوله ببيعة الحديبية ثم فتح مكة بعد ذلك صاحبته تخوفات وتحريضات، استغلت ما يمكن أن نسميه «حرب الشائعات». ماذا يكون رد الفعل اذا اشيع أن محمداً (عند صده عن مكة) قد انتكست دعوته، ولحقته الهزائم وهلكت أموال أتباعه (١٣)؟ ان اصحاب المصلحة في نشر هذه الشائعة ـ إن صحت الرواية ـ هم قريش، وان كان الذي نسبت اليهم اذاعتها هم نصارى العرب. وماذا يكون رد الفعل ان أشاعت الروم ـ عن طريق التجار الذاهبين الى مكة ـ أن جموعاً كثيرة قد اجتمعت لغزو الحجاز «وان هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة، وزحفوا وقدموا مقدمتهم الى البلقاء وعسكروا بها»؟ (١٤) في كلتا الحالتين كان المقصود النهائي هو

---

٨. صحيح البخاري، ج ٤، ص ٥٧ وقد أورده مسلم والترمذي أيضاً؛ وانظر عيون الأثر، ج ٢؛ ص ٢٦٠؛ ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، تحقيق محمود الأرناؤوط، بيروت، ١٩٨٣، ص ٦٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اعلام السائلين.

٩. عيون الأثر، ج ٢، ص ٢٧٠؛ وانظر اعلام السائلين، ص ١٠٢.

١٠. وردت الرواية الأولى في البخاري، أما الثانية فجاءت في كتاب السنن لابن سعيد المروزي، أبو عثمان سعيد (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤١م)، منشورات المجلس العلمي، ١٩٦٨، ج ٢، ص ٢٠٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب السنن.

١١. ابن سعد، ابو عبد الله محمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبري، ٨ ج، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥. ج ١، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبقات الكبرى.

١٢. كتاب المغازي، ص ٩٨٩.

١٣. مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١٩١.

١٤. كتاب المغازي، ص ٩٨٩.

تخو يف المسلمين، إذ لم يكن للشائعتين أي نصيب من الحقيقة، ولكن الثانية منهما ترتبط بخروج الرسول الى تبوك، من غير أن يتجاوزها، حيث قضى هنالك بضعة عشر يوماً دون أن يخوض معركة ولكن تلك الغزوة على جانب كبير من الاهمية لأنها محصت الجماعة الاسلامية وميزت المؤمن من المنافق، و يمكننا أن نجد في أولئك المنافقين ـ سواء منهم الذي شارك في الغزوة والذي لم يشارك ـ جماعة كانت تربطهم بالروم روابط قديمة ومصالح تجارية، ذلك لأن الرسول حين أمر الناس بالتجهز للغزو كان أفهم الناس أنه متوجه لحرب «بني الأصفر» ـ أي الروم ـ لا للتوقف عند تبوك. كذلك فان تلك الغزوة تكفلت بادخال من تبقى من قبائل المناطق الشمالية في الدين الاسلامي، أو بقبول من كان كتابياً بدفع الجزية كما حدث في أيلة ومقنا وجرباء وأذرح، فاصبحت المنطقة الممتدة، شرقاً من دومة الجندل حتى أيلة على الساحل غرباً وحتى تخوم البلقاء شمالا ومشارف وادي القرى جنوباً توالي المدينة ولاء أعمق من ذي قبل. وهكذا انقسمت تلك القبائل انقساماً مؤقتا، فما كان من جذام أو بلي أو بلقين ـ مثلا ـ في عمق الشام ظل موالياً للروم. وما كان من هذه القبائل نفسها في المناطق الشمالية والشرقية من الجزيرة فقد اختار الولاء الجديد ولعل تشعب هذا الولاء هو الذي اضعف ـ من بعد ـ مقاومة القبائل العربية الباقية على ولائها للروم ضد الفاتحين، لأن أفراد تلك القبائل بحكم العصبية ـ لا يريدون الوقوف في وجه اخوانهم الذي اسلموا ووالوا المدينة.

هل يمكن ان نعد هذه الاعمال كلها ـ من ذات أطلاح حتى تبوك ـ مؤشراً على ان فتح الشام كان يبدو وكأنه امر حتمي، أو ضروري، أو محتمل؟ ان دخول جميع هذه الاعمال العسكرية في نطاق رد الفعل ـ حتى تبوك كانت كذلك، وحتى سرية أسامة كانت ايضاً كذلك ـ تدل على ان الرسول لم يتخذ تلك المبادرات الحربية ضمن خطة كبرى محددة الاهداف تتجاوز اخضاع القبائل العربية (التي لا يقبل منها إلا الاسلام) الى خوض حرب ضد الروم، واذا أردنا أن نعدها كذلك فعلينا أن نخرجها من حيز رد الفعل، وذلك بأن نعيد النظر في الروايات ونمحصها من منظور جديد. ولو قيل ان هذه المبادرات وجهت أنظار المسلمين الى ما يتجاوز حدود الحجاز الشمالية، لكان الرد على ذلك أن الشام كانت معروفة لديهم، وأن أنظارهم كانت موجهة اليها منذ أن قامت العلاقات التجارية بين البلدين. ولقد كانت هذه التحركات الاولية مظنة إثارة الحذر لدى الروم وحلفائهم، والتنبه لخطر آت من الجنوب، والاستعداد لصده (أي أنها كانت قادرة على أن توجد عقبات في سبيل الفتح حين يأتي موعده) ولكنها لم تفعل ذلك؛ ولعل التنبه الوحيد الذي حدث كان هو اقامة رابطة في البلقاء على أثر الغزوة التي قام بها أسامة، بعد وفاة الرسول.(١٥) ولهذا ومن هذه الناحية فقط يمكن أن تعد مؤشراً على ما كانت تعانيه بلاد الشام من ضعف في السلطة المركزية وفي الادارة الرومية، بحيث يصبح الفتح إزاءها أمراً واقعاً في نطاق

١٥. كتاب المغازي، ص ١١٢٤.

الاحتمال. وكان أبو بكر هو الذي نقل ذلك الفتح من مرحلة الاحتمال الى مرحلة الضرورة، لأسباب أخرى كان في مقدمتها ايمانه بضرورة نشر الدين، و بضرورة تجنيب القبائل التورط في الصراعات الداخلية. وكان واضحاً لأ بي بكر ولكثيرين من الصحابة ان الشام امتداد لجزيرة العرب اذ تكاد الصبغة العربية أن تكون غالبة عليه، بسبب انتشار القبائل فيه منذ عهد بعيد، ففتح الشام هو تخليص لتلك القبائل من سيطرة الحكم الأجنبي. والشام ـ كما يقول فرد دونر(١٦) ـ هو مهد رسالات كثيرة بشرت بـ«الاسلام» قبل أن يختتم محمد تلك الرسالات، فعودته الى الاسلام ضرروة لا بد منها، بالاضافة الى أن فيه أولى القبلتين، ومنه عرج النبي الى السماء.

ومما يؤكد أن الفتح ظل في عهد الرسول حقيقة محتملة ما ذكرته عن ارساله الرسل الى قيصر وصاحب بصرى، وهذا معناه التفاوض وفقاً لشروط معينة، وليس من المحتم أن ينتهي ذلك التفاوض الى حرب، كذلك فان اقطاع الرسول لتميم الداري أرضاً في بلاد الشام، وهي لم تفتح بعد، انما يندرج ـ أول الأمر ـ في خانة الاحتمال، اذ جاءت صيغة الطلب مصدرة بـ«ان، قال تميم: لنا جيرة من الروم لهما قريبان يقال لاحداهما حبرى والاخرى بيت عنو ين فان فتح الله عليك الشام فهبهما لي».(١٧)

غير أن لدينا نصوصاً ـ من عهد الرسول ـ تخرج فتح الشام (وغيرها) من دائرتي الاحتمال والضرورة لتضعه في دائرة الحتم، وأعني بذلك تلك الأحاديث التي ينبيء فيها الرسول أمته بأن الفتح آت لا محالة. و يجب الاسراع الى القول بأن صبغة التنبؤ التي تشمل تلك الاحاديث الصحيحة، يجعلها مقبولة مصدقة على صعيد آخر، ومن هنا كان لا بد من دراستها بدقة، وربطها بفتح الشام، وخاصة أن الذين تداولوها، قبيل الفتح أو أثناءه أو بعده، كانوا يؤمنون بها على نحو لا يقبل شكا أو ترددا.

ولست أود أن أتعرض هنا لنوعين من الأحاديث:

١ ـ الأحاديث التي تتحدث عن فضائل المدن، مثل: عن ابن عباس قال رجل لرسول الله إني اريد الغزو، فقال له رسول الله عليك بالشام واهله، ثم الزم من الشام عسقلان،

١٦. Fred Donner, The Early Islamic Conquests, Princeton University Press, 1981, p. 97،
سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: .The Early Islamic

١٧. الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٣٤٤ وعلينا أن نلحظ أن الروم هنا هم أصحاب تينك القريتين وليس بعض الفلاحين أو الملاك الأصليين.

فانه اذا دارت الرحى في أمتى كان أهل عسقلان في راحة وعافية،[١٨] ومثل: انكم ستغلبون على الشام وتصيبون على بحرها حصناً يقال له انفه، يبعث منه يوم القيامة سبعون الف شهيد[١٩]، ومثل: عليكما بالشام فانها صفوة بلاد الله.[٢٠]

٢ ـ الأحاديث التي تقترن بالملاحم وأشراط الساعة، فهذه لا علاقة لها بالفتح، مثل قوله: ستصالحون الروم صلحاً آمناً فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم[٢١]، ومثل قوله: إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة الى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام (وهذا أيضاً يضاف الى الأحاديث التي تتصل بفضائل المدن).

وعلى الرغم من استبعاد هاتين الفئتين من الأحاديث، يبقى لدينا عدد كبير منها، تحفل بها كتب الأحاديث والسنن والمسانيد والمصنفات،[٢٢] ولعل أقدمها من حيث الزمن ـ وان كان معظمها لا يمكن أن يعين له تاريخ ـ هو حديث الصخرة المستعصية في أخبار غزوة الخندق، وكانت في شهر شوال سنة خمس للهجرة، ونص الحديث كما جاء في السيرة: «قال ابن اسحاق: وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت علي صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، قال ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، قال: ثم ضرب الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى، قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟: قال أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت نعم، قال: أما الاولى فان الله فتح بها علي اليمن، وأما الثانية فان الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما

١٨. ابن عساكر، ثقة الدين ابو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ دمشق، ج ١، تحقيق شكري فيصل، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٦. ص ٨٦، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تاريخ دمشق.

١٩. مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٦٢ وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه.

٢٠. مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٥٩، رواه الطبراني وأسانيده كلها ضعيفة.

٢١. ابو داود، سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) سنن أبي داود، ٢ ج، القاهرة، ١٩٥٢، ج ٢، ص ٤٢٤، ٤٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: سنن ابي داود، وانظر حديثا مقاربا في مجمع الزوائد، ج ٦، ص ٢١٩.

٢٢. جمع ابن عساكر في تاريخ دمشق عدداً كبيراً منها، وانظر السيوطي، جلال الدين أبو بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٣ ج، القاهرة، ١٣١٤هـ، ج ٣، ص ١١١، ١١٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الدر المنثور عند تفسير الآية «التي باركنا فيها» من سورة الأعراف، وكتب الفضائل، مثل فضائل الشام للربعي، والكتب المؤلفة في فضائل بيت المقدس، بالاضافة إلى المصادر الخاصة بالحديث النبوي.

الثالثة فان الله فتح علي بها المشرق[٢٣].

وتتفاوت صور هذا الحديث تفاوتاً واضحاً، فبينا تكون النبرة واضحة في حديث سلمان هادئة إخبارية، تجيء في حديث البراء بن عازب عالية مستبشرة: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله اني لأبصر قصورها الحمر من مكاني... الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا.[٢٤] وتقارب هذه الصورة ما جاء في حديث عن عبد الله بن عمرو، فهناك تكبيرة مصاحبة لكل ضربة، و بشارة بفتح فارس والروم، الا ان فتح اليمن يختفي تحت عبارة جديدة هي «جاء الله بحمير أعواناً وأنصاراً».[٢٥] وواضح ان اليمن لم تكن قد فتحت حين جرت معركة الخندق، فالتبشير بفتحها طبيعي، ولكن اليمن لا تكون مشكلة كالتي تمثلها فارس والروم، وقد دخلت في الاسلام والرسول حي فأهلها قد جاؤا «أعوانا وأنصاراً»، وهذا يعني أن كلا من الحدثين يؤرخ مرحلة مختلفة عن الاخرى؟ غير أن أعلى نبرة يبلغها هذا الحديث تتمثل في رواية أوردها الطبري في تاريخة، فالبرقة ليست عادية وانما «أضاء ما بين لابتيها ـ يعني لابتي المدينة ـ حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم» والتكبير لا يقتصر على الرسول وانما يردده المسلمون، والرواية للبرقة لا ينفرد بها سلمان، وإنما يراها جميع المسلمين الحاضرين هنالك «رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج» وفي الضربة الأولى أضاءت قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب« فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها»، وفي الثانية أضاءت قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وفي الثالثة أضاءت قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب (ثم التبشير بالنصر ثلاثاً)[٢٦]. وتنخفض النبرة كثيراً في حديث أورده النسائي عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فالضربات ثلاث، والبرقة تنطلق ثلاثاً، والرسول يقول أثر كل برقة «تمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكماته» فاذا سأل سلمان الرسول عن البرقات أخبره أنه في الاولى رفعت له مدائن كسرى حتى رآها وما حولها بعينيه، وفي الثانية مدائن قيصر (ولا ذكر لليمن) ـ وهنا يدخل الحديث في مجال جديد لم نجده في الروايات السابقة، إذ أنه يتجاوز قضية الاخبار بالفتح و ينسب إلى المسلمين سؤالهم الرسول أن يدعوا لهم بفتح تلك المدائن: «قالوا يا رسول الله ادع الله أن

٢٣. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٢١٩؛ وانظر عيون الأثر، ج ٢، ص ٥٨؛ مغازي عروة، جمع محمد مصطفى الأعظمي، الرياض ١٩٨١، ص ١٨٥، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مغازي عروة، ابن كثير، عماد الدين ابي الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، ١٤ج، مكتبة المعارف بيروت، ١٩٦٦، ١٩٦٧. ج ٤، ص ٩٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البداية والنهاية.

٢٤. مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١٣٠، ١٣١ قال: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله وثقه ابن حيان وضعفه جماعة و بقية رجاله ثقات.

٢٥. مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١٣١ ورواه الطبراني باسنادين في أحدهما حيي بن عبد الله وثقه ابن معين وضعفه جماعة و بقية رجاله رجال الصحيح.

٢٦. الطبري، تاريخ، ج ١، ص ١٤٦٨، ١٤٦٩.

يفتحها علينا و يغنمنا ديارهم و يخرب بأيدينا بلادهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك». (٢٧) ولا ريب في أن الانتقال من البشارة بالفتح الى الدعاء بالفتح يمثل مرحلتين بينهما بون بعيد. فالحديث في صورته عند النسائي ليس فيه أخبار بأحداث ستتم في المستقبل.

وعلى هذا الأساس الذي يستلهم من حديث النسائي يمكن توجيه مجموعة كبيرة من تلك الأحاديث تحمل في ظاهرها طابع الاخبار بأمور سوف تقع، ولكنها في حقيقتها قد تتضمن معنى الدعاء أو الرجاء. وقبل أن أنتقل إلى دراسة هذه الفئة لا بد من أن أشير إلى أن حديث الكدية المستعصية عند حفر الخندق قد أورده البخاري بطريق جابر، وكل ما ذكره هنالك أن النبي أخذ المعول فضرب فعادت الكدية «كثيباً أهيل أو أهيم» (٢٨) وليس فيه ذكر لبرقة أو رؤية لأية مدائن أو أخبار بما سيتم أو دعاء بان يتم، فحديث «الكدية» في الخندق يبلغ مستوى الخبر البسيط في نبرته عند البخاري، وهذا أمر جدير بالتوقف والتأمل.

أعود الآن الى تلك الفئة من الأحاديث التي يكون ظاهرها الاخبار بالغيب ولكنها قد تتضمن معنى الدعاء او الرجاء وما أشبه، فمن ذلك قول الرسول حين بلغه أن كسرى مزق كتابه: «مزق ملكه» (٢٩) او قوله: «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر...» (٣٠) فهذان الحديثان وان كانا يحملان صورة النبوة، فانهما يتضمنان أيضا معنى الدعاء أو الرجاء، ومثل ذلك حديث أم حرام ــ وهو من أصح الأحاديث على وجه يقيني ــ وروايته في البخاري عن أنس بن مالك عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت، قال: نام النبي صلى الله عليه وسلم يوماً قريباً مني ثم استيقظ يبتسم فقلت: ما أضحكك، قال: أناس من أمتي عرضوا علي يركبون هذا البحر الاخضر، كالملوك على الأسرة، قالت فادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها...» (٣١). فالرؤيا في حال الرسول جزء من أجزاء الوحي حقاً، ولكن هذا لا يتعارض وعدها ــ من حيث طبيعتها ــ تعبيراً عن الرجاء. وهنالك فئة

٢٧. سنن النسائي ج ٦، ص ٤٣، ٤٤ وفي الحديث ذكر للحبشة (بدل اليمن) في الضربة الثالثة، وقول الرسول: دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم.

٢٨. صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٣٨.

٢٩. احمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) مسند الامام احمد بن حنبل، ٦ ج، المكتب الاسلامي، بيروت، صورة عن الطبعة المصرية التي صدرت سنة ١٣١٣٠هـ. ج ٣، ص ٤٤٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مسند احمد وقد جاء بصيغته «والله ممزقه وممزق ملكه».

٣٠. صحيح البخاري، ج ٤، ص ٧٧.

٣١. صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢١؛ ابن مالك ابو عبد الله المروزي (ت ١٨١هـ/٧٩٥م) الجهاد، تحقيق نزيه حماد، دار النور، بيروت، ١٣٩١هـ. ص ١٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الجهاد. وقد اخرجه مسلم وابو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي والبيهقي، وليس فيه إلا اختلافات لفظية يسيرة (وانظر ايضاً صحيح البخاري ج ٤، ص ١٩، ص ٢١، ص ٣٩).

أخرى من الأحاديث تحمل معنى التخوف الذي يصيب الامة حين تنتقل من حال الفقر إلى حال الغنى مثل حديث عوف بن مالك: «آلفقر تخافون أو العوز أو تهمكم الدنيا فان الله فاتح لكم أرض فارس والروم وتصب عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغكم بعدي ــ إن أزاغكم ــ الا هي» (٣٢). ففي هذا الحديث إنباء بالفتح، ولكن من غاياته أيضاً التحذير من الركون إلى الدنيا، ومن ذلك قوله: «إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم» (٣٣). أو قوله: «كيف أنت يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه؟ قال ثوبان: بأبي وأمي يا رسول الله أمن قلة بنا؟ قال: لا أنتم يومئذ كثير، ولكن يلقي في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حبكم الدنيا وكراهيتهم للقتال» (٣٥). فمثل هذه الأحاديث تشير إلى فهم دقيق للنفسية الانسانية، في انتقالها من حال إلى حال، والى التنبه والتذكير والانذار لتلافي التغير نحو الأسوأ.

وفي معظم الأحاديث التي مرت بنا إنباء بفتح الشام (وغيرها) مهما تختلف نقطة التركيز في حديث دون آخر، ولكن أقواها حديث ارجأت الكلام فيه، و يمكن أن نسميه «حديث الأجناد» وترجع طرقه الى ثلاثة: عن عبد الله بن حوالة، وعن واثلة بن الأسقع، وعن أبي الدرداء، مرفوعاً إلى الرسول، وهؤلاء جميعاً نزلوا الشام، ولذلك يمكن ان نعد حديث الأجناد خاصاً بـ«المدرسة الشامية». وسأقتصر هنا على طريق واحدة من الثلاث

وهي التي تصل الى عبد الله بن حوالة، فأن دراستها تغني عن التعرض للطرق جميعاً، و بخاصة ان الطرق الى ابن حوالة متعددة، فقد رواه عن عبد الله: أبو ادريس الخولاني (وعنه مكحول وربيعة بن يزيد) و يسر بن عبيد الله الحضرمي وجبير بن نفير الحضرمي وأبو قتيلة مرثد وداعة العمى وسليمان بن سمير وآخرون غيرهم (٣٦) وهؤلاء جميعاً شاميون أيضاً، وكلهم ثقات لا يعرف لأحد فيهم جرحة، وسأثبت هنا صورة واحدة من الحديث لمعرفة العناصر التي يتكون منها: مكحول عن ابي إدريس الخولاني عن أبي حوالة «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستجندون أجناداً: جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن، فقمت فقلت: خرلي يارسول الله، فقال: عليكم بالشام، فمن أبى فليلحق بيمنه،

٣٢. مسند أحمد، ج ٦، ص ٢٤ وانظر تاريخ دمشق، ج ١، ص ٦٥ ــ ٦٦، ٦٧ وفيه «وحتى يعطي الرجل مائة دينار فيتسخطهما».

٣٣. أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م)، غريب الحديث، ج ١، مصورة عن طبعة حيدر أباد، بيروت، ١٩٧٦. ص ٢٢٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: غريب الحديث. والمطيطاء: التبختر ومد اليدين في المشي.

٣٥. مسند أحمد، ج ٢، ص ٣٥٩.

٣٦. تاريخ دمشق، ص ٦١.

وليستق من غدره، فان الله قد تكفل لي بالشام وأهله»(٣٧) وتكاد هذه الصورة أن تمثل معظم الطرق التي نقل بها الحديث. فهي تتضمن الأخبار بقيام اجناد، وفي معظم الروايات ذكر للأجناد الثلاثة: الشام، والعراق، واليمن، إلا أن روايته عن طريق سلمان بن سمير تضيف «والله أعلم بأيها بدأ»(٣٨) ــ أي أنه لا يعرف الترتيب الذي ذكرت فيه الأجناد على وجه الدقة (وفي هذا التردد ما قد يزحزح الشام عن المنزلة الأولى) وفيه دائماً أن عبد الله ابن حوالة هو الذي سأل الرسول أن يختار له، فاختار له الشام، و يضيف «فمن أبى فليلحق بيمنه وليستق من غدره. وهذا يبدو أول الأمر غامضاً لأن اليمن أحد الأجناد الثلاثة، فما معنى يلحق بيمنه؟ ولكن مما قد يخفف من هذا الغموض أن الحوالي المخاطب أزدي يمني، فكأن الامر ينصرف اليه والى قومه دون سواهم، فان ابيتم (فالحقوا بيمنكم واسقوا بغدركم).

غير أن هذا الحديث لم يبق على هذه الصورة البسيطة بل دخلت فيه عناصر جديدة، فأصبحت: «عليك بالشام» تكرر مرتين أو ثلاثاً، وأصبح الذين يتحدث اليهم الرسول جماعة لا فرداً واحداً اسمه عبد الله بن حوالة، وهم يقولون في جدلهم «انا أصحاب ماشية وعمود ولا نطيق الشام»(٣٩) (يريدون أنهم متنقلون في الرعي، والشام ديار فلاحة واستقرار) ثم يحرز الشام تمييزاً جديداً «فانه خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده» او «فانه خير دار المسلمين وصفوة من بلاده، يجتبي إليها صفوته من خلقه»(٤٠).

فاذا عددنا الصورة الاولى أصلا للحديث، فان الثانية حملت تطوراً فيه، واذا قبلنا كل شيء في الصورة المتطورة فلا بد أن نتساءل ــ في أقل تقدير ــ لماذا يكون خيرة الله من عباده في الشام؟ على أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل اذا جاز لنا أن نحسب كل إسهاب جديد تطوراً، فان هناك صورة ثالثة حملت معها اضافات جديدة في الصيغة والمحتوى. وهذه الصورة مروية أيضاً عن عبد الله بن حوالة، ورواها عنه جبير بن نفير الحمصي، وهو ثقة من كبار التابعين: و يستند النص الجديد الى التخوف من كثرة المال بعد أن شكا بعض الناس إلى الرسول الفقر والعري، ثم البشارة بفتح أرض فارس والروم

---

٣٧. تاريخ دمشق، ص ٤٧ وقارن بسنن أبي داود، ج ٢، ص ٤؛ ومجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٥٨، ٥٩: السمعاني، عبد الرزاق المصنف، ١١ ج، تحقيق حبيب الاعظمي، منشورات المجلس العلمي، ج ١١، ص ٢٥٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المصنف؛ والمزي، جمال الدين ابو الحجاج يوسف (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)، تحفة الاشراف بمعرفة الاطراف، ٣ ج، بمباي، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ج ، ص ٤، رقم ٥٢٤٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تحفة الاشراف.

٣٨. تاريخ دمشق، ص ٧١.

٣٩. تاريخ دمشق، ص ٦٤.

٤٠. تاريخ دمشق، ص ٦٨ ص ٧٠، وهذه الصيغة الاخيرة عن العرباض بن سارية عن النبي (ولكن عبد الله بن حوالة غير غائب عن هذا الحديث أيضاً).

وأرض حمير، وعودة إلى الحديث عن الأجناد الثلاثة، والمبالغة عن تدفق المال تقف عند «مائة دينار» يعطاها المرء فيتسخطها. وعندئذ يتصدى ابن حوالة للتساؤل: ومن يستطيع الشام وبها الروم ذات القرون (لأول مرة يرد الايحاء بأن الروم دولة قوية لا طاقة للجماعة الاسلامية بها) فيرد عليه الرسول قائلا: والله ليستخلفنكم الله فيها حتى تظل العصابة منهم، البيض قمصهم، المحلقة (أو المحلوق) أقفاؤهم قياماً على الرجل الأسود منكم وما أمرهم فعلوا، وان بها اليوم رجالا لأنتم اليوم أحقر في أعينهم من القردان في أعجاز الابل (ثم بقية الحديث تشبه ما جاء في الصورة الثانية)(٤١). (وزاد علقمة نصر بن علقمة أن الرسول أقسم في هذا الحديث ثلاثاً ولا نعلم أنه أقسم في حديث مثله)(٤٢).

حين نعود فنضع «حديث الأجناد» إزاء حديث «كدية الخندق» نلحظ أموراً مشتركة، في أولها الظاهرة الثلاثية: فالضربات (كالبرقات، كالتكبيرات) ثلاث والأجناد ثلاثة و«عليك بالشام» عبارة تتردد ثلاثاً (في الصورة الثانية من الحديث)، والاهم من ذلك أن كلا من الحديثين يتطور في درجات ثلاث: يتم فيها تكبير الصورة بالتدريج، وفي الصورة الثالثة تعلو الناحية التصويرية أو الحوارية، حتى تتميز بمستوى فني لم يتوفر في المرحلتين السابقتين.

إن هذا النسق الثلاثي بحاجة إلى تعليل، فاذا قلنا أن ثلاثية الضربات والتكبيرات والبرقات والأقسام، وما أشبه، ضرب من التأكيد، فهذا لا يعلل وقوع الحديث في ثلاث صور متفاوتة، واذا رددنا تفاوت الصور الثلاث وتدريجها إلى طبيعة الرواية الشفوية جاز لنا أن نعد الصورة الثالثة المسهبة أساساً، أسقطت منها الذاكرة بعض التفصيلات، وهذا أمر مألوف كثيراً وغير مستبعد(٤٣). وعلى هذا يكون لدينا فرضان كلاهما محمول على طبيعة الرواية الشفوية: الايجاز بالحذف لسهو أو نسيان أو غير ذلك، والاطناب باضافة تحليات «تُجمل» الصورة وترضي النزعة الفنية، و بأي الفرضين أخذنا يظل أصل الحديث صحيح النسبة.

ومهما يكن من شيء فان «حديث الأجناد» أشد خصوصية من حديث «كدية الخندق»، فبينا يمثل الثاني بشارة عامة، يحدد الأول طبيعة الفتح بوجود «أجناد» فاتحة، و يشدد التركيز على «الشام» و يتجاهل العراق. ولا بد أن نفترض أن الحديث لم يذع بين جماعات كثيرة إبان صدوره، إذ لو كان شيوعه واسعاً لوجد الذين يؤمون وجهة العراق حرجاً في عدم الالتزام بما نصح به الرسول. و يبدو أن ذيوعه بين الفئات الكثيرة (الشامية على وجه الخصوص) إنما كان نوعاً من «الاسترجاع التذكري» لصدق ما أخبر به الرسول.

إن هذا الحديث وأمثاله نقلت أمر الفتح من حالة الاحتمال إلى حالة الحتم كما قلنا من قبل، ولكنه حتم محدود، اذا أخذنا بأن ذيوع أمثال هذا الحديث كان مقتصراً على أفراد

---

٤١. تاريخ دمشق، ص ٦٦، ص ٦٧.

٤٢. تاريخ دمشق، ص ٦٧.

٤٣. ورد حديث ابن حوالة مقتصراً على الكلمتين التاليتين «عليك بالشام» تاريخ دمشق، ص ٦٣.

بأعيانهم لا على الجيوش المحاربة جميعاً.

على هذه الأسس التي بينتها يستطيع المؤرخ أن يفيد من مجموعة الاحاديث التي تنبيء بوقوع الفتوحات، بتمييز ما هو تفاؤلي أو تحذيري أو إخباري بيقين، ولا ننسى ارتباط ذلك كله باذكاء الروح المعنوية عن طريق القول الصادق المصدق، وهي في ذاتها غاية كبرى تتخذ وسيلة لغايات أسمى.

مصادر الفتوحات العربية لبلاد الشام

كوركيس عواد
المجمع العلمي العراقي ــ بغداد

يضم هذا البحث «ثبتاً» ينطوي على جملة صالحة من أسماء المصادر والمراجع العربية والأجنبية المتعلقة بالفتوحات العربية لبلاد الشام. والمراد ببلاد الشام هنا، المنطقة العربية الفسيحة الأرجاء، التي تشمل اليوم كلا من: سورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين.

تدور هذه المصادر، على أخبار «الفتوحات العربية» التي جرت في هذه الأقطار، خلال عهد الخلفاء الراشدين (١١ ــ ٤٠هـ = ٦٤٢ ــ ٦٦٠م) والأمويين (٤١ ــ ١٢٧هـ = ٦٦١ ــ ٧٤٤م)، وما حصل من حروب ووقائع عسكرية طوال تلك الفترة، بين العرب المحررين والروم البيزنطيين المستعمرين.

فقد كان معظم سكان هذه الأقطار عرباً، يتكلمون العربية، ومن ثمة، فان الفتح العربي لتلك البلاد، لم يكن بقصد الاستيلاء عليها، بل جاء لتحريرها من أيدي المستعمرين البيزنطيين الذين احتلوها في أزمنة ماضية، وبقيت مغتصبة تحت حكمهم قروناً عديدة من الزمان.

ولاعداد هذا البحث، رجعنا الى مصنفات كثيرة، كتبها مؤلفوها قديماً وحديثاً. ومن تلك المصنفات، ما كان «كتابه» كبير الحجم، أو متوسطة، أو صغيره. ومنها ما كان «مقالة» نشرت في بعض المجلات، على ما سيرى القاريء.

رتبنا مواد هذا «الثبت»، وفقاً للأسماء التي اشتهر بها كتابها. فأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، يرد في مادة «البلاذري». ومحمد بن جرير الطبري، يرد في مادة «الطبري». ومحمود شيت خطاب، يرد في مادة «خطاب». وهكذا.

واذا كان المؤلف من المتوفين، ذكرنا سنة وفاته بالتقويم الهجري ثم بالميلادي.

أما «الكتب» و«المجلات» التي استقينا منها عناوين هذه المواد، فقد أشرنا في ازائها الى محل وسنة «طبعها ما أمكن ذلك»، كما نوهنا بأرقام الصفحات المتعلقة بالموضوع المطلوب.

واذا كان للمؤلف الواحد أكثر من كتاب يتصل بموضوع بحثنا، رتبنا أسماء تلك الكتب وفقاً للسياقة الهجائية لعناوينها.

اتخذنا في تضاعيف هذا الموضوع، الرموز الآتية، التماساً للاختصار، وهي:

ت	توفي، المتوفي سنة
جـ	جـزء
خ	خارطـة
د	دكتور
د ت	دون تاريخ، أي أن الكتاب لم تذكر فيه سنة طبعه
ص	صفحة
ط	طبعة (ط١ = طبعة أولى، ط٢ ـ طبعة ثانية، الخ)
ظ	أنظر
ع	عـدد
ق	قرن
ل	لوح، لوحة
م	سنة ميلادية
مط	مطبعة
المط	المطبعة
هـ	سنة هجرية

والله من وراء القصد.

ابراهيم (صابر عبده):
فاتح الشام: أبو عبيدة بن الجراح.
(دار النذير ـ بغداد، دت، ٤٨ ص).

ابن أبي الحديد (عبد الحميد بن هبة الله، ت ٦٥٥هـ = ١٢٥٧م):
امرأة عربية تعطي علياً الأخبار في وقعة صفين) سنة ٣٧ هـ = ٦٥٧م).
(«شرح نهج البلاغة»: ١ (القاهرة ١٣٣٠هـ) ص٣٢٨).

ابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد، ت ٢٣٥هـ = ٨٤٩م):
كتاب الفتوح.
(ورد ذكره في «الفهرست» لابن النديم. تحقيق: رضا تجدد.
طهران؛ ص ٢٨٥).

ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد، ت ٦٣٠هـ = ١٢٣٣م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«أسد الغابة في معرفة الصحابة» ٣ (القاهرة ١٢٨٠هـ) ص ٨٤؛ ٥ : ٢٤٩).

ابن الأثير (عز الدين):
(«الكامل في التاريخ». (١٣ مجلداً. دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
٢	٤٠٢ ـ ٤٠٧	فتوح الشام
٢	٤١٠ ـ ٤١٥	وقعة اليرموك (اليرموك واد بناحية الشام، طرف الغور، يصب في نهر الأردن).
٢	٤١٧ ـ ٤١٨	وقعة أجنادين (أجنادين، بكسر الدال أو فتحها: بلدة في فلسطين بقرب الرملة).
٢	٤٢٧ ـ ٤٢٩	فتح دمشق (سنة ١٣هـ).
٢	٤٢٩ ـ ٤٣٠	غزوة فحل (سنة ١٣هـ. فحل: موضع بالأردن).
٢	٤٣١ ـ	فتح بلاد ساحل دمشق (سنة ١٣هـ).
٢	٤٣١ ـ ٤٣٢	فتح بيسان وطبرية (سنة ١٣هـ).
٢	٤٩١ ـ ٤٩٣	فتح حمص و بعلبك وغيرهما (سنة ١٥هـ).
٢	٤٩٣ ـ ٤٩٤	فتح قنسرين (سنة ١٥هـ. قنسرين مدينة كانت قريبة من حلب).
٢	٤٩٤ ـ ٤٩٧	فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم (سنة ١٥هـ).
٢	٤٩٨ ـ ٤٩٩	فتح بيسان ووقعة أجنادين (سنة ١٥هـ).
٢	٥٢٥ ـ ٥٢٦	فتح قرقيسيا (سنة ١٦هـ. قرقيسيا: بلدة في سورية على نهر الخابور عند مصبه في الفرات. تعرف في المصادر الغربية باسم CIRCESIUM).
٢	٥٣٠ ـ ٥٣١	خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين (سنة ١٧هـ)
٣	٨٦ ـ	غزوة معاوية الروم (سنة ٢٥هـ).
٤	١٤٩ ـ ١٥٣	وقعة مرج راهط (في غوطة دمشق).
٥	٢٤٠ ـ	غزوة مروان بن محمد أرمينية (سنة ١٢١هـ).

ابن أعثم الكوفي (أحمد، ت نحو ٣١٤هـ = نحو ٩٢٦م):
(«كتاب الفتوح». ثمانية مجلدات. حيدرأباد ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠). وفيها مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
١	١٤٥ ـ ١٥٠	وقعة أجنادين وهي أول وقعة لخالد بن الوليد مع الروم.
١	١٧٤ ـ ١٧٦	تحرك الروم بأرض الشام من أرض فلسطين.
١	١٧٦ ـ ١٧٧	الوقعة بمدينة بعلبك.
١	١٧٧ ـ ١٨٤	رسالة الروم الى أبي عبيدة واجابته اياهم على كتابهم.
١	١٨٤ ـ ١٨٩	ذكر الرومي الذي جاء الى أبي عبيدة وكلامه.

المجلد	الصفحة	
١	١٨٩ ـ ١٩٥	وقعة فحل من أرض فلسطين، ومن قتل فيها من المسلمين وغيرهم.
١	٢١٤ ـ ٢١٨	فتح المسلمين مدينة حمص من أرض الشام. واجتماع المسلمين عليها.
١	٢١٨ ـ ٢٣٩	وقعة اليرموك.
١	٢٨٩ ـ ٢٩٦	فتح بيت المقدس على يدي عمر بن الخطاب.
١	٣٢٦ ـ ٣٢٩	فتح مدينة الرقة من بلاد الجزيرة.
٢	١٤٥ ـ ١٤٦	فتح جزيرة أرواد (أرواد: جزيرة في بحر الروم، المعروف اليوم بالبحر المتوسط، تابعة لسورية، أمام طرسوس)

ابن بشر (أبو حذيفة اسحاق، ت ٢١٦هـ = ٨٢١م):
فتوح بيت المقدس.
(ظ: كشف الظنون ٢: ١٢٢٩).

ـــــــ: كتاب صفين.
(ظ: الفهرست لابن النديم. ص ١٠٦، معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢: ٢٣٢).
(منه نسخة خطية في المكتبة الوقفية بحلب، الرقم ١٥٣٦. وعنها نسخة مصورة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، الرقم ١٣١٤).

ابن الزبير (القاضي الرشيد. ق ٥هـ ـ ق ١١م):
فتح بيت المقدس على يدي عمر بن الخطاب (سنة ١٥هـ).
(«الذخائر والتحف». تحقيق: محمد حميد الله. الكويت ١٩٥٩، الفقرة ١٨٠، ٣٦٠).

ابن سعد (محمد، ت ٢٣٠هـ = ٨٤٥م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«الطبقات الكبير». طبعة سخو E. SACHAU ليدن ١٣٢١هـ؛ ص ٢٩٧ = ٣ (دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨) ص ٤٠٩ ـ ٤١٥).

ابن شاكر الكتبي (محمد، ت ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م):
اليرموك.
(«عيون التواريخ» ١ (القاهرة ١٩٨٠) ص ٥١١ ـ ٥١٢).

ابن الشحنة الحلبي (محمد، ت ٨٩٠هـ = ١٤٨٥م):
«الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب».
(تحقيق: يوسف أليان سركيس. المط: الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٠٩) وفيه مما يتصل ببحثنا، ما يأتي:

الصفحة	
٣١	فتح حلب.
٣٢ ـ ٣٩	صفة عمارة حلب وأسوارها.
٣٩ ـ ٤٧	عدد أبواب حلب.
٤٧ ـ ٥٨	القلعة الحلبية.

ملاحظة: في كتاب «الأعلام» للزركلي (٧ (ط٤: بيروت ١٩٧٩) ص ٥١) أن الدر المنتخب هذا، ينسب الى ابن الشحنة، وأن محمد راغب الطباخ، رجح في كتابه: «أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» (٥ (حلب ١٣٤٢هـ) ص ٣١٤) انه من تأليف: أبي اليمن محمد بن عبد الرحمن البتروني.

ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم، ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م):
«الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة».
(الجزء الثالث: تحقيق: يحيى عبارة. وهو قسمان. دمشق ١٩٧٨). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الجزء	الصفحة	
٣ (١)	٦٩ ـ ٨٢	ذكر الرقة
٣ (١)	١٥١ ـ ١٥٣	قرقيسيا

ابن الطقطقي (محمد بن علي، ت ٧٠٩هـ = ١٣٠٩م):
(«الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية». دار صادر ـ بيروت ١٩٦٦). وفيه مما يتصل ببحثنا، ما يأتي:

الصفحة	
٧٥ ـ ٧٦	فتح الشام
٨٩ ـ ٩٣	وقعة صفين

ابن طولون (محمد بن علي، الدمشقي الصالحي، ت ٩٥٣هـ= ١٥٤٦م):
«الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية».
(مط الترقي ــ دمشق ١٩٢٩؛ ٢٨ ص).

ابن عائذ (محمد، الدمشقي، ت ٢٣٣هـ= ٨٤٧م).
الصوائف.
(ظ: د. صلاح الدين المنجد: معجم المؤرخين الدمشقيين. دار الكتاب الجديد ــ بيروت ١٩٧٨؛ ص ٩).

ابن عبد ربه (أحمد بن محمد، القرطبي، ت ٣٢٨هـ= ٩٤٠م):
وصية عبد الملك (بن مروان) لأحد قواده، وقد أرسله لحرب الروم. («العقد الفريد») ١ (تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وابراهيم الأبياري. ط٣: مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٥؛ ص ٣).
وانظر: «الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر الأموي» لمحمد ماهر حمادة (القاهرة ١٩٧٤؛ ص ٢٩٢، الرقم ٤١٤).

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد الحلبي، ت ٦٦٠هـ= ١٢٦٢م):
«زبدة الحلب من تاريخ حلب». تحقيق: د. سامي الدهان ١ (بيروت ١٩٥١) وفيه مما يتصل ببحثنا، ما يأتي:

الجزء	الصفحة	
١	٢٥ ــ ٢٧	فتح قنسرين (وهي مدينة كانت قريبة من حلب).
١	٢٧ ــ ٢٩	فتح حلب.
٣	٩٨ ــ ١٠٠	**فتح القدس**

ابن عساكر (أبو القاسم علي، ت ٥٧١هـ= ١١٧٦م): «تاريخ مدينة دمشق». (١ تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٥٤). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
١	٢٦٩ ــ ٢٧٦	ما ورد في أن أهل الشام مرابطون، وأنهم جند الله الغالبون.
١	٣٢٨ ــ ٣٣٤	ما ورد من أقوال المنصفين، فيمن قتل من أهل الشام بصفين.
١	٤٧٨ ــ ٤٨٨	ظفر جيش المسلمين المظفر، وظهوره بأجنادين وفحل ومرج الصفر.
١	٤٨٩ ــ ٥٢٦	كيف كان أمر دمشق بعد الفتح، وما أمضاه المسلمون لأهلها من الصلح.
١	٥٢٧ ــ ٥٥٢	تاريخ وقعة اليرموك ومن قتل بها من سوقة الروم واليرموك.
١	٥٦٣ ــ ٥٧٤	ما اشترط صدر هذه الأمة عند افتتاح الشام على أهل الذمة.

ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ= ٨٨٩م):
أخبار عبيدة الجراح.
(ضمن كتابه «المعارف». تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة ١٩٦٠؛ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨).

ابن كثير (اسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ = ١٣٧٣م):
(«البداية والنهاية في التاريخ». طبع في القاهرة في ١٤ مجلداً). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
٦	٣٥٠	خبر دومة الجندل (سنة ١٢هـ).
٧	١٩ ــ ٢٤	فتح دمشق (فتحها: أبو عبيدة بن الجراح، سنة ١٣هـ)
٧	٥٢	وقعة حمص الأولى (سنة ١٥هـ).
٧	٥٢ ــ ٥٣	وقعة قنسرين (سنة ١٥هـ).
٧	٥٣ ــ ٥٤	وقعة قيسارية (سنة ١٥هـ. قيسارية بلد في فلسطين على ساحل البحر).
٧	٥٤ ــ ٥٥	وقعة أجنادين (سنة ١٥هـ).
٧	٥٥ ــ ٦١	فتح بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب (سنة ١٥هـ).
٧	٧٣ ــ ٧٤	فتح قرقيسيا وهيت (سنة ١٦هـ).
٨	٢٤١ ــ ٢٤٣	وقعة مرج راهط (سنة ٦٤هـ).
٩	٢١ ــ ٢٢	غزو المسلمين بلاد الروم، وفتح أرقيلية (سنة ٧٨هـ).

أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود، ت ٢٨٢هـ= ٨٩٥م).
وقعة صفين.
(ضمن كتابه: «الأخبار الطوال» تحقيق: عبد المنعم عامر. القاهرة ١٩٦٠؛ ص ١٥٥ ــ ٢٠١).

أبو خليل (شوقي):
اليرموك بقيادة خالد بن الوليد.
(دار الفكر ــ دمشق ١٩٧٩). سلسلة «المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام» ــ ٢.

أبو الفداء (اسماعيل بن علي، ت ٧٣٢هـ= ١٣٣١م):
«المختصر في أخبار البشر»، و يعرف بـ «تاريخ أبي الفداء».
(طبع في ٤ مجلدات: القاهرة ١٣٢٥هـ).

أبو مخنف الأزدي (لوط بن يحيى بن سعيد الكوفي، ت ١٥٧هـ = ١٧٧٤م):
فتوح الشام.
وهو كتاب ضائع. ورد ذكره في:
الفهرست. (ص ١٠٥).
معجم الأدباء. (٦ : ٢٢١).
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: لاسماعيل باشا البغدادي (٢ : ١٧٨).
الأعلام: للزركلي. (٥ : ٢٤٥).

ــــــــ: كتاب صفين.
وهو كتاب ضائع. ظ:
رجال النجاشي. (ص ٢٤٥).
معجم الأدباء. (٦ : ٢٢١).
الأعلام: للزركلي. (٥ : ٢٤٥).

ــــــــ: مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس الفهري.
وهو كتاب ضائع. ظ:
الفهرست. (ص ١٠٥)
معجم الأدباء. (٦ : ٢٢١).

أبو النصر (عمر):
الفتوح العربية في سورية.
(دار الأحد ـ بيروت ١٩٤٥؛ ١٠٢ ص).

أبو نعيم الأصبهاني (أحمد بن عبد الله، ت ٤٣٠هـ = ١٠٣٨م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(ضمن كتابه: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» ١ (مط السعادة ـ القاهرة ١٩٣٢) ص ١٠٠ ـ ١٠٢).

أبو يوسف (القاضي يعقوب بن ابراهيم، ت ١٨٢هـ = ٧٩٨م):
أمر الشام والجزيرة وفتوحها.
(ضمن كتابه: «الخراج». المط السلفية ـ القاهرة ١٣٩٢هـ؛ ص ٤٢ ـ ٤٥).

أرنولد (المستشرق توماس، ت ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م):
فتح العرب بلاد الشام وفلسطين.
(ضمن كتابه: «الدعوة الى الاسلام». نقله الى العربية: حسن ابراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، اسماعيل النجراوي. ط٣: القاهرة ١٩٧٠؛ ص ٧٣ ـ ٧٤).

الأزدي البصري (محمد بن عبد الله: ق ٢ هـ = ق ٨م):
«تاريخ فتوح الشام».
ط١: تحقيق المستشرق وليم ناسوليس WILLIAM NASSAU LEES
(كلكته ١٨٥٤؛ ٢٥٧ + ٥٨ + ٤٣ ص). وهي طبعة غير كاملة، نشرت بعنوان: «فتوح الشام».
ط٢: تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر. (مط سجل العرب ـ القاهرة ١٩٧٠؛ ن + ٣٠٤ص + ٢ خريطة). وهي طبعة كاملة، نشرت بعنوان «تاريخ فتوح الشام».

الأعظمي (د. عواد مجيد):
«تاريخ مدينة القدس».
(دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٢). وفيه مما يتصل ببحثنا، ما يأتي:

الصفحة	
٥٧ ـ ٧٨	القدس والغزو الأشوري، والفارسي، واليوناني، والروماني، والساساني، والبيزنطي.
٩٤ ـ ٩٧	الخلفاء الراشدون ومدينة القدس.

ــــــــ: الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ٦٣ ـ ١٢١هـ = ٦٨٢ ـ ٧٣٩م.
(بغداد ١٩٨٠؛ ص ١٦١ ـ ٢٣٧).

أنطون (فرح، ت ١٣٤٠هـ = ١٩٢٢م):
«أورشليم الجديدة، أو: فتح العرب بيت المقدس».
(رواية تاريخية. الاسكندرية ١٩٠٤؛ ١٧٦ ص).

الأيوبي (المقدم هيثم):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«الموسوعة العسكرية» ١ (بيروت ١٩٧٧) ص ١٧ ـ ١٨).

ــــــــ: معركة أجنادين
(«الموسوعة العسكرية» ١ : ٣٠).

باشميل (محمد أحمد)
«حروب الاسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين».
(دار الفكر ــ بيروت ١٩٨٠؛ ٦٣٧ص).

البتروني (أبو اليمن بن عبد الرحمن، ت ١٠٤٦هـ= ١٦٣٩م):
«الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب». وقد نسب وهماً الى الفضل بن الشحنة
(راجع مادة: ابن الشحنة)
وانظر: معجم المطبوعات العربية (ص ١٣٥ و ٥٢٦).
أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: لمحمد راغب الطباخ (١ : ٣١).

بدران (عبد القادر بن أحمد، ت ١٣٤٦هـ= ١٩٢٧م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«تهذيب تاريخ ابن عساكر» ٧ (دمشق ١٣٥١هـ) ص ١٥٧).

البدري (أبو البقاء عبد الله بن محمد، ت ٨٩٤هـ= ١٤٨٩م):
(«نزهة الأنام في محاسن الشام». نشره: نعمان الأعظمي، الكتبي. المط السلفية ــ القاهرة ١٣٤١هـ). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة

٢٨ ــ ٣٠ الفتح العربي لدمشق.
٦٠ ــ ٦٣ قلعة دمشق.

بروكلمان (المستشرق كارل، ت ١٣٧٥هـ= ١٩٥٦م): («تاريخ الشعوب الاسلامية». نقله الى العربية: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط٧: دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٧). وفيه مما يتصل ببحثنا، ما يأتي:

الصفحة

٩٣ ــ ٩٤ غزو فلسطين.
٩٤ ــ ٩٥ موقعة أجنادين (سنة ٦٣٤م).

البقاعي (ابراهيم بن عمر، ت ٨٨٥هـ= ١٤٨٠م):
«أخبار الجلاد في فتح البلاد».
منه نسخة خطية في مكتبة لاله لي باستانبول، رقمها ١٩٩٤ تاريخ. وأخرى في مكتبة داماد ابراهيم باستانبول، رقمها ٨٨٦.
ظ: المنجد: معجم المؤرخين الدمشقيين (ص ٢٦١).

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر، ت ٢٧٩هـ= ٨٩٢م).
«فتوح البلدان».
تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. (القاهرة ١٩٥٦). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة

٧١ ــ ٧٢ تبوك وأيلة وأذرح ومتنا والجرباء.
١٢٨ ــ ١٣٠ فتوح الشام.
١٣١ ــ ١٣٣ شخوص خالد بن الوليد الى الشام وما فتح في طريقه.
١٣٤ فتح بصرى.
١٣٥ ــ ١٣٦ يوم أجنادين.
١٣٧ يوم فحل من الأردن.
١٣٨ ــ ١٤٠ أمر الأردن.
١٤١ ــ ١٤٣ يوم مرج الصفر.
١٤٤ ــ ١٤٥ فتح مدينة دمشق وأرضها.
١٥٥ ــ ١٥٩ أمر حمص.
١٦٠ ــ ١٦٣ يوم اليرموك.
١٦٤ ــ ١٧١ أمر فلسطين.
١٧٢ ــ ١٨٠ أمر جند قنسرين والمدن التي تدعى العواصم.
١٨٧ ــ ١٨٨ أمر السامرة (لدى فتح الأردن وفلسطين).
١٨٩ ــ ١٩٣ أمر الجراجمة (لدى فتح لبنان).
١٩٤ ــ ٢٠٣ الثغور الشامية.

البيطار (د. أمينة):
ملابسات فتح دمشق في روايات المؤرخين العرب.
(مجلة «المؤرخ العربي». ع ١٥ (١٩٨٠) ص ٢٣ ــ ٣٩).

بينز (نورمان NORMAN H. BAYNES):
فتح العرب لفلسطين والشام ومصر والمغرب.
(ضمن كتابه: «الامبراطورية البيزنطية». نقله الى العربية: د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد. مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٠؛ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥).

التركماني (محمد آسوب):
فتوح الشام.
ظ: الثقافة الاسلامية في الهند، تأليف: عبد الحي الحسني. (دمشق ١٩٥٨: ص ٧٤).
رجال النجاشي (ص ١٨٠).
الأعلام للزركلي (٤: ٢٩).

الجومرد (د. عبد الجبار، ت ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م):
دولة البيزنطيين واحتكاكها بالعرب منذ الفتح الاسلامي.
(ضمن كتابه: «هارون الرشيد: دراسة تاريخية اجتماعية سياسية» ٢ (دار الكتب ـ بيروت ١٩٥٦) ص ٣٧٩).

حتى (د. فيليب، ت ١٣٩٧هـ = ١٩٧٨م):
الحملات العربية على البيزنطيين.
(«تاريخ العرب: مطول». الترجمة العربية. ط٣: دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥٣؛ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨).

ـــــ: فتح الشام.
(«تاريخ العرب: مطول». ص ١٩٩ ـ ٢٠٨).

حداد (جورج مرعي):
فتح العرب للشام: بحث تاريخي انتقادي تحليلي.
(المط الأدبية ـ بيروت ١٩٣١؛ ١١٣ ص). راجع في شأنه: مجلة «الهلال» ٤٠ (١٩٣٢) ص ٤٥٩).

حسين (المقدم عبد الحميد):
الفتح الاسلامي في العراق والجزيرة.
(مط شفيق ـ بغداد ١٩٦١؛ و + ١٩٢ ص). بمقدمة للدكتور عبد العزيز الدوري.

حسين (علي صافي):
مسلمة بن عبد الملك: حياته العسكرية والأدبية.
(القاهرة ١٩٦٤؛ ٩٦ ص).

الحصان (عبد الرزاق، ت ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م):
على هامش معركة اليرموك.
(«المجلة العسكرية» ١٨ (بغداد ١٩٤١) ع ١؛ ص ٥٨ ـ ٨١).

حلمي (الرائد سعدون عبد الرزاق):
اجتياز القوة العربية بصحراء الشام، لدى الفتح العربي الأول، بقيادة خالد بن الوليد.
(مجلة «الركن». ع ١٩ (بغداد ١٩٦٤) ص ٩٨ ـ ١١٥).

الحموي (ياقوت، ت ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م).
(«معجم البلدان». تحقيق المستشرق وستنفلد F. WUSTENFELD ٦ مجلدات طبعت في ليبسك ١٨٦٦ ـ ١٨٧٧) وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
١	١٣٦ ـ ١٣٧	أجنادين.
١	٢٢٤	أرواد.
٢	٧٤٣ ـ ٧٤٤	راهط.
٣	٤٠٢ ـ ٤٠٣	صفين.
٣	٨٥٣	فحل
٤	٦٥ ـ ٦٦	قرقيسياء.
٤	١٠١٥ ـ	
	١٠١٦	يرموك.

حميدة (د. عبد الرحمن):
حرب الثغـور.
(ضمن بحثه: «حلب: المدينة التي لم تقهر»، المنشور في مجلة «الفيصل» ١ (الرياض ـ فبراير ـ مارس ١٩٧٨) ع ٩؛ ص ٤٢ ـ ٤٤).

الحياري (د. مصطفى علي):
نهاية الثغور الشامية.
(«مجلة مجمع اللغة العربية الأردنية» ٤ (عمان: كانون الثاني ـ حزيران ١٩٨١)
ع ١١ ـ ١٢؛ ص ٢١ ـ ٤٢).

الخربوطلي (د. علي حسني):
(«الاسلام في حوض البحر المتوسط». دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٠).
وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة	
١٦ ـ ٢٠	غزو القسطنطينية العاصمة البيزنطية.
٩١ ـ ٩٥	السيادة الاسلامية الحربية في حوض البحر المتوسط.

الخضري (محمد، ت ١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م):
(«محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية» ١ ـ ٢: ط٨، القاهرة ١٣٨٢هـ. وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
٢	١٩٧	في الشمال: الحروب بين المسلمين والروم أيام الدولة الأموية.

خطاب (اللواء الركن محمود شيت):
أبو الأعور السلمي: فاتح طبرية.
(مجلة «التربية الاسلامية» ٥ (بغداد ١٩٦٣) ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢).

ـــــ: أبو أمامة الباهلي.
(«التربية الاسلامية» ٥ (١٩٦٣) ص ٨١ ـ ٨٤).

ـــــ: أبو أمامة الباهلي: فاتح العربة والداثن من أرض فلسطين.
(مجلة «درع الوطن». ع ١٨٣ (أبو ظبي: جمادى الثانية ١٣٩٨هـ) ص ١٩).

ـــــ: أبو عبيدة بن الجراح الفهري: فاتح أرض الشام.
(«التربية الاسلامية» ٤ (١٩٦٢) ص ٤٦٥ ـ ٤٧٦).

ـــ: خطة عمر السوقية لدرء خطر الروم عن حمص.
(ضمن كتابه: «الفاروق القائد». مط العاني ـ بغداد ١٩٦٥؛ ص ٩٣ ـ ٩٤).

ـــ: خطة عمر السوقية لفتح أرض الشام.
(«الفاروق القائد». ص ٩١ ـ ٩٢).

ـــ: دحية بن خليفة الكلبي: الصحابي السفير القائد، فاتح مدينة تدمر من بلاد الشام.
(بحث مخطوط، في ٨ ص).

ـــ: درس من أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.
(«التربية الاسلامية» ٤ (١٩٦٢) ع ١؛ ص ١٩ ـ ٢١).

ـــ: عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي: فاتح مدينة أنطرسوس من أرض الشام، والاسكندرية من أرض مصر.
(مجلة «حضارة الاسلام» ٦ (آذار ١٩٦٦) ع ٩؛ ص ٤٣ ـ ٥١).
(مجلة «الرسالة» ٢١ (القاهرة ١٩٦٣) ع ١٠٢٧؛ ١١ ـ ١٣).
(جريدة «الأهرام». القاهرة ٥/٨/١٩٧٧؛ ص ١١).

ـــ: حمير بن سعد الأنصاري الأوسي: القائد الانسان، فاتح مدينة رأس عين في أرض الجزيرة.
(مجلة «الكتاب» ١ (بغداد ١٩٦٢) ع ١؛ ص ٢٣ ـ ٢٦).
(جريدة «الأهرام». القاهرة ٢١/١١/١٩٦٨؛ ص ١١).

ـــ: قادة فتح أرمينية.
(مخطوط).

ـــ: قادة فتح بلاد الروم.
(جزآن مخطوطان).

ـــ: قادة فتح الشام ومصر.
(ط ١: دار الفتح ـ بيروت ١٩٦٥؛ ٤٠٧ ص. ط٥: ١٩٧٧).
سلسلة «قادة الفتح الاسلامي».

——: مروان بن محمد بن مروان بن الحكم: فاتح قونية وكمخ.
(بحث مخطوط في ٦١ ص).

——: مسلمة بن عبد الملك بن مروان: فاتح شطر الأنضول ومحاصر القسطنطينية.
(«مجلة المجمع العلمي العراقي» ٢٨ (بغداد ١٩٧٧) ص ١١٧ ـ ١٥٢؛ ٢٩ (١٩٧٨) ص ٧١ ـ ٩٣؛ ٣٠ (١٩٧٩) ١٢٨ ـ ١٧٧). وقد أفرد هذا البحث في ثلاث رسائل متتالية.

——: معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان: فاتح شطر بلاد الروم.
(«المجلة العربية» ٣ (الرياض: أيار ١٩٧٩) ع ٤ ـ ٥؛ ص ١٤٥ ـ ١٤٩).

——: يزيد بن أبي سفيان الأموي: فاتح لبنان الأشم.
(مجلة «التربية الاسلامية» ٥ (بغداد ١٩٦٣) ص ٢٠٣ ـ ٢٠٩).
(مجلة «درع الوطن». ع ٨ (أبو ظبي: ربيع الأول ١٣٩٨هـ) ص ٢٠ ـ ٢١).

خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ = ٨٥٤م):
«تاريخ خليفة بن خياط».
تحقيق: د. سهيل زكار. (طبع في جزئين متسلسلي الصفحات.
دمشق ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة

١١٢ فتح دمشق (سنة ١٤هـ).
١١٢ وقعة فحل (سنة ١٤هـ).
١١٣ فتح حمص وبعلبك (سنة ١٤هـ).
١١٧ فتح الشامات (سنة ١٥هـ).
١١٨ ـ ١١٩ وقعة اليرموك (سنة ١٥هـ).
١٦٦ غزو معاوية بن أبي سفيان في البحر (سنة ٢٨هـ).
١٧٧ غزو المضيق في قسطنطينية (سنة ٣٢هـ).
١٧٨ غزو ملطية (سنة ٣٣هـ).
٢٤٨ غزوة يزيد بن معاوية أرض الروم (سنة ٥٠هـ).
٢٧٠ و ٢٧٤ غزوة رودس (سنة ٥٨ و ٥٩هـ).
٢٨٨ غزوة قيسارية (سنة ٦٢هـ).
٣٤٤ غزوة سبيسطة (سنة ٧٣هـ).

٣٤٧ غزوة مروان بن محمد الصائفة (سنة ٧٥هـ).
٣٥٢ غزوة محمد بن مروان ملطية (سنة ٧٦هـ).
٣٥٦ غزوة محرز أرض الروم (سنة ٧٨هـ).
٣٥٩ غزوة ابن الحكم أرض الروم (سنة ٧٩هـ).
٣٥٩ غزوة الوليد بن عبد الملك ملطية (سنة ٧٩هـ).
٣٧٦ غزوة عبد الله بن عبد الملك الروم (سنة ٨٣هـ).
٣٧٧ غزوة طرابندة من أرض الروم (سنة ٨٤هـ).
٣٧٩ غزوة محمد بن مروان أرمينية (سنة ٨٥هـ).
٣٧٩ غزوة الروم من ناحية أنطاكية (سنة ٨٥هـ).
٣٨١ غزوة مسلمة بن عبد الملك الروم (سنة ٨٦هـ).
٣٩٩ غزوة أنطاكية (سنة ٨٨هـ).
٤٠٢ غزوة سورية (سنة ٩٠هـ).

خودابخش: الأمويون والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية).
(ضمن كتابه: «الحضارة الاسلامية». ترجمة وتعليق: د. علي حسني الخربوطلي. القاهرة ١٩٦٠؛ ص ٨٢ ـ ١١١).

داود (الرئيس الركن نافع):
معركة اليرموك.
(«المجلة العسكرية» ٤٠ (بغداد ١٩٦٣) ع ١).

دحلان (أحمد بن زيني، ت ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م):
(«الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية» ١ (المط الميريه ـ مكة ١٣١١هـ). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة

١٥ ـ ١٦ خبر دومة الجندل ووقعة الثني والزميل والعراض.
٢١ ـ ٢٢ فتوح الشام.
٢٢ ـ ٢٣ ذكر أول وقعة بالشام.
٢٣ ـ ٢٦ وقعة اليرموك.
٢٧ وقعة أجنادين.
٢٧ ـ ٢٨ فتح دمشق.
٢٨ ـ ٢٩ غزوة فحل.

٢٩	فتح بلاد ساحل دمشق.
٢٩ ـ ٣٠	فتح بيسان وطبرية.
٣٠	الوقعة بمروج الروم.
٣٠ ـ ٣١	فتح حمص و بعلبك وغيرهما.
٣١	فتح قنسرين.
٣١ ـ ٣٢	فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم.
٣٢ ـ ٣٣	فتح قيسارية وحصر غزة.
٣٣	فتح بيسان ووقعة أجنادين.
٣٣	فتح بيت المقدس.
٣٥	خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين.
٣٦ ـ ٣٨	فتح الجزيرة وأرمينية.
١٠٧ ـ ١٠٩	غزوة القسطنطينية.

الدولابي (أبو بشر محمد بن أحمد، ت ٣٢٠هـ = ٩٣٢م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«الكنى والأسماء» ١ (حيدرأباد ١٣٢٢هـ) ص ١٢).

الدياربكري (حسين بن محمد، ت ٩٦٦هـ = ١٥٥٩م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس» ٢ (القاهرة ١٢٨٣هـ) ص ٢٤٤).

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد، ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٨م):
غزوة دومة الجندل.
(«التاريخ الكبير، أو: تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام».
الجزء الأول: القسم الأول. تحقيق: د. محمد عبد الهادي شعيرة.
القاهرة ١٩٧٥؛ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

رستم (د. أسد، ت ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م):
الحرب العربية (في بلاد الروم).
ضمن كتابه: «الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم»
١ (دار المكشوف ـ بيروت ١٩٥٥) ص ٢٩٢ ـ ٢٩٧).

ـــ: قلعة طرابلس الشام: موقعها وموادها الأساسية ومساحتها وتحصيناتها ومناعتها ونقوشها الكتابية وأصل بنائها الحالي. (بيروت، د ت؛ ١٥ ص).

رشدي (زكريا أحمد):
الخلفاء الراشدون وأشهر قوادهم في الحرب والسياسة.
(ط ٣: مط الرشديات ـ الاسكندرية ١٩٣٨؛ ١٧٢ ص).

رؤبة بن العجاج (ت ١٤٥هـ = ٧٦٢م):
ثلاث قصائد في مدح مسلمة بن عبد الملك بن مروان.
«ديوان رؤبة بن العجاج». نشره المستشرق وليم ابن الورد W. AHLWARDT ٣ (برلين ١٩٠٣) ص ٥ ـ ١١، ٢٥ ـ ٢٧، ١٤٤ ـ ١٤٩).

الريحاوي (عبد القادر):
قلعة الحصن.
(ط ٢: مط الحكومة ـ دمشق ١٩٦٢؛ ٣١ص + ١ مخطط). تبعد هذه القلعة عن حمص نحوا من ٦٠ كيلومترا.

الزركلي (خير الدين، ت ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م):
(«الأعلام». (ط ٤: ٨ مجلدات. دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٩، وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
٢	٣٠٠	خالد بن الوليد
٣	٢٥٢	أبو عبيدة بن الجراح: عامر بن عبد الله، فاتح ديار الشام.
٧	٢٢٤	مسلمة بن عبد الملك.

زكريا (أحمد وصفي، ت ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م):
«جولة أثرية في بعض البلاد الشامية». دمشق ١٩٣٤؛ ص ١٥٢ ـ ١٥٤). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة

١٥٢ ـ ١٥٤ قلعة أفامية ـ قلعة شيزر (في سوريا. تقع الثانية على ضفة نهر العاصي، على بعد ٣٠ كيلومترا شمال غربي حماة).
٢٣٥ ـ ٢٤٠ قلعة النجم (في شمال منبج، على ضفة الفرات اليمنى).

الزرو (خليل داود):
الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة.
(دار الآفاق الجديدة للتأليف والترجمة والنشر في لبنان ـ بيروت ١٩٨٠، ٢٢٥ ص)

سالم (محمود)، التوني (حلمي):
أبو عبيدة بن الجراح.
(أصدرته: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت. سلسلة: «قصص تاريخ العرب والاسلام» ـ ١٥.

سركيس (يوسف اليان، ت ١٣٥١هـ= ١٩٣٢م):
أثر تاريخي قديم للواقدي: نظر في كتاب فتوح الشام ونسخه المختلفة.
(مجلة «المشرق» ١٠ (بيروت ١٩٠٧) ص ٩٣٦ ـ ٩٤٣).

سرور (طه عبد الباقي، ت ١٣٨٢هـ=١٩٦٢م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(ط٢: مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ١٩٥٧؛ ١٦٧ص).

سعيد (أمين، ت ١٣٨٧هـ=١٩٦٧م):
حروب الاسلام والامبراطورية الرومية: فتح الشام ـ مصر ـ افريقيا الشمالية.
(مط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٣٥؛ ٤٢٤ص).

السلمي (علي بن طاهر، ت ٥٠٠هـ=١١٠٦م):
الجهاد المشتمل على الحث عليه، والترغيب فيه، وكيفية وجوبه، وما يتعلق به من السير والأحكام وغيرها، و بعض ما جاء من فضائل الشام والثغور. وهو كتاب في ٢٠ جزءاً: منها أربعة أجزاء مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق، وهي الأجزاء ٢ و ٨ و ٩ و ١٢.
ظ: حبيب زيات: خزائن الكتب في دمشق وضواحيها. (القاهرة ١٩٠٣، ص ٣٠ الرقم ٢٠؛ ص ٣٣ الرقم ٦٠).
اسماعيل باشا البغدادي: ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون. (٢: ٢٨٧).
محمد ناصر الدين الألباني: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية: المنتخب من مخطوطات الحديث. (دمشق ١٩٧٠؛ ص ١٥٤، الرقم ٧٣١/ ٥٦١).

سمارة (د. يوسف):
جولة في الاقليم الشمالي (يريد به: سورية).
(دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٢٨ ص). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة

٤٩	قلعة دمشق.
٤٩ ـ ٥٠	سور دمشق وأبوابها.
٦٢ ـ ٦٣	قلعة الحصن.
٦٧	قلعة شيزر.
٧٣	قلعة المرقب.
٧٤ ـ ٧٥	قلعة مصياف.
٨٨ ـ ٩٠	قلعة حلب.

سويد (العقيد الركن ياسين):
حروب القدس في التاريخ العربي.
(مجلة «تاريخ العرب والعالم» ١ (بيروت: كانون الأول ١٩٧٨). ع ٢؛ ص ١٠ ـ ١٥).

السيد نبوري (عناية حسين):
فتوح الشام برواية الواقدي.
(ألفه باللغة الأوردية. ظ: «الثقافة الاسلامية في الهند» لعبد الحي الحسني. دمشق ١٩٥٨؛ ص ٧٤).

الشبيبي (محمد رضا، ت ١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م):
كتاب فتوح الشام المنسوب الى الواقدي.
(«مجلة المجمع العلمي العراقي» ١١ (بغداد ١٩٦٤) ص: ز ـ ط).
ضمن بحثه: «رحلة في بادية السماوة».

الشرباصي (أحمد):
أمين الأمة: أبو عبيدة عامر بن الجراح.
(مط الاعتصام ـ القاهرة ١٩٥٣؛ ١٢٨ ص).

شلبي (أبو زيد)
سيف الله خالد بن الوليد.
(دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٥٢؛ ١٨٠ ص).

شلبي (محمود):
حياة عمر.
(ط٢: دار الجيل ـ بيروت ١٩٦٨). وفيه مما يتصل ببحثنا، ما يأتي:

الصفحة

١٠٧ ـ ١١٦ فتح دمشق (في أيام عمر بن الخطاب).
١٨٣ ـ ٢١٦ سقوط بيت المقدس (في أيام عمر بن الخطاب).

الشهاب (شعبان رجب):
شخصيات اسلامية: أبو عبيدة عامر بن الجراح (٤٠ قبل الهجرة ـ ١٨هـ= ٥٨٤ ـ ٦٣٩م).
(مجلة «احياء التراث العربي الاسلامي» ٣ (بغداد: آب ١٩٨١) ع ١٢؛ ص ١٧ ـ ٢٦).

الصابوني (الشيخ أحمد، ت ١٣٣٤هـ= ١٩١٦م):
حماة في زمن فتح المسلمين.
(ضمن كتابه: «تاريخ حماة». تحقيق: قدري الكيلاني. ط٢: المط الأهلية ـ حماة ١٩٥٦؛ ص ٥٢ ـ ٥٣).

المصالحي (الرئيس الأول مهدي علي):
خالد بن الوليد ومعركة اليرموك.
(مجلة «الركن». ع ١٥ (بغداد ١٩٦٠) ص ١٠٦ ـ ١٠٩).

صفوت (أحمد زكي):
فتح الشام.
(«جمهرة خطب العرب» ١ (ط٢: القاهرة ١٩٦٢) ص ١٩٠ ـ ٢١٠). فيها ما قيل من خطب تتعلق بهذا الفتح.

الصواف (صبحي، ت ١٣٩٧هـ= ١٩٧٧م):
قلعة حلب: قوة وجبروت.
طبعت في حلب.

ـــــــ: قلعة سمعان: روعة وجمال.
(مط الحربية ـ حلب ١٩٦١؛ ١٠٥ ص).

الصيرفي (فيصل)، العطار (نادر):
قلعة حلب.
(مكتبة ربيع ـ حلب ١٩٥٤؛ ٦٦ ص + ١ خارطة + ١٤٢ لوحة).

الطباخ (محمد راغب، ت ١٣٧٠هـ= ١٩٥١م):
«أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ٧ مجلدات. المط العلمية ـ حلب ١٣٤١هـ= ١٩٢٣م). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
١	٧ ـ ٩٠	فتح الديار الحلبية.
١	٩٠ ـ ٩٤	فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم.
١	٩٤ ـ ٩٧	فتح الرقة وحران والرها وسروج.
١	٩٩ ـ ١٠٢	ترجمة فاتحي الشهباء وقنسرين:
		أبو عبيدة بن الجراح.
		خالد بن الوليد.
		عياض بن غنم.
		شرحبيل بن السمط الأسود الكندي.

الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله، ت ٦٩٤هـ= ١٢٩٥م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«الرياض النضرة في مناقب الأصحاب العشرة» ٢ (القاهرة ١٣٢٧هـ) ص ٣٠٧).

الطبري (محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ= ٩٢٣م):
(«تاريخ الرسل والملوك»، المعروف ب«تاريخ الطبري». تحقيق: محمد أبي

الفضل ابراهيم. (١٠ مجلدات، ط٢: دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ١٩٦٩).
وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
٣	٣٩٤ ــ ٤١٤	خبر اليرموك.
٣	٤١٥ ــ ٤١٨	وقعة أجنادين.
٣	٤٣٤ ــ ٤٤٣	غزوة فحل وفتح دمشق.
٣	٥٩٩ ــ ٦١٣	فتح حمص وقنسرين وقيسارية وغزة و بيسان وأجنادين و بيت المقدس.
٦	٤٣٩	غزو مسلمة بن عبد الملك أرض الروم.
٦	٥٣٠ ــ ٥٣١	محاصرة مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية.

طرازي (فيليب، ت ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م):
تحزب النصارى السريان للعرب ضد قياصرة الروم.
(«خزائن الكتب العربية في الخافقين» ١ (بيروت ١٩٤٧) ص ٣٠ ــ ٣١).

الطنطاوي (علي):
أعظم قواد التاريخ القديم.
(ضمن كتابه: «رجال من التاريخ». ط٢ (دمشق ١٣٧٧هـ) ص ٢٥ ــ ٣٣).
يريد به: خالد بن الوليد، في معركة أجنادين واليرموك.

الطوكي (أحمد علي بن محمد علي الحسيني):
المغازي، وفتوح الشام، وفتوح مصر، وفتوح العراق: الأربعة برواية الواقدي.
ظ: «الثقافة الاسلامية في الهند»: لعبد الحي الحسني. (دمشق ١٩٥٨؛ ص ٧٤).

العارف (عارف، ت ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م):
غزة والفتح الاسلامي.
(ضمن كتابه.: «تاريخ غزة». القدس ١٩٤٣؛ ص ١١٢ ــ ١٢٢).

ــــــ: الفتح الاسلامي للقدس.
(ضمن كتابه «تاريخ القدس». دار المعارف ــ القاهرة ١٩٥١؛ ص ٤١ ــ ٦٧).

عاقل (د. نبيه):
العلاقات البيزنطية العربية.
(ضمن كتابه: «الامبراطورية البيزنطية». دمشق ١٩٦٩؛ ص ٢١٧ ــ ٢٢٩).

عثمان (فتحي):
الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري.
(٣ مجلدات. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧؛ ٤٤٢، ٤٣٨، ٣٩١ ص).

العجلوني (اسماعيل بن محمد، الدمشقي، ت ١١٦٢هـ = ١٧١٩م):
فتوح الشام.
(ضمن كتابه: «مختصر تاريخ دمشق». منه نسخة خطية برقم ٧١٦ في مكتبة جامعة توبنجن، تنتهي بالكلام على فتوح الشام). ظ: المنجد: معجم المؤرخين الدمشقيين (ص ٣٥١).

العدوي (د. ابراهيم أحمد):
الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية.
(مط لجنة البيان العربي ــ القاهرة ١٩٥١؛ ٢١٩ص + ٣خ + ٣ل).

ــــــ: الأمو يون والبيزنطيون: البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية.
(ط١: مكتبة الأنجلو ــ القاهرة ١٩٥٣؛ ٢٨٤ ص).
(ط٢: الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٣؛ ٣٢٦ ص).

ــــــ: الخلفاء الراشدون وعصر الفتوح الاسلامية العظمى.
(ضمن كتابه: «التاريخ الاسلامي: آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية». القاهرة ١٩٧٦؛ ص ١١٧ ــ ٢١٣).

ــــــ: الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم.
(ط٢: مط الرسالة ــ القاهرة ١٩٥٨؛ ر + ٢٢٨ ص). يبحث في الحروب التي دارت بين العرب والروم.

ــــــ: سيادة العرب على البحر المتوسط ثمرة لتعاون مصر والشام أيام معاو ية (مجلة «تاريخ العرب والعالم» ١ (بيروت: تشرين الثاني ١٩٧٨) ع ١؛ ص ٤٨ ــ ٥٥).

عرجون (صادق ابراهيم):
غزو الشام.
(ضمن كتابه: «خالد بن الوليد». دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٣؛ ص ٢٢٧ ـ ٢٥٨).

العرفي (محمد سعيد، ت ١٣٧٥هـ= ١٩٥٦م):
موجز سيرة خالد بن الوليد.
(مط ابن زيدون ـ دمشق ١٩٣٥؛ ١١٤ ص).

العزي (ماجد أحمد):
في يوم اليرموك.
(مجلة «ألف باء» ١٤ (بغداد: ٩ أيلول ١٩٨١) ع ٦٧٦؛ ص ٣٨ ـ ٣٩).

العسقلاني (ابن حجر أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ= ١٤٤٩م):
عامر بن عبد الله بن الجراح: أبو عبيدة.
«الاصابة في تمييز الصحابة». تحقيق: علي محمد البجاوي ٣ (القاهرة ١٩٧ ص ٥٨٦ ـ ٥٩٠).

العسلي (بسام):
أبو عبيدة بن الجراح.
دار النفائس ـ بيروت ١٩٧٨؛ ٢٠٨ ص). سلسلة: «مشاهير قادة الاسلام».

عطية الله (أحمد):
اجنادين: مدينة بفلسطين.
(«القاموس الاسلامي» ١ (القاهرة ١٩٦٣) ص ٢٨).

العظم (رفيق بن محمود، ت ١٣٤٣هـ= ١٩٢٥م):
أبو عبيدة بن الجراح.
«أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة». ط٢: مط هندية ـ القاهرة ١٩٠٨).

العليمي (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد، ت ٩٢٨هـ= ١٥٢٢م):
الفتح العمري (للقدس، على يد عمر بن الخطاب).

(«الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» ١ (المط الحيدرية ـ النجف ١٩٦٨) ص ٢٤٤ ـ ٢٥٨).

العمادي (حامد بن علي الدمشقي، ت ١١٧١هـ= ١٧٥٧م):
ضوء المصباح في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح.
منه نسخة خطية، في
١ ـ مكتبة جامعة برنستن: مجموعة يهودا. الرقم ٥٠٩ (ظ: المنجد: معجم المؤرخين الدمشقيين. ص ٣٥٨ و ٣٥٩).
٢ ـ دار الكتب المصرية. (ظ: فؤاد سيد: فهرست المخطوطات التي اقتنتها الدار من سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٥٥: القسم الثاني).
٣ ـ جامعة الرياض. (ظ: الأعلام للزركلي ٢: ١٦٢).
على أن اسم هذا الكتاب ورد في «ايضاح المكنون» (٢: ٧٤)، و«هدية العارفين» (١: ٢٦١)، و«الأعلام» للزركلي (٢: ١٦٢)، بصورة «ضوء الصباح في...».

عواد (كوركيس):
مصادر التراث العسكري عند العرب.
(٣ مجلدات. مط المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٨١ ـ ١٩٨٢؛ ٤٥٦، ٥٠٤، ٥٩٢ ص). مطبوعات المجمع العلمي العراقي.
انطوى هذا الكتاب، على ٦٧٣٣ مادة بالعربية، و ٨٣٧ باللغات الغربية، بينها طائفة صالحة من المواد المتعلقة ببحثنا هذا، وقد انتشرت في تضاعيف مجلداته الثلاثة.

عياش (عبد القادر، ت ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م):
قلعة جعبر: حصن الشام على الفرات.
(طبع).

الغزي (كامل، ت ١٣٥١هـ= ١٩٣٣م):
(«نهر الذهب في تاريخ حلب» ٣ مجلدات. المط المارونية ـ حلب ١٩٢٦). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
١	٤٤٥	قلعة المضيق (كانت حصناً لأفامية في سورية).
٣	١٠ ـ ١٥	فتح حلب على يد المسلمين.

فرج (المقدم محمد):
القادة العرب في الشام والعراق.
(لم يطبع).

فنسنك (المستشرق أ. ي. A. J. WENSINCK، ت ١٣٥٨هـ= ١٩٣٥م):
(«مفتاح كنوز السنة». نقله الى العربية: محمد فؤاد عبد الباقي، ت ١٣٨٨هـ= ١٩٦٨م. القاهرة ١٩٣٤). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة	
١٨	أبو عبيدة بن الجراح.
١٩٧	دومة الجندل.

فيصل (د. شكري):
حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول.
(ط١: دار الكتاب العربي ــ القاهرة ١٩٥٢؛ ١٩٦ص).
(ط٣: دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٤؛ ٢٥٤).

قدورة (د. زاهية):
فتح بيروت والساحل الشامي.
(ضمن بحثها: «بيروت في القرنين الأول والثاني الهجريين من خلال تاريخ ابن عساكر»، المنشور في كتاب: «ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته». دمشق ١٩٧٩؛ ص ٧٦٣ ــ ٧٦٧).

القزويني (زكريا بن محمد، ت ٦٨٢هـ= ١٢٨٣م):
صفين.
(«آثار البلاد وأخبار العباد». دار صادر ــ بيروت ١٩٦٩؛ ص ٢١٤ ــ ٢١٥).

القلقشندي (أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ= ١٤١٨م):
(«صبح الأعشى». طبع في ١٤ مجلداً. القاهرة ١٣٣١ ــ ١٣٣٨هـ).

كايتاني (المستشرق ليوني LEONE CAETANI، ت ١٣٤٥هـ= ١٩٢٦م).
عبيدة بن الجراح ك سفري.
(«اسلام تاريخي». نقله من الايطالية الى التركية: حسين جاهد.
٣ (استانبول ١٩٢٤) ص ١٩٢ ــ ١٩٤).

كحالة (عمر رضا).
خالد بن الوليد رضي الله عنه.
(مط الترقي ــ دمشق ١٩٣٤؛ ٢٧٠ ص).

كرد علي (محمد، ت ١٣٧٢هـ= ١٩٥٣م):
(«خطط الشام» ٦ مجلدات، المط الحديثة ــ دمشق ١٣٤٣ ــ ١٣٤٧هـ). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
١	١١٤ ــ ١١٦	أهم الوقائع: وقعة اليرموك.
١	١١٦ ــ ١١٧	الفتح في خلافة عمر بن الخطاب: فحل وأجنادين و بيسان.
١	١١٧ ــ ١١٨	فتح الأردن وفلسطين وجبل اللكام.
١	١١٩ ــ ١٢١	فتح دمشق والأحكام العسكرية.
١	١٢١ ــ	فتح حمص وشيزر والمعرة و بعلبك وصيدا و بيروت وجبيل وعرقة.
١	١٢١ ــ ١٢٢	فتح قنسرين وحلب وأنطاكية وجميع بلاد الشمال.
١	١٢٢ ــ ١٢٣	وقعة مرج الروم وقيسارية.
١	١٢٣ ــ ١٢٧	سر نجاح المسلمين (في عصر الفتوحات) وقتال نسائهم يوم اليرموك.
١	١٢٩ ــ ١٣١	منزلة أبي عبيدة (بن الجراح).
١	١٤٢ ــ ١٤٣	غزوات معاوية.
١	٢٦٣ ــ ٢٦٥	فتح دمشق.

ــــــ: جباية الشام في الاسلام.
(«مجلة المجمع العلمي العربي» ١ (١٩٢١) ص٢٩٨ ــ ٣٠٥، ٣٢٩ ــ ٣٤٠، ٣٥٩ ــ ٣٦٩).

كمال (أحمد عادل):
فتوح الشرق بعد القادسية.
(دار الفكر ــ بيروت ١٩٧٤). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

الصفحة	
١٢٥ ــ ١٢٧	هيت وقرقيسيا.
١٦٧ ــ ١٨٠	فتح الجزيرة: ذو الحجة ١٧هـ= ديسمبر ٦٣٧م. فتح الرقة ونصيبين ــ فتح الرها وحران ــ سائر مدن الجزيرة ــ أرمينية.

ـــــــ : فتح دمشق : الأحد ١٥ رجب سنة ١٤هـ= ٣ سبتمبر ٦٣٥م.
(مجلة «العربي». ع ٢٥١ (الكويت : تشرين الأول ١٩٧٩) ص ٤٢ ـ ٤٥).

ـــــــ : هرقل في مواجهة عمر.
(مجلة «العربي». ع ٢٦٢ (الكويت ١٩٨٠) ص ١٠٥ ـ ١٠٩). حول الفتح الاسلامي لبلاد الشام.

لامنس (هنري H. LAMMENS ، ت ١٣٥٦هـ= ١٩٣٧م):
الجراجمة.
(«تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» ٢ (المط الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٤) ص ٤٥ ـ ٤٨).

ـــــــ : سورية في زمن الفتح العربي : شعوبها، لغاتها، أديانها.
(مجلة «المشرق» ٣٠ (بيروت ١٩٣٢) ص ١٠ ـ ١٥).

ـــــــ : فتح العرب سورية والجيش البيزنطي.
(«المشرق» ٣٠ : ٣٣٧ ـ ٤٣٦).

ـــــــ : لماذا افتتح العرب سورية.
(«المشرق» ٣٠ : ١٧٨ ـ ١٨٥).

ليبولد و يني :
قلعة الحصن.
(مجلة «المقتطف» ٣ (القاهرة ١٨٧٨) ص ١٠٤ ـ ١٠٦، ١٢٣ ـ ١٢٨).

ماجد (د. عبد المنعم):
«التاريخ السياسي للدولة العربية : عصر الخلفاء الأمويين».
(المجلد الثاني : القاهرة ١٩٧١). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي :

محمود (محمد طه):
«دروس في التاريخ الاسلامي».
(مط السعادة ـ القاهرة، د.ت). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي :

الجزء	الصفحة	
٢	٢٦ ـ ٣٢	واقعة اليرموك وفتح الشام.
٢	٤٧ ـ ٥٣	فتح بلاد الشام.

مخلص (عبد الله، ت ١٣٦٧هـ= ١٩٤٧م):
ضريح أبي عبيدة بن الجراح.
(مجلة «الزهراء ٣ (القاهرة ١٣٤٥هـ) ص ٣٠٦ ـ ٣١٢).

المدائني (أبو الحسن علي بن محمد، ت ٢٢٥هـ= ٨٤٠م):
«فتوح الجزيرة».
(كتاب ضائع. ظ: معجم الأدباء ٥: ٣١٦).

ـــــــ : فتوح الشام منذ أيام أبي بكر وإلى أيام عثمان رضي الله عنهما.
(كتاب ضائع. ظ: الفهرست لابن النديم. ص ١١٥).

ـــــــ : مرج راهط.
(كتاب ضائع. ظ: الفهرست لابن النديم. ص ١١٥؛ معجم الأدباء ٥: ٣١٥).

المراد أبادي (جلال الدين):
غزوة أجنادين وفتح دمشق.
ألفه باللغة الأوردية. (ظ: عبد الحي الحسني : الثقافة الاسلامية في الهند. دمشق ١٩٥٨؛ ص ٧٤).

المسعودي (علي بن الحسين، ت ٣٤٥هـ= ٩٥٦م):
«مروج الذهب ومعادن الجوهر».
تحقيق : شارل بلا CH. BELLAT (المجلد الثالث : بيروت ١٩٧٠). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي :
٣ : ٥٦ ـ ٥٧ أبو عبيدة بن الجراح.

المعلوف (عيسى اسكندر، ت ١٣٧٥هـ= ١٩٥٦م):
الحصون والقلاع في سورية.
(مجلة «المقتطف» ٦١ (القاهرة ١٩٢٢) ص ٣٥٤ ـ ٣٥٩؛ ٦٢ (١٩٢٣) ص ١٢٤ ـ ١٢٨؛ ٦٣ (١٩٢٣) ص ١١٣ ـ ١١٧).

ــــــ : الأسماء اليونانية في دمشق.
(«مجلة المجمع العلمي العربي» ٣ (١٩٢٣) ص ٧٨ ــ ٨٣).

ــــــ : صناعة السيوف في دمشق.
(ضمن بحثه : «صناعات دمشق القديمة»، المنشور في كتاب : «محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق» ١ (دمشق ١٩٢٥) ص ٢٨٥ ــ ٢٨٨).

ــــــ : قلعة عنجر.
(مجلة «المقتطف» ٦٥ (١٩٢٤) ص ٥٨ ــ ٦٢).

المقدسي (مطهر بن طاهر، ت بعد ٣٥٥هـ= بعد ٩٦٦م):
أبو عبيدة بن الجراح.
(«البدء والتاريخ». نشرة مع ترجمة فرنسية، المستشرق كليمان هوار CL. HUART سنة ١٨٩٩ ــ ١٩٠٦؛ ٥ (شالون ــ باريس) ص ٨٧).

المنجد (د. صلاح الدين):
دمشق القديمة : أسوارها، أبراجها، أبوابها.
(دمشق ١٩٥٤؛ ٥٦ ص + ٢خ + ٢ل).
منشورات مديرية الآثار القديمة في سورية.

النجار (عبد الجبار شوكت):
فتح دمشق الشام.
(بغداد ١٩٥٧). مسرحية في فصل واحد.

النجم (حامد سهيل):
أبو عبيدة بن الجراح.
(مجلة «صوت الاسلام» ٢ (بغداد ١٩٦٥) ع ١٠ ــ ١١، ص ٥٧؛ ع ١٢، ص ١٨ ــ ١٩).

النحوي (فوزي علي رضا):
غزة مع الفتح العربي.
(مجلة «الثقافة». دمشق : شباط ١٩٧٩؛ ص ١٦. ضمن بحثه :
«غزة في التاريخ»، المنشور في ص ١٥ ــ ١٧).

نصر (محمد ابراهيم)، سلام (محمد مصطفى):
أبو عبيدة بن الجراح القائد الفذ.
(دار اللواء للنشر والتوزيع ــ الرياض ١٣٩٩هـ؛ ٥٥ ص.
سلسلة : «بطولات اسلامية» رقم ٢٥.

ــــــ : عكرمة بن أبي جهل : قائد الفرقة الانتحارية في اليرموك.
(دار اللواء للنشر والتوزيع ــ الرياض ١٣٩٩هـ؛ ٩٠ ص). سلسلة : بطولات اسلامية». رقم ٤.

النصولي (أنيس زكريا، ت ١٣٧٧هـ= ١٩٥٧م):
الفتوح الأموية في الساحة البيزنطية : ملطية، طرندة، الثغور الشامية، والعواصم، معاملة الفاتحين لسكان سورية، الجراجمة، اللبنانيون، الحملة الى القسطنطينية. (ضمن كتابه : «الدولة الأموية في الشام». مط دار السلام ــ بغداد ١٩٢٧؛ ص ١٦٤ ــ ١٧٤).

النعساني (طاهر، ت ١٣٨٠هـ= ١٩٦١م):
كيف فتح عياض بن غنم الرقة والجزيرة.
(مقدمة تحقيقه لكتاب «تاريخ الرقة : ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والفقهاء والمحدثين للقشيري. مطابع الاصلاح ــ حماة : سورية ١٩٥٩، ص : د ــ و.

النويري (أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ= ١٣٣٣م):
(«نهاية الأرب في فنون الأدب». طبع منه في القاهرة، ٢١ مجلداً. وفيها مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي :

المجلد	الصفحة	
١٩	١١٤ ــ ١١٥	خبر دومة الجندل.
١٩	١١٦ ــ ١١٧	فتوح الشام.
١٩	١٢٠	وقعة أجنادين.
١٩	١٢١ ــ ١٢٥	وقعة اليرموك.
١٩	١٥٥ ــ ١٥٦	فتوح مدينة دمشق.
١٩	١٥٩ ــ ١٦٠	غزوة فحل.

المجلد	الصفحة	
١٩	١٦٠ ــ ١٦١	فتح بلاد ساحل دمشق.
١٩	١٦١	فتح بيسان وطبرية.
١٩	١٦٢ ــ ١٦٤	فتح بعلبك وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان وسلمية واللاذقية وأنطرسوس.
١٩	١٦٤ ــ ١٦٥	فتح قنسرين.
١٩	١٦٥ ــ ١٦٧	فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم.
١٩	١٦٨	فتح قيسارية وحصر غزة.
١٩	١٦٩ ــ ١٧٠	بيسان ووقعة أجنادين وفتح غزة وسبسطية ونابلس وتبني واللد وعمواس وبيت جبرين و يافا.
١٩	١٧١ ــ ١٧٣	فتح بيت المقدس وهو ايلياء.
١٩	١٧٣ ــ ١٧٤	خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين.
١٩	٢٣٨ ــ ٢٣٩	فتح قرقيسيا.
١٩	٣٣٢	الغزوات الى أرض الروم.
١٩	٤١١	غزو معاوية الروم (سنة ٢٥هـ).
١٩	٤١٤ ــ ٤١٧	فتح جزيرة أرواد (سنة ٥٤هـ).
٢١	٣١١	الغزوات الى بلاد الروم، وما فتح منها، وغزوات الصوائف على حكم السنين.

ملاحظة: المجلد ١٩: حققه: محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٧٥).
المجلد ٢١: حققه: علي محمد البجاوي. (القاهرة ١٩٧٦).

هارتمان (المستشرق ريجارد R.HARTMANN):
فتح المسلمين لدمشق.
(«دائرة المعارف الاسلامية» ٩ (القاهرة، دت) ص ٢٦٧ ــ ٢٦٩ ضمن مادة: «دمشق» التي نقلها الى العربية: عبد الحميد يونس).

هاشم (سهيلة):
قلعة شيزر.
(مط وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ دمشق ١٩٦٣؛ ١٦ص + مخطط واحد + ٧ ل).

الهاشمي (طه، ت ١٣٨١هـ = ١٩٦١م):
خالد بن الوليد.
(مط البيت الأخضر ــ القاهرة ١٩٣٨؛ ١٨٤ ص).

ـــــــ: معركة أجنادين: متى وقعت؟ وأين وقعت؟
(«مجلة المجمع العلمي العراقي» ٢ (بغداد ١٩٥٢) ص ٦٩ ــ ١٠٢).

الهرفي (د. محمد بن علي):
من معارك الاسلام الفاصلة: معركة بيت المقدس.
(مجلة «قافلة الزيت» ٢٩ (الظهران: آب ــ أيلول ١٩٨١) ع ١١، ص ٢٩ ــ ٣١).

هنداوي (خليل):
يوم اليرموك.
(دار العلم للملايين ــ بيروت، د ت، ١١٣ص) سلسلة: أيام العرب» ــ ١٠.

هيكل (د. محمد حسين، ت ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م):
جلاء هرقل عن سورية.
وهو بحث عن فتوحات أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد في سورية.
(ضمن كتابه: «الفاروق عمر» ١ (القاهرة ١٣٦٤هـ) ص ٢٢٦ ــ ٢٤٥).

ـــــــ: فتح دمشق وتطهير الأردن (في أيام عمر بن الخطاب).
(«الفاروق عمر» ١: ١٢٩ ــ ١٤٩).

ـــــــ: فتح الشام.
(ضمن كتابه: «الصديق أبو بكر». مط مصر ــ القاهرة ١٣٦١هـ؛ ص ٢٦٢ ــ ٢٩٧).

الواقدي (محمد بن عمر، ت ٢٠٧هـ = ٨٢٣م):
فتوح الشام.
«طبع هذا الكتاب مراراً عديدة، أحصينا منها في كتابنا «مصادر التراث العسكري عند العرب» (٢: ١٨٦ ــ ١٨٧، الرقم ٢٥٦٥)، سبع عشرة طبعة، ظهرت في: كلكتة والقاهرة و بومبي و بيروت. وأقدمها طبعة كلكتة في مجلدين سنة ١٢٧١هـ = ١٨٥٤م.

يحيى (عمر):
قلعة حماة.
(قصيدة نونية، نشرت في مجلة «الزهراء» ٣ (القاهرة ١٣٤٥هـ) ص ٩٩ ــ ١٠٠).

يحيى　ق. عبد الواحد (ت ١٣٨٦هـ= ١٩٦٦م):
فتح الشام.
(مسرحية. طبعت سنة ١٩٣٦. وقد مثلت سنة ١٩٣٧).
ملاحظة: حرف «ق» الوارد في تسمية المؤلف، اختصار قحطان، وهي تسمية أطلقت عليه. واسمه الحقيقي: يحيى عبد الرحمن.

اليعقوبي　(أحمد بن اسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، ت بعد ٢٩٢هـ= بعد ٩٠٥م):
(«تاريخ اليعقوبي» ٢ (دار صادر ـ دار بيروت: بيروت ١٩٦٠). وفيه مما يتصل ببحثنا هذا، ما يأتي:

المجلد	الصفحة	
٢	١٣٨ ـ ١٦١	الفتوحات في أيام عمر بن الخطاب.

مباحث غفل من أسماء كاتبيها

أبو عبيدة عن الجراح
(«دائرة المعارف الاسلامية». الترجمة العربية ١ (القاهرة ١٩٣٣) ص ٣٧٦).

أبو عبيدة بن الجراح
(ط١: دار العودة بيروت ١٩٧٥. ط٢: ١٩٧٩؛ ١٠٧ ص). سلسلة: «أبطال العرب».

خالد بن الوليد: بطل اليرموك.
(ط١: دار العلم للملايين ـ بيروت. ط١: ١٩٧٠؛ ط١٢: ١٩٧٩؛ ١٢٤ص). سلسلة: «الناجحون».

خريطة تاريخية للممالك الاسلامية والفتوحات العربية.
القاهرة ١٩١٥، الحجم ٦٨ × ٥٠ سم.

الروم　(البيزنطيون).
(«الموسوعة العسكرية» ٣: ٢٤٦ ـ ٢٥٦). مما في هذا البحث، كلام على الجيش البيزنطي ابان الفتح العربي وبعده.

السيوف الدمشقية.
(مجلة «المقتطف» ٦ (القاهرة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢) ص ٩٣ ـ ٩٥، ٢٠٥).

غزوة مسلمة والعباس بن الوليد الطوانة.
(«العيون والحدائق في أخبار الحقائق» ٣ (تحقيق: دي غو يه، ليدن ١٨٧١) ص ٣).

فتح دمشق سنة ٦٣٥م.
(«الموسوعة العسكرية» ٢: ٤٤٤).

قصيدة في فتح هرقلة.
(أوردها: أبو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء، في كتابه: «رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة». تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧٢؛ ص ٨٠ ـ ٨٢).

قلعة بعلبك.
(مجلة «المقتطف» ٢٧ (١٩٠٢) ص ٨٢١).

قلعة دمشق.
(«الموسوعة العسكرية» ٢: ٤٤٥).

قلعة الشقيف.
(«المقتطف» ٥٨ (١٩٢١) ص ٥٠٧).

مختصر فتوح الشام للواقدي.
منه نسخة خطية في مكتبة أحمد الثالث باستانبول، تاريخها ٦٧٨هـ= ١٢٧٩م.
ومنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية. ظ: فؤاد سيد: فهرس المخطوطات المصورة ٢ (٢): ٦٣٨، الرقم ٧٩٤).

وصايا أمير المؤمنين أبي بكر الصديق الى قائده عمرو بن العاص في فتح فلسطين.
(مجلة «الركن» ع ١٣ (بغداد ١٩٥٨) ص ٤٠ ـ ٤١).

وصية الصديق (أبي بكر) الى جيش أسامة (لغزو الروم).
(مجلة «الركن» ع ٢٠ (بغداد ١٩٦٥) ص ٥٨ ـ ٥٩).

المصادر الغربيـــة

AHRWEILER (HELENE),
L''ORGANISATION DES COMPAGNES MILITAIRES A BYZANCE.
(IN: "PARRY & YAPP: WAR, TECHNOLOGY AND SOCIETY IN THE MIDDLE EAST", OXFORD, 1975; PP. 89-96).

ANOCOFF:
MEMOIRE SUR L''ACER DAMASSEE.
("ANNUAIRE DU FOURNAL DES MINES DE RUSSIE", 1941, PP. 192-287.

BELATIEV (N.),
DAMASCENE STEEL.
("JOURNAL OF THE IRON AND STEEL INSTITUTE", 1918).

BEUNNETT (C. - M.),
EARLY ISLAMIC AMMAN.
("LEVANT", XI, 1979, PP. 1 - 8).

CASSON (L.),
THE ADMINISTRATION OF BYZANTINE AND EARLY ARAB PALESTINE.
("AEGYPTUS", VOL. XXXII, 1952; PP.54-60).

CHIERA (M.A.),
LA LUTTE ENTRE LES ARABES ET LES BYZANTINS.
(ALEXANDRIE, 1947).

تـنـاول فـيـه مـؤلـفـه الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة، الصراع بين العرب والروم في القرنين السابع والثامن للميلاد.

CONSTANTELOS (D.J.),
THE MOSLEM CONQUESTS OF THE NEAR EAST AS REVEALED IN THE GREEK SOURCES OF THE SEVENTH AND EIGHTH CENTURIES.
("BYZANTION", XLII, 1972; PP. 325-357).

DE GOEJE (M.J.),
MEMOIRE SUR LA CONQUETE DE LAT SYRIE.
(2ED., MEM. D"HIST. ET DE GEOG. ARABE, II, LEIDEN, 1901).

DE LANDBERG (CARLO),
CONQUETE DE LA SYRIE ET DE LA PALESTINE.
(LEIDEN, 1888).

DONNER (F. Mc. G.),
THE EARLY ISLAMIC CONQUESTS.
(PRINCETON, 1931, 328 P., 5 MAPS).

FAHMI (ALI MOHAMED),
MUSLIM SEA-POWER IN THE EASTERN MEDITERRANEAN FROM THE 7TH TO THE 10TH CENTURY A.D.
(ALEXANDRIA, 1950; 194 P., 2ND ED., 2 VOLS., CAIRO, 1966).

GUILLAND (R.),
L"EXPEDITION DE MESLAMA CONTRE CONSTANTINOPLE (717-718).
("AL-MACHRIQ", VOL, 49, BEIRUT, 1955; PP. 89-112).

HAMMER-PURGSTALL (BARON DE),
SUR LES LAMES DES ORIENTAUX.
("JOURNAL ASIATIQUE", 5ME SERIE, III, 1854, PP. 66-80).

HENRY (MYRIAN),
LA CONQUETE DE JERUSALEM.
(PARIS, N.D.)

----- : CAMPAIGN IN NORTHERN SYRIA, A.H. 15 = A.D. 636.).
("ANNALS OF EARLY CALIPHATE", PP. 198-204).

----- : CAMPAIGN IN SYRIA: BATTLE OF UACUS ON THE YARMUK: A.H. 13 = A.D. 634.
("ANNALS OF EARLY CALIPHATE", PP. 91-111).

----- : CAMPAIGN IN SYRIA: TAKING OF DAMASCUS-BATTLE OF FEHL, A.H. 14 = A.D. 635.
("ANNALS OF EARLY CALIPHATE", PP. 144-154).

----- : CONQUEST OF PALESTINE, A.H. 15 = A.D. 636.
("ANNALS OF EARLY CALIPHATE", PP. 205 - 214).

NIEBUHR (B.G.),
GESCHICHTE DER EROBERUNG EL-WAKEDI.
(HAMBURG, 1846).

PANSERI (C.),
DAMASCUS STEEL IN LEGEND AND REALITY.
("CLADIUS", VOL. IV, 1965; PP. 5-66).

PEARSON (J.D.),
ARAB CONQUEST OF SYRIA.
("INDEX ISLAMICUS, 1906-1955", LONDON, 1972; P. 539).

PETERS (F.E.),
ROMANS AND BEDOUIN IN SOUTHERN SYRIA.
("JOURNAL OF NEAR EASTERN STUDIES", XXXVII, 1978; PP. 315-326).

PIASKOWSKI (JERZY),
METALLOGRAPHIC EXAMINATION OF TWO DAMASCENE STEEL BLADE.
("JOURNAL FOR THE HISTORY OF ARABIC SCIENCE", VOL. II. NO. 1, ALEPPO, MAY 1978, PP. 3-30).

SAUVAGET (J.),
LA CITADELLE DE DAMAS.
(PARIS, 1930; 58 P., 28 FIG., 8 PLANCHES).
EXTRAIT DE LA REVUE "SYRIA", II.

------- :
REMARQUES SUR LES MONUMENTS OMEYYADES: CHATEAUX DE SYRIE.
("JOURNAL ASIATIQUE", VOL. CCXXI, 1939; PP. 1-59).

WAKIDI (PSEUDO),
GESCHICHTE DER EROBERUNG VON MESOPOTAMIEN UND ARMENIEN ETC.
(HAMBURG, 1847).

WILKINSON (HENRY),
ON THE CAUSE OF THE EXTERNAL PATTERN, OR WATERING OF THE DAMASCUS SWORD-BLADES.
("JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY," VOL. IV, 1837; PP. 187-193).

SWORDS OF DAMASCUS: THEIR ORIGIN AND FAME.
("THE TIMES OF INDIA", MAY 19TH, 1919).

المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام

جاسر أبو صفيه
كلية الاداب ـ الجامعة الاردنية

لا شك أن دراسة المراسلات النبوية، أو العهود النبوية إذا توخينا الدقة في التعبير، مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، دراسة نقدية، تبعث في النفس الوجل والحذر؛ لأن الباحث يتعامل مع نصوص يفترض أن تكون صادرة عن «الديوان النبوي»، وممهورة بخاتم الرسول، صلى الله عليه وسلم. ولكي أتجنب الوقوع في مزالق قد لا تكون عاقبتها محمودة، آثرت أن أسلك سبيل علماء الحديث في دراسة هذه العهود؛ لأنها جزء من الأحاديث النبوية.

ولعل من المفيد أن أعرض للمصادر التي روت نصوص هذه العهود قبل دراسة السند والمتن.

المصادر: ـ

على الرغم من كثرة المصادر التي روت نصوص العهود النبوية مع القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، فيفضل أن تحصر في خمسة مصادر أساسية هي: السيرة النبوية لابن اسحق (١٥٠هـ) برواية ابن هشام (٢١٣هـ) ومغازي الواقدي (٢٠٧هـ)، وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) وطبقات ابن سعد (٢٣٠هـ)، وفتوح البدان للبلاذري (٢٧٩هـ) وسبب هذا الحصر أن بقية المصادر اعتمدت في روايتها للعهود النبوية على هذه المصادر الأولية، ولعب النساخ دوراً واضحاً في التحريف والحذف والاضافة، كاضافة صلى الله عليه وسلم، في نصوص الكتب، ولهذا سأكتفي بالاشارة إلى هذه المصادر الأولية فيما يتعلق بنصوص العهود.

أما كتب السنة التي يفترض أن تروي مثل هذه النصوص، فمما يؤسف له أنها لم تروها بنصها، واكتفى البخاري والدارمي وابن حنبل مثلا بالاشارة إلى بعض هذه العهود

كمـــا فـعـلـوا مع كتاب الرسول، صلى الله عليه وسلم، لصاحب أيلة إذ قالوا: «عن أبي حميد الـسـاعدي قال: بعث صاحب أيلة الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بكتاب، وأهدى له بغلة بيـضـاء، وكـتـب لـه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأهدى لـه برداً. (١) وفي رواية: «كساه برداً وكـتـب لـه بـبـحـرهـم» (٢). وفـيـمـا يـتـعـلـق بـأكـيدر دومة قالوا: «فحقن له دمه وصالحه على الجزية» (٣).

الاســـنـاد:

لـم تـرو هـذه الـعـهـود بسند متصل في أي من المصادر الأولية أو المتأخرة. فالواقدي مثلا يقول: «حدثني شيخ من أهل دومة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كتب له (لأكيدر) هذا الـكـتـاب». أو بـروايـة: «قـالـوا» (٤). وورد هـذا الـشـيـخ المجهول في رواية أبي عبيد القاسم بن سلام لـكـتـاب أكيدر دومة (٥). ولا نعرف أهما شخص واحد أم شخصان مختلفان. ولكن يبدو أنـهـمـا شـخـصـان مختلفان لاختلاف الألفاظ في الروايتين، ولا سيما أن الواقدي وأبا عبيد نقلا الـكـتـاب نقلا حرفياً؛ فلو كان هذا الشيخ عند الواقدي هو نفسه عند أبي عبيد لما وقع اختلاف في اللفظ.

وأمـا ابـن سـعـد فـقـال: قالوا: «وكتب رسول الله (٦)...». وروى كتاب دومة عن شيخة

المصادر والاسناد وحواشي الكتاب الأول:

١. الدارمي، أبـو مـحـمـد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) السنن، جزءان بعناية محـمـد دهـمـان، طباعة دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، جـ٢ ص ١٣٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الدرامي، السنن.

٢. الـبـخـاري، مـحـمـد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) الجامع الصحيح، ٩ج، دار إحياء التراث العربي/بيروت، دون تاريخ، جـ٢، ١٥٥/الزكاة، جـ٣، ٢١٣/هبة، جـ٤، ١١٩/الجزية. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هـكـذا: الـبـخـاري، الـجـامـع الصحيح؛ ابن حنبل، أحمد (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) المسند، ٦ أجزاء، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٨، جـ٥، ص ٤٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أحمد بن حنبل، المسند.

٣. أبـو داود، سـلـيـمـان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٩م) السنن، ٥ أجزاء، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعـادل الـسـيـد، حـمـص، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤، جـ٣، ص ٤٢٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو داود، السنن.

٤. الـواقـدي، مـحـمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م)، المغازي، ٣ج، تحقيق الدكتور مارسدن جونز، بيروت، ١٩٦٦م، عن طبعة لندن، جـ٣، ص ١٠٣٠ ـ ١٠٣٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، المغازي.

٥. أبـو عـبـيـد، الـقـاسـم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، الطبعة الأولى، مصر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو عبيد، الأموال.

٦. ابـن سـعـد، محمد (٢٣٠هـ/٨٤٥م) الطبقات الكبرى، ٩ج، تحقيق: الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م. جـ١، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.

الـواقـدي مـسـتـعـمـلا صيغة من صيغ التدليس في ذكر أسماء الشيوخ وهو قوله: «أخبرنا محمد ابن عـمـر الأسـلـمـي قال: حدثني شيخ من أهل دومة...» (٧) والأسلمي هذا هو محمد بن عمر الواقدي (٨).

وهـذا الـنـمـط مـن الاسـنـاد لا يـعـتد به عند علماء الحديث، ولا سيما أن الواقدي متهم عـنـدهـم بـالـكـذب عـلى رسـول الله، صلى الله عـلـيه وسلم، قال في «التهذيب» (٩): البخاري: مـتـروك الـحـديـث. وقـال أحمد: الواقدي كذاب. وقال الشافعي فيما أسنده البيهقي: كتب الـواقدي كلها كذب، يكذب على رسول الله. وقال ابن المديني: عنده عشرون ألف حديث ما لها أصل».

راو يـة يتصف بمثل هذه الصفات يوقع الأخذ بروايته في كثير من المزالق، ولا سيما أنه يروي نصوصاً صادرة عن الرسول، كما أشرت، وليست مجرد رواية تاريخية يمكننا أن نتساهل في قـبـولـهـا. وهـكـذا نـجد أن السند الذي رو يت به هذه العهود النبو ية ساقط. ولكن الأمانة الـعـلمية تقتضي ألا يكتفى بدراسة السند واسقاطه، بل لا بد من النظر في المضمون أو المتن كما يـسـمـيـه عـلـماء الجرح والتعديل. وفيما يلي سأعرض لمضمون هذه العهود واحداً واحداً مشيراً الى ما تثيره من قضايا عقدية أو فقهية أو لغو ية.

الكتاب الأول
الى أكيدر دومـــة (١٠)

وصـلـنـا هـذا الـكـتـاب بـروايتين فيهما بعض الاختلاف، وكلاهما مروي عن الواقدي. قـال: حـدثـنـي شـيـخ مـن أهـل دومـة أن رسـول الله، صلى الله عـلـيـه وسـلـم، كـتـب لـه هـذا الكتاب: (١١)

«بـسـم الله الـرحـمـن الـرحـيـم. هـذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى

٧. ابن سعد، الطبقات، جـ١ ص ٢٨٨.

٨. ابـن حـجـر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، تهذيب التهذيب ١٢ج حيدر آباد، ١٣٢٥هـ، جـ٩، ٩ ص ٣٦٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب.

٩. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، جـ٩، ص ٣٦٤ وما بعدها.

١٠ انظر ترجمة أكيدر في:
ابـن الأثـيـر، عـز الـديـن أبـو الـحـسـن علي بـن مـحـمـد الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) أسد الغابة في معرفة الـصـحـابـة، ٥ج، دار الـشـعـب، الـقـاهـرة ١٩٧٠م، جـ٥، ص ٢٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هـكـذا: ابـن الأثـيـر، أسـد الـغـابـة. ودومـة الـجـنـدل: حصن وقرى بين الشام والمدينة على سبع مراحل من دمـشـق. يـاقـوت الـحـمـوي، يـاقـوت بـن عـبـد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، مـعـجـم الـبـلـدان، ٥ح، بـيـروت ١٣٧٦هـ، جـ٢، ص ٦٣٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم البلدان.

١١. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠٣؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٨٨؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٢٨٢.

الاسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد، سيف الله، في دومة الجندل وأكنافها. وان لنا الضاحية من الضحل، والبور، والمعامي، وأغفال الأرض، والحلقة، والسلاح، والحافر، والحصن، ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور بعد الخمس. لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم. ولا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات. تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة لحقها. عليكم بذلك العهد والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين».

و يثير هذا النص الملاحظات التالية: ـ

١. يتضح من خلال هذا الكتاب أن أكيدر بن عبد الملك أسلم وترك عبادة الأصنام، بينما تذكر كتب السنة أنه لم يسلم، وإنما صالحه الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الجزية، كما أشرت آنفاً، وكما ذكر الواقدي نفسه في رواية أخرى (١٢).

وقد حاول ابن حجر في «الاصابة» (١٣) أن يوفق بين الروايات المتناقضة في مسألة اسلام أكيدر أو عدم اسلامه فقال: «فالذي يظهر أن أكيدر صالح على الجزية كما قال ابن اسحق، و يحتمل أن يكون أسلم بعد ذلك كما قال الواقدي، ثم ارتد بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، كما قال البلاذري» (١٤).

ولعل من الصعب ترجيح رواية على أخرى في حكاية اسلام أكيدر، وان كنا أميل الى رواية عدم اسلامه كما ذكرت كتب السنة. ولكننا سنفترض أنه أسلم كما ورد في هذا الكتاب، ليتسنى لنا التعليق على ما ورد فيه من بنود تتناقض مع كونه دخل في الاسلام.

٢. ينص الكتاب على أن الضاحية من الضحل (هكذا)، والبور، والمعامي، وأغفال الأرض،

---

١٢. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠٢٧؛ ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) زاد المعاد في هدى خير العباد، ٨ج، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. جـ٣، ص ٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن القيم، زاد المعاد؛ ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ٢ح، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، دمشق، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، جـ١، ص ٥٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن القيم، أحكام أهل الذمة؛ ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط، ٢ج، تحقيق: سهيل زكار، مصر، ١٩٦٧م، جـ١، ص ٦٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خياط، تاريخ؛ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) السيرة النبوية، ٤ج، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م، جـ٤، ص ١٧٠، جـ٤، ص ٣٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن كثير، السيرة.

١٣. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الاصابة في تمييز الصحابة، ٨ج، تحقيق علي البجاوي، القاهرة، دون تاريخ، جـ١ ص ٢٤٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر، الاصابة.

١٤. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، خمسة أقسام، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ق ١ ص ٨٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

والحلقة والسلاح، والحافر والحصن للمسلمين. وأما أهل دومة فلهم: الضامنة من النخل والمعين من المعمور بعد الخمس.

وقبل أن أعلق على هذا البند أود الاشارة الى التصحيف الذي وقع في نص الواقدي وابن سعد وأبي عبيد القاسم بن سلام، اذ شرحوا «الضحل» بقولهم: «الذي فيه الماء القليل»، ولا معنى له هنا. قال ابن منظور في «لسان العرب» (١٥): «والضواحي من النخل: ما كان خارج السور، صفة غالبة؛ لأنها تضحى للشمس. وفي كتاب النبي، صلى الله عليه وسلم، لأكيدر ابن عبد الملك: «لكم الضامنة من النخل، ولنا الضاحية من البعل». يعني بالضامنة: ما أطاف به سور المدينة. والضاحية: الظاهرة البارزة من النخيل، الخارجة من العمارة التي لا حائل دونها. والبعل: النخل الراسخ عروقه في الأرض. وعلى هذا يستقيم المعنى.

والذي يلفت النظر في هذا البند هو استيلاء المسلمين على الأسلحة والدروع والحصن والخيل والبغال والحمير، إذ كيف يفعلون ذلك والقوم قد دخلوا في الاسلام كما ذكر في البند السابق؟ فالمرء حينما يسلم لا يتعرض شيء من أمواله للاستيلاء أو المقاسمة، وانما يكتفى منه بالزكاة انطلاقاً من قول الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم: «إن القوم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم ودماءهم» (١٦). وتسقط عنهم الجزية (١٧)، وأصبحوا مثل المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (١٨).

ومن ثم ما الذي يستفيده المسلمون اذا استولوا على المعامي وأغفال الأرض التي ليس فيها أثر يعرف؟

وقوله: «ولكم المعين من المعمور بعد الخمس» يتناقض مع كونهم مسلمين، اذ لماذا

---

١٥. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، ١٥ج، دار صادر، بيروت، جـ١٤، ص ٤٧٤ مادة (ضحا). سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن منظور، لسان العرب.

١٦. الدارمي، السنن جـ٢، ص ٢٢٨؛ مالك بن أنس، (ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م) الموطأ، جزءان، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، مصر، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، جـ٢، ص ٤٧٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مالك بن أنس، الموطأ.

١٧. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية بيروت، ت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ١٤٢، وما بعدها. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الماوردي، الأحكام السلطانية؛ ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، جـ١، ص ٥٧؛ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧٠هـ/ ١٢٧٣م) الجامع لأحكام القرآن، المعروف بتفسير القرطبي، ٢٠ جزءاً. دار الكتب المصرية، ١٩٦٦م، جـ١، ص ١١٣ ـ ١١٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القرطبي، التفسير.

١٨. مالك بن أنس، الموطأ، جـ٢، ص ٤٧٠؛ مسلم بن الحجاج، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، صحيح مسلم بشرح النووي، ١٨ج، طبعة ثانية، مصر، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، جـ١٢، ص ٣٧، فما بعدها. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي.

يأخذ منهم الخمس الذي لا يؤدى الا في حال الغنائم انطلاقاً من قوله تعالى في سورة الأنفال (٤١):
«واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل». وعملا بقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، لوفد عبد القيس: «وأن تؤدوا الي خمس ما غنمتم» (١٩).

٣. تضمن الكتاب بعض الجمل المسجوعة كقوله: «الضامنة من النخل، والضاحية من الضحل»، وقوله: «لا تعدل سارحتكم، ولا تعد فاردتكم» وقوله: «لا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات»، وقوله: «تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة لحقها». وهو أسلوب لا نجده في رسائله وخطبه وأقواله التي روتها كتب السنة الصحيحة، بل نجده ينهى عن السجع و يستنكره وذلك قوله لرجل قال له: «تغرمني من لا أكل، ولا شرب ولا صاح فاستهل فمثل ذلك يطل؟ فقال الرسول: «سجع كسجع الجاهلية؟ (٢٠) وذكر ابن القيم في «زاد المعاد» أن خطب الرسول، صلى الله عليه وسلم، كانت تخلو من السجع وعلم البديع (٢١).

٤. قوله: «شهد الله ومن حضر من المسلمين» صيغة لم تكن مستعملة في كتب الرسول الرسمية؛ اذ كانت كتبه تنتهي بذكر اسم الكاتب وتاريخ كتابة الكتاب أو العهد، وهو ما لا نجده في هذا الكتاب (٢٢).

٥. ومما يبعث على العجب في هذا الكتاب أن يختمه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بظفره، بحجة أنه لم يكن يحمل خاتمه، وهو الذي ما كان يستغني عن الختم بخاتمه في الكتب

---

١٩. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م) السنن، ٨ج، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ، جـ٨، ص ١٢٠، كتاب الايمان. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: النسائي، السنن: أبو عبيد، الأموال، ص ٤٢٤ فما بعدها ينظر فيه تفصيل الخمس.

٢٠. النسائي، السنن، جـ٨، ص ٥٠٤٩؛ أحمد بن حنبل، المسند جـ٦، ص ٢١٧؛ النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) رياض الصالحين، شرح الدكتور صبحي الصالح المسمى «منهل الواردين» دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٧م، جـ٢، ص ٩٠٧ نهى الرسول عن التكلف. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: النووي، رياض الصالحين؛ البخارى، الجامع الصحيح، جـ٨، ص ٩١، نهيه عن السجع.

٢١. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، جـ١، ص ١٤٥.

٢٢ البخاري، محمد بن اسماعيل، الادب المفرد، نشره قصي محي الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٧٩هـ، ص ٣٨٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البخاري، الأدب المفرد؛ وقارن برسائل قرة في:
Grohmann, Arabic Papyri, Vol. III, Cairo, pp. 3 - 32
سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: Grohmann, Arabic Papyri 1938.

الى البلدان وأجوبة العمال وقواد السرايا (٢٣). وكان له موظف خاص يتولى أمر الخاتم هو معيقيب بن ابي فاطمة (٢٤).

وخلاص القول في هذا الكتاب أن الباحث يجد نفسه مضطراً الى التردد في قبوله على أنه صحيح النسبة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، للملاحظات المذكورة آنفاً. وعلى العكس من ذلك يجد نفسه أميل الى قبول الرواية الأخرى للكتاب، وهي التي ذكرها ابن حجر في «الاصابة» نقلا عن الواقدي، (٢٥) ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الاسلام، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد، سيف الله، في دومة الجندل: تقيمون الصلاة، وتؤتون الزكاة. عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، ولكم الصدق والوفاء» (٢٦).

ولعل سبب الميل الى قبول هذه الرواية يرجع الى أن الباحث قد لا يجد مطعناً عليها الا ما كان من سندها، وهو قوله: «حدثني شيخ من دومة الجندل»، ومخالفة هذه الرواية لرواية عدم إسلام أكيدر وإقراره بالجزية. وما عدا ذلك فنص الكتاب هنا لا تناقض فيه ولا تعارض مع قواعد الاسلام في مثل هذا الموقف.

---

٢٣. الكتاني، عبد الحي، التراتيب الادارية، ٢ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ، جـ١، ص ٧٧، سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الكتاني، التراتيب الادارية.

٢٤. ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٥، ص ٢٤١؛ ابن عبد البر، يوسف أبو عمر (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ج، تحقيق علي البجاوي، القاهرة، دون تاريخ، جـ٤، ص ١٤٧٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد البر، الاستيعاب.

٢٥. لم أجد هذه الرواية في كتاب المغازي.

٢٦. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ١، ص ٢٤٥

الكتاب الثاني
الى أسقف أيلــــة

بين أيدينا روايتان لهذا الكتاب : ــ

أ) الرواية الأولى :

قال الواقدي : «وكانت دومة وأيلة (١) وتيماء (٢) قد خافوا النبي، صلى الله عليه وسلم، لما رأوا العرب قد أسلمت. وقدم يحنة بن رؤبة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وكان ملك أيلة ــ وأشفقوا أن يبعث اليهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما بعث الى أكيدر وأقبل معه أهل جرباء وأذرح، فأتوه فصالحهم وقطع عليهم الجزية ــ جزية معلومة ــ وكتب لهم كتاباً : (٣).

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمنة من الله ومحمد النبي، رسول الله، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة : لسفنهم وسائرهم في البر والبحر. لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. ومن أحدث حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس. وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر. هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

قد يخرج دارس هذا النص بالملاحظات التالية : ــ

١. ما المقصود بقوله : «وأهل اليمن» ؟ هل المقصود أهل اليمن الذين تقع بلادهم جنوب الجزيرة العربية وهو بعيد جداً ؟ أم المقصود بأهل اليمن أهل تيماء من وجهة نظر أهل الشام لوقوع تيماء جنوب بلاد الشام ؟ وأياً كان المقصود «بأهل اليمن» تبقى الملاحظة قائمة : اذا كان المقصود بأهل الشام واليمن والبحر القبائل التي أتت مع ملك أيلة. فلماذا يفردهم الرسول بكتب أمان مستقلة عن هذا الكتاب، كما سنرى، ما داموا قد ذكروا فيه ؟

حواشي الكتاب الثانــي :

١. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٢٩٢.
أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام.

٢. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٩٠٧. تيماء : بليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق.

٣. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠٣١؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٨٩؛ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) السيرة النبوية، ٤ أجزاء، تحقيق، مصطفى السقا ورفاقه طبعة ثانية، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، جـ٤، ص ١٦٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن هشام : السيرة.

وتبقى الصيغة مبهمة وهو أمر لم يعرف عن النبي، صلى الله عليه وسلم.

٢. قوله : «فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس». نواجه في هذه العبارة بمصطلح غائم هو «حدث»؛ اذ لا نعرف ما هو هذا الحدث ولا نوعه. وهل يستحق هذا الحدث أن تباح أموال مرتكبه لأي انسان ؟ أمر يتعارض مع أبسط قواعد الفقه الاسلامي الذي تضمن عقوبات مقررة لأجل حق الله عرفت بالحدود، وهي : حد الزنا، وحد القذف، وحد السرقة، وحد السكر، وحد القتل، وحد المحاربة، وحد الردة، وحد البغي. فكل من يرتكب جريمة من هذه الجرائم يطبق عليه الحد المقرر في الاسلام (٤). وليس بين هذه العقوبات ما يوجب أن تصادر أموال مرتكبه في حال تطبيق عقوبة القتل عليه؛ لأن أمواله ستؤول الى ورثته بعد موته، فكيف يكون ماله طيباً لمن أخذه من الناس ؟ أما اذا كان المقصود بالحدث الزنا. من قولهم : أحدث الرجل والمرأة : اذا زنيا، فعقوبة الزنا معروفة في الاسلام، وهي الرجم للمتزوج، والجلد والتغريب للعزب (٥).

٣. يلاحظ أن الكتاب يخلو من أي اشارة إلى الجزية أو الاستيلاء على جزء من أموال أهل أيلة كما رأينا في كتاب أكيدر، على الرغم من ذكره اسلام أكيدر، وعدم اسلام أسقف أيلة. فما السر هنا في اغفال هذا الأمر ؟

٤. ختم الكتاب بقوله : «هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله». وهي صيغة غريبة على كتب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، التي كان يكتفى في خواتيمها بقوله : «وكتب فلان» دون ذكر «باذن رسول الله»، و يذكر بعد ذلك التاريخ، كما أشرت سابقاً (٦). وجرت العادة أن يكتب الكتاب كاتب واحد لا كاتبان كما هو ظاهر هنا.

ب) الرواية الثانية :

قال ابن سعد : قالوا : وكتب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الى يحنة بن رؤبة وسروات أهل أيلة (٧) :

«سلم أنتم، فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو، فاني لم أكن لاقاتلكم حتى أكتب اليكم. فاسلم أو اعط الجزية، وأطع الله ورسوله ورسل رسوله، وأكرمهم، وأكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاة. واكس زيداً كسوة حسنة. فمهما رضيت رسلي فاني قد رضيت. وقد علم الجزية. فان أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله، و يمنع عنكم كل حق كان للعرب

٤. انظر في ذلك : سيد سابق، فقه السنة، ٦ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ثالثة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، جـ٢، ص ٣٥٥ فما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : سيد سابق، فقه السنة.

٥. سيد سابق، فقه السنة (حد الزنا)، جـ٢، ص ٤٠١.

٦. أنظر رقم ٤ من التعليق على الكتاب الأول.

٧. ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٧٧.

والعجم الا حق الله وحق رسوله. وانك ان رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئاً حتى أقاتلكم فأسبي الصغير وأقتل الكبير، فاني رسول الله بالحق، أومن بالله وكتبه ورسله و بالمسيح بن مريم أنه كلمة الله، واني أومن به أنه رسول الله وأت قبل أن يمسكم الشر، فاني قد أوصيت رسلي بكم. وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعيراً. وان حرملة شفع لكم، واني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش. وانكم إن أطعتم رسلي فان الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه. وان رسلي: شرحبيل وأبي وحرملة وحريث بن زيد الطائي. فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته. وان لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله. والسلام عليكم ان أطعتم. وجهزوا أهل مقنا الى أرضهم».

صيغة هذا الكتاب مناقضة تماماً لصيغة النص الأول، فهناك اشعار بكتاب أمان، وهنا رسالة يدعو فيها الرسول، صلى الله عليه وسلم، أهل أيلة الى الاسلام أو اعطاء الجزية. وأول ما يلفت النظر في هذا الكتاب لغته الركيكة وهو ما لا يتوقع صدوره عن الرسول أفصح العرب. وأسلوب الكتاب يوحي بأنه مترجم عن لغة أخرى، والمترجم لا يحسن من العربية شيئاً، فجاء الكتاب جملا مقطعة الأوصال لا رابط بينها، وهو أسلوب غريب عن العربية. و يتضح هذا الأسلوب في قوله: «غير كسوة الغزاة»، وهي كسوة لا نعرف من أمرها شيئاً، وقوله «فمهما رضيت رسلي فاني قد رضيت»، وقوله: «وقد علم الجزية» الى غير ذلك من جمل وعبارات لا تليق بمقام رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وفيما يلي سأعرض لبعض الملاحظات التي يمكن أن تسجل على النص شكلا ومضموناً:

١. قوله: «سلم أنتم» يخالف ما كان يخاطب به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أهل الكتاب؛ اذ لا يقول لهم في كتبه «سلم انتم» بل كان يكتب إليهم: «سلام على من اتبع الهدى» في صدور الرسائل، «والسلام على من اتبع الهدى» في الخواتيم(٨). ومن هنا لا يصح ما جاء في آخر الكتاب وهو قوله: «والسلام عليكم إن أطعتم».

ومما يندرج تحت هذه الملاحظة أيضاً قوله لهم: «فاني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وهي صيغة لا يكتب بها إلا للمسلمين، أما غير المسلمين فيكتب لهم: فاني

٨. البخاري، الأدب المفرد، ص ٣٧٩؛ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، صحيح الترمذي، ١٣ جزء، شرح ابن العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، جـ١، ص ١٨٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الترمذي، الصحيح؛ البخاري، الجامع الصحيح، جـ١، ص ٧، جـ٣، ص ٨٢؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ١٤جزءاً، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩١٣م، جـ٦ ص ٣٦٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى؛ وقارن برسائل قرة في: Grohmann, Arabic Papyri, III, pp. 3 - 32.

أحمد الله الذي لا اله إلا هو» دون ذكر «اليكم»(٩). واذا كان قرة بن شريك العبسي، والي مصر في عهد الوليد بن عبد الملك، يكتب لغير المسلمين: «فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو» «والسلام على من اتبع الهدى»(١٠)، فمن الأولى أن نجد هذا الأسلوب متبعاً في كتب الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولا سيما أنه هو واضع أسس الكتابة الاسلامية في الرسائل.

٢. قوله: «واكس زيداً كسوة حسنة». لا نعرف من هو زيد هذا الذي يصر الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أن يكسى كسوة حسنة، فسياق النص يوحي بأن زيداً هو أحد رسل الرسول الى أسقف أيلة، بينما لا يرد اسمه ضمن أسماء الرسل الذين حشروا في آخر الرسالة وهم: حرملة وأبي، وشرحبيل وحريث بن زيد. ومما يلفت النظر في أمر هؤلاء الرسل الحاح الرسول على أن يعطى حرملة ثلاثة أوسق شعيراً، وأنه هو الذي شفع لأهل أيلة عند الرسول، (ولولا الله وذلك) لحاربهم. وحرملة هذا لم أستطع التعرف اليه من بين الصحابة الاثني عشر الذين ترجم لهم ابن حجر في «الاصابة» ممن يحملون اسم حرملة. ولم أجد واحداً منهم تنطبق عليه هذه الصفة التي تجعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، يقبل شفاعته في أهل أيلة، و يخالف القواعد التي وضعها هو نفسه فيما يتعلق بدعوة الناس الى الاسلام قبل محاربتهم(١١).

وحكاية إرضاء الرسل، التي هي محور هذا الكتاب، وكسوتهم، واعطائهم شعيراً، تظهر الرسول في صورة لا يقبلها هو نفسه، ولا يرضاها مسلم عاقل. ولا يعقل أيضاً أن يقرر الرسول قتالهم إذا لم يرضوا رسله، فيقتل الكبير و يسبي الصغير؛ لأن الرسول نفسه يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، و يقيموا الصلاة، و يؤتوا الزكاة. فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله(١٢).

وأما حريث بن زيد الطائي، فقد ذكر ابن حجر في «الاصابة»(١٣) رواية عن الواقدي أنه كان رسول النبي الى نجبة بن زربة وأهل أيلة. ولم أجد ذلك في مغازي الواقدي أو أي مصدر آخر. وفي موضع آخر يذكر ابن حجر أن الذي كتب الكتاب ليحنة ابن رؤبة هو جهيم بن الصلت، كما في الكتاب السابق. ولكنه لم يرو النص، واكتفى بالقول: «وكتب له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كتاباً فهو عندهم. وفي آخره: وكتب

٩. Grohman, Arabic Papyri Vol. III, pp, 3 - 32.

١٠. Grohmann, Arabic Papyri, III, 32 - 313.

١١. الترمذي، الصحيح، جـ٧، ص ٣٢؛ مسلم، الصحيح، جـ١٢، ص ٣٧.

١٢. البخاري، الجامع الصحيح، جـ٩، ص ١٩، ١٣٨؛ أحمد بن حنبل، المسند جـ١، ص ١١، ١٩، ٣٥.

١٣. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٢، ص ٥٤.

جهيم بن الصلت، وكان يكتب أموال الصدقات»[١٤].

٣. قوله: «وان حرملة شفع لكم. واني لولا الله وذلك لم أراسلكم» عبارة تشعر بالشرك، وهو ما كان يحذر منه الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ لأن المعطوف بالواو يكون مساو ياً للمعطوف عليه، وتسوية المخلوق بالخالق باب من أبواب الشرك[١٥].

٤. قوله: «فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته» يتعارض مع أبسط قواعد الاسلام في نشر الدعوة الاسلامية؛ فالرسل لا يملكون أن يقاضوا الناس حسب أهوائهم في مثل هذا الموقف. ومن القواعد المقررة في الفقه الاسلامي أن القوم الذين توجه لهم الدعوة للدخول في الاسلام و يرفضون ذلك، تعرض عليهم الجزية، فان أبوا فالحرب[١٦]. فعلى أي شيء سيقاضون أهل أيلة والموقف لا يقتضي المقاضاة؟ ولا سيما أن المقاضاة لا تكون إلا بين المتخاصمين.

والأهم من كل هذا أنه لم يثبت أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أرسل رسلا الى ملك أيلة، بل الذي جاء الى الرسول هو ملك أيلة وكتب له الرسول كتاباً ببحرهم كما أشرت آنفاً.

٥. قوله: «وجهزوا أهل مقنا الى أرضهم «عبارة لا يترشح منها معنى؛ اذ ما علاقة أهل أيلة بمقنا؟ وكيف يجهزونهم الى أرضهم؟.

١٤. المصدر نفسه، جـ١، ص ٥٢٤.

١٥. انظر التفصيل عن الشرك في كتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٨٥هـ/١٨٦٩م) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة تاسعة، مكة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٤١٧ فما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: آل الشيخ، فتح المجيد.

١٦. انظر المصادر في حاشية ١٢.

الكتاب الثالث
الى أهل جرباء[١] وأذرح[٢]

قال الواقدي: نسخت كتاب أذرح واذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي، صلى الله عليه وسلم، لأهل أذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مئة دينار في كل رجب وافية طيبة. والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين، ومن لجأ اليهم من المسلمين من المخافة والتعزير، اذا خشوا على المسلمين. وهم آمنون حتى يحدث اليهم محمد قبل خروجه»[٣].

لعل إلقاء نظرة عجلى على هذا الكتاب تعطي الدارس انطباعاً بأنه لا مطعن فيه، فهو يتحدث عن أخذ الجزية من أهل الكتاب، و يشترط عليهم أن يقدموا النصح للمسلمين، وهم آمنون الى أن يقرر الرسول غير ذلك. ولكن النظرة المتفحصة لهذا الكتاب تدعو الباحث الى تسجيل الملاحظات التالية: ـ

١. قوله: «وأن عليهم مئة دينار في كل رجب وافية طيبة» يبين مقدار الجزية المفروضة عليهم سنو ياً، وهو رقم يدعو إلى الشك من وجهين:

الوجه الأول : أنه رقم اجمالي، لا يبين مقدار الجزية المفروضة على الفرد الواحد؛ لأن المبلغ يتوقع أن يزيد في السنة القادمة تبعاً لزيادة عدد الذكور الذين يبلغون مبلغ الرجال وتستحق عليهم الجزية، ولأن الجزية تفرض على الرؤوس منفردة لا مجتمعة، كما في الحديث المرفوع الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن معاذ بن جبل قال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، الى اليمن وأمرني أن آخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافر»[٤].

والوجه الثاني : أن مقدار الجزية على الفرد الواحد مسألة خلافية بين الفقهاء؛

حواشي الكتاب الثالث:

١. ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ١١٨. جرباء، موضع من أعمال عمان بالبقاع من أرض الشام قرب جبال الشراة من ناحية الحجاز، وهي قرية من أذرح.

٢. ياقوت، معجم البلدان جـ١، ص ١٢٩. أذرح، بلد من أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء وعمان، مجاورة لأرض الحجاز.

٣. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠٣٢؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٩٠.

٤. النسائي، السنن، جـ٥، ص ٢٦؛ الترمذي، الصحيح، جـ٣، ص ١١٥؛ يحيى ابن آدم، (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ص ٦٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: يحيى بن آدم، الخراج.

لأنهم لا يملكون بين أيديهم سوى نص واحد عن الرسول يشير الى مقدارها، وهو حديث معاذ السابق الذي لا يبلغ درجة الحديث الصحيح بل الحسن كما قال الترمذي(٥). ولذلك نجد الكتب التي ناقشت موضوع الجزية ومقدارها لا تشير من قريب أو بعيد الى كتاب أذرح وجرباء، في الوقت الذي يشيرون فيه إلى كتاب الرسول إلى معاذ. فلو كان كتاب أذرح صحيحاً لاعتمده الفقهاء في مناقشتهم لموضوع الجزية(٦).

٢. قوله: «والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين، ومن لجأ اليهم من المسلمين من المخافة والتعزير اذا خشوا على المسلمين». هذه العبارة ذات تركيب لغوي مضطرب سببه جملة: «إذا خشوا على المسلمين» فهي بهذه الصيغة لا يترشح منها معنى. أما إذا حذفت هذه الجملة فتستقيم العبارة، ولكنها تبعث في النفس الشك؛ اذ لا نجد في شروط عقد الجزية مع أهل الذمة في الكتب التي ذكرت هذه الشروط أي اشارة الى تعهد الذميين بالنصح للمسلمين(٧)؛ لأن الرسول لا يتوقع من غير المسلم أن يمحض المسلمين النصح، وان فعل ذلك فلا يتوقع منه أن يكون مخلصاً في نصحه.

أما قوله: «ومن لجأ اليهم من المسلمين من المخافة والتعزير، فلا أدري كيف يطلب اليهم أن يقدموا النصح لمن يلجأ اليهم من المسلمين الذين اقترفوا ذنباً يستحقون معه التعزير؟ اذ المفروض أن يطلب اليهم ارجاع هؤلاء المسلمين الفارين لا أن يطلب اليهم أن يعاملوهم معاملة المسلمين الذين لم يرتكبوا ذنباً.

وتجدر الاشارة إلى أن الواقدي في رواية أخرى لهذا الكتاب توقف عند قوله: «والله كفيل عليهم»(٨)، ولم يذكر ما جاء بعدها من أمر النصح للمسلمين.

٣. قوله: «وهم آمنون حتى يحدث اليهم محمد قبل خروجه». أي اذا أراد الخروج كما فسره ابن سعد(٩). وهذا يوحي بأن مدة هذا الأمان تنتهي بخروج الرسول من تبوك وعودته إلى المدينة، وهو ما يتناقض مع قوله السابق: «وأن عليهم مئة دينار في كل رجب»؛ إذ كيف يفرض عليهم الجزية التي تدفع سنوياً ما دام الأمان ليس له صفة

٥. الترمذي، الصحيح، جـ٣، ص ١١٥.

٦. انظر حول الجزية ومقدارها: القرطبي، التفسير، جـ٨، ص ١١٨؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٤ فما بعدها؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٣٧، فما بعدها؛ ابن القيم، أحكام أهل الذمة، جـ١ ص ٢٦، فما بعدها. ورقم 1345 و1356 من ترجمة الأوراق البردية اليونانية في المتحف البريطاني، مجلة دير اسلام، مجلد ٢، ١٩١١م

٧. انظر المصادر السابقة، حاشية ٦.

٨. انظر هذه الرواية في: الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠٣٢؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٩٠.

٩. ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٩٠.

الاستمرار(١٠)، ومعروف أن الجزية تدفع للمسلمين مقابل حمايتهم لأهل الذمة، وتسقط اذا تعذرت هذه الحماية(١١). وهذا الشرط يتناقض أيضاً مع طلبه اليهم أن يقدموا النصح للمسلمين؛ لأن هذا الطلب لا يتم تنفيذه إلا في المستقبل، أي بعد خروج الرسول من منطقة تبوك.

١٠. ابن قيم الجوزية، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ١٠٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن القيم، المنار المنيف.

١١. انظر المصادر في الحاشية رقم ٦؛ والبلاذري، فتوح البلدان ص ١٨٧.

الكتاب الرابع
الى أهل مقنـــا (١)

صدر البلاذري هذا الكتاب بقوله: «وأخبرني بعض أهل مصر أنه رأى كتابهم (أي أهل مقنا) بعينه في جلد أحمر دارس الخط، فنسخه وأمل علي نسخته (٢):

«بسم الله الرحمن الرحيم. [من محمد رسول الله الى بني حبيبة وأهل مقنا. سلم أنتم] (٣). فانه أنزل علي انكم (٤) راجعون الى قريتكم، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون، ولكم ذمة الله وذمة رسوله. وان رسول الله قد غفر (٥) لكم ذنوبكم (٦) [وكل دم أتبعتم به. لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله] (٧). وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان (٨). وأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يجيركم مما يجير منه نفسه (٩). فان لرسول الله بزتكم (١٠) ورقيقكم، والكراع، والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله. وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم، وربع ما صادت عروككم، وربع ما اغتزلت نساؤكم، وأنكم قد [برئتم بعد ذلك من كل جزية أو سخرة] (١١). فان سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم و يعفو عن مسيئكم. من ائتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له (١٢). وليس عليكم

حواشي الكتاب الرابع:

١. مقنا، قرب أيلة. ياقوت، معجم البلدان جـ٥، ص ١٨٧.
٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٠ ــ ٨١. وقارن بابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٧٧.
٣. ما بين المعقفين ليس في ابن سعد.
٤. في ابن سعد، الطبقات، «فقد نزل علي أيتكم».
٥. في ابن سعد، «غافر لكم».
٦. في ابن سعد، بعد ذنوبكم «وسيئاتكم».
٧. ما بين المعقفين ليس في ابن سعد.
٨. في ابن سعد: «عدي».
٩. في ابن سعد: «جاركم مما منع منه نفسه».
١٠. ابن سعد، الطبقات، «بزكم».
١١. ما بين المعقفين من ابن سعد، لأن العبارة في الواقدي مضطربة.
١٢. في ابن سعد، الطبقات، أما بعد، فالى المؤمنين والمسلمين: من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له.

أمير الا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله. [وكتب علي بن أبو طالب في سنة ٩] (١٣).

أول ما يلفت النظر في رواية البلاذري لهذا الكتاب ما جاء في الاسناد وهو قوله: «وأخبرني بعض أهل مصر أنه رأى كتابهم بعينه في جلد أحمر دارس الخط فنسخه......». ولست أدري كيف ينسخه وهو دارس الخط؛ اذ المعروف أن معنى دارس: ممحو، من قولهم: درس الشيء والرسم يدرس دروساً: عفا. ودرسته الريح تدرسه درساً: أي محته (١٤). وهذا بحد ذاته كاف لرد الكتاب. واذا لم يكن هذا كافياً فنص الكتاب يدل على أثر الوضع والافتعال؛ فقد ذكر محققا كتاب «فتوح البلدان» أن ابن عساكر قد نبه في حاشية إحدى نسخ الكتاب على ما في كتاب أهل مقنا من افتعال اعتماداً على ما ورد في آخره وهو قوله: «وكتب علي بن أبو طالب». ودليله على هذا الافتعال أن علياً لم يكن مع الرسول في غزوة تبوك، وأنه واضع علم النحو فلا يعقل أن يخطىء في كتابة اسمه (١٥). ولكن هذا الرأي لم يعجب علي بن حسينعلي الأحمدي في كتابه «مكاتيب الرسول»، فتصدى له وفنده (١٦).

وعلى الرغم من ذلك ففي الكتاب مواضع أثر الوضع والافتعال فيها واضح لا مجال لرده أكتفي بذكر بعضها: ــ

١. قوله: «وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم أتبعتم به». وهي عبارة تذكرنا بصكوك الغفران التي كانت تمنحها الكنيسة في العصور الوسطى. وأما في الاسلام فهي مناقضة لصريح القرآن الكريم لقوله تعالى: «فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب الا الله»؟ [آل عمران ١٣٥]. فالرسول، صلى الله عليه وسلم، لا يملك أن يغفر للناس، وانما له أن يستغفر لهم لقوله تعالى: «فاعف عنهم، واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» [آل عمران ١٥٩]، وقوله: «ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله تواباً رحيماً» [النساء ٦٤].

واذا صح أن أهل مقنا يهود كما ذكر الواقدي، فكيف يغفر لهم الرسول سيئاتهم وذنوبهم وهو يتلو قول الله فيهم: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» [المائدة ٨٢] وقوله فيهم أيضاً: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» [الأنفال ٥٨].

١٣. ما بين المعقفين ليس في ابن سعد. و بدله: «والسلام».
١٤. ابن منظور، لسان العرب، مادة درس.
١٥. البلاذري، حاشية فتوح البلدان، ص ٨١.
١٦. علي ابن حسينعلي الأحمدي، مكاتيب الرسول، ٢ جزء، دار المهاجر، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حسين علي الأحمدي، مكاتيب الرسول.

وأما قوله: «وكل دم اتبعتم به»، فمعروف أن مثل هذا الدم يسقط بالاسلام، كما فعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع أهل مكة عندما قال لهم: «ألا وان كل دم في الجاهلية موضوع»(١٧). وليس في كتاب أهل مقنا ما يثبت أنهم أسلموا ليضع عنهم كل دم اتبعوه.

٢. أسقط رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الجزية عن أهل مقنا وذلك قوله: «وانكم قد برئتم بعد ذلك من كل جزية أو سخرة»، وهو أمر لا يفعله رسول الله لأنه يخالف بذلك قول الله تعالى: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» [التوبة ٢٩]. ولو صح أنه أسقطها عنهم فكيف لا يكون علم ذلك عند حملة السنة من الصحابة والتابعين وأئمة الحديث؟

أما إذا اعترض على هذا بأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، اشترط عليهم أن يأخذ منهم ربع ما أخرج نخيلهم وربع ما صادت عروكهم، وربع ما اغتزلت نساؤهم على أنه من باب الجزية، فالجواب عن ذلك أن فيه ظلماً واجحافاً بحق أهل مقنا؛ لأن هذا المقدار المذكور في الكتاب يخالف الحد الأعلى الذي قرره الفقهاء اعتماداً على حديث معاذ السابق وعلى فعل عمر بن الخطاب عندما فرض على أهل الشام أربعة دنانير على كل حالم(١٨). و يزداد هذا الظلم والاجحاف اذا علمنا أن الرسول اشترط عليهم أن يستولي على بزهم ورقيقهم وخيلهم وسلاحهم فكيف يقع الظلم من الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو المبعوث رحمة للناس؟.

وأما وضعه السخرة عنهم فيرده أنه لم يكن في زمانه، صلى الله عليه وسلم، سخرة فكيف يضع عنهم شيئاً لا وجود له(١٩).

٣. قوله لهم: «وان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يجيركم مما يجير منه نفسه»، وهو أمر يبعث على الدهشة والاستغراب، فما الذي قدموه من الاحسان للرسول والمسلمين حتى يجيرهم الرسول مما يجير منه نفسه؟.

وبعد، فهذه ملاحظات على المراسلات النبوية مع بعض القبائل القاطنة جنوبي بلاد الشام أداني إليها اجتهادي المتواضع اعتماداً على ما ورد في كتب العلماء القدامى وعلى رأسها كتب السنة النبوية، في محاولة لاعادة النظر فيما كتب حول هذه المراسلات

---

١٧. الترمذي، الصحيح، جـ١١، ص ٢٢٩.

١٨. انظر المصادر في حاشية رقم ٦ من حواشي الكتاب الثالث.

١٩. ابن القيم، المنار المنيف، ص ١٠٣.

على ضوء منهج علماء الحديث، متوخياً اظهار الحقيقة لا غير. فان أصبت فذلك ما أملت، وان أخطأت فالعصمة لله وحده، راجياً ألا أحرم أجر المخطىء.

المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام
«دراسة ونقد»

ابراهيم زيد الكيلاني
كلية الشريعة ــ الجامعة الاردنية

مقدمة :

الدارس للسيرة النبوية يجد أن من سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكيمة أن يمهد للدعوة الاسلامية بالاتصال برؤساء الدول وزعماء القبائل ليعرض عليهم دين الاسلام، و يدعوهم لنصرته وكانت مراسلات النبي صلى الله عليه وسلم مع رؤساء القبائل في جنوبي بلاد الشام لتحقيق هذا الهدف الكبير من جهة، ولتحقيق أهداف مرحلية منها :

١. التمهيد للدعوة في بلاد الشام وذلك باستصلاح الواحات وتهيئتها لتكون منازل للجيوش ومراكز تموينها.

٢. كسب القبائل العربية المتاخمة للروم، للاسلام ودولته، وكسر هيبة الامبراطورية الرومانية التي كانت متعمقة في القلوب حين تتحول هذه القبائل العربية بولائها من الروم إلى العرب المسلمين (١).

٣. للواحات في هذه الطرق الصحراوية قيمتها الكبرى لأنها منازل الجيوش ومراكز لتموينها.

٤. ان خضوع صاحب أيلة وأكيدر دومة، وصلح أهل جرباء وأذرح، كان فتحاً لمنافذ الطرق إلى الشام، وكان بعثاً لروح المقاومة والتحرير في نفوس العرب، فهذه الواحات التي تحولت بولائها من الروم إلى المسلمين لن يعبر ولاؤها الجديد للاسلام ودينه وأمته الا على أنه كسر لخطوط المقاومة التي كان يعتبرها الروم بجانبهم. و بداية لتحرير هذه البلاد (٢).

٥. الدارس للسيرة النبوية يجد أن هذه المراسلات التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم الى «أكيدر دومة، وصاحب أيلة يوحنة بن رؤبة» وصلح أهل جرباء وأذرح كان أثناء غزوة تبوك.

---

١ . شكري فيصل، حركة الفتح الاسلامي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٥، ص ٢٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : حركة الفتح.

٢ . المرجع السابق، ص ٢٩.

وقد وجهت إلى رؤساء قبائل وقعوا في أسر الجيش المسلم، أو استشعروا قوته وسلطانه، ورأوا خضوع معظم القبائل العربية للدين الجديد.

قال الطبري أثناء حديثه عن غزوة تبوك:

«ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى «أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة، كان ملكاً عليها، وكان نصرانياً، فقدم به خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحقق له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله فرجع الى قريته»(٣)

«فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك، أتاه يوحنة بن رؤبة، صاحب أيلة، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطاه الجزية، وأهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية. وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل كتاباً، فهو عندهم(٤).

والذي يلاحظ أن هذه الكتب وجهت اليهم وهم في ظل الدولة وسلطانها وخضوعهم الفعلي لقوة جيشها.

والملاحظ أن هذه الكتب وجهت الى رؤساء القبائل بعد أن فرض الجيش المسلم سلطانه على هذه المنطقة واستشعر رؤساء هذه القبائل بالحاجة إلى موادعة نبي الاسلام وأخذ الأمان منه.

وأرغب بلفت الانتباه لهذه النقطة لأن رؤساء هذه القبائل كانوا قد حافظوا على دينهم، ووجدوا في كتاب النبي الكريم الحماية والدرع الواقية التي تحمي سلطانهم وأموالهم وغيرها من مكاسبهم.

السند التاريخي لهذه الكتب:

ــ اذا رجعنا الى كتب السنة لا نجد رواية لهذه الكتب بنصها، ولكنا نجد ذكراً لبعض العهود وما فعله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من حقن دم أو قبول جزية، أو قبول هدية(٥)، ولعل السبب في ذلك أمران: ــ

---

٣ ・ الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧. ج ٣، ص ١٠٨، ص ١٠٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ، جمل مقتطعة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠. ص ١٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: جمل متقطعة.

٤ ・ المصدر نفسه.

٥ ・ الدرامي، ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨م)، السنن، ٢ج، بعناية محمد دهمان، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت. ج ٢، ص ٢٣٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: سنن الدرامي؛ البخاري؛ محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ/ ١٨٦٩ م) صحيح البخاري، ٩ ج، في ٣ م، المطبعة الخيرية القاهرة، ١٣٢٠ هـ، ج ٢، ص ١٥٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: صحيح البخاري.

أ) أمر يرجع إلى طبيعة هذه المراسلات وصفتها الخاصة بأقوامها.

ب) أمر يرجع إلى سندها وأن علماء الحديث كانوا يتشددون فيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام و يتساهلون في الروايات التاريخية.

وعند دراستنا للسند نقف عند النقاط التالية:

أ) فهي تختلف عن كتب رسول الله لهرقل عظيم الروم وكسرى عظيم الفرس وغيرها ممن حفظت رسائلهم وروايت، نظراً لما كان يتمتع به هؤلاء الزعماء من قوة وسلطان، إذ وجهت هذه الكتب إلى رؤساء قبائل خضعت، وطلبت الأمان.

ب) أن عنصر «الأمان» والمصلحة الذي يتضمنه الكتاب النبوي بالنسبة لمن وجه اليهم جعل أصحابه يتزيدون فيه، لتحقق لهم بعض المكاسب الدنيو ية، كما حاول اليهود في فترة أن يزوروا كتاباً على لسان النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

جـ) لم ترو هذه المراسلات بسند صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الكتاب الأول

الى أكيدر بن عبد الملك الكندي.

كتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً فيه: هذا كتاب من محمد رسول الله، حين أجاب الى الاسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله، في دومة الجندل وأكنافها: أن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح، ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور لا تعدل سارحتكم، ولا تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه.

ذكر هذا الكتاب من المؤرخين الواقدي في مغازيه(٦)

وذكره أبو عبيد في الأموال(٧).

---

٦ ・ الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢م)، المغازي، ٣ج، تحقيق مارسيدن جونز، مطبعة جامعة اكسفورد، ١٩٦٦، صورته بالأوفست مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص ١٠٣٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مغازي الواقدي.

٧ ・ أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ/ .٨٣٨م)، الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٥٢، ٢٥٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأموال.

وشرحه علماء اللغة والحديث النبوي فقد أخرجه الزمخشري(٨) في غريبه وصاحب الروض الآنف وصاحب العقد الفريد.

وذكره ابن الأثير(٩).

ملاحظات على النص:

١. ينص هذا الكتاب على اسلام أكيدر، وتذكر كتب السير أنه لم يسلم وصالحه النبي الكريم على الجزية(١٠).

وقد ذكر هذه الروايات المتعارضة ابن حجر في الاصابة ورأى أن يوفق بينها بقوله «فالذي يظهر أن أكيدر صالح على الجزية كما قال ابن اسحق، و يحتمل أن يكون أسلم بعد ذلك كما قال الواقدي، ثم ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم مع من ارتد كما قال البلاذري ومات على ذلك»(١١).

وقد تعقب ابن الأثير روايات اسلامه فقال: «انما أهدى الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصالحه ولم يسلم، وهذا لا خلاف فيه بين أهل السير، ومن قال أنه أسلم فقد أخطأ خطأ ظاهراً بل كان نصرانياً، ولما صالحه النبي صلى الله عليه وسلم، عاد إلى حصنه و بقي فيه ثم أن خالد بن الوليد أسره في أيام أبي بكر فقتله كافراً»(١٢).

---

٨ . الزمخشري، ابو القاسم جاد الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣م)، الفائق في غريب الحديث. ٣ج، ضبطه وصححه وعلق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي البخاري، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨، ج ٣، ص ٤١٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الفائق؛ السهيلي، عبد الرحمن (ت ٥٨١/ ١١٨٥). الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ٧ج، تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠. ج ٢، ص ٣١٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الروض الأنف؛ ابن عبد ربه، ابو عمر احمد بن محمد (ت ٣٢٧ هـ/ ٩٣٨م) العقد الفريد، ٧ج، تحقيق احمد امين، احمد الزين، ابراهيم الابياري، مطبعة لجنة التأليف والتربية والنشر، القاهرة، ١٩٥٣ ـ ١٩٦٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: العقد الفريد.

٩ . اثبت نصه ابن الأثير، ابو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) منال الطالب في شرح طوال الرغائب، تحقيق: محمود محمد الطناجي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، د. ت. ص ٥١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاصابة.

١٠ . ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ج، مطبعة السادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ. ج ١، ص ١٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأصابة.

١١ . الاصابة، ج ١، ص ١٢٧؛ البلاذي، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، ٣ج، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٦. ج ١، ص ٧٣ ـ ٧٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: فتوح البلدان.

١٢ . الاصابة، ج ١، ص ١٢٥.

٢. يذكر الكتاب على أن الضاحية من الضحل، والبور المعامي واغفال الأرض، والحلقة والسلاح، والحافر، والحصن للمسلمين، وأما أهل دومة فلهم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور، وحين نقارن هذا الكتاب بما أخرجه ابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لحارثة بن قطن ومن بدومة الجندل من كلب:

«ان لنا الضاحية من البعل، ولكم الضامنة من النخل»(١٣).

حين نقارن بين هذين النصين نجد التصحيف الذي وقع في رواية الواقدي في كلمة ضحل بدل «بعل» لأن الضحل يعني الماء القليل، ولا يستقيم معناها مع النص، والصواب «من البعل» لأن الضاحية من البعل تعني الأشجار المزروعة خارج سور المدينة وضاحية كل شيء: ناحيته البارزة التي لا حائل دونها، وضاحية النخل هي التي في البر والصحراء(١٤).

والضامنة: ما تضمنتها أمصارهم وقراهم من النخل، فهي فاعلة بمعنى مفعولة والبعل من النخل: الشارب بعروقه عن غير سقي سماء ولا غيرها(١٥).

والمعنى يستقيم هنا: على معنى أن الكتاب أعطى أهل دومة ما داخل سور المدينة من أشجار النخيل، وجعل للمسلمين الأشجار البعل المسقية بماء السماء المزروعة خارج سور المدينة.

كذلك نجد تصحيفاً في كلمة «لا تعدل سارحتكم» والصواب «لا تجمع سارحتكم» أي لا يجمع بين متفرقها ليصير ما لا تجب فيه الزكاة،(١٦) ولا يستقيم معنى «يعدل» هنا إذا

---

١٣ . وقد اخرجه الزمخشري في الفائق، ج ٣، ص، ابن سعد، أحمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) الطبقات الكبرى، ٩ج، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت. ج ١، ص ٣٣٤، ص ٣٣٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبقات الكبرى، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٤، ص ٣٥، منال الطالب، ص ٤٥ «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لحارثة بن قطن ومن بدومة الجندل من كلب: أن لنا الضاحية من البعل، ولكم الضامنة من النخل، لا تجمع سارحتكم، ولا تعد شاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات،» والبتات؛ المتاع مما ليس للتجارة.

١٤ . منال الطالب، ص ٤٩.

١٥ . الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) تهذيب اللغة، ١٥ج، تحقيق وتقديم عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤. ج ٢، ص ٤١٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تهذيب اللغة؛
أبو عبيدة، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) غريب الحديث، ٤ج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٦٧. ج ١، ص ٦٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: غريب الحديث.

١٦ . قارن هذا النص برسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى حارثة بن قطن ووفد كلب في الكتاب الثاني من هذا البحث.

فسرنا عدل بمعنى سوى، أما اذا فسرناها بمعنى صرفها عن مرعى تريده فيتكرر المعنى نفسه في عبارة تالية وهي: «ولا يحظر عليكم النبات».

شروط الكتاب وأحكام الفيء:

واذا رجعنا الى أحكام الفقه الاسلام في غنائم البلاد التي فتحت عنوة وصالح عليها الامام نجد أن بنود هذا الكتاب ترجع إلى ما أعطاه الله للامام من حق في اجراء الصلح على مال الفيء تحقيقاً لمصلحة المسلمين، قال تعالى: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب»(١٧).

وللمفسرين في هذه الآية أقوال: هل هي ملحقة بآية سورة الأنفال في الغنائم «واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه»...(١٨).

وقال الشافعي: الغنيمة ما أخذ عنوة، والفيء ما أخذ على صلح(١٩).

وقال بعضهم: ان الغنيمة والفيء بمعنى واحد(٢٠).

والجمع بين الأقوال يقتضي ترجيح قول الشافعي الذي يعضده العرف في تفسير اللفظ، و يساعدنا في تفسير نص الكتاب، و يجمع بين القولين الواردين في تفسير الفيء باعتبار أن هذه البلاد خضعت عنوة، ولكن اقتضت حكمة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يجعل الصلح على الأموال والسلاح.

قال الامام أبو عبيد القاسم بن سلام في بيان هذه النقطة: «فأراه صلى الله عليه وسلم قد جعل لثقيف عند اسلامهم شيئاً زادهم إياه، وأراه أخذ من هؤلاء شيئاً من أموالهم عند اسلامهم. وانما وجه هذا عندنا ـ والله أعلم ـ أن أولئك ـ يعني ثقيف ـ جاؤوا راغبين في الاسلام، غير مكرهين ولا ظهر على شيء من بلادهم، وأن هؤلاء لم يسلموا إلا بعد غلبة من المسلمين لهم ولم يأمن غدرهم ان ترك لهم السلاح والظهر والحصن، فلم يقبل إسلامهم، إلا على نزع ذلك منهم، و بمثل هذا عمل أبو بكر في أهل

---

١٧ . سورة الحشر، آية ٦.

١٨ . سورة الأنفال، الآية ٤١؛ ابن العربي، ابو بكر محمد بن عبد الله (ت ٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م)، أحكام القرآن، ٥ج، تحقيق علي محمد البجاوي، ط٣، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧، ج ٤، ص ١٧٦٠، ص ١٧٦١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: احكام القرآن.

١٩ . أحكام القرآن، القسم الثاني، ص ٨٤٤، ٨٤٥.

٢٠ . المصدر السابق.

الردة»..(٢١).

وهناك ملاحظات شكلية على الكتاب:

١. سند هذا الكتاب برواية محمد بن مسلمة وهو مجروح كذبه المحدثون.. ولكن أهل السير والتاريخ تساهلوا بينما تشدد أهل الحديث والأحكام. والسبب واضح: إن الأحكام دين وخضوع لله في أمره ونهيه فلا بد من التثبت حتى لا يكذب على الله ورسوله.

وأما السير والأخبار فلا تحمل هذا المعنى، واذا حملته خضعت للمنهج نفسه من التثبت بالقبول أو الرد.

٢. وردت روايات أخرى لهذا الكتاب فيها بعض الاضافات منها «بسم الله الرحمن الرحيم» هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى الاسلام وخلع الأنداد والأصنام... ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور «بعد الخمس» باضافة بعد الخمس..

... عليكم بذلك العهد والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين. ونلاحظ كذلك الاختلاف في النص والاضافة في قوله.. «عليكم بذلك العهد والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين»(٢٢).

٣. أرى التكلف وأثر الوضع واضحاً في هذه العبارات.

الكتاب الثاني
كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد كلب

روى هذا الكتاب ابن الأثير(٢٤) وابن سعد(٢٥) وذكره الحافظ ابن حجر في الاصابة(٢٦). ورواية ابن سعد:

وكتب لحارثة بن قطن كتاباً فيه: هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن، لنا الضاحية من البعل، ولكم الضامنة من النخل، ولا تعدل فاردتكم تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، لا

---

٢١ . ابو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ/٨٣٨م) الأموال، تحقيق محمد هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٦. ص ٢٥٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأموال.

٢٢ . المصدر السابق، ص٢٥٢، ص٢٥٣.

٢٤ . منا الطالب، ص ٤٤.

٢٥ . الطبقات الكبرى، ج ١.

٢٦ . الاصابة، ج ٥، ص٢٤٣.

يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات، لكم بذلك العهد والميثاق، ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله ورسوله، شهد الله ومن حضر من المسلمين.

وأورد ابن الأثير هذا الكتاب بهذا النص: (٢٧)

«إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لحارثة بن قطن ومن بدومة الجندل من كلب: ان لنا الضاحية من البعل، ولكم الضامنة من النخل، لا تجمع سارحتكم، ولا تعد شاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات».

الملاحظات: ـ

١. سند الحديث:

حين نقارن بين الروايتين نجد اختلافاً في اسم راوي هذا الكتاب أهو حارثة بن قطن أم قطن بن حارثة (٢٨) وقد اختلف رجال الحديث في رسمه فمنهم من أثبت اسمه هكذا: «قطن بن حارثة العليمي وجعل هذا الحديث له، ولم يذكر حارثة، ومنهم من أثبت حارثة بن قطن ولم يذكر قطناً قال ابن الأثير: ولم أر فيما وقفت عليه من جمع بينهما ولعلهما اثنان (٢٩) والله أعلم.

٢. نجد تصحيفاً في رواية ابن سعد تظهر بالمقارنة بين روايته ورواية ابن الأثير منها ما وقع لعبارة: «لا تجمع سارحتكم، ولا تعدل فاردتكم».

وهي عند ابن الأثير: «لا تجمع سارحتكم، ولا تعد شاردتكم».
وحين نتأمل بمعنى الحديث نجد أن السارحة تعني السائمة من المواشي، ومعنى لا تجمع سارحتكم، أي لا يجمع بين متفرقها ليصير ما لا تجب فيه الزكاة، وقيل: لا تجمع الى المصدق من أماكنها لكن يأتيها فيأخذ زكاتها حيث هي:
والشاردة التي شردت عن الغنم ونفرت وخرجت منها، فلا تعد ولا تحسب على أصحاب المواشي وهم لا يقدرون عليها..

٠٢٧ منال الطالب، ص ٢٤٣.

٠٢٨ الاصابة، ج ٥، ص ٢٤٣.

٠٢٩ ترجمة الأسمين في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠م)، ٤ ج. تحقيق علي محمد البجاري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. د. ت. ص ٣٠٩، ص ١٣٠٦، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاستيعاب؛ ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٤٠ هـ/ ١٢٣٢م) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ ج، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠. ج ١، ص ٤٢٧، ج ٤، ص ٤٠٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أسد الغابة، الاصابة، ج، ص ٣١٢، ص ٢٤٣.

وعند وضوح المعنى يتبين أن كلمة «تعدل» لا يستقيم معناها هنا والصواب: «لا تعد» والذي يظهر أن شاردة، وفاردة بمعنى واحد هي الشاة عن الغنم، أي لا تضم إلى الشاة فتحسب معها.

٣. مضمون الكتاب يتفق مع ما ذكرته كتب السيرة من اسلام قطن أو حارثة، والزيادة في رواية ابن سعد: «تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها» يعضد هذا. كما يعضده رواية أخرى لحديث قطن بن حارثة العليمي ذكرها ابن الأثير (٣٠) وفيها «بسم الله الرحمن الرحيم»، هذا كتاب من محمد رسول الله، لعمائر كلب وأحلافها، ومن طأره الاسلام من غيرهم، مع قطن بن حارثة العليمي بأقام الصلاة لوقتها، وايتاء الزكاة بحقها...» (٣١).

٤. يتفق الكتاب مع مقاصد رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة الاسلامية وتيسير أمر التكاليف الشرعية على الناس وعدم تكليفهم من أمرهم رهقاً وهذا ما يتبين من كتاب النبي الكريم «لا تجمع سارحتكم ولا تعد شاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات».
فلا تمنع مواشيهم عن رعي النبات، ولا يؤخذ زكاة من البتات وهو المتاع الذي يكون في البيت للانتقاع. وهذا حكم يتفق مع أحكام الشريعة الاسلامية التي تنص على أن الزكاة انما تجب في المال النامي بالفعل أو بالقوة (٣٢).

٥. يتميز هذا الكتاب بأنه موجه لقوم أسلموا وأعطي لرئيس قبيلة بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام. كما نلاحظ فيه حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تأمين أمر هذه القرى المجاورة للروم وإحكام قبضة المسلمين عليها سياسياً واقتصادياً، وهذا يتضح من نص الكتاب: «لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل» فالأشجار الخارجة عن سور المدينة المسقية بماء السماء هي للمسلمين، وهي الضاحية من البعل. والأشجار المزروعة داخل سور المدينة لأهل القرى، وهي الضامنة من النخل وهي ما تضمنتها أمصارهم وقراهم من النخل فهي فاعلة بمعنى مفعولة، وقيل سميت ضامنة لأن أربابها ضمنوا عمارتها، فهي ذات ضمان، كعيشة راضية أي ذات رضى، في أحد

٠٣٠ منال الطالب، ج ٤٥، الاصابة، ٢٤٣.

٠٣ منال الطالب، ص ٤٤.

٠٣٢ السمرقندي، علاء الدين محمد بن أحمد (ت ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م). تحفة الفقهاء، تحقيق محمد زكي عبد الله، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، (باب الزكاة). سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تحفة الفقهاء؛ بن قدامة، ابو محمد عبد الله بن احمد (ت ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣م) المغني و يلية الشرح الكبير، ١٢ ج، دار الكتاب العربي؛ بيروت، طبعة جديدة بالأوفست، ١٩٧٢ (باب الزكاة). سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المغني.

التأو يلين (٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الثالث

الى أسقـف أيلـة

لما انتهى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى تبوك أتاه صاحب أيلة وهو يحنة بن رؤبة فصالحه وقطع له الجزية: ثلاثمائة دينار كل سنة، وكانوا ثلاثمائة رجل (٣٤).

روى ابن شيبة والبخاري عن أبي حميد الساعدي: قدم ملك أيله على رسو الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأهدى اليه بغلة بيضاء، فكساه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بردا وكتب إليه (٣٥).

أ ٠ وقد روى ابن سعد هذا الكتاب: ونصه:

وكتب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى يحنة بن رؤبة وسروات أهل أيلة: «سلم أنتم فأني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو فأني لم أكن لاقاتلكم حتى أكتب اليكم فأسلم أو أعط الجزية وأطع الله ورسوله، ورسل رسوله وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاة، واكس زيدا كسوة حسنةفمهما رضيت رسلي فأني قد رضيت، وقد علم الجزية، فان أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله و يمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله، وحق رسوله، وانك إن رددتهم ولم ترضهم لا أخذ منكم شيئاً حتى أقاتلكم فأسبي الصغير، وأقتل الكبير، فاني رسول الله بالحق أومن بالله وكلماته وكتبه ورسله و بالمسيح بن مريم أنه كلمة الله واني أومن به أنه رسول الله، وأت قبل أن يمسكم الشر فأني قد أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعيراً، وان حرملة

---

٣٣ ٠ والتأو يل الأخير: أن تكون راضية بمعنى مرضية. كما يقال ج: ماء دافق، أي مدفوق، راجع: ابو عبيدة، معرض بن المعنى، مجاز القرآن، ٢ج، تحيقق وتعليق محمد فؤاد سزكين، ٢، مكتبة امين الخانجي، القاهرة، ١٩٥٤ ــ ١٩٦٢. ج ٢، ص ٢٦٨؛ الفراء، ابو زكريا يحيى بن (ت ٢٠٧ هـ/٨٢٢م) معاني القرآن، ٣ج، ط٢، طبعة عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠، ج ٣، ص ١٨٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: معاني القرآن: أبن سيدة؛ ابو الحسن علي المخصص، ١٧ج، في ٥م، المكتب التجاري، بيروت، ج ١٥، ص ٧٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المخصص: منال الطالب، ص ٤٩.

٣٤ ٠ الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي (ت ١١٢٢ هـ/ ١٧١م)، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٨ج، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٢٦.

٣٥ ٠ ذكره البخاري في كتاب الجزية الباب الثاني وفي كتاب الجهاد والسير الباب السادس.

شفع لكم، وإني لولا الله وذاك لم أراسلكم شيئا حتى ترى الجيش وانكم ان أطعتم رسلي فأن الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه، وان رسلي شرحبيل، وأبي، وحرملة، وحريث بن زيد الطائي فأنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته، وان لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم ان أطعتم، وجهزوا أهل مقنا إلى أرضهم (٣٦).

و بدراستنا لهذا الكتاب نجد الملاحظات التالية:

١٠ أن الكتاب أرسل قبل مجيء يحنة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أثناء تبوك. وهو غير الكتاب الذي كتبه النبي الى يوحنة بعد مقابلته.

٢٠ الكتاب دعوة للاسلام: أسلم أو أعط الجزية، وأطع الله ورسوله.

٣٠ في الكتاب حديث عن رسل رسول الله و إكرامهم واحسان وفادتهم دخل فيه المبالغة والتزيد.

٤٠ يبدو أن أصل الكتاب مفقود، وأن المروى ترجمة ركيكة له، تحمل ضعف المترجم في اللغة، وفي عدم تمكنه من التعبير عن المفاهيم الاسلامية: كقوله: «فأن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله و يمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم، الا حق الله». فأين هذه العبارة من عبارة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في دعوته لقريش «قولوا كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، وإذا متم كنتم ملوكا في الجنة». (٣٧).
واذا خرجت هذه العبارات في أسلو بها عن البلاغة النبو ية، الأسلوب العربي الفصيح، فانها خرجت أيضاً عن الهدى النبوي في مقاصده وسموه كعبارة «لولا الله وذلك لم أراسلكم حتى ترى الجيش».
«وان أطعتم رسلي فان الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه».
«وان رسلي شرحبيل وأبي وحرملة وحريث بن زيد الطائي فأنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته».
وما كان للنبي أن يسند الحكم إلا لله.. ثم رسله ورعيته يقضون بحكم الله، و ينقذونه قال تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك» (٣٨)

٥٠ إن الروايات التاريخية لم تذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل الى ملك أيلة رسلا.

---

٣٦ ٠ الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

٣٧ ٠ محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية القاهرة، ١٩٥٦.

٣٨ ٠ سورة المائدة، آية ٤٩.

٦٠ عبارة «وجهزوا أهل مقنا إلى أرضهم»، فيها تصحيف إذ، لا علاقة بين أهل مقنا وأهل أيلة. ولعل التصحيف يزال اذا وجدنا كلمة تقارب شكل «أهل مقنا» ككلمة.. جندنا أو ما يقاربها ليستقيم المعنى.. و يتفق مع هدف إخضاع هذه الواحات لتكون منازل للجند، ومراكز تعبئة وتزود وراحة لها.

الرواية الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة: لسفنهم وسائرهم في البر والبحر. لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ولمن كان معه من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، ومن أحدث حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس. وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر.

هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ.

الملاحظات على الكتاب:

١٠ يختلف عن الكتاب الأول من حيث الأفكار واللغة. و يتفق مع طبيعة العهد الذي أعطاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحنة بن رؤبة.

٢٠ وقع في الكتاب تصحيف، واجتهد وأظهره في الصورة التالية فعبارة «لمن كان معه من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر» وقع فيها تصحيف بكلمة «اليمن» فليس لأهل اليمن اتصال قريب بأهل أيلة الواقعة عند العقبة قرب معان في بلاد الشام في الأردن. وأيلة تقع على البحر و يبدو لي أن أصل العبارة من أهل الشام، وأهل البر وأهل البحر، وهي تتفق مع سياق العبارة، وكلمة «البر» ربما قرأت اليمن نتيجة سوء الخط وعدم الشكل، وطرؤ شيء من التغيير على حروف الكتاب.

الكتاب الرابع (٣٩)

الى أهل جربـــاء (٤٠) وأذرح (٤١)

وهذا نصــه:

٣٩ ٠ الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٩٠، مغازي الواقدي، ج ٣، ص ١٠٣٣.

٤٠ ٠ موضوع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال الشراة وهي قرية من أذرح. الحموي.، شهاب الدين ابو عبد الله،(ت ٦٢٦ هـ/١٢٣٨ م) معجم البلدان، ٥ ج، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ٢٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: معجم البلدان.

٤١ ٠ أذرح: بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء وعمان، مجاورة لأرض عمان، معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٩. وجرباء وأذرح تقعان في محافظة معان في جنوبي المملكة الأردنية الهاشمية.

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله، وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والأحسان للمسلمين، ومن لجأ اليهم من المسلمين من المخافة والتعزيز إذا خشوا على المسلمين، وهم آمنون حتى يحدث إليهم قبل خروجه».

الملاحظات على الكتاب

١٠ يتفق هذا الكتاب مع سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في اعطاء الأمان لأهل القرى المتاخمة للروم لكسب ولائها للمسلمين، ولتكون واحات يجد فيها المسلمون راحتهم أثناء حركتهم في المستقبل لمواجهة الروم، كما يجدون فيها الحماية والأمن حين يضطرون الى ذلك.

وهذا ما توضحه عبارة «والله كفيل عليهم بالنصح والأحسان للمسلمين، ومن لجأ اليهم من المسلمين من المخافة، والتعزيز اذا خشوا على المسلمين.

التعزيز يأتي لغة بمعنى العقوبة، كما يأتي بمعنى التأييد والنصرة. و يجب تفسير كلمة التعزيز هنا بحسب سياقها من النص وهو التأييد والحماية والنصرة، ولا نحملها على عقوبة تعزيزية وتفرضها الجماعة المسلمة، و بدلالة عبارة «إذا خشوا على المسلمين»، ولم يقل: «اذا خشوا من المسلمين».

فليس من المعقول أن يطلب النبي تأمين الخارجين عن نظام الدولة وسلطانها، وانما هو تأمين لجنود الاسلام الذين يخشون من الروم أن يجدوا في هذه القرى المجاورة الأمن والحماية.

فالنبي صلى الله عليه وسلم بنظرته البعيدة يطلب من أهل هذه القرى أن يقوموا بواجبهم في حماية حركة الجيش المسلم وأن تكون قراهم دروع حماية يجد فيها الجندي المسلم الأمن والحماية اذا لجأ إليها وخاف من عدوه، فعليهم نصرته وتعزيزه بالتأمين والحماية.

٢٠ ما المقصود بعبارة: «وهم آمنون حتى يحدث اليهم محمد قبل خروجه»: الذي يبدو أن هذه العبارة لا تستقيم مع روح الكتاب ومضمونه لأن تحديد مدة الأمان بمدة بقاء رسول الله في تبوك لا يتفق مع سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في كسب هذه القرى وولائها لدولة الاسلام.

واذا حاولنا تفسيرها في ظل هذا المعنى نقول:

أ. توفير الحماية للجيش المسلم مدة بقائه في تبوك. يضمنها بهذا الكتاب.

ب. توفير حماية للجيش المسلم في المستقبل، سيحدث فيها أمراً جديداً قبل خروجه من تبوك و يعطي مقابلها الأمان لأهل هذه البلاد اذا أظهروا صدق النية والتعاون مع

المسلمين، وبهذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد حدد مدة العهد الأول ليزداد معرفة بالواقع، وليعطي الأمان بعد ذلك عن بينة، ودراسة للمنطقة، وضمان لمصلحة المسلمين في هذه العهود.

٣٠قوله «وان عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة»

الدارس لمقادير الجزية التي قدرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قدرها أصحابه من بعده يجد أنها مسألة لم تحدد بمقدار معين كالزكاة، وانما تركت للحاكم المسلم يفرضها مقدراً ظروف الناس وحالهم من الفقر والغنى، ومصلحة المسلمين.

ولذلك نجد في هذا الرقم «مائة دينار» غير ما فرضه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى في اليمن (٤٢)، وهي العشر فيما سقت السماء ونصف العشر فيما سقي بالالة وفي الحالم والحالمة دينار.

وقد أفرد أبو عبيد في كتاب الأموال بابا سماه «فرض الجزية، ومبلغها، وأرزاق المسلمين وضيافتهم» (٤٣) وبعد أن ذكر أن عمر ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الورق أربعين درهما، ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافتهم ثلاثة أيام استعرض اجتهادات الخلفاء في تقدير الجزية ثم قال: «وهذا عندنا مذهب الجزية والخراج، انما هما على قدر الطاقة من أهل الذمة بلا حمل عليهم ـ أي بلا مشقة ولا كلفة ـ ولا اضرار بفيء المسلمين، ليس فيه حد مؤقت..» (٤٤).

وهذا الذي رجحه الفقية أبو عبيد هو الذي يتفق مع عدالة الاسلام ورحمته، وحكمته، فترك المجال للحاكم المسلم ليقدر الامر حسب ظروف الناس ومصالح المسلمين.

الكتاب الخامس

الى أهل مقنــا (٤٥)

روى ابن سعد هذا الكتاب ونصه:

وكتب رسول الله، صلى الله عليه وسلم الى بني جنبة وهو يهود بمقنا، والى أهل مقنا،

---

٤٢ ٠ الترمذي، ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢م) صحيح الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ٠٩٦٨. ج ٣، ص ١٨، ص ١٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: صحيح الترمذي؛ النسائي، ابو عبد الرحمن احمد بن سعيب (ت ٣٠٣ هـ/٩١٥م) سنن النسائي بشرح السيوطي، ٨ج، تصحيح حسن السعودي، المطبعة المصرية، القاهرة، د.ت. ج ٥، ص ٢٥، ص.٢٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: سنن النسائي، الأموال، ص ٣٥.

٤٣ ٠ الأموال، ص ٤٩، ص ٥٠.

٤٤ ٠ المصدر السابق، ص ٥١.

٤٥ ٠ مقنا: قرب أيلة. معجم البلدان، ج ٥، ص ١٨٧.

ومقنا قريب من أيلة: أما بعد فقد نزل علي ايتكم راجعين الى قريتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله وان رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنو بكم وان لكم ذمة الله وذمة رسوله لا ظلم عليكم ولا عدى وان رسول الله جاركم مما منع منه نفسه فان لرسول الله بزكم وكل رقيق فيكم الكراح والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم وربع ما اغتزل نساؤكم وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة فان سمعتم وأطعتم فان على رسول الله أن يكرم كريمكم و يعفو عن مسيئكم. أما بعد فالى المؤمنين والمسلمين من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ومن أطلعهم بشر فهو شر له وأن ليس عليكم أمير الا من أنفسكم أو من أهل رسول الله والسلام (٤٦).

وروى البلاذري عن هذا الكتاب و بدأه بقوله: «وأخبرني بعض أهل مصر أنه رأى كتابهم (أي أهل مقنا) بعينه في جلد أحمر دارس الخط وأملى علي نسخته..» بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى بني حبيبة، وأهل مقنا. سلم أنتم. فأنه أنزل علي أنكم راجعون إلى قريتكم، فاذا جاءكم كتابي هذا فأنكم آمنون، ولكم ذمة الله وذمة رسوله، وان رسول الله قد غفر لكم ذنو بكم (٤٩) وكل دم أتبعتم به، لا شريك لكم في قريتكم الا رسول الله أو رسول رسول الله، وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان. وأن رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه، فأن لرسول الله بزتكم، ورِقيقكم، والكراح، والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله. وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم، وربع ما صادت عروككم، وربع ما اغتزلت نساؤكم وأنكم قد برئتم بعد ذلك من كل جزية أو سخرة، فأن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم و يعفو عن مسيئكم. من ائتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له. وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبه علي ابن أبي طالب في سنة سبع.

الملاحظات على الكتاب:

١٠تبدو على الكتاب آثار الوضع في ركاكة لغته، وتناقض معانيه مع الاصول الشرعية الثابته، بالاضافة الى روايته.

٢٠فالبلاذري يقول: أخبرني بعض أهل مصر أنه رأى كتابهم بعينه في جلد دارس الخط

---

٤٦ ٠ الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٧٧.

٤٧ ٠ فتوح البلدان، ج ١، ص ٧١، ص ٧٢.

٤٨ ٠ في فتوح البدان: أنزل على أنكم.

٤٩ ٠ في فتوح البلدان: غفر لكم ذنوبكم.

فنسخته.. (٥٠).
فكيف ينقل كتابا دارس الخط، كجرح و يرو يه عن مجهول لا يسميه.. «بعض أهل مصر».

٣٠ في رواية ابن سعد أن الكتاب وجه الى بني جنبة وهم يهود بمقنا، والى أهل مقنا، ..ولليهود خبرة واسعة في تحريف الكتب، وتبديلها، وقد زوروا رسالة وعهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كشف زيفه علماء الحديث (٥١) ولا يستبعد أن يكون لهم دور في الوضع والتحريف في هذا الكتاب.

٤٠ إن غفران رسول الله للذنوب يخالف المعروف في العقيدة الاسلامية أن الله وحده هو غافر الذنب وقابل التوب وليس في الدين الاسلامي ما في بعض الاديان من اعطاء سلطة للنبي أو العالم في أن يغفر الخطايا، فالنبي يدعو ربه و يطلب الرحمة والمغفرة أما هو فلا يملك أن يغفر لاحد. قال تعالى في معرض عتاب رسول الله لاستغفاره لعبد الله بن أبي الذي مات منافقاً «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» (٥٢).
وقد نزل في القرآن «تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير». (٥٣) «ومن يغفر الذنوب الا الله» (٥٤).

٥٠ قد نجد ما ورد في الكتاب ان لرسول الله بزتكم ورقيقكم، والكراع والحلقة، متفقا مع عدم الثقة الكاملة بهؤلاء نتيجة اختلاطهم الطو يل بالروم وذلك بعدم تمكينهم من السلاح والقوة خوفا من غدرهم.
نجد في الكتاب: «وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم، وربع ما صادت عروككم وربع ما اغتزلت نساؤكم «محققا للهدف نفسه».
الا ان اضافتها في هذا الكتاب مخالف لاسلوب الكتب النبو ية، وموقعة في اللبس أنهم

٥٠ المرجع السابق، ج ١، ص، ٧٢.

٥١ وهي محاولتهم تزو ير عهد باعطاء رسوا الله «خيبر» لهم وكشف الخطيب البغدادي التزو ير لأنهم أشهدوا معاو ية الذي لم يكن مسلما وقت خيبر، السبكي، تاج الدين ابي نصر عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤ ـ ١٩٧٦. ج ٣، ص ١٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: طبقات الشافعية. والرواية الأخرى لهذا الكتاب تشهد بتزو ير اليهود. انظر محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٤، دار النفائس بيروت، ١٩٨٣. وما نقله عن ابن القيم وابن كثير في وضع هذا الكتاب. ص ١٢١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مجموعة الوثائق السياسية.

٥٢ سورة التو بة، آية ٨٠.

٥٣ سورة غافر، آية ٢ ـ ٣.

٥٤ سورة آل عمران، آية ١٣٥.

اذا دفعوا هذا المقدار من هذه السنة.. يعفون منها في سنوات تالية. أو لا يتمكن الخليفة من تغيير المقدار بحسب تغير الظروف الاقتصادية ومصالح المسلمين.
وقد وضحنا من قبل أن تحديد مقدارها أمر اجتهادي تؤثر في تقديرها الكفاية والقدرة المالية لمن تفرض عليهم وحالتهم الاقتصادية ومصلحة المسلمين.

٧٠ يلاحظ في الكتاب عبارات ظاهرة الوضع يطلب أصحابها حمية واستدرار عطف المسلمين وتحقيق مكاسب في المجتمع الاسلامي، ولم تكن من أسلوب المراسلات النبو ية، ومن هذا العبارات:
«وأن رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه فأن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم و يعفو عن مسيئكم» وهذا يخالف الأصول الاسلامية التي تأمر بالاخذ على يد المسيء إذ اعتدى على حد من حدود الله، أو ظلم الناس، ولا يملك النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع في حدود الله، ولا أن يعفو عن حقوق الناس.
هذا وقد نبه المؤرخ ابن عساكر في حاشية احدى نسخ الكتاب على ما في كتاب أهل مقنا من افتعال، وذكر هذا محقق كتاب فتوح البلدان (٥٥)، وقد استدل ابن عساكر على وضع الكتاب بما ورد في آخره وهو قوله: «وكتب علي بن أبي طالب» والمعروف أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يشهد غزوة تبوك.

و يلاحظ في هذا النص كما يلاحظ في الرواية الثانية (٥٦) المكر عند اليهودي في التستر بعاطفة حب آل البيت لاخفاء مقاصدهم، وتحقيق مكاسبهم وأغراضهم من هدم المجتمع الاسلامي من الداخل.

٨٠ كما يلاحظ فروق بين ما رواه البلاذري ورواه ابن سعد. مثل كلمة.. بني حبيبة.. عند البلاذري.. بني جنبة.. عند ابن سعد.

٥٥ فتوح البلدان، ج ١، ص ٧٤.

٥٦ مجموعة الوثائق، ص ١٢١.

مقدمات في فتح بلاد الشام

صالح موسى درادكة
كلية الآداب ــ الجامعة الأردنية

تحاول هذه الدراسة، استعراض وتحليل مجموعة التحولات والتفاعلات التي حصلت داخل الجماعات العربية، وأدت عبر تاريخ طويل، وبفعل عوامل متعددة، الى تكوين ما نسميه اليوم ب«الأمة العربية». وفي هذا المسار التاريخي كان فتح بلاد الشام والأجزاء العربية الأخرى، حتمية تاريخية، كحلقة في مجموعات المقدمات «التفاعلات» التي أعطت الأمة العربية، خصائصها ومميزاتها وأهلتها لحمل رسالتها، وطبعت الأرض التي انساحت عليها بالطابع العربي الذي نشهده اليوم.

ان الدراسات التي سبقت حول تعليل ظاهرة الفتح العربي، وقفت عند عوامل وظواهر آنية تكررت في حالة الأمة العربية. فقد عزا أصحاب هذه الدراسات حركة الفتح الى أسباب اقتصادية ترجع الى فقر الجزيرة العربية وطبيعتها الصحراوية، ورد البعض أسباب هذه الحركة الى توالي الهجرات القبلية نحو الشمال، والى ضعف الحاجز الرومي والفارسي في بلاد الشام والعراق، ثم ما ذكروه عن الصراعات المذهبية داخل المجتمع الروماني، والى سخط رعايا الروم بسبب كثرة الضرائب أو الى تمرد قبائل الحدود بسبب امتناع الروم من تقديم المعونات المالية التي اعتادوا على تقديمها(١).

١.. انظر هذه الآراء عند: ونكلر وكايتاني وبيكر ودونر في E.M. Donner,
The Early Islamic Conquests, Princeton, New Jersey, p. 3-5.

سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Donner, The Early Islamic:

وأنظر عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١، ص ٤٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، مقدمة، توماس أرنولد، الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي، ط٣، مصر ١٩٧٠، ص ٦٤، سيشار الى هذا المرجع فيما بعد هكذا: توماس أرنولد؛ وأنظر:

A.N. Stratos, Byzantium in the Seventh Century, trans. by Harry F. Hionides, Vol. 2 , p. 39.

سيشار الى هذا المرجع عند وروده هكذا: Byzantium

ي. أ.. بليايف، العرب والاسلام والخلافة العربية، نقله الى العربية أنيس فريحة، وراجعه وقدم له محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، ط١، بيروت، ١٩٧٢، ص ٤ وما بعدها. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بليايف، العرب؛ برنارد لويس، العرب في التاريخ، تعريب: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤، ص ٦٦ وما بعدها. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لويس، العرب؛ فيليب حتي وادوارد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول) ٢ح، ط٤، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ١٩٦٥، ج ١، ص ١٨٩ وما بعدها. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حتي؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨، ص ٩٣ وما بعدها. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ.

وذهب الأب لامنس الى انكاره وجود خطة لفتح بلاد الشام، وأن ما حصل انما جاء نتيجة توالي الأحداث(٢). ولم يحاول أحد ــ في حدود معرفتي ــ أن يربط بين حركة الفتح وحركة التاريخ العربي قبل ذلك أي أن حركة الفتح لم تدرس كظاهرة متصلة بحركة التكوين ــ اذ أن رصد هذه الحركة وادراك طبيعتها سيؤدي الى فهم أكبر لحقيقة الفتح العربي بعامة وفتح بلاد الشام بخاصة.

ومصطلح بلاد العرب اتسع منذ القديم ليشمل جزيرة العرب والمناطق الممتدة الى الشمال منها حتى جبال طوروس(٣). وهذه المنطقة بمفهومها الواسع تشكل بتكوينها وموقعها ومناخها وحدة جغرافية، كونت البيئة الطبيعية لها، وطبعت بداياتها الحضارية بطابع متماثل(٤). أي أنها كانت مسرحاً تفاعلت عليه عناصر التكوين العربي مشكلة بذلك فصلا هاماً في تاريخ الانسانية. والشعوب التي أدت أدوارها فوق هذا المسرح، انما هي هذه الجماعات المنساحة من داخل الجزيرة الى خارجها، بمقتضى أحوال طبيعية لا مفر منها(٥). وقد رافق حركة الانسياح من الوطن الأصلي تحولات اجتماعية مرافقة، نقلت مجموعات كبيرة من حالة البداوة إلى التحضر والاستقرار، وتفككت اللغة الواحدة «الأم» إلى مجموعة من اللهجات، دون أن تفقد روابط الاتصال، ورافق ذلك محاولات سياسية تمثلت بقيام كيانات هنا وهناك، تصارعت فيما بينها، كما تصارعت مع قوى أجنبية مختلفة، ابتداء بالتطاحن التاريخي بين مصر وبلاد ما بين النهرين، وخلفاء الاسكندر، ومن ثم بين الفرس والروم.

ورغم ظاهرة الاضطراب هذه التي طبعت المنطقة السورية بشكل خاص، لم تغب وحدة أصول شعوب المنطقة، فقد ذكر المسعودي أن الأمم التي سكنت العراق والشام وجزيرة العرب هم فروع مملكة واحدة كان يملكها ملك واحد، ولسانها واحد(٦).

---

٢. انظر مقالته: «لماذا فتح العرب سورية»، مجلة المشرق، م ٣، السنة ٣٠، ١٩٣٢. ص ١٧٨ ــ ١٨٢. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لامانس، لماذا فتح العرب.

٣. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠م، ط١، دار العلم للملايين «بيروت ومكتبة النهضة» بغداد ــ بيروت ١٩٦٨. جـ١ ص ١٤٤. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جواد علي، المفصل.

٤. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٤. ص ١٦. سيشار إليه فيما بعد الدوري، التكوين.

٥. انظر موسكاتي، سبتنيو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة ص ٣٤. سيشار إليه فيما بعد: موسكاتي، الحضارات.

٦. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، التنبيه والاشراف، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨ ــ ١٩٦٨. ص ٦٨ ــ ٦٩. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، التنبيه؛ الدوري، التكوين ص ١٦.

وفي خضم الوضع السياسي المضطرب استمرت القبائل العربية تتدفق بأعداد كبيرة من جزيرة العرب نحو الأطراف. وكان يرافق التفاعلات السياسية والحركات البشرية، تفاعل آخر ثقافي باتجاه تكوين «الأمة العربية»، و يتمثل ذلك بنمو بوادر حركة ثقافية تشير اليها مجموعة النقوش التي اكتشفت في جهات مختلفة من بلاد الشام، كالنقوش النبطية والصفوية والتدمرية، ونقوش أخرى كثيرة(٧) و يستفاد من هذه النقوش ــ و بخاصة النقش المعروف باسم «نقش النمارة» ــ بالاضافة الى التطور اللغوي الذي حصل في المنطقة، دلالة سياسية، تساير التطور الثقافي نحو العربية الموحدة، فعبارة: «ملك العرب» ــ الواردة في النص المشار اليه ــ تفيد بأن العرب جماعة متميزة متجانسة ــ وقد

يستنتج أيضاً الرغبة عند العرب في الوحدة السياسية. يمكننا اعتبار الفترة المبتدئة بالقرن الرابع الميلادي مرحلة جديدة، أو لنقل «مقدمة ثانية» في مسار التكوين العربي لغة وثقافة وسياسة. ومن هنا نرى وجهاً لتسمية الفترة الزمنية قبل القرن الرابع الميلادي «الجاهلية الأولى» والفترة المتبقية الى ظهور الاسلام «الجاهلية الثانية»(٨) وهي مرحلة ازدادت فيها عوامل التعريب في المجالات المختلفة. لقد نظر عرب سورية الى الرومان على أنهم غزاة غرباء، وسنورد في فقرات لاحقة الشواهد على ذلك.

تميزت المرحلة السابقة للاسلام في بلاد الشام باستقرار المجموعات القبلية التي دخلت البلاد منذ عهد بعيد، كما لم تنقطع الصلات بين عرب سورية وعرب جزيرة العرب، وبقيت الجزيرة مورداً لا ينضب للعرب، تدفع وبشكل مستمر بسيل من سكانها الى بلاد الشام. وكان تغلغل هذه القبائل في سورية من طرفي البادية الجنوبي باتجاه حوران والبلقاء، ومن طرفها الشمالي باتجاه حاضر حلب وقنسرين، ولكن انتشارهم بالفتوح شمل بلاد الشام كلها(٩). ومن بين القبائل التي استقرت قديماً في بلاد الشام «سليح» التي

---

٧. حول هذه النقوش انظر: ديسو، العرب في سوريا قبل الاسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩. ص ٨، ٨٦ وما بعدها. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ديسو، العرب؛ جواد علي، المفصل، ح ٣، ص ١٤٢ وما بعدها؛ نسيب وهيبه الخازن، من الساميين إلى العرب، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٢م. ص ٨٩، ص ١٤١ ــ ١٤٦. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: نسيب، من الساميين؛ محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ٨ج، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، جـ٥، ص ٣٩ سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: دروزه، تاريخ؛ جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام، منشورات دار الحياة بيروت، ١٩٧٩. ص ١٢٢، ص ١٢٦٩ ــ ٢٧٠. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: زيدان، العرب.

٨. الدوري، التكوين، ص ٢٧. وانظر معنى الجاهلية عند جواد علي، المفصل، جـ١، ص ٤٠ وما بعدها.

٩. الدوري، «العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام»، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، ط١، بيروت ١٩٧٤. ص ٣٢. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، «العرب».

أوكل اليها الرومان وظيفة حماية جنوب سورية من تغلغل القبائل العربية، وملكوا عليهم رجلا منهم يدعى: «النعمان بن عمرو بن مالك (١٠). واستعان الروم في حماية نفوذهم في سورية، وحراسة الطرق التجارية بمجموعة من القبائل العربية وبخاصة مجموعة القبائل اليمانية المكونة من: لخم وجذام وكلب وبهراء وبلقين وعاملة، وقضاعة وعذرة والغساسنة (١١).

١٠. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م. ص ٦٤٠. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، المعارف؛ وأنظر الدوري، العرب ص ٢٧.

١١. أنظر ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م) السيرة النبوية، ٢م، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٢٧٥هـ/ ١٩٥٥م. م ١، ص ١٣، ص ١٥ ــ ١٦، ص ٧٥، ص ١٠٤. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة، الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، كتاب المغازي، ٣ح، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، جـ٣، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٤. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، مغازي؛ البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٤ح، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٥ ــ ١٩٥١، جـ١، ص ١٧، ص ٢٠، ص ٢٨ ــ ٢٩، ص ٤٩ ــ ٥٠. سيشار اليه فيما بعد: البكري، معجم؛ غيداء عادل كاتبي، الردة، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الأردنية. ص ٣٩ وما بعدها، ص ١٠٥ وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: غيداء، الردة؛ ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي ٤٠هـ/ ٦٦٠م ــ ١٣٢هـ/ ٧٤٩م؛ منشورات اتحاد المؤرخين العرب ١٩٨٠، ص ١٠٠، ص ١٥، ص ١٩، ص ٣٦ ــ ٣٨، ص ٦١ ــ ٦٢. سيشار الى هذا المرجع عند وروده هكذا: ناجي، القبائل؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ح دار بيروت ــ دار صادر، بيروت ١٣٧٦ ــ ١٩٥٧م جـ٢، ص ١٢٨ وما بعدها. سيشار اليه فيما بعد: ابن سعد، الأزدي؛ أبو اسماعيل محمد بن عبد الله، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢١٨ وما بعدها. سيشار اليه فيما بعد؛ الأزدي؛ البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، م. السعادة بمصر ١٩٥٩ ص ١١٨، ص ١٢٧، ص ١٣١، ص ١٣٣، ص ١٣٦. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ح، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠. ص ٣/ ٣٢ ــ ٣٧. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ؛ ابن حبيب، محمد (ت ٢٤٥/ ٨٥٩م)، كتاب المحبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ص ١١٤، سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المحبر؛ لامنس، جذام، دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة أحمد الشناوي ورفاقه، وزارة المعارف العمومية. جـ٦، ص ٣١٣. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: «جذام» جـ٦، ص ٣١٣؛ الدوري، التكوين ٥٨.

وقد استقرت مجموعة أبناء كهلان: لخم وجذام وعاملة في فلسطين (١٢)، واستوطنت قبيلة كلب في دومة الجندل، ثم نزحت الى تدمر وفي البادية جنوب شرق الشام (١٣). وكانت غسان في منطقتي دمشق وحوران، وقضاعة في البلقاء والى الجنوب الشرقي من الأردن، وتنوخ وطيء وسليم بجوار حلب وقنسرين (١٤).

وكان عرب سورية في البداية وثنيين، فقد كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم يقال له «الأقيصر» في مشارف الشام (١٥).

وتعرض العرب في سورية بخاصة الى حملة تنصير واسعة النطاق، والمصادر النصرانية تذكر العديد من نشاط الدعاة وكثيراً من الأديرة والكنائس في العصر الروماني (١٦). ومن الطبيعي أن تنتشر النصرانية في بلاد الشام أكثر من أية جهة أخرى من بلاد العرب، وذلك تبعاً للنفوذ السياسي الروماني. وقد اعتنق النصرانية كثير من أبناء القبائل العربية وبخاصة المجموعات القبلية التي كانت تسكن سورية والعراق، ومثال ذلك: جذام وكلب وعاملة وبلقين وبهراء وبلي ولخم والغساسنة،وقد استعان الروم بهذه القبائل لحماية حدودهم الجنوبية والشرقية من غارات القبائل العربية، ومن أبرز عمالهم الذين تذكرهم المصادر العربية ــ غير أبناء جفنة ــ أمراء الغساسنة ــ فروة بن عمرو الجذامي (١٧). وذكرت المصادر العربية أن أول من تنصر تنوخ وسليم وغسان بالشام (١٨)، ثم

١٣. البلاذري، فتوح، ص ١١٨؛ وانظر ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١هـ/ ١١٣٥م)، تهذيب تاريخ دمشق، ٧ح، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، دار المسيرة، ط٢، بيروت ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩. جـ١، ١٧٥. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تهذيب.

١٤. الدوري، التكوين، ص ٥٨.

١٥. ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣هـ ــ ١٩٢٤م، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤ ــ ١٩٦٥م ص ٣٨. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب الأصنام؛ جواد علي، المفصل، جـ٦، ص ٢٧٥.

١٦. يوسف الدبس، مختصر تاريخ سورية، ط٢، بيروت، ١٩٨٤، ص ٤٥٥ وما بعدها. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدبس، مختصر.

١٧. ابن سعد جـ١، ص ٢٨١؛ الطبري، تاريخ جـ٣، ص ١٧٤؛ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، جمهرة أنساب العرب تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ١٣٩١ ــ ١٩٧١. ص ٤٢١، سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جمهرة؛ ابن عساكر تهذيب، جـ١، ص ١٣٢؛ أبو البقاء، هبة الله الحلي، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، ٢ح، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان ١٩٨٤. جـ١، ص ٦٧ ــ ٦٨، ص ٩٤، ص ٢٧٠. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المناقب المزيدية؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر بتصحيح وعناية: علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس المغربي، تعليق الأمير شكيب أرسلان، مصر ١٣٥٥ ــ ١٩٣٦، جـ٢، ص ٢٣٧. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، تاريخ؛ جواد علي، المفصل، جـ٤، ٤٦٢.

طيء(١٩) ومذحج و بلي و بهراء ولخم وجذام(٢٠)، وأكيدر ملك دومة الجندل(٢١). وتسربت النصرانية جنوباً الى اليمن، وأصبح لها أسقفية في نجران(٢٢).

و يمكن القول بأن التأثير المسيحي في سورية وان كان من الناحية الظاهرية واسعاً الا أنه سطحي لا يتعدى مسايرة العرب لحكام سورية ورجال الدين النصارى، الذين كانوا منتشرين في بيوت العبادة النصرانية، ولحكام الروم نفوذ عليهم، كما كان البعض ممن تنصروا يرغبون في الحصول على المساعدات المالية أو ألقاب الرياسة أو طلب عون الروم ضد الخصوم من القبائل الأخرى. والذي يؤكد سطحية النصرانية بين العرب، أنه لم يكن لها تأثير يذكر في شمال جزيرة العرب حيث يكاد ينعدم النفوذ الروماني(٢٣)، كما أن معظم المتنصرة من العرب تخلوا عن نصرانيتهم والتحقوا بالاسلام كما سنرى في حوادث لاحقة. و يجب أن لا يفهم من عبارات المصادر العربية حول تنصر بعض القبائل العربية، أن التنصر كان فيها شاملا، اذ تفيد هذه المصادر نفسها أن المتنصرين لم يكونوا جل أفراد هذه القبائل، اذ نجد في القبائل نفسها مسلمين ووثنيين، و يبدو أن هذا التعميم انما جاء نتيجة لتنصر بعض رؤساء هذه القبائل.

---

١٨. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، ص ٢٧٨، ص ٢٧٩ وانظر المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ ح، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط٤، م. السعادة، بمصر ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م، جـ١، ٣٦٥ ــ ٣٦٦. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج.

١٩. ابن هشام، السيرة، جـ١، ٨٩؛ كتاب الأصنام ٦١.

٢٠. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت بعد ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، ٣ح، قدم له وعلق عليه، محمد صادق بحر العلوم، النجف ١٣٨٤ ــ ١٩٦٤، جـ١، ٢٥٧، سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ.

٢١. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ٥٢٦.

٢٢. البلاذري، فتوح، ص ٩٠ ــ ٩١؛ وابن سعد جـ١، ٣٣٩؛ وابن قتيبة، المعارف، ص ٦٢١؛ الأصفهاني، حمزة ابن الحسن (ت ٣٨٠/ ٩٩٠م)، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط٣، بيروت ١٩٦١، ص ١١٣. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأصفهاني، تاريخ؛ واليعقوبي تاريخ جـ١، ص ٢٢٧، ص ٢٥٤؛ ابن حوقل، أبو القاسم محمد، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ٢٩. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: صورة الأرض؛ الأصطخري، أبو اسحق ابراهيم، كتاب الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت، ص ١٤، ص ٢٠. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب الأقاليم؛ السيوطي، جلال الدين أبو بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عيسى البابي الحلبي ط٢، جـ١، ١٠٥. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: السيوطي، المزهر؛ لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، المطبعة اليسوعية، بيروت ١٩٢٣م، ص ١٢٤. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: شيخو، النصرانية. الدبس، مختصر ٤٥٩ ــ ٤٦٣.

٢٣. عبد المالك خلف التميمي، التبشير في منطقة الخليج العربي، الكويت ١٩٨٢، ص ١٣ ــ ١٤. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عبد المالك، التبشير، وانظر:

J.S. Trimingham, Christianity among Arabs, in Pre-Islamic times, London - Newyork, p. 121-122

=

ولم يكن دعم الروم للنصرانية تقرباً الى الله وحده، بل لتمكين سلطانهم في بلاد العرب، ولهذا كان من سياسة بيزنطة «الروم» نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وارسال المبشرين والاغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير(٢٤).

و يرى الأب لامنس في معرض حديثه عن جذام: «أن النصرانية لم تتغلغل في قلوبهم شأنهم في ذلك شأن القبائل البدوية»(٢٥). وذهب «ترتون» الى أن النصرانية بين القبائل العربية كانت اسمية(٢٦)، وقال «ريتشارد بل»: «ان الكنيسة لم تنجح حقيقة في تثبيت قدمها بين العرب اطلاقاً»(٢٧). وذهب الى مثل ذلك ولفنسون فقال: «ان النصرانية لم تتغلب في وقت ما على النفوس العربية»(٢٨). و يعزو ترمنقهام ذلك الى: «اتخاذ النصرانية الآرامية بدلا من العربية، وعدم وجود ترجمة عربية للانجيل متداولة بين العرب، وغياب كنيسة وطنية بين القبائل العربية(٢٩). و يمكن أن يضاف إلى قول ترمنقهام في تعليل فشل النصرانية بين العرب، أن النصرانية كدين والنشاط السياسي الروماني، باستبداده وحروبه وضرائبه، كان صورة واحدة لا تتجزأ في عقل الانسان العربي، فأدرك بفطرته أن اعتناق النصرانية يعني التبعية للحكم الروماني الأجنبي. هذا مع ما رافق انتشار النصرانية من صراعات مذهبية ومسلكيات غير أخلاقية.

تمثل هذه الفترة التي أطلق عليها القرآن اسم «الجاهلية» فترة خصبة بامكاناتها العربية، على الرغم من أن خريطتها السياسية لم تكن كذلك، فقد بلغ التطور اللغوي في المهاجر العربية مداه قبيل الاسلام بما لا يزيد على قرن ونصف القرن على الأقل، و يؤيد

= سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Trimingham, Christianity;

وصالح الحمارنه، دور الأنباط في الفتوح الاسلامية، مجلة دراسات، العدد ١م٧، ص١٦٨ الجامعة الأردنية، ١٩٨٠. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد حمارنه، دور الأنباط.

٢٤. جواد علي، المفصل، جـ٦، ص ٥٩٠.

٢٥. «جذام»، جـ٦، ص ٣١٣.

٢٦. A. S. Tritton, Caliphs And Their Non-Moslem-Subjects, pp. 76.

سيشار الى هذا المرجع عند وروده هكذا: Caliphs

وأنظر محمد البطاينة، العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الاسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٢٢/ ١٩٨٢. ص ٥٥ ــ ٥٦. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البطاينة العلاقة.

٢٧. 27. R. Bell, The Origin of Islam in Its Christian environment, Edinburgh University, 1925. pp. 17, 79.

سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: .The Origin of Islam

٢٨. اسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، القاهرة ١٩٢٧، ص ٣٧. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ولفنسون، تاريخ.

٢٩. Trimigham, Christianity, p. 17, 79; وانظر البطاينة «العلاقة»، ص ٥٥ ــ ٥٦.

ذلك الشعر والأدب الذي وصلنا من تلك الفترة على الرغم مما قد يقال فيه. وقد أصبح اسم العرب شاملا علماً على هؤلاء الذين تكونت منهم الأمة العربية فيما بعد (٣٠).

وتأخر توطد اللغة الفصحى كلغة مشتركة لجميع العرب اجمالا، عن توطد التسمية «بالعرب» طبيعي لأنه لا يمكن أن يكون الا بعد توطد مفهوم الوحدة الجنسية والاسم القومي، وشمولهما من جهة، و بعد تطورات في صلات العرب ببعضهم لا يمكن أن تتم الا بعد توطد وشمول ذلك المفهوم والاسم من جهة أخرى (٣١).

ومن الشواهد الثقافية في هذا المجال، ظهور الخط العربي، فقد ظهر للمرة الأولى في «زبد» شرقي حلب، و يرجع الى سنة ٥١٢م، فهو أقدم خط عربي مكتشف حتى الآن ــ اذا استثنينا النقش السابق أي نقش النمارة المكتوب بخط نبطي ــ حروفه وسط بين النبطي والكوفي و يسمى النسخي، وهو منقوش على عتبة وواجهة كنيسة مارسركيس جنوب غرب القلعة» (٣٢). ونقش حران الذي عثر عليه في منطقة اللجا وتاريخه يعود الى سنة ٥٦٨م وهو مكتوب بالكوفي (٣٣).

يؤكد نولدكه وحدة اللغة الفصحى عند شعراء الجاهلية بقوله: «إن شعراء العرب استعملوا لغة واحدة بالرغم من انتمائهم الى قبائل كثيرة، فامرؤ القيس كان كندياً ــ قحطانياً ــ يمنياً، وزهير وعنترة ولبيد كانوا من قيس، وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من ربيعة، وقيس وربيعة من قبائل نزار» (٣٤). ورافق هذا التطور الثقافي المتمثل ببلوغ العربية مرحلتها الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم تطور آخر في المجال السياسي،

إلا أن اللغة كانت أسرع في الوصول إلى أهدافها بينما تعثرت الوحدة السياسية ولكل أسباب. فالتطور اللغوي والثقافي سارعت فيه وعززته مجموعة من العوامل، منها الصلات الدائمة بين العرب في الجزيرة وخارجها،صلة اقتصادية وسياسية وثقافية تتمثل بالرحلات التجارية وما ترتب عليها من اتفاقات «الايلاف مثلا» والأسواق الموسمية التي كانت تنعقد بشكل دوري في أرجاء مختلفة، من الجزيرة العربية،ومن أبرز هذه الأسواق، عكاظ وذو المجاز ومجنة، في منطقة الحجاز. وكان العرب يحضرون هذه الأسواق من كل صوب يتبادلون فيها السلع والأفكار، إذ كانت هذه الأسواق محجاً للخطباء والشعراء والفصحاء

٣٠. دروزة، تاريخ، جـ٥، ٤٨.

٣١. المصدر السابق، جـ٥، ص٥٦.

٣٢. نسيب وهيبه الخازن، من الساميين الى العرب، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت، ص ١٧٠. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الخازن، من العرب.

٣٣. المرجع السابق، ص ١٧١.

٣٤. المرجع السابق، ص ١٧٢.

وكل ذي علم وفن من العرب (٣٥). ومن هذه العوامل الحج الى مكة ــ المحج الوطني للعرب ــ وقد قرر غير واحد من علماء العرب وغير العرب أنه كان للحج وتقاليده وأسواقه أثر كبير في ذلك بعد أن غدا شاملا لجميع العرب (٣٦). وضاعف هذه التطورات تعرض

المنطقة العربية للأطماع الأجنبية متمثلة بالتنافس الذي حصل بين الفرس والروم. وقد راقب العرب هذا الصراع وأدركوا أنه يمسهم و يؤثر على سيرتهم، وأدركوا أيضاً أنه لا بد لهم من كيان عربي خاص بهم يقف في وجه الأطماع الفارسية والرومية (٣٧). وقد حاولت دولة حمير لعب هذا الدور وأوكلت إلى «آل كندة» مهمة توحيد القبائل العربية في وسط

جزيرة العرب وشمالها وشرقها، ونجح الحارث بن عمرو الكندي وأبناؤه في هذه المهمة فترة وجيزة، فكانت هذه السابقة حافزاً لمحاولات سياسية أخرى لاحقة. وقد شهدت فترة الصراع الفارسي الرومي على المنطقة العربية أساليب متعددة للفوز بهذه المنطقة ذات الموقع الاستراتيجي والاقتصادي ــ عقدة المواصلات التجارية في العالم القديم ــ فاتبعوا وسائل الغزو العسكري والفكري وألقوا على رؤساء العرب بالألقاب والامتيازات، كالردف، وذي الآكال، وذي التاج، وفلارك، و بطريق (٣٨).

٣٥. انظر حول الأسواق: المحبر ٢٦٣ وما بعدها؛ ياقوت الحموي، شهاب الدين عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٦ح، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، مادة «أسواق». سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم؛ محمود شكري، الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، ط٣ مصر ١٣٤٢هـ ج ١، ص ٢٦٤ وما بعدها. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الألوسي، بلوغ؛ سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٣٩٤ ــ ١٩٧٤م، ص ٢٣٢ «سوق دومة الجندل» وص ٢٧٧ «سوق عكاظ» وص ٣٤٤ «سوق مجنة» وص ٣٤٧ «سوق ذي المجاز» وص ٣٦٤ «سوق بصرى» وص ٣٧٢ « سوق أذرعات» وص ٣٧٤ «سوق الحيرة». سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الأفغاني، أسواق.

٣٦. دروزة، تاريخ، ٥٦ ــ ٥٧.

٣٧. أبلغ شاهد على مراقبة العرب للأحداث التي تجري في المنطقة بشكل عام. والصراع الجاري بين الفرس والروم بشكل خاص قوله تعالى في بداية سورة الروم: «الم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم» الآيات ١ ــ ٥.

٣٨. مثال على الغزو العسكري: حملة ايليوس غالوس ــ حاكم مصر الروماني، على الحجاز واليمن، ثم احتلال تراجان لدولة الأنباط، وأورليان لدولة تدمر وحملات الفرس على منطقة الخليج العربي وأخيراً حملة وهرز مع سيف بن ذي يزن واحتلال اليمن. بالاضافة الى محاولة نشر النصرانية وفي أحيان المزدكية أنظر صالح درادكة، الردافة على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق جزيرة العرب في القرن السادس و بداية السابع الميلادي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، عدد ١١/١٩٨٢ ص ٤٠.

جاء الاسلام متوجاً لكل العوامل الفاعلة لتكوين الشخصية العربية المتكاملة، فكان أقوى حدث في التاريخ العربي على طوله، فمن الناحية اللغوية والثقافية ثبت القرآن قواعد اللغة شعراً ونثراً وكرس نقاوتها وحلق بها في أسمى الآفاق فباتت مقاطعه آيات تبهر المسلمين والمسيحيين(٣٩).

ومن الناحية السياسية دعا العرب الى الوحدة في اطار الأمة الاسلامية، مميزة من دون الناس(٤٠)، تدعو للتي هي أقوم(٤١).

ولما كان خارجاً عن أغراض هذه الدراسة الدخول في بيان تفاصيل أثر الاسلام في العرب، فيكفي أن نقول: ان الاسلام قاد العرب في المسارات السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية وحملهم رسالة قومية وانسانية، فكانت حركة الفتوحات ــ التوحيد السياسي للعرب ــ بدءاً بالجزيرة العربية ومن ثم بلاد الشام والعراق. و يهمنا أن نعرف فيما إذا كان في الاسلام ما يحتم فتح بلاد الشام أو تحريرها واستكمال الوحدة السياسية للعرب؟

وسنعتمد في الاجابة على هذا التساؤل إلى نصوص من القرآن والسنة والتراث الاسلامي ثم إلى المقدمات العملية التي حدثت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلها توحي بحتمية فتح بلاد الشام:

ومن أولى الأدلة على مكانة بلاد الشام في الفكر الاسلامي قوله سبحانه وتعالى في مستهل سورة الاسراء: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا، انه هو السميع البصير».

وقد اتفق المفسرون على أن المقصود بالمسجد الأقصى هو: بيت المقدس وسمي بالأقصى لبعد المسافة ما بين المسجد الحرام في مكة و بيت المقدس(٤٢).

وقال ابن الكلبي في تفسير الأرض المباركة بأنها الشام، وقال الحسن: هي الشام

---

٣٩. انظر: الخازن، من العرب، ص ١٧٣.

٤٠. انظر قوله تعالى: «وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» آية ٥٢ من سورة المؤمنون.

٤١. انظر آية ٩ من سورة الاسراء «وان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم».

٤٢. انظر الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، ٣٠ج، دار المعارف، القاهرة، جـ١٥، ص ٣، و بهامشه تفسير النيسابوري ١٤/ ١٥. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تفسير؛ العليمي، أبو اليمن القاضي مجير الدين (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ح، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ، جـ١ ص ٥ ــ ٦. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العليمي، الأنس؛ انظر مناقشة روايات الاسراء عند الدوري، «فكرة القدس في الاسلام»، بحث قدم في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (ستانسل)، ص ١. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، فكرة.

باركنا فيها بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة، وقال السهيلي: الذي باركنا حوله يعني الشام، والشام بالسريانية «الطيب» «سميت بذلك لطيبها وخصبها»(٤٣) و يتضح في الآية السابقة الربط المكاني بين الحجاز وفلسطين، كما هو واضح بالمباركة الربط المعنوي بين المكانين من حيث القدسية والأهمية. وقال تعالى في الآية «٧١» من سورة الأنبياء: «ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين». فعند أبي بن كعب وسفيان الثوري، وقتادة أن المقصود بالأرض التي باركنا فيها أرض الشام، وهذا ما دعا ابراهيم عليه السلام أن يفارق أرض العراق الى الشام(٤٤). وجاء في السورة نفسها آية (١٠٥): «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون».

و يروى في بعض الأقوال أن الأرض الموروثة يعني بها: الجنة، وأفادت الآثار أنها بلاد الشام اذ منها المحشر والمنشر(٤٥). وقال تعالى في الآيتين ٣٦ ــ ٣٧ من سورة النور: «في بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار». وقيل إن الذي عني بالبيوت والمساجد: «بيت المقدس»(٤٦)، وقال تعالى في الآية (١٣) من سورة الحديد: «فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب». وعند ابن وهب عن ابن زيد أن ذلك السور بيت المقدس، وقال تعالى في الآية (٥٠) من سورة المؤمنين «: وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآو يناهما الى ربوة ذات قرار معين». لقد تضاربت الأقوال حول المقصود بالربوة، فعند قتادة وكعب، أن الربوة هي الرملة من فلسطين وشايعهما البهزي، وقال آخرون هي دمشق ومنهم سعيد بن المسيب، وقيل غير ذلك(٤٧). وقال تعالى في سورة التين، آية (١): «والتين والزيتون وطور سنين»، جاء في أقوال بعض المفسرين أن التين يقصد به مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس(٤٨)

---

٤٣. أبو هلال الدمشقي، أبو محمود أحمد بن محمد (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، مخطوط في جامعة برنستون، صورة عنه في مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ٣٨٥. ورقة ٢ أ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: مثير الغرام.

٤٤. الطبري، تفسير، جـ١٧، ص ٣٤ ــ ٣٥؛ مثير الغرام، ورقة ٢ ب.

٤٥. الطبري، تفسير، جـ١٧، ص ٨١ «رواية ابن عباس»؛ وانظر المكناسي أبي اسحق ابراهيم المكناسي ابن يحيى، كتاب فيه فضائل بيت المقدس و يليه فضائل الشام، صورة مخطوطة توبنجن، مكتبة الجامعة الأردنية رقم تصنيفها (٤٢١، ٩٥٦) ورقة ٤٣/أ. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا المكناسي؛ ومثير الغرام، ورقة ٣ ب ــ ٦ ب.

٤٦. الطبري، تفسير، جـ١٨، ص ١١١ ــ ١١٤.

٤٧. الطبري، تفسير، جـ١٨، ص ٢٠؛ وابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٤٦ «رواية ابن عباس»؛ ومثير الغرام ورقة ٣ أ.

٤٨. قال ذلك كعب وقتادة وابن زيد ووكيع وآخرون. انظر الطبري، تفسير، جـ٣٠، ص ١٥٤.

وفي قول آخر أن التين وطور سنين ثلاثة مساجد بالشام (٤٩).

وعن ابن عباس: أن التين بلاد الشام والزيتون بلاد فلسطين وطور سنين الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وهذا البلد الأمين «مكة» (٥٠).

وقال تعالى في سورة يونس، آية (٩٣): «ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق» بوأهم الشام وبيت المقدس، روى ابن عساكر هذا الحديث من عشرة طرق، وبصيغ مختلفة في الألفاظ متفقة في المعنى كلها تفيد تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح الشام والاقامة فيه (٥١).

وقد ذكر صاحب مثير الغرام، كما أوردت كتب التفسير وكتب فضائل القدس والشام، عدداً كبيراً من الآيات تتضمن الاشارة الى أماكن قالوا انها تعني بيت المقدس أو مواقع في بلاد الشام ومن تلك الآيات (٥٢).

«ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ★ سورة البقرة آية: ٣٠

«لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، ★ سورة الزمر، آية: ٢٠

«من جانب الطور ناراً ★ سورة القصص آية ٢٩.

«يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين ★ سورة القصص آية: ٣١

«وهل أتاك حديث موسى اذ رأى ناراً.. ★ «سورة طه آية ٩.

«فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ★ «سورة طه آية ١٢

«يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ..★ سورة الأنبياء، آية ٦٩.

«إني ذاهب إلى رب سيهدين...... ★ سورة الصافات، آية ٩٩.

وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائل بيت المقدس والشام، منها الصحيح والحسن والغريب والضعيف والمحتمل والواعي والواهي والموضوع، والآثار القوية والواهية وغير ذلك، كما صنف آخرون كتباً في فضائل الشام (٥٣).

وعلى أية حال فان كثرة هذه الأحاديث رغم ما يطعن في بعضها، تكمل الصورة

٤٩. انظر: الطبري، تفسير، جـ٣، ص ١٥٤؛ وابن عساكر تهذيب، جـ١، ص ٤٧؛ وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور ط٢. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. ص ٧٠ ــ ٧١. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي، فضائل.

٥٠. ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ٤٧؛ وانظر الأنس الجليل جـ١، ص ٦.

٥١. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٣٥.

٥٢. انظر: مثير الغرام، ورقة ١٣أ ــ ٣ب. «إن المحشر سيكون في أرض الشام».

٥٣. انظر محمد ناصر الدين الألباني، تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق، للربعي، ومعه: مناقب الشام وأهله، تأليف: تأليف شيخ الاسلام ابن تيمية، المكتب الاسلامي، ط٤، بيروت ١٤٠٥هـ. ص ٥ ــ ٦٩.

السابقة لبلاد الشام، وتضع الجانب النظري ـ إن جاز التعبير ـ موضع التطبيق، وسنذكر مجموعة من الأحاديث مبتدئين بتلك التي بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بها بفتح بلاد الشام، والتي تعكس أهمية هذه البلاد في العقيدة الاسلامية ـ كما ذكرنا سابقاً ـ وتحتم من هذا المنظور العقدي استكمال وحدة هذه البلاد مع وحدة الجزيرة العربية، كلبنة أولى في بناء الصرح الكامل للشخصية العربية الاسلامية.

ومن أشهر الأحاديث التي بشر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح الشام، حديث الخندق، لما استعصت على أحد الصحابة صخرة أثناء الحفر، فاستعان بالرسول صلى الله عليه وسلم فضرب الصخرة بمعوله عدة ضربات، تخرج لمعة في كل ضربة تضيء المكان، فأخبر صلوات الله عليه وسلم بفتح الشام وفارس واليمن، والحديث معروف ومشهور (٥٤).

وعن معاذ أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ ان الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت المقدس، فهو جهاد الى يوم القيامة» (٥٥).

ورويت في كتب الصحاح عدة أحاديث بلفظ، يفتح الشام، وسيفتح عليكم الشام، وليفتحن الشام والروم، وغير ذلك (٥٦).

وجاء في حديث رواه ابن حنبل، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح: «إني نذرت أن فتح الله عليك مكة، أن أصلي في بيت المقدس (٥٧).

وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لشداد بن أوس: «ألا ان الشام ستفتح وبيت المقدس سيفتح ان شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله تعالى» (٥٨).

٥٤. أنظر الحديث في ابن هشام، السيرة م ٢، ص ٢١٩؛ والطبري، تاريخ، جـ٢، ٥٦٨ ــ ٥٦٩؛ الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٤٥٠؛ وانظر أجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة ترجمة وتعليق: محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر، دار الكاتب المصري، القاهرة ١٩٤٦، ص ٢٧. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جولدتسيهر، وقد روى هذا الحديث أبو هلال الدمشق، وهشام بن عمار عن معاوية بصيغة أخرى.

٥٥. الأنس الجليل، جـ١، ص ٢٢٨.

٥٦. انظر ونسنك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ٧ح، ليدن ١٩٦٥، ج ٥، ص ٤٣ ــ ٤٤، ص ٤٨، ص ٥٣، ص ٥٥. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا ونسنك، المعجم؛ وانظر: ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ٥٩؛ الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، مسند أحمد بن حنبل، ٦ح، المكتب الاسلامي بيروت. جـ٣، ص ٣٦٣. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مسند أحمد بن حنبل.

٥٧. مسند أحمد ابن حنبل، جـ٣، ص ٣٦٣، جـ٤، ص ١٩٩.

٥٨. العليمي، الأنس، جـ١ ٢٤٤.

وقال جزء بن سهيل السلمي للرسول صلى الله عليه وسلم: «ومن يستطع الشام وفيها الروم ذات القرون، قال: والله ليستخلفنكم الله فيها... حتى تظل العصابة البيض منهم قياماً على الرجل الأسود منكم، وما أمرهم فعلوا..» (٥٩)

وأورد الواقدي حديثاً مرفوعاً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبره بفتح بيت المقدس وقيسارية (٦٠).

وقال ابن اسحاق: «وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: «افتتحوا ما بدا لكم فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة الا وقد أعطى الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك (٦١).

ومن الآثار البينة التي تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى أن فتح بلاد الشام ودخول المسلمين بيت المقدس حاصل باذنه تعالى، أنه اقطع بعض القطائع في بلاد الشام وهي تحت حكم الروم إلى بعض أصحابه. ومنها اقطاعه لتميم الداري وأخيه سنة تسع: حبرون أو «حبرى» و بيت عينون والمرطوم و بيت ابراهيم ومن فيهم إلى الأبد (٦٢).

وقد نقل أبو عبيد ما روى عن تميم الداري حين خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «إن الله مظهرك على الأرض كلها فهب لي قريتي من بيت لحم (٦٣) فوهبها له وكتب

---

٥٩. ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ح، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت — ١٣٢٨هـ ١/ ٢٣٤ رقم (١١٤٤). سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاصابة.

٦٠. الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، كتاب الفتوح، ط١ منشورات المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٦٦. جـ١ ٢١٣. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، فتوح.

٦١. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٢١٩.

٦٢. حول اقطاع تميم الداري انظر: ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٣٥٤؛ ابن سعد، جـ١، ص ٢٦٧، ٣٤٣، أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٢٧٤، ص ٢٧٥، ص ٢٨٩ سيشار إليه فيما بعد هكذا: الأموال؛ الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ، جـ٢، ص ١٤٦، سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم، جـ٢، ص ٢١٢ مادة «حبرون»؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٣، دار الارشاد، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، رقم ٤٣ — ٤٥، ص ١٠٠ — ١٠٣ سيشار إليه فيما بعد هكذا: حميد الله عون الشريف قاسم، نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب اللبناني بيروت (١٤٠١ — ١٩٨١)، ط٢. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عون الشريف، نشأة، ص ٢٦٢.

٦٣. ذكر أبو عبيد أن تميم جاء بالكتاب لعمر بن الخطاب الخليفة بعد فتح الشام، وطلب إليه ما فيه، فقال عمر: أنا شاهد ذلك «أي الكتاب» فأعطاه إياها. انظر: الأموال ٢٧٤ — ٢٧٥.

له فيها كتاباً، ووعد رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق وعطاؤه حق» (٦٤). وما زال التميميون في منطقة الخليل حتى يومنا شاهد صدق على فعل الرسول صلى الله عليه وسلم. وتعطي الروايات المختلفة لوثيقة تميم التصرف في هذه المواطن وفيمن يسكنها، وتبيح له حق توريثها لأبنائه من بعده (٦٥).

وأقطع الرسول صلى الله عليه وسلم أرضاً لأبي ثعلبة الخشني وهي بأيدي الروم (٦٦).

وفي ذكر فضائل بلاد الشام ومدنه، و بخاصة بيت المقدس ودمشق والخليل وغيرها، رو يت أحاديث كثيرة وصنفت كتب.

عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من مدائن الجنة، مكة والمدينة ودمشق و بيت المقدس (٦٧)»، ونلاحظ في هذا الحديث محاولة المساواة بين الحجاز والشام. وعن عبد الله بن حوالة أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستجندون أجناداً، جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن، قال: فقمت فقلت: «خر لي أي تخير لي يا رسول الله، قال عليك بالشام... وقد رواه ابن عساكر من عشرة طرق ورواه الامام أحمد في مسنده بخلاف لفظي يسير (٦٨).

روى الواسطي (الخطيب ببيت المقدس)، عن الوليد بن مسلم عن ثور بن يزيد قال «قدس الأرض الشام، وقدس الشام فلسطين، وقدس فلسطين بيت المقدس وقدس بيت المقدس الجبل، وقدس الجبل المسجد، وقدس المسجد القبة» (٦٩).

ومن هذه الأحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الجنة مطو ية في قرون الشام» وان الشام مهبط عيسى بن مريم قبل قيام الساعة، وان أهل دمشق لا يزالون على الحق ظاهرين (٧٠).

---

٦٤. الكتاني، الشيخ عبد الحي، التراتيب الادارية، ٢ح، بيروت، جـ١، ص ١٤٩ — ١٥٠، وانظر عون الشريف، نشأة، ص ٢٦٢.

٦٥. انظر الوثيقة في المصادر السابقة.

٦٦. انظر: الأموال، ص ٣٨٨ — ٣٨٩؛ حميد الله ص ١٠٣ رقم ٤٧ أ. وأقطع الرسول صلى الله عليه وسلم موضع دار للأزرق الغساني «حميد الله ص ٢٦٣ رقم ٢١٥ أ.

٦٧. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٤٧؛ العليمي الأنس، جـ١، ص ٢٢٨؛ وطه الولي، التراث الاسلامي في بيت المقدس وفضائله الدينية، مطبعة دار الكتب، ص ٦٧. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: طه الولي.

٦٨. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٢٧.

٦٩. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٤١ — ١٤٢؛ وانظر الدوري، «فكرة»، ص ٣٤.

٧٠. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٤٨ — ٥٥.

ودعا الرسول للشام بأن يبارك الله في ثمرها وأرضها وصاعها ومدها (٧١) وأثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ان دمشق من أبواب الجنة» (٧٢) وقوله صلى الله عليه وسلم «طوبى للشام» (٧٣).

ووردت أحاديث كثيرة ترغب بسكن الشام والاقامة فيها منها:

عليكم بالشام فانها صفوة الله تعالى في أرضه، يسوق اليها صفوته من خلقه.. (٧٤). ومن الأحاديث المشهورة التي تأتي موازية في الغرض والأهمية لآية الاسراء، حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»، وقد روي هذا الحديث بصيغ مختلفة لا تخرج عن هذا المعنى (٧٥).

والمسجد الأقصى وبيت المقدس جزء هام من بلاد الشام، تفرد أكثر من غيره من المدن الشامية بمركزه الروحي والتاريخي، وحسبها أن الله ربطها ربطاً روحياً مع مكة والمدينة مما يؤكد اسلامياً وحدة المصير.

وقد انعكست مكانة بلاد الشام وأهميتها في كتب التراث، فقد صنف في فضائل الشام ومدنها وبخاصة بيت المقدس، كثير من المؤلفات، تذكر خصائصها وتبرز فضائلها وبدأ المسلمون منذ زمن مبكر في تأليف مثل هذه الكتب التي تجسد أهمية هذه البلاد في نظر المسلمين وتصور مدى تطلعهم اليها... ونحن ذاكرون عدداً من هذه المؤلفات:

٧١. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٣٤، ٥٨؛ وانظر: مثير الغرام، ورقة ٥ أ. أبو المعالي المشرف ابن المرجا المقدسي (من رجال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، فضائل البيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام، ص ٢٠٧. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو المعالي، فضائل.

٧٢. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٤٧.

٧٣. أبو المعالي، فضائل، ص ٣٠٩؛ المكناسي، فضائل، ورقة ٣٥ ب.

٧٤. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٢٨؛ والمكناسي، فضائل، ورقة ٣٧ ب وما بعدها.

٧٥. انظر العليمي الأنس، جـ١، ص ٢٣٠؛ وانظر: مناقشة الحديث عند الدوري فكرة ص ٢٠ وما بعدها. وعن فضائل الشام انظر: ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن ابراهيم، مختصر كتاب البلدان، نشره دي خو يه، بريل، ليدن، ١٨٨٥. ص ٩٢. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه مختصر؛ والمقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، ص ١٥١. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أحسن التقاسيم؛ الأنس الجليل جـ١، ص ٢٢٨؛ الصنعاني أبو بكر عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ/٨٢٦م)، المصنف، ١١ح، تحقيق حبيب الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، باكستان، ١٩٧٢. جـ٥، رقم ٩١٣١، ٩١٣٢، ٩١٧٣، ١١٦٣. سيشار الى هذا المصدر فيما بعد هكذا: المصنف؛ ونسنك المعجم، جـ٢، ص ٤٢؛ ابن الجوزي، فضائل، ص ١٣٩ ـ ١٤٧؛ طه الولي ٤ ـ ١٠؛ جبرائيل جبور، مكانة القدس لدى المسلمين، بحث للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين ١٩٨٠. (ستانسل) ص ٣٠ ـ ٣٢. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جبور، مكانة؛ عفيف عبد الرحمن، القدس ومكانتها لدى المسلمين وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، م ٢ «القدس»؛ ص ٢٢٧. سيشار اليه فيما بعد هكذا: عفيف عبد الرحمن؛ الدوري، «فكرة» ص ٢١ ـ ٢٣؛ مسند ابن حنبل جـ٦، ٤٣٢؛ وابن الجوزي، فضائل، ص ٩٠.

١. الرازي البجلي، أبو القاسم تمام بن أبي الحسين محمد بن عبد الله (ت ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) وهو من كبار رجال الحديث بدمشق، واشتهر بمعرفة فضائل الشام ودمشق، وقد كان ما رواه في هذا الصدد، نواة الكتب التي ألفت في هذا الموضوع من بعد، منذ الربعي الى أولاد عساكر ـ الذين ألفوا كثيراً في فضائل الشام ـ ومن بعدهم (٧٦).

٢. الربعي، علي بن محمد المالكي (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) وهو من محدثي دمشق، أتم سنة ٤٣٥هـ جمع كتاب سماه: «فضائل الشام ودمشق» (٧٧).

٣. المقدسي القيسراني، أبو الفضل محمد بن طاهر (٤٤٨/١٠٥٦ ـ ٥٠٧/١١١٣) **تاريخ أهل الشام ومعرفة الأئمة منهم والأعلام** (٧٨).

٤. أبو المعالي المشرف بن المرجا بن ابراهيم المقدسي «**فضائل البيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام**» (٧٩).

٥. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي الدمشقي (٤٩٩/١١٠٥ ـ ٥٧٢/١١٧٦) ألف في فضائل: دمشق، القدس، مكة، المدينة، الخليل، عسقلان (٨٠).

٦. الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) **الفتح القسي في الفتح القدسي** (٨١).

٧٦. شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ٢ح، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٨٠، جـ٢، ص ٢٤٣. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: التاريخ العربي. لقد أوردنا نماذج من المؤلفات في فضائل بلاد الشام ورتبناها حسب سني وفاة المؤلفين. ومن أراد معرفة المزيد من هذه المؤلفات عليه الرجوع للمراجع المشار اليها في الهوامش.

٧٧. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩١م)، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ط. روزنثال العربية، ص ٢٦٣. سيشار اليه فيما بعد السخاوي، التاريخ العربي، جـ٢، ص ٢٨٠؛ كامل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، دراسة وببليوغرافيا، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط١، عمان ١٩٨١ ص ٣٠. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العسلي. وقد طبع المجمع العلمي بدمشق الكتاب بتحقيق صلاح الدين المنجد.

٧٨. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٦ح، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧، جـ١، ص ٣٩٨. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ؛ التاريخ العربي، جـ٢، ص ٢٣٢.

٧٩. العسلي ٣٤.

٨٠. التاريخ العربي، جـ٢، ص ٢٤٣.

٨١. العسلي، ص ٤١. مطبوع.

٠٧ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥١٠ ـ ٥٩٧) **فضائل القدس**.

٠٨ البغدادي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن أبي زيد (ت ٥٩٧ هـ) **مثير الغرام لساكني الشام** (٨٢).

٩. الضياء المقدسي، أبو عبد الله بن عبد الواحد بن أحمد الجماعيلي (٥٦٩ ـ ٦٤٣/١٢٤٦) **فضائل الشام**. وهو يشبه ما كتبه الربعي وابن عساكر قبله (٨٣).

١٠. أبو اسحاق، ابراهيم بن يحيى بن أبي الحفاظ المكناسي، من علماء المغرب عاش في القرن السابع، وألف كتابه في أواخر القرن المذكور: **كتاب فيه فضائل بيت المقدس وفضائل الشام** (٨٤).

١١. مؤلف مجهول: **فضائل الشام وفضل مدنها، وبيت المقدس وعسقلان وغزة والرملة وأريحا ونابلس وبيسان ودمشق وحمص وذكر الأنبياء المشهورين فيها وذكر الصحابة المدفونين فيها** (٨٥).

١٢. الكنجي، شمس الدين محمد بن محمد بن حسين (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م)، **فضائل بيت المقدس وفضائل الشام فيها** (٨٦).

١٣. المقدسي الشافعي، شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن ابراهيم بن هلال بن تميم بن سرور (ت ٧٦٥/ ١٣٦٤م) **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام** (٨٧).

١٤. شمس الدين أبو العباس، **تحفة الأنام في فضائل الشام** (٨٨).

ومما هو جدير بالذكر ان كتب السير والتواريخ ، وفيه ذكرت فضائل بلاد الشام. وكتب الكثيرون في الرحلات ووصف البلدان والمسالك والممالك وطرق الحج وفضائل الأماكن المقدسة. ومن أقدم كتب التراث التي انتبهت لهذا الموضوع ـ غير كتب الحديث وعلوم الفقه ـ كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (٨٩). ثم جاء أصحاب كتب الجغرافيا

٨٢. مثير الغرام، ص٦.

٨٣. التاريخ العربي، جـ٢، ص٢٥٩.

٨٤. العسلي، ص٥٧.

٨٥. المصدر السابق، ص ٦١.

٨٦. المصدر السابق، ص ٧١.

٨٧. المصدر السابق، ص ٥٥.

٨٨. عفيف عبد الرحمن، ص ٢٢٩ وما بعدها.

٨٩. جبرائيل، «مكانة»، ص١٨.

والبلدان فأبرزوا جوانب متعددة لفضائل بلاد الشام ومدنها مثل أبن خرداذبة (جاء قبل ابن عبد ربه بنحو ثلاثين سنة) فكتب كتابه المسالك والممالك (٩٠) وكان هذا الكتاب مصدراً استمد منه المتأخرون بعده كابن الفقيه في كتابه: مختصر كتاب البلدان، وابن حوقل والمقدسي الذي جاء بعد ابن خرداذبة، وابن واضح اليعقوبي صاحب كتاب البلدان، وابن رستة الذي ألف كتاب الأعلاق النفيسة، وبعد ذلك جاء الأصطخري فكتب المسالك والممالك (٩١).

و يتضح مما سبق أن مسلمين من مصر والمغرب والمشرق الاسلامي ألفوا في فضائل الشام وهذا يعكس مكانة بلاد الشام في قلوب المسلمين وعقيدتهم. و يمكن الاستدلال بمجموعة من الحوادث أن النبي صلى الله عليه وسلم اتجه بنظره إلى شمال الجزيرة نحو بلاد الشام قبل استكمال وحدة جزيرة العرب منذ السنة الخامسة، ومن خلال استقراء الحوادث يتبين أن من بين العوامل التي دفعت لعقد صلح الحديبية مع قريش التفرغ للقيام بنشاط دبلوماسي وعسكري في المنطقة الشمالية تمثل بالانفراد بخيبر، بعد عهد السلام مع قريش، وكانت خيبر معقلا يقوي من عزائم القبائل العربية في الشمال ضد الدعوة الاسلامية، كما استغلت هذه الحالة بعد الحديبية في نشر الاسلام و بخاصة بين القبائل الشمالية والقبائل المستقرة في بلاد الشام.

وسنتعرض بايجاز لمجموعة الحوادث التي توضح غرضنا المتمثل في تصميم المسلمين على فتح بلاد الشام وأولى هذه الحوادث: غزوة دومة الجندل في السنة الخامسة أو السادسة للهجرة، ففي بداية السنة الخامسة للهجرة غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دومة الجندل، وأراد أن يدنو الى أدنى الشام، وقيل له انها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت لها كان ذلك مما يفزع قيصر (٩٢). وكانت دومة الجندل مركزاً تجارياً هاماً، تستمد منه المدينة حاجتها من المواد الغذائية، وقيل في سبب الغزوة أن الأعراب هاجموا دومة الجندل وعطلوا وصول ميرتها إلى المدينة، واعتبرت بعض المصادر أن غزوة دومة الجندل أول غزوات الشام (٩٣). وطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الرحمن بن عوف قائد السرية أن يتزوج من ابنة سيد قبيلة كلب إذا استجابوا للاسلام. و يذكر الواقدي أن الأصبغ بن عمرو الكلبي استجاب للاسلام وكان نصرانياً، وتزوج عبد الرحمن بن عوف من

٩٠. ليدن ١٨٨٩.

٩١. جبرائيل، «مكانة» ص ٢٠.

٩٢. الواقدي، مغازي، جـ١، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

٩٣. انظر أخبار هذه الغزوة في السيرة لابن هشام، جـ٣، ص ٢٥٣، ومعه الروض الأنف للسهيلي، ضبط وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية؛ ومغازي الواقدي، جـ٢، ص ٥٦٠؛ وابن سعد، جـ٢، ص ٨٩؛ والطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٦٤ «جعلها من حوادث السنة الخامسة»؛ وابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٩١؛ انظر ياقوت الحموي «دومة الجندل».

تماضر ابنة الأصبغ رأس كلب، وهذا يوضح الأهمية التي يعلقها الرسول صلى الله عليه وسلم على كسب قبيلة كلب الى جانبه، فقد كانت كلب أهم مجموعة عربية بالشام حين برز الاسلام كقوة سياسية، وتتمثل قوتهم في ثروتهم الحيوانية المتمثلة بقطعان الماشية ـ وبخاصة في منطقة دومة الجندل وتبوك وسواها من الواحات المتناثرة حول وادي القرى بنخيلها الغني، وكانت دومة الجندل بالاضافة إلى ما ذكر مركزاً تجارياً غنياً تلتقي فيه الطرق التجارية بين الحجاز والعراق وتدمر(٩٤).

وفي السنة السادسة للهجرة بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك عندما علم بأنهم يريدون أن يمدوا يهود خيبر(٩٥).

وفي السنة نفسها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية زيد بن حارثة الى يسمى وهي وراء وادي القرى، بسبب اعتراض نفر من جذام دحية بن خليفة الكلبي وهو راجع من عند قيصر(٩٦)، وكذلك سرية زيد بن حارثة سنة ست إلى أم قرفة، حيث بنو فزارة من بني بدر(٩٧). وسرية بشير بن سعد الأنصاري الى بني مرة بفدك في سنة سبع للهجرة(٩٨). وقل مثل ذلك عن سرية زيد بن حارثة إلى مدين(٩٩). و بعث غالب بن عبد الله الليثي الى فدك(١٠٠).

وتعتبر غزوة خيبر سنة سبع للهجرة من المقدمات لفتح بلاد الشام، إذا نظرنا إلى نتائجها، فقد كانت عقبة أمام المد الاسلامي إلى الشمال،فبزوالها ازداد انتشار الاسلام بين أبناء القبائل العربية، كما سارعت الكيانات اليهودية الأخرى في الشمال إلى طلب الأمان والصلح، كما كانت المقدمة لفتح مكة، هذا الحدث الهام في تاريخ الدعوة الاسلامية، فهو يمثل انهيار أقوى الموانع في وجه الدعوة الاسلامية ممثلة باستسلام قريش رأس العرب، ومن ثم وقوفها مع الدعوة الاسلامية. وليس غريباً بعد ذلك أن نجد توافد العرب من كل صوب طالبين الدخول في الاسلام.

---

٩٤. انظر: ياقوت، معجم، مادة «دومة الجندل»؛ وعون الشريف نشأة، ص ٢١٢.

٩٥. الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٥٦٢؛ ابن سعد، جـ٢، ص ٨٩ ــ ٩٠؛ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح محمد، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ط٢، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤، ٢/١٠٩. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: عيون الأثر.

٩٦. الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٥٥٥؛ ابن سعد، جـ٢، ص ٨٨.

٩٧. الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٥٦٤؛ وابن سعد، جـ٢، ص ٩٠ ــ ٩١؛ عيون الأثر، جـ٢، ص ١١٠.

٩٨. الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٧٢٣؛ وابن سعد ٢/١١٨؛ وعيون الأثر جـ٢، ص ١٤٦.

٩٩. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ١٠٩؛ تاريخ الخميس ٢/١٥.

١٠٠. مغازي، الواقدي، ٢/٧٢٦؛ عيون الأثر ٢/١٤٩؛ تاريخ الخميس جـ٢، ص ٦٧.

وقد ذكر ابن اسحاق أن العرب كانت تربص بالاسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله(١٠١).

ومن السرايا ذات الدلائل الواضحة في اتجاه بلاد الشام، سرية كعب بن عمير سنة ثمان للهجرة إلى ذات أطلاح من أرض الشام، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد نشر الاسلام بين قبائل حدود الشام وكانت أول احتكاك لقوات المسلمين بالروم(١٠٢) وتمثل غزوة مؤتة مرحلة أكثر تقدماً في مصارعة النفوذ الروماني، ذلك أن قوات المسلمين توغلت جنوب بلاد الشام ووصلت إلى البلقاء في سنة ثمان للهجرة، وكان هرقل قد حضر إلى فلسطين وأجلبت معه القبائل المتنصرة، بهراء ووائل و بكر ولخم وجذام و بلي و بلقين، وقيل أن سببها مقتل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك بصرى(١٠٣). وعلى الرغم من الفشل العسكري الذي واجهته السرية المسلحة فاننا نلمس نتائج ايجابية تتمثل بانتشار الاسلام في القبائل المتنصرة كما تدل الحوادث اللاحقة، و يبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بهذه الغزوة وغيرها يريد أن يؤكد للعرب المتنصرة وغير المتنصرة أن لهم قوة يمكنهم الاعتماد عليها.

ومن السرايا ذات العلاقة ببلاد الشام سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل (سنة ثمان للهجرة وقيل سنة سبع) وراء وادي القرى، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص أن يستعين بمن يمر به من بلي وعذرة و بلقين، وهذا يشير إلى بداية تحول في مواقف هذه القبائل. وفي رواية عن الزهري أنه قال: «ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما هاجر وجاء الذين كانوا بأرض الحبشة بعث بعثين قبل الشام، إلى كلب و بلقين وغسان وكفار العرب الذين في مشارف الشام(١٠٤) و بعث رسول الله بسرية

---

١٠١. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٥٦٠؛ وابن سعد، جـ١، ص ٣٢٥.

١٠٢. انظر: الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٧٥٢ ــ ٧٥٣؛ ابن سعد، جـ٢، ص ١٢٧؛ والطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٥٧؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٩٢، «رواية الزهري»؛ وعيون الأثر، جـ٢، ص ١٥٢؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص ٧٠؛ أسد رستم، الروم وصلاتهم بالعرب ج ١، ط١، بيروت ١٩٥٥. ص ٢٣٤. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أسد رستم، الروم.

١٠٣. أنظر أخبارها في ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٣٧٣ وما بعدها؛ الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٧٥٥؛ ابن سعد ٢/١٢٨، البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، ٩ح، في ٣م، دار احياء التراث العربي بيروت، جـ٥، ص ١٨١ ــ ١٨٣. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: صحيح البخاري؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٩٢؛ وعيون الأثر، جـ٢، ص ١٥٣؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص ٧٠؛ وابن كثير عماد الدين أبي الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية ١٤ح، ط١، بيروت، ١٩٦٦، جـ٣، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢. سيشار اليه فيما بعد هكذا: البداية والنهاية.

١٠٤. ابن شهاب الزهري، محمد بن مسلم بن عبيد الله (ت ١٢٤هـ/٧٤١م)، المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار، ط١، دار الفكر، ١٤٠٠ ــ ١٩٨٠ ص ١٥٠. سيشار الى هذا المصدر فيما بعد هكذا: المغازي؛ وانظر أخبار ذات السلاسل في ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٦٢٣؛ الواقدي، مغازي، جـ٢، ص ٧٦٩ ــ ٧٧٠؛ وابن سعد، جـ٢، ص ١٣١؛ ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٠٣ ــ ١٠٥؛ أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم

للهجرة (١٠٥)، أما الواقدي فذكر سرية إلى الجناب يقودها بشير بن كعب سنة سبع للهجرة (١٠٦).

و يستفاد من المصادر العربية أن من أهداف هذه السرية، استنفار العرب إلى الشام واظهار القوة لقبائل جذام و بلي و بلقين وكلب وغسان وعذرة وسعد الله، ومن يليهم من قضاعة. وتعتبر السنة التاسعة للهجرة، سنة الاعداد لفتح بلاد الشام، إذ تلاحقت الأحداث العسكرية والدبلوماسية بشكل كثيف ومركز، وتميز من هذه الأحداث، غزوة تبوك، التي تعتبر متممة للأهداف التي أرادت أن تحققها غزوة ذات السلاسل، غير أنها أكبر حجماً وأكثر اعداداً وعدداً، وقد صرحت المصادر العربية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، انما كان يريد الروم وكفار العرب بالشام (١٠٧).

وذكرت بعض المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم، شاور أصحابه في مجاوزة تبوك شمالاً، إلا أن عمر بن الخطاب أشار بعدم المجاوزة (١٠٨).

وأمام سياسة التوجه نحو بلاد الشام، أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم، يعمل على ترتيب الأوضاع ما بين المدينة والشام، ولهذا قام بعدد من الاجراءات لضمان عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز للجماعة الاسلامية، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الأمان، إن لم يكونوا قد ارتبطوا بالاسلام. وهذه الاجراءات ضرورية لحماية القوات الاسلامية في صراعها مع الروم الذي بدأ قبل ذلك.

طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من يحنه صاحب أيلة وسروات أهل أيله، أن يصالحوه، فقدموا إلى تبوك، وأمضوا الصلح المعروف والمشهور ولم يكن لهم خيار في ذلك، اذ

(ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)، الخراج، المطبعة السلفية القاهرة، ص ١٦. سيشار اليه، الخراج؛ صحيح البخاري، جـ٥، ص ٢٨ وما بعدها؛ البداية والنهاية، جـ٣، ص ٧٣؛ وانظر الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ط٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦١ ص ٤٥، سيشار اليه فيما بعد هكذا: مقدمة؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص ٣٥؛ وعيون الأثر جـ٢، ص ١٥٧، «وذات السلاسل» ماء لجذام.

١٠٥. ابن سعد، جـ٢، ص ١٦٤.

١٠٦. الواقدي. المغازي، جـ٢، ص ٧٣٧.

١٠٧. انظر أخبار هذه الغزاة في: ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٥١٥؛ الواقدي، مغازي، جـ٣، ص ٩٨٩؛ ابن سعد، جـ٢، ص ١٦٥؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٠٠ ـ ١١١؛ وصحيح البخاري، جـ٦، ص ٢؛ وقدامة ابن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١، ص ٢٧٠. سيشار اليه فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص ١٢٢؛ عيون الأثر جـ٢، ص ٢١٥؛ البداية والنهاية جـ٥، ص ٢.

١٠٨. الحلبي الشافعي، علي بن برهان الدين، انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، ٣ح وبهامشه السيرة النبوية والآثار المحمدية، لأحمد زيني دحلان، ط٣، المطبعة الأزهرية، مصر ١٣٥١ ـ ١٩٣٢م. جـ٣، ص ١٦١. سيشار اليه فيما بعد هكذا: انسان العيون.

أن أيلة مركز تجاري يقع على طريق الحجاز، الذي أصبح في أيدي المسلمين، كما أن المسلمين في السنة التاسعة أصبحوا أقوى قوة عسكرية وسياسية في المنطقة. وقد ذكر ابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث برسالة ليحنة، وضح له المخاطر المنتظرة في البر والبحر اذا لم يستجب للمصالحة (١٠٩). وذكر الواقدي أن دومة الجندل و «أيلة» و «تيماء» قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد أسلمت (١١٠). وتابع أهل جرباء وأذرح ومقنا وحواضر شمال الحجاز ما عمله أهل أيلة، فصالحوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأقروا على أنفسهم دفع الجزية، وعدم المظاهرة على المسلمين أو مطالعتهم بشر مقابل تعهد الرسول لهم بالأمن والخير (١١١).

وآخر الغزوات العسكرية، إلى بلاد الشام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سرية أسامة بن زيد، حيث أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم وأبنى ـ وهي أرض الشراة الى ناحية البلقاء ـ من أرض فلسطين. و يقول ابن هشام أن هذا آخر بعث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١٢). و يبدو الغرض واضحاً من سرية أسامة بن زيد في قول السيوطي: «أن القبائل العربية كانت تقول عندما مر بها جيش أسامة، لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم (١١٣).

و يبدو حرص الخليفة أبي بكر على مواصلة سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق ببلاد الشام، و بعث جيش أسامة، أنه أصر على بعث هذا الجيش رغم ردة القبائل ونصح بعض الصحابة باستبقاء هذا الجيش حفظاً للمدينة (١١٤).

ومن مظاهر النشاط الدبلوماسي الذي رافق النشاط العسكري بعد الحديبية أن الرسول صلى الله عليه وسلم، بعث إلى الملوك والناس من العرب وغيرهم يدعوهم الى الاسلام (١١٥).

---

١٠٩. ابن سعد، جـ١، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

١١٠. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠٣١.

١١١. انظر هذه المعاهدات «كتب الأمان» ونصوصها ومصادرها عند محمد حميد الله ص ٨٣ وما بعدها؛ صالح درادكة، «لمحات من تاريخ أيلة» «العقبة» «في العصر الاسلامي»، مجلة دراسات تاريخية، العدد ١٥ ـ ١٦، كانون الثاني أيار ١٩٨٤ ص ٧٤. سيشار الى هذا المرجع عند وروده هكذا: درادكة، «لمحات».

١١٢. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٦٠٦، ص ٦٤١ ـ ٦٤٢؛ الواقدي، مغازي، جـ٣، ص ١١١٧؛ ابن سعد، جـ٢، ص ١٨٩ وما بعدها وعيون الأثر جـ٢، ص ٢٨١؛ وانظر أسد رستم، الروم جـ٢، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

١١٣. السيوطي، جلال الدين (ت ٩١٠هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، مطبعة المدني، ط٢ القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م، ص ٧٤. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: السيوطي، تاريخ.

١١٤. أفرد ابن عساكر باباً سماه: «باب ذكر اهتمام أبي بكر الصديق بفتح الشام وحرصه عليه ومعرفة أنفاذه الأمراء بالحشود الكثيفة. تهذيب، جـ١، ١٢٦.

١١٥. انظر ابن سعد، جـ١، ص ٢٨٨.

وبعد العودة من الحديبية، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ستة نفر في يوم واحد إلى هرقل وكسرى وحاكم اليمن، والمقوقس في مصر والنجاشي في الحبشة، وبعض عمال الروم من العرب في بلاد الشام، والى رؤساء آخرين داخل الجزيرة العربية. وتؤكد هذه الرسائل والجهات التي أرسلت إليها، أن صورة العالم الذي ستجري عليه الحوادث المقبلة، كانت واضحة في ذهن الرسول صلى الله عليه وسلم، ودليلنا أن كل الذين بلغتهم الرسائل، دخلت بلدانهم الدولة العربية الاسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو في عهد خلفائه، كما تؤكد هذه الرسائل أن رسالة الاسلام لم تكن مقصورة على العرب وانما هي للناس كافة (١١٦).

ويهمنا في هذا الصدد معرفة الرسائل التي وجهت إلى ملوك أو رؤساء لهم صلة ببلاد الشام. فقد كتب الرسول عليه السلام في أواخر سنة ست للهجرة، أو بداية السنة السابعة للهجرة رسالته المشهورة إلى هرقل قيصر الروم يدعوه الى الاسلام، وتذكر المصادر أن هرقل استقبل الرسول استقبالا حسناً وأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم جواباً رقيقاً.

وقد كتب الرسول إلى هرقل أكثر من مرة، احداها في تبوك في السنة التاسعة للهجرة (١١٧) وكتب عليه السلام كتاباً مماثلا إلى المقوقس حاكم مصر، وقيل ملك الاسكندرية ـ واسمه «جريج بن مينا القبطي» وقد أكرم هذا الرسول وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فيها جاريتان احداهما مارية القبطية أم ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١٨). وبعث الرسول بكتاب مماثل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، صاحب دمشق وقيل ملك تخوم الشام، وذكر في بعض المصادر ـ اسم «المنذر بن الحارث» (١١٩). وأرسل مثل الكتب السابقة إلى جبلة بن الأيهم، ويقال بأنه أسلم وأرسل بهدية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبقي على اسلامه حتى زمن الخليفة عمر بن

---

١١٦. انظر توماس أرنولد، ص ٤٨.

١١٧. حول رسائل الرسول انظر: المغازي، ص ٦٠؛ ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٦؛ الأموال ٣٢؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٦٤٤؛ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، بيروت، جـ١، ص ٢٦٠ سيشار الى هذا المصدر فيما بعد هكذا: العقد؛ صحيح البخارى، جـ٦، ص ١٠؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص ٢٩ ـ ٣١؛ البداية والنهاية جـ٣، ص ٢٦٤؛ أسد رستم، الروم، جـ١، ص ٢٣٤. ولمعرفة النصوص والمصادر انظر حميد الله ص ٨٠ ـ ٨٣، الأرقام ٢٦ ـ ٢٨ ب؛ عون الشريف، نشأة ص ٧٣ وما بعدها.

١١٨. حميد الله ص ٨٢ ـ ٨٣، الأرقام ٢٧ ـ ٢٨ ب؛ عون الشريف، نشأة، ٧٧ ـ ٨١

١١٩. المصادر السابقة، الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي، المواهب اللدنية، ٨ج، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٩، جـ٣، ص ٣٥٦. سيشار الى هذا المصدر فيما بعد هكذا: المواهب اللدنية. حميد الله ص ٩٧ رقم ٣٧؛ عون الشريف، نشأة، ص ٣٠٧.

الخطاب (١٢٠). وقد برهنت الأيام أن هذه الرسائل لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء (١٢١)، وأن ما جاء فيها قد تحقق كما هو معروف ومشهور في زمن قصير.

ومما يجدر ذكره أن النشاط الدبلوماسي كان يشمل كافة أرجاء الجزيرة العربية، وبلاد الشام ومصر والعراق، ونلاحظ أن تركيزاً أكثر قد انصب على بلاد الشام. تذكر لنا المصادر أن المراسلات لم تنقطع بين الرسول صلى الله عليه وسلم ورؤساء القبائل في الشمال، وأفراداً من القبائل لم يكونوا بالرؤساء. وقد حصل هؤلاء على كتب أمان من الرسول صلى الله عليه وسلم، لهم ولقبائلهم، فيها العهد بنصرة الرسول وعدم المناصرة عليه. وتفيد هذه المصادر أن نفراً قد أسلم في وقت مبكر وقبل فتح مكة. وكان هؤلاء عوناً للرسول وأصحابه في نشر الاسلام وتنفيذ سياسته بين أفراد قبائلهم، وتحويل مواقف هذه القبائل الموالية للروم إلى الصف العربي الذي يقوده الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد كتب الرسول إلى مالك بن أحمر الجذامي العوفي (١٢٢) وبني الضبيب من جذام، وإلى رفاعة بن زيد الجذامي (١٢٣)، وإلى بني جفال الجذاميين (١٢٤) وإلى بطون أخرى وأفراد من جذام (١٢٥). وكتب عليه السلام إلى زهير بن قرضم (١٢٦) من قضاعة. وكتب إلى زمل بن عمرو العذري أماناً له ولقبيلته عذرة (١٢٧)، وكتب إلى جزء بن عمرو العذري (١٢٨). وكتب مثل ذلك الى بني جعيل من بلي من قضاعة التي كانت منازلها قرب وادي القرى. وكتب إلى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان وقيل عمان من أرض البلقاء (١٢٩). وكتب أماناً لبني ثعلبة (١٣٠) من غسان، ثم الى سعد بن هذيم (١٣١) من قضاعة والى بني غاديا،

---

١٢٠. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٦٠٦؛ ابن سعد جـ١، ص ٢٦٥؛ تاريخ الخميس جـ٢، ص ٦١؛ حميد الله ص ٩٨ رقم ٣٨ ـ ٣٩.

١٢١. توماس أرنولد ص ٤٩.

١٢٢. حميد الله، ص ٢٣٢ رقم ١٧٣ أ، ١٧٤.

١٢٣. المصدر السابق، ٢٣٣ رقم ١٧٥.

١٢٤. المصدر السابق ٢٣٤ رقم ١٧٦.

١٢٥. المصدر السابق ٢٣٤ رقم ١٧٧.

١٢٦. المصدر السابق ص ٢٣٥ رقم ١٧٨.

١٢٧. المصدر السابق ٢٣٥ رقم ١٧٨، ورقم ١٧٩.

١٢٨. المصدر السابق ص ٢٣٨ ورقم ١٧٩.

١٢٩. عون الشريف، نشأة ص ٢٠٧.

١٣٠. حميد الله ٩٨ رقم ٤٠؛ عون الشريف، نشأة ص ٣١٣.

١٣١. ابن سعد، جـ١، ص ٢٧٠.

ولبني عريض (١٣٢)، ولبني جناب من كلب (١٣٣). وتشير مصادرنا إلى خمس وثائق موجهة إلى مجموعات مختلفة من قبيلة طيء، تؤمنهم على ممتلكاتهم وتمنحهم الذمة إذا ما أدوا ما عليهم، وفارقوا المشركين. وقد وجهت الرسالة الأولى إلى معاوية بن جرول الطائي، والثانية إلى عامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي، والثالثة لبني جوين من طيء، والرابعة لبني معن الطائيين، والخامسة لجابر بن ظالم بن حارثة الطائي (١٣٤).

وقد نجم عن نشاط الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام، دخول أعداد كبيرة في الاسلام في وقت مبكر، وبخاصة من أفراد القبائل الموالية للروم، نذكر على سبيل المثال، أن دحية بن خليفة الكلبي، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أرسله إلى هرقل في السنة السادسة للهجرة (١٣٥)، وهو من قبيلة كلب المشهورة وكان ناقل الرسالة إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة من لخم (١٣٦). ونقل الرسالة الى الحارث الغساني، شجاع بن وهب من أسد (١٣٧). وقالت بعض المصادر أن رفاعة بن زيد الجذامي، أسلم وأجاب قومه للاسلام في هدنة الحديبية وقبل خيبر (١٣٨) وأسلم فروة بن عمرو الجذامي، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٣٩).

وأرسل عليه الصلاة والسلام لمن أسلم من حدس من لخم منهم زياد بن جهور اللخمي، وكانت هذه الكتب تشترط الدخول في الاسلام، ومفارقة المشركين (١٤٠).

وفي السنة التاسعة للهجرة، وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم، وفود من بلي وبهراء، وعذرة وكلب وغسان وجذام وكلاب وطيء وغيرهم (١٤١) من القبائل التي كان الروم يستنصرون بها على العرب. وكلما كانت تتزايد قوة المسلمين العسكرية، كان يرافق ذلك تزايد في الشعور القومي العربي يتمثل بتحول كثير من القبائل المتنصرة عن مواقفها السياسية السابقة، ودخول أعداد كبيرة في الدين الاسلامي، لا سيما وأن الاسلام يعزز العروبة، فالرسول ــ ص ــ يعتز بانتمائه إلى قريش، وقريش من العرب، وعن ابن مسعود

١٣٢. المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٩.

١٣٣. المصدر السابق، جـ١، ص ٢٨٥.

١٣٤. انظر حميد الله، ص ٢٥٠ ــ ٢٥٣، الأرقام ١٩٣ ــ ١٩٦، ١٩٨؛ عون الشريف، نشأة، ٢٢١.

١٣٥. المغازي، ص ٣٣، ص ٦٠.

١٣٦. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٦٠٦.

١٣٧. المصدر نفسه.

١٣٨. المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٩٦؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٦، ص ١٤٠ ــ ١٤٣.

١٣٩. ابن هشام، السيرة جـ٢، ص ٥٩١؛ عيون الأثر جـ٢، ص ٢٤٤؛ حميد الله ٩٦ رقم ٣٥.

١٤٠. ابن سعد جـ١، ص ٢٦٦.

١٤١. ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٥٥٩ وما بعدها؛ ابن سعد جـ١، ص ٣٣٠ وما بعدها؛ عيون الأثر جـ٢، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ توماس أرنولد ص ٥٩.

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أبغض العرب أبغضه الله» (١٤٢)، ونذكر بعض الحوادث التي تؤيد التحول القومي عند العرب بفعل التغيير الذي أحدثه الاسلام.

ذكر البلاذري أن أبا زبيد الطائي الشاعر النصراني، أبلى في معركة الجسر مع المسلمين، وكان قتاله يعدل قتال جماعة (١٤٣). وفي معركة البويب قدم أنس بن هلال النمري ممداً للمثنى بن حارثة الشيباني في أناس من النمر نصارى وجلاب جلبوا خيلا ــ وهو عبد الله بن كليب بن خالد ــ وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم: «نقاتل مع قومنا» (١٤٤). وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الامبراطورية البيزنطية «الرومية» الواقعة على أطراف الصحراء، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الاسلامي، في حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعود على دفعها لهم مقابل خدماتهم العسكرية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراساً للحدود. (١٤٥).

وذكرت بعض المصادر أن هرقل ملك الروم قال لرسول عمر بن الخطاب: «ألقيت ابن عمك هذا الذي ببلدنا، «يعني جبلة بن الأيهم» (١٤٦). فهذا الحديث وأمثاله يبين لنا أن الروم كانوا يعتبرون العرب أبناء عم، كما يعكس هذا القول النضج القومي الذي بلغه العرب في بداية العهد الاسلامي. وكان العرب حتى في وضعهم القبلي يشعرون بأنهم مميزون عن الأمم الأخرى، فهاهم نصارى بني تغلب بن وائل يرفضون دفع الجزية لعمر ابن الخطاب لأنها كجزية الأعلاج (١٤٧)، وهم قوم من العرب شديدة نكايتهم. و يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في معرض إظهار فرحة العرب بانتصارهم على الفرس في موقعة ذي قار المشهورة: «هذا أول يوم انتصف العرب من العجم، وبي نصروا (١٤٨) وذكر أبو يوسف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عامل الأرض المفتوحة من العرب معاملة

١٤٢. العقد جـ٣، ص ٢٤٦. جـ٣، ص ٢٤٥. وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكر أن قريشاً الجؤجو والعرب الجناحان. والجؤجو لا ينهض إلا بالجناحين، وقوله: «الا أن درع هذا الحي من قريش اخوانهم من العرب».

١٤٣. البلاذري، فتوح، ص ٢٥٢.

١٤٤. الطبري، تاريخ جـ٣، ص ٤٦٣.

١٤٥. W. Mure, The Caliphate, Its rise, decline and fall, London, (1891), pp. 90 - 94.

سيشار الى هذا المرجع عند وروده هكذا: The Caliphate ؛ وانظر توماس أرنولد ص ٦٦.

١٤٦. العقد، جـ١، ص ٢٦٠.

١٤٧. وهذا القول له دلالته إذ هم نصارى والأعلاج الذين يدفعون الجزية نصارى ومع ذلك لا يقبل بنو تغلب أن يعاملوا من العرب المسلمين معاملة الأعلاج غير العرب. أنظر: الخراج ص ١٢٠؛ البلاذري، فتوح ص ١٨٥ ــ ١٨٦؛ توماس أرنولد ص ٦٧.

١٤٨. الطبري، تاريخ جـ٢، ص ١٩٣، وما بعدها؛ أبو عبيدة، معمر بن المثنى «كتاب النقائض» «الطبعة الأوروبية» جـ٢، ص ٦٣٨ وما بعدها؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٢٤ج، الهيئة المصرية القاهرة، ج ٢٤ ص ٥٣ وما بعدها. سيشار إليه فيما بعد: الأغاني؛ المناقب المزيدية جـ٢، ص ٤٠٣ وما بعدها.

خاصة فقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح فتوحاً من الأرض العربية فوضع عليها العشر، ولم يجعل على شيء منها خراجاً، وكذلك قول أصحابنا في تلك الأرضين، ألا ترى أن مكة والحرم لم يكن فيها خراج، فأجروا الأرض العربية كلها هذا المجرى، وأجرى البحران والطائف كذلك (١٤٩) وقد رفض النعمان بن المنذر آخر أمراء الحيرة أن يزوج احدى بناته أو أخواته من كسرى ملك الفرس أنفة (١٥٠) وأورد الدينوري كتاباً منسوباً إلى كسرى يبين فيه أسباب نقمته على النعمان ملك الحيرة جاء فيه: «فان النعمان وأهل بيته واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم (١٥١). وجاء في خطاب أبي بكر لما عزم على توجيه الجيوش الى بلاد الشام: «فالعرب اليوم بنو أم وأب» وقد رأيت أن استنفر المسلمين الى جهاد الروم بالشام» (١٥٢) وفي حصار خالد بن الوليد للحيرة، استغرب موقف أهلها وهم من العرب، فسأل وفدهم الذي حضر اليه للنظر في شروط تسليم المدينة: «ما أنتم! أعرب؟ فما تنقمون من العرب!؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الانصاف والعدل! وقد أجاب عدي بن عدي بن زيد باسم الوفد قائلا: «بل عرب عاربة، وأخرى متعربة، فقال: لو كنتم كما تقولون، لم تحادونا، وتكرهوا أمرنا؟! فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان الا بالعربية، فقال: صدقت (١٥٣). ولما دخلت جيوش الفتح الأردن وفلسطين كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وان كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا» (١٥٤).

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الاغريق وتعسفهم (١٥٥).

و يفهم من البلاذري أن البعض من القبائل اليمانية الموجودة في الشام من قبل

---

١٤٩. الخراج، ص ٥٨.

١٥٠. الطبري، تاريخ جـ٢، ص ١٩٣ وما بعدها.

١٥١. أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة الدكتور جمال الدين الشيال. عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٠٧ ــ ١٠٩. سيشار الى هذا المصدر عند وروده هكذا: الأخبار الطوال.

١٥٢. الأزدي ص ٢؛ ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٢٧.

١٥٣. الطبري، تاريخ جـ٣، ص ٣٦١؛ وانظر توماس آرنولد ص ٦٩. في النص المذكور أمران. الأول استغراب قتال العرب للعرب، والثاني تأكيد عروبة أهل الحيرة.

١٥٤. الأزدي ص ١١١؛ توماس أرنولد ٧٣.

١٥٥. توماس أرنولد ٧٣ نقلا عن فتوح البلاذري ١٣٧.

أسلمت بعد الفتح بقليل كما حصل لأكثر تنوخ في حاضر قنسرين، ولطي، وكذا لتنوخ وغيرهم في حاضر مدينة حلب (١٥٦). وحصل ذلك للخم وجذام وتعاونوا مع الفاتحين (١٥٧)، حتى أنهم طالبوا بالعطاء مثلهم (١٥٨).

وذكر الأزدي في فتوحه أن لخماً وجذاماً وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاعة دخلوا مع المسلمين في وقعة فحل فكثر عدد المسلمين، فكان من هذه القبائل جمع عظيم وكثير (١٥٩) كما ذكر اشتراك قضاعة ولخم وجذام وغسان وعاملة وقبائل أخرى في معركة اليرموك إلى جانب المسلمين (١٦٠). وفي رواية اللآلكاني والبيهقي عن دخول خالد بن الوليد بلاد الشام: «وتسامع الأعراب الذين كانوا في مملكة الروم بخالد ففزعوا له» (١٦١).

ومما يجدر ذكره أن بعض المصادر العربية أطلقت على دخول المسلمين بلاد الشام تسمية «جهاد الروم بالشام» (١٦٢).

كان سكان بلاد الشام يدركون أن الروم غرباء عنهم مغتصبون لبلادهم فساعدوا الفاتحين وكانوا عيوناً لهم (١٦٣).

ومما يدل على قوة الشعور القومي عند العرب أن الذين تهودوا منهم في الحجاز ووردت أسماء قبائلهم في الوثيقة التي كتبت بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود (١٦٤)، لم نسمع بذكرهم بعد الفتح مما يشير إلى أن هؤلاء تخلوا عن يهوديتهم وانضموا للاسلام، بينما بقيت البطون اليهودية الكبرى على يهوديتها.

---

١٥٦. البلاذري، فتوح، ص ١٢٧، ص ١٣٣، ص ١٣٤، ص ١٤٧؛ وانظر الدوري، «العرب» ص ٢٦.

١٥٧. البلاذري، فتوح، ص ١٣١، ص ١٣٦؛ الدوري، «العرب، ص ٢٦.

١٥٨. ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٧٥؛ الدوري، «العرب» ص ٢٦.

١٥٩. الأزدي، ص ١١١، ١٣٠.

١٦٠. الأزدي، ص ٢١٨؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٦٣؛ وانظر الواقدي، جـ١، ص ١٤٤.

١٦١. ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٣٥.

١٦٢. الأزدي، ص ٢؛ ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٢٧، ص ١٣٠.

١٦٣. ذكرت المصادر العربية في مواضع متعددة أن المعاهدين بالشام والأنباط كانوا عيوناً لجيش المسلمين. انظر الأزدي ص ٤٤، ٨٧، ١٢٦، ١٦١، ٢٥٣، ١٥٧؛ الطبري، تاريخ جـ٣، ص ٣٤٦؛ وابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٩٢؛ والواقدي، فتوح، جـ١، ص ٢٠٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٠، جـ٢، ص ٣٣، يذكر الواقدي أن بطارقة ورجال دين نصارى اعتنقوا الاسلام واحتالوا على أقوامهم في فتح مدنهم، كما حدث في فتح صور على يد باسيل الراهب و يوحنا الذي فتح قلعة اعزاز وانطاكية وغيرها.

١٦٤. انظر الوثيقة عند حميد الله رقم (١) ص ٣٩ وما بعدها.

وفي صلح إيليا «العهد العمري» اشترط أهلها على عمر أن لا يسكن بايلياء معهم أحداً من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص (١٦٥) واقتران الروم باللصوص له دلالة ما بعدها دلالة.

وقد اتحد مفهوم الاسلام «الدين» «والعروبة» «النسب واللغة» في مفهوم واحد تمثل في الدولة والسلطة السياسية العربية، ونظر إليها حتى من قبل المسلمين من غير العرب أنها دولة عربية، فقد اشترك الموالي في معارضة الدولة الأموية ابتداء بحركة المختار الثقفي إلى ثورة ابن الأشعث إلى ثورة الحارث بن سريج المرجيء إلى الدعوة العباسية، وهي حركات تسترت بالاسلام لهدم السلطان العربي والنظام القائم، وكذلك يقال عن الشعوبية (١٦٦).

سبقت العروبة (النسب واللغة) الاسلام (الدين) في بلاد الشام وكونت الأرضية التي حصل عليها التفاعل بين العرب والاسلام وكونت الأمة والنظام والمؤسسة العسكرية. فقد ذكر اليعقوبي أن حماة وحمص وشيزر وجبلة والأطم كان معظم سكانها عند الفتح من العرب اليمانية (١٦٧).

ولما قدم غزاة الأزد وبني كنانة على عمر بن الخطاب في سبعمائة، قال لهم: أي الوجوه أحب إليكم، فقالوا: الشام، أسلافنا أسلافنا... (١٦٨).

وعن غير الواقدي أن قيسارية لما فتحت وجد فيها خلق من العرب وفتحت بدليل يهودي (١٦٩). وذكر أبو يوسف أن سكان مدينة الرها من الأنباط (١٧٠). و يرى لامنس أن العناصر الجنسية التي كانت تؤلف سكان سورية «بلاد الشام» متعددة ومتباينة ولكن يمكن ردها جميعاً، بطريقة اجمالية، إلى العنصرين الأصليين في الشعوب السورية، وهما العنصر الآرامي في الشمال والوسط والعنصر الكنعاني الفنيقي على الشاطيء والجنوب (١٧١)، ولكن المصادر العربية والبيزنطية لا تذكر العنصر الكنعاني ــ الفنيقي، وانما

١٦٥. انظر الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٦٠٩؛ الأزدي ٢٤٦ وما بعدها؛ البلاذري، فتوح، ص ١٤٤ وما بعدها؛ الواقدي، فتوح، جـ١ ص ٢١٣ وما بعدها.

١٦٦. مقدمة ص ٦٧ وما بعدها.

١٦٧. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) البلدآن، نشر ضمن كتاب الأعلاق النفيسة، باعتناء دي خويه، بريل، ليدن، ١٨٩١. ص ٣٢٤ ــ ٣٢٧. سيشار الى هذا المصدر عند وروده هكذا: البلدان.

١٦٨. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٧٢ ــ ٧٣.

١٦٩. قدامة، الخراج، ص ٣٠١.

١٧٠. الخراج ص ٣٩.

١٧١. «سورية في زمن الفتح العربي»، مجلة المشرق، عدد م ٣٠، ١٩٣٢ ص ١٣. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: سورية.

تذكر العرب المتنصرة والنبط والروم كعناصر السكان في سورية زمن الفتح، وكانت هذه العناصر ما عدا الروم يتكلمون الآرامية قبل نضج العربية كما ذكرنا سابقاً.

وقد رافق الحركة الاسلامية بين العرب حركة تحضر موازية، فقد أكد القرآن الكريم على الفردية واعتبرها الأساس في الحياة الاجتماعية، أي أن الاسلام قام بتفكيك الأعراف القبلية ــ النظام الاجتماعي ــ لصالح كيان الأمة، وأكد في هذا التوجه على المسؤولية الفردية في الأمور الدينية والقانونية (١٧٢)، وقد نزلت آيات كثيرة في ذلك، قال تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (١٧٣)، وقال «واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً» (١٧٤) وقوله: «فاما من أوتي كتابه بيمينه، فسوف يحاسب حساباً يسيرا» (١٧٥)، وحث القرآن على الهجرة إلى المدينة، والمهاجر يقطع علاقاته بعشيرته وقبيلته و يضحي بعلاقات وتقاليد قبلية كثيرة، ونزلت في هذا المعنى آيات عديدة (١٧٦).

وأطلق القرآن على المقيمين خارج المدينة تعبيرين هما: «البادون» و «الأعراب» (١٧٧)، ومدح الاسلام التحضر وأثنى عليه، ووصف حالة التبدي «الأعراب» وصفاً مقرعاً، فكل الآيات التي وردت فيها كلمة «الأعراب» جاءت تقرع الأعراب وتذم التبدي وتصف أهله بالغلظة والجفاء (١٧٨)، ووردت أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم تصف الأعراب بالجفاء (١٧٩).

١٧٢. صالح العلي، «الاسلام والبداوة» مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ع ٧، جمادى الأولى ١٣٩٥هـ/حزيران ١٩٧٥ ص ٣٣ ــ ٤٣. ص ٣٤. سوف يشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صالح العلي.

١٧٣. سورة الأنعام، آية: ٦٤.

١٧٤. سورة لقمان، آية: ٣٣.

١٧٥. سورة الانشقاق، آية ٧.

١٧٦. انظر سورة الأنفال، الآيات: ٢٠ ــ ٢٢، ٧٢، ٧٤ ــ ٧٥؛ وسورة محمد، آية: ٢٥؛ وسورة النمل آية: ٤؛ وسورة الحج آية ٥٨؛ وسورة الحشر آية ٨ وسورة التوبة ٢٠ ــ ٢٢.

١٧٧. سورة الحج آية: ٢٥، والأحزاب، آية: ٢٠، وسورة يوسف آية: ١٠٠؛ وأنظر صالح العلي ص ٤٠.

١٧٨. صالح العلي ص ٤١.

١٧٩. أنظر صالح العلي ٤١ وما بعدها؛ مسند ابن حنبل، جـ١، ص ٦٨، جـ٢ ص ٢٠٣، جـ٥، ص ١٥٣، ١٨٦.

خاتمة

من خلال العرض السابق، يتبين لنا أن الأمة العربية مرت بأدوار تاريخية في سنة تكونها وتطورها، و برزت في معارج التاريخ تستكمل عناصر هذا التكو ين ومع الزمن أطلق الآخرون عليها وعلى نطاقها الجغرافي، العرب أو الأعراب و بلاد العرب (Arabia) وكانت بلاد الشام ضمن هذا الاطار الجغرافي، وسكانها جزءاً من المصطلح العربي، ونظراً لموقع بلاد الشام الاستراتيجي تعرضت لموجات الغزو الخارجي وخضعت للسيادة الأجنبية وتعرضت لحملات من الغزو الثقافي الى جانب الغزو العسكري، وكل ذلك لم يلغ التوجه العربي لأهل هذه البلاد. فلما جاء الاسلام بامكاناته الجديدة والقو ية تسارعت عوامل النمو العربي بشكل هائل وسريع في ميادين التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري، وفي فترة وجيزة تحولت جزيرة العرب الى وحدة سياسية وثقافية واقتصادية وضعت ثقلها في اتجاه استكمال الشخصية العربية، فكان لا بد من دخول بلاد الشام وتحريرها من الغزاة الأجانب، ذلك كان حتمية تاريخية اقتضاها بحث العرب عن هو يتهم واضطلاعهم بدورهم الذي تهيأ لهم بفضل موقعهم وفكرهم، وما كان لهذا الفتح أن يكون لولا هذه المقدمات التي سبقت هذا الحدث التاريخي الكبير.

دور العرب المتنصرة في الفتوحات

محمد عبد القادر خريسات

كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية

مدلول العرب المتنصّرة :

أطلق على القبائل العربية التي سكنت بلاد الشام وأطراف الحجاز، واعتنق بعضها النصرانية أسماء مختلفة عند قيام الفتوحات الاسلامية كالمتنصرة والمستعربة[1] ونصارى العرب[2] وروم العرب[3].

وهذه المصطلحات تشير الى أن هذه القبائل اما أنها قد تعربت أو تنصرت. فبالنسبة للتعريب فان ذلك يخالف مفهوم عروبة هذه القبائل، فهذه كانت عربية في أرومتها شأنها شأن القبائل العربية الأخرى التي كانت منتشرة في أرجاء الجزيرة العربية والعراق.

و بالنسبة للتنصر فانه يعني اعتناق هذه القبائل للنصرانية، وهنا لا بد من الاشارة الى ناحيتين :

الأولى: أن التنصر ربما يعني نظاماً سياسياً ودينياً ونظرة الى الحياة وعادات تختلف بها هذه القبائل عن عرب الحجاز.

الثاني: أنهم ادّعوا بأنهم نصارى، وأن النصرانية لم تكن مستحكمة في نفوس أكثرهم،

١. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك ١٠ح، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧. جـ٣، ص ٣٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : الطبري، تاريخ. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ دمشق الكبير، ٧ح، تهذيب عبد القادر بدران، ط ٢، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩. جـ١، ص ٩٣، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : ابن عساكر. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ ١٢ ح، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧. جـ٢، ١٥٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده، ابن الأثير.

٢. الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، كتاب المغازي، ٣ج، تحقيق مارسدن جونز، مطبعة جامعة اكسفورد، اكسفورد، ١٩٦٦. جـ٢، ص ٧١٢ سيشار لهذا المصدر هكذا : الواقدي، المغازي، ابن عساكر، جـ١، ص ٩٥.

٣. ابن عساكر، جـ١، ص ١٧٤.

وانما تشير بدقة الى المظهر الخارجي لمسيحيتهم (٤).

وربما يكون هذا المفهوم هو أقرب الأمور، فالنصرانية لم تكن راسخة بين هذه القبائل جميعها، فموقف هذه القبائل من النصرانية يختلف من موقف تغلب أو موقف يهود الحجاز كوحدات دينية مستقلة. وهذا مما سهل سرعة اعتناق غالبيتهم للاسلام والناتج عن ضعف الارتباط بالمسيحية (٥).

ومما يؤكد ذلك أن أكثر القبائل التي أظهرت حماسة للنصرانية ومقاومة للفاتحين الجدد وهم الغساسنة لا يزال في نفوسهم شيء من الوثنية، فالمصادر تذكر بأن ملكهم الحارث بن أبي شِمْر الغساني والذي مات عام الفتح قد أهدى لصنم مناة سيفين هما: مخذم ورسوب (٦).

وقبيلة كلب التي تشير المصادر الى اعتناق بعض بطونها النصرانية كانت تعبد صنمها «ود» بدومة الجندل (٧).

ولخم وجذام التي امتدت مساكنها عبر البلقاء وفلسطين وتحت السيطرة البيزنطية كانت تعبد المشتري (٨) ولهم مع عامله وغطفان صنم يقال له «الأقيصر» يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده (٩). وما سبق يؤكد ضعف الالتزام الديني عند العرب المتنصّرة، وأن

---

٤. Trimingham, J. Spener, Christianity among the Arabs in pre-Islamic time, Longman, London, 1979. p. 122

٥. Ibid

٦. ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ/٨١٩ م)، كتاب الأصنام. تحقيق أحمد زكي الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥. ص ٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الأصنام؛ ابن حبيب، محمد (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م)، المحبر، تصحيح ايلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري بيروت، لا. ت. ص ٣١٦ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا المحبر.

٧. الأصنام، ص ١٠، ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م) السيرة النبوية، ٤ ح، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، ط ٢، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥. جـ١ ص ٧٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن هشام.

٨. ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن هرون الملطي، تاريخ مختصر لدول، وضع حواشيه انطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨ ص ٩٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن العبري.

٩. الأصنام، ص ٤٨.

التفاف القبائل المتنصّرة لمقاومة الغزوات التي شنها الرسول «ص» على قبائل شمال الحجاز وجنوب بلاد الشام ما كانت نابعة من التزام ديني بقدر ما كانت المصالح تقتضي مثل هذا الموقف، فلما زالت هذه المصالح ورفض الروم دفع المبالغ المقررة لتلك القبائل التي كانت تحمي مداخل الصحراء حتى بدأت تغير من موقفها للمسلمين كما سنرى (١٠).

والمصادر الاسلامية وان استخدمت هذه المصطلحات فما هو الا للتمييز بين عرب الشام وعرب الجزيرة، و بالأدق على اولئك الذين ناهضوا الجيوش الاسلامية وحاربوا الى جانب البيزنطيين. وللتعرف على دور القبائل المتنصّرة في الفتوحات يقتضي التعرف على مواطن هذه القبائل ومدى مقاومة هذه القبائل أو استجابتها للفتح الاسلامي.

١. قضاعة: اسم قضاعة جامع لقبائل متعددة، الا أن بعض بطونها بقي يحمل الاسم الجامع، فكانت مضاربها في أطراف الشام وأكناف الحجاز على أن أبرز تجمعاتها في بادية الشام ودومة الجندل وذات أطلاح (١١) و يذكر ابن خلدون (١٢) أن الروم استعملتهم على بادية العرب.

٢. كلب: وهي من القبائل الأرحاء التي غلبت على بلاد كثيرة، فقد سيطرت على ما بين دومة الجندل الى تيماء وتبوك وأطراف الشام. وجاورت النصرانية وغلبت عليها (١٣).

---

١٠. نولدكه، ثيودور، أمراء غسان، نقلها الى العربية وأضاف اليها بندلي جوزي وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٣. ص، ٤٩ سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: نولدكه، امراء غسان، وانظر: P. 56 Tringham, Christianity, p. 56

١١. عن مساكن قضاعة، انظر: الهمداني، الحسين بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٤، ص ٨٨، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الهمداني، صفة جزيرة العرب؛ البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان. مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ ص ١١٩ — ١٢٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: البلاذري، فتوح البلدان. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٢٩.

١٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧١، جـ٢، ص ٢٤٩ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن خلدون، تاريخ.

١٣. عن مساكن كلب أنظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٢، ٢٧٤، ٣٣٢؛ المحبر، ص ١٩١، ٢٥٠، ٢٦٣؛ =

٣. بلـــي : وقـد أقـامـت بين تيماء والمدينة، وسكنت بطون منها جبل التين بالشام (١٤) كما اتخذ بنو أراشة مستقراً لهم في البلقاء (١٥).

٤. عذره : وكـانـت مواطنها بالحجر (١٦) ووادي القرى (١٧) حيث أشار النابغة الى ذلك بقوله: ــ

عـظـام اللـهـى أبـنـاء عـذرة أنـهـم ... لهـاميم يـسـتـلـهـمـونـهـا في الخناجر
هـم مـنـعـوا وادي الـقرى من عدوهم ... بـجـمـع شـديـد لـلـعـدو الـمـكـابـر

وامتدت مساكنهم الى أيله، الا أن المدينة نفسها لم تكن تحت سيطرتهم بل كانت تحت الادارة البـيـزنـطية المباشرة لأنها كانت مقر الحامية التي كانت تحمي ميناء فلسطين الثانية (١٨).

٥. جذام : تـعتبر من القبائل الكبيرة والقوية في بلاد الشام حيث امتدت منطقتها عبر مـسـاحـات واسـعـة بين شـمـال الحجاز الى البلقاء والأردن وفلسطين. لقد بـدأت مـنـاطـقـهـا من حسمى وذات منار بوادي القرى (١٩) الى مدين وتبوك وأذرح وجـبـال الـشـراة ومـعـان وأيلة والبلقاء وطبرية واللجون واليامون الى نـاحـيـة عـكـا والـنـبك و بيت جبرين وايلياء حيث شاركت لخم في بعض

= ابن عبد ربه، احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٤م)، العقد الفريد، ٨ج في ٤م، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، لا. ت. جـ٣، ص ٢٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن عبد ربه، العقد؛ ابن سعيد الأندلسي، نور الدين الحسن علي ابن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ٢ح، تحقيق نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢. جـ١، ص ١٧٢، جـ٢، ص ٦٠٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن سعيد، نشوة الطرب.

١٤. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٣، ٣٢٠، ٣٣٢.

١٥. Donner, Fred McGraw, The Early Islamic Conquests, Princeton University Library, Princeton, 1981, p. 103

١٦. الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ/٨٣١م)، تاريخ العرب قبل الاسلام، تحقيق محمد حسن آل ياسين، المكتبة العلمية، بغداد ١٩٥٩. ص ٨٨ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الأصمعي تاريخ العرب.

١٧. الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ٣٣٢، Donner, The Early Islamic, p. 102,

١٨. Trimingham, Christianity, p. 123.

١٩. ابن أعثم، أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م)، كتاب الفتوح، ٨ح، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٦٨. جـ١، ص ٢٩٩ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن أعثم، الفتوح.

المواقع (٢٠). وقد أدى اتساع مناطقها وتحالفها مع قبائل قضاعة الأخرى أن أصـبـحـت هـذه الـقـبـيـلـة تـقـف على قدم المساواة مع مملكة كندة ومملكة الغساسنة (٢١). وهذا مما دفع الروم الى تعيين فروة الجذامي عاملا لهم على ما يليهم من العرب، واتخذ من معان مركزاً له (٢٢).

٦. لخـم : وهـي من القبائل التي تفرقت بطونها في أماكن متعددة، لكن أكثرها كان بـفـلـسـطين بين الـرمـلـة والجفار حيث حدود مصر، كما شاركت جذام في مـنـاطق أخرى، ومنها بعض البطون في الجولان وحوران والبثنية ونوى. وقد كـانـت قـلـعـة الـداروم قـرب غزة أول المناطق التي استولى عليها المسلمون وملكوها سنة ١٣هـ مراكز لخم (٢٣).

٧. عاملة : وكـان مـركـزهـا الـرئـيسي في الأردن وسواحله خاصة في جبلها المشرف على طبرية وعكا (جبل عاملة) (٢٤).

٢٠. عن مساكن جذام. انظر الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧١ ــ ٢٧٣، ٣٦٩؛ المحبر، ص ١٧٢، P. 101 Donner, The Early Islamic, p. 101.

٢١. Trimingham, Christianity, p. 122.

٢٢. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ح، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧. جـ١، ص ٣٧٥، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن سعد، الطبقات؛ ابن هشام، جـ٢ ص ٥٩٤؛ ابن عبد البر، جمال الدين أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ح، تحقيق محمد علي البجاوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لا. ت. جـ٢، ص ٥٠٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الاستيعاب؛ النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٠ح، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٥٥ ــ ١٩٧٥. ج ١٨، ص ٢٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: النويري، نهاية الأرب.

٢٣. عن مساكن لخم. انظر: اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، البلدان، نشر ضمن كتاب الأعلاق النفسية، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٨١. ص ٣٣٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: اليعقوبي، البلدان؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٢ ــ ٢٧٤؛ أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)، الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٢هـ. ص ٢٧٤، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: أبو يوسف الخراج؛ المحبر، ص ١٧٥؛ الاستيعاب، جـ٣، ص ١٢٦١؛ ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢١٩؛ P. 123 Trimingham, Christianity

٢٤. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٢ ــ ٢٧٤؛ المحبر، ١٧٥.

٨. سليح : سكنت ما بين غزة وجبال الشراة من الشام إلى حوران والبلقاء وأيضاً تواجدت في الموقر والسلمية وحوران وجبل الزيتون (٢٥) .

٩. تنوخ : أقامت في شمال سوريا وعلى سواحلها فقد شاركت بهراء في حماة وحول حلب، كما أقامت بعض بطونها في اللاذقية وأخرى في تدمر والسماوة الى حد الفرات (٢٦) .

١٠. بلقين : كانت تخالط لخم في الجولان ونوى والبثنيه من أرض حوران والحيانيات وهي كورة في جبل جرش قرب الغور وفي شمال تيماء وثجر قرب وادي القرى (٢٧) .

١١. غسان : أقامت غسان في دمشق والغوطه وتدمر والبلقاء وأذرح والقسطل ومعان والجابيه والأردن وحمص كما وجد لهم نفوذ في دومة الجندل وحسمى، وقد اتخذ آل جفنة من الجولان مقراً رئيسياً لهم (٢٨) .

١٢. بهراء : استقرت في شمال سوريا في جهات حمص وحماة حيث شاركت تنوخ في بعض المواقع، وهي من القبائل اللقاح الذين لا يدينون وأهل سؤدد وعز كما يذكر الهمداني (٢٩) .

---

٢٥. عن مساكن سليح. انظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣١٩. ٣٣٤؛ ابن خلدون، م ٢، ص ٢٤٧؛ Donner, The Early Islamic, P. 108

٢٦. عن مساكن تنوخ. انظر: اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢١؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٥؛ Donner, The Early Islamic, P. 108

٢٧. عن مساكن بلقين. انظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٣٢؛ الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، ٥ح، دار صادر، بيروت ١٩٥٥. مادة ثجر: سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الحموي، معجم البلدان؛ Donner, The Early Islamic P. 108

٢٨. عن مساكن غسان. انظر اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، تاريخ اليعقوبي ٢ح، تقديم وتعليق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٤. جـ١، ص ١٠٨، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: اليعقوبي، تاريخ؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٦؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ح، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، المكتبة التجارية القاهرة، ١٩٤٨، جـ٢، ص ١٠٩ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: المسعودي، مروج؛ المحبر، ص ٢٦٣؛ ابن سعيد، نشوة الطرب، جـ١، ص ١٩٩، وما بعدها؛ نولدكه، أمراء غسان، ص ٤٤، ٥٢

٢٩. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٤؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢١.

١٣. اياد : استقر بعضهم في حمص وأنطاكية وقنسرين ومنبج خاصة بعد اختلافهم مع قبيلة تغلب (٣٠) .

ونظراً لاهتمامات الرسول «ص» بنشر الدين الاسلامي، وتأمين سلامة الطرق التجارية فانه رأى أن الطريق الى القبائل المتنصرة لا يتحقق الا بأمرين : —

الأول : الأمر العسكري، وهو شن الغزوات والسرايا ضد التجمعات القبلية، أو التي تعترض حركة مرور التجار. فمنذ أن هاجر الرسول «ص» واستقر بالمدينة أخذ يعد الخطط لتحطيم نظام الايلاف الذي أقامته قريش مع هذه القبائل، فتحطيم هذا النظام يؤدي إلى إضعاف مكة من الناحية التجارية، واقامة علاقات ودية مع هذه القبائل.

لقد أعطى موقع هذه القبائل أهمية في السيطرة والاشراف على الطرق التجارية وهي : —

طريق أيله (العقبة)، طريق معان — تبوك، وطريق تيماء. ولتحقيق نشر الاسلام وتأمين الطرق التجارية كانت غزوة دومة الجندل في بداية السنة الخامسة للهجرة مستهدفة ما يلي :

أولا : شن حرب نفسية ضد القبائل المتنصرة كقضاعة وغسان الذين ذكرت الأخبار أنهم يهمون بغزو الحجاز.

ثانياً : تأمين سلامة الطريق التجاري، فدومة الجندل كانت سوقاً كبيراً، وذلك لوضع حد لأولئك الذين يظلمون تجار الميرة والمتاع وهم الضافطة (٣١) .

وشهدت السنة السادسة للهجرة ارسال سرايا متلاحقة مستهدفة تحقيق الأمرين

---

٣٠. البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، أنساب الأشراف الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩. جـ١، ص ٢٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: البلاذري، أنساب.

٣١. عن غزوة دومة الجندل انظر: الواقدي، المغازي، جـ١، ص ٤٠٢ وما بعدها؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص ٦٢؛ ابن هشام، جـ٢، ص ٢١٣؛ البلاذري، انساب، جـ١، ص ٣٤١؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٦٤؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٧، ص ١٦٣.

السابقين، فكانت سرية زيد بن حارثة الى وادي القرى لمعاقبة جذام ولخم في منطقة حسمى عندما اعترضت جذام دحية به خليفة الكلبي العائد من عند قيصر وقطعهم الطريق عليه (٣٢).

وسرية عبد الرحمن بن عوف الى كلب في دومة الجندل وكان من نتائجها اسلام الأصبغ بن عمرو الكلبي وقومه رغم مقاومتهم في البداية للمسلمين، وكان الأصبغ نصرانياً (٣٣).

أما السنة السابعة للهجرة فقد شهدت هدوءاً في العلاقات العسكرية لتجدد في السنة الثامنة ومتجاوزة حدود الحجاز الى بلاد الشام نفسها، فكانت سرية كعب بن عمير الغفاري الى قضاعة بذات أطلاح وقد أصيب معظم أفرادها، فشق ذلك على الرسول «ص» وهم بالبعثة اليهم، فبلغه أنهم قد ساروا الى موضع آخر فتركهم (٣٤).

و يبدو أن ما حدث للمسلمين في هذه الغزوة ومقتل الحارث بن عمير الأزدي من قبل الغساسنة كان سبباً في التوغل نحو بلاد الشام. فكانت غزوة مؤتة التي تمثل أول احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب المتنصرة والروم.

لقد تحالفت لخم وجذام و بلقين و بلي و بهراء وغسان واجتمعت مع الروم لمقاومة المسلمين واتخذوا من البلقاء مركز تجمع لهم حيث الطريق التجاري الذي يمر من هناك وعينت عليها مالك بن رافلة الأراشي من بلي فهزمت القلة أمام الكثرة، ورغم ما لحق بالمسلمين الا أن الرسول «ص» اعتبر هذه المعركة هي أول الصدام وليست نهايته

٣٢. عن سرية زيد بن حارثة انظر: الواقدي، المغازي، جـ٢ ص ٥٥٥ وما بعدها : ابن هشام، جـ٢، ص ٦١٢؛ الطبري، تاريخ، جـ٣ ص ١٤٠؛ المحبر، ص ١٢١؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٧، ص ٢٠٧؛ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ ح، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٢٨هـ جـ٣، ص ٤٤١، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : الاصابة.

٣٣. عن سرية عبد الرحمن بن عوف. انظر: الواقدي، المغازي، جـ٢، ص ٥٦١؛ ابن سعد الطبقات، جـ٢، ص ٨٩؛ ابن هشام، ج ٢، ص ٦٣١؛ البلاذري، أنساب، ج ١، ص ٣٧٨؛ ابن عساكر، جـ١، ص ٩٢؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٧، ص ٢٠٩. الاصابة جـ٤ ص ٢٥٥.

٣٤. عن سرية كعب بن عمير انظر، الواقدي، المغازي، جـ٢، ص ٧٥٢؛ ابن سعد الطبقات، جـ٢، ص ١٢٧؛ البلاذري، أنساب، جـ١، ص ٣٨٠؛ الطبري تاريخ، جـ٣، ص ١٠٨؛ ابن عساكر، جـ١، ص ٩٢؛ الحموي، معجم البلدان، مادة ذات اطلاح.

وقال... بأنهم الكرار ان شاء الله (٣٥).

وقد أدى انتصار العرب المتنصّرة في ذات أطلاح ومؤته أن لا يكتفوا بهذا النصر، بل يودون التوجه الى المدينة نفسها فقد حملت الأخبار الى رسول «ص» أن قضاعة و بلي وعامله وكلب وغسان ولخم وجذام قد تجمعت مرة أخرى، وهنا سارع الرسول «ص» بارسال عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل وأمره أن يستعين بمن يمر به من القبائل التي أخذت تقيم علاقات مع المسلمين كبلي عذره و بلقين، ثم أمده بأبي عبيده لكثرة الجموع التي قابلت عمرو بن العاص، وتمكن عمرو أن يصل الى أقصى بلاد عذره و بلقين (٣٦). وشهدت السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠م) أعظم الغزوات ضد القبائل المتنصرة عن جذام ولخم وعامله غسان التي عادت الى اجتماعها بتحريض من الروم، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وقدم مقدماته نحو البلقاء فسارع الرسول «ص» بالتوجه الى تبوك فلم يلق شيئاً وربما كان ذلك من باب الحرب النفسية ضد المسلمين (٣٧).

وقد حققت هذه الغزوة اقامة علاقات مع قبيلة جذام في جنوب بلاد الشام وغيرها من القبائل المتنصّرة عندما صالح الرسول «ص» أهل أيله وأذرح والجرباء ومقنا (٣٨)، كما أن نجاح هذه الغزوة قد جعل الرسول «ص» يفكر جدياً في التقدم نحو الشام، فيذكر الواقدي (٣٩) أن الرسول «ص» شاور أصحابه في التقدم. فقال عمر بن الخطاب : ان كنت

٣٥. عن غزوة مؤتة. انظر: الواقدي، المغازي جـ٢، ص ٧٥٥؛ ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ١٢٩؛ ابن هشام جـ٢، ص ٣٧٥؛ الطبري، تاريخ جـ٣، ص ٤١؛ ابن الأثير، جـ٢، ص ١٥٩؛ ابن عساكر، جـ١، ص ١٠٠.

٣٦. عن ذات السلاسل انظر: الواقدي، المغازي، جـ٢، ص ٧٦٩؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص ١٣١؛ ابن هشام، جـ٢، ٦١٣؛ البلاذري، أنساب جـ١، ص ٣١٨؛ ابن الأثير، ج ٢، ص ١٥٦؛ ابن عساكر، جـ١، ص ١٠٣؛ النويري؛ نهاية الأرب، جـ١٧، ص ٢٨٣؛ Donner, The Early Islamic P. 102.

٣٧. عن غزوة تبوك. انظر: الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ٩٨٩؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ١٦٥؛ ابن هشام، جـ٢، ص ٣٨٠؛ البلاذري، أنساب، جـ١، ٣٦٩؛ البلاذري، فتوح، ص ٧١؛ قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١. ص. ٢٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : قدامة؛ ابن الأثير، جـ٢، ص ١٨٩؛ ابن عساكر، جـ١، ١٠٩؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٧، ص ٣٥٢؛ الاصابة، جـ١، ص ٢٥٦.

٣٨. انظر المصادر السابقة.

٣٩. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠١٩؛ ابن عساكر، جـ١، ص ١١٣؛ ابن حجر العسقلاني، جـ١، ص ٢٣٤.

أمرت بالمسير فسر. فأجابه الرسول «ص» : لو أمرت ما استشرتكم فيه. قال : يا رسول الله فان للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الاسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله عز وجل لك في ذلك أمراً.

بهذه الغزوات تمكن الرسول «ص» من ربط قبائل شمال الحجاز بسلطة المدينة وأن يرسل عماله على قضاعة وكلب وبلي (٤٠)، والقين (٤١)، وعذرة (٤٢)، وجذام (٤٣)، ولخم (٤٤).

المجال الثاني : وهو مجال الدبلوماسية حيث قام الرسول «ص» بارسال رسله في السنة السادسة للهجرة (٤٥) الى المناطق المجاورة له ومن ضمنها القبائل المتنصّرة في بلاد الشام.

لقد أرسل رسول الله «ص» شجاع بن وهب الأسدي الى الحارث بن أبي شمر الغساني وان اختلفت المصادر في ذكر المنطقة التي كان يحكمها، هل هي في دمشق (٤٦)، تخوم الشام (٤٧)، الأردن (٤٨)، البلقاء (٤٩)؟ الا أنها اتفقت على الموقف الذي اتخذه الحارث من الدعوة الاسلامية. فالحارث لم يستلم كتاب رسول الله «ص» الا بعد فترة زمنية من

---

٤٠. انظر : البلاذري، أنساب، جـ١، ص ٥٣٠؛ خليفة ابن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، ٢ح، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٦٧. جـ١، ص ٦٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : خليفة، تاريخ؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ١، ص ١٠٥، جـ٣، ص ١١٧٢؛ ابن عساكر، جـ١، ص ١١٩؛ ابن الأثير، جـ٢، ٢٣١.

٤١. انظر المصادر السابقة، الاصابة، جـ٢، ص ٥٣٢.

٤٢. انظر : المصادر السابقة.

٤٣. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٢٤٣.

٤٤. انظر : المصدر السابق.

٤٥. البلاذري، أنساب، جـ١، ص ٥٣١.

٤٦. ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٦١؛ الطبري، تاريخ جـ٢، ص ٦٥٢؛ الاصابة، جـ٣، ص ٤٩٠.

٤٧. ابن هشام، جـ٢، ص ٦٠٢.

٤٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ١، ص ٨٠ ــ ٨١، جـ٢، ص ٦٧.

٤٩. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧. ص ٢٢١. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : العيني، السيف المهند.

وقوف شجاع على بابه، وعندما سلمه الكتاب وقرأه قال : من ينزع مني ملكي، أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته، علي بالناس، فلم يزل يفرض حتى قام وأمر بالخيول تنعل ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى وكتب إلى قيصر يخبره ما عزم عليه، فكتب اليه قيصر الا تسير اليه واله عنه ووافني بايلياء (٥٠).

وأرسل الحارث بن عمير الأزدي الى ملك بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً وضرب عنقه (٥١). وعمار بن ياسر الى الأيهم بن النعمان الغساني (٥٢). وحريث بن زيد الخيل الطائي الى يحنه بن رؤبه (٥٣). والسائب بن العوام أخو الزبير الى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان (٥٤).

ونظرة الى هؤلاء الرسل نرى أن الرسول «ص» ربما قد قدر المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها هؤلاء الرسل من قبل الغساسنة فبعث من كان يربطه مع الغساسنة بحلف كشجاع بن وهب الأسدي والسائب بن العوام، أو من تربطه صلة القربى والدم كالحارث بن عمير الأزدي الذي لم تنقذه هذه القربى من القتل. ومما يؤكد ذلك أيضاً أن اختيار حاطب بن أبي بلتعة اللخمي الى المقوقس في مصر (٥٥) لغايتين : الأولى أنه ربما يعرف الطرق التجارية لمصر والثانية أنه سيعبر منطقة لخم الواقعة بين الرملة والجفار على حدود مصر، وهذه ستجعله يؤدي مهمته على خير وجه.

وتشير بعض المصادر الى أن الرسول «ص» قد بعث الى جبلة بن الأيهم، وأن

---

٥٠. أنظر : ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٦١؛ البلاذري، أنساب، جـ١، ص ٥٣١؛ خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٦٣؛ ابن هشام، جـ٢، ص ٦٠٢؛ اليعقوبي، تاريخ، جـ١، ص ٨٠؛ المسعودي، مروج جـ٢، ص ١٤٣؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٨، ص ١٦٥؛ العيني، السيف المهند، ص ٢٢٣؛ الاصابة، جـ٣، ص ٤٩٠.

٥١. انظر : ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ١٢٩؛ المقدسي، مطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، ٦ح، مكتبة خياط، بيروت، لا. ت، جـ٤ ص ٢٤٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : المقدسي، البدء؛ ابن عساكر، جـ١، ص ٩٣؛ العيني، السيف المهند، ص ٢٢٠؛ نولدكه، امراء غسان، ص ٤٨.

٥٢. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٦٧.

٥٣. الاصابة، جـ١، ص ٣٣٢.

٥٤. العيني، السيف المهند، ص ٢٢٠.

٥٥. ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٦٠؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص ٦٤٤.

رسوله اليه كان شجاع بن وهب الأسدي (٥٦)، و بعضها يقول أنه قد أسلم. والواقع أن الشك يحوم حول ذلك للعوامل التالية: ــ

الأول: أن الحارث بن أبي شمر ربما كان هو المقدم على ملوك الغساسنة وتشير المصادر الى أن الحارث مات عام الفتح (٥٧).

الثاني: ان اسم جبلة لم يبرز الا خلال الفتوحات الاسلامية، فان تسلم زعامة غسان بعد موت الحارث يعني ذلك أن هذه الفترة كانت فيها العلاقات بين الرسول «ص» ومتنصرة الشام سيئة حيث وقعت غزوة مؤتة.

والثالث: أن هنالك مصادر عديدة وكما سنرى تذكر أن جبلة أصر على بقائه على نصرانيته ولم يسلم حتى بعد نجاح الفتوحات الاسلامية.

ونتيجة هذين المجالين حقق الرسول «ص» الهدف الذي خطط له من نشر الاسلام وحماية الطرق التجارية. ففي السنة التاسعة للهجرة جاءت وفود جذام و بلي وقضاعة وعذرة وتنوخ وكلب وغسان والقين ولخم و بهراء معلنة اسلامها.

ولم يقف نشر الاسلام بين القبائل الواقعة أطراف الشام والجزيرة وانما امتد الى عمق بلاد الشام، فقد أشارت المصادر الى اسلام فروة الجذامي وصلبه من قبل الروم (٥٨)، وزنباع بن روح الجذامي الذي كان على أعشار الروم (٥٩) والحارث بن قيس بن الحارث بن

٥٦. انظر: ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٦٥؛ ابن هشام، جـ٢، ص ٦٠٦؛ خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٦٣؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٢، ص ٧٠٧؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٨، ص ١٦٩.

٥٧. ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢٦١؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٨، ص ١٦٦.

٥٨. انظر ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٣٥٥؛ ابن هشام، جـ٢، ص ٥٩١؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٢، ص ٥٠٠؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٨، ص ٢٨.

٥٩. ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٢، ص ٥٠٢؛ الاصابة، جـ١، ص ٥٢١، الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ/٢٧٨م). الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٢، ص ٦٢٥ ــ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الزبير بن بكار، الأخبار؛ الحلي، أبو البقاء هبة الله، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، ٢ح تحقيق صالح درادكة، محمد خريسات، مكتبة الرسالة، عمان، ١٩٨٤. جـ١ ص ٦٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الحلي، المناقب.

أسماء بن أبي شمر الغساني (٦٠)، وفروة بن مجالد مولى اللخمين من أهل فلسطين (٦١)، ومسروح بن سندر الحمصي (٦٢)، وسيماه البلقاوي تاجر القمح إلى المدينة وكان نصرانياً (٦٣).

ومع تجاوز الاسلام أطراف الجزيرة إلا أن وادي القرى كان الحد الفاصل بين سلطة المدينة الفعلية والقبائل التي كانت تحت السيطرة البيزنطية.

و بالرغم من ردة بعض بطون قبائل شمال الحجاز إلا أن اعادتهم الى حظيرة الدولة الاسلامية لم تكلف جهداً كبيراً حيث عين أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص على مشارف الشام (٦٤) ليكون فيما بعد أول طلائعه إلى الشام.

ومن خلال تتبع الأحداث بين الرسول «ص» والقبائل المتنصرة يلاحظ أن أكثر القبائل معارضة للاسلام كانت قبيلة الغساسنة. وهذه المقاومة كانت ظاهرة للعيان من خلال تتبع المحاولات التي قام بها الغساسنة والتي لم تقتصر على الاشتراك في التجمعات ضد المدينة أو قتل الحارث بن عمير الأزدي بل تعدى ذلك إلى تدخل الغساسنة في شؤون المدينة الداخلية.

منذ بداية الدعوة الاسلامية عرض الرسول «ص» نفسه على قبيلة غسان لكن لم يستجب منهم أحد (٦٥). و بعد ذلك جاءت بداية الصراع من الغساسنة أنفسهم عندما قتل الحارث بن عمير الأزدي، ثم في المقاومة الشديدة التي أبداها ابن أبي سبرة الغساني بمؤتة حيث قاتل المسلمين قتالاً شديداً (٦٦).

٦٠. الاصابة، جـ١، ص ٢٨٧.

٦١. ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٣، ص ١٢٦١.

٦٢. الاصابة، جـ٣، ٤٠٧.

٦٣. المصدر السابق، جـ٢، ص ١٠٤.

٦٤. المصدر السابق، جـ١، ص ٤٠٧.

٦٥. ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٢١٦ ــ ٢١٧.

٦٦. ابن عساكر، جـ١، ص ٩٥.

واستخدم بعض الغساسنة كعيون للروم لاستطلاع أخبار المسلمين ونقل هذه الأخبار الى البيزنطيين (٦٧). وقاموا بايواء الهاربين من الحجاز واحتضانهم كعدي بن حاتم وكان معتنقاً للنصرانية (٦٨) وعلقمة بن علاثة الكلابي الذي أسلم وارتد زمن النبي «ص» فخرج بعد الطائف ولحق بالشام، وبعد وفاة الرسول «ص» أقبل مسرعاً من الشام وعسكر في بني كعب مقدماً رجلا ومؤخراً أخرى (٦٩). وطليحة بن خويلد الأسدي الذي صار الى بني جفنة واستجار بهم فأجاروه (٧٠)، والمنذر بن النعمان المنذر الذي جاءت به بكر بن وائل في الردة، فهرب الى آل جفنة فاستجار بهم فأجاروه أيضاً لكنه عاد وندم وكتب الى أبي بكر من الشام (٧١).

وامتد تدخل الغساسنة الى ما هو أبعد من ذلك، فعندما جفى الرسول «ص» والمسلمون كعب بن مالك لتخلفه في غزوة تبوك أرسل الغساسنة نبطياً من الشام يحمل رسالة الى كعب بن الحارث بن أبي شمر الغساني أو من جبلة بن الأيهم فيها: أما بعد، فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك، فلما قرأ كعب قال: وهذا أيضاً من البلاء، قد بلغ بي أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك وأحرق الرسالة (٧٢).

ونلمح كذلك شدة هذه المقاومة بأن وفد الغساسنة لم يزد على ثلاثة رأوا أن العرب كلها قد صدقت بمحمد «ص» فأسلموا، وبعد عودتهم لقومهم دعوهم للاسلام فلم يستجيبوا لهم، فكتموا اسلامهم حتى مات منهم رجلان مسلمين وأدرك واحد منهم عمر بن الخطاب (٧٣)

٦٧. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠١٨؛ ابن عساكر، جـ١، ١١٢ — ١١٣.

٦٨. الأصنام، ص ٦١؛ ابن هشام، جـ٢، ص ٥٧٨؛ الاصابة، جـ٢، ص ٤٦٢.

٦٩. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٢٩٢؛ ابن الأثير، جـ٢، ص ٢٣٦؛ الاصابة جـ٢، ٥٠٣.

٧٠. ابن أعثم، الفتوح، جـ١، ص ١٦.

٧١. المصدر السابق، جـ١، ص ٥٤ — ٥٥.

٧٢. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص ١٠٥١ — ١٠٥٢؛ ابن هشام، جـ٢، ص ٥٣٤؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٧، ص ٣٦٥.

٧٣. ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص ٣٣٨ — ٣٣٩؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٣٠؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٨، ص ٩٨.

وربما كان إهداء الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان لصنم مناة سيفين هما مخذم ورسوب ما هو الا تحريض للقبائل الوثنية على مقاومة الاسلام.

ولأهمية الدور الذي قام به الغساسنة اعترفوا بجبلة بن الأيهم كملك للغساسنة بعد وفاة الحارث بن أبي شمر، وبعد أن فقدت بيزنطة ثقتها بجذام التي كانت قلعة مقاومة ضد هجمات المسلمين، وتلاشيها بعد أن أسلم فروة الجذامي وبطون أخرى من جذام (٧٤). ويعزى Trimingham تحول جذام الى ضعف الارتباط بالمسيحية عند هذه القبيلة (٧٥)

القبائل المتنصّرة والفتوحات

يقسم الأزدي (٧٦) موقف العرب المتنصرة في الشام الى ثلاثة أقسام: —

الأول: صنف كان على دين العرب (المسلمين) وكانوا معهم.

الثاني: كانوا نصارى وليس لهم نية في النصرانية، فقالوا نكره أن نقاتل أهل ديننا ونكره أن ننصر العجم على قومنا.

الثالث: كانوا نصارى وكانت لهم تلك النية في النصرانية. وقد وقفت هذه الفئة الى جانب البيزنطيين.

وسنتناول بشيء من التفصيل مواقف ودور هذه الفئات الثلاث.

القسم الأول: وهي الفئة التي كانت واقفة على أطراف الشام حيث مواطن لخم وجذام بالاضافة الى القبائل الأخرى التي اعتنقت الاسلام مع تقدم الجيوش الفاتحة.

لقد رأينا أن الرسول «ص» استطاع أن يقيم علاقات مع كثير من القبائل

٧٤. الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦هـ/١٥٥٨م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ٢ح، مطبعة عثمان عبد الرزاق، القاهرة ١٣٠٢. جـ٢، ص ٢٥٣. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: الديار بكري، تاريخ.

٧٥. Trimingham, Christianity, p. 209

٧٦. الأزدي، محمد بن عبد الله (ت ٢ق هـ/٨ق م)، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠، ٤٣ — ٤٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الأزدي، فتوح.

المستوطنة لأطراف الشام، ونرى فاعلية هذه العلاقات من أن أبا بكر عندما وجه خالد بن سعيد بن العاص الى تيماء أمره أن يدعو من حوله للانضمام اليه، والا يقبل الا ممن لم يرتد ولا يقاتل الا من قاتله حتى يأتيه أمره فأقام فاجتمع اليه جموع كثيرة (٧٧).

وعندما وجه أبو بكر عمرو بن العاص الى فلسطين أمره أن يسلك طريق أيله (العقبة) وأن يستعين بقبائل بلي وعذره وسائر قضاعة ومن سقط هناك من العرب و يندبهم للجهاد (٧٨).

ولما تقدم خالد بن سعيد نحو البلقاء قرب زيزاء ولقيته جموع بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان، تفرقوا بعد أن دنا منهم، ودخل من كان تجمع له في الاسلام (٧٩). وبعد أن توغل في البلقاء ووصل الى القسطل لا نلمح أثراً لدور القبائل المتنصّرة في مقاومة خالد بن سعيد، بل نلمح ذلك الدور للبيزنطيين حيث هزموه وقضوا على جنده فكتب خالد بن سعيد الى أبي بكر يستمده فكلهم استبدل فسمي الجيش جيش البدل (٨٠). وربما كانت هذه هي الحامية التي وضعها البيزنطيون بعد سرية أسامة بن زيد الى بلاد الشام.

ومما يرجح ضعف مقاومة القبائل المتنصرة في البلقاء الى جنوب الشراه أن جيش عمرو بن العاص الذي تقدم نحو فلسطين لم يلق مقاومة منذ أن خرج من الحجاز واستولى على جميع الأراضي التي مر بها بغير حرب (٨١) الى أن وصل الى عربة وداثن حيث أوقع عمرو بن العاص بحاكم منطقة غزة «سرجيوس» هزيمة فادحة (٨٢).

وجاء انتصار المسلمين في اجنادين سنة ١٣ هـ ليغير من مواقف القبائل المتنصرة

٧٧. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٣٨٨.
٧٨. ابن عساكر، جـ١، ص ١٣٠.
٧٩. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٣٨٩؛ ابن عساكر، جـ١، ص ١٣٢؛ ابن خلدون، تاريخ ٢ح، ص ٨٣.
٨٠. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٣٩١.
٨١. البلاذري، فتوح، ١١٧؛ قدامة، ص ٢٨٦
٨٢. رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ٣ح، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧ — ١٩٦٨. جـ١، ص ٣٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: رنسيمان، تاريخ.

ويجعلها تتخذ موقفين : —

الأول : الوقوف الى جانب المسلمين في فحل حيث جاءت لخم وجذام وغسان وعامله والقين وقبائل من قضاعة ودخلوا مع المسلمين فكثر عددهم وصاروا معهم في عسكرهم (٨٣).

الثاني : وقوف بعض هذه القبائل على الحياد تنتظر ما تنجلي عنه الأمور بالنسبة للمسلمين والبيزنطيين (٨٤).

وكان دخول المتنصّرة يزداد مع كل انتصار يحققه المسلمون فأثناء التحشدات قبل اليرموك، جاء رجال من العرب كانوا نصارى، فأسلموا، فطلب منهم أبو عبيده أن يدخلوا في عسكر الروم و يأتوه بأخبارهم (٨٥).

وشارك في اليرموك الى جانب المسلمين من العرب المتنصّرة لخم وجذام وغسان وقضاعة وعامله وكانت في الميسرة، وقد انكشفت الميسرة عن مصافها، ولم يثبت بها الا أهل الرايات والحفاظ (٨٦) ولذلك قال أحد المسلمين.

نجى جذاماً ولخماً كل سلهبة   واستحكم القتل أصحاب البراذين

وقال عمرو بن العاص (٨٧)

القوم لخم وجذام في الحرب   ونحن والروم نموج ونضطرب
فان تعودوا بعدها لا نصطحب   بل نغضب الفرار بالضرب الكلب

والسؤال الذي يطرح نفسه هل كان انكشاف الميسرة نابعاً من شدة المقاومة التي لقيها المسلمون أم أن هذه القبائل لم تحسن النية في القتال سيما وأن العرب المتنصرة التي

٨٣. الأزدي، فتوح، ص ١٣٠ وانظر: ص ١١١، ص ١٣٤.
٨٤. المصدر السابق.
٨٥. المصدر السابق
٨٦. الأزدي، فتوح، ص ٢٢٦ — ٢٢٧؛ ابن أعثم، الفتوح، ج ١، ص ٢٥٥
٨٧. الاصابة، جـ١، ص ٣٧٢.

كانت إلى جانب البيزنطيين في الميسرة أيضاً ؟ ليس باستطاعتنا الاجابة الشافية عن هذا التساؤل سيما وأن المصادر التي بين أيدينا لا تشير إلى هذا الموضوع ، ولكن يمكن الاستنتاج بأن هذه القبائل لم تكن مخلصة النية في قتالها من موقف عمر بن الخطاب من قبيلتي لخم وجذام في الجابية عندما قال : أما بعد ، فان هذا المال نقسمه على من أفاء الله عليه بالعدل إلا هذين الحيين من لخم وجذام فلا حق لهم منه . فقام اليه أبو حديده الأجذمي فقال : ننشدك الله يا عمر في العدل . فقال عمر : العدل أريد أن أجعل أقواماً أنفقوا في الظهر وشدوا العرض وساحوا في البلاد مثل قوم مقيمين في بلادهم . ولو أن الهجرة كانت بصنعاء أو بعدن ما هاجر اليه من لخم ولا جذام أحد فقام أبو حديده فقال : أن الله وضعنا على بلاده حيث شاء وساق الينا الهجرة في بلادنا فقبلناها ونصرناها ، أفذلك يقطع حقنا يا عمر؟ فقال لكم حقكم مع المسلمين (٨٨) .

كذلك تُظهر هذا الموقف الاشعار التي سبق ذكرها والتي تشير إلى انكشاف هذه الميسرة عن مصافها . و بعد اليرموك دخل كثير من العرب المتنصرة الى جانب المسلمين ، فقد قاتلوا الى جانب المسلمين بحمص وحلب (٨٩) وقنسرين و بالس حيث أسكنها أبو عبيدة قوماً من العرب الذين كانوا بالشام وأسلموا بعد قدوم المسلمين وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس (٩٠) وهكذا نرى أن هذا الفريق قد قدم القربى على الدين وانتصر للمسلمين .

القسم الثاني : وهم النصارى الذين ليس لهم نيّة في النصرانية ، فكرهوا قتال الروم بسبب الدين وقتال العرب بسبب القربى فاعتزلوا القتال حتى ينجلي الموقف فسارع أكثرهم الى مصالحة المسلمين وقد أطلق عليهم اسم مسالمة الشام (٩١) أو المعاهدة (٩٢) .

---

٨٨. البسوي ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م) ، المعرفة والتاريخ ٣ح ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٤ . جـ١ ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥ ، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : البسوي ، المعرفة ؛ ابن عساكر ، جـ١ ، ص ٥٥٥ ؛ الاصابة جـ٤ ، ص ٤٨ .

٨٩. الواقدي ، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) فتوح الشام (منسوب اليه) ، ٢ح ، مكتبة المحتسب ، عمان ، لا . ت . جـ١ ، ص ٢٥٤ وما بعدها . سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : الواقدي ، فتوح .

٩٠. البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٥ ؛ قدامة ، ص ٣٠٥ .

٩١. الأزدي ، فتوح ، ص ٣١ ؛ الديابكري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

٩٢. الواقدي ، فتوح ، جـ١ ، ص ٢٧٦ .

وأول هذه القبائل ما كانت في البلقاء فعندما تقدمت الجيوش هناك سارع أهل مآب وهي يومئذ فسطاطاً وليست بمدينة (٩٣) الى طلب الصلح من أبي عبيدة فكانت أول مدائن الشام صالح أهلها (٩٤) . و بعد فتح مآب تم فتح عمان دون مقاومة تذكر وغلب يزيد ابن أبي سفيان على جميع أرض البلقاء (٩٥) ، وتوجه الى عرندل (غرندل) وغلب على أرض الشراة وجبالها دون مقاومة تذكر وصالح أهل هذه المناطق (٩٦) . وهذه الأماكن كانت منازل لخم وجذام .

وفي حوران حيث معقل الغساسنة وسليح و بلقين ، كانت بصرى أول مدائن الشام صالح أهلها على الجزية و بعدها غلب المسلمون على أرض حوران وأذرعات والثنية وغيرها (٩٧) .

وكان لسقوط بصرى المركز الحربي الهام بعد دمشق (٩٨) الدافع الرئيسي للقبائل التي كانت منتشرة في حوران في طلب الصلح من المسلمين .

وفي الأردن لم تظهر كثير من القبائل مقاومة تذكر فقد فتحت جميع مدن الأردن فتحاً يسيراً بغير قتال كطبرية و بيسان وأفيق وجرش و بيت راس وقدس والجولان وغلبوا على سواد الأردن وجميع أرضه (٩٩) وهذه المناطق هي مراكز للغساسنة وعامله و بلقين .

و يظهر دور هذه القبائل في عدم قتال المسلمين بفحل بشكل واضح فقد أخذ أهل البلد (فحل) من النصارى يراسلون المسلمين فيقدمون رجلا و يؤخرون أخرى و يقولون : ــ يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا لكنهم قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا . فيقول لهم

---

٩٣. الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ٤٠٦ .

٩٤. انظر : الأزدي ، فتوح ، ص ٢٩ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، جـ١ ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ ، البلاذري ؛ فتوح ، ص ١٢٠ ؛ قدامة ، ص ٢٨٨ .

٩٥. البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٢ .

٩٦. المصدر السابق .

٩٧. البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٠ ؛ قدامة ، ص ٢٨٨ .

٩٨. نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٣١ ؛ الواقدي ، جـ١ ، ص ٢٧

٩٩. البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٣ ؛ قدامة ، ص ٢٩٠ .

المسلمون : ان هذا ليس بنافع لكم عندنا مالم تعتقدوا منا الذمة .... فكانوا يتربصون بالمسلمين ، و ينتظرون ما يكون من أمر قيصر (١٠٠) . و بعد انتصار المسلمين بفحل صالح أهلها على أداء الجزية وان يخرج منها من كان من الروم ويخلي بلاد الأردن (١٠١) .

ولا تشير المصادر الى مقاومة فعلية ظهرت في مناطق الأردن الا في بعلبك وضواحيها ، حيث أقام المسلمون خارج المدينة وأخذوا يشنون الغارات على سواحل الروم و يكبسون على العرب التي لم تكن في صلحهم (١٠٢) .

وقد تكون هذه المقاومة بسبب تحريض البيزنطيين في هذه المناطق لقبائل عاملة ، لذلك نجد أن أبا عبيدة في صلحه مع أهل بعلبك رومهم وعربهم وفرسهم اشترط أنه لا ينزل الروم قرية عامرة ، وأمهلوا مدة ثم يسيرون بعدها حيث شاءوا (١٠٣) .

وفي فلسطين حيث مواطن لخم وجذام لم تبد هذه القبائل مقاومة تذكر ، فقد تم فتح المدن الفلسطينية كغزة وسبسطية ونابلس واللد و يبني وعمواس و بيت جبرين و يافا صلحاً بأن أعطوا الأمان على أنفسهم ومنازلهم والجزية على رقابهم والخراج على أرضهم (١٠٤) .

وفي شمال سوريا أصيبت القبائل المتنصرة بفزع وهلع شديد من قوة المسلمين و بأسهم ، فطلبوا الأمان والصلح فأمنهم المسلمون وكفوا أيديهم وأعينهم فأخرج أهل حمص اليهم العلف والطعام (١٠٥) . أما حماة فقد أذعنت أيضاً دون مقاومة تذكر (١٠٦) ، كما خرج أهل معرة النعمان يقلسون بالسيوف والرماح بين يدي أبي عبيدة (١٠٧) تعبيراً عن فرحتهم بقدومهم .

---

١٠٠. الأزدي ، فتوح ، ص ١١١ — ١١٢ .

١٠١. المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

١٠٢. الواقدي ، فتوح ، جـ ١ ، ص ١٤٤

١٠٣. البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٦ .

١٠٤. البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٤ ؛ قدامة ، ص ٢٩٩ .

١٠٥. البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٦ — ١٣٧ ؛ قدامة ، ص ٢٩٧

١٠٦. قدامة ، ص ٢٩٧ .

١٠٧. قدامة ، ص ٢٩٧ ، والمقلس الذي يلعب بين أيدي الأمير اذا قدم المصر ، انظر : ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب ، ١٥ ح ، دار صادر ، بيروت ، لا . ت . مادة قلس . سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا . لسان .

وكان للمعاملة الحسنة التي لقيتها العرب المتنصرة من المسلمين سبباً في عدم مقاومة هذه القبائل للمسلمين ، بل في بقاء بعض المدن على ولائها للمسلمين بالرغم من خروج العرب المسلمين منها . لقد رد المسلمون على أهل حمص ما أخذوه من الخراج منهم وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم .. فأغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى (١٠٨) .

و يؤكد هذه المعاملة ما ذكره الأزدي (١٠٩) عن رجل من تنوخ نصر النصرانية على العرب وأقبل مع الروم يوم اليرموك فقال ... فجعلنا لا نمر بأحد من أهل البلد الا وجدناهم أحسن شيء ثناء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم ، وأقبل الروم يفسدون في الأرض و يسيئون السيرة . وقد ذكر من اساءانهم شرب الخمر وسرقة المواشي ، وعدم إطاعة القواد ، والتعرض للنساء وضرب الناس . وقد كان لهذه المعاملة أثره في اسلام بعض القبائل المتنصرة بل ومن الغساسنة أنفسهم (١١٠) . ولم يقتصر أثر هذه الفئة على عدم قتال المسلمين فحسب ، بل تعدى ذلك الى تقديم الخدمات المتعددة للمسلمين والتي لا غنى عنها في الأمور الحربية وهذه الخدمات هي : —

١. الاعتماد عليهم كعيون يستطلعون أخبار العدو ، فمسالمة الشام هي التي أخبرت يزيد بن أبي سفيان الخبر الذي جمعه هرقل لقتال المسلمين (١١١) عند بدء الفتوحات .

وما أن وصل خالد بن الوليد الى الشام حتى رتب الجواسيس وهؤلاء كان معظمهم من العرب المتنصرة (١١٢) . كما اعتمد المسلمون على أنباط الشام (١١٣) والسامرة (١١٤)

---

١٠٨. البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٣ ؛ الأزدي ، فتوح ، ص ١٥٦ .

١٠٩. الأزدي ، فتوح ، ص ١١١ — ١١٢ .

١١٠. المصدر السابق . ص ٨٢ — ٨٣

١١١. الأزدي ، فتوح ، ص ٣١ ؛ الديار بكري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ .

١١٢. ابن أعثم ، الفتوح ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، الواقدي ، فتوح ج ١ ، ص ٢٠٠ ، ابن عساكر ، جـ ١ ، ص ١٦٢ .

١١٣. الأزدي ، فتوح ، ص ٤٤ ، ٨٧ ، ابن أعثم ، الفتوح ، جـ ١ ، ص ١٤٤ ، ٤٩ ، ١٧٥ ، الديابكري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ .

١١٤. البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٢ .

والجراجمة (١١٥) كعيون وأعوان للمسلمين ليبحثوا عن أخبار الروم و يكاتبوا بها المسلمين (١١٦)

٢. الاعتماد عليهم كمترجمين بين المسلمين والبيزنطيين في المفاوضات التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين، بل يذكر ابن أعثم أن رجلا من المستعربة يكنى أبا الجعد خرج ليفاوض المسلمين على الصلح عند حصار القدس فأجابه عمر الى ذلك (١١٧).

٣. الاعتماد عليهم كأدلاء للمسلمين خاصة في المناطق التي كان يجهلها المسلمون (١١٨)، وفي ايقاد النيران للغزاة (١١٩).

٤. في مجال التموين: لقد أدرك الرسول «ص» أهمية التموين ودوره الفاعل في عمليات القتال لذلك نراه يشترط على يوحنه بن رؤبه صاحب أيلة (العقبة) عندما عقد معه صلحاً بأن يقري من يمر به من المسلمين، كما صالح أهل مقنا على ربع عروكهم وربع كراعهم وحلقتهم وثمارهم (١٢٠). واستمر المسلمون على ادراك أهمية هذا العنصر، فقد صالح المسلمون أهل بصرى على تقديم الحنطة والزيت واستضافة المسلمين ثلاثة أيام (١٢١). وعلى أهل تدمر أن يقروا المسلمين و يرضخوا لهم (١٢٢)، وعلى مثل ذلك صولحت شمال سوريا وقدم أهل حمص العلف والطعام (١٢٣). كما قدم أهل حلب بالاضافة إلى الطعام الثياب للمسلمين (١٢٤).

واشترط المسلمون مثل ذلك على أنباط الشام بأن يصيب المسلمون من ثمارهم وتبنهم (١٢٥). و بشكل عام فقد قدمت الفئة المعاهدة «الأرزاق» للجيش الفاتح والتي

---

١١٥. البلاذري، فتوح، ص ١٦٤.

١١٦. البلاذري، فتوح، ص ١٥٥، قدامة، ص ٣٠٥، ابن خلدون، تاريخ، جـ٢، ص ١٠٥.

١١٧. ابن أعثم، الفتوح، جـ١، ص ٢٩٦، الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٦٢، النويري، نهاية الأرب، جـ١٩، ص ١١٧.

١١٨. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٢٥٤ وما بعدها، ابن عساكر، جـ١، ص ١٥١.

١١٩. ابن عساكر، جـ١، ص ١٧٩.

١٢٠. البلاذري، فتوح، ص ٧١. والعروك الخشب الذي يصاد عليه.

١٢١. البلاذري، فتوح، ص ١٣١، ابن عساكر، جـ١، ص ١٥١.

١٢٢. البلاذري، فتوح، ص ١١٩، قدامة، ص ٢٨٧.

١٢٣. البلاذري، فتوح، ص ١٣٧، قدامة، ص ٢٩٧، وانظر ص ٣٠٤ — ٣٠٥

١٢٤. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ١١١٥.

١٢٥. ابن عساكر، جـ١، ص ١٨٠.

تمثلت بالحنطة والزيت والعسل والخل وغيرها وتقديم الضيافة للمسلمين (١٢٦). هذا وقد شكا أهل الذمة لعمر بن الخطاب في الجابية وقالوا له: يا أمير المؤمنين ان ضيوفنا من المسلمين يكلفونا ما لا نطيق، يكلفوننا الدجاج والشاة. فقال: لا تطعموهم الا مما تأكلون ولا مما لا يحل لهم من طعامكم (١٢٧).

وهكذا فقد أدت هذه الفئة للمسلمين دوراً فاعلا أثناء الفتوحات الاسلامية، فقد سارعت هذه الفئة وطلبت الصلح من المسلمين وقدمت لهم خدمات في التجسس على البيزنطيين، وأدلاء للمسلمين، وتقديم الأرزاق للجند، وهي بهذا الدور لا تقل عن دور القبائل التي حاربت الى جانب المسلمين.

القسم الثالث

وهي التي كانت على النصرانية ولها نيّة فيها، وقد وقف هؤلاء الى جانب البيزنطيين، كما يذكر الأزدي (١٢٨) والواقع أن الدين لم يكن هو الدافع الرئيسي لهذه القبائل والتفافها حول البيزنطيين بمقدار ما هو نابع من العوامل التالية:

— إن بعض المتنصّرة قد حاربت إلى جانب الروم وهي مكرهة، فما أن سمع الروم بأنفاذ الجيوش الاسلامية حتى سارع البيزنطيون الى عقد الاجتماعات واشراك العرب المتنصّرة فيها والطلب منهم مقاومة هؤلاء الفاتحين (١٢٩). و يستدل على الجبرية التي كان يفرضها البيزنطيون من قول أهل فحل للمسلمين: «... وقد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا» (١٣٠) وفي حاضر قنسرين حيث كانت تقيم جيوش خالد بن الوليد قالوا: نحن عرب وقد حشرنا مع الروم ولم يكن من رأينا حربكم (١٣١).

---

١٢٦. قدامة، ص ٢٢٦؛ البلاذري، فتوح، ص ١٥٧.

١٢٧. ابن عساكر، جـ١، ص ١٨٠.

١٢٨. الأزدي، فتوح، ص ١٦٨.

١٢٩. انظر: الأزدي، فتوح، ص ٢٧ وما بعدها؛ الواقدي، فتوح، جـ١ ص ١٧؛ ابن عساكر، جـ١، ص ١٣٢؛ الديار بكري، تاريخ، جـ٢، ص ٢٥٠.

١٣٠. الأزدي، فتوح، ص ١١١ — ١١٢

١٣١. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٦٠١.

وهذه الاشارة تظهر في قول جبلة بن الأيهم نفسه الذي تزعم القبائل المتنصرة وحارب الى جانب اليرموك أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين المسلمين حيث قال: أخشى إن تركت حربكم وقتالكم، وكانت الدائرة للروم لا آمن أن يتقوا على بلدي لأن الروم لا ترضى مني الا أن أكون مقاتلا وقد أرسلوني على جميع العرب (١٣٢).

وهذه الاشارات تؤكد أن موقف هذه الفئة لم يكن نتيجة الالتزام الديني بل لا بد من البحث عن عوامل أخرى دفعت هذه القبائل الى الوقوف الى جانب البيزنطيين.

مصلحة هذه القبائل كانت تقتضي مثل هذا الموقف، فالقبائل التي خالجها الشك في انتصار المسلمين رأت من مصلحتها أن تقف الى الجانب الأقوى وهم البيزنطيون فما أدركت نفسها الا وقد غلب المسلمون على معظم بلاد الشام.

ومما يرجح ذلك كثيراً أن القبائل المتنصرة كانت تغير مواقفها من المسلمين كلما جمع الروم حشداً جديداً كفحل واليرموك، وكانت أكثر القبائل مصلحة بارتباطهم بالبيزنطيين هم الغساسنة لذلك أظهرت مقاومة بارزة في تدمر وحوارين (١٣٣) ومرج راهط (١٣٤) وغوطة دمشق بزعامة الحارث بن الأيهم (١٣٥). لما قدم خالد بن الوليد الى الشام. وفي أول وقعة عظيمة مع الروم وهي أجنادين «وقفت العرب المتنصرة الى جانبهم وحاربوا المسلمين هناك (١٣٦). والظاهر ان انتصار المسلمين في هذه الوقعة قد جعل القبائل المتنصرة تفكر جدياً في الوقوف الى أحد الجانبين، فكان ان انقسمت القبائل في الوقعة الهامة الثانية التي جاءت بعد أن واصل المسلمون الزحف على الطريق التجاري الذي يسير شرقي نهر الأردن عبر الأردن الى دمشق (١٣٧) وهي وقعة فحل الى قسمين:

١٣٢. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ١٧١.

١٣٣. البلاذري، فتوح، ص ١١٩ ــ ١٢٠.

١٣٤. البلاذري، فتوح، ص ١١٩ ــ ١٢٠؛ خليفة بن خياط، جـ١، ص ٨٧؛ الأزدي، فتوح، ص ٨٢؛ ابن خلدون، تاريخ، جـ٢، ٨٥؛ الديار بكري جـ٢، ص ٢٥٨.

١٣٥. المصادر السابقة.

١٣٦. ابن أعثم، الفتوح، جـ١، ص ١٤٣؛ قدامة، ص ٢٨٨؛ الديار بكري، تاريخ، جـ٢، ص ٢٥٩؛ الأزدي، ص ٨٤، ٨٥.

١٣٧. رنسيمان، تاريخ، جـ١، ص ٣٣.

ــ قسم سارع وانضم الى المسلمين من جميع قبائل بلاد الشام.

ــ قسم انتظر ما ينجلي عنه الموقف، وربما أنها عادت وغيرت موقفها بعد أن جاءت امدادات الروم الى فحل ما بين ٣٠ ــ ٤٠ ألفاً فوقف الجانب الذي كان محايداً الى جانب البيزنطيين ويؤيد ذلك ما ذكره ابن أعثم (١٣٨) حيث يقول: ــ كتب أبو عبيدة الى أبي بكر أن الروم قد أقبلت الينا ونزل أكثرهم بساحتنا وهم نزول بأرض يقال لها فحل وقد سارع أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب المتنصرة..» ورغم انتصار المسلمين بفحل الا أن «النفير الأعظم (١٣٩) الذي قام به الروم، وتراجع المسلمين من معظم المناطق التي استولوا عليها قد غير من موقف المتنصرة سيما التي سبق وان سالمت المسلمين، وهذا التغير لم يكن نابعاً عن القناعة بالنصرانية بمقدار ما هو متغير تبعاً لتغير المصالح لهذه القبائل.

لقد تزعمت غسان القبائل المتنصرة والتف حولها من كان على صدق نصرانيته أو من رأى أن مصلحته كانت تقتضي ذلك.

والتساؤل الذي يطرح نفسه هو موقف الغساسنة، هل كان نابعاً من الاتفاقية التي أبرمتها غسان مع البيزنطيين قبل فترة زمنية ومفادها: ان دهمهم (الغساسنة) داهم من العرب أمدهم الروم بأربعين ألف مقاتل بأدواتهم وأن دهم الروم داهم من العرب فعلى الغساسنة عشرون ألف مقاتل واشترطوا عليهم أن لا يدخلوا بينهم وبين فارس (١٤٠). أم هو نابع من العقيدة المسيحية للغساسنة، أم أن مصلحة الغساسنة كانت تقتضي ذلك؟ اذا نظرنا الى هذه التساؤلات يلاحظ ما يلي: ــ

ــ إن الاتفاقية مع الروم قد مضى عليها زمن طويل، ثم ان المسلمين استولوا على مناطق واسعة من بلاد الشام وأن الغساسنة قد خاضوا هذه المعارك الى جانب البيزنطيين، وبذلك قام الغساسنة بالوفاء بالتزامهم اتجاه الروم فلا داعي اذاً لمواصلة المقاومة حتى بعد أن أدرك الغساسنة عدم الجدوى من الوقوف الى جانب الروم.

١٣٨. ابن أعثم، الفتوح، جـ١، ص ١٨٧.

١٣٩. الأزدي، فتوح، ١٥٣.

١٤٠. المحبر، ص ٣٧١؛ ابن خلدون، تاريخ، جـ٢، ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠.

ــ بالنسبة للموقف الديني ، فالغساسنة أيضاً شأنهم شأن القبائل التي صالحت المسلمين و بقوا على مسيحيتهم فكانوا بالخيار أم اعتناق الاسلام أو دفع الجزية .

ــ والملاحظة الثالثة هي مصلحة الغساسنة التي اقتضت ذلك ، وهذه ربما تكون أقرب الأمور الى موقف الغساسنة ، فقد هال الروم فتح دمشق فجعلوا يجمعون الجموع و يستمدون من يليهم من نصارى العرب حتى صاروا في ثمانين ألفاً من النصرانية ، و بالرغم من أن بعضهم قد أقبل لينصر النصرانية على العرب (١٤١) إلا أن موقف الأكثرية كان نابعاً أما من الخوف أو بدافع المصلحة .

و يذكر الواقدي (١٤٢) : أن باهان (ماهان) هو الذي تولى اقناع جبلة بن الأ يهم ومن معه من العرب المتنصرة بالوقوف الى جانب الروم وقال له : ان ظفرتم بهم كان الملك مشتركاً بيننا و بينكم ، وتكونوا أقرب الناس الينا ، ونسلم اليكم ما منحه العرب من بلاد الشام ورغّبه بالعطاء وليّنه ، فصار يحرض على قتال المسلمين ، فأخبر قومه من بني غسان ولخم وجذام وغيرهم من العرب المتنصرة وأمرهم بأخذ الأهبة للحرب والقتال .

واتخذ جبلة من غوطة دمشق مركزاً لجمع العرب المتنصرة ، وهناك جاءته الرسل من المسلمين إلا أنه أصر على موقفه ، ولما كثرت عليه الرسل ر بط موقفه بموقف هرقل ، ولما سأله هشام بن العاص ــ وكان أبو عبيدة قد أرسله اليه ــ عن سبب لبسه للثياب السود قال : لبستها نذراً على أن لا أنزعها حتى أخرجكم من بلاد الشام (١٤٣) .

وقد اختلفت المصادر في عدد العرب المتنصرة التي شاركت يوم اليرموك فالواقدي (١٤٤) يذكر أنهم ستون ألفاً وابن أعثم (١٤٥) أر بعون ألفاً أما ابن عساكر (١٤٦) فقد ذكر اثنى عشر ألفاً وتابعه (١٤٧) رنسيمان ، ليرمي الروم العرب بالعرب (١٤٨) .

١٤١. الأزدي ، فتوح ، ص ١١١ ــ ١١٢ .
١٤٢. الواقدي ، فتوح ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .
١٤٣. ابن أعثم ، الفتوح ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .
١٤٤. الواقدي ، فتوح ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .
١٤٥. ابن أعثم ، الفتوح ، جـ ١ ، ص ١٢٥ ــ ١٢٧ .
١٤٦. ابن عساكر ، جـ ١ ، ص ١٦١ .
١٤٧. رنسيمان ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ٣٤ .
١٤٨. الواقدي ، فتوح ، جـ ١ ، ص ١٩٣ ، ٢٠١ .

وعلى خلاف ما يذكر رنسيمان (١٤٩) ان المتنصرة قد انحازت الى جانب المسلمين ، فقد أبدت المتنصرة مقاومة شديدة كشفت بها ميسرة المسلمين ، فعن حنظلة بن جو ية الكناني قال (١٥٠) : اني والله لفي الميسرة يوم اليرموك اذ مر بنا رجال من الروم على خيل من خيول العرب لا يشبهون الروم ، فما أنسى قول قائل منهم النجاء يا معشر العرب النجاء ، الحقوا بوادي القرى و يثرب ثم يرتجز .

في كل حين فئة تغير	نحن لنا البلقاء والسدير
هيهات يأبى ذلك الأمير	والملك المتوج المخبور

ونتيجة هذه المقاومة فقدت المتنصرة خمسة آلاف رجل وسيدين من سادات غسان هما رفاعة بن مطعم الغساني وشداد بن الأ وس (١٥١) .

و يظهر أن جبلة عندما رأى الأمور قد أدبرت عليه وانتهت اليرموك بانتصار المسلمين لجأ الى الغساسنة وقال : انتم اخوتنا و بنو أبينا (١٥٢) ثم عاد بعدها الى موضعه في جماعة من قومه فأرسل اليه يزيد بن أبي سفيان أن أقطع على أرضك بالخراج وإداء الجزية : فرفض جبلة وقال انما يؤدى الجزية العلوج وأنا رجل من العرب (١٥٣) .

والظاهر أن يزيد بن أبي سفيان قد ترك أمر جبلة الى حين قدوم عمر بن الخطاب حيث يذكر البلاذري (١٥٤) أن جبلة أتى عمر بن الخطاب وهو بالجابية ومقيم على النصرانية ، فعرض عليه عمر الاسلام أو أداء الصدقة فأبى وقال : أقيم على ديني وأؤدي الصدقة . فقال عمر أن أقمت على دينك فأد الجزية فأنف منها . وقال عمر : ما عندنا لك

١٤٩. رنسيمان ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ٣٤ .
١٥٠. الأزدي ، فتوح ، ص ٢٢٧ ؛ الاصابة ، جـ ١ ، ص ٣٨٢ ، جـ ٣ ، ص ٥٠١ .
١٥١. الواقدي ، فتوح ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .
١٥٢. البلاذري ، فتوح ، ص ١٤١ ــ ١٤٢ .
١٥٣. اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ .
١٥٤. البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٢ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ ؛ ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط ٢ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٩ . ص ٦٤٤ . سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا : المعارف ؛ الأصمعي ، تاريخ العرب ، ص ١١١ . ابن أعثم ، الفتوح ، جـ ١ ص ٣٠٢ ، ابن عبد الله ، العقد الفريد ، جـ ١ ص ٢٠٧

إلا واحدة من ثلاث : اما الاسلام واما أداء الجزية واما الذهاب الى حيث شئت فدخل بلاد الروم في ثلا ثين ألفاً .

وهكذا رأى جبلة وقد كان قبل فترة وجيزة ذا ملك مطاع في غسان . يجبي اليه خراج الشام (١٥٥) ، وتطيعه قبائل العرب فيها أنه كرجل عادي في دولة تجعل من السابقة الى الاسلام والتقوى حدا للمفاضلة بين الناس فاقتضت مصلحته متابعة الروم فخرج الى شمال سوريا ليبدأ المقاومة من جديد .

ورغم هذه المقاومة من قبل الغساسنة في شمال سوريا إلا أنها لم تكن قوية كما كانت في جنوب بلاد الشام وهذا يعود الى الاسباب التالية :

- المعاملة الحسنة التي أبداها جيش الفتح للمتنصّرة العرب .
- أن القبائل الشمالية قد أدركت ضعف موقفها ، وأنه لم يعد باستطاعتها مقاومة المسلمين .
- دخول كثير من العرب المتنصّرة في الاسلام ووقوفهم الى جانب المسلمين ، فعندما سار ابو عبيده الى حمص أمره عمر أن يستنجد بأهل القوة والجلد من عرب (١٥٦) .

لقد واجه المسلمون بعض المقاومة في حاضر قنسرين حيث مواطن تنوخ وسليح فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح ، لكن أهل قنسرين عادوا ونقضوا العهد بعد ذلك وربما كان ذلك بتحريض من الغساسنة . يذكر الواقدي (١٥٧) أن بطريق قنسرين قد أرسل إلى جبلة من بني غسان والعرب المتنصرة و بطريق عمورية في عشرة آلاف فارس فقاتلت غسان على جسر الحديد وهي تقول :

نحن بنو غسان ، من حزب الصليب والرهبان .

فوجه إليهم ابو عبيدة السمط بن الاسود الكندي فحاصرهم ثم فتح قنسرين .

وفي حاضر حلب أيضاً الذي كان يجمع اصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم لم يبدوا مقاومة تذكر، فصالحهم ابو عبيدة على الجزية ثم انهم اسلموا بعد ذلك . (١٥٨) أما في

١٥٥ . الأصمعي، تاريخ، ص ١١١ .
١٥٦ . الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٦٠١ .
١٥٧ . الواقدي، فتوح، جـ١، ص ١١٨ ؛ البلاذري، فتوح، ص ١٥٠ ؛ قدامة، ص ٣٠٣ .
١٥٨ . البلاذري، فتوح، ص ١٥١ ؛ ابن خلدون، تاريخ، جـ٢، ص ١٠٤ ؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٩، ص ١٦٠ .

حلب نفسها فقد اقام بها الف من العرب المتنصّرة ربما كان أكثرهم من الغساسنة الى جانب البيزنطيين ، ومن الجدير بالذكر أن يونس بن عمرو الغساني قد شارك الى جانب المسلمين في حصار حلب (١٥٩) .

اما أنطاكية فقد صالح أهلها على الجزية والجلاء ، فجلا بعضهم (١٦٠) وقام بعضهم وكذلك منبج و بالس وقاصرين (١٦١) . ولقي المسلمون مقاومة في درب بغراس (١٦٢) ودرب تفليس (١٦٣) حيث لقي المسلمون جموع الروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم مسروق العبسي وقتل منهم مقتله عظيمة .

وأمام انتصارات المسلمين لم يبق امام الغساسنة الا المضي نحو الروم ، فدخل بعضهم وأقاموا هناك (١٦٤) أو العودة الى المسلمين كيزيد بن الاسود الغساني الذي عاد على راس طائفة من المسلمين . (١٦٥)

أما القبائل الأخرى فيذكر صاحب نشوة الطرب ان بعض كلب قد دخلت الروم فكانوا بها ضاحية (١٦٦) وحاولت اياد ان تدخل الى الروم فتهدد عمر الروم ان لم يخرجوهم ، فأخرجتهم . (١٦٧)

ولم يتوقف دور هذه القبائل على قتال المسلمين بل مارست ايضا أعمال التجسس على المسلمين خاصة عرب الغساسنة (١٦٨) . وقد القى القبض على بعضهم في حلب فضربت رقابهم (١٦٩) . ومما تقدم نرى أن دور المتنصرة في الفتوحات الاسلامية تمثل باتجاهات ثلاثة :

١٥٩ . الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٢٥٤، ٢٧٦ .
١٦٠ . البلاذري، فتوح، ص ١٥٢ .
١٦١ . البلاذري، فتوح، ص ١٥٥ ؛ قدامة، ص ٣٠٥ .
١٦٢ . البلاذري، فتوح، ص ١٦٠ ؛ النويري، نهاية الأرب، جـ١٩، ص ١٦٧
١٦٣ . ابن خلدون، جـ٢، ص ١٠٥ .
١٦٤ . ابن سعيد، نشوة الطرب، جـ١، ص ٢٠٨ .
١٦٥ . الاصابة، جـ٣، ص ٦٧٣ .
١٦٦ . ابن سعيد، نشوة الطرب، جـ١، ص ١٧٢ .
١٦٧ . النويري، نهاية الأرب، جـ١٩، ص ١٧٦ .
١٦٨ . ابن عساكر، جـ١، ص ١٤٢ .
١٦٩ . الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٢٦٩ وما بعدها .

الأول : وهو دخول بعض المتنصّرة في الإسلام وقتالهم الى جانب المسلمين.

الثاني : وقوف بعض القبائل على الحياد، لكنها قدمت بطريق أخرى جُلّى للمسلمين في مجال التجسس والدلالة على الطرق والتموين.

الثالث : هو وقوف بعض القبائل المتنصرة الى جانب البيزنطيين من أجل مصالحهم الخاصة وليس نابعاً من عقيدة دينية عند هؤلاء.

تموين الجيوش العربية الاسلامية أثناء فتوح بلاد الشام

نقولا زيادة
بيروت ـ لبنان

(١)

تحدثنا في بحث سابق (١) عن التحصينات التي أقامتها الامبراطورية الرومانية في الجهات الشرقية من بلاد الشام والتي اهتمت بها الدولة البيزنطية فيما بعد، كما تحدثنا عن التقسيمات الادارية التي انتهت إليها بلاد الشام في عصر جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥). ونود أن نورد هنا خلاصة لخاتمة ذلك البحث بسبب ارتباط ذلك بما نحن مزمعون على التحدث عنه في هذا البحث.

١ ـ كان للدولة البيزنطية، بحسب وثيقة تعود الى أوائل القرن الخامس للميلاد، على طول الحدود الشرقية للمنطقة الممتدة من شرقي بلاد الأناضول والجزيرة الفراتية الى البتراء، نحو ٨٠٫٠٠٠ جندي بين فارس وراجل. كان عمل هؤلاء، فضلا عن الاهتمام بالأمن الداخلي، هو المحافظة على الحدود الشرقية.

٢ ـ نتيجة لتنظيمات إدارية متعددة بدأت أيام الامبراطور الروماني ديوقلتيان (٢٨٤ ـ ٣٠٥) وانتهت في عصر جوستنيان، أصبحت بلاد الشام مقمسة إلى ثماني ولايات.

٣ ـ انشأ ديوقلتيان طريقاً من بصرى إلى سوريا على الفرات كان تتمة للطريق الذي بناه تراجان (بعد احتلال البتراء سنة ١٠٦م) من العقبة الى بصرى، و بذلك أصبح تنقل الجنود (والتجار طبعاً) أيسر من ذي قبل.

٤ ـ أقام ديوقلتيان حصوناً وقلاعاً جديدة (كما قوى الحصون والقلاع القديمة) في أماكن استراتيجية مثل قرقيسيوم (قرقيسيا) وتدمر وقر بشير واللجون واوغستو بوليس (اذرح) وغيرها.

---

١. نقولا زيادة، «التطور الاداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب» بحث قدم الى المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام من مطلع العهد البيزنطي الى أواخر العهد الأموي. عمان ـ الجامعة الأردنية، ١٥ ـ ٢١ تشرين أول ١٩٨٣م، ١٥ ـ ١٩ محرم ١٤٠٤هـ. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: نقولا زيادة، التطور الأداري.

إلا أن الحروب التي شنها جستنيان في شمال افريقية وايطالية استنزفت موارد الدولة، فأهملت العناية بخطوط التحصين المذكورة. ولكن أهم من ذلك، بالنسبة إلى تهافت خط الدفاع بأكمله تقريبا، هي الحروب التي قامت بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية في أيام هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١) والتي تم خلالها احتلال الساسانيين لبلاد الشام سبع عشرة سنة. ولما استعاد هرقل البلاد من خصومه، كانت المنطقة الشرقية من بلاد الشام بشكل خاص، (و بلاد الشام عامة) قد أصيبت بالاهمال والاضطراب. ومن ثم يمكن القول بأن التقسيم الاداري لبلاد الشام والتنظيم التخطيطي كانا قد تأكلا. فعدد الأماكن المحصنة كان يزيد عن الثلاثين في سنة ٣٢٤ فأصبح أقل من عشرة مواقع (ضعيفة التحصين) سنة ٦٤٠.

٥ ــ كانت ثمة أماكن كثيرة في المنطقة الشرقية من بلاد الشام تحمل اسم مدن، لكنها لم تكن في الواقع سوى قرى أو بلدان صغيرة منحت درجة «مدينة» لأسباب مختلفة (عرضنا لها في البحث المذكور آنفا). وهذه «المدن» كان يتوجب عليها الانفاق على القوى المحلية (الموكل إليها أمر الحراسة والدفاع) من مواردها الخاصة (أما الفرق العسكرية والتشكيلات التابعة للادارة المركزية، التي أصبح عددها قليلا نسبياً، فكان الانفاق عليها يقع على كاهل الدولة).

٦ ــ وفي هذه «المدن» كانت السلطة، في غالب الاحيان، محلية أو تابعة لنفوذ زعماء القبائل القريبة منها.

(٢)

كانت بلاد الشام، في القرن السادس للميلاد (ومطلع القرن السابع) قد عرفت عدداً من القبائل العربية التي استقرت في المنطقة الشرقية من الشمال إلى الجنوب. بعض هذه القبائل كان قد وصل الى تلك الربوع قبل ذلك بمدد طويلة متفاوتة وكان قد أقام دولا كبيرة مثل دولة الأنباط في البتراء ودولة التدمريين في تدمر، ومثل الجماعات التي أقامت الحضر (على مقربة من الموصل). لكننا نريد أن نشير إلى الفترة التي تعنينا بشكل خاص. ففي القرن السادس وصلت قبائل من حمير وكندة وسليح وغسان (قبل ذلك) وقضاعة في الأردن وجنوب فلسطين. فمن تحالف قضاعة، مثلا، نجد أن قبيلة لخم قد استقرت في العريش وغور الأردن وجنوب فلسطين حتى مدينة الخليل، أما قبيلة جذام، من التحالف نفسه، فقد استقرت في أيلة (العقبة) ومعان وغور الأردن (٢) وقد كان قبل ذلك للأيطوريين دولة في البقاع. على أن المهم أن نعرف أن حمص، مثلا، كانت منذ القرن السادس إما مركزاً لامارة عربية أو خاضعة لنفوذ القبائل العربية المجاورة لها. و يمكن القول إجمالا بأن القبائل العربية كانت

٢. Traif Khalidi (ed.)
Land Tenure and Social Transformation, Beirut, 1984. pp. 181 — 186.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:
Khalidi, Land Tenure.

تؤلف الجزء الأساسي من سكان سورية وفلسطين والأردن (٣).

وقد أخرج طريف الخالدي أن بعض أثرياء التجار المكيين قد تملكوا الأراضي في منطقة البلقاء في الأردن في القرن السادس. فقد كان أبو سفيان يملك أرضاً تسمى بقو بش، كما كانت عشيرة أبي معيط من بني عبد شمس لها مثل ذلك في المنطقة التي أصبحت فيما بعد الفتح المكان الذي أقيمت فيه القصور الأموية. (٤)

ونود أن نذكر أنفسنا بأن المناطق الشرقية من بلاد الشام كانت تتكلم العربية، فيما كانت المناطق الزراعية حيث تقوم المدن والقرى تستعمل الآرامية/ السريانية لغة التخاطب. (هذا مع العلم بأن اللغة اليونانية واللغة اللاتينية كانتا معروفتين أكثر في المدن الساحلية وفي المدن العشر).

ولا شك أن استعمال سكان المناطق الشرقية من بلاد الشام للغة العربية جعل الاتصال بينهم و بين سكان الجزيرة أسهل. على أن أساس الاتصال هو ارتباط المصالح التجارية بين سكان المدن الحجازية والمراكز الواقعة إلى الشمال من تلك المنطقة. وهي مصالح كانت ذات أهمية كبرى قبل الفتوح و بعدها.

(٣)

بين سنتي ٦٣٣/١٢ و٦٤٨/٢٧ تم للجيوش العربية الاسلامية القادمة من الجزيرة فتح بلاد الشام بأكملها ــ ريفاً ومدناً (وحصوناً) وساحلا.

ونحن، في هذا البحث، نود أن نتناول السبل التي اتبعت في تزو يد الجيوش بحاجتها من المؤن والسلاح، أي تمو ين الجيوش. على أننا قبل ذلك نود أن نضع الملاحظ التالية أمام القارىء:

١ ــ أن البعوث التي تم ارسالها في أيام الرسول (ص) كانت، ولا شك، إشارة إلى الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الفتوح. وهذه البعوث هي إلى ذات الأطلاح (ربيع الأول ٨/ تموز (يوليو) ٦٢٩، وإلى مؤته (جمادي الأولى ٨/ أيلول (سبتمبر) ٦٢٩، والى تبوك (رجب ٩/ تشرين الأول (اكتوبر) ٦٣٠. ــ وثمة رواية تقول بأن هذا البعث بالذات وصل الى دومة الجندل (الجوف الحالية).

٢ ــ عني كثير من الباحثين من المؤرخين العرب القدامى والمحدثين والمستشرقين بدرس

٣. Fred McGraw Donner,
The Early Islamic Conquests, Princeton, 1981, p. 95. Citing A.A. Vasiliev (note 8 of C. III, p. 302) pp. 102 — 111.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:
Donner , The Early Islamic

٤. طريف الخالدي: المكان المذكور سابقاً.

البواعث والأسباب والعوامل الفعالة التي أدت إلى إرسال الحملات المختلفة إلى بلاد الشام والعراق. على أن هذه الأمورلن تكون موضع عنايتنا (إلا إذا ارتبطت بالتمو ين). إلا أننا نحيل القارىء إلى الدراسة الحديثة التي وضعها دونر حول الفتوح الاسلامية المبكرة، والاسباب التي دعت اليها.

Fred M.Donner — The Early Islamic Conquests Princeton, 1981

تراجع بشكل خاص الصفحات (٣ ـ ٩ و٥١ ـ ٩٠).

٣ ـ يعرف كل من نقب في المظان العربية الأصلية عن الحملات إلى بلاد الشام (وهي التي تعنينا الان) الصعوبات التي يجدها الباحث في التوفيق (إن أمكن ذلك) بين الروايات المتناقضة التي نقلها قدامى المؤرخين. ونحن لسنا معنيين بهذا الأمر مباشرة في هذا البحث. لكننا نحيل القارىء إلى ما توصل إليه دونر المذكور في كتابه الآنف الذكر. (تراجع الصفحات ٩١ ـ ١٥٥).

٤ ـ نود أن نشير إلى قصة هامة تتعلق بتطور استعمال الجمل وسيلة للنقل حوالي نهاية القرن الخامس أو أوائل القرن السادس للميلاد. ذلك بأن سكان الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية كانوا قد توصلوا إلى صنع «رحل» خاص يربط إلى ظهر الجمل بطريقة تمكن راكبه من تحرير يديه الاثنتين للاستعمال، بدل أن تكون إحداهما ممسكة بالرحل. هذا الرحل الذي يسمى «الرحل الشمالي» والمعروف عند العرب باسم «شداد» كان له أثر كبير في زيادة القوة النقلية والحربية للجمل [٥].

ولنعد الآن إلى الفتوح لنشير إلى أنه يمكن تقسيمها، بشكل عام الى ثلاثة أدوار:

الدور الأول : يشغل سنتي ١٢ و١٣/ ٦٣٣ و ٦٣٤. الجيوش التي أرسلها أبو بكر، سواء كانت ثلاثة أم اربعة، كانت غايتها الاستيلاء على الريف الشرقي في بلاد الشام. و يمكن القول بأنه لم تقع فيها معارك كبيرة، و بأنها حققت ما أرسلت من أجله. وفي هذا الدور كانت المدن الرئيسة خارج مخطط القتال [٦].

الدور الثاني : شغل السنوات ١٣ ـ ١٦/ ٦٣٤ ـ ٦٣٧. يبدأ هذا الدور بوصول خالد بن الوليد من العراق. في هذا الدور تقدمت الجيوش البيزنطية جنوباً، وكانت ثمة مقاومة مركزة على أيدي هذه الجيوش. وفي هذا الدور قامت المعارك الرئيسية بين العرب والبيزنطيين ـ أجنادين وفحل واليرموك، كما أن الجيوش العربية احتلت المدن الرئيسة في جنوب بلاد

---

٥. Richard W. Bulliet, The Camel and the Whell, Cambridge, Mass., 1975, pp. 87-110. Bulliet : The Camel.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:
Bulliet: The Camel

٦. Donner, The Early Islamic, pp. 111 - 119.

الشام ـ بصرى وفحل وغزة و بيسان وحمص و بعلبك ودمشق (كان احتلال هذه المدن الثلاث، على ما يبدو، مؤقتاً) [٧].

الدور الثالث : يمتد من ١٦/٦٣٧ الى ٢٧/٦٤٨. كانت المقاومة البيزنطية (الرسمية) العسكرية قد انهارت تماماً، وانسحبت فرق بيزنطية الى الشمال من بلاد الشام اولا، ثم من بلاد الشام بأسرها. وهنا جاء دور الريف السوري الشمالي والمدن التي فتحت على انفراد. فدمشق وحمص و بعلبك أعيد فتحها ثم جاء فتح حماة وقنسرين وحلب والقدس وقيسارية (وهي آخر مدينة فلسطينية فتحها العرب) وصور وصيدا و بيروت واللاذقية وانطاكية الخ. [٨]

وهنا مكان للاشارة إلى أمور خاصة تتعلق بفتح بلاد الشام (بالمقارنة بفتح أرض الرافدين). وأول هذه الأمور أن المعسكرين الرئيسيين للجيوش العربية كانا في الجابية وحول اللد (في المنطقة التي بنيت فيها الرملة فيما بعد). على أن هذين المعسكرين لم يبلغا ما بلغته الكوفة والبصرة. و يعزو الباحثون هذا الوضع إلى أن الجيوش البيزنطية المنسحبة من بلاد الشام كان يخرج معها الكثير من السكان من الروم، لذلك كانت ثمة منازل كثيرة خالية هي التي استوطنها العرب المقاتلة. [٩]

ثانياً ـ يبدو أن طاعون عمواس الذي اصاب بلاد الشام حوالي سنة ١٨/٦٣٩، قضى على الكثيرين من المقاتلة. فقد نقل دونر أن عدد الجنود في الجابية كان ٢٤ر٠٠٠ قبل الطاعون، فأصبح بعده ٤ر٠٠٠ فقط، على أنه قد يكون عدد من الجنود قد نقلوا إلى أماكن أخرى قبل أن يصيبهم الطاعون. [١٠]

ثالثاً ـ يظهر من مختلف الروايات ان الجيوش الأولى التي أنفذها أبو بكر إلى بلاد الشام بلغ مجموع أفرادها نحو العشرين الفا، وان المدد الذي كان يرسل بلغ الأربعة الاف. [١١] وهذا قبل أن يصل خالد ومعه جماعة صغيرة نسبياً، وقبل أن ترسل الامدادات الأخرى. إذ أن عدد المقاتلة في أكبر معركة وقعت في بلاد الشام ـ اليرموك ـ بلغ، على أبعد تقدير، أربعين ألفا.

رابعاً ـ حري بالذكر أن البصرة والكوفة كانتا معسكرين ترسل منهما الجيوش الى

---

٧. Ibid, pp. 128 - 148.

٨. Ibid, pp. 148-155.

٩. البلاذري، أبو العباس، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، ٣ ق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٥٦م ق ١، ص١٤٧.
سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛
Donner : The Early Islamic, pp. 245-6.

١٠. Donner, The Early Islamic, p. 245.

١١. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٢٩..

الشرق، وكانت ثمة هجرة قبائل إليهما. أما بلاد لشام فلم يكن فيها معسكر لارسال الجيوش إلى بلاد أخرى. فالجيش الذي قاده عمرو بن العاص لفتح مصر كان الجيش الوحيد الذي انطلق من بلاد الشام. إذ أن الامدادات التي تلت ذلك كانت تنتقل من الحجاز إلى مصر عن طريق سيناء مباشرة.

(٤)

لعله من المفيد أن نشير هنا الى مواعيد سير الجيوش الأولى ووصول خالد حول دمشق والمعارك الرئيسية التي اشتبك العرب فيها مع البيزنطيين:

١ ـ يظهر أن إنفاذ الجيوش أيام أبي بكر كان في رجب ١٢/خريف ٦٣٣.(١٢)

٢ ـ وصل خالد بن الوليد حول دمشق في صفر ١٣/ نيسان (ابريل) ٦٣٤، وكان ذلك في عيد الفصح.(١٣)

٣ ـ كانت معركة أجنادين في جمادي الأولى ١٣/ آخر تموز (يوليو) ٦٣٤.(١٤)

٤ ـ وكانت معركة فحل في ذي القعدة ١٣/كانون الثاني (يناير) ٦٣٥.(١٥)

٥ ـ أما معركة اليرموك فقد وقعت في رجب ١٥ /آب أيلول (اغسطس ـ سبتمبر) ٦٣٦.(١٦)

٦ ـ كان بين المقاتلة (أثناء سير الجيوش) عناصر لا تعتبر عسكرية، مثل النساء والاطفال، لكن العدد كان محدوداً. «والعيالات» كانت تظل في مأمن خلف خطوط القتال. وقد قام هؤلاء بوظائف مهمة كان لها أثر في دعم المقاتلة، مثل العناية بالانعام التي كانت توفر الحليب واللحم للجنود، والعناية بالجرحى. أما عند اشتداد وطيس القتال فقد كانت النساء يقمن برد من يخرج من القتال جبنا، فيعود تحت تقريع النساء أو حتى ضربهن بالحجارة أو بالعصى.(١٧)

١٢. Donner, The Early Islamic, p. 113.

١٣. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٣٢، ص ١٤٤..

١٤. Donner, The Early Islamic, p. 128.

١٥. Donner, The Early Islamic, p. 128.

١٦ Ibid, p. 129.

Ibid, pp. 222 — 3.

(٥)

نأتي الآن الى الجزء الأساسي من هذا البحث وهو كيف كانت تمون الجيوش التي قامت بفتح بلاد الشام خلال الفترة بين سنتي ١٢ و٢٧/٦٣٣ و٦٤٨.

ولنبدأ بالدور الأول من الفتوح (أي في سنتي ١٢ و١٣/٦٣٣ و٦٣٤) الذي كانت الغاية منه الاستيلاء على الريف (البدوي) الشرقي لبلاد الشام وفي جزئه الجنوبي بخاصة. وهنا لا بد لنا من أن نتذكر أن المنطقة التي كانت أكثر الجيوش تتجه نحوها أو تجتازها كانت غنية بالحيوانات الصالحة للصيد(١٨) فكان باستطاعة الجنود إذا إحتاجوا إلى اللحوم ان يصطادوا ما يشاؤون. ولعل ما نقله دونر عن ابن عساكر من أن الجند كانوا يحملون معهم السلاح وكانت الخيول ترافقهم، لكن لم يكن معهم لا حمير ولا خراف، مما يؤيد أنهم كانوا يعرفون تماماً ما قد يجدون في طريقهم.(١٩) يضاف الى هذا أن الجيش كان يحصل على حاجاته من المؤن من الذي يصيبه لقاء انتصاره من غنيمة وفيء كانا يوزعان على الجنود مباشرة. وحتى قبل الحصول على هذين كان القائد، ولو في حالات محدودة يغير على مواشي أهل المنطقة التي يصل إليها ليؤمن حاجة جنده، فقد أغار خالد بن الوليد، وهو في طريقه من العراق إلى الشام، على مواشي أهل حوارين قبل أن يصالحوه.(٢٠) ولما أتى تدمر امتنع اهلها وتحصنوا ثم طلبوا الأمان فأمنهم على أن يكونوا ذمة وعلى أن قروا المسلمين ورضخوا.(٢١)

أما في الدورين الثاني والثالث من الفتوح (١٣ ـ ٢٧/ ٦٣٤ ـ ٦٤٨) فقد كانت المعاهدات التي تعقد بين القواد الفاتحين والمدن هي التي تعين، في بعض الأحيان، ما يترتب على المدينة المفتوحة للجنود (هذا غير الجزية النقدية).

فلما فتح خالد بن الوليد بصرى صالح أهلها على أن على كل حالم دينارا وجريب حنطة.(٢٢) ولما فتح أبو عبيدة مآب (مؤاب) صالح أهلها على مثل صلح بصرى.(٢٣) أما في صلحه مع أهل دمشق فقد اشترط خالد بن الوليد أن يدفع كل رجل ديناراً وجريب حنطه وخلا وزيتاً لقوات المسلمين.(٢٤)

١٨. فواز أحمد طوقان، الحائر: بحث في القصور الأموية في البادية طبع على نفقة وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩.
ص ٢٦٥ ـ ٣٤٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فواز، الحائر

١٩. Donner, The Early Islamic, p. 119.

٢٠. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٣٢

٢١. المصدر نفسه.

٢٢. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٣٤

٢٣. المصدر نفسه.

٢٤. المصدر السابق، ق ١، ص١٤٨.

ولما وصل المسلمون حمص أمنوا سكانها وكفوا أيديهم عنها «فأخرجوا لهم العلف والطعام وأقاموا على الارنط (نهر العاصي)».[٢٥]

ولعل في الرواية التي اوردها البلاذري عن فتح عياض بن غنم للرقة ما يوضح الكثير من هذه الامور. قال البلاذري: «فانتهت طليعة عياض الى الرقة، فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب، وعلى قوم من الفرحين فأصابوا مغنماً، وهرب من نجا من أولئك فدخلوا مدينة الرقة. وأقبل عياض في عسكره حتى نزل باب الرها، وهو أحد أبوابها، في تعبئة. فرمي المسلمون ساعة حتى جرح بعضهم. ثم انه تأخر عنهم لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم، وركب فطاف حول المدينة، ووضع على أبوابها روابط، ثم رجع الى عسكره و بث السرايا. فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى و بالاطعمة الكثيرة، وكانت الزروع مستحصدة فلما مضت خمسة أيام أو ستة، وهم على ذلك أرسل بطريق (بتريكيوس) المدينة ألى عياض يطلب الأمان. فصالحه عياض على أن أمن جميع أهلها على انفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم. وقال عياض: الأرض لنا وطئناها وأحرزناها، فأقرها في أيديهم على الخروج ودفع منها ما لم يرده أهل الذمة ورفضوه إلى المسلمين على العشر، ووضع الجزية على رقابهم، فألزم كل رجل منهم ديناراً في كل سنة (واخرج النساء والصبيان) ووظف عليهم مع الدينار اقفزة من قمح وشيئا من زيت وخل وعسل.[٢٦]

في سنة ١٦ (أو ١٧)/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨ جاء عمر بن الخطاب الجابية.[٢٧] وقد كان اشتراط صفرونيوس ان لا يسلم القدس الا للخليفة. أحد الأسباب لمجيئه. لكن الخليفة كانت لديه مشاغل اخرى تنتظر الحل. منها قسمة الغنيمة التي تراكمت بسبب معركة اليرموك وغيرها؛ ومنها توزيع الصوافي ـ أي المساكن التي خلت من اصحابها وما إليها ـ مما فرغ بسبب هجرة الجنود البيزنطيين والروم من السكان؛ ومنها تنظيم أمر الجيوش والمسالح للخفارة على الحدود؛ ومنها ترتيب أمر العطاء والرزق. وكان الرزق، على ما يبدو، يشمل الخبز والزيت والخل.[٢٨]

وهذه الزيارة جاءت قبل أن يتم فتح بلاد الشام. ولعل هذا ما يفسر رواية البلاذري من أن عمر كتب فيما بعد إلى أمراء الأجناد «يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى، وان يجعلوها على أهل الورق على كل رجل أربعين درهما، وعلى اهل الذهب أربعة دنانير؛ وعليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مديان حنطة وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة، وجعل عليهم ودكاً وعسلا لا أدري كم هو».[٢٩]

---

٢٥. المصدر السابق، ق ١، ص ١٥٥.

٢٦. **البلاذري، فتوح، ق ١، ص ٢٠٥.**

٢٧. Donner, The Early Islamic, p. 152.

٢٨. Ibid, pp. 151 - 2.

٢٩. **البلاذري، فتوح، ق ١، ص١٤٨، الودك: هو الدسم من اللحم والشحم.**

ومثل هذا الأمر اليومي، إذا جاز استعمال مثل هذا التعبير، كان يتفق مع سياسة عمر في أن لا يعمل المقاتلة في الزراعة. ومن ثم فكان من الضروري تأمين الحاجات الغذائية الأساسية.

نحسب أن هذه الأمثلة توضح لنا الوسيلة التي كان القواد وأمراء الأجناد يتبعونها لتأمين الحصول على المؤن اللازمة للجنود.

والجنود كانوا إما مشاة، وعدتهم السيف والقوس، واما فرسانا وسلاحهم الرمح. والذي عليه الباحثون هو أن المقاتلة ـ مشاة كانوا أم فرسانا ـ كانوا يزودون انفسهم بالسلاح اللازم و بالخيل اللازمة. وهذا يفسر ما هو معروف من أن نصيب الفارس من الغنائم كان ضعفي نصيب الراجل.[٣٠]

لم نبحث في التنظيم العسكري للجيوش الفاتحة، لأن هذا خارج عن خطة بحثنا.[٣١]

---

٣٠. الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م. ص ١٤٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: **الماوردي، الأحكام.**

٣١. Donner, The Early Islamic, pp. 221 — 250.

الفروض العينية ـ الضيافة والأرزاق ـ كمصدر لتمويل جيش الفتح

فالح حسين
كلية الآداب ـ الجامعة الاردنية

من البديهي أن تستند التدابير الإسلامية الأولى في البلاد المفتوحة إلى سوابق نبوية في حالة وجود مثل هذه التدابير، ولمعالجة موضوعنا نجد سابقة الضيافة التي فرضها الرسول الكريم (ص) لغايات تبدو عسكرية، أو قبوله مواد عينية بدلاً من الجزية النقدية وذلك لتأمين حاجات المسلمين من الثياب على سبيل المثال.

فحاجة الدولة فرضت من البدء أن تطلب من أهل الذمة المواد العينية فنجد في صلح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع أهل نجران ذكر الحلل والقرى وجواز دفع الخيل والدروع والركاب عوضاً عن الحلل(١)، فكان أساس صلح نجران هو المواد العينية (الحلل) لأسباب عسكرية(٢)، كما طلب من أهل نجران مساعدة المسلمين بالمواد العينية التي تستخدم في الحرب (إن حصل في اليمن كيد) وهي العارية التي حددت في

---

١. أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)، الخراج، دار المعرفة بيروت، ١٩٧٩، صورة بالأوفست عن طبعة بولاق ١٣٠٢هـ، ص ٧٢. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو يوسف، الخراج؛ أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٧٢، ص ٢٧٥. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو عبيد، الأموال؛ ابن سعد، محمد بن منيع (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) الطبقات الكبرى، تحقيق ادوارد سخاو، صورة بالأوفست عن طبعة بريل ١٣٢٢هـ، منشورات مؤسسة النصر، طهران، ٨ج، جـ١، قسم ٢، ص ١٣٦. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات؛ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق: دي غويه، بريل، ليدن، ١٩٦٥. ص ٦٤، ص ٦٥. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛ قدامة بن جعفر، (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، نشر وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سلسلة كتب التراث (١١٠) بغداد، ١٩٨١، ص ٢٧٢. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة بن جعفر، الخراج.

٢. الدوري، عبد العزيز، النظم الإسلامية. بغداد، ١٩٥٠، ص ١٤٤ وسنشير إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، النظم.

الصلح من الدروع والخيول والإبل[٣]. ونجد في كتاب رسول الله (ص) إلى معاذ في اليمن أنه يطلب منه أخذ الجزية النقدية (أو عدل ذلك من المعافر، والمعافر ثياب لهم)[٤]، ويبين معاذ أن أخذ المواد العينية (أنفع للمهاجرين بالمدينة)[٥] أي أنه يستخدم لسد حاجات المسلمين، ومن هنا جاء قوله (ص) (أو عدله من المعافر) فقد كان الرسول يقسم ما يأتيه من الأقبية بين أصحابه[٦] ويذكر أن معاذاً قال لأهل اليمن (ائتوني بخميس أو لبيس، كناية عن الطعام واللباس)[٧]، وبقي الأمر كذلك في عهد عمر، فقد جاءت حلل من اليمن فأعطى عمر أصحاب رسول الله وأخذ لنفسه حلة[٨]. حتى أن بعض عهود الرسول كانت تركز على المواد العينية كما حصل في سرية خالد إلى دومة الجندل (فقد صالح خالد صاحبها على ألفي بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح) فأخرج الرسول (ص) خمسها ثم قسم الباقي بين المسلمين[٩]. وهذا يبين حرصه على تموين الجيش بالسلاح من الجماعات التي يصالحها إذا تمكن من ذلك.

---

٣. ابن سعد، الطبقات، ق ٢، ص ٣٦؛ البلاذري، فتوح، ص ٦٤؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٧٢.

٤. أبو يوسف، الخراج، ص ٦٧؛ يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) الخراج، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط ٢، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٤هـ، ص ٦٨. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: يحيى بن آدم، الخراج؛ البلاذري، فتوح، ص ٧١؛ أبو عبيد: الأموال، ص ٣٨؛ الخزاعي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٧٨٩هـ/١٣٨٧م) تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله (ص) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة، نشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة، ١٩٨٠، ص ٥٢٣. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخزاعي، تخريج الدلالات؛ الدوري، النظم، ص ١٠٣.

٥. أبو عبيد، الأموال، ص ٦٣.

٦. الخزاعي، تخريج الدلالات، ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣.

٧. ابن قيم الجوزية، أبو عبيد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) أحكام أهل الذمة، ٢ج، تحقيق، صبحي الصالح، دمشق، ١٩٦٣، جـ١، ص ٣٧. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة.

٨. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٤م) تهذيب تاريخ بن عساكر، ٧ج، دمشق مطبعة روضة الشام، الأجزاء ٣، ٤، ٥، ١٣٢٩ ــ ١٣٢٢هـ. دمشق، مطبعة الترقي والأجزاء ٦، ٧، ١٣٥٠ ــ ١٣٥١. ج ٥، ص ٤٣. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر: التهذيب.

٩. الواقدي: أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢هـ)، المغازي، ٣ج، تحقيق مارسدن جونس، مطبعة جامعة اكسفورد، لندن ١٩٦٦. ج ٣، ص ١٠٢٧ ــ ١٠٢٩. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، المغازي.

أما الضيافة التي عرفها المسلمون من أيام رسول الله (ص) عندما طبقها بعد أن استطاع إنشاء نواة لكيانه السياسي والعسكري في الجزيرة العربية لما بدأت دعوته تلقى نجاحها الأوسع بعد فتح مكة. فنراها (أي الضيافة) في عهود الصلح بينه (ص) وبين بعض الجماعات خاصة البعيدة منها عن المدينة في جنوب وشمال الجزيرة. فقد جاء في صلح رسول الله (ص) مع بارق (ومن مر بهم من المسلمين في عرك أو جذب فله ضيافة ثلاثة أيام)[١٠]. وبالنسبة لصلح نجران أيضاً نجد فيه الضيافة بوضوح (وعلى نجران مثواة رسلي عشرين يوماً فدون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر)[١١] ويذكر البلاذري أن الضيافة حددت بشهر فما دونه[١٢]. وكانت الضيافة في صلح نجران هي الأصل فيما بعد كما يرى البعض (فهذا هو الأصل في وجوب الضيافة على أهل الذمة[١٣]. ونجد الضيافة أيضاً في صلح تبالة وجرش (فأقرهم رسول الله على أن فرض على كل حالم ممن فيهما من أهل الكتاب ديناراً، واشترط عليهم ضيافة المسلمين[١٤] وكذلك الحال في صلح إيلة اشترط عليهم قِرىً من مر بهم من المسلمين)[١٥] وذلك حين صالحهم رسول الله في العام التاسع للهجرة وهو في تبوك. وفي صلح مقنا ما يدل على تركيز رسول الله (ص) على المواد التموينية بناء على صلحه معهم[١٦].

وبذلك نرى أن الرسول (ص) هو الذي أدخل مبدأ الضيافة للضرورة التي

---

١٠. ابن سعد، الطبقات، ج ١، ق ٢، ص ٣٥، ويوضح ابن سعد الجدب: أن لا يكون مرعى. والعرك: أن تخلي إبلك في الحمص خاصة فتأكل حاجتها.

١١. ابن سعد، الطبقات، ج ١، ق ٢، ص ٣٦؛ ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، جـ٢، ص ٧٨٠ ــ ٧٨١.

١٢. البلاذري، فتوح، ص ٦٤.

١٣. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، جـ٢، ص ٧٨٠ ــ ٧٨١.

١٤. البلاذري، فتوح، ص ٥٩؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٦٩ (عن الزهري).

١٥. البلاذري، فتوح، ص ٥٩؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) اختلاف الفقهاء: كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين، تحقيق يوسف شاخت، بريل، ليدن ١٩٣٣، ص ٢٠٩. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، اختلاف؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٧٠؛ ياقوت، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، ٥ح، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥ ــ ١٩٥٧، ج ١، ص ٢٩٢. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، المعجم،

١٦. البلاذري، فتوح، ص ٢ ــ ٦؛ ياقوت، المعجم، ج ٥، ص ١٧٨.

صارت عسكرية كما أنه فرض المواد العينية لأسباب تموينية (١٧).

وقد فهم بعض الفقهاء غرض الضيافة أيضاً على أنها كانت بالدرجة الأولى لغايات تموينية، إذ أن فيها مصلحةً لأغنياء المسلمين وفقرائهم، ففي حالة عدم وجود الضيافة فإن أغنياء المسلمين «إذا دخلوا بلادهم لا يبيعونهم الطعام و يقصدون الإضرار بهم فإذا كانت عليهم ضيافتهم تسارعوا إلى منافعهم خوفاً أن ينزلوا عليهم للضيافة فيأكلون بلا عوض. وأما مصلحة الفقراء فهو ما يحصل لهم من الإرتفاق» (١٨).

هذه الضيافة أصبحت بعد خروج القوات العربية الإسلامية خارج الجزيرة العربية أكثر ضرورة من قبل لذا فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحاجة الجند إلى التموين في بلاد غريبة بعيدة عن المركز وخاصة إذا ما وضعنا بالحسبان عدم توافر هذا التموين لدى العرب، فكان لا بد أن تتدبر الدولة أمور تموين جيشها، لذا نرى توافق الروايات التي تذكر فرض العرب للمواد العينية لتموين الجند في الشام والعراق ومصر، واقتران تأمين هذه المواد مع الضيافة التي تراوحت بين يوم وليلة وثلاثة أيام، فقد ذكر أبو عبيد أن «عمر جعل الضيافة على أهل السواد يوم وليلة لا يتعدى ما عندهم من طعام أو علف) وزاد في رواية أخرى (فإن حبسه مطر أو مرض أنفق من ماله) (١٩) في حين يذكر أبو يوسف أن ضيافتهم كانت ثلاثة أيام (٢٠)، أو أنها كانت ثلاثة أيام في الشام (٢١)، ومهما يكن فإن الأمر الهام هو مبدأ الضيافة سواء كانت يوماً وليلة أو ثلاثة أيام، لكن هذا يعني أنها كانت فعلاً تزيد وتنقص. وقد يكون ما فرض على أهل الشام أكثر من أهل العراق لاختلاف الأوضاع المالية الشامية عن العراقية (٢٢)، ونلحظ ارتباط الضيافة

---

١٧. الدوري، النظم، ص ١٠٤ ــ ١٠٥.

١٨. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ٢، ص ٧٨١.

١٩. أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٣؛ وانظر: ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م)، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق تشارلس توري (سلسلة بيل للاستشراق رقم ٣) نيوهافن، ١٩٢٢، ص ١٥٢ (نفس الراوي لأبي عبيد حارثة بن مضرب). وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد الحكم، فتوح مصر.

٢٠. أبو يوسف، الخراج، ص ٣٨.

٢١. الطبري، اختلاف، ص ٢١٤.

٢٢. قارن؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٥٧؛ الدوري، النظم، ص ١٢٥.

والأرزاق بالجزية وكأنها الجزء العيني منها (٢٣). (مع ذلك ــ أي الجزية النقدية ــ أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام) (٢٤) بل ونجد ذكر الضيافة مع الجزية على أنها جزء منها في حالات عدة بينما يذكر ابن قيم أنها «قدر زائد عن الجزية ولا تلزمهم إلا بالشرط» (٢٥) و يوضح الماوردي طبيعة الضيافة في الشام خاصة (وإذا صولحوا على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة أيام وأخذوا بها لا يزادون عليها كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ولا يكلفهم (كذا) ذبح شاة ولا دجاجة وتبيت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن (٢٦)... فإن لم يشترط عليهم الضيافة... لا يلزمهم إضافة ــ أي ضيافة ــ سائل ولا سابل (٢٧). و يذكر الطبري أن الضيافة ليست بديلاً عن الجزية بل هي إضافة إلى الحد الأدنى من الجزية وبعد أن يبين كيفية الضيافة وما يقدم للناس من قبل المكلفين يقول «ولا يجوز أن يحمل على الرجل منهم في اليوم أو الليلة ضيافة إلا بقدر ما يحتمل أن احتمل واحداً أو اثنين أو ثلاثة ولا يجوز عندي أن يحمل عليهم أكثر من ثلاثة وإن أيسروا إلا بأقدارهم) (٢٨). وبهذا يوضح أن الضيافة كانت تتناسب مع مستوى المكلفين المالي «من كان موسراً فرجع إلى أن نقص ماله حتى يكون وسطاً رجع إلى ضيافة الأوسط، ومن كان وسطاً فكثر ماله حتى يكون موسراً نقل إلى ضيافة

---

٢٣. الطبري، اختلاف، ص ٢٠٩؛ فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، عمان ١٩٧٨. ص ١٢٤. وسنشير إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فالح حسين، الحياة الزراعية.

٢٤. ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٢٢؛ البلاذري، فتوح، ص ١٢٥ ــ ١٥٢؛ أبو عبيدة الأموال، ص ٥٥، ٢١٣.

٢٥. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ٢، ص ٧٨٦.

٢٦. شعير الدواب قد يكون هو المقصود به أنه فرض على أهل السواد دون المدن.

٢٧. الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، أوفست عن طبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦. ص ١٤٤ ــ ١٤٥. سنشير الى هذا المصدر فيما بعد هكذا: الماوردي، الأحكام، أنظر: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ٢، ص ٢٨٢.

DeGoeje, N. J., Memoires dhistoire et de Geographie Orientales No.2. Memoire sur la conquete de la Syrie, Brill, Leiden, 1900, pp. 140. De Goeje, Memoires.

وسنشير الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا De Goeje, Memoires

٢٨. الطبري، اختلاف، ص ٢١٧.

المياسير)(٢٩).

ويتبع الضيافة زيادة على إطعام المسلمين وعلف دوابهم المأوى الذي يأوون اليه، أي المسكن فيقول ابن قيم (ويشترط عليهم أن ينزلوا في فضول منازلهم وكنائسهم ما يكتون فيه من الحر والبرد منها، إذ الضيف محتاج إلى موضع يسكن فيه ويأوي إليه كما يحتاج إلى طعام يأكله)(٣٠). وقد يبدو هذا الكلام نظرياً إلا أن مؤلفاً سريانياً ذكر أن المأمون أصدر أمره بتخليص النصارى من واجب تهيئة المساكن في بيوتهم للجنود(٣١). وإذا ما عدنا إلى أوائل الفتح في الشام فإننا نجد في مناسبات عدة بروز الضيافة بشكل واضح لدى مصادرنا الأولية فكان على أهل حمص مثلاً (أنهم يضيفون المسلم إذا نزل بهم)(٣٢) ويبين الأزدي أن المدة كانت يوماً وليلة(٣٣) وهذا يوضح أنها كانت لضرورة عسكرية ابتداءً، فقد يضطر الجند للراحة أثناء السير فكان على المدنيين تأمين مأكلهم ومنامهم لفترة قصيرة وكذلك كان على أهل الرقة والرها «الضيافة للمسلمين إذا نزلوا بهم ثلاثة أيام»(٣٤). وكان على أهالي شمالي سورية (بلاد الشام) بالإجمال. كما يبدو أن يضيفوا المسلمين، وهذا يسوغ القول بطريقة أدق. إن للضيافة مسوغات عسكرية فيذكر أن الجومة وسرمين مرتحوان وتيزين، وأهل دير طابا ودير الفسيلة التي تقع كلها في شمال بلاد الشام «صالحوا على أن يضيفوا من مر بهم من

٢٩. المرجع السابق، ص ٢١٨.
٣٠. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ص ٢٨٧.
٣١. انظر: ترتون أ. س، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة محمد حبشي، ط ٢. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٦١، نقلاً عن:
Anonymous Syriac Chronicle, 2P. 15.
وسنشير الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ترتون، أهل الذمة.
٣٢. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢١٦.
٣٣. الأزدي، محمد بن عبد الله (ت ١٦٥هـ/٧٨١م)، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب القاهرة. ١٩٧٠. ص ١٤٦. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا: الأزدي، فتوح.
٣٤. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، جـ١، ص ٣٢٨.

المسلمين)(٣٥) وقد ورد في طلب قرى المسلمين في صلح تدمر، ولكن دون تحديد الفترة، «فأمنهم على أن يكونوا ذمة وعلى أن يقروا المسلمين»(٣٦) ويرى أبو يوسف أن عمر جعل ذلك سنة، فكان إذا صالح قوماً اشترط عليهم من بين الشروط (أن يقروا ثلاثة أيام وأن يهدوا الطريق... ونحن براء من معرة الجيش(٣٧). ولما فرض عمر الجزية على أهل الشام والجزيرة فرض عليهم «أن يضيفوا من نزل بهم من المسلمين ثلاثاً»(٣٨) ومما ذكره ابن عساكر نرى أن أبا عبيدة ـ من البداية ـ كتب لأهل دمشق وأهل الشام كتاباً تعهدوا فيه (أن نضيف كل مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد ونطعمه فيها ثلاثة أيام)(٣٩).

ويتوقع حصول بعض التعديلات فمما رواه ابن عساكر نرى أن الأمور لم تسر دائماً سيرها المفترض الموجود في نصوص الروايات من عدم مضايقة الضيوف لمضيفهم إذ شكا بعض الذميين لعمر ـ في إحدى زياراته للشام ـ أن بعض ضيوفهم يكلفونهم فوق طاقتهم ويطلبون الدجاج والشاه فلم يرض عمر بذلك(٤٠).

ونسمع في رواية أن الكنائس كانت مراكز ضيافة ومأوى(٤١) بل إننا نجد روايات مثل «إن للمسلمين فضول الدور والمساكن»(٤٢) وهذا يؤكده البلاذري في

٣٥. البلاذري، فتوح، ص ١٤٩؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣٠٤، ٣٠٥؛ انظر فالح حسين، الحياة الزراعية، ص ١٢٤.
٣٦. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٨٦.
٣٧. أبو يوسف، الخراج، ص ٣٩؛ انظر: ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٥١ ـ ١٥٢.
٣٨. انظر: أبو يوسف، الخراج، ص ٣٨؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٥٥، ص ٢١٣؛ ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٨٠؛ ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ج ٢، ص ٧٧٩، ذي غوية؛ Memoirs ص ١٤٠.
٣٩. ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٥٠، ويضيف في رواية أخرى ما يصلحهم من طعام، وعلف دوابهم، ج ١، ص ٥٧٢.
٤٠. ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٧٩. وربما كانت رواية الماوردي الآنفة الذكر، ص ١٤٤ ـ ١٤٥. صدى لمثل هذه التعديلات.
٤١. المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٩.
٤٢. المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٠.

رواية عن الواقدي فيقول بأن الكثيرين من أهل دمشق لحقوا بهرقل بعيد الفتوح «فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون» (٤٣) أي أن هذا الشرط طبق فعلاً بعد فتح دمشق ولم يصالح أهلها على أنصاف منازلهم بل إن بيوتاً هجرت ومن الطبيعي أن يستخدمها المسلمون لمأواهم وكذلك الحال بالنسبة لحمص فقد سكن المسلمون «في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة» (٤٤).

يتبين مما سبق أن استضافة المسلمين وإن اختلفت شروطها وجدت في بلاد الشام سواء كانت يوماً وليلة أو ثلاثة أيام أو كانت غير محددة في بعض الروايات، إذ كان على المكلفين تقديم التموين الغذائي للجند ودوابهم مع تأمين المأوى الذي يقيهم الحر والبرد، إلا أن المدة لم تزد على ثلاثة أيام باتفاق الروايات التي ذكرناها سابقاً (٤٥) وكانت الضيافة لأسباب عسكرية وتموينية، يؤكد ذلك أن عهود الصلح في المناطق الشمالية لبلاد الشام يظهر فيها شرط الضيافة أكثر من الجنوب (٤٦) ذلك أن الشمال شكل ساحة قتال باستمرار بعد استقرار أحوال الجنوب الأمر الذي استدعى تجمع الجيش وضرورة تأمين الضيافة لأفراده.

وارتبطت بالضيافة تدابير غايتها تأمين الحاجات التموينية الضرورية للجند المسلمين منذ بداية الفتح، ألا وهي ما عرف بالتاريخ الإسلامي في الولايات الرئيسية الثلاث الشام ومصر والعراق ـ بالأرزاق فتلاحظ في البداية وقبل استقرار الفتح محاولات تأمين المواد الغذائية وأحياناً الملابس بطريقة غير منظمة، فيذكر الواقدي أن أبا عبيدة صالح أهل بعلبك وأهل حمص فيما صالحهم عليه أثواباً من الديباج فكان أهل بعلبك يحملون إلى عسكر المسلمين الزاد والميرة والعلوفة حتى كملت الأموال والثياب والسلاح (٤٧) مما يشعر بأن المواد المذكورة قصد بها تزويد المسلمين العاجل بالمواد التي اتفق عليها عينياً، وقد يشعر ذلك بأن أهالي بعلبك قدموا مواد تموينية بدلاً من النقد،

٤٣. البلاذري، فتوح، ص ١٢٣.
٤٤. المصدر السابق، ص ١٣١.
٤٥. الأزدي، فتوح، فقط هو الذي يجعلها يوماً وليلة في حالة حمص، ص ١٤٦.
٤٦. فالح حسين، الحياة الزراعية، ص ١٢٤.
٤٧. الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (نسب له) فتوح الشام، ٢ج، دار الجليل، بيروت، ج ١، ص ١٤٤، وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، فتوح،

وكذلك أهالي حمص، فقد قدم أهالي بعلبك خمسين ثوباً، وأهالي حمص مائتي ثوب (٤٨) ومن قنسرين طلب المسلمون عدا النقد (ألف ثوب من متاع حلب وألف وسق من الطعام) (٤٩) ومرة أخرى يذكر (خمسمائة وسق من التين والزيت) (٥٠)، كما تعهد أهالي حمص بتموين الجيش بالزاد والعلوفة ما يكفيهم مدة خمسة أيام لقاء رفع الحصار عن مدينتهم فترة محدودة (٥١) و يؤكد قدامة ذلك بقوله إن أهل حمص أخرجوا النزل للمسلمين قبل سقوط حمص ثم صالحوا بعد ذلك (٥٢)، بينما نص البلاذري أنهم «أخرجوا اليهم العلف والطعام» بعد أن أمنهم المسلمون (٥٣) وفي منطقة وادي بطنان حول حلب «كانت علوفة العرب وميرتهم منهم»، وفي أحيان أخرى كانوا يقصدون القرى في طلب الميرة (٥٤) وقد قدم أسقف دمشق لخالد لما نزل باب الجابية «نزلاً وخدمة» (٥٥) وبعد فتح دمشق أمر عمر بإبقاء الحنطة والشعير التي وجد بها للمسلمين، أي أنه ترك المواد التموينية للجيش بينما اعتبرت الأموال النقدية من الغنائم (٥٦) وفي الرقة كان المسلمون يأتون بالأطعمة الكثيرة من القرى بعد بث سراياهم فيها (٥٧). ولما نقضت قنسرين وأعيد فتحها وجدوا بها بقراً وغنماً قسم بعضها فيمن حضر (٥٨). أما تدمر فقد صالحت «على أن قروا المسلمين» أي أنّ خالداً طلب منهم كما يبدو تموين الجيش وكان بحاجة ماسة لذلك، كذلك الحال بالنسبة لأركه في البادية فإنهم صالحوا خالداً «على شيء أخذه منهم للمسلمين» (٥٩)، وفي حالات أخرى كان جيش خالد يضطر للإغارة على بعض

٤٨. المصدر السابق، ج ١، ص ١١٠ ــ ١١١.
٤٩. المصدر السابق، ص ١١٥، أنظر صفحة ٢٥١ ــ ١٣٢.
٥٠. المصدر السابق، ص ٢٤٥.
٥١. المصدر السابق، ص ١٥٠.
٥٢. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٩٧.
٥٣. البلاذري، فتوح، ص ١٣١.
٥٤. الواقدي، فتوح، ج ١، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧.
٥٥. البلاذري، فتوح، ص ١١٢.
٥٦. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٠٣.
٥٧. البلاذري، فتوح، ص ١٧٣؛ قدامة ابن جعفر، الخراج، ص ٣١٢.
٥٨. البلاذري، فتوح، ص ١٤٥؛ قدامة ابن جعفر، الخراج، ص ٣٠٣.
٥٩. البلاذري، فتوح، ص ١١١؛ أنظر الواقدي، فتوح، جـ ١، ص ٢٧؛ ياقوت، المعجم، ج ١، ص ١٨.

الأماكن للحصول على التموين كما حصل في القريتين وحوارين وبعض قرى الغوطة (٦٠). وقد فرض عمرو بن العاص على أهل بابليون في مصر «لكل رجل من أصحابه ديناراً وجبة وبرنسا وعمامة وخفين» (٦١) ولا بد أن هذا الإجراء كان مؤقتاً فرضته ظروف الجيش إبان الفتح. ويروي ابن عساكر عن أسلم مولى عمر أنه (فرض على أهل الجزية من البز التي كان يكسوها أمير المؤمنين الناس شيئاً لم يحفظه» (٦٢).

وهناك بعض الروايات التي تتحدث عن تدابير لا بد أنها كانت آنية غايتها تأمين حاجات الجيش السريعة من التموين، فنرى في صلح بصرى مثلاً الحديث عن أداء دينار وجريب حنطة وكذلك البثنية وعمان ومآب (٦٣) ويذكر قدامة أن الجزية في الشام في البداية كانت جريباً وديناراً (٦٤) وما ذكره البلاذري بشأن بصرى أكثر تعبيراً عن طبيعة ما كان يفرض ابتداء لتأمين حاجة الجيش، إذ يذكر أن صاحب بصرى ادعى أمام عمر أنه صالح المسلمين على طعام وزيت وخل، وكذبه أبو عبيدة بقوله «إنما صالحناه على شيء يتبع به المسلمون لمشتاهم» (٦٥) أي أن ما طلب كان إجراءً سريعاً ونرى في صلح أنطاكية وبعض المناطق الشمالية ذكراً للدينار والجريب (٦٦) ويبدو أن هذا هو ما حصل في الشام عامة إلى أن فرضت جزية الطبقات بقرار من عمر، وفيما يتعلق بدمشق فإن خالداً ألزم أهلها مع الدينار (جريب حنطة وخلاً وزيتاً لقوت المسلمين) (٦٧) وفي صلح الرها نجد ما يشبه ذلك إلا أن جريب الحنطة هنا يتحول إلى

---

٦٠. البلاذري، فتوح، ص ١١٢؛ أنظر: أبو عبيد الأموال، ص ٢١٤ ــ ٢١٨ ــ ٢١٩ الذي يذكر أن المسلمين كانوا يصيبون من ثمار وأتبان الفلاحين في الشام دون أن يحملوا معهم ويراه الأوزاعي أمراً عادياً. وقد اضطر عمر أن يبرأ من معرة الجيش أي ما يكره من أعمالهم، أبو عبيد، الأموال، ص ٢٢؛ أبو يوسف، الخراج، ص ١١٩.

٦١. ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٦٠.

٦٢. ابن عساكر، تهذيب، جـ ٥، ص ٤٣.

٦٣. البلاذري، فتوح، ص ١١٣، ١٢٦؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٨٨.

٦٤. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٩٥.

٦٥. البلاذري، فتوح، ص ١٥٢.

٦٦. البلاذري، فتوح، ص ١٤٧؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥، ياقوت، المعجم، جـ ١، ص ٢٦٨.

٦٧. البلاذري، فتوح، ص ١٢٤.

مدي حنطة وكذلك في حران (٦٨). بينما يروي أبو يوسف أن عياض بن غنم قرر في الجزيرة (على كل جمجمة ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً وجعلهم جميعاً على طبقة واحدة) (٦٩) مما يدل على إجراء مؤقت بعد الفتح مباشرة فالفروض العينية في الجزيرة هي أيضاً مضافة إلى الجزية.

ونجد الشيء نفسه في مصر إذ طلب من الأهالي دفع مواد عينية لتموين القوات الفاتحة، فإضافة إلى النقد تأتي «أرزاق المسلمين» (٧٠) هذه الأرزاق ــ ضريبة الطعام ــ التي استمرت جبايتها بمصر لتموين الجيش فقد جاء في بردية عربية تعود إلى شوال ٩١/ آب ٧١٠ (ولا تؤخرن منه إردباً واحداً فإنا قد أمرنا للجند بأرزاقهم) (٧١).

فالغاية واحدة سواء إبان الفتح أو فيما بعد إلا أن فرض الأرزاق المنتظمة جاء في فترة لاحقة بعد استقرار الوضع، فالآن أصبحت الأرزاق تجبى بانتظام وتوزع على مستحقيها بانتظام أيضاً. ففي البدء رأينا أن ما طلب كان في الغالب الحنطة وأحياناً مواد أخرى، أما الآن فإننا نسمع بما عرف بالأرزاق المحددة التي توزع على الجند بانتظام في كل شهر، وقد فرضت في عهد عمر بعد استقرار الفتح. أما ظروف فرضها فلدينا ما يشعر بأنها وضعت بالأساس لغايات التموين الفعلي للجند وعائلاتهم التي اتخذت من الأمصار وطناً جديداً لها. فيروي ابن عساكر أن عمر لما زار الجابية سأل

---

٦٨. البلاذري، فتوح، ص ١٧٤، قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣١٣، اشتمل صلح الرها على تكاليف أخرى كأرشاد الضالة واصلاح الجسور والطرق واذا ما عرفنا أنها منطقة حدودية وكثيرة المياه والأنهار نعلم أن مثل هذا الطلب أمراً هاماً خاصاً إبان فترة الفتح.

٦٩. أبو يوسف، الخراج، ص ٤١؛ انظر: البلاذري، ص ١٥٣، بالنسبة للمدين هي مديين وليس مدين وهما مكاييل مختلفة.

٧٠. المقريزي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) الخطط المقريزية، ٢ج، بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ/١٨٥٣. ج ١، ص ٢٩٤. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقريزي، الخطط؛
Becker, Carl Heinrich Beiträge Zyr Geschichte Ägyptens Unter dem Islam, 2. Heft, Strassburg, 1903. II, 5.83.
وسنشير الى هذا المرجع فيما بعد هكذا: Becker, Beiträge.

٧١. Becker, Carl Heinrich, Papyri Schott - Reinhardt I. Veröffenli-chung aus der Heideberger papyrussamlung III, Heidelberg, 1906. Nr. III S. 68
سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: Becker, Papyri

بعض أهل الشام عما «يكفي الرجل من القوت في الشهر واليوم فأتى بالمدى والقسط فقال: يكفي هذان المديان في كل شهر وقسط زيت وقسط خل فأمر عمر بمديين قمح فطحنا ثم عجنا ثم أدمهما بقسطين زيت ثم أجلس عليهما ثلاثين رجلاً فكانت كفاف شبعهم» (٧٢). و يوضح أبو عبيد الرواية و ينقل عنه البلاذري «أن عمر أمر بجريب من طعام فعجن ثم خبز ثم ثرد بزيت ثم دعا عليه ثلاثين رجلاً فأكلوا منه غدائهم حتى أصدرهم، ثم فعل بالعشاء مثل ذلك، وقال: يكفي الرجل جريباً في كل شهر فكان يرزق الناس المرأة والرجل والمملوك جريبين كل شهر) (٧٣) وما ذكره الطبري في هذا الحال أكثر وضوحاً، إذ يذكر في حوادث سنة ١٥ «نفرض لكل إنسان منهم ولعياله جريبين كل شهر» (٧٤) أي أن العائلة رزقت هذا المقدار وليس الفرد، وفي العراق يبدو أن ما فرضه عمر كان لتموين الجند بالمواد الغذائية «ورزق منه الجند» (٧٥). وكذلك في الجزيرة فقد أخذت الأرزاق للجند، تلك التي فرضت على أهل القرى دون أهل المدائن ذلك أنهم هم أصحاب الزرع والمحاصيل (٧٦) وفي رواية عن أسلم توضح ما فرضه عمر على أهل الشام كأرزاق للمسلمين (وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة وثلاثة أقساط زيت في كل شهر لكل إنسان من أهل الشام والجزيرة وودك وعسل لا أدري كم هو) (٧٧). هذه الأرزاق كانت تكليفاً جماعياً على أهل القرية وليست فردية كحال الجزية، وقد ربط بعض الباحثين بينها و بين الضيافة اذ اعتبر

---

٧٢. ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٧٦.

٧٣. أبو عبيد، الأموال، ص ٢٣٥، ٣٥٢؛ البلاذري، فتوح، ص ٤٦؛ أنظر: الماوردي، الأحكام، ص ٢٠٢.

٧٤. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ــ ١٩٧٠، ج ٣، ص ٦١٥. مع تحفظنا على التوقيت. وسنشير إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

٧٥. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٥٢.

٧٦. أبو يوسف، الخراج، ص ٤٠ ــ ٤١؛ انظر: دينيت، دانيال، الجزية والاسلام، ترجمة فوزي فهيم جاد الله، مكتبة الحياة، مؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٦٠، ص ٨٦ــ ٨٧، الذي يرى في ذلك نوعاً من تسوية التكاليف بين أهل المدن والريف فحملوا أهل المدن ضريبة نقدية أكبر في حين جعلوا أعباء الضريبة العينية على الفلاحين.

٧٧. أنظر أبو عبيد، الأموال، ص ٥٥؛ المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٧٦ــ ٧٧؛ Becker, Beitraǧe, II 5. 85

الأرزاق هي ما يعرفه بالضيافة ابتداء (٧٨) وقد فرض عمر الأرزاق في الشام فيذكر الأزدي أن عمر اتخذ قراره هذا أثناء زيارته للجابية بأن ضمن له قادة الجند «أرزاق المسلمين في كل شهر» بحيث أمن لهم ما يصلح لذلك من الزيت والخل (٧٩)، وقد ورد في هذه الرواية ذكر الجريبين ولكن المعروف أن مكيال الشام هو المدى كما هو واضح من برديات Nessana التي تعود بجميعها إلى العهد الأموي (٨٠)، لكن الرواية قد تعني بداية تنظيم الأرزاق بعد الاستقرار. وتبين رواية لليعقوبي بدايات التفكير بفرض الأرزاق التي تذكر أن عمر أخذ على أمراء الشام بأن ضمنوا له القوت للمسلمين في كل يوم خبزين لكل رجل وما يصلحه من الخل والزيت (٨١).

وواضح أن إجراء عمر هذا كان لتأمين قوت المسلمين إلى أن قرر عمر الزيت والخل والقمح التي تصرف عند رأس كل شهر رزقاً سوى الأعطيات ولم يزل ذلك الرزق الذي وضع أصلاً «لرفق المسلمين» حتى قطعه ولاة السوء (٨٢). أما المواد التي

---

٧٨. أنظر:

Grohmann, Adolf, Probleme der papyrusforschung II Archiv Orientalni, Vol, V, 1933. S. 277.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

Grohmann, Probleme: Donner, F.M., The Early Islamic Conquests, Princeton Un. Press, 1951. p. 151.

سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: Donner, Early

٧٩. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧؛ الواقدي، فتوح، جـ ١، ص ٢٣٩.

٨٠. Kraemer, C.S., Excavations at Nessana, Vol.3 Non-Literary Papyriy, Princeton, 1958. Vol. 3.S. 180, 182. 184. 186. 192, 194.

سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: Kraemer, Nessana;

Grohmann, Hirbet-al-Mird S. 29, 44.

٨١. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٧٨هـ/٨٩١م)، تاريخ اليعقوب، ٢ج، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٠، جـ ٢ ص ١٤٧. سنشير لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ، و يلاحظ ذلك أيضاً في بعض عهود الصلح كصلح خالد مع أهل دمشق بناء على ما ذكر البلاذري، في الفتوح، ص ١٢٤؛ وابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٧٥.

٨٢. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٥٧؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣١٤

نجدها في المصادر كأرزاق فهي القمح والخل والزيت والدهن (الودك) والعسل (٨٣).

والمعروف أن القمح الذي يصنع منه الخبز في الشام وكذلك الزيت يشكلان ركناً أساسياً في طعام بلاد الشام تقليدياً (٨٤) وكذلك فإن قصة عمر ابن الخطاب مع المرأة التي أحضر لها ما يصلح حال أبنائها من الجوع عندما أحضر لها الدقيق والشحم وهو الدهن أو الودك في روايات الأرزاق، نشعر أن الدقيق والشحم من أساسيات الطعام للناس آنذاك (٨٥). وقد يتساءل البعض عن سبب ورود العسل ضمن قوائم الأرزاق وخاصة أن العسل ليس من السهل أن يحصل عليه كل امرىء و يفترض أن الحاجة اليه كانت أقل منها للقمح والزيت والخل، وعن سبب فرضه أورد ابن عساكر حادثة تبين ذلك كما توضح أن أهل الشام تذمروا من هذا الفرض، فيقول، إن أهل الذمة جاءوا إلى عمر لما زار الشام «فقالوا: إنك كلفتنا وفرضت علينا أن نرزق المسلمين العسل ولا نجد، فقال عمر: ائتوني به، فأتوه فجعل يرفعه بإصبعه فيمتد كهيئة العسل، فقال عمر: إن هذا يشبه طلاء الإبل، ائتوني بماء فأتي به فصبه عليه فشرب وشرب أصحابه، فقال عمر: ما أطيب هذا، فارزقوا منه المسلمين» (٨٦).

وبذلك نفهم سبب فرض العسل واستبداله مادة شبيهة به قد تكون مما ينتج من العنب وهي مشهورة في بلاد الشام باسم الدبس.

ونعلم من الطبري أنه في سنة ١٧ هـ كانت هناك الأهراء وهي المخازن العامة، فقد جعل عمر على أهراء الشام في هذا العام شخصاً اسمه عمر بن عبسة (٨٧). وهذا أمر

٨٣. أنظر مثلاً أبو يوسف، الخراج، ص ٤١؛ البلاذري، فتوح، ص ١٢٥، ٢١٥؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٢٢؛ أبو عبيد الأموال، ص ٥٥؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣١٤؛ المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٧٧؛ De Goeje, Memoire, 1. 140.

٨٤. فالح حسين، الحياة الزراعية، ص ١٤٤؛ انظر: الواقدي، فتوح، ج ١، ص ١٣٥.

٨٥. الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٣٠٦ ــ ٥٠٨.

٨٦. ابن عساكر، تهذيب، ج ٦، ص ١٨٦.

٨٧. الطبري، تاريخ، ص ٦٥ ــ ٦٧. والأهراء جمع (هري) وهي مأخوذة عن اللاتينية و يبدو أنها عربت في فترة قبل الاسلام وأصلها Huriun أو Horreum أنظر:

Becker, PSR, 1, S.3, 124; Hussein, Faleh Das Steuersystem in Ägypten von der Arabischen Eroberung bis Zur Machtergreifung der Tuluniden 19-254/639-868 mit besonderer Berück sichtigung der Papyrnsurkundun. Heidelberger Orientalishische Studien - 3 - Frankfurt / M - Bern. p. 124.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Hussein, Das Steuersystem

طبيعي بعد فرض الأرزاق إذ لا بد من وجود المخازن التابعة للدولة لجمع هذه المواد العينية فيها وتوزيعها منها. ما نقرأه في الروايات هو أن ما طلب من أهل الذمة في الشام كان: مديان من القمح وأحياناً تذكر مدان (٨٨) وهما مختلفان، وقسطان من الخل وقسطان من الزيت (٨٩)، وتبقى كمية الودك والعسل غير معروفة (وودك وعسل لا أدري كم هو) (٩٠).

ويذكر قدامة أن الزيت كان ثلاثة أقساط لكنه يفيد أن ذلك كان في أول

٨٨. والمدي، بالضم مكيال للشام ومصر وهو غير المد وجمعه أمداء. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ٤ ج، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٣٢هـ/١٩١٣م. باب الواو والياء، فصل الميم، ج ٤، ص ٣٨٩. وسنشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الفيروزأبادي، المحيط؛ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) لسان العرب، ١٥ ج، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٥٦. مادة مدى. المدى من المكاييل المعروفة، قال ابن الأعرابي هو مكيال ضخم لأهل الشام وأهل مصر والجمع أمداء... وهو غير المد، جـ ١٥، ص ٣٧٤؛ سامح عبد الرحمن فهمي، المكاييل في صدر الاسلام، مكة المكرمة، ١٩٨١. ص ٣٠، وسنشير الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فهمي، المكاييل؛ هنتس. فالتر، المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية. ص ٦١. وسنشير إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا، هنتس، المكاييل. وقد خلط الكثيرون بين المد والمدى ولم يفرقوا بينهما انظر:
هنتس، المكاييل، ص ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٠؛ فهمي: ص ٣٠ ــ ٣١، ٣٥، ٤٢، الذي اعتبره مساو ياً للأردب؛
Grohmann, Probleme, Ar. or. V.s. 278 - 79.
وقد اعتبر Diem المدي مساو ياً ١٠١ ١/٢ دون أن يستند على أي دليل. أنظر:
ZDMG. Vol. 133. Helt 2, 1983. S. 239-262. S. 250
سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: ZDMG
وقد اكتفى هنتس بذكر المد، ص ٧٤ ــ ٧٥، الذي لا يمكن أن يكون هو نفس المد ونراه يخلط دون أن يشعر عندما يجعل الفروق بين المدى والمد المقدسي والعمّاني فروقاً كبيرة وهي ناتجة عن عدم تفريقه بين المد والمدى ونراه يبين مطابقة المد بالأردب المصري. أنظر: هنتس، المكاييل، ص ٧٥ ــ ٧٦. وذكرت المصادر (المديان). أبو عبيد، الأموال، ص ٥٥، ٢١٣؛ البلاذري فتوح، ص ١٢٥ ــ ١٥٢؛ ابن قيم الجوزية، أحكام م ١، ص ٣٣، (والمدان) وهي خطأ، قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣١٤؛ البلاذري، فتوح، ص ١٧٨.

٨٩. البلاذري، فتوح، ص ١٢٥، ١٧٣، ١٧٨، ٢١٤، ٢١٥؛ قدامة، الخراج، ص ٣١٤، ٣٣٨. والقسط مكيال إسلامي أصله من اليونانية Xests واللاتينية Sextarius؛ فهمي، المكاييل، ص ٣٣ ــ ٣٤. هنتس، ص ٦٥، ٦٦.

٩٠. انظر، أبو عبيد، الأموال، ص ٥٥، ٢١٣؛ البلاذري، فتوح، ص ١٢٥؛ المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٧٦ ــ ٧٧؛ Becker, Beiträge, II, S. 85.

الأمر «ثم رفع عنهم وأراه صار في الخراج الواجب» (٩١). و يبين البلاذري أن عمر أخذ الزيت والخل والطعام «لرفق المسلمين بالجزيرة مدة ثم خفف عنهم... نظراً من عمر للناس» (٩٢). وفسر البعض هذه الرواية بالقول: إن قضية تموين الجيش هي التي دعت لفرض هذه المواد فلما أعيد النظر في أوضاع البلاد فإن صعوبة التموين تزول بعد استقرار الفتح كما أن تقديمها يؤثر على أسعارها فيؤدي إلى ارتفاعها، مما دعا الخليفة إلى إعادة النظر في جبايتها (٩٣). لكن هل ألغيت الأرزاق فعلاً كما توحي بعض المصادر؟ الجواب بوضوح: إن الأرزاق استمر أداؤها إلى فترة بعيدة عن الفتح و بالتأكيد حتى أواخر القرن الأول (٩٤). و يذكر De Goeje أن إصلاح عمر المقصود هنا هو إقرار الأرزاق بعد أن كان الأمر «دينار وجريب» (٩٥) فجعله عمر جزية الطبقات والأرزاق (٩٦) وهذا هو الفهم الصحيح للرواية.

وتجيب على هذه المسألة برديات أموية تعود كلها إلى النصف الثاني من القرن الأول الهجري إجابة شافية. فهي تتحدث عن الأرزاق بجلاء خاصة أمداد القمح

---

٩١. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٢٦؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٣؛ البلاذري، فتوح، ص ١٥٢؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٨٠؛ ابن قيم الجوزية، أحكام، ج ١، ص ٣٣.

٩٢. البلاذري، فتوح، ص ١٨٥ ــ ١٨٦؛ ترتون أ. س: أهل الذمة في الإسلام ترجمة محمد حبشي، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧. ص ٢٤١. وسنشير الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ترتون، أهل الذمة.

٩٣. الدوري، النظم، ص ١٢٨؛ ترتون، أهل الذمة، ص ٢٤١، ٢٤٢، الهامش.

٩٤. Becker, PSR, I, S. 68
النص الذي ذكرناه آنفاً وهو رسالة موجهة من الوالي قرة بن شريك بتاريخ ٧١٠/٩/١ الى أحد الموظفين يقول له فيها:
بعد أن حثه على إرسال ضريبة الطعام (فإنا قد أمرنا للجند بأرزاقهم)
وأنظر أيضاً، Becker, PSR, I, S. 68 Grohmann, Probleme, Ar. or, V.S. 279

٩٥. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٤٠؛ قدامة، الخراج، ص ٢٩٥؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٥٦.

٩٦. De Goeje, Memoire, p. 140.

وأقساط الزيت (٩٧) وتبين هذه البرديات أيضاً طريقة جمع هذه الضريبة التي تؤيد ما ذكرناه من أنها تكليف يجبى من أهل القرية و يؤخذ إلى الأهراء العامة ومن هناك يتم توزيعها كما تحدد الفترة المجبى عنها بالأشهر أي أنها فروض شهرية ولنقتبس هنا مثلاً من الوثائق التي اكتشفت في جنوب فلسطين لتوضيح ما ذكرناه:

بسم الله الرحمن الرحيم
من الحرث بن عبد الله الى أهل
نصدتان من كورة غزة من
اقليم الخلوص فاعطوا
عمرو بن قيس من بني
سعد بن مالك رزق شوال
وذي القعدة عشرة وثلث
مئة مدى قمح ومثله زيتاً
وكتب خلد في شوال من
سنة خمس وخمس (٩٨)

في النهاية نود أن نؤكد أن تموين الجيش بادىء الأمر كان يعتمد بوجه عام على التكاليف العينية من أهالي البلاد المفتوحة (٩٩) ودليلنا على ذلك ما أوضحته البرديات

---

٩٧. أنظر:ـ (تاريخ ٦٧٤/٥٤) Kraemer, Nessana Vol. 3. No. 60 p. 180
(تاريخ ٦٧٥/٥٥) No. 61, p. 182, No. 62,
(تاريخ ٦٧٥/٥٥) p. 184.
(تاريخ ٦٧٥/٥٥) No. 63, p. 186, No. 64, p. 189
(تاريخ ٦٧٦/٥٦) No. 65, p. 162
(تاريخ ٦٧٥/٥٥) No. 67, p. 196.
(تاريخ ٦٧٥/٥٥) No. 69, p.
(تاريخ ٥٦/٦٧٥ ــ ٦٧٦)
(تاريخ ٦١ ــ ٦٢/٦٨٠ ــ ٦٨١)
(تاريخ ٦٨٩/٧٠)

٩٨. Kraemer, Nessan, Vol. 3, No. 62, p. 184.

٩٩. Fries, Nicolaus, Das Heereswesen der Araber Zur Zeit der Omaijaden nach Tabari. Tübingen 1921. S. 12.

سنشير لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: Fries, Das Heereswesen.

التي تعود لفترة الفتح بمصر التي بينت بجلاء ما كان يدفعه الأهالي إلى الجيش العربي بمصر، ولعله ليس من قبيل الصدفة أن تكون أول بردية معروفة حتى الآن في مصر في العهد العربي تتحدث عن استلام أعداد من الماشية قدمتها إحدى الكور إلى أحد القادة، وهي لغايات التموين العسكري ومؤرخة بسنة ٢٢ هجرية وقد كتبت بالعربية واليونانية، نورد نصها العربي لأهميتها في توضيح الموضوع :

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أخذ عبد الله ابن جبر واصحبه من الجزر من أهنس أخذنا من خليفة تذرق ابن أبو قير الأصغر ومن خليفة اصطفن ابن أبو قير الأكبر خمسين شاة من الجزر وخمس عشرة أخرى أجزرها اصحب سفنه وكتئبه وثقلاه في شهر جمادى الأولى من سنة أثنتين وعشرين وكتب ابن حديدو» (١٠٠).

وتتحدث برديات أخرى من نفس الفترة عن تأمين العلف والخيل ودفع أرداب القمح (١٠١) أما البردية المؤرخة سنة ٦٤٣م فتتحدث عن الأرزاق المطلوبة والمكونة من ٣٤٢ إردب قمح و ١٧١ قسط زيت (١٠٢) في حين نجد الضيافة والأرزاق في البردية المؤرخة ب ٦٤٢/١٢/٢٦ وهي أمر بتأمين العلف للخيل ومبيت وثلاث وجبات لكل رجل وإردب قمح كل شهر (١٠٣) إلى كثير من البرديات التي تعود جميعها إلى فترة خلافة عمر بن الخطاب (١٠٤).

---

١٠٠. Grohmann, APW. S. 113 - 114; Hussein, Das Steuersystem ... S. 53. Nr. 558 S. 139; Karabacek, Josef, Von Papyrus Erzherzog Rainer, Führer Durch die Ausstellung. Wien, 1894. II, PERF. Nr. 558 S. 139.

١٠١. Karabacek, Führer II, S. 139 Nr. RERF 556; Grohmann, APWS. 116

١٠٢. Karabacek, Führer II, S. 13 Nr, 557.

١٠٣. Karabacek, Führer II, S. 139 - 140 Nr. 555

وانظر ترتون ص ٢٣٧.

١٠٤. Karabacek, Führer II, S. 137-140, Nr. 551-561 Becker, Beiträge II, S. 83 - 84 Grohmann, Probleme, Ar, or, II S. 278.
وانظر Hussein, Das Steuersystem S. 52-53.,

مدخل إلى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح

وداد القاضي

كلية الآداب ـ الجامعة الأمريكية ببيروت

ينحصر هذا البحث ـ من ناحية الزمان ـ بالفترة الممتدة من خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حتى خلافة مروان بن محمد، أي من السنة ١١ الى ١٣٢ هجرية، ومن ثمّ فاني لن أتعرّض فيه لا للعهود المبرمة في الفترة النبوية ولا لتلك المعقودة في الخلافة العباسية؛ أما الأولى فانها قد نالت نصيباً صالحاً من البحث، وهي أقرب إلى أن تكون الأساس الذي عليه بنيت العهود في الفترة التالية موضوع البحث، وأما الثانية فانها تمثّل منحى مختلفاً عن منحى الفترتين الأوليين، نظراً لما طرأ على الدولة نفسها من تغيرات في علاقاتها بالمجتمعات المفتوحة، ولما نال هذه المجتمعات نفسها ـ بحكم الزمن المتطاول عليها منذ الفتح ـ من ضروب الانصهار والتجانس والاستقرار على أنه من ناحية المكان لن يُقْتَصَر في هذا البحث على منطقة واحدة دون سواها، لا لأن الفتوح منذ انطلاقها وخلال فترة وجيزة كانت قد غطت مساحات شاسعة من الأرض يدخل فيها العديد من الأقاليم وحسب، بل لأن العهود الصادرة عنها من مختلف المناطق ظلت حتى أواخر الدولة الأموية تدور في أطر شديدة التشابه، فهي من ثم تشكّل وحدة متجانسة لا تتمايز فئة «اقليمية» أو «ظرفية» فيها عن فئة أخرى. وهذا عمر ابن عبد العزيز يسأل في خلافته (٩٩ ـ ١٠١) عما اذا كان عند أهل الرها صلح، وما أن يعرّف بأنه قد شوهد وفيه كذا وكذا حتى اجازه لهم بما فيه (١)، علماً بأنه كان قد مضى على

---

١. أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) الأموال، تحقيق خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٢٩٨، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو عبيد، الأموال؛ القشيري الحراني، أبو علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والفقهاء والمحدثين، تحقيق طاهر النعساني، مكتبة صبحي المصري، حماة، ص ٦ ـ ٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القشيري، تاريخ الرقة.

عقد هذا الصلح ما يتجاوز الثمانين سنة (٢).

و يعترض الدارس لعهود الصلح زمن الفتوحات عدد كبير من الصعوبات، بعضها متعلق بالصعوبات العامة التي يواجهها دارس الفتوحات (مثل التضارب في الروايات حول تاريخ كل واحد منها، وحول طريق السير التي سار فيها قادتها الكبار كخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجرّاح)(٣)، و بعضها خاص بموضوع العهود في هذه الفترة، وأكثرها ترددا أمام الباحث مسألة الإختلاف في الروايات في شروط العهد الواحد للمدينة الواحدة في الوقت الواحد، بل أحياناً ضمن المصدر الواحد(٤)، وهذه مشكلة لا حلّ لها إلا باستخدام الروايات استخداماً لا يتأثر صلب البحث بها. غير أنه اذا كانت هذه الصعوبة متأتية من «كثرة» الروايات عن العهد الواحد، فان «قلتها» تطرح صعوبة هي الأخرى، إذ تجعل صورة عدد من عهود الصلح ناقصة بعيدة عن الوضوح، وفي أحيان كثيرة تقتصر المعلومات التي لدينا عن مدينة ما على أنها «فتحت

٢. تم فتح مدن الجزيرة الفراتية وحصونها سنة ١٧هـ، برواية سيف بن عمرو سنة ١٩هـ برواية ابن اسحاق، انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) تاريخ الرسل والملوك، ١٥ج، تحقيق دي غو يه، ليدن، ١٨٧٩ — ١٩٠١م، جـ١ ص ٢٥٠٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

— وأنظر أيضاً: Donner, Fred McGraw
The Early Islamic Conquests, Princeton University Press, Princeton, 1981, pp. 138, 145, 150.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Donner, The early Islamic.

٣. Donner, The Early Islamic.

٤. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٤١١، جاء في فتوح البلدان، ص ٤١١: أن صلح أهل جرجان كان يقضي بأن يدفعوا مائتي ألف درهم أو يقال: ثلاثمائة ألف بغلية وافية. وفي المصدر نفسه: ص ٥٠١ — ٥٠٢، أن حاتم بن النعمان الباهلي صالح ممثل أهل مرو الشاهجان «على ألفي ألف، ومائتي ألف درهم، وقال بعضهم: ألف ألف أوقية». وهذان نموذجان وحسب من نماذج كثيرة في المصادر. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح البلدان.

صلحاً — هكذا فقط —(٥) أو أنها — في حال أحسن — فتحت صلحاً «على شيء معلوم»(٦) أو «على مالٍ»(٧)، دون تحديد لنوعية ذلك الشيء أو لكمية ذلك المال.

وهناك مجموعة أخرى من الصعوبات قد تكون أكثر ندرة في المصادر إلا أنها تشكل قدراً من التعويق للدارس أكبر من ذلك الذي تشكله الظواهر المتكررة فيها، لما تنطوي عليه من الخطورة والتعقيد. فكيف يعامل المرء الاختلاف في تاريخ كتابة عهد ما بين ما هو مكتوب في إحدى روايات وثيقته المنقولة لنا في العديد من المصادر، و بينه في روايات الرواة والمؤرخين عنه، وخير نموذج عليه هو عهد أهل دمشق؟(٨) وماذا يعمل المرء عندما يجد الخلاف كبيراً بين المؤرخين منذ القدم بشأن بلد ما: هل فتح صلحاً أو عنوة، كما هو الحال في شأن مصر مثلا؟(٩) بل ماذا يكون موقفه اذا وجد خمس روايات لوثيقة — وليس لخبر — عن صلح بين المسلمين و بين أهل مدينة من البلاد المفتوحة —

٥. الطبري، تاريخ، جـ١، ص ٢٥٤٣. انظر هذا في حال رامهرمز، وتستر، والسوس وجند يسابور، والبنيان، ومهرجا نقذق. وفي حال أرض اللكز والشابران وفيلان وطبرستان.

اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م) التاريخ، ٢ج، طبعة دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م، جـ٢، ص ١٦٨ و ص ١٦٨ وص ٣١٨ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، التاريخ.

٦. ابن أعثم الكوفي، أحمد (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) الفتوح، ٨ج، بعناية محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، جـ٢، ص ١١٢، انظر حال جرزان جـ٢، ص ١١٢، وانظر الصفحة نفسها لحال شروان. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن أعثم، الفتوح.

٧. ابن أعثم، الفتوح، ج ٨، ص ٣٢، انظر في حال الحصين.

٨. في رواية أبي عبيد للعهد أنه كتب سنة ثلاث عشرة. انظر: أبو عبيد، الأموال، ص ٢٩٧. بينما المجمع عليه بين معظم المؤرخين أن دمشق فتحت في رجب سنة ١٤، وانظر: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، طباعة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥١، جـ١، ص ٤٩٣ — ٤٩٧ و ص ٥٢١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ دمشق.

وأنظر: Donner, Op. eit, pp, 131 - 132.

٩. أبو عبيد، الأموال، ص ٢٠٦ — ٢٠٨؛ ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) فتوح مصر وأخبارها، تحقيق شارل توريو، مطبعة جامعة بريل، ليدن، ١٩٢٠م، ص ٨٥ — ٩٠. سيشار لهذا فيما بعد هكذا: ابن عبد الحكم، فتوح مصر؛ اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص ١٤٨؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٥٨٩؛ المقدسي، مطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، ٦ج، في ٣ مجلدات، نشر كلمات هوار، باريز، ١٨٩٩ — ١٩١٩م، جـ٥، ص ١٨٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي البدء والتاريخ.

تفليس في هذه الحال ــ، وهذه الروايات الخمس لا تتفق جُمَلها اتفاقاً كاملاً تاماً ــ كما هو جدير في الوثائق ضرورةً ــ الا في «بسم الله الرحمن الرحيم» في أولها، و «كفى بالله شهيدا» في آخرها، وفي «ألا أن يحال دونهم» في وسطها ؟ ! [١٠] ومرة أخرى يجد الدارس نفسه أمام تحديات يرصدها ويتنبه لها ولكنه يعجز عن ايجاد الحلول الجذرية لها، وكل ما يستطيع أن يفعله أن يستخدم النصوص استخداماً حذراً، ويقلب وجوه الاحتمال المتعددة تقليباً كثيراً، ويقيس الأشباه والنظائر، ويرجح حيث يمكنه أن يستأنس بما يقوى الترجيح، ويحجم عن ذلك حيث يجد التعارض بيّناً، ويستبعد اتخاذ المادة المختلف فيها اختلافاً لا وجه لبصيص نور من الحل فيه كعنصر مقرّر للنتائج التي يتوخى أن يتوصل إليها، فان النتائج القليلة الثابتة خير من الكثرة القلقة.

بقيت مشكلة المشكلات وهي مسألة موثوقية الوثائق عن عهود الصلح في هذه الفترة، وهذه مشكلة لا بد من مواجهتها، وسوف أتعرض لها من بعد.

تتكون المادة التاريخية عن عهود الصلح في زمن الفتوح من نوعين أساسيين هما الوثائق والأخبار، وكلاهما محفوظ في كتب التاريخ والخراج والأموال.

أما الوثائق فقد استطعت أن أجمع منها سبعة وعشرين عهد صلح بنصوصها، ثلاثة منها ترجع إلى خلافة الصدّيق (١١ ــ ١٣)، عقد جميعها خالد بن الوليد مع نقباء أهل الحيرة [١١]، وممثل بانقيا وبسما وقومه [١٢]، ونقيبي أهل البهقباذ الأسفل والأوسط [١٣]. وثلاثة تعود الى زمن عثمان بن عفان (٢٣ ــ ٣٥)، وقد عقد الأول

١٠. انظر الملحق رقم ١ في آخر هذا البحث فهو يحتوي على لوحات مقارنة لروايات العهود التي جاء فيها غير رواية ومن بينها عهد تفليس.

١١. عهد الحيرة في الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٤٤ وفي كتاب: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، طبعة ثالثة، دار الارشاد، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ص٣١٦، رقم: ٢٩٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد حميد الله، الوثائق السياسية.

١٢. عهد بانقيا في الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٥٠ وفي: محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣١٩، رقم: ٢٩٣.

١٣. عهد البهقباذ في: الطبري، تاريخ، جـ١، ص ٢٠٥١؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤، رقم: ٣٠١.

منها عبد الله بن سعد بن أبي سرح مع عظيم النوبة سنة ٣١، [١٤] والثاني عقده الأحنف بن قيس مع عظيم مرو الروذ في حدود سنة ٣٢ [١٥]، والثالث عبد الله بن عامر بن كريز مع عظيم هراة وبوشنيج وبادغيس؛ [١٦] وهناك نص لعهد صلح فريد منفرد متأخر يرجع الى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦)، وهو ما صالح به قتيبة ابن مسلم غوزك بن اخشيد صاحب السند وافشين الترك؛ [١٧] وباستثناء هذه العهود السبعة تعود جميع العهود العشرين الباقية الى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣ ــ ٢٣) وهي موزعة على الشكل الآتي (والترتيب المعتمد هنا في ايرادها زمني تقريبي، يتكىء اما على التواريخ المذكورة في خواتيم العهود، أو بالاستئناس بما جاء لدى الطبري من بين المؤرخين بشكل خاص):

عهد خالد بن الوليد لأهل دمشق [١٨]،

وعهد أبي عبيدة بن الجراح لأهل بعلبك [١٩]،

١٤. عهد النوبة في: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، خطط المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢ج، دار الطباعة المصرية، ببولاق، ١٢٧٠هـ، ص ٢٠٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما هكذا: المقريزي، الخطط؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٩٣ ــ ٣٩٤ رقم: ٣٦٩.

١٥. عهد مرو الروذ في: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٩٠٠؛ محمد حميد الله الوثائق السياسية، ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩، رقم: ٣٤٥.

١٦. عهد حرات في: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٠١؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٦٧، رقم ٣٤٣.

١٧. عهد السغد في: ابن أعثم، الفتوح، جـ٧، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٦؛ اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ص ٢٨٧، ولم يرد لدى محمد حميد الله في مجموعة الوثائق السياسية.

١٨. عهد دمشق في:
أبو عبيد، الأموال، ص ٢٩٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٤٣؛ قدامة بن جعفر، (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٩٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة بن جعفر، الخراج؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ١، ص ٥٠٢ و ٥٦٩، و ٥٧٠؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥، رقم: ٣٥٢ وفيه أنه أيضاً في كتاب الأموال لابن زنجويه ــ وهو مخطوط.

١٩. عهد بعلبك في: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٤؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٧٨، رقم: ٣٥٦.

عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس (٢٠)

عهد عمر بن الخطاب لأهل لدّ وغيرها من أهل فلسطين (٢١) ،

عهد عياض بن غنم لأهل الرها (٢٢) ؛

عهد عياض بن غنم لأهل الرقة (٢٣) ؛

عهد حبيب بن مسلمة لأهل دبيل (٢٤) ؛

عهد حبيب بن مسلمة لأهل تفليس (٢٥) ؛

عهد النعمان بن مقرن لأهل ماه بهراذان (٢٦) ؛

عهد حذيفة بن اليمان لأهل ماه دينار (٢٧) ؛

---

٢٠. عهد بيت المقدس في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٤٠٥ ـــ ٢٤٠٦ ؛ اليعقوبي، التاريخ، جـ ٢، ص ١٤٧ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٧٩ ـــ ٣٨٠، رقم : ٣٥٧.

٢١. عهد لد وفلسطين في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٤٠٦ ـــ ٢٤٠٧ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٨١، رقم : ٣٥٨.

٢٢. عهد الرها في :
أبي عبيد، الأموال، ص ٢٩٨ ؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٧ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٨٢، رقم ٣٦١، وفيه أنه أيضاً في كتاب الأموال لابن زنجويه ـــ وهو مخطوط ـــ.

٢٣. عهد الرقة في :
البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٦ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٨١، رقم : ٣٥٩.

٢٤. عهد دبيل في :
البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٧ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٦٩، رقم : ٣٤٦.

٢٥. انظر الملحق رقم ١، لعهد تفليس وهو في : محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٥٨ رقم ٣٣١.

٢٦. عهد مابهراذان في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٦٣٢ ـــ ٢٦٣٣ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٥٨، رقم : ٣٣١.

٢٧. عهد ماه دينار في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٦٣٣ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٥٩، رقم : ٣٣٢.

عهد عمرو بن العاص لاهل مصر (٢٨) ؛

عهد أبي موسى الأشعري للفاذ وسفان وأهل أصبهان (٢٩) ؛

عهد نعيم بن مقرّن للزينبي بن قوله وأهل الري (٣٠) ؛

عهد نعيم بن مقرّن لمروان شاه مصمغان ونباوند وأهل دنباوند والخوار واللارز والشرز (٣١) ؛

عهد سويد بن مقرّن لأهل قومس (٣٢) ؛

عهد سويد بن مقرّن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهسقان وسائر أهل جرجان (٣٣) ؛

---

٢٨. عهد مصر في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٥٨٧ ـــ ٢٥٨٩ ؛ القلقشندي، أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الانشا، ١٤ج، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣١م، جـ ١٣، ص ٣٢٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : القلقشندي، صبح الأعشى ؛ ابن خلدون، عبد الرحمن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، التاريخ، العبر...، ٧ج، المطبعة الكبرى، القاهرة، عن طبعة بولاق ١٢٨٤هـ، ج ٢، ص ١١٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن خلدون، التاريخ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٨٦ ـــ ٣٨٧، رقم ٣٦٥ ومصادره.

٢٩. عهد أصبهان في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٦٤١ ؛ الأصبهاني، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) أخبار أصبهان، ٢خ طبعة ليدن، ١٩٣٤، جـ ١، ص ٢٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : أبو نعيم الأصبهاني، أخبار أصبهان ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٥٩ ـــ ٣٦٠، رقم : ٣٣٣.

٣٠. عهد الري، في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٦٥٥ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٢٦٠، رقم : ٣٣٤.

٣١. عهدديناوند وغيرها في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٦٥٦ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٦٠، رقم : ٣٥٥.

٣٢. عهد قومس في :
الطبري، تاريخ، جـ ١، ص ٢٦٥٧ ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٦١ ؛ رقم : ٣٣٦.

٣٣. عهد جرجان في :
الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٧٥٨ ـــ ٢٦٥٩ ؛ ابن ابراهيم السهمي، أبو القاسم حمزة بن يوسف ابن ابراهيم الشهمي (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٦م)، تاريخ جرجان، حيدر آباد، الركن الهند، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، ص ٥ ـــ ٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما هكذا : أبو القاسم السهمي، تاريخ جرجان ؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٦٢ ـــ ٣٦٣ رقم : ٣٣٨.

عهد سويد بن مقرّن للفرّخان اصبهبذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان (٣٤)؛
عهد عتبة بن فرقد لأهل أذربيجان (٣٥)؛
عهد سراقة بن عمرو لأهل شهربراز وسكان أرمينية والأرمن (٣٦)؛
عهد بكير بن عبد الله لأهل موقان من جبال القبج (٣٧).

هذه هي العهود التي لدينا، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن فوراً هو: هل هذه العهود صورة دقيقة عن الوثائق الأصلية التي دونت عند كتابة عقود الصلح؟ ان هذا التساؤل عن مدى «موثوقية» هذه العهود تساؤل مشروع، بل أنه لا يجوز أن يُعْبَرَ عنه فتؤخذ النصوص مأخذ التسليم المطلق، وقد تطرق اليه بشكل مكثف الأخ الصديق آلبرشت نوت سنة ١٩٧٣، وذلك في دراسة متأنية دقيقة هادئة في نقد الروايات التاريخية (٣٨) وقد أفدت من النتائج التي توصل اليها نوت في هذه الدراسة، وسوف أشير الى اسهاماته في حقلها فيما يلي.

والحقيقة أن العامل الذي يجعل القطع بموثوقية العهود المذكورة أمراً متعذراً حتى الآن هو أن أصولها جميعاً قد ضاعت ولم تصلنا، ولعله لو حفظ أصل واحد منها وحسب — كأن يكون بين البرديات المكتشفة — لباتت القضية محسومة أو شبه محسومة — سلباً أو إيجاباً — إذ أنه يمكن للدارس اذ ذاك أن يقارن نص الوثيقة الأصلية بنص العهد

٣٤. عهد طبرستان في:
الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٢؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ رقم: ٣٣٨.

٣٥. عهد أذربيجان في:
الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٢؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٦٣ رقم ٣٣٩.

٣٦. عهد أرمينية في:
الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٥ — ٢٦٦٦؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٧٤، رقم: ٣٥١.

٣٧. عهد موقان في:
الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٦ — ٢٦٦٧؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٧٣ رقم: ٣٥٠.

٣٨. Albrecht Noth, Quellenkritische Studien zu Themen, Formen und Tendenzen Frühislamischer Geschichtsüberlieferung, Teil I: Themen und Formen. Selbstverlag des Orientalischen Seminars der Universitat Bonn, Bonn, 1973, SP. pp. 60-71.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Noth, Quellenkritische

كما نقله الرواة والمؤرخون في المصادر، فينكشف بذلك الحق من الباطل. والعامل الآخر الذي يزيد المسألة بعداً عن الحسم وتقريباً من الشك هو اختلاف الروايات في بعض هذه العهود التي جاء فيها غير رواية (٣٩) — علماً أن معظمها ورد برواية واحدة —، وهذه الاختلافات طفيفة جداً في بعض العهود، وبالذات صلح مصر وصلح أصفهان وصلح جرجان (٤٠)، إلا أنها غير طفيفة في الروايات الثلاث لصلح الرها — وهي في الأصل اثنتان (٤١) — بل هي أكبر بكثير في صلح دمشق (٤٢)، وقد وصلنا منه ست روايات، إذ هناك تفاوت بين الروايات في ثبوت البسملة أو سقوطها (٤٣)، وفي ثبوت تاريخ العهد أو عدمه، ثم في التاريخ نفسه (سنة ١٣/ سنة ١٤)، وفي ثبوت اسماء الشهود، وفي هويتهم أيضاً؛ كذلك يحل تعبير «هذا ما أعطى خالد ابن الوليد أهل دمشق إذ دخلها» لدى البلاذري وقدامة محلّ «هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق» لدى أبي عبيد وابن عساكر (برواياته الثلاث)، بالاضافة إلى أن الجملة «وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم»، وقد وردت لدى البلاذري وقدامة، مكانها في نص أموال

٣٩. أرى أن الأستاذ نوت قد أخطأ حينما اعتبر العهود المختلف في رواياتها ثلاثاً وحسب، فهي أكثر كما يظهر من هذا المكان من البحث. وأخطأ مرة أخرى حين جعل اثنين من هذه العهود الثلاثة صلح الرها وصلح ابن صلوبا. أما صلح الرها فان له روايتين هذا صحيح، ولكنهما غير الروايتين اللتين أوردهما الأستاذ نوت نقلاً عن البلاذري. انظر الملحق رقم: (١) فان واحدة منهما هي وثيقة الصلح بعد الاتفاق على الصلح وهي معقودة مع أهل الرها، والثانية هي العرض المقدم من عياض بن غنم قبل الصلح لشروط الصلح، وهي معقودة مع ممثل أهل الرها: أسقف الرها انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ق١، ص ٢٠٦ — ٢٠٧. أما صلح ابن صلوبا فقد جعل الأستاذ نوت له روايتين كلتاهما في: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ١٢١٧ و ٢٠٥٠، والثانية وحدها — في نظري — هي وثيقة الصلح، أما الأولى فانها أشبه بالبراءة — أو ما نسميه اليوم «الايصال» — وكان معروفة زمن الفتوح أنظر: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٥٤ — ٢٠٥٥، اذ فيها جمل تفسيرية اضافية معترضة وليس هناك أي لبس في تعبيرها عن أن الصلح كان قد انتهى أمره، وكتب عهده، ودفعت الجزية المترتبة على بانقيا وبسما بموجبه. انظر: Noth, Quellenkritische, p. 70.

٤٠. انظر الملحق رقم: ١.

٤١. الرواية الواردة لدى ابن زنجويه منقولة حرفاً عن رواية أبي عبيد في كتاب الأموال.

٤٢. انظر الملحق رقم: ١

٤٣. لم يطلع الأستاذ نوت على الروايتين الواردتين لدى ابن عساكر (١: ص ٥٦٩ وص ٥٧٠). ولذا قال: بأن جميع الوثائق التي يعرفها تبدأ بالبسملة. Noth, Quellenkritische p. 63.

أبي عبيد: «قال أبو عبيد: وذكر فيه كلاماً لا أحفظه»، فيما جاء مكانها في روايات ابن عساكر «ألا تسكن ولا تهدم/ إن تهدم أو تسكن». وعندما نصل الى صلح تفليس تصبح الخلافات كبيرة جداً. فهناك من هذا الصلح خمسة نصوص[٤٤] ترجع في الأصل إلى روايات ثلاث[٤٥] هي رواية أحمد بن الأزرق (من أهل أرمينية) لدى أبي عبيد القاسم بن سلاّم، ورواية برمك بن عبد الله (من أهل دبيل) لدى البلاذري، ورواية سيف بن عمر لدى الطبري، وهذه الروايات تتخالف فيما بينها ليس وحسب بالألفاظ (ومن تولى عن الايمان والاسلام والجزية/ ومن تولى عن الله ورسله وحزبه وكتبه) وبترتيب الألفاظ («هذا عليكم وهذا لكم/ هذا لكم وهذا عليكم)، وانما أيضاً بالزيادة والحذف على مستوى صغير (والا فالجزية عليكم وهي ثابتة في رواية البلاذري وحدها)، وعلى مستوى أكبر (بعد أن تفيئوا إلى المؤمنين والمسلمين، وهي ثابتة في رواية الأموال وحدها)، وعلى مستوى خطير («شهد عبد الرحمن بن خالد والحجاج وعياض، وكتب رباح» وهي ثابتة في رواية الطبري وحدها)، وفي هذا ما فيه من الخطورة ومن الالقاء للشك على مدى المطابقة بين نصوص عهود الصلح الأصلية وبين نصوصها المحفوظة لدينا في المصادر.

بالمقابل نجد في المصادر روايات عدة من أشخاص رأوا بأم أعينهم النسخ الأصلية للعهود المروية[٤٦]، كما رُوي أن رسولاً لعمر بن عبد العزيز شاهد لدى أسقف الرها درجاً أو حقاً فيه كتاب صلحهم[٤٧]. فهل يقوّي مثل هذه الاخبار موثوقية نصوص العهود تقوية كافية لتزيل التشكيك فيها؟

---

٤٤. الروايات في كتب أبي عبيد والبلاذري والطبريات و ياقوت الحموي، في معجم البلدان وابن زنجوية في كتاب الأموال: انظر الملحق رقم ١٠ وارجع:

Noth, Quellenkritische p. 69.

٤٥. رواية ياقوت تعتمد على الرواية لدى البلاذري، ورواية ابن زنجويه تعتمد على الرواية لدى أبي عبيد.

٤٦. أنظر:
أبو عبيد، الأموال، ص ٢٩٨؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٦ و ص ٢٩٨؛ ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص ١٨٩؛ ابن عساكر، التاريخ، جـ ١، ص ٥٠٢.

٤٧. أبو عبيد، الأموال، ص ٢٩٨.

انني أرى أن ذلك غير ممكن، وأن التشكيك هذا سيظل وارداً وبقوة، فما ذا اذن يكون موقفنا ــ كباحثين ــ منها؟

لقد عالج الأستاذ نوت هذه القضية وتوصل بعد البحث المتأني الدقيق المتدرج للشكل (Form) الذي جاءت هذه العهود عليه[٤٨]، الى أنها وان كانت لا تمثل نقلا نصيّاً حرفياً لأصول العهود المبرمة زمن الفتح، إلا أنها ــ من ناحية مقابلة ــ ليست موضوعة من حيث المبدأ، لا من جانب شخص واحد (أحد الرواة أو غيره) ولا بشكل منظم مدروس متعمد (لخدمة هوىً أو غيره)[٤٩]. وانما الأمر الذي حدث أن روايتها تنوقلت خلال فترة زمنية متطاولة، وشفوياً على الأكثر، فحدثت ألوان من الخلل في رواياتها (استبدال المفردات بمفردات مطابقة في المعنى مخالفة في اللفظ، أو السهو عن عبارة... الخ)[٥٠]، وهي بشكل عام يمكن أن تعطي صورة تقريبية لخصائص المعاهدات المكتوبة وشكلها في عصر الفتوحات المبكر[٥١].

هذه هي النتائج التي توصل اليها الأستاذ نوت، وأود أن أؤكدها هنا أكثر باستعمال منهج لم يستعمله هو، وهو مقارنة بعض خصائص هذه العهود من ناحية الشكل بخصائص وثائق إدارية وصلتنا أصولها الأصلية على ورق البردي، وان كانت ترجع الى عصر متأخر بعض الشيء عن عصر الفتوح الرئيسي، بين سنتي ٨١، ١١٠ هجرية. فمثلا ابتداء الوثيقة ب «هذا مما أمر به...»، وهو وارد في افتتاح صلح هراة[٥٢]، جاء في برديّات ترجع الى السنوات ٨٦ و ٨٩ و ١١٠[٥٣]. كذلك ابتداء

---

٤٨. Noth, Quellenkritische, pp. 66 - 67.

٤٩. Ibid, p. 68.

٥٠. Ibid, p. 68, and see p. 71.

٥١. Ibid, p. 71.

٥٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٠١.

Adolf Grohmann, Arabic Papyri in the Egyptian Library. The Egyptian Library Press, Cairo, 1934 - 1962, Vol. I, nos. 12, 13, 34.

سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا:

Grohmann, Arabic

الوثيقة بـ «هذا كتاب من... لأهل... انه...»، وهو وارد في مطلع صلح بانقيا وبسما (٥٤) ودمشق (٥٥) ودبيل (٥٦) وتفليس (٥٧) واصفهان (٥٨) ودنباوند (٥٩) وطبرستان (٦٠) وبشكل مغاير قليلاً في صلح الرها (٦١)، نجده في برديّات متعددة ترجع إلى سنة ٩١ و١٠٣ (٦٢) والابتداء بـ «من.... الى ...»، وهو موجود في رأس صلح مرو الروذ (٦٣)، محفوظ في غير برديّة (٦٤)، كما نجد في هذا الصلح نفسه مباشرة بعد اسم المرسل واسم المرسل إليه التحية الخاصة «سلام على من اتبع الهدى» وهو أيضاً مكتوب في بردية تعود إلى السنة. والحال هو نفسه بالنسبة لاستعمال كلمة «جزية» في روايات عهود الصلح جميعها لدينا تقريباً، فإنها متكررة في بردية واحدة ترجع إلى سنة ٩٠ أو ٩١ (٦٥).

هذا لجهة مطالع الوثائق، أما لجهة نهاياتها، فلدينا مواطن شبه ثلاثة بين روايات عهود الصلح وأصول البرديات المحفوظة في مصر. أولها الاشارة إلى كاتب الوثيقة بكلمة «كتب»، اما وحدها أو متلوه باسم الكاتب، وهذه ظاهرة مميزة لاثنين وعشرين

٥٤. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٤٠٥٠.

٥٥. أبو عبيد، الأموال، ص ٢٩٧، ومصادر أخرى (أنظر الملحق رقم: ١).

٥٦. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٧.

٥٧. أبو عبيد، الأموال، ص ٢٩٩ — ٣٠٠. (وانظر الملحق رقم: ١ للمصادر الأخرى).

٥٨. الطبري، التاريخ، جـ١ ص ٢٦٤١.

٥٩. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٥٦.

٦٠. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٥٩ — ٢٦٦٠.

٦١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٧ (وانظر المحلق رقم ١١١ للمصدرين الآخرين.

Grohmann, Op. cit, Vol. III, nos. 160, 161 162, 163, 174.

٦٣. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٩٠

Grohmann, Op. cit, Vol. III, nos, 148 150, 151

Ibid., Vol III, no. 149

من العهود السبعة والعشرين التي وصلتنا (٦٦) (ومن بينها سبعة تحمل اسم الكاتب) (٦٧)، وهي الظاهرة نفسها المميزة لعدد غير قليل من البرديات الادارية (٦٨)، وثانيها تسجيل تاريخ كتابة الوثيقة (٦٩)، ومعظم العهود التي فيها «كتب» فيها التاريخ، كما هو الحال تماماً في وثائق البردي، وترجع إلى السنوات ٩٠ و٩١ و١٠٣ (٧٠) وثالثها الاشارة إلى الختم الذي به ختم العهد، وصور البرديات يحمل عدداً لا بأس به منها رسم الخاتم المختومة به (٧١)، ونحن لدينا خمسة عهود ينصّ على أنها كانت مختومة وهي عهود الرقة ودبيل ومرو الروذ وهراة والسفد (٧٢).

ان هذا الرصد لأوجه التشابه بين شكل العهود التي وصلت الينا وبين شكل الوثائق الأصلية الادارية التي حفظت لنا يعزز دون شك موثوقية العهود التي بين أيدينا من حيث انتماؤها إلى فترة مبكرة، ومن حيث أنها ليست من المزوّر الموضوع، ومن

٦٦. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٥٠، في صلح نيقيا؛ الطبري، التاريخ، ج١، ص ٢٠٤٥، في صلح الحيرة؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٥١، في صلح البهبقباذ؛ أبوعبيد، الأموال: ص ٢٩٧، دمشق؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٤٠٦ / القدس؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٤٠٧ / اللدر؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٣٣، ماة بهراذان وماه دينار؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٥٥٩، مصر؛ المقريزي / الخطط، جـ١، ص ٢٠٠، النوبة؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٤١، أصفهان؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٥٥ الري، الطبري، التاريخ، جـ١ ص ٢٦٥٦، دبناوند؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٥٧، قومس / الطبري التاريخ، جـ١ ص ٢٦٥٩، جرجان؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٠، طبرستان / الطبري، التاريخ، جـ١ ص ٢٦٦٢، أذربيجان؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٦، شهربراز أرمينية / الطبري، التاريخ ج١ ص ٢٦٦٧، موقان؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٩٠٠، مرد الروذ؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٠١، هرات؛ ابن أعثم، الفتوح، جـ٧، ص ٢٤٦، السغد. وسوف يجيء الحديث عن «الكاتب» فيما يلي، انظر ص: ٤٤.

٦٧. هي العهود مع أهل مصر والنوبة وأذربيجان وأرمينية ومرو الروذ وهرات والسغد (أنظر الحاشية السابقة وانظر ما يلي: ص ٤٤ — ٤٥.

٦٨. Crohmann, Op. cit, Vol. III, nos, 146, 147, 148, 150, 151, 152, 153, 154, 155, 160, 161, 162, 163, 174

٦٩. انظر الحاشية رقم (٥) في الصفحة السابقة، وانظر الحديث عن تاريخ العهود فيما يلي، ص ٤٦.

٧٠. انظر الحاشية رقم (٢) أعلاه.

٧١. انظر اللوحات المرفقة بالأجزاء المختلفة لكتاب جرومان.

٧٢. لأرقام صفحات المصادر لهذه العهود، انظر الحاشية رقم (١) أعلاه ويجيء الحديث عن ختم العهود في ص ٤٦ مما يلي من هذا البحث.

حيث الخصائص العامة لها، كما قال ألبرشت نوت، بحيث يمكن اعتبارها صورة طيبة عن المادة الأصلية الأصيلة المفقودة، أما موثوقيتها من ناحية اللفظ الحرفي فإن ذلك موضع شك غير قليل.

لأجل هذا كله أرى أن يعامل الدارس هذه العهود معاملة التوثيق المبدئي، فيضعها في مرتبة أعلى من مرتبة الخبر، ولكنها ليست من العلو بمكان بحيث تصل الى درجة «تقديس» النص اطلاقاً. وعندما يكون هناك غير رواية للعهد الواحد، يعتمد رواية واحدة (من المستحسن أن تكون الأقدم)، و يشير إلى فروق الروايات اشارة للفائدة؛ اما عندما تكون الروايات وفي بعضها حذف وفي بعضها الآخر زيادة، فأرى ألا يرمي بالزيادات جانباً اذا كانت غير ثابتة في الرواية القديمة، على أن يشار الى مكان ورودها بوضوح.

نأتي الآن الى النوع الثاني من المادة التاريخية التي لدينا عن عهود الصلح زمن الفتوح، وذلك هو الأخبار.

وتشكل الأخبار مادة «عاضدة» أو «مساعدة» للمادة الرئيسية — أعني روايات العهود بنصوصها — وهي تقع في أنواع ثلاثة: الأخبار الحُكْمية، والأخبار الوصفية، والأخبار شبه الوثيقية.

وأعني بالأخبار الحُكمية تلك المجموعات من الروايات التي تقترن رواية الحَدَث فيها برواية لحُكْمٍ شرعي أو أحكام شرعية مستمدة من الحدث نفسه، وأكثر ما ترد هذه الروايات عندما يكون هناك أمر مختلف فيه حول ذلك الحدث، فتختلف الأحكام، و يقول الفقهاء ما لديهم فيه، وحتى لو أبرزت الروايات أنهم متفقون في النهاية، فان هذا لا يخفي الطبيعة الخلافية ومن ثم الطبيعة الحُكْمية لهذا اللون من الروايات. ونحن نجد هذا النوع بخاصة لدى الخلاف على ما اذا كان فتح مكان ما قد تم «صلحاً» أو «عنوة»، كما هو الأمر في حالي مصر والسواد (العراق) كما نجده في حال الخلاف على جواز أبناء «المصالحين» رقيقاً، كما هو الحال في صلح النوبة. أما الحالة الأولى فقد عالجها ألبرشت نوت في بحثٍ له بعنوان «في العلاقة بين سلطة الخليفة

المركزية و بين الولايات في العصر الأموي: روايات الصلح والعنوة لمصر والعراق»(٧٣)، وقد توصل فيه ببراعة ظاهرة الى ارجاع الروايات عن فتح مصر **عنوة** الى عصر متأخر يرقى الى أواخر القرن السابع الميلادي وأوائل الثامن، وارجاع الروايات عن فتح العراق عنوة — **مع العهد الذي كان لهم مع المسلمين** — الى زمن الحجاج بن يوسف، كما قدر أن الأثر المشهور عن عمر بن الخطاب في قسمة الأرضين هو من عمل الرواة في هذه الفترة نفسها، وقد كان تفسير نوت لظاهرة الوضع في هذه الروايات أن الدولة الأموية كانت في هذه المرحلة تعمل بكل الوسائل على تقوية السلطة المركزية اقتصادياً وسياسياً مقابل سلطة الأطراف، فلما اعتبرت مصر عنوة أصبحت أرضها فيئاً للمسلمين جميعاً، ويمثل المسلمين الدولة، ولما أرادت أن تفرض الشيء نفسه على العراق قامت المعارضة فيه بالتأكيد عن أنه كان للسواد — رغم العنوة — مع المسلمين، وروجوا أثر عمر عن قسمة الأرضين، فقام الحجاج بقتل اثنين ممن شاركوا في هذه الحملة، اذ كانت في نظره محاولة لانتقاص السلطة من يدي الحكومة المركزية.

وقبل أن أتعرض لمناقشة النتائج التي توصل اليها ألبرشت نوت، أود أن أعرض للنموذج الثاني من الأخبار الحكمية، وهو صلح النوبة، وصلح النوبة هذا وصلتنا رواية عن نصه بعقد عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خطط المقريزي(٧٤)، تندرج ضمن العهود الموثقة نسبياً لدينا(٧٥). فمن الشروط الموضوعة على أهل النوبة في هذا «العهد» — الذي يسمى أيضاً: «الهدنة» و«الأمان» — ان عليهم ارسال الرقيق منهم الى المسلمين: «عليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها الى امام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيهم ذكران واناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك الى والي اسوان». وقد أثار هذا الشرط عدداً من التعليقات من جانب الفقهاء، انقسموا فيها بين فريق لا يرى بأساً فيه وفريق يكرهه. وتدل الروايات التي جاءت ضمنها تعليقات الفقهاء، ان الحوار — والخلاف —

٧٣. Noth, Ablrecht, "Zum Verhältnis von kalifaler Zentralgewalt und Provinzen in umayyadischer Zeit: Die "Sulh- cAnwa". Tra ditionen für Ägypten und den Iraq, **Die Welt des Islams.** 14 a(1973), pp. 150-162.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Zum Verhältnis

٧٤. المقريزي، الخطط، جـ ١، ص ٢٠٠

٧٥. انظر الملحق رقم (٢)

كانت ساحته واسعة شبه شاملة، ضمت المدينة ومصر والعراق والشام (٧٦)، وان الفترة التي اشتد فيها كانت النصف الأول (وبعض الثاني) من القرن الهجري الثاني (٧٧)، كما تدلّ على أن الفريق الذي كرهه لا يبين الا القليل البسيط من البرهان لكراهيته (قال أبو عبيد: «واما سفيان وأهل العراق فيكرهون ذلك، قال أبو عبيد: وهو أَحَبُّ القولين اليّ، لأن الموادعة أمان، فكيف يُسْتَرَقُّون؟! (٧٨) فيما يقوم الفريق الذي يبيحه بحملة قوية في الدفاع عنه، تسلك من أجل ذلك مسالك عدة:

١. تخصيص هذا «الصلح» بمفهوم المحدودية الشديدة (٧٩).
٢. تسميته «هدنة» وتمييزه عن «العهد» و «الميثاق» (٨٠).
٣. اعتباره الرقيق «هدية» (٨١).
٤. ارجاع عملية أخذ الرقيق الى ارادة ذلك عند النوبيين: «ومن باع ولده من أهل الصلح من العدو فلا بأس باشتراء ذلك منه» (٨٢).
٥. اعتبار الرقيق جزءاً من «عملية تبادل» بسيطة: «يعطوننا رقيقاً (٨٣) ونعطيهم

٧٦. من رواة التعليقات يحيى بن سعيد الأنصاري، وهو مدني، والليث بن سعد وكان بمصر، وكذلك يزيد بن أبي حبيب، والأوزاعي وهو شامي، وسفيان الثوري وكان بالعراق، وكذلك أبو عبيد القاسم بن سلام،

٧٧. أقدم مشترك في هذه الأخبار هو زيد بن أبي حبيب وهو متوفي سنة ١٢٨هـ، ثم يحيى بن سعيد الأنصاري وهو متوفي سنة ١٤٤هـ، ثم الأوزاعي متوفي سنة ١٥٧هـ، ثم سفيان الثوري وهو متوفي سنة ١٦١هـ، ثم عبد الله بن لهيعة وهو متوفي سنة ١٧٤هـ، وبينه وبين الليث بن سعد في الوفاة ثلاث سنوات.

٧٨. أبو عبيد، الأموال: ص ٢١٦.

٧٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨١، «عن الليث بن سعد قال: انما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلونا»

٨٠. عن يزيد بن أبي حبيب «ليس بيننا وبين الأساور عهد ولا ميثاق، انما هي هدنة بيننا وبينهم، أنظر ذلك في: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٠ ــ ٢٨١؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٨٨؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٥.

٨١. الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٥٩٣، ترى هل لفظة «هدية» تصحيف عن «هدنة»؟

٨٢. عن يحيى بن سعيد الأنصاري، انظر: أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٥.

٨٣. في الأصل: دقيقاً، وهو خطأ مطبعي.

طعاما» (٨٤).
٦. اعتبار أن أحكام المسلمين لا تجري على النوبة (٨٥).

هذا الشغف المبالغ فيه في «التغطية» على هذا البند من صلح النوبة وايجاد المسوغات له قد يثير بعض الشك في نفس الباحث، وهو شك يقوى لديه عندما يلاحظ أن معظم هذه الأخبار يرجع الى يزيد بن أبي حبيب، وأبو حبيب والدُهُ هذا كان هو نفسه ــ واسمه سويد ــ من النوبة (٨٦)، فكأن المراد بذلك كله هو التأكيد على أن النوبة أنفسهم راضون عن ذلك، فلماذا يحرص المسلمون عليهم أكثر مما يحرصون هم على أنفسهم؟

ولدى التفتيش عن الدافع تعطينا الأخبار نفسها الدليل، جاء في تاريخ الطبري «وامضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من الولاة والأمراء، وأقرّه عمر بن عبد العزيز، نَظَراً منه للمسلمين وابقاءً عليهم» (٨٧)؛ ولئن أراد ناقلو هذا الحديث التأكيد على صواب بند الرقيق في صلح النوبة، فانهم أعطونا طرف الخيط لاكتشاف الداعي إلى كل هذه الضجة: لقد عمل المسلمون سنة ٣١ (٨٨)، زمن عثمان، صلحاً مع النوبة، طلبوا فيه منهم أن يكون من شروطه ارسال عدد من الرقيق كل سنة، ووافق أهل النوبة بكل بساطة على ذلك، ولم يروا في ذلك أمراً غير عادي عليهم، بل لعل اعتيادهم ذلك هو الذي حفز المسلمين على وضعهم ذلك الشرط معهم. وهذا هو الواقع البسيط، وهذا هو الأمر الذي تم، وعندما تم لم يكن هناك أحد يفكّر بمنطق: هل هذا جائز في الشرع؟ كما لم يفكّر أحد بهذا المنطق عندما فتح عمرو بن العاص برقة وانطابلس وطلب الى أهلها في صلحهم أن يدفعوا جانباً من الجزية بشكل رقيق من أبنائهم لمن شاء منهم أن

٨٤. أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨١؛ الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٥٩٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٨٨؛ اليعقوبي، التاريخ، جـ ٢، ص ١٦٦.

٨٥. وهو قول الأوزاعي، أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٥.

٨٦. ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٨٨.

٨٧. الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٥٩٣.

٨٨. ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٨٨، وانظر العهد في الملحق رقم (٢).

يبيع أبناءه[89]، ولا عندما فرض اعطاء الرقيق على البربر في مراقة ولبدة وسبرة وزويلة[90] وعلى بربر لواتة أيضاً[91] — وهذا كله في المغرب من دون المشرق. وأظن أن ما حدث هو أنه بعد ان استقر المسلمون في الأراضي المفتوحة، وبدأ علم الفقه بالنمو والتشعب، منذ أوائل القرن الثاني، نظر الفقهاء، وخاصة المصريون منهم فيما حدث، فوجدوا في بند الرقيق في صلح النوبة وغيرها شذوذاً عن سنن المسلمين المعتمدة على المستوى المثالي، كما وجدوا شذوذاً في واقع الحال في النوبة وغيرها منذ الصلح وحتى زمانهم، فساءهم ذلك، فعبروا عن استيائهم باحدى طريقتين: بالصراحة ومن ثم باعلان التحفظ عليه أمراً واقعاً مفروغاً منه، وهو موقف الكارهين (سفيان وأهل العراق)، وبالمكابرة والتسويغ ومن ثم الاضطرار إلى افتعال الأعذار والتفسيرات الوهمية والبراهين الملتوية، وهذه حالة من حالات عدة لدينا في تاريخنا يسبق فيها الواقعُ التنظيرَ التسويغيَّ له. وبعد كل شيء يبقى أمر واحد: سواء كان صلح النوبة خرقاً من جانب المسلمين لسننهم المعهودة أو لم يكن، وسواء كان أمراً له تفسيراته أو لم يكن، وسواء أسبغت عليه الشرعية أو لم تسبغ، وزُوِّرت في سبيله الأخبار والروايات أو لم تزوّر، فان الواقع هو الذي يحكم وهو صاحب السلطة، وأحكام الرواة والاخباريين يمكن تركها جانباً بعد معالجتها وفهم ما فيها من باب الاستطلاع، وأكاد أقول: ليس أكثر، فان موثوقيتها لا تثبت أمام التمحيص.

لنرجع الآن الى المسألة الأصلية في «الأخبار الحُكْمية» وهي تلك المتعلقة بما قاله نوت عن مصر والعراق، فأقول انه بناء على ما سبق أقول: ان تدقيق الرجل في الروايات الحكمية وتوصله الى أنها موضوعة في وقت متأخر لأسباب معينة أمر يحمد عليه؟ ولكن يبقى السؤال الكبير: اذا كانت الروايات المتأخرة الموضوعة تحكم بأن مصر فتحت عنوة، ألم تعامل أرض مصر كأرض عنوة في الواقع العملي؟ وأرض العراق

89. أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٤؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٤؛ اليعقوبي، التاريخ، جـ ٢، ص ١٥٦؛ ابن أعثم، الفتوح، جـ ٢، ص ٣

90. ابن أعثم، الفتوح، جـ ٢، ص ٢

91. ابن زنجويه، الأموال، الورقة: ٦٥ أ نقلاً عن الوثائق السياسية لمحمد حميد الله وص ٣٩٠.

كذلك؟ وعلى افتراض أن عمر لم يكن صاحب الأثر في «قسمة الأرضين»، أفلم يكن **مضمون هذا الأثر** — كائناً من كان قد حكم به — هو المقرّر لكيفية العمل في أراضي الفيء على المستوى الواقعي؟ واذا كانت سُنَّةٌ قد سُنَّتْ منذ بدايات الفتوح، فهل يجرؤ زياد أو الحجاج (ولا نَعرف عما أحدثه شيئاً باعتراف نوت) على تغييره؟

وتلخيصاً لكل ما سبق أقول: انه بالنسبة للأخبار الحُكْمية، أرى أن تفهم الأحكام التي فيها — بعد الدرس والتفحص — على أساس فترة زمنية تالية للفتوح ومنطق لدى الفقهاء حريص على ابقاء صورة الاسلام ناصعة بيضاء. فاذا كان في مثل هذه الأحكام ما يؤثر على الخبر نفسه، فانه يحذف ويبقى من الخبر ما هو ذو قيمة تبليغية فقط، وبذلك «تصفو» الأخبار لتقترب من النوع الثاني من الأخبار عن عهود الصلح التي لدينا: أعني الأخبار الوصفية.

هذه الأخبار تشكل أكبر قسم من المادة المتوفرة لنا، وهي منثورة في كتب التاريخ المعنية بهذه الفترة: من خليفة بن خياط إلى البلاذري الى ابن عبد الحكم إلى اليعقوبي فالطبري فابن اعثم والمقدسي وابن الأثير وابن خلدون والمقريزي، وكتب تواريخ المدن: القشيري الحراني (الرقة) والنرشخي (بخارى) وأبو نعيم (اصفهان) والسهمي (جرجان) وابن عساكر (دمشق)، وكتب الخراج والأموال: أبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني وأبو عبيد القاسم بن سلام وقدامة بن جعفر وابن زنجوية.

وتعطي هذه المصادر كلها أخبار فتوح البلاد وكتابة عهود الصلح مع من صولح عليه منها، وفائدتها الأولى والكبرى أنها تبين الظرف الذي حدث فيه صلح معين، فهي تشرح لنا «خلفية» عهود الصلح، ومنها جميعاً موضوعةً في قَرَن ومتفحِّصة بعين المؤرخ الناقد للروايات نستطيع أن نكوّن صورة لا بأس بها عن عملية عقد الصلح وما يتعلق بها. على أن بعض هذه المصادر — بطبيعة الحال — أكثر فائدة من بعضها الآخر، وتلك التي تميل الى الاختصار هي أقلها فائدة اجمالاً (كخليفة بن خياط واليعقوبي والمقدسي)، وأخبارها أحياناً تقتصر على القول: فصالحوا...؛ فتم الصلح؛... الخ أما الطبري (وعليه عمدة المتأخرين الى حد بعيد) فهو أكبر مصادرنا في الأخبار الوصفية عن

عهود الصلح وأغناها، و يليه في كمية المادة ــ وان ساواه في قيمتها ــ كتاب البلاذري فتوح البلدان، وهو أيضاً كنز من المعلومات في أخبار الفتوح، و يليه هو أيضاً كتاب الفتوح لابن أعثم، وهو من أغرب الكتب وأغزرها فائدة، يأتي بأخبار أحياناً لا ترد في أي مصدر آخر(٩٢)، الا أنه يميل الى عدم التأريخ، وهذا يجعل الاستهداء بغيره أمراً ضرورياً. ومن بين مؤرخي المدن لا بد من التنويه بقيمة ابن عساكر الهائلة بالنسبة لصلح مدينة دمشق.

يبقى النوع الأخير من الأخبار وهو ما أسميته الأخبار شبه الوثيقية، وأعني به الأخبار التي ترد في كتب التاريخ والخراج وتبين عَلامَ اصطلح المسلمون وأهل بلد كذا، واذا كان صلحهم قد انتقض فعلامَ كان صلحهم في المرة الثانية... الخ وهذا النوع من الأخبار هام جداً، و يشكّل «الأخ الأصغر» لوثائق عهود الصلح بنصوصها وفتوح البلاذري وتاريخ الطبري وفتوح ابن أعثم فيها غنى شديد بالنسبة اليها، ولكل منها تفرّده في موطن أو مواطن. ولعل أهم ما في هذه الأخبار أنها تفصيلية، وهذا أمر هام جداً اذا تذكرنا ما عليه عهود الصلح اجمالاً من اختصار وقصر، فكأنها هي تعطينا «الصورة الواقعية» لعهد الصلح، مقابل «الصورة الرسمية» أو «الصورة المبدئية» له في وثيقة العهد نفسها. على أن هذا النوع من الأخبار بحاجة الى مزيد من التمحيص، وسوف أعود اليه في القسم الثاني من هذه الدراسة(٩٣).

لننطلق الآن الى دراسة العهود نفسها، وسوف أركّز البحث فيها على موضوعات ثلاثة: الكيفية التي كانت تعقد بها عهود الصلح، والبنية في عهود الصلح، والمضمون في عهود الصلح.

كانت عهود الصلح تعقد زمن الفتوح عندما يتراضى الفريقان: المسلمون الفاتحون من ناحية وسكان البلد المفتوح من ناحية أخرى، على الصلح بشروط معينة.

---

٩٢. أنظر ما يلي: الخبر الطريف عن قتيبة بن مسلم، سمرقند، وخبر رامهرمز مع أبي موسى الأشعري، وما دار حولها من خلاف، ووصف صلح مناطق من البربر لم ترد في أي مصدر آخر. ولعل من المفيد التنويه بأن عهد السغد يتفرد به ابن أعثم، وهو أغرب العهود التي بين أيدينا.

٩٣. انظر ص: ٢٣٦ ــ ٢٣٨

وهذا التراضي قد يكون تم بعد قتال (كما حدث في بيكند(٩٤) وبخارى(٩٥)) او بعد حصار (كما حدث في دمشق(٩٦) ومدينة الرور من السند(٩٧)) أو بعد مبارزة فردية (كما حدث في جي(٩٨)) أو سلما دون حرب (كما حدث في بافقيا(٩٩) وعانات(١٠٠)).
و يسبق عقد عهد الصلح بين الفريقين عادة تفاهم واضح على الشروط التي على أساسها سوف يتم العقد، و يتصور أن هذا التفاهم كان يتم شفوياً، كما توحي بذلك معظم أخبار العهود، الا أنه قد يتم كتابياً أيضاً، كما نجده في الخبر عن صلح مرو الروذ، حيث قام مرزبان مرو الروذ بكتابة كتاب إلى الأحنف بن قيس عما يمكن أن يتفاهما عليه، ونصّ الكتاب ما زال محفوظاً لدينا(١٠١). على أنه من المحتمل ألا يرغب الجانب المسلم بالمرور بعملية التفاهم هذه وقد يفرضون شروطهم غير عابئين بموقف الفريق الآخر منها، ومكتفين بالقبول المبدئي بالصلح، فاذا هو لم يردّها فلا خيار له الا السيف، وفي هذه الحال، كان عهد الصلح يرسل إلى أهل البلد المعيَّن المفتوح مُوَقَّعاً توقيعاً نهائياً، فاما أن يقبله هؤلاء واما أن يردوه، فيعودون إلى القتال، وهذا ما حدث في تفليس فان

---

٩٤. أنظر: النرشخي، أبوبكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م) تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م، ص ٧٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تاريخ بخارى؛ خليفة بن خياط، (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، التاريخ، ٢ج، تحقيق سهيل زكار، طباعة وزارة الثقاة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٧، جـ١، ص ٣٩٧.
سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: خليفة بن خياط، التاريخ.

٩٥. انظر: الطبري، التاريخ، جـ٢، ص ١٢٠٠ ــ ١٢٠٤؛ ابن أعثم، الفتوح، جـ٧، ص ٢٢٤.

٩٦. انظر الاختلاف في المدة التي ظلت فيها دمشق محاصرة في:
ابن عساكر، التاريخ، جـ١، ص ٤٩٩ وص ٥٠٣، ص ٥٠٤، ص ٥٠٦، ص ٥١٥؛ وانظر أيضاً: Donner. Op. Cit, P. 132

٩٧. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٣٨.

٩٨. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٣٩؛ أبونعيم الأصبهاني، أخبار أصبهان، جـ١، ص ٢٥ ــ ٢٧.

٩٩. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٩؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠١٧ و٢٠١٩ و٢٠٤٩

١٠٠. أنظر: أبويوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)، الخراج، نشر قصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية ومطبعتها، ط ٦، القاهرة، ١٣٩٧هـ. ص ١٥٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبويوسف الخراج.

١٠١. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٨٩٨ ــ ٢٩٠٠

حبيب بن مسلمة الفهري كتب إلى أهلها يقول: «وكتبت لكم عند ملأ من المؤمنين كتاب شرطكم وأمانكم وبعثت به اليكم مع عبد الرحمن بن جزء السلمي.... فان أقررتم بما فيه دفعه اليكم، وان توليتم اذنكم بحرب من الله ورسوله والذين آمنوا على سواء، ان الله لا يحب الخائنين»[١٠٢].

أما شروط الصلح، فاما أن يبينها أهل الجانب المفتوح للمسلمين كما جرى في صلح مرو الروذ[١٠٣]، واما أن يقررها المسلمون عليهم كما كان الأمر مع أهل تفليس[١٠٤]، واما أن يشترك الاثنان في تحديدها كما حدث في صلح بيت المقدس[١٠٥]. وحيث أن أهالي الأراضي المفتوحة كانوا هم الذين يطلبون الصلح من المسلمين الفاتحين، فان القبول النهائي للصلح كان متوقفاً على المسلمين بممثلهم في «مفاوضات الصلح»؛ فاذا كانت شروط الصلح بسيطة والوضع غير معقد، فإن ما كان يحدث هو يُقِرَّ قائد المسلمين شروطَ الصلح و يُنْفِذَها، واذ ذاك تصبح الخطوة الوحيدة الباقية هي كتابة عهد الصلح الرسمي، وهذا ما كان يجري في الغالبية العظمى من الأحوال. غير أنه اذا كانت هناك إشكالات أو أمور دقيقة تتطلب بتاً من مرجع أرفع من القائد الفاتح، فانه يكتب الى رئيسه يستشيره فيما اذا كان عليه أن يقبل الصلح أو يرفضه، وقد يصل الأمر إلى استشارة الخليفة نفسه، كما حدث بعيد معركة سوق الأهواز، عندما انتصر المسلمون وانهزم الهرمزان، فأرسل الهرمزان قائدي المسلمين حرقوص ابن زهير السعدي وجزء بن معاوية وطلب منهما الصلح، وكان وضعه بالذات دقيقاً بالنسبة للمسلمين، فكتب حرقوص إلى عمر بن الخطاب يستشيره في الأمر، فردّ عليه عمر برسالة يأمره فيها أن يقبل منه الصلح فقط على رامهرمز وتستر والسوس وجند يسابور

---

١٠٢. أبو عبيد، الأموال، ص ٣٠١. وأنظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان، ٥ج، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م جـ٢، ص ٣٦: تفليس، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت الحموي، معجم البلدان.

١٠٣. الطبري، التاريخ، ج ١، ص ٢٨٩٨ — ٢٩٠٠.

١٠٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٨؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٧٤.

١٠٥. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٤، ١٦٥.

والبنيان ومهرجانقذق، وعند ذلك أعلم الهرمزان على البلاد المحددة[١٠٦].

و يعقد عهد الصلح عن المسلمين عادة قائد الجيش الفاتح، وقد يكون هو نفسه الأمير في الوقت عينه، كخالد بن الوليد في حال الحيرة[١٠٧] وأبي عبيدة بن الجراح في حال حمص[١٠٨]، أو يكون قائد جيش صغير كلف بالفتح من جانب الأمير أو القائد الأعلى، كعبد الله بن عبد الله بن عتبان في حال فتحه نصيبين بعد موافقة عياض بن غنم[١٠٩]، وكسهيل بن عدي في عقده للصلح مع أهل الرقة؛ قال في الطبري «وكان الذي عقد لهم سهيل بن عدي عن أمر عياض لأنه أمير القتال»[١١٠]؛ وقد يحدث أيضاً أن يرسل الأمير أو القائد الأعلى مندوباً «شخصياً» عنه لعقد الصلح، كما هو الحال في الرواية القائلة أن عبد الله بن عامر بن كريز لم يصالح بنفسه أهل مرو وانما بعث اليهم حاتم بن النعمان الباهلي لمصالحتهم نيابة عنه[١١١].

هذا من جانب المسلمين، أما من جانب السكان المحليين فان أكثر عهود الصلح وحتى الاخبار عنها تتكلم بابهام عن أن الصلح تم مع «أهل كذا» أو «أهل كذا». غير أنه يستنتج من الأماكن التي يذكر فيها اسم الشخص أو وظيفته أن ممثل أهالي البلاد المفتوحة كان في العادة كبيرهم، كأن يكون «ملكهم»، كما في حال السرير وزريكر أن من أرمينية[١١٢] أو «ملكتهم»، كما في حال خاتون ملكة

---

١٠٦. انظر: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٥٤٣، وانظر حادثة مماثلة لدى صلح شهربزار أرمينية في: الطبري، التاريخ جـ١، ص ٢٦٦٤.

١٠٧. انظر: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٠٤٤.

١٠٨. انظر: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣٩٢.

١٠٩. انظر: الطبري، تاريخ، جـ١، ص ٢٥٠٧

١١٠. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٥٠٧.

١١١. خليفة بن خياط، التاريخ، جـ١، ص ١٧٣.

١١٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٥.

بخارى (١١٣)، أو «صاحبهم» كما في حالة أذرعات (١١٤)، أو «افشينهم» كما في حال السغد (١١٥) أو «عظيمهم» كما هو حال هراة (١١٦) أو «أصبهبذهم» كما في حال طبرستان (١١٧)، أو «دهقانهم» كما لدى صلح الزوابي (١١٨)، وقد يكون ذا صفة دينية، كأن يكون بطريقا كما حدث في حال الرقة (١١٩)، أو أسقفاً كما كان الوضع في حال دمشق (١٢٠)، والرها (١٢١)، وعلى أية حال فهو من وجوه أهل البلد، وقد استعمل البلاذري نصاً كلمة «وجوههم» عند الحديث عن صلح مكس أرمينية (١٢٢) وعلى هذا فان المخاطبين باسمائهم في عهود بانقيا والحيرة والبهقباذ والري ودنباوند وجرجان وطبرستان ومرو الروذ والسغد (١٢٣) هم وجهاء أقوامهم. ومهما كان الأمر، فالمهم في مندوب السكان المحليين أن يكون ناطقاً عنهم مقبولاً لديهم، ملزماً عهده عنهم لهم، وقد وردت إشارة إلى هذا في نص صلح خالد لصلوبا بن نسطونا ممثل بانقيا، جاء فيه «وانك قد نُقِّبْتَ على قومك، وان قومك رضوا بك، وقد قبلتُ ومنْ معي من المسلمين، ورضيتَ ورضي قَوْمُك» (١٢٤)

١١٣. النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٦٢، ص ٦٦؛ اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص ٢٣٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٠٧.

١١٤. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٠

١١٥. ابن أعثم، الفتوح، جـ٧، ص ٢٤٤

١١٦. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٠١.

١١٧. انظر: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٥٩.

١١٨. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٠٧، وانظر أيضاً حالة مهروذ في: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٢٤.

١١٩. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٥؛ وانظر: ايضاً حالة عانات في: أبويوسف، الخراج، ص ١٥٨.

١٢٠. أنظر: اليعقوبي، التاريخ، جـ٢، ص ١٤٠.

١٢١. راجع: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٦، ففيه رسالة عياض بن غنم الى أسقف الرها، غير أن عهد الرها موجه الى أهل الرها وليس الى الأسقف (أنظر الملحق عرقم: ١)

١٢٢. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٦.

١٢٣. انظر مطالع هذه العهود في الملحق رقم: ٢.

١٢٤. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٥٠.

وبعد أن يتم توقيع العهد، ويشهد عليه الشهود ويؤرخ ويختم بالخاتم ويكتب محضره (١٢٥) يجب أن يبرمه رئيس القائد أو رئيس المندوب الذي عقد الصلح عن المسلمين، كما حدث عندما قام عياض بن غنم، مقدَّماً من جانب أبي عبيدة بن الجراح فاتحاً لمنبج، فصالح أهلها على مثل صلح أنطاكية؛ قال البلاذري: «قالوا: ... فأنفذ أبو عبيدة ذلك (١٢٦) ويبدو من النص الوارد في صلح النوبة أن الخليفة أيضاً كان يبرم العهد قال: «وأمضى ذلك الصلح عثمان» (١٢٧)، وأضاف «ومنْ بعده من الولاة والأمراء، أقره عمر بن عبد العزيز» (١٢٨)، وهذا النص الهام يفيد أنه كلما جاء خليفة جديد كان عليه أن يبرم الاتفاقيات القديمة المعقودة في خلافة سلفه حتى يظل ما فيها ساري المفعول، وهذا أمر يؤكده ما ذكره أبو عبيد من أن عمر بن عبد العزيز سأل عن صلح أهل الرها فلما عرف ما فيه أمضاه (١٢٩). والشيء نفسه يقال عن الوالي للولاية، فانه كلما عين والٍ جديد على مكان ما، كان عليه أن ينظر في العهود المعقودة بين المسلمين وبين أهلها ويمضيه أو يقرّه ان شاء، وهذا الأمر الأخير عليه شهادة أخرى من تصرف أهل برقة وأنطابلس مع يزيد بن عبد الله الحضرمي، فانه عندما وليهم أتاه ابن دباس النصراني القبطي المصري «بكتاب عهدهم» (١٣٠). هذا ومما يؤكده هذا كله تأكيداً قاطعاً ويبين بدقة كيفية حدوثة ما حدث في تفليس عندما أصبح واليها ـ ضمن غيرها من أرمينية وأذربيجان ـ الجراح بن عبد الله الحكمي (ـ ١١٢)، وكانت قد افتتحت على يد حبيب ابن مسلمة الفهري في زمن عمر بن الخطاب (١٣١)، فان أهلها أتوا الجراح بعهد حبيب بن

١٢٥. سوف يجيء الحديث عن الشهود والتاريخ والختم والتسجيل في القسم التالي من هذا البحث.

١٢٦. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٧٧

وأنظر: قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٨٨ ففيه عن دمشق أن الصلح كان لخالد وأجاز أبو عبيد صلحه انظر: أبو عبيد، الأموال، ص ٣٠٤، ففيه ما يشبه ذلك عن حلب.

١٢٧. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٥٩٣.

١٢٨. المصدر نفسه ١٠

١٢٩. أبو عبيد، الأموال، ص ٢١٤.

١٣٠. أنظر: أبو عبيد، الأموال، ص ٢٩٨.

١٣١. أنظر: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٧٤ ـ ٢٦٧٥.

مسلمة لهم، فأقره الجراح وكتب لهم كتاباً في حكاية ذلك وفي تأكيد موقفه منه، وسوف أورد هنا نصه لأنه فريد من نوعه في المصادر: (١٣٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من الجراح بن عبد الله لأهل تفليس من رستاق منجليس من كورة جرزان أنه أتوني بكتاب أمان لهم من حبيب بن مسلمة على الاقرار بصغار الجزية، وانه صالحهم على أرضين لهم وكروم وارحاء يقال لها أواري وسابينا من رستاق منجليس، وعن طعام، وديدونا من رستاق قحويط من كورة جرزان، على أن يؤدوا عن هذه الأرحاء والكروم في كل سنة مائة درهم بلا ثانية. فأنفذت لهم أمانهم وصلحهم، وأمرت الا يزاد عليهم.

فمن قرىء عليه كتابي فلا يتعدَّ ذلك فيهم ان شاء الله.

وكتب.....

اذن كان الخليفة الوالي «يبرم» الاتفاق، وكان ذلك يتم فيما يفهم بالكتابة من حالة تفليس. ولكن على أية حال كانت نسخة العهد الأصلية الموقعة بطبيعة الحال تترك في حفظ مندوب البلاد المفتوحة (١٣٣)، و يبدو أن العقد كان يعمل على نسخة واحدة فقط إذ لا تشير المصادر قط إلى أن المسلمين كانوا يحتفظون بنسخة من العهود التي يعقدونها، وهذا أمر يؤكده اضطرار عمر بن عبد العزيز الى ارسال شخص الى الرها ليرى العهد لدى اسقفها (١٣٤)، واخراج ابن دباس العهد مع أنطابلس الى واليها الجديد (١٣٥)، وكذلك ما حدث في تفليس أيام امارة الجراح بن عبد الله الحكمي (١٣٦)، كما يرجحه بقوة أن النظم الادارية كانت غير متطورة خصوصاً زمن الموجات الأولى من الفتوح في

١٣٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٩.

١٣٣. أنظر حالة الرها في، أبوعبيد، الأموال، ص ٢٩٨. وحالة انطابلس المشار اليها قبل قليل في المصدر نفسه: أبوعبيد، الأموال، ص ٢١٤؛ وحال تفليس في: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٩.

١٣٤. أنظر: أبوعبيد، الأموال، ص ٢٩٨.

١٣٥. المصدر السابق، ص ٢١٤.

١٣٦. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٩.

خلافتي عمر وعثمان، وهي الفترة التي تم خلالها عقد معظم عهود الصلح مع أهالي البلدان المفتوحة.

هل ينتهي عقد العهد عند هذا الحد؟ إن لدينا في هذا الخصوص بعض النصوص التي تترك مجالاً للتصور ان الأمر لم يكن ليقف عند هذا الحد، وأن الخطوة التالية كانت أن يكتب أهل البلد المفتوح كتاباً موجهاً الى خليفة المسلمين أو عامله لديهم يتعهدون فيه بتنفيذ كل ما اتفقوا عليه مع المسلمين، خاصة لجهة الواجبات الملقاة على عاتقهم لقاء الأمان الذي أخذوه منهم. و يكون هذا التعهد شديد التفصيل، بل أكثر تفصيلا من عهد الأمان نفسه، اذ تبيَّن فيه دقائق المسؤوليات، كما في التعهد الصادر عن نصارى أهل الشام الى عمر بن الخطاب، وهذا نصه (١٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا سألناك الأمان لأنفسنا وأهالينا وأولادنا وأموالنا وأهل ملّتنا، على أن نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون، وعلى أن لا نمنع أحداً من المسلمين أن ينزلوا كنائسنا في الليل والنهار، ونضيفهم فيها ثلاثاً، ونطعمهم فيها الطعام، ونوسع لهم أبوابها، ولا نضرب فيها بالنواقيس، إلا ضرباً خفياً، ولا نرفع بها أصواتنا بالقراءة، ولا نؤوي فيها ولا في شيء من منازلنا جاسوساً لعدوّكم، ولا نحدث كنيسة ولا ديراً ولا صومعة ولا قلّاية، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها في خطط المسلمين بين ظهرانيهم، ولا نظهر شركاً ولا ندعو اليه، ولا نظهر صليباً على كنائسنا ولا في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم، ولا نتعلم القرآن ولا نعلمه أولادنا، ولا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام ان أراد ذلك، وأن نجزّ مقادم رؤسنا، ونشد الزنانير في أوساطنا، ونلزم ديننا، ولا نتشبّه بالمسلمين في لباسهم ولا في هيئتهم، ولا في سروجهم، ولا نقش

١٣٧. ابن عساكر، التاريخ جـ١، ص ٥٦٣ — ٥٦٤ وراجع صوراً أخرى من هذا النوع من المكاتبات في الملحق رقم: ٣ و يظهر في هذا الملحق الروايات المختلفة لعهد عمر/ أبي عبيدة بن الجراح مع أهل دمشق / نصارى الشام، ودرجته من الوثوقية هي نفس درجة الموثوقية النسبية للعهود نفسها.
أنظر ما سبق؛ ص ٢٠٣، ٢٠٦ — ٢٠٧، ٢٠٨، وسوف يجيء المزيد من الحديث عن هذا الموضوع في القسم الأخير من هذه الدراسة، أنظر ص ٢٣٨.

خواتيمهم فننقشها عربياً، ولا نكتني بكناهم (كذا)، وان نعظمهم ونوقرهم ونقوم لهم من مجالسنا، ونرشدهم في سبلهم وطرقاتهم، ولا نطلع في منازلهم، ولا نتخذ سلاحاً ولا سيفاً ولا نحمله في حضر ولا سفر في أرض المسلمين، ولا نبيع خمراً ولا نظهرها، ولا نظهر ناراً مع موتانا في طرق المسلمين، ولا نرفع أصواتنا مع جنائزهم، ولا نجاور المسلمين بهم، ولا نضرب أحداً من المسلمين، ولا نتخذ من الرقيق شيئاً جرت عليه سهامهم.

وتفيد روايات أخرى وردتنا عن كتب التعهد من نصارى الشام أو أهل دمشق ان إعداد نص هذه الكتب كان يتم من جانب المسلمين (ومن هنا افتتاح هذه الكتب بالبسملة من دون أن يكون أصحابها مسلمين)، وقد روى بأسانيد عدة عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري أنه هو الذي كتب لعمر بن الخطاب نصّ الكتاب الموجه اليه من نصارى الشام (١٣٨)، وفي بعض الروايات نفسها أن عمر قرأ النّص الذي أعده ابن غنم فزاد فيه «ولا نضرب أحداً من المسلمين. شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان. فان نحن خالفنا على شيء مما شرطناه لكم وضمنّاه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حلّ لكم منّا ما يحلّ من أهل المعاندة والشقاق»، وكأن عمر أراد بذلك أن يعلّي من درجة التعهد عند الشاميين و يلزمهم بعقدهم أكثر وفي الوقت نفسه يبرىء ذمة المسلمين من أي اجراء يتخذونه ضدهم من جراء تقصيرهم في تنفيذ المطلوب منهم. وتجدر الملاحظة أن هذه التعهدات المكتوبة التي كانت تحفظ ولا بد عند المسلمين، وهي بذلك تعتبر «وثيقة» توازي عهد الصلح المحفوظ عند أهالي البلاد المفتوحة.

نجيء الآن الى شكل العهود و بنيتها، وهذا موضوع قد بحث جوانب عدة منه ألبرشت نوت في كتابه الآنف ذكره، وسوف أفيد مما كتبه فيما يلي:

بالنسبة للشكل العام للعهود، لاحظ الأستاذ نوت أن صيغة العهود تجيء اما بالمخاطب أو بالغائب، ولكنه لم ير في ذلك ما له تأثير على بنيتها أو مكوّناتها، فلم يتوقف من ثم عندها (١٣٩)، وأريد أن أطيل اللبث بعض الشيء بالنسبة لها، لما تنطوي عليه من أهمية فنية وتقنية وتاريخية.

١٣٨. انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ٥٦٤ و ٥٦٦ و ٥٦٨.

١٣٩. Noth, Quellenkritische, p. 60

ان الناظر في الصيغ المستعملة في توجيه الخطاب من المتكلم الى المخاطب في هذه العهود يجد أنها تقع في ثلاثة قوالب رئيسية (١٤٠) هي أولا «هذا ما أعطى [المتكلم] [المخاطب] (وقد يجيء أيضاً هذا ما أمر به...» (١٤١)، أو «هذا ما عاهد عليه...(١٤٢) أو هذا ما صالح...» (١٤٣)، وثانياً: «هذا كتاب من [المتكلم] لِ [المخاطب]، وصورته المختصرة هي «من [المتكلم] لِ [المخاطب]؛ وثالثاً: «هذا عهد من الأمير [المتكلم] ل [المخاطب] (١٤٤) وأكثر الصيغ وروداً هي الصيغة الأولى (١٤ عهداً من أصل ٢٧)، فالثانية (١٢ عهداً من أصل ٢٧)، وأما الصيغة الأخيرة فان النموذج الوحيد عليها هو عهد النوبة.

والمدقق في الفرق بين الصيغتين الأولى والثانية يلاحظ أن الصيغة الأولى «هذا ما أعطى... أمر به... صالح» هي صيغة أكثر موضوعية أو «جفافاً» من الصيغة الأولى (هذا كتاب من...) التي تشبه قالب الرسائل (١٤٥)، وهي تعطي انطباعاً بأن المسافة شاسعة جداً بين المتكلم والمخاطب أكثر بكثير مما تعطيه الصيغة الثانية؛ أما الصيغة الثالثة فانها تمزج بين الصيغتين الأولين. ومن ناحية أخرى من المعروف أن استعمال ضمير الغائب في مخاطبة المخاطب في المكاتبات من أي نوع كان يدل على اعتراف بالمسافة الواسعة بين المتكلم والمخاطب وعلى تواضع المتكلم أمام المخاطب، وذلك على عكس استعمال ضمير المخاطب فيها، فانه يدل على نوع من «رفع التكليف» بين المتكلم والمخاطب أو على الاحساس بالتساوي — على الأقل — بين المتكلم والمخاطب (١٤٦).

١٤٠. عد الاثنين الأولين منهما نوت فقط، أنظر المرجع نفسه، ص ٦٣.

١٤١. ورد هذا في صلح هرات فقط، انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٠١.

١٤٢. ورد هذا في صلح الحيرة فقط، انظر: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٤٤.

١٤٣. في صلح السفر، انظر: ابن أعثم، الفتوح، جـ٧، ص ٢٤٤

١٤٤. لم يتنبه نوت الى هذه الصيغة الأخيرة (راجع كتابه ص ٦٣) وتنبه فقط للصيغتين الأولين.

١٤٥. راجع: Noth, Quellenkritische, p. 63

١٤٦. يلاحظ أن أربعة من العهود التي تستعمل صيغة المخاطب موجهة الى ملك بعينه (أصفهان، بناوند، جرجان، طبرستان) فالحالة هنا هي حالة تساو بين «الرئيس» و «رئيس» المصالحين.

لنضع هاتين الملاحظتين واحدة الى جنب الأخرى، فبماذا نخرج ؟

نخرج بقاعدة محمولة على التوقع، وهو أن تكون صيغ العهود المبدوءة ب « هذا ما أعطى... صالح » بصيغة الغائب، فيما تكون صيغ العهود المبدوءة ب « هذا كتاب من... لِ.. » بصيغة المخاطب. فهل ذلك التوقع في مكانه ؟

ان الرصد لهذه القاعدة المزدوجة في العهود التي وصلتنا يدل على أن التوقع كان على وجه الاجمال في محله، اذ أن ١٣ عهداً من أصل ١٤ وردت افتتاحياتها بالصيغة الأولى جاءت بصيغة الغائب، و٨ عهود من أصل ١٢ عهداً وردت افتتاحيتها بالصيغة الثانية جاءت بصيغة المخاطب. والطريف ــ بالاضافة الى ذلك ــ أن عهد النوبة الذي جاءت افتتاحيته بالصيغة الثالثة جمع بين صيغة الغائب وصيغة المخاطب.

ترى هل تم ذلك عن وعي، أو انه كان أمراً تلقائياً ؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد أن ننظر في العهود التي خالفت المتوقع. اذ ذاك نلحظ أنها كلها من العهود المبكرة التي لا تتجاوز بأي حال سنة ١٩ للهجرة، فهذه العهود هي عهود الحيرة (سنة ١٣) ودمشق (سنة ١٤) وبعلبك (سنة ١٤) والرها (سنة ١٧ أو ١٩). وهذه الملاحظة تجر الى استنتاج هام ــ فيما أظن ــ وهو أن « القاعدة الكتابية » لصيغة العهود كانت أمراً اعتباطياً أول الأمر، ثم ما لبثت أن اخذت نوعاً من الاستواء على قوالب واضحة مع مرور الزمن، فلم نعد نجد ما يشذّ في الصيغة عن المتوقع، وكأنما بات لعهودُ الصلح « قوانينها الداخلية » التي يجب أن تحافظ عليها. ولا أريد أن أسرف في الاستنتاج ولكني أظن أن هذا كله يوصلنا الى مزيد من الطمأنينة بالنسبة للموثوقية النسبية للعهود التي بين أيدينا، فان عدم الالتزام بالقواعد أول الأمر والالتزام بها مع الزمن معناه حدوث إزدياد للوعي تلقائياً مع الزمن، وكون عهودنا تعبر عن ازدياد الوعي معناه أنها ليست مزورة أو موضوعة وانما هي كالكائن الحي الذي يتطور من الداخل على مهل ولكنه يتغير باتجاه الاستقرار والانتظام والاتساق.

هذا بالنسبة للشكل العام في عهود الصلح، فاذا نحن نظرنا في بناها الخارجية (١٤٧)، وجدنا أن هذه البنى تتشابه تشابهاً عظيماً فيما بينها، وهذا لفت نظر

١٤٧. Noth, Quellenkritische, p. 67

ألبرشت نوت بسرعة، وجعله يرى في محتوياتها ــ من حيث الشكل ــ مجموعة من « الوحدات » تبلغ سبعاً في العهد الأكمل، هي: البسملة، المرسل والمرسل اليه، شروط العقد، الشهود، الكاتب، التاريخ، الخاتم، واني لأرى أنها ثمان، اذ يجب أن يضاف اليها وحدة « التسجيل » وذلك بعد وحدة الكاتب. من هذه الوحدات الثماني، الوحدات الثلاث الأولى وحسب هي ثابتة في كل عهد، أما الوحدات الخمس الأخيرة فان العهود تختلف فيما بينها على ما تحتويه منها، فأكثرها يثبت فيه الشهود، وهذا حال أكثر من نصف العهود التي وصلتنا (١٥ عهداً من أصل ٢٧)، أو التاريخ (في ١٤ عهداً من أصل ٢٧)، وأقلها يذكر فيه اسم الكاتب (٧ عهود من أصل ٢٧) أو الخاتم (٥ عهود من أصل ٢٧)، وما يذكر التسجيل منها قليل جداً (٢ من أصل ٢٧) (١٤٨).

لنأخذ كل واحدة من هذه الوحدات على حدة تاركين الوحدة الثالثة (شروط الصلح)، الى نهاية هذا القسم، لما لها من علاقة مباشرة بالقسم الأخير من هذا البحث (مضمون عهود الصلح) ولصعوبة الفصل بين المضمون والشكل لدى الحديث عن موضوع مثل موضوع شروط الصلح.

أما البسملة فانها يجب أن تكون موجودة في جميع عهود الصلح، وجميع صور العهود التي وصلتنا تحتوي على البسملة، بإستثناء روايتين من الروايات لعهد الرها، وأظن أن اسقاط البسملة فيهما كان على أساس أن وجودها أمر مفروغ منه، وكذلك هو الحال بالنسبة الى روايتين من الروايات الست لصلح دمشق.

أما المرسل والمرسل اليه، فقد تحدثت عنهما في مطلع هذه الفقرة، و يهمني أن أضيف بعض الملاحظات بشأنهما. وأولى هذه الملاحظات أن اسم المرسل يأتي منفرداً في العهود جميعها، على أساس أنه هو الممثل للمسلمين جميعاً والناطق باسمهم، باستثناء عهد واحد هو عهد الرها، فانه يبدأ هكذا: « هذا كتاب من عياض بن غنم **ومن معه من المسلمين** لأهل الرها (١٤٩)، وهذا في رأيي من الشهادات على أن العهد مبكر؛ وثانية هذه الملاحظات أن الأكثرية العظمى من العهود تسمي المرسل باسمه وحده دون ذكر

١٤٨. أنظر الملحق رقم (١) وقارن بالمرجع السابق: Noth, Quellenkritische, p. 61.

١٤٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٧؛ أبو عبيدة، الأموال، ص ٢٩٨.

للمنصب الذي يحتله والذي خوله عقد عهد الصلح (مثلا : خالد بن الوليد، حذيفة بن اليمان، نعيم بن مقرن، بكير بن عبد الله... الخ) ولكن في قلة قليلة من الأحوال يذكر مركز الشخص الرسمي، كما في عهد مرو الروذ، فان فيه بعد البسملة «من صخر بن قيس **أمير الجيش الى** ...»(١٥٠) وفي عهد شهربزار وأرمينية، اذ نص أوله «هذا ما أعطى سراقة بن عمرو **عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** ...»(١٥١) وفي عهد النوبة : «عهد من **الأمير** عبد الله بن سعد بن أبي سرح...»(١٥٢) وهذه الظاهرة نفسها لا تنطبق على اسم المرسل اليه في العهود التي وصلتنا، فان الأماكن التي يذكر فيها اسم الشخص الممثل لأهل البلاد المفتوحة وحده دون منصبه(١٥٣) ليست أكثر من الأماكن التي يذكر فيها اسمه مع منصبه مثل «هذا ما صالح عليه قتيبة بن مسلم.... غوزك بن اخشيد افشين السغد(١٥٤)، بل أنه ورد مرة اسم منصب المرسل اليه دون اسمه (هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنيح وباذغيس)(١٥٥) والسبب في ذلك أن المرسل اليهم بالنسبة للمسلمين ــ كاتبي العهد ــ مجهولون، والتعريف بمنصبهم مهم عندما يكونون ممثلين لأقوامهم. فاذا تذكرنا أن معظم العهود وردت موجهة الى «أهل» بلد معين على التعميم، لما يعنيه الصلح لهم جميعاً من مسؤوليات وواجبات، أدركنا أن الأهمية كانت مضاعفة لذكر مكانة ممثل أهل البلاد فيهم عند تمثيله وحده لهم، ولنتذكر أيضاً أن معظم العهود التي ذكرت المرسل اليه باسمه ذكرت الى جانبه «وأهل كذا» (٤ عهود من أصل ٦).

لنقفز الآن عن الوحدة الثالثة (شروط الصلح) فنصل الى الشهود ونلاحظ أن هذه الوحدة موجودة في أكثر العهود التي بين أيدينا (٢٤ عهداً من أصل ٢٧) على أن

١٥٠. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٩٠٠.

١٥١. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٥، وأنظر أيضاً : الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٢ في عهد أذربيجان

١٥٢. المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٢٠٠.

١٥٣. انظر العهود مع أهل بانقيا، والبهقباذ وأصفهان والري وجرحان.

١٥٤. ابن أعثم، الفتوح، جـ٧، ص ٢٤٤، وانظر نماذج أخرى في عهد الحيرة ودبناوند وطبرستان ومرو الروذ، و يتفرد عهد طبرستان بأنه بعد اسم المرسل اليه ومنصبه يجيء «ومن أهل العدو» انظر الملحق رقم : ٢

١٥٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٠١

هناك واحداً منها جاء آخره : «وشهد» دون ذكر للشهود بأعيانهم (عهد شهر بزار أرمينية)، وهذا قد يعني أن العهد فيه سقط وذلك لأن استعمال «وشهد» دون أسماء الشهود ورد أيضاً في ثلاثة عهود أخرى (الري وقومس ودنباوند) بشكل «وكتب وشهد»، وفي كل الأماكن كانت العبارة تأتي في نهاية العهد. وهناك انتحاء لإشهاد الله في حال عدم تسمية شهود بأعيانهم منذ العهود المبكرة (بعلبك ودبيل والرقة والرها وتفليس والنوبة)، وهذا الاشهاد يكون بسيطاً مباشراً كما في النوبة («الله الشاهد بيننا على ذلك») أو مقروناً بالآية القرآنية المعروفة(١٥٦)، كما في عهد بعلبك ودبيل والرقة (وشهد الله (وكفى بالله شهيداً)، أو مضافاً الى الله تعالى غيره (شهد الله هو وملائكته والمسلمون ــ الرها أو «شهد الله وملائكته ورسله والذين آمنوا (وكفى بالله شهيداً)، تفليس). هذا في حال عدم ذكر أشخاص بأعيانهم هم الشهود، فاذا ذكروا فانهم دائماً على وجه الاجمال من المعروفين في المسلمين (في صلح دمشق : شهد أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وقضاعي بن عامر، وقيل غير ذلك)(١٥٧)، وعددهم يتراوح بين شاهدين (اذ لا يجوز في الاسلام أقل من شاهدين من الرجال) وبين ١٤ شاهداً(١٥٨)، وفي معظم الأحوال هم ثلاثة شهود (في ٧ عهود من أصل ١٤) وقد يكونون أربعة (في ٤ عهود من أصل ١٤) أو خمسة (في عهدين من أصل ١٤)، والحالة الوحيدة التي جاء فيها ١٤ شاهداً هي حالة شاذة لا شك، وقد جاءت اسماؤهم شهوداً في عهد السغد، وتفرد ابن اعثم برواية هذا العهد. وبعد فلا شك أن الشهادة هي عملية توثيقية المراد منها تأكيد العهد بجملته وتفصيلاته.

بعد وحدة الشهود تأتي وحدة الكاتب، وفي هذه الوحدة يعبّر عن تأكيد كتابة العهد بالفعل «وكتب» (وورد مرة واحدة «كتبه» في عهد النوبة)، والعهد لا يكون الا مكتوباً. وقد ورد الفعل و«كتب» «مقروناً» بالفعل «وشهد» في ثلاثة عهود كما سبق ان أشرت في الفقرة السابقة، ولكني أظن هناك سقطاً في صورة العهد كما

١٥٦. الآية في النساء : ٧٩، ١٦٦؛ الآية في الرعد : ٤٣؛ الآية في الاسراء : ٩٦؛ الآية في الفتح : ٢٨.

١٥٧. انظر الفروق بين الروايات في الشهود في الملحق رقم : ١

١٥٨. قارن ب Noth, Quellenkritische, p. 61

وصلتنا، ومرتين ورد مقروناً بالفعل «وحضر» في عهد القدس وعهد مصر، وللحديث عن الفعل «وحضر» مكان يأتي بعد قليل.

ورغم أن معظم العهود التي وصلتنا فيها ذكر لهذه الوحدة ــ وحدة الكاتب ــ (٢٢ من أصل ٢٧ عهداً)، فان سبعة عهود فقط يذكر فيه اسم الكاتب بعينه [١٥٩]، كما رأينا في عهد مصر قبل قليل، ومن هؤلاء اثنان مذكوران باسمهما الأول فقط (وردان في عهد مصر، وجندب في عهد أذربيجان) وواحد معرّف أكثر قليلاً بولائه («كيسان مولى بني ثعلبة في عهد مرو الروذ) وثلاثة معرفون باسمهم واسم آبائهم («مرضي بن مقرن» في عهد أرمينية، و«ربيع بن نهشل» في عهد هراة، و«عمرو بن شرحبيل» في عهد النوبة) وواحد فقط معروف باسمه واسم أبيه ومنصبه: «ثابت بن أبي ثابت كاتب قتيبة بن مسلم «في عهد السغد المتفرد المار ذكره. فاذا تذكرنا أن الأغلبية العظمى من الكُتّاب في هذه الفترة كانوا من الموالي، أدركنا أن كل الأشكال التي ورد فيها اسم الكاتب أشكال متوقعة غير مستغربة.

بقي أن أشير الى أن وحدة الكاتب تأتي دائماً في العهود بعد الشهود، غير أنه ورد استثناء على هذه القاعدة في عهد واحد من العهود التي وصلتنا، وهو عهد أذربيجان، فان «كتب» مكررة فيه، مرة قبل الشهود ومرة بعدهم («وكتب جندب وشهد [ثم أسماء الشهود]. وكتب في سنة ثماني عشرة]، ولكني أظن أن هذا شذوذ بسيط وسهو ربما من سبق القلم من جانب أحد الرواة، وتظل القاعدة قائمة بأن وحدة الكتابة تأتي بعد وحدة الشهود في مبنى عهد الصلح.

لنرجع الآن الى ذكر الفعل «وحضر» مقروناً ب«وكتب» اذ ذاك نجد أننا بازاء وحدة جديدة يمكن أن نسميها «وحدة التسجيل» ــ وهي الوحدة التي أهملها نوت ــ وذلك انني أفهم من «وحَضَر أن هناك شخصاً هو كاتبٌ بالمهنة «يسجّل» حدوث كتابة العهد، أو ما يوازي اليوم «عَمَلْ مُحْضَر به. وكاتب هذا المحضر، الذي يحضر العهد قد يكون هو نفسه كاتب العهد، ولكنه قد يكون أيضاً غيره، أما نص

١٥٩. هي العهود مع أهل هراة ومرو الروذ وأذربيجان وأرمينية والسفر ومصر والنوبة. وقد ورد اسم الكاتب في رواية واحدة من روايات عهد دمشق الستة (انظر الملحق رقم: ١)

معاهدة القدس فانه يسمح بكلا الاحتمالين: «وكتب وحضر سنة خمس عشرة». ونص معاهدة مصر بفتح بابي الاحتمالين فتحاً أوسع: «وكتب وردان وحضر». فهل يعني ذلك: «وكتب وردان وحضر وردان أيضاً، أم أنه يعني «وكتب وردان وحضر فلان»؟ أجدني ميالة الى الخيار الثاني وان كنت لا أملك دليلاً عن ذلك سوى الحس الداخلي، وسوى بصيص من البرهان في رواية سيف للخبر عن عهد بانقيا، اذ جاء في آخره (قبل نص العهد مباشرة): «وكتب لهم كتاباً»، فتمّوا وتمّ... وشاركهم المجالد [بن سعيد الهمداني؟] في الكتاب» [١٦٠]. أما نص عهد الحيرة فان فيه شهوداً أربعة ليس المجالد بينهم؛ وفيه أيضاً «وكتب سنة اثنتي عشرة»؛ فاذا كان الكاتب معروفاً ــ وهو المجالد ــ فلمَ لم يكتب اسمه؟ أم أنه لم يكن كاتب العهد وانما كاتب المحضر؟ وبعد: فان وجود كاتب «يحضر» العهد هو غيره كاتب العهد يظل في زاوية الاحتمال الترجيحي ليس أكثر، ولكن وجود وحدة التسجيل في العهد هو من المؤكد دون شك.

ويلي وحدة التسجيل وحدة التأريخ، وهي متصلة الى حد ما بالوحدة السابقة «كتب في... الا أنها أقل منها ظهوراً في العهود التي وصلتنا (١٤ عن مؤرخ من أصل ٢٧)، ومعظمها يؤرخ بالسنة (وكتب سنة ثلاث وعشرين في عهود موقان)، وبعضها وحسب (خمس منها) مؤرخ بالشهر الى جانب السنة (وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة في عهد الحيرة)، وهناك حالة واحدة من اختلاف الروايات في تأريخ العهد الواحد (عهد دمشق) [١٦١]، ومرة واحدة كتب التاريخ باليوم والشهر دون السنة (يوم الأحد من شهر الله المحرم في عهد وهذا يعني السهو أو السقط.

بقيت وحدة الخاتم، ولدينا عدد قليل (خمسة) من العهود ذكرت ختمه من جانب المرسل قبل دفعه الى أصحابه، وقد جاء بعضها في آخر نص العهد وكأنها خارجة عنه، والأرجح أنها من صلبه: «وختم عياض بخاتمه» في عهد الرقة، و«ختم حبيب بن مسلمة» في عهد دبيل، و«ختم ابن عامر» في عهد هراة؛ ومرة واحدة جاء بتوضيح

١٦٠. الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠٤٩

١٦١. انظر الملحق رقم: ١

أكبر وبشكل خارج عن نص العهد حتماً، في آخر عهد مرو الروذ، اذ جاء: «علامة نقش خاتم الأحنف وكان (نعبد الله)». وبين أيدينا نصّ فريد عن العهد المتميز للسغد الذي أورده ابن أعثم وحده من دون سائر المؤرخين، وفيه الخبر أن المرسل للعهد (قتيبة بن مسلم) لم يكن هو وحده الذي ختم بخاتمه وانما ختم جميع الشهود (الأربعة عشر) بخواتيمهم، وهذا مستغرب الا أنه ليس بمستحيل، ما دام الشهود من كبار القوم، ولعلهم يعرفون بخاتمهم من قبل، وما دام المراد من الختم أصلاً الزيادة في توكيد صفة المرسل.

وتلخيصاً لما سبق أقول: أن عهود الصلح التي وصلتنا متشابهة أشد التشابه في مبناها الخارجي، ومبناها الخارجي ذاته بسيط التركيب متدرجه، يوحي تدرجه بالرغبة في أن يقال ما يراد قوله بأيسر طريقة وأكثرها توثيقاً وتأكيداً وبياناً في الآن معاً، وهذا فيه قدر لا بأس به من الدلالة على بساطة العقلية التي انتجته ووعيها أيضاً، ومن ثمّ على أن هذه العهود موثوقة من حيث المبدأ لا يرقى فيها الشك الا الى دقة بعض الكلمات والتعابير وحسب. وهذا الشيء نفسه هو ما يؤكده شكل العهود العام وصيغتها، فانه رغم استقلال كل منها (أو كل مجموعة منها أحياناً) بصيغ داخلية معينة تحفظ لها تفردها وتميزها (١٦٢)، فان الصيغة الخارجية العامة لها تتبع «نماذج» في التعبير تقترب من الكمال الفني والتقني كلما تقدم الزمن، وتجعل من العهود وحدة موحدة واضحة، وكل هذا يسند مسألة الموثوقية المشار اليها من قبل.

نرجع الآن الى القسم الذي كنا تركناه في دراسة البنية والشكل في عهود الصلح (١٦٣)، وهو «الوحدة الثالثة» — شروط العهد، وسوف اتعرض له هنا من ناحية الشكل أولاً ثم من ناحية المضمون.

يتألف القسم من شروط العهد في صورته الكاملة من ست وحدات هي: التحديد الجغرافي لمن تعنيهم شروط الصلح، التحديد السكاني لمن تعنيهم شروط الصلح،

١٦٢. سوف يأتي المزيد عن هذا الموضوع في الفقرة التالية.

١٦٣. قارن ب Noth, Quellenkritische, p. 67.

حقوق المصالحين، واجبات المصالحين، ضمانات الصلح، العقوبات في حال انتهاك شروط الصلح. ورغم أن العهود التي وصلتنا متفاوتة في ما يحتوي عليه كل واحد فيها منها، وفي ترتيب بعض هذه الوحدات داخلها، كما سوف أبين من بعد، فان هذه الوحدات هي الى حد ما ظاهرة واضحة في الأغلبية العظمى من العهود التي بين أيدينا.

أما التحديد الجغرافي لمن تعنيهم شروط الصلح فانه في رأس الضروريات في عهدٍ من طبيعة عهد الصلح، ولكن بما أن عهود الصلح كانت تعقد في الغالبية العظمى من الأحوال مع مدن وبلاد حدودها معروفة، فان هذه الوحدة قليلة الورود في ما وصلنا من عهود، وهي ترد وحسب في الحالات التي يكون فيها إبهام ما بالنسبة لمن تعنيهم شروط الصلح، كما نجد مثلاً في صلح «هراة وبوشنج وبادغيس» (كذا في رأس العهد نصاً) حيث يرد «وصالحه على هراة وسهلها وجبلها»، أو في الحالات التي يكون فيها عهد الصلح شاملاً لأبناء منطقة واسعة لا لمكان واحد محدود، كما نرى في صلح منطقة السغد: «وصالحه عن سمرقند ورساتيقها: كس ونسف، أرضها ومزارعها وجميع حدودها»، بل أن النص قد يذهب الى تفصيل أبعد توضيحاً وابانة، كما نجد في صلح أذربيجان: «أعطى... أهل أذربيجان: سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل قللها كلهم». على أن تسمية المكان المعقود مع أهله عهد الصلح قد ورد في ثلاثة عهود بهدف التأكيد لا الإبانة والتوضيح، وذلك على الوتيرة نفسها في عهدي القدس واللد (وعلى أهل ايليا... وعلى أهل لد...») وهي وتيرة بسيطة جداً، كأنها مبنية على الاستئناف، وعلى وتيرة مختلفة في صلح بانقيا وبسما (عاهدتكم... على كل ذي يد: بانقيا وبسما جميعاً)، وكأن الازدواجية في الطرف المصالح يتطلب التوكيد بالتسمية وبكلمة «جميعاً». وأياً كان الأمر، فانه عندما يكون التحديد الجغرافي هدفه التوضيح تأتي هذه الوحدة في أول قسم الشروط (١٦٤)، أما عندما تكون للتوكيد فحسبما يقتضيه الظرف.

ويشبه التحديد السكاني لمن تعنيهم شروط الفتح التحديد الجغرافي، اذ هدفه الأساسي هو البيان والايضاح والتوكيد معاً، حتى لا يكون هناك لبس لدى سكان مكان ما حول من هو المعني ومن هو غير المعني بشروط عهد الصلح. وهذا التحديد لا يكون

١٦٤. شذ عن ذلك شذوذاً خفيفاً عهد هراة اذ سبق التحديد الجغرافي شرط من الواجبات (أنظر الملحق رقم: ٢)

مطلوباً الا في الأماكن التي يكون سكانها متعددي الأجناس أو الأديان أو ما الى ذلك، فيقوم نص العهد بتبيان المعنيين بدقة كما نجد في عهد بعلبك حيث أنه يحدد أنه موجه الى «رومها وفرسها وعربها»، فيما عهد دبيل موجه الى «نصارى دبيل ومجوسها و يهودها... وأهل مللها كلهم»، والطريق أنه في هذا العهد الأخير جاء زيادةً على ما أثبتنا «شاهدهم وغائبهم»، والغرض من هذا التحديدهو ليس التوضيح وحسب وانما دفع الادعاء المحتمل في المستقبل من جانب هؤلاء المصالحين على أن العهد عقد مع أجدادهم فهو غير ملزم لهم. هذا وأكثر ما يستعمل التحديد السكاني هو في تحديد أن العهد المعقود بين أهل مكان ما و بين المسلمين يشمل المقيمين على أرض ذلك المكان اقامة دائمة، فهو ملزم لهم إلزامه لأهل البلد الأصليين، و يستعمل لأجل التعبير عن ذلك عدة صيغ، منها «ولمن سكن فيهم (عهد أذربيجان)، أو «من أقام فيهم (جرجان)، الطرّاء منهم والتناء (أرمينية)، أو «أهل... ومن كان معهم» (الري)، أو «هل... ومن حشوا (قومس).
وعندما يكون الغرض من التحديد السكاني هو للمقيمين من الغرباء عن أهل البلاد فانه ليس هناك مكان محدد تجيء فيه هذه الوحدة، أما اذا كان الأمر متعلقاً بسكان البلد نفسها، بأجناسهم وأديانهم المختلفة، فان الوحدة هذه تجيء في مطلع قسم شروط الصلح.

مطلع قسم شروط الصلح.

وعندما يصل الدارس الى وحدة حقوق المصالحين تبدأ صورة هذا القسم بالتعقّد، والخط المطّرد في العهود جميعها (باستثناء عهد النوبة وعهد السغد) هو إعطاء الأمان على النفس والمال والصوامع والكنائس... الخ، بصيغ متقاربة جداً مثل «اني أمنتكم...» (دبيل)، «بالأمان لكم... (تفليس)، «أعطاهم الأمان...» (ماه دينار)، «انكم آمنون على... (أصفهان)، وكلها صيغ ايجابية، غير أن تسعة من العهود السبعة والعشرين التي لدينا تحتوي على حقوق اضافية على التأمين العام، وهذه تجيء دائماً بصيغة النفي، فهي تحدد ما **لن يحدث** لأهالي البلد المفتوح حقاً ممنوحاً لهم برضى الفاتحين، ومن الأمثلة على ذلك في عهد دمشق «وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم»، وقريب منه ما جاء في عهد القدس، وفيه اضافة الى ذلك: «ولا يسكن بايليا معهم أحد من اليهود»، وفي عهد مصر: «ولا يساكنهم النوب»، وفي عهد دنباوند: «ولا يغار عليك»... الخ.

و يتفرع عن الأمان العام نوعان من الأمان الخاص الموجه لفئة معينة من المعنيين بالأمان العام، وهم فئة الجالين وفئة القابلين للاسلام، وهذان النوعان أقل وروداً بطبيعة الحال في العهود، وقد ورد النوع الأول في عهود القدس ولد (فلسطين) (١٦٥) ومصر وجرجان وأذربيجان، وصيغته الأشيع، وهي الواردة في العهود الأربعة الأولى، هي «ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه» (جرجان)، وتلك الأقل شيوعاً هي صيغة عهد أذربيجان «ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ الى حرزه». تلك هي حقوق الجالي عن الأرض المفتوحة، أما حقوق الرجل اذا دخل في الاسلام فان عهود بعلبك وتفليس ومرد الروذ تتعرض لها، وكل واحد منها يستعمل صيغة مختلفة عن الأخرى في ايرادها، أبسطها صيغة عهد بعلبك: «ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا» — وهي الصيغة التي استعملها الرسول — برواية الحسن بن محمد — في كتابه لمجوس هجر (١٦٦) — وأشد منها تعقيداً صيغة عهد تفليس: «فان تبتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فاخواننا في الدين» — وفيها غير رواية (١٦٧)، وأخيراً تأتي صيغة عهد مرو الروذ وهي أكثر تعقيداً وطولاً أيضاً: «وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق، وأنت أخوهم».

وهناك ظاهرة تستدعي التوقف لدى دراسة الشكل في وحدة الحقوق، وقد وردت في عهد مرو الروذ فقط، فان هذا العهد كتب رداً على اقتراحات شروط الصلح من جانب مرزبان مرو الروذ الى الأحنف بن قيس، وقد كان في جملتها «... وان تقرّوا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى اقطع جد أبي، حيث قتل الحية التي أكلت الناس وقطعت السبل من الأرضين والقرى بما فيها من الرجال...». فلما قبل الأحنف بهذا الاقتراح اعاد استعمال كلمات المرزبان نفسها باستثناء العكس لمديح كسرى فكتب في عهده له «... الا ما كان من الأرضين التي ذكرت ان كسرى

١٦٥. عددت هذا العهد بينها رغم أنه مقطوع بعد «وعليهم أن يخرجوا» قياساً على عهد القدس، اذ كان سائره مثله، أنظر: الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٤٠٧.

١٦٦. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٩٧.

١٦٧. أنظر الملحق رقم: ١

الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التي أفسدت الأرض وقطعت السبل»، وهذا برهان فريد على مقدار الرغبة في التوثيق التي كانت لدى المسلمين عند عقد العهود.

غير أنه لكي يستحق المصالحون هذه الحقوق، فان عليهم بالمقابل واجبات يكون تنفيذ العهد مرهون بقيامهم بها. ومن هنا كان يلحق بهذه الوحدة ما يمكن أن نسميه «الصورة الشرطية» لهذه الوحدة، وهي ترد في معظم العهود التي وصلتنا، والصيغ التي تجيء فيها مختلفة، منها باستعمال «اذا» (لا يُعْرَضُ لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية» ـــ دمشق)، أو باستعمال «ما» ـــ بمعنى طالما ـــ («وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج» ـــ دبيل)، أو باستعمال الفاء («فان فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، فان فعلتم فلا عهد بيننا و بينكم» ـــ طبرستان) أو باستعمال «على» بالمعنى الشرطي («الأمان... على أن يؤدوا الجزية» ـــ قومس).

بقي أن أقول انه في معظم العهود التي وصلتنا تأتي وحدة «الحقوق» قبل وحدة «الواجبات»، وذلك لأن أكثر العهود تبدأ بالأمان ومن ثم تنطلق الى تبيان ما يشمله، ولأن الحقوق، مهما جاء فيها من التفصيلات، فانها تبقى أشد بساطة من الواجبات وأقل تفريعاً منها. على أنه شذّ عن هذه القاعدة خمسة عهود (هي عهود اصفهان وجرجان ومرو الروذ وهراة والسغد)، جاءت فيها وحدة الواجبات قبل وحدة الحقوق، كما جاء في عهود خمسة أخرى تكرار، بمعنى أن وحدة الواجبات تجيء في قسمين تعترضهما وحدة الحقوق، أو العكس، وهذه هي عهود تفليس ودنباوند وجرجان وطبرستان وأرمينية، وهي عهود بنيتها مضطربة بطبيعة الحال، وجاء في عهدين مبكرين (بانقيا و بهقباذ) ذكر المتعة أو الذمة (الحقوق) جنباً الى جنب مع ذكر الجزية (الواجبات) («... على الجزية والمتعة» و «لكم الذمة وعليكم الجزية»)، وهذه صيغة مختصرة، والاختصار الشديد مع المباشرة بين في العهود الأولى، ولم تتأثر بنية هذين العهدين بهذا الجمع السريع.

ومع وصولنا الى وحدة «الواجبات» نكون قد وصلنا الى أشد أجزاء القسم القانوني تعقيداً، وطولاً، وهي تمثل مع وحدة الحقوق الوحدتين الثابتتين في العهود جميعها.

والصيغ التي تأتي فيها حكاية الواجبات هي صيغ ايجابية في الغالبية العظمى من الأحوال، وسلبية في الأحوال الأخرى. وأكثر الصيغ استعمالاً من الصيغ الايجابية هي «على» بمعنى الفرض والشرط، فمن الأمثلة على الفرض «على الكفّ: ان تكف أهل أرضك...» (عهد دنباوند)، أو على الجزاء: دينار عن كل حالم، و «على اقرار بصغار الجزية» (عهد دبيل)؛ ومن الأمثلة على الشرط: «على أن يؤدوا الجزية عن يد...» (قومس)، أو «على أن يقروا المسلمين يوماً وليلة...» (الري) و «على... أن ينفروا لكل غارة» (أرمينية). وقد تقترن «على» ب «لنا» نحو: «ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا...» (عهد الرها)، أو تأتي «لنا» وحدها: «ولنا نصيحتكم وضلعكم على عدو الله ورسوله» تفليس) أما الصيغ السلبية فأهم أدواتها «لا»، إمّا وحدها («لا تسلطوا على مسلم» ـــ عهد أصفهان)، أو مقترنة ب «على» (على ألاّ يحدثوا كنيسة ولا بيعة ـــ عهد الرقة)، وكذلك من أدواتها «ليس» لكم أن تجمعوا بين متفرق من الأهلات استصغاراً منكم للجزية» في صلح دبيل. واذا كانت صيغتا الايجاب والسلب قد استعملتا

من قبل في وحدة الحقوق، فإن هناك صيغتين لم تستعملا فيها ووردتا فقط في وحدة الواجبات، أولاهما صيغة الافتراض، ومن النماذج عليها في عهد دبيل «وإن قطع بأحد من المؤمنين عندكم فعليكم أداؤه الى أدنى فئة من المؤمنين والمسلمين»، وثانيهما صيغة الشرط، كما جاء في عهد جرجان «ومن استعنّا به منكم فله جزاؤه في معونته...».

وكما كان إيصال الحقوق، إلى المصالحين من جانب المسلمين مرهوناً بتنفيذ المصالحين للواجبات، فكذلك تنفيذهم الواجبات مرهون بأن تصل إليهم حقوقهم من المسلمين. ومن هنا كان يلحق بهذه الوحدة أيضاً ـــ مثل سابقتها ـــ «الصورة الشرطية لها، غير أن هذه الصورة لا تظهر في العهود ظهور تلك الصورة هناك، لأنها ـــ بكل بساطة ـــ تضع الشرط على المسلمين لا على المصالحين، وقد وردت في أقدم عهدين لدينا فقط: عهد بانقيا وعهد الحيرة، وقد جاءت في الأولى بصيغة الإيجاب («فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم») والثانية بصيغة السلب (فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم»)، وفي رأيي أن عدم ظهورها بعد الفترة الأولى من الفتوح يدل على ما نال المسلمين من المزيد من الثقة بالنفس مع الزمن، فلم يعودوا بحاجة لأن يؤكدوا الشروط الموضوعة عليهم بالوفاء

بالعهد، وكأن ما سبق لهم أن فعلوه مع أهل الأراضي المفتوحة في الواقع كفيل بالبرهان على أنهم يفون بأمانهم عندما يعطون الأمان على الذمة لأي بلد من البلاد متى فتحوها صلحاً وعاهدوا أهلها عهداً.

و بعد الحقوق والواجبات يكون المطلوب في العهد هو الضمان، والضمانة الكبرى في العهود هي «الذمة» أو «العهد والذمة» أو «العهد والذمة والميثاق»، وهي تأتي مبدوءة إما باللام («لهم بذلك عهد الله» ـ دمشق، «لك بذلك ذمتي...» ـ السغد)، أو ب «على»، وهذا أشيع، بإحدى طريقتين: «على ما في هذا الكتاب عهد الله...» ـ مصر، أو «علينا بذلك عهد الله...» ـ النوبة. ولأن العهود تحتاج إلى أن تكون ضمانتها موثوقاً بها تمام الثقة، فإن كل العهود التي وردت فيها وحدة الضمان تعطي المصالحين عهداً وذمة لا يمكن أن يوجد أوثق منهما: ذمة الله والرسول»، كما في عهد النوبة، وقد يضاف إلى ذمتهما ذمة الخليفة والمؤمنين، كما في عهد مصر، وقد ترفع الموثوقية إلى درجة أعلى، فيستعمل لفظ «الخلفاء ـ بالجمع ـ بدلاً من «خليفة» بالمفرد، كما في عهدي دمشق والقدس(١٦٨)، وفي جميع هذه العهود لا يسمى الرسول باستثناء عهد النوبة (رسوله محمد صلى الله عليه وسلم») ـ ولا الخليفة ولا أحد المؤمنين؛ إلا أنه ـ ومرة أخرى ـ يرجع عهد السغد ليمثل استثناء كبيراً على القاعدة، فنجده يسمي الرسول و يذكر عترته و يسمي الخليفة و ينسبه، ثم يذكر والي الشرق باللقب والاسم والنسب، و يعطي اسم قائد الجيش عاقد العهد مع افشين السغد، و يذكر المؤمنين فوق هذا كله، وذلك على الشكل التالي: «إنه صالحه وشرط له بذلك عهد الله وميثاقه وذمته، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وذمة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ابن مروان، وذمة الأمير الحجاج بن يوسف بن الحكم، وذمة قتيبة بن مسلم، وذمة المؤمنين». وإذا كان في هذا شذوذ على القاعدة في وحدة الضمانة، فإن فيه شذوذاً آخر وهو أنه جاء في مطلع العهد (مباشرة بعد المرسل والمرسل اليه) على عكس المعهود، إذ تأتي الضمانة بعد الحقوق والواجبات، مؤكدة لها وخاتمة إياها بخاتها.

١٦٨. اعتبر البرشت نوت أن مجرد ذكر الخلفاء بالجمع في عصر عمر يطعن في موثوقية نص العهد أنظر: (Quellenkritische, p. 67) ولكن كما حاولت أن أبين هنا كان المراد هو تضخيم الثقة بالضمانة. و بعد فان الانسان نفسه «خليفة في الأرض» في الاسلام.

وحيث أن الذمة تُعطى من المصالِحين ـ بكسر اللام ـ الى المصالحين ـ بفتحها ـ، فإن كل العهود تكتفي بذكر ذمة المسلمين، ولم يشذّ عن هذه القاعدة سوى عهد النوبة، إذ طالبوا فيه ذمةً مقابلة من المصالحين، وقد جاءت على الشكل التالي: «ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريّين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملّتكم»، وهذا تعبير في غاية الطرافة، والجهلُ بالنصارى والقياسُ على المفاهيم الإسلامية واضحان فيه.

نصل الآن إلى الوحدة الأخيرة في القسم القانوني، وهي وحدة العقوبات في حال انتهاك شروط الصلح، وهي تجيء عادة في آخر العهد، وإن كان هناك استثناءات طفيفة، وهي إما أن تأتي بشكل قاعدة عامة، كما جاء في عهد تفليس («ومن تولى عن الإيمان والإسلام والجزية فعدو الله ورسوله والذين آمنوا، والله المستعان عليه)، وهذه نادرة في العهود، أو بشكل توجه مباشر إلى المعاهدين، مجمعين أو أفراداً؛ ومن الأمثلة على التوجه الجماعي ما جاء في عهدي ماه دينار وماه مهراذان «فإن غشوا و بدلوا فذمتنا منهم بريئة»، ومن الأمثلة على التوجه الفردي: «فمن منع ما عليه فلا عهد ولا ذمة» الذي جاء في عهد هراة. كذلك قد تذكر الجرائم التي تتطلب عقوبة في حال حدوثها بشكل عام، كما في عهد موقان: «فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلّموا الغششة برمتهم وإلا فهم متمالئون»، أو تحدد مجموعة من الجرائم بأعيانها، كما جاء في صلح النوبة: «فإن أنتم آو يتم عبداً لمسلم، أو قتلتم مسلماً أو معاهداً، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس وستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، ونحن وأنتم على سواء، حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين»؛ ويحدث أيضاً أن تذكر جريمة معينة وتذكر إلى جانبها عقوبتها الخاصة، من مثل ما جاء في عهد جرجان: «وعلى أنّ من سبّ مسلماً بلغ جهده... ومن ضربه حلّ دمه»، وقريب منه أيضاً نص عهد أصفهان.

وتلخيص لما سبق أقول: إن الوحدة الثالثة في البنية الكبرى لعهود الصلح التي وصلتنا، وحدة شروط الصلح، هي وحدة شديدة التركيب، إذ هي نفسها مكونة من ست وحدات داخلية في العهد الأكمل، هي وحدات: التحديد الجغرافي لمن تعنيهم عهود الصلح، والتحديد السكاني لمن تعنيهم عهود الصلح، وحقوق المصالحين، وواجبات

المصالحين، وضمانات الصلح، والعقوبات في حال انتهاك شروط الصلح. وهذه الوحدات الداخلية يتفاوت وجودها في العهود من عهد لعهد، إلا أن جميعها يحتوي على أهم وحدتين فيها وهما وحدتا الحقوق والواجبات. و يدل التركيز على وحدتي الحقوق والواجبات من ضمن وحدات شروط الصلح، وعلى وحدة شروط الصلح من بين سائر وحدات العهد الكبرى، فضلاً عن تعقيدها جميعاً أكثر من سائر الوحدات، أن ترتيب الوضع القانوني بين الفاتحين والمعاهدين هو أهم ما كان يهدف إليه من وراء العهود، فهو إذن حجر الزاو ية منها وصلب مادتها، وهو إن كان يدل على شيء يتجاوز اتّباع سنة الرسول الكريم، فإنه يدل على تحكم النظرة التشريعية في أذهان الفاتحين الأوائل، وعلى فهم عميق لارتباط الجماعة بالكيان السياسي الشرعي ارتباطاً حتمياً. وفي هذا المجال يصبح واضحاً مدى ضخامة التأثر بلبّ الإسلام في نفوس مبرمي هذه العهود، ولا يضيرهم في شيء أنهم لم يستخدموا إلا القليل من التعابير القرآنية في تلك العهود(١٦٩)، فإن أثر القرآن يظهر في عقليتهم وتوجههم الأصلي بشكل يتجاوز ظهورها بالألفاظ على أوراق عهودهم. كذلك فإن دراسة الشكل لهذه الوحدة الثالثة بأجزائه المختلفة تظهر توازناً عجيباً بين التفرد والوحدة، بمعنى أن كل واحد من هذه الأجزاء يتشابه تشابهاً غير قليل في العهود المختلفة، إن على مستوى الشكل الخارجي، أو على مستوى الصيغ التعبيرية، ولكن ــ ورغم ذلك ــ يظل لكل جزء من كل عهد تفرده الخاص، بحيث لا يمكن أن يخلط بينه و بين الجزء الموازي له في العهد الآخر، اللهم إلا حيث يكون العهدان متطابقين نصاً تقريباً، وهذه حالة فريدة لا نجدها إلا في عهدي ماه دينار وماه بهراذان.

لنمض الآن إلى دراسة مضمون العهود، وسوف أركز فقط على الوحدة الثالثة باعتبارها لب الموضوع كما قلت، ولأن الوحدات الأخرى لا تتمايز الواحدة عن الأخرى إلا بالشكل، وهذا قد تعرضت له فيما سبق.

وقبل أن أشرع في تحليل مضمون شروط الصلح أود أن أتوقف عند ظاهرة هامة جداً لا يجوز تجاوزها، وهي العلاقة بين هذا المضمون كما يظهر في نص عهد الصلح و بينه كما يظهر في الأخبار «شبه الوثيقية» عنه في المصادر. وللوصول إلى نتائج سليمة لا بد من إجراء

١٦٩. قارن بـ. Noth, Quellenkritische, p. 65.

مقارنة بين مادة الوحدة الثالثة في بعض العهود ومادة هذه الوحدة في المصادر الموازية، ولنأخذ مثلاً عهد الحيرة. فماذا نجد؟

في عهد الحيرة ينص العهد على أن خالداً فرض على أهل الحيرة جزية مبلغها (١٩٠٬٠٠٠) درهم تُرْفع فقط عن المتعبّدين السائحين في الدنيا، وأنه إذا لم يمنع المسلمون أهل الحيرة فلا شيء عليهم حتى يمنعوهم، فإذا غدروابهم فالذمة منهم بريئة(١٧٠). أما في المصادر فهناك حديث طو يل عن قيمة الجزية، إلا أن اتفاقه مع ما جاء في العهد قليل جداً، فهناك رواية تقول إنها (١٩٠٬٠٠٠) درهم كما جاء في نص العهد(١٧١)، أما سائر الروايات فإنها مخالفة لنص العهد، وهناك ثلاث روايات على أن الجزية بلغت (١٠٠٬٠٠٠) درهم(١٧٢)، ورواية أنها كانت (٨٠٬٠٠٠) درهم(١٧٣)، ورواية أخرى أنها بلغت (٨٤٬٠٠٠)؛ قال: وذلك «أن أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل، فألزم كل رجل منهم أربعة عشر درهماً وزن خمسة، فبلغ ذلك أربعة وثمانين ألفاً وزن خمسة، تكون ستين وزن سبعة؛ قال: «وكتب لهم بذلك كتاباً قد قرأته»(١٧٤). بالاضافة إلى ذلك لم يذكر في أي من المصادر رفع الجزية عن المتعبدين، ولا منع الجزية في عدم حصول المنعة، ولا إسقاط الذمة إذا حدث من أهل الحيرة غدر، بل ذكر غير ذلك تماماً: ذكرت شروط أخرى واجبة على أهل الحيرة هي أن يكونوا عيوناً على أهل فارس(١٧٥) (وفي رواية: عوناً)(١٧٦)، وأن لا يهدم لهم بيعة ولا قصر(١٧٧)، وأن لا يبغوا المسلمين غائلة(١٧٨).

١٧٠. راجع هذا في الملحق رقم: ٢

١٧١. انظر: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠١٩

١٧٢. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٧؛ المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٥، ص ١٦٦؛ الأزدي، أبو اسماعيل محمد بن عبد الله (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م) فتوح الشام، تحقيق وزليس، كلكتا، ١٨٥٤. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأزدي، فتوح الشام.

١٧٣. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٧.

١٧٤. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٨.

١٧٥. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٧، ٢٩٨؛ الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٠١٩ــ ٢٠٢٠.

١٧٦. أنظر: الأزدي، فتوح الشام، ص ٥٥.

١٧٧. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٧.

١٧٨. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٨؛ الأزدي، فتوح الشام، ص ٥٥.

على ماذا يدل هذا ؟

إنه يدل عن أن الفرق بين مضمون شروط الصلح في صورة العهد الرسمية و بين مضمونها في روايات الرواة فرق كبير جداً حتى أنه لا يمكن أن يوفق بينهما ، وهذه قاعدة تطرد مع كل محاولة للمقارنة بين العهود التي وصلتنا و بين الأخبار شبه الوثيقية عنها في المصادر. غير أنه لا بد من ملاحظة أمر هام وهو أن ما تزيده أخبار المصادر لا يختلف في طبيعته ذاتها عما يرد في العهد عادة من شروط ، فهو من نفس نوعها أو جنسها أو طبيعتها ، وإنما هو مختلف عنها في المؤدى وحده. وفي تصوري أن الأخبار التي في المصادر مأخوذة عن «رسائل التعهد» التي كان يكتبها أبناء البلاد المفتوحة و يوقعونها و يعطونها للمسلمين مقابل تسلمهم عهود الصلح منهم ، وقد مرّ الحديث عنها من قبل ، كما مرّ منها نموذج فيما سبق (تعهد نصارى الشام لعمر) وقد لاحظنا فيه أنه يحتوي على تفصيلات كثيرة جداً جداً لم ترد في عهد الصلح القصير البسيط لأهل دمشق ، والحقيقة أن هذا يتفق مع ما نلاحظه في روايات الرواة في أخبارهم «شبه الوثيقية» ، فإنها دائماً أكثر تفصيلاً وتدقيقاً وتعداداً للشروط ، خاصة في مجال الواجبات على أهالي البلاد المفتوحة ، بل إننا إذا قارنّا بين «تعهد» أهل الشام و بين بعض «الأخبار الوثيقية» عن صلح دمشق ، وجدنا تشابهاً عجيباً بينهما ، وهذا يجعلنا نرجح ما رجحناه ، من أن هذه الأخبار هي صورة تقريبية للتعهدات الأصلية المكتوبة ، تماماً كما أن نصوص العهود هي صورة تقريبية لأصولها الرسمية . وما دام الأمر كذلك ، فإن الأخبار لا يمكن أن تدخل هنا في تحليل مضمون العهود ، وإنما قد يلجأ إليها لتوضيح نقطة أو مشكلة بين الحين والحين .

يتركز في صلب العهود الحديث أكثر ما يتركز ، بعد البسملة وتحديد المرسل والمرسل اليه ، وقبل ذكر الشهود والكاتب والتاريخ والخاتم والتسجيل ، على شروط الصلح المكونة أساساً من حقوق أهالي البلاد المفتوحة من ناحية وواجباتهم من ناحية أخرى .

أما الحقوق فإن العهود جميعها تذكر الأمان عموداً فقرياً في العهد ، و يكون الأمان ابتداء دائماً على النفس (أو الدم) والمال ، وقد يحدد مَنْ مِنَ النفوس هو آمن ، كما في عهد تفليس : «لكم ولأ ولادكم ولأهاليكم» ، وفي عهد الرقة : «وذراريهم ونسائهم «. بعد ذلك تختلف العهود فيما بينها على ما هي الأشياء التي تُعْطَى الأمان ، و يتحكم في ذلك

أمور كثيرة ، لعل أهمها : (١) طبيعة الفتح نفسه ، فإذا كان فتحاً للمدينة وما حولها أعطوا الأمان على «دورهم داخل المدينة وخارجها» (بعلبك) ؛ و (٢) طبيعة المدينة نفسها ، كأن يكون لها سور فيعين الأمان له من الهدم (دمشق ، دبيل) أو يكون فيها أرحاء كثيرة أو طواحين فيذكر ذلك في العهد (بعلبك ، الرها) ؛ و (٣) لون المصالحين الديني البارز، والتأمين على الكنائس أو البيع أو الصوامع أو الصلبان معروف في عهود عديدة (دمشق ، القدس ، لد وفلسطين ، الرقة ، تفليس ، مصر) ، وكذلك الحديث عن أمانهم بالنسبة لشرائعهم ومللهم (ماه دينار وماه بهراذان ، قومس ، جرجان ، موقان) ؛ و (٤) مذاهب المصالحين في الرزق ، كأن يكونوا تجاراً كسكان النوبة ، فيعاهدون على أن «لا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة» ، أو أن يكونوا مزيجاً من التجار والرعاة ، كأهل بعلبك ، فيجيء في عهدهم «وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم و بين خمسة عشر ميلاً ... فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاؤوا ... ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ...» ؛ و (٥) الاتفاق الشخصي بين عاقد الصلح من المسلمين وكبير المصالحين ، وتلك حالات خاصة جداً ، كما نجد في عهد مرو الروذ مثلاً : «وان لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من وراءك من أهل ملتك ... ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوي الأرحام» ، أو في عهد السغد : «وعلى قتيبة العهد والميثاق أنه لا يعمل على غوزك بن أخشيد ، أفشين السغد ، بشيء ، ولا يغدر به ، ولا يأخذ منه أكثر مما صالحه عليه ، و يعاونه على عدوه ، و يقول قتيبة بن مسلم : بأني قد ملكتك يا غوزك في اخشيد سمرقند وأرضها وحدودها وكسى ونسف و بلادها وحصونها ، وفوضت إليك أمرها ، وأخذت خاتمك عليها ألا يعترض عليك معترض ، وأن الملك من بعدك لولدك أبداً ما دامت لي ولاية خراسان» . وإن الحقوق الكبيرة المبالغ فيها التي أعطاها قتيبة بن مسلم إلى أفشين السغد بموجب هذا العهد لهي دلالة أخرى على أن هذا العهد الذي تفرد بروايته ابن أعثم يحتاج إلى دراسة مستقلة .

وفيما عدا ما ذكرت من الملامح عن حقوق المصالحين لا تعطينا نصوص العهود شيئاً يذكر ، فإن الحديث عنها قليل مقابل الحديث عن الواجبات ، موضوع الفقرة التالية .

هذا هو أطول أقسام العهود جميعها دون استثناء تقريباً ، والعمود الفقري فيه هو الجزية ، الشرط الأول لعقد الصلح .

ومعظم العهود تستعمل لفظ «الجزية»، و بعضها فقط يستعمل لفظ «الجزاء» بدلاً منها، كما في عهد الحيرة («جزاء عن أيديهم في الدنيا») والري وجرجان وموقان (على الجزاء...)، وهي تُعْطى اسم «الحق» في عهد الرها. وقد يقرن بذكر «الجزية» «الخراج»، إلا أن هذا نادر (بعلبك، دبيل)، كما قد يقرن بها ما يفيد الصَّغار المنصوص عليه في القرآن (١٧٩)، ولكن هذا لم يرد سوى في عهد تفليس («على إقرار بصغار الجزية») (١٨٠) وعهد قومس (على أن يؤدوا الجزية عن يد).

وتختلف العهود فيما بينها في تحديد الجزية، فبينما يذهب عدد منها إلى تحديدها بمبلغ من المال معين كبير مقطوع يفرض على أهل البلاد (١٠٬٠٠٠ دينار على بانقيا، ١٩٠٬٠٠٠ درهم على الحيرة، ٢٠٠٠٬٠٠٠ ثقيل على بهقباذ، ٥٠ ٠٠٠٬٠٠٠ على مصر، ٢٠٠٬٠٠٠ درهم وزن سبعة على دنباوند، ٥٠٠ ٠٠٠ درهم على طبرستان، ٦٠ ٠٠٠ على مرو الروذ)، تعيّن بعض العهود الكمية المالية المطلوبة على الأسرة، كما في نص عهد تفليس: «على أهل كل بيت دينار واف»، وفي هذه الحالة يحذر السكان من التلاعب بعدد البيوت عندهم (عن طريق ضمّها معاً لتصبح أقل عدداً)، كما يتعهد المسلمون بعدم تفريقها لتصبح أكثر عدداً. وأكثر من ذلك ورود تحديد الجزية على الرأس، كما في عهد موقان: «دينار عن كل حالم»، وفي هذه الحال يذكر في العهد عادة من هم الأشخاص الذين يجب أن تدفع الجزية على رؤوسهم، وأكثرها تجعلها مفروضة على الحالم (موقان، جرجان، قومس، ماه دينار، ماه بهراذان) واثنان نصّا على أنها مرفوعة عن أناس بأعيانهم، فدفعها في عهد أذربيجان ليس على صبي ولا امرأة ولا زَمِنٍ ليس في يديه شيء ولا متعبد متنحّل ليس في يديه شيء، وكذلك في عهد الحيرة، على أهلها ــ بما فيهم رهبانهم وقسّيسيهم ــ أن يدفعوا الجزية «إلا من كان منهم غير ذي يد، حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها... (١٨١) أو سائحاً تاركاً للدنيا».

وهناك عهود لا تعين فيها كمية المال المفروضة على بلد ما، وانما تُجْعَل متروكة

١٧٩. الآية ٢٩ من صورة التوبة ونصها: «حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون»

١٨٠. فيها غير رواية، انظر الملحق رقم: ١

١٨١. فيه رواية أخرى، انظر الملحق رقم: ٢

للتقدير بحسب أحوال أهل البلاد من العسر واليسر: «على قدر طاقتهم» (ماه دينار، ماه بهراذان، أصفهان، قومس، جرجان، أذربيجان)، و بعضها ينص على أن على المعسر أن يدفع أقل من الموسر: «القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله» (بانقيا).

ولا يكون دفع الجزية بالنقد وحده، وإنما قد يكون بالعين أيضاً، وفي عهد السغد نقرأ أن بين الجزية كان ثلا ثة آلاف رأس من الرقيق «ليس فيهم صبي ولا شيخ»، وفي عهد النوبة نجد أن عليهم ثلا ثمائة وستين رأساً «من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيه ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان». وقد ذكر في ضمن عهد مصر أن على النوبة الذين يستجيبون لصلح مصر أن يعينوا بأشياء منها «كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً». هذا وليس لدينا إشارة في العهود إلى أن بعض الجزية كان يدفع من المزروعات والمستخرجات منها، فهذا نعرفه من الأخبار الوثيقية (١٨٢)، ولكن لدينا في عهد موقان ما يوسع مجال التنويع في ما يعطى جزيةً، اذ فيه أن على كل حالم ديناراً «أو قيمته»، بمعنى قيمته من أي شيء متوفر في البلاد. وفي هذا المجال لدينا نصّ فريد في عهد السغد يبين فيه قيمةِ عدد من «البضائع» والمعادن المالية وكيف تحسب في ذلك الوقت، فكأنه بذلك يعطينا «أسعار العملات» أو «معدّل الصرف» لبعض الأشياء المتوفرة آنذاك، وذلك بتفصيل جميل غير معهود؛ قال: «فما أعطى من ذلك في جزية أرضه من السبي **يحسب له** كل رأس ب ٢٠٠ درهم، وما كان من الثياب الكبار كل ثوب ب ١٠٠ درهم، والصغار ب ٦٠ درهماً، وما كان من حرير فكل شقة ب ٢٨ درهماً، والذهب الأحمر كل مثقال بِ ٢٠ درهماً، والفضة البيضاء مثقال بمثقال».

و يتعين دفع الجزية مرة في كل سنة، وهذا أمر يُنَصُّ عليه نصاً في عدد غير قليل من العهود التي بين أيدينا (بانقيا، الحيرة، بهقباذ، ماه دينار، ماه بهراذان، أصفهان، الري، دنباوند، جرجان)، وفي عهد القدس حدد الوقت من السنة بأنه بعد الحصاد، وفي عهد مصر حدد بأنه «إذا انتهت زيادة نهرهم»، أي بعد فيضان النيل. وهناك حالة خاصة بمصر بالنسبة لمبلغ الجزية المدفوع، فإن العهد ينص على أنه «إن نقص نهرهم من غايته إذا

١٨٢. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٣، ص ٢٠٥ وص ٢٠٦ لنماذج على ذلك.

انتهى، رفع عنهم بقدر ذلك»، وهذا يعني أن مبلغ الجزية غير ثابت ثبوتاً دقيقاً، وهو معرّض لأن ينزل بعض الشيء إذا لم يبلغ فيضان النيل مبلغه العادي. و يوحي عهد السغد الفريد بظاهرةٍ تكثر الأخبارُ عنها في المصادر، إلا أنها لا تذكر في أي من العهود سواه، وهي مسألة التفريق في دفع الجزية وزمانها بين «العاجلة» وغيرها (وتسمية «العاجلة» لا نجدها سوى عند ابن أعثم)، وهي مبلغ مقطوع يفرضه القائد على أهل البلاد المفتوحة يدفعونه بعد فترة قصيرة من عقد الصلح وكتابة العهد به، (١٨٣)، وقد تكون أربعين يوماً (١٨٤)، فيما الجزية تدفع كل سنة، يقال: ... على ٢٠٠٠٠٠٠ درهم عاجلة و ٢٠٠٠٠٠ درهم في كل عام».

هذا ويمكن أن يستبدل بالجزية تقديم الخدمات للمسلمين، وخاصة الجهاد، وعهد أرمينية واضح في ذلك عندما ينص بوَضْع الجزاء عمّن أجاب إلى ذلك «الحشر»، والحشر عوض من جزائهم (١٨٥)، وهو يفسر ما جاء في عهد أذربيجان من القول «ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة». كذلك نقرأ في صلح جرجان «من استعنّا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه، فكأن الخدمة هي بديل للمال أو العين.

حتى الآن كان الحديث مركزاً على الجزية وحدها، الجزء الرئيسي في جميع عهود الصلح التي وصلتنا، وهي تشكل «الجانب المادي» مما على أهل البلاد المفتوحة أن يقدموه للمسلمين. غير أن هناك في عهود الصلح واجبات معنوية في الأصل، تنفيذية في الواقع، ملقاة على عاتق المصالحين، على رأسها الوفاء للمسلمين (الماهان ودبيل) ونصيحتهم، كما في عهود جرجان وأصفهان والماهين وهراة وتفليس وموقان والري، وعدم غشهم، كما في عهد قومس، ثم دلالة المسلم (أصفهان والري وقومس وأذربيجان وموقان وأرمينية، وهو ما يعبر عنه أحياناً «بـ إرشاد ابن السبيل» (جرجان والماهان)، أو بـ «إرشاد الطريق» (تفليس)، بـ «هداية الضالّ» (الرها)، كما أن بعض العهود (تفليس) يذكر أن على

---

١٨٣. أنظر أمثلة على ذلك في: ابن أعثم، الفتوح، جـ١، ص ١٦٠، ص ٣٢٨، جـ٢، ص ٦٦، ص ٧٠، جـ٧، ص ٢٤٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٠، وأخبارها لدى ابن أعثم أكثر من غيره من المؤرخين.

١٨٤. أنظر: الطبري، التاريخ، جـ٢، ص ٤٤٨ (سنة ١٠٤)

١٨٥. راجع أيضاً: الطبري، التاريخ، جـ١، ص ٢٦٦٤.

المصالحين إن انقطع الطريق بأحد من المسلمين عندهم أن يأخذوه إلى أقرب فئة من المؤمنين إلاّ أن يحول حائل دون ذلك، ولعل هذا هو نفسه المعنيُّ بـ «حملان الرجل الى مرحلة» المذكور في عهد أصفهان. كذلك على المعاهدين أن يُقروا المسلم عندهم (جرجان) يوماً وليلة (الماهان، أصفهان، الري، قومس، أذربيجان، أرمينية، موقان)، وذلك من «أوسط» طعامهم بحسب تعبير عهد قومس، ولعله هو نفسه المعني بالقول في عهد تفليس «من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم». وعلى وجه الإجمال على المعاهدين أن يفخّموا المسلم (الري)، ولا يسلطوا عليه (أصفهان) ولا يسبوه ولا يضربوه (أصفهان، جرجان) فإذا فعلوا فإنّ عليهم العقوبات الشديدة (١٨٦)، وعليهم أيضاً إصلاح الطرق له (الماهان وأصفهان)، وإصلاح الأراضي (هراة)، وإصلاح الجسور (الرها)، وكل هذا يعني راحة المسلم. ومما يعني راحته أيضاً ألا يرى شعارات وفي آخر تنهض مامه، ولذلك أمر مصالحو الرقة «ألا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً».

وعلى وجه الإجمال على أهالي الأراضي المصالحة أن يكونوا مستعدين لخدمة المسلمين، يكفّون عنهم أهل الأرض (دنباوند) واللصوص (القدس)، ولا يؤوون لهم بغية (طبرستان)، ولا يغلوا ولا يسلّوا (الري، جرجان، طبرستان)، وإذا دعاهم المسلمون لقتال عدوهم فعليهم الإنابة والإجابة (مرو الروذ، أرمينية).

و ينفرد عهد النوبة بتقرير أمور على النوبة لم ترد في أي عهد آخر، منها إرجاع كل عبد آبق من ديار المسلمين إلى ديارهم، وحفظ المسجد الذي بناه المسلمون بفناء مدينتهم وكنسه وإسراجه وتكرمته.

لقد حاولت فيما سبق أن أدرس مجموعة عهود الصلح التي وصلتنا، مستعينة أحياناً بالمادة الخبرية عنها في المصادر، وتاركة لها عمداً أحياناً أخرى، لا لضرورات البحث وحسب، بل لأن العهود هذه قد لا تكون صورة طبق الأصل من العهود المكتوبة زمن الفتوح إلا أنها صورة تقريبية منها، بينما الخبر ــ في أحسن الأحوال ــ لا يرقى إلى أكثر من أن يكون مستمداً من «كتب التعهد»، تلك الكتب التي كان أهالي الأراضي المفتوحة يكتبونها للمسلمين جواباً على عهدهم لهم، كما قدرت. ولا أريد بهذا أن أغضّ من قيمة

---

١٨٦. أنظر ما سبق ص ٢٣٥ ــ ٢٤٦.

الخبر في دراسة عهود الصلح، فإن ما فيه — باستثناء المادة الحكمية الاعتذارية المشكوك فيها — موثق مفيد معاً، ويحتوي على قدر كبير من المعلومات يتجاوز المعلومات الموجودة في نصوص عهود الصلح تجاوزاً كبيراً، وإنما منه نعرف — مثلاً — أن عهوداً كتبت بين المسلمين وبين أهل قصم [١٨٧] وفحل [١٨٨] وحمص [١٨٩] وحلب [١٩٠] وعانات [١٩١] وقرقيسيا [١٩٢] وأنطابلس و برقة [١٩٣] و بلخ [١٩٤] و بست [١٩٥] وهمذان [١٩٦] ولواتة [١٩٧]، وكل هذه ضاعت ولم تصلنا نصوصها. إذن ما أريد أن أقوله هو أن نصوص العهود أعلى مرتبة من الخبر، إلا أن الدارس لعهود الصلح دراسة شاملة محتاج إلى الخبر قدر احتياجه إلى نص العهود، لا يستغني قط بالواحد منهما عن الآخر.

ولقد كانت أقدم العهود التي تعرضت لتحليلها ترجع إلى سنة ١٢ للهجرة وأحدثها إلى سنة ٩٤، غير أن الأهم من ذلك أن يقال إن كل هذه العهود — باستثناء عهود ثلاثة — ترجع إلى الفترة الأولى من الفتوح، أي إلى خلافة أبي بكر وعمر والقسم الأول من خلافة عثمان [١٩٨]. أما هذه العهود الثلاثة — عهود النوبة ومرو الروذ والسغد — فإن الأولين منها عقدا في زمن مبكر بعض الشيء (سنة ٣١ و ٣٢ على التوالي) فيما الأخير منها عقد في

١٨٧. أنظر: قدامة بن جعفر، الخراج ص ٢٨٧

١٨٨. انظر: خليفة بن خياط، التاريخ، جـ ١، ص ١١٣، قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٨٩ — ٢٩٠.

١٨٩. أنظر: الأزدي، فتوح الشام، ص ١٢٨، ابن أعثم؛ الفتوح، جـ ١، ص ٢١٦.

١٩٠. أنظر: خليفة بن خياط، التاريخ، جـ ١، ص ١٢٤.

١٩١. أنظر: أبو يوسف، الخراج، ص ١٥٨.

١٩٢. أنظر: أبو يوسف، الخراج، ص ١٥٩.

١٩٣. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٤.

١٩٤. انظر: ابن أعثم، الفتوح، جـ ٧، ص ٢٣٤.

١٩٥. أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٩١.

١٩٦. أنظر: الطبري، التاريخ، جـ ١، ص ٢٦٥٣

١٩٧. انظر: أبو عبيد، الأموال، ص ٢٦٧.

١٩٨. راجع ما سبق، ص ١٩٦ — ٢٠٠، والملاحظ أن عهداً واحداً من هذه العهود الأربع قد عقد زمن عثمان، والباقي كله عقد زمن أبي بكر وعمر.

خلافة الوليد بن عبد الملك. والحقيقة أن المدقق في نصوص عهود الصلح جميعها، يجد أن هذه العهود الثلاثة تبرز من بينها على أن فيها نوعاً من الاختلاف أو «التميز» عن سائر العهود، ثم تختلف العلامات الفارقة لكل تميز منها من عهد الى آخر اختلافاً بيّناً. أما سائر العهود فإنها على وجه الإجمال بسيطة جداً ومباشرة واضحة، وقد كانت أنماطها الأولى (عهود خالد ابن الوليد الأربعة الأولى: (بانقيا والحيرة والبهقباذ ودمشق) شديدة الإيجاز، فيما دخل بعض التطويل إليها منذ عهد القدس (سنة ١٧)، ومنذ ذلك الحين وحتى أواسط خلافة عثمان ظلت العهود بسيطة مباشرة، إما موجزة وإما مطولة، متبعة لنمط واحد في طريقة التعبير، كأنما أصبح هناك بعد سنوات الفتح الأولى «نمط» معين، يحتوي على «كليشيهات» معينة، لعل أصولها الأولى شفوية و يتبع لدى كتابة العهد (إني قد أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم، «وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة»، «على كل حالم... دينار/ درهم»، «فان أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا»... الخ)، و يصبح أتّباعه أشبه «باتّباع سنّة» سنّها الأولون، وهذا ما حاولت أن أبينه لدى دراسة الشكل فيما سبق. ولئن سار عاقدو العهود على «سنة» الأولين، فأوجدوا بذلك نوعاً من «التوحيد» بين عهود الصلح، ومن ثم قووا موثوقيتها، فإنهم لم يتقيدوا بتلك السنّة حرفياً، وظلت ظروف كل بلد مفتوح تفرض عليهم طبيعة التوجه في المعاهدة. فما يقال عن الجزية في العهود جميعها يقال غيره في عهد مصر بسبب العلاقة بينها و بين فيضان النيل، مثلاً، وهذا سويد بن مقرّن صالح أهل قومس والري ثم أهل جرجان ثم أهل طبرستان، كل ذلك في سنة واحدة (سنة ٢٢)، ومع ذلك كان عهده لكل واحد من أهالي هذه البلاد مختلفاً عن عهده لأهل البلاد الأخرى [١٩٩]، وكذلك هو الحال بالنسبة للعهود المختلفة التي عقدها مع غير مكان كل من عياض بن غنم [٢٠٠] وحبيب بن مسلمة [٢٠١] ونعيم بن مقرن [٢٠٢]، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى عهدي ماه دينار وماه بهراذان إذ هما متطابقان نصاً [٢٠٣]، ولكن

١٩٩. أنظر الملحق رقم: ٢

٢٠٠. صالح عياض أهل الرقة وأهل الرها، انظر الملحق رقم: ١ ورقم: ٢

٢٠١. عقد حبيب بن مسلمة عهداً مع أهل و بيل وأهل تفليس، انظر الملحقين: ١، ٢

٢٠٢. عاهد نعيم بن مقرن أهل الري وقومس من ناحية، وأهل دبناوند من ناحية أخرى، انظر الملحقين رقم: ١

٢٠٣. انظر الملحق رقم: ٢

تعليل ذلك بسيط، إذ هما مكان واحد تقريباً (٢٠٤). وأياً كان الأمر، فإن لهذه الملاحظات دلالتها على أن العهود الإسلامية ظل لكل واحد منها في الفترة الأولى تميّزه رغم أنها جميعاً كانت تتبع الأنماط التعبيرية ــ فضلاً عن الأفكار العامة ــ نفسها.

بماذا تتميز العهود «المتأخرة» نسبياً عن العهود الأولى ؟

أما عهد النوبة فإنه يتميز على جميع العهود الأخرى بمسألتين: طريقة التعبير والمضمون. فمن خصوصياته التعبيرية استعمال كلمة «هدنة» فيه، وعبارة «عهد عقده على الكبير والصغير من أهل النوبة»، وتعبير «معاشر النوبة»، ومن خصوصياته من ناحية المضمون الشروط المفروضة عليهم لجهة ردّ العبد الآبق من بلاد المسلمين إليهم، وحفظ مسجد المسلمين القائم بفناء مدينتهم وكنسه وإسراجه وتكرمته؛ أما عهد مرو الروذ فإنه فريد في مطلعه، فهو العهد الوحيد الذي فيه «أما بعد»، وهو الوحيد الذي يستشهد استشهاداً بنص آية قرآنية (٢٠٥)، وبعد تحديد المرسل والمرسل إليه يبدأ بما يكمن أن يسمى «رسالة شخصية» إلى «عظيم مرو الروذ» تحكي حكاية الاقتراحات التي قدمها ابن أخي هذا العظيم للأحنف بن قيس قائد المسلمين وموقف المسلمين من هذه الاقتراحات، وعلى أثر ذلك يأتي شروط الصلح: «سلام على من اتبع الهدى وآمن واتقى. أما بعد: فان ابن أخيك ماهله قدم علي فنصح لك جهده وأبلغ عنك، وقد عرضت ذلك على من معي من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء وقد أجبناك إلى ما سألت وعرضت، على أن تؤدي ... إلا ما كان من الأرضين التي ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التي أفسدت الأرض وقطعت السبل». وأخيراً يجيء عهد السغد، وهو أشد العهود الثلاثة تميزاً، فهو الوحيد الذي يعطي النسب واللقب والمنصب لكل من المعاهدين من المسلمين، ويجعل هؤلاء المعاهدين يمتدون من الخليفة (الوليد بن عبد الملك) الى الوالي (الحجاج بن يوسف) إلى القائد الفاتح (قتيبة بن مسلم)، وهو الوحيد الذي يعطي «سعر العملات» أو «معدّل الصرف» للبضائع والمعادن مقارنة بالنقد بتفصيل ما بعده تفصيل كما مرّ، وهو الوحيد الذي يعطي مخاطبه أفشين الصغد حق حكم البلاد، هو الآن وولده

٢٠٤. راجع (ماه دينار) و (ماه بهراباذان) في معجم البلدان لياقوت.

٢٠٥. في العهد: والأرض لله (ورسوله) يورثها من يشاء من عباده وهي الآية ١٢٨ من سورة الأعراف.

من بعده، طالما القائد هو والي المنطقة، ويخاطبه خطاباً مباشراً بتعبير فريد من غير جهة: **«ويقول قتيبة بن مسلم: بأنني قد وكلتك يا غوزك بن أخشيد** سمرقند وأرضاً ... **وفوضت اليك أمرها، وأخذت خاتمك عليها، لا يعترض عليك معترض، وأن الملك من بعدك لولدك** أبداً ما دامت لي ولاية خراسان»

على ماذا يدل اختلاف هذه العهود الثلاثة المتأخرة نسبياً عن سائر العهود وتميزها بعلامات فارقة ؟

إن هذا يدل على أنه مع مرور الزمن أخذ الالتزام بالستة المرسومة قديماً في كتابة عهود الصلح يخف تدريجياً، ويسمح للظرف لكل بلد من البلاد المفتوحة، ولكل قائد من القواد الفاتحين، أن يتحكم في العهد المكتوب أكثر فأكثر، وهذان عهدا النوبة ومرو الروذ (سنة ٣١ و ٣٢) أقرب الى العهود القديمة من عهد السغد (سنة ٩٤)، ولعله لو وصلتنا عهود أكثر من فترات أحدث لأمكننا أن نرصد بحق طريق التطور في كتابة عهود الصلح.

وأخيراً أريد أن أتوقف عند قاسم مشترك بين عهدين من العهود المتميزة بإعطاء المسلمين رقيقاً من ضمن جزيتهم، ويلاحظ أنه في كلتا الحالتين يحدد بدقة ما الذي يجب أن يكون عليه هؤلاء الرقيق (ثلاثمائة وستون رأساً ... من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا طفل لم يبلغ الحلم ... «ــ النوبة» ثلاثة آلاف رأس من الرقيق، ليس فيهم صبي ولا شيخ» ــ السغد) كما أن عدد الرقيق ازداد كثيراً بين سنتي ٣١ و ٩٤، إلى هذه الملاحظات يجب أن نضيف ما يسعفنا عليه الخبر من معلومات أن العهد مع أهل أنطابلس كان فيه أن من ضمن جزية القوم عدداً من الرقيق قيل إنه خمسمائة: ثلاثمائة غلام ومائتا جارية (٢٠٦) ــ قد اختار أهلهم بيعهم (٢٠٧)، وإن عهد بربر لو أنه كان يفرض عليهم («ان عليكم») بيع أبنائهم وبناتهم فيما عليهم من الجزية (٢٠٨). وهذه الملاحظات حول الرقيق وورودها من أقصى الشرق وأقصى الغرب تدل

٢٠٦. ابن أعثم، الفتوح، ج ٢، ص ٣.

٢٠٧. أنظر، البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٤؛ اليعقوبي، التاريخ، جـ ٢، ص ١٥٦؛ وانظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٣٩٠.

٢٠٨. انظر، أبو عبيد، الأموال، ص ٢٦٧.

على وضوح الفصل بين القلب والأطراف أما القلب فانه مكوّن من العرب أساساً (الجزيرة، الشام، العراق، وإلى حد ما مصر)، وأما الأطراف فإن العنصر غير العربي هو العنصر الغالب عليها، وما يحلّ من الأطراف لا يحلّ في القلب، وعندما يستحل المبدأ يصبح التفنن مجرد تراكم كمي مثير للخيال: «فصالحوه على ألف وصيف، مع كل وصيف جام من ذهب» [٢٠٩]، «صالح على ... أربعمائة رجل على رأس كل رجل منهم ترس وطيلسان وجام من ذهب».

وبعد: فإن عهود الصلح واجهة مشرقة من واجهات تاريخنا، فيها تتجلى النزعة الإسلامية الأصيلة لدى قواد المسلمين إلى التشريع والتقنين، وإلى كتابة العقد، وإلى إشهاد الشهود عليه، وإلى التعرض للحقوق والواجبات من دون إبهام بل ربما إسراف في التوضيح، هذا بالإضافة إلى السعي للتوثيق الدقيق، على وعي سياسي عظيم بأن ما يقومون به في كتابة عهودهم ليس أمراً عارضاً بل هو عمل تاريخي كبير مغيّر لوجه مناطق شاسعة من الأراضي وأقوام متعددة من البشر. وهذه العهود هي أيضاً شهادة ناصعة على أن المسلمين لم يستغلوا مركز القوة المطلقة الذي كانوا فيه، وظلت النزعة الإنسانية غالبة على عقودهم مع أهالي الأراضي المفتوحة، وفي ذلك عظة ما بعدها عظة لأقوام أتوا بعدهم وسوف يأتون.

---

٢٠٩. هذا في صلح زرنج، انظر: خليفة بن خياط، التاريخ، جـ١، ص ١٧٢.

٢١٠. في صلح طبرستان، المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٦، ص ٤٢ — ٤٣.

الملاحــــق

الملحق رقم : ١

لوائح مقارنة بروايات العهود التي جاءت بغير رواية
صلح الرها

الأموال لأبي عبيد : ٢٩٨

هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها : إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدّوا الحق الذي عليهم، شهد الله وملائكته.

فتوح البلدان للبلاذري : ٢٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها :

إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدّوا الحق الذي عليهم، ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا و يهدوا ضالنا. شهد الله وملائكته والمسلمون.

الأموال لابن زنجويه : ٧٢/أ

هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها :

إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدوا الحق الذي عليهم، شهد الله وملائكته.

صلح دمشق

الأموال لأبي عبيد*

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق: إني قد أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم [قال أبو عبيد: وذكر فيه كلاماً لا أحفظه] لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (ص) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية شهد أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وقضاعي بن عامر وكتب سنة ثلاث عشرة.

البلاذري

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (ص) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.

الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر: ٢٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من بيوتهم ودورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (ص) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية

* نصه متفق مع ابن زنجويه وقدامة.

تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١ : ٥٠٢ (عن الأوزاعي)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ألا تسكن ولا تهدم شهد يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وقضاعي بن عامر وكتب في رجب من سنة أربع عشرة.

تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١ : ٥٦٩ (عن عبد الله بن المغيرة)

هذا كتاب من خالد بن الوليد إني أمنتكم على دمائكم وذراريكم وأموالكم وكنائسكم أن تهدم أو تسكن. شهد على ذلك أبو عبيدة بن الجراح و يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة.

تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١ : ٥٧٠ (عن ابن سراقة)

هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق إني أمنتكم على دمائكم وأموالكم ومساكنكم وكنائسكم أن تهدم أو تسكن مالم تحدثوا حدثاً أو تأتوا حدثاً غيلة.

صلح مصر

تاريخ الطبري ١ : ٢٥٨٧ ــ ٢٥٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنه من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناه وكتب وردان وحضر

صبح الأعشى للقلقشندي ١٣ : ٣٢٤

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم. لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ممن جنى نصرتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنه بقدرهم وذمتنا ممن أبى برية وإن نقص نهرهم عن غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. وعليه ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناه وكتب وردان وحضر.

تاريخ ابن خلدون (العبر) ٢ : ١١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على

هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ممن جنى نصرتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم وذمتنا ممن أبي بريّة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا. وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناه وكتب وردان وحضر. [هذا نص الكتاب منقولاً من الطبري].

صلح جرجان

تاريخ الطبري ١ : ٢٦٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان: إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم ما أدّوا، وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وقروا المسلمين، ولم يبد منهم سلّ ولا غلّ. ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، وعلى أن من سبّ مسلماً بلغ جهده، ومن ضربه حلّ دمه. شهد سواد بن قطّبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس. وكتب في سنة ثماني عشرة.

تاريخ جرجان للسهمي : ٥ ــ ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان: إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم، على كل حالم، ومن استعين به منكم فله جزاؤه في معونته. ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللكهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم ما أرادوا، وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وقروا المسلمين، ولم يبد منهم ميل ولا غلّ. ومن أقام منهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، وعلى أن من سبّ مسلماً بلغ جهده، ومن ضربه حلّ دمه. شهد سواد بن قطبة وهند بن عمرو وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس. وكتب في سنة ثمان عشرة.

صلح تفليس

الأموال لأبي عبيد
٢٩٩ ـ ٣٠٠
(رقم : ٥٢١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل طفليس ـ من أرض الهرمز ـ : بالأمان لكم ولأولادكم ولأهاليكم وصوامعكم وبيعكم ودينكم وصلواتكم، على إقرار بصغار الجزية، على أهل كل بيت دينار واف، ليس لكم أن تجمعوا بين متفرق من الأهلات استصغاراً منكم للجزية، ولا لنا أن نفرق بين مجتمع استكثاراً منا للجزية، ولنا نصيحتكم وضلعكم على عدو الله ورسوله والذين آمنوا فيما استطعتم وإقراء المسلم المجتاز ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم، وإرشاد الطريق على غير ما يضرّبكم فيه وإن قطع بأحد من المؤمنين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المؤمنين والمسلمين، إلا أن يحال دونهم. فإن أسلمتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فإخواننا في الدين ومواليـنا. ومن تولى عن الله ورسله وكتبه وحزبه فقد آذنّاكم بحرب على سواء. إن الله لا يحب الخائنين. شهد عبد الرحمن بن خالد، والحجاج، وعياض. وكتب رباح. وأشهد الله وملائكته والذين آمنوا، وكفى بالله شهيداً.

فتوح البلدان للبلاذري
٢٣٨ ـ ٢٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل طفليس ـ من منجليس من جرزان الهرمز : ـ بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصلواتهم ودينهم، على إقرار بالصغار والجزية، على أهل كل بيت دينار وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية، ولا لنا أن نفرق بينهم استكثاراً منها، ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله (ص) ما استطعتم وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا، وإن انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المؤمنين، إلا أن يحال دونهم فإن أنبتم وأقمتم الصلاة فإخواننا في الدين، وإلا فالجزية عليكم. وإن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك، ولا هو ناقض عهدكم. هذا لكم وهذا عليكم شهد الله وملائكته، وكفى بالله شهيدا.

تاريخ الطبري
١ : ٢٦٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس ـ من جرزان أرض الهرمز ـ : بالأمان

على أنفسكم وأموالكم وصوامعكم وبيعكم وصلواتكم، على الإقرار بصغار الجزية، على كل أهل بيت دينار واف، ولنا نصحكم ونصركم على عدو الله وعدونا وقرى المجتاز ليلة من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم، وهداية الطريق في غير ما يضرّفيه بأحد منكم، فإن تبتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فإخواننا في الدين، ومن تولى عن الإيمان والإسلام والجزية، فعدو لله ورسوله والذين آمنوا، والله المستعان عليه. فإن عرض للمؤمنين شغل عنكم وقهركم عدوكم، فغير مأخوذين بذلك، ولا ناقض ذلك عهدكم، بعد أن تفيئوا إلى المؤمنين والمسلمين. هذا عليكم وهذا لكم. شهد الله وملائكته ورسله والذين آمنوا، وكفى بالله شهيداً.

معجم البلدان لياقوت الحموي
(تفليس)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس ـ من رستاق منجليس من جرزان الهرمز : ـ بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم، على الصغار والجزية، على كل بيت دينار، وليس لكم أن تجمعوا بين البيوتات تخفيفاً للجزية ولا لنا أن نفرق بينها استكثاراً لها، ولنا نصيحتكم على أعداء الله ورسوله ما استطعتم، وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا، وأن يقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المسلمين، إلا أن يحال دونهم. وإن أنبتم وأقمتم الصلاة فإخواننا في الدين، وإلا فالجزية عليكم. وإن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم، فغير مأخوذين بذلك، ولا هو ناقض عهدكم. هذا لكم وهذا عليكم. شهد الله وملائكته، وكفى بالله شهيداً.

الملحق رقم : ٢

العهود التي جاءت برواية واحدة
(تاريخ الطبري ١ : ٢٠٥٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا نسطونا وقومه :

اني عاهدتكم على الجزية والمنعة، على كل ذي يد، بانقيا وبسما جميعاً، على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة، القوي على قدر قوته، والمقل على قدر اقلاله، في كل سنة. وانك قد نقبت على قومك، وان قومك قد رضوا بك، وقد قبلت ومن معي من المسلمين، ورضيت ورضي قومك، فلك الذمة والمنعة، فإن منعناكم فلنا الجزية، والا فلا حتى نمنعكم.

شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله الحميري، وحنظلة ابن الربيع. وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر.

عهد الحيرة ــ خالد بن الوليد
(تاريخ الطبري ١ : ٢٠٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيري بن أكال ــ وقال عبيد الله : جبري ــ وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة، وأمرهم به :

عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم، تقبل في كلّ سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا، رهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها ــ وقال عبيد الله : إلا من كان غير ذي يد حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها ــ أو سائحاً تاركاً للدنيا، وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة.

وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة.

عهد البهقباذ الأسفل والأوسط ــ خالد بن الوليد
(تاريخ الطبري ١ : ٢٠٥١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ ابن بهيش وصلوبا بن نسطونا :

لكم الذمّة وعليكم الجزية، وانتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط ــ وقال عبيد الله : وأنتم ضامنون جزية من نقبتم عليه ــ على ألفي ألف ثقيل في كل سنة، عن كل ذي يد سوى ما على بانقيا وبسما وإنكم قد أرضيتموني والمسلمين، وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل، ومن دخل معكم من أهل البهقباذ

الأوسط على أموالكم، ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم.

شهد هشام بن الوليد، القعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله الحميري، وبشير ابن عبيد الله بن الخصاصية، وحنظلة بن الربيع.

وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر.

عهد بعلبك ــ أبو عبيدة بن الجراح
(فتوح البلاذري : ١٥٤)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها.

على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً، ولا ينزلوا قرية عامرة. فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا. ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج.

شهد الله، وكفى بالله شهيداً.

عهد القدس ــ عمر بن الخطاب
(تاريخ الطبري ١ : ٢٤٠٥ ــ ٢٤٠٦)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان.

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلّي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها

من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.

وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

عهد لدّ وفلسطين ـ عمر بن الخطاب
(تاريخ الطبري ١ : ٢٤٠٦ ـ ٢٤٠٧)

بسم الله الرحمن الرحيم .
هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا مللها ، ولا من صلبهم ولا من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشأم ، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط ... إلى آخره .

عهد الرقة ـ عياض بن غنم
(فتوح البلاذري : ٢٠٦)

بسم الله الرحمن الرحيم .
هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها :
أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا مغيلة ، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ، ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً .
شهد الله وكفى بالله شهيدا .
وختم عياض بخاتمه .

عهد الرها ـ عياض بن غنم
(فتوح البلاذري : ٢٠٧)
(وأموال أبي عبيد : ٢٩٨)

بسم الله الرحمن الرحيم .
هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها :
إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم ، وذراريهم ونسائهم ، ومدينتهم ، وطواحينهم ، إذا أدّوا الحق الذي عليهم .
ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ، و يهدوا ضالنا .
شهد الله وملائكته والمسلمون .

عهد دبيل ـ حبيب بن مسلمة
(فتوح البلاذري : ٢٢٧)

بسم الله الرحمن الرحيم .
هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لنصارى أهل دبيل ومجوسها و يهودها شاهدهم وغائبهم : إني أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون ، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج .
شهد الله وكفى بالله شهيداً .
وختم حبيب بن مسلمة .

عهد ماه دينار ـ حذيفة بن اليمان
(تاريخ الطبري ١ : ٢٦٣٣)

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار :

أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم لا يغيرون عن ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم . ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم من المسلمين : على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل ، وأصلحوا الطرق ، وقروا جنود المسلمين من مرّ بهم ، فآوى إليهم يوماً وليلة ، ونصحوا . فإن غشوا و بدلوا فذمتنا منهم بريئة .
شهد القعقاع بن عمرو ، ونعيم بن مقرن ، وسويد بن مقرن .
وكتب في المحرم .

عهد ماه بهراذان ـ النعمان بن مقرن

(تاريخ الطبري : ٢٦٣٢ ـ ٢٦٣٣)

أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم . لا يغيرون عن ملّة ، ولا يحال بينهم و بين شرائعهم ، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة الى من وليهم : على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل ، وأصلحوا الطرق ، وقروا جنود المسلمين ممن مرّ بهم ، فآوى اليهم يوماً وليلة ، ووفوا ونصحوا . فإن غشّوا وبدّلوا فذمتنا منهم بريئة .
شهد عبد الله بن ذي السهمين ، والقعقاع بن عمرو ، وجرير بن عبد الله .
وكتب في المحرم سنة تسع عشرة .

عهد النوبة ـ عبد الله بن سعد بن أبي سرح
(خطط المقريزي ١ : ٢٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم .
عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته : عهد عقده على الكبير والصغير من أهل النوبة ، من حد أرض أسوان الى حد أرض علوة . ان عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة ، جارية بينهم و بين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر ، وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة .
أنكم معاشر النوبة ، آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، أن لا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حرباً ، ولا نغزونكم ، ما أقمتم على الشرائط التي بيننا و بينكم .
على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل بلدكم ، أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم .
وان عليكم رد كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين ، حتى تردوه الى أرض الاسلام ، ولا تستولوا عليه ، ولا تمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره الى أن ينصرف عنه .
وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه

المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلياً، وعليكم كنسه واسراحه وتكرمته.

وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها الى امام المسلمين، من أوسط رقيق بلادكم، غير المعيب، يكون منها ذكران واناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك الى والي أسوان.

وليس على المسلمين دفع عدو عرض لكم ولا منعه من حد أرض علوة الى أرض أسوان.

فإن أنتم آو يتم عبداً لمسلم، أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، ونحن وأنتم على سواء، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد (ص) ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين.

عهد إصفهان ــ أبو موسى الأشعري
(تاريخ الطبري ١: ٢٦٤١)

بسم الله الرحمن الرحيم.

كتاب من عبد الله للفاذوسفان وأهل إصبهان وحواليها:

إنكم آمنون ما أديتم الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة، تؤدونها إلى الذي يلي بلادكم عن كل حالم، ودلالة المسلم، وإصلاح طريقه، وقراه يوماً وليلة، وحملان الراجل إلى مرحلة، لا تسلطوا على مسلم. وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم، ولكم الأمان ما فعلتم. فإذا غيرتم شيئاً أو غيره مغير منكم ولم تسلموه، فلا أمان لكم. ومن سبّ مسلماً بلغ منه. فإن ضربه قتلناه.

وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن ورقاء وعصمة بن عبد الله.

عهد الري ــ نعيم بن مقرن
(تاريخ الطبري ١: ٢٦٥٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى نعيم بن مقرن الزينبي قولة:

أعطاه الأمان على أهل الري ومن كان معهم من غيرهم، على الجزاء وطاقة كل حالم في كل سنة، وعلى أن ينصحوا ويدلّوا ولا يغلوا ولا يسلوا، وعلى أن يقروا المسلمين يوماً وليلة، وعلى أن يفخموا المسلمين. فمن

سبّ مسلماً أو استخف به نهك عقوبة. ومن ضربه قتل. ومن بدّل منهم فلم يسلم برمته فقد غيّر جماعتكم.

وكتب وشهد....

عهد قومس ــ سويد بن مقرن
(تاريخ الطبري ١: ٢٦٥٧)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا.

من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم، على أن يؤدوا الجزية عن يد عن كل حالم بقدر طاقته، وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا، وعلى أن يدلوا. وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم. وإن بدلوا واستخفوا بعدهم فالذمة منهم بريئة.

وكتب وشهد....

فايل ٦٢ ديسك ٢١

عهد دنباوند ــ نعيم بن مقرن
(تاريخ الطبري ١: ٢٦٥٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب نعيم بن مقرن لمردان شاه مصمغان دنباوند، وأهل دنباوند، والخوار، واللرز، والشرز.

إنك آمن ومن دخل معك على الكف أن تكف أهل أرضك، وتتقي من ولي الفرج بمائتي ألف درهم، وزن سبعة، في كل سنة. لا يغار عليك ولا يدخل عليك إلا بإذن، ما أقمت على ذلك، حتى تغيّر.

ومن غيّر فلا عهد له ولا لمن لم يسلمه.

وكتب وشهد....

عهد جرجان ــ سويد بن مقرن
(تاريخ الطبري ١: ٢٦٥٨ ــ ٢٦٥٩)
(تاريخ جرجان: ٥ ــ ٦).

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان، وأهل دهستان وسائر أهل جرجان.

إن لكم الذمة وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم. ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه. ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم. ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم، ما أدّوا، وأرشدوا ابن السبيل، ونصحوا، وقروا المسلمين، ولم يبد منهم سل ولا غلّ. ومن أقام فيهم فله مثل مالهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه. وعلى أن من سب مسلماً بلغ جهده. ومن ضربه حلّ دمه.

شهد سواد بن قطبة، وهند بن عمر،

وسماك بن مخرمة، وعتيبة بن النهاس. وكتب في سنة ثماني عشرة.

عهد طبرستان وجيلجيلان ــ سويد بن مقرن
(تاريخ الطبري ١ : ٢٦٥٩ ــ ٢٦٦٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سويد بن مقرّن للفرخان، إصبهبذ خراسان على طبرستان، وجيل جيلان من أهل العدّو.

إنك آمن بأمان الله عز وجل، على أن تكف لصوتك وأهل حواشي أرضك، ولا تؤوي لنا بغية. وتتقي من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك. فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يتطرق أرضك ولا يدخل عليك إلا بإذنك. سبيلنا عليكم بالإذن آمنة، وكذلك سبيلكم ولا تؤون لنا بغية ولا تسلون لنا إلى عدو ولا تغلون. فإن فعلتم فلا عهد بيننا و بينكم.

شهد سواد بن قطبة التميمي، وهند بن عمر المرادي، وسماك بن مخرمة الأسدي، وسماك بن عبيد العبسي، وعتيبة بن النهاس البكري.

وكتب سنة ثماني عشرة.

عهد آذربيجان ــ عتبة بن فرقد
(تاريخ الطبري ١ : ٢٦٦٢)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل اذربيجان :

سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم. ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن ليس في يديه من الدنيا شيء. لهم ذلك ولمن سكن منهم، وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة، ودلالته. ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة. ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك. ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه.

وكتب جندب. وشهد بكير بن عبد الله الليثي، وسماك بن خرشة الأنصاري.

وكتب في سنة ثماني عشرة.

عهد مرو الروذ ــ الأحنف بن قيس
(تاريخ الطبري ١ : ٢٩٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم.

من صخر بن قيس أمير الجيش، إلى باذان مرزبان مروروذ، ومن معه من الأساور والأعاجم : سلام على من اتبع الهدى وآمن واتقى.

أما بعد : فإن ابن أخيك ماهك قدم علي فنصح لك جهده وأبلغ عنك. وقد عرضت ذلك على من معي من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء. وقد أجبناك إلى ما سألت وعرضت، على أن : تؤدي عن أكرتك وفلاّحيك والأرضين ستين ألف درهم الي، وإلى الوالي من بعدي من أمراء المسلمين، إلا ما كان من الأرضين التي ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التي أفسدت الأرض وقطعت السبل. والأرض لله ولرسوله يورثها من يشاء من عباده.

وإن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوّهم بمن معك من الأساورة، إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه. وإن لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من ورائك من أهل ملتك، جار لك بذلك مني كتاب يكون لك بعدي. ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوي الأرحام. وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق، وأنت أخوهم. ولك بذلك ذمتي، وذمة أبي، وذمم المسلمين وذمم آبائهم.

شهد على ما في هذا الكتاب : جزء بن معاوية ــ أو معاوية بن جزء ــ السعدي، وحمزة بن الهرماس، وحميد بن الخيار المازنيان، وعياض بن ورقاء الأسيدي.

وكتب كيسان مولى بني ثعلبة يوم الأحد من شهر الله المحرم.

ونقش خاتم الأحنف «نعبد الله».

عهد هراة وبادغيس وبوشنج ــ عبد الله بن عامر بن كريز
(فتوح البلاذري : ٥٠١)

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة و بوشنج و بادغيس.

أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين وإصلاح ما تحت يديه من الأرضين، وصالحه عن هراة وسهلها وجبلها، على أن يؤدي من الجزية ما صالحه عليه، وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلاً بينهم، فمن منع ما عليه فلا عهد ولا ذمة.

وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر.

عهد شهربراز وأرمينية ــ سراقة بن عمرو
(تاريخ الطبري ١ : ٢٦٦٥ ــ ٢٦٦٦)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهربراز، وسكان أرمينية، والأرمن من الأمان.

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم، ألاّ يضاروا، ولا ينتقضوا. وعلى أهل أرمينية والأبواب، الطراء منهم والتناء، ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة،

و ينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً. على أن يوضع الجزاء عن أجاب إلى ذلك الحشر، والحشر عوض من جزائهم. ومن استغنى عنه منهم وقعد، فعليه مثل ما على أهل آذربيجان من الجزاء، والدلالة، والنزل يوماً كاملاً. فإن حشروا وضع ذلك عنهم، وإن تركوا أخذوا به.

شهد عبد الرحمن بن ربيعة، وسلمان بن ربيعة، وبكير بن عبد الله.

وكتب مرضي بن مقرن وشهد.

عهد موقان — بكير بن عبد الله
(تاريخ الطبري ١: ٢٦٦٦ — ٢٦٦٧)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى بكير بن عبد الله أهل موقان من جبال القبج:

الأمان على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وشرائعهم، على الجزاء دينار عن كل حالم أو قيمته، والنصح، ودلالة المسلم، ونزله يومه وليلته. فلهم الأمان ما أقروا ونصحوا، وعلينا الوفاء. والله المستعان. فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش، فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم، والا فهم متمالئون.

شهد الشماخ بن ضرار، والرسارس ابن جنادب، وحملة ابن جؤيه.

وكتب سنة إحدى وعشرين.

عهد السغد — قتيبة بن مسلم
(فتوح ابن أعثم ٧: ٢٤٤ — ٢٤٦)

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما صالح قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي غوزك بن إخشيد أفشين السغد:

إنه صالحه وشرط له بذلك عهد الله (٢٤٥) وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد (ص) وآله وذمة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان. وذمة الأمير الحجاج بن يوسف بن الحكم، وذمة المؤمنين، وذمة قتيبة ابن مسلم، فصالحه عن: سمرقند ورساتيقها كسى ونسف أرضها ومزارعها وجميع حدودها على ٢٠٠٠ ٠٠٠ درهم عاجلة، و ٢٠٠٠٠٠ درهم في كل عام، و٣٠٠٠ رأس من الرقيق، ليس فيهم صبي (؟) ولا شيخ — على أن يسمعوا و يطيعوا لعبد الله الوليد بن عبد الملك بن مروان، وللأمير الحجاج بن يوسف وللأمير قتيبة بن مسلم، وعلى أن يؤدي غوزك بن إخشيد أفشين السغد ما صالحه عليه

قتيبة بن مسلم من مال ورقيق، فما أعطى من ذلك في جزية أرضه من السجي يحسب له كل رأس ب ٢٠٠ درهم، وما كان من الثياب الكبار كل ثوب بـ ١٠٠ درهم والصغار بـ ٦٠ درهماً، وما كان من حرير فكل شقة ب ٢٨ درهماً، والذهب الأحمر كل مثقال ب ٢٠ درهماً والفضة البيضاء مثقال بمثقال.

وعلى قتيبة بن مسلم العهد والميثاق أنه لا يعمل على غوزك بن إخشيد بن أفشين

بشيء ولا يغدر به ولا يأخذ منه أكثر مما صالحه عليه، فإن خرج على غوزك بن إخشيد عدو من الأعداء فعل قتيبة بن مسلم أن ينصره و يعاونه على عدوه، و يقول قتيبة بن مسلم: بأني قد ملكتك يا غوزك بن إخشيد سمرقند وأرضها وحدودها وكس ونسف و بلادها وحصونها، وفوضت إليك أمرها، وأخذت خاتمك عليها لا يعترض عليك معترض، وأن الملك من بعدك (٢٤٦) لولدك أبداً ما دامت لي ولاية بخراسان.

شهد على ذلك الحضين بن المنذر البكري وضرار بن حصين التميمي وعلياء بن حبيب العبقسي ومعاوية بن عامر الكندي ووكيع بن أبي سعد الحنظلي وإياس بن نبهان والأشجع بن عبد الرحمن والمحرر بن حمران والجسر بن مزاحم وعبد الله بن الأزور والفضيل بن عبد الله وعثمان بن رجاء والحسن بن معاوية والفضيل بن بسام

وكتب ثابت بن أبي ثابت كاتب قتيبة بن مسلم في سنة أربع وتسعين.

قال: وختم قتيبة بن مسلم / و/ الشهود بخواتيمهم على هذا العهد، ودفع العهد إلى غوزك بن إخشيد.

الملحق رقم: ٣

الروايات لما أعطاه أهل الشام للمسلمين بعد فتح دمشق (١)

تاريخ ابن عساكر ١: ٥٦٥

إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نجيىء ما كان منها في خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين، ثلاث

١. الروايات الثلاث المثبتة هنا بترتيبها كما وردت في تاريخ دمشق هي في أساسها رواية مسروق بن الأجدع من طرق متعددة، ولذلك تبدو الخلافات بينها جزئية. وهناك رواية أخرى عن شهر بن حوشب (في تاريخ دمشق ١: ٥٠٤) فيها مضمون رواية مسروق نفسه، إلا أن الاختلافات في ترتيب البنود في الوثيقة عنها هنا كبيرة جداً فلم يمكن إدراجها هنا، وعلى من يريد تتبعها أن يرجع إليها منفصلة لدى ابن عساكر.

ليال نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب السرج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقادم رؤوسنا وأن نلزم زيناً حيث ما كنا وأن نشد زنانيرنا على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ولا نظهر كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفياً ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانينا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة الشقاق.

تاريخ ابن عساكر ١ : ٥٦٦ ــ ٥٦٧

إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاّية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نجيء ما كان منها في خطط المسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم / وأن نرشد المسلمين / ولا نؤوي في كنائسنا ومنازلنا جاسوساً ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً، وأن لا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقادم رؤوسنا وأن نلزم زيناً حيث ما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم وأن لا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفياً وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين وأن لا نخرج شعانين ولا

باعوثاً وأن لا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نطلع، زاد المطوعي، في منازلهم فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان. فإن نحن جافينا على شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل المعاندة والشقاق.

تاريخ ابن عساكر ١ : ٥٦٧ ــ ٥٦٨

إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاّية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نجييء ما كان منها من خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا من أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل أو نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم وأن نرشدهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم عيناً ولا نعلم أولادنا القرآن. ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إن أراده وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم عن مجالسنا إذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشبه في شيء من لباسهم في قلنسوة أو عمامة أو نعلين أو فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور ولا نفرق رؤوسنا وأن نجز مقادم رؤوسنا وأن نلزم زيناً حيث ما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر الصليب في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق من جرت عليه سهام المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم فلما أتيت عمر بن الخطاب بهذا الكتاب زاد فيه ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا ذلك لكم على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا الأمان. فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطنا لكم وضمنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم ما حل لأهل المعاندة والشقاق.

معاهدة فتح بيت المقدس
ـ العهدة العمرية ـ

زكريا القضاه
دائرة التاريخ ـ جامعة اليرموك

تهدف الفتوحات الاسلامية عامة إلى نشر الدعوة الاسلامية وحملها إلى الناس كافة لذا كان من أحكامها المؤصلة أن يعرض الاسلام أولا على أهل البلاد قبل قتالهم فان أسلموا كان لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات مثل ما للمسلمين وعليهم سواء بسواء وان أبوا عرض على أهل الكتاب منهم الصلح مقابل دفع الجزية، فان اجابوا لذلك عصموا دماءهم وأموالهم وكان لهم سائر حقوقهم الدينية مع حق حماية الدولة الاسلامية لهم. وإن أبوا لجأ المسلمون إلى القتال كحل أخير لازالة الكيان السياسي المتحكم وترك فرصة التفكير كاملة أمام السكان لمعرفة الاسلام عن قرب وتمكينهم من حرية الاختيار بين الاسلام وغيره، وعلى هذا النهج سارت فتوح الشام بما فيها بيت المقدس، هذه المدينة التي تتمتع بأهمية خاصة تجلت بحضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتسلم المدينة المقدسة صلحاً دون قتال(١) وكتابة معاهدة صلح لأهلها اشتهرت باسم (العهدة العمرية).

---

١. الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) فتوح الشام، ٢ج، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤، جـ١، ص ٢٤٢. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي؛

البلاذري، محمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، ٣ج، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٦، جـ١، ص ١٤٤. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري؛

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) تاريخ اليعقوبي، ٢ جـ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠. جـ١، ص ١٤٧. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي؛

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف القاهرة، ١٩٦٠ ـ ١٩٦١، جـ٣، ص ٦٠٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري؛

ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) التاريخ الكبير، ٧ج، اعتنى بترتيبه وتصحيحه عبد القادر بدران، مطبعة الشام، دمشق، ١٣٢٩. جـ١، ص ١٤٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: تهذيب ابن عساكر؛

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) تاريخ الكامل، ١٣ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥. جـ٢، ص ٣٤٩. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير؛

أبو الفداء، اسماعيل بن علي بن محمود (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر، ٤٤ في ٢م، المطبعة الحسينية، القاهرة. د. ت. جـ١، ص ١٦٠. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفداء؛

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) فضائل القدس، حققه وقدم له جبرائيل جبور. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠. ص ١٢٢. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا جـ: ابن الجوزي؛

العليمي، مجير الدين أبي اليمن عبد الرحمن (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م)، فضائل الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ج، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣. جـ١، ص ٢٥٥. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: العليمي.

وقد اختلفت الروايات في سبب قدوم عمر، هل كان بناء على طلب أهل بيت المقدس بعد أن اتفقوا مع أبي عبيدة على تسليم المدينة لأمير المؤمنين شخصياً، فكتب له أبو عبيدة بذلك، فحضر(٢). أم كان بناء على طلب عمرو بن العاص بعد أن عرف من أهل الكتاب أن صاحب الفتح رجل اسمه عمر، فكتب له بذلك فحضر دون سابق اتفاق مع أهل بيت المقدس(٣)، أم أن عمر قدم بلاد الشام لتنظيم بعض الأمور التي ترتبت على الفتح دون دعوة من أحد، ففتحت القدس أثناء وجوده فذهب لتسلمها(٤) واختلفت الروايات أيضاً فيما إذا كان الصلح قد تم بالجابية من أعمال دمشق(٥)، ثم حصل الفتح وتسلم المدينة بعد ذلك، أو أن الصلح والفتح قد تما معاً ببيت المقدس(٦) واختلف أيضاً في سنة الفتح، فالأكثر على أنها ست عشرة(٧)، وقيل خمس عشرة(٨)، وقيل سبع عشرة(٩)، ورغم هذه الاختلافات فان الروايات تجمع على أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي تسلم المدينة ووقع صلحها، مما لا يجعل لهذه الاختلافات أثراً كبيراً في موضوع بحثنا المركز أصلا على معاهدة الصلح، فلا نعرض لتلك الخلافات إلا حيث نضطر لذلك أثناء نقل النصوص.

ولو تتبعنا ما ورد عن معاهدة صلح بيت المقدس في المصادر التاريخية لوجدنا أن البعض لا يذكر نصاً للمعاهدة وانما يذكر فحواها بطريقة السرد، بينما يذكرها البعض الآخر على شكل نص شهد عليه، وإن كان بين هذه النصوص الواردة اختلافات وزيادات.

فمن روى الصلح بالفحوى من المؤرخين القدامى الواقدي والبلاذري ثم ابن الأثير وأبو الفدا(١٠)، وقد ذكر الواقدي الصلح في موضعين في كتابه فتوح الشام، فقال في موضع: أنه لما قدم عمر إلى بيت المقدس ونظر اليه أهلها وتأكدوا أنه هو، فتحوا الأبواب وخرجوا خارج الأسوار يسألونه العهد والميثاق والذمة و يقرون له بالجزية... فقال لهم عمر: ارجعوا ولكم الذمة والعهد اذ سألتمونا وأقررتم بالجزية، فدخل القوم المدينة ولم يغلقوا الأبواب(١١).

٢. الواقدي، ص ٢٣٤؛ البلاذري، جـ١، ص ١٤٤؛ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٨؛ ابن الجوزي، ص ١٢٢؛ ابن الأثير، جـ٢، ص ١٥٤٨.

٣. الطبري، جـ٣، ص ٦٠٦؛ ابن الأثير، جـ٢، ص ٣٤٨.

٤. البلاذري، جـ١، ص ١٤٤.

٥. البلاذري، جـ١، ص ١٤٤؛ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٧؛ ابن الجوزي، ص ١٢١؛ ابن الأثير، جـ٢، ص ٣٤٨.

٦. الواقدي، جـ١، ص ٢٤٨؛ العليمي، جـ١، ص ٢٥٥.

٧. الطبري، جـ٣، ص ٦١٠؛ تهذيب ابن عساكر، جـ١، ص ١٤٧؛ ابن الأثير جـ٢، ص ٣٤٩.

٨. الطبري، جـ٣، ص ٦١٠؛ ابن الجوزي، ص ١٢٢؛ ابن الأثير، جـ٢، ص ٣٤٧.

٩. البلاذري، ص ١٤٤.

١٠. الواقدي، جـ١، ص ٢١٤؛ البلاذري، جـ١، ص ١٤٤ـ ١٤٥؛ ابن الأثير، جـ٢، ٣٤٩؛ أبو الفداء، جـ١، ص ١٦٠.

١١. الواقدي، ص ٢٤٢.

وقال في موضع آخر: وارتحل عمر عن بيت المقدس بعد أن كتب لأهلها كتاباً أي عهداً وأقرهم في بلدهم على الجزية(١٢).

وذكر البلاذري أيضاً روايتين عن طريقة الفتح وفحوى الصلح، فقال في الأولى: أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه. فكتب أبو عبيدة الى عمر بذلك فقدم عمر وأنفذ صلح أهلها وكتب لهم به(١٣).

أما الرواية الثانية فتفيد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم الجابية من بلاد الشام دون سابق اتفاق مع أهل بيت المقدس، فأرسل لهم جيشاً بقيادة خالد بن ثابت الفهمي، فقاتلهم فأعطوه على ما أحاط به حصنهم شيئاً يؤدونه و يكون للمسلمين ما كان خارجاً، فقدم عمر فأجاز ذلك ثم رجع الى المدينة المنورة(١٤).

وأشار ابن الأثير أيضاً اشارة عابرة الى فحوى الصلح عندما ذكر قدوم مسلحين على عمر وهو بالجابية، ففزع المسلمون الى سلاحهم فقال لهم عمر: مستأمنة فلا تراعوا، فأمنوهم واذا هم أهل ايلياء وحيزها، فصالحهم على الجزية وفتحوها له(١٥).

والواضح من هذه الروايات أن أهل بيت المقدس قد أعطوا الأمان مقابل دفع الجزية، كما صولح على مثل ذلك غيرهم من مدن الشام.

أما اليعقوبي وابن البطريق والطبري وابن الجوزي فقد أوردوا نصوصاً لمعاهدة فتح بيت المقدس، مثلما نشرت البطريركية الأرثوذكسية في القدس عام ١٩٥٢ نصاً لمعاهدة الصلح المعتمدة لديها، فلنستعرض أولا هذه النصوص ثم نقارنها بما يعرف بالشروط العمرية المستمدة من روايات ابن عساكر وابن القيم لنرى ان كانت هذه الشروط تنطبق على بيت المقدس، أم أن هناك اختلافاً بين العهدة العمرية والشروط العمرية ـ على فرض صحتها.

أورد اليعقوبي نصاً مختصراً للمعاهدة وهو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، انكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب الا أن تحدثوا حدثاً عاماً) وأشهد

١٢. المصدر نفسه.

١٣. البلاذري، جـ١، ص ١٤٤. عن أبي حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه، وعن بقية بن الوليد عن مشايخ أهل العلم.

١٤. المصدر نفسه، عن القاسم بن سلام، قال: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعيد عن يزيد بن أبي حبيب.

١٥. ابن الأثير، جـ٢، ص ٣٤٩.

شهوداً [١٦].

وقريب من هذا النص أيضاً ما أورده ابن البطريق وهو:

(بسم الله. من عمر بن الخطاب لأهل مدينة أيلياء، انهم آمنون على دمائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم ألا تهدم ولا تسكن. وأشهد شهوداً) [١٧].

ولعل أطول النصوص ما أورده الطبري رواية عن خالد وعباده، وما أورده مجير الدين الحنبلي عن سيف عن أبي حازم وأبي عثمان عن خالد وعبادة أيضاً [١٨] ـ مع اختلاف يسير بينهما في الألفاظ لا يغير المعنى ـ

أما نص الطبري فهو:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها و بريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص)، فمن خرج منهم فانه أمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم و يخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاو ية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة)) [١٩].

أما ابن الجوزي في كتابه (فضائل القدس) فيبدو أنه اعتمد على الطبري بشكل مباشر، فجاء نص الصلح كأنما هو تلخيص لرواية الطبري، فقال: لما قدم عمر بيت المقدس كتب لأهلها:

---

١٦. اليعقوبي، جـ٢، ص٤٦.

١٧. ابن البطريق، سعيد، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٥. ص ١٦. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن البطريق.

١٨. العليمي، جـ١، ص ٢٥٣.

١٩. الطبري، جـ٣، ص ٦٠٩.

(اني قد أمنتكم على دمائكم وأموالكم وذراريكم وصلاتكم و بيعكم ولا تكلفوا فوق طاقتكم، ومن أراد منكم أن يلحق لأمنه فله الأمان، وأن عليكم الخراج كما على مدائن فلسطين. شهد عبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد ومعاو ية) [٢٠].

ولا يفوتنا أن نلحظ أن ابن الجوزي جعل علي بن أبي طالب من شهود الصلح بدلا من عمرو بن العاص في رواية الطبري، وتفيد الروايات المتعددة أن علياً لم يحضر الصلح ليشهد عليه وأنه كان أثناء الصلح مستخلفاً من قبل عمر بن الخطاب على المدينة المنورة [٢١].

ولو استعرضنا هذه النصوص لوجدنا فيها زيادات واختلافات ظاهرة. فقد ذكر كل من اليعقوبي وابن البطريق نصاً مختصراً مركزاً على اعطاء أهل بيت المقدس الأمان على دمائهم وأموالهم، واعطائهم كافة حقوقهم الدينية، الا أن النصين رغم ذلك مختلفان في العبارات والأسلوب.

فجاء الحديث عن أهل بيت المقدس عند اليعقوبي بصيغة المخاطب (أنكم آمنون على دمائكم وأموالكم...) بينما جاء بصيغة الغائب عند ابن البطريق (انهم آمنون على دمائهم وأولادهم).

أما نص الصلح كما أورده الطبري فهو أكثر النصوص تطو يلا وأكثرها قيوداً وهو يوافق النصين السابقين في اعطاء أهل بيت المقدس الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، الا أنه يزيد هذا المعنى ايضاحاً وتفصيلا بعبارات وتقييدات جديدة ففي حين عبرت رواية اليعقوبي عن هذا المعنى بقوله (انكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب) جاء هذا المعنى عند الطبري مطولا بقوله: ((أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها و بريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم)).

وقد أضاف نص الطبري قيوداً جديدة لم ترد في النصين السابقين هي:

١. اشتراط أهل بيت المقدس على عمر ألا يسكن معهم في القدس أحد من اليهود.

٢. تنظيم اقامة الموجودين في بيت المقدس أو خروجهم منها، وقد تمثل هذا في:

أ) اشتراط المسلمين على أهل بيت المقدس الأصليين أن يخرجوا منها الروم واللصوص.

ب) اعطاء أهل بيت المقدس الحرية في البقاء بها أو الخروج منها مع الروم.

---

٢١. انظر الواقدي، ص ٢٣٦؛ العليمي جـ١، ص ٢٥؛ أبو الفداء، جـ١، ص ١٦٠.

جـ) اعطاء بقية الموجودين في بيت المقدس من سائر الأجناس حرية البقاء بها بحيث ينطبق عليهم ما ينطبق على غيرهم من شروط الصلح، أو الخروج منها.

٣. جاء نص الصلح عند الطبري مؤرخاً بسنة خمس عشرة.

ولو نظرنا في الزيادات الواردة في رواية الطبري، فان اشتراط أهل بيت المقدس ألا يسكن معهم بها أحد من اليهود لم يتأيد بروايات أخرى و يبدو أنه أمر مناف للواقع اذ لم يؤثر أن عمر بن الخطاب أخرج اليهود من بيت المقدس أو منعهم من سكناها، ولا يمكن أن يكون هذا شرطاً في الصلح ولا ينفذه عمر مع ما هو معلوم من احترام المسلمين للعهود والتزامهم بها بدقة.

أما اشتراط عمر على أهل بيت المقدس أن يخرجوا منها الروم واللصوص فقد جاء بعبارة يكاد ينفي آخرها أولها. فأول العبارة يفيد وجوب اخراج الروم ـ الا أنها بعد ذلك تخيرهم بين الخروج أو الاقامة مع أداء الجزية، ولا يمكن فهم ذلك الا بنوع من التأو يل كأن يقال بأن أهل بيت المقدس الأصليين الذين عقدَ الصلح معهم مسؤولون عمن سكنها من الروم، فعليهم تنفيذ هذا البند من الصلح وهو أن يدفع الروم الجزية أو أن يغادروا المدينة، الا أن هذا الفهم قد ينقص من السيادة الاسلامية على المدينة، كما أن هذا التعبير المحتمل لأكثر من تفسير يبدو بعيداً عن روح نصوص المعاهدات المبنية على حسن النية والالتزام.

أما اعطاء الأجناس الأخرى حرية البقاء مع دفع الجزية أو مغادرة البلاد فقد جاء بعبارة لا يمكن معها التنفيذ اذ قال: ((ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان))، هكذا بصيغة التجهيل دون ذكر اسم فلان هذا أو ما يدل عليه أو تاريخ مقتله وواضح أنه لا يمكن تحديد من ينطبق عليهم هذا الوصف فلا يمكن التنفيذ، و يستحيل أن يكون هذا نصاً في معاهدة ملزمة.

أما تاريخ الصلح سنة خمس عشرة، فأمر لو صح لقطع الخلاف في تاريخ فتح بيت المقدس، اذ لأمكن الرجوع الى وثيقة الصلح لمعرفة تاريخها، مع أن الخلاف في تاريخ الفتح كان قبل الطبري واستمر بعده، على أنه من المعلوم أن المسلمين لم يبدأوا التاريخ الهجري الا سنة ست عشرة[٢٢]، فلا يتصور أن تؤرخ وثيقة قبل هذه السنة بالتاريخ الهجري، مما يدل على أن هذا التاريخ ملحق بالوثيقة وليس أصلياً فيها.

ولعل من أبرز النصوص التي يتضح فيها الالحاق والزيادة النص المطول المعتمد حالياً لدى كنيسة القدس الأورشليمية المؤرخ في العشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة

٢٢. أورد السيوطي، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥. في ص ٢٢٣ «اخراج»؛
وانظر اليعقوبي، جـ٢، ص ١٤٥.

للهجرة النبو ية والذي نشرته البطريركية الأرثوذكسية في القدس سنة ١٩٥٢[٢٣]. و يظهر في هذا النص الأسلوب الكنسي في الكتابة جلياً كما أنه احتوى على العديد من الأخطاء النحو ية، هذا بالاضافة إلى تأريخه بالسنة الخامسة عشرة للهجرة مع أن المسلمين ـ كما تقدم ـ لم يبدأوا التأريخ بالهجرة الا سنة ست عشرة.

وسأكتفي ـ اختصاراً ـ بابراز أهم نقاط الصلح كما يوردها هذا النص مستخدماً للكثير من عباراته، وهي: ـ

١. أعطى عمر بن الخطاب عهداً للبطرك صفرونيوس بالأمان للرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا.

٢. أعطاهم الأمان لكنائسهم ودياراتهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلا وخارجاً وهي القيامة و بيت لحم مولد عيسى عليه السلام كنيسة الكبراء والمغارة ذي (ذات) الثلاثة أبواب قبلي وشمالي وغربي.

٣. يكون بقية أجناس النصارى الموجودين خارج القدس وهم الكرج والحبش، وكذلك الذين يأتون للزيارة من الافرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين

٢٣. نص الكنيسة الأرثوذكسية هو:
«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أعزنا بالاسلام، وأكرمنا بالايمان ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، وهدانا من الضلالة، وجمعنا بعد الشتات وألف قلوبنا ونصرنا على الأعداء، ومكن لنا من البلاد، وجعلنا اخواناً متحابين واحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة. هذا كتاب عمر بن الخطاب لعهد وميثاق أعطي الى البطرك المبجل المكرم وهو صفرونيوس بطرك الملكية في طور زيتا بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا، وان يكون عليهم الأمان وأن الذمى اذا حفظ أحكام الذمة وجب له الأمان والصون منا نحن المؤمنين والى من يتولى بعدنا وليقطع عنهم أسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع، وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياراتهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلا وخارجاً وهي القمامة و بيت لحم مولد عيسى عليه السلام كنيسة الكبراء والمغارة ذي الثلثة أبواب قبلي وشمالي وغربي و بقية أجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الافرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين للبطرك المذكور، و يكون متقدماً عليهم لأنهم أعطو من حضرة النبي الكريم والحبيب المرسل من الله وشرفوا بختم يده الكريم وأمر بالنظر اليهم والأمان عليهم، كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم اكراماً لمن أحسن اليهم و يكونوا معافاً من الجزية والغفر والواجب ومسلمين من كافة البلايا في البر والبحور وفي دخولهم للقمامة و بقية زياراتهم لا يؤخذ منهم شيىء، وأما الذين يقبلون الى الزيارة الى القمامة يؤدي النصراني الى البطرك درهم وثلث من الفضة، وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً أم حاكماً أم والياً يجري حكمه في الأرض غني أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف و بقية الأخوة الصحابة الكرام فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا و يعمل به وأبقاه في يدهم وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل، في العشرين من شهر ربيع الأول سنة خامس وعشر للهجرة النبو ية وكل من قرى مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن والى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب باغضاً».

للبطرك صفرونيوس و يكون هو متقدماً عليهم.

٤. يكون النصارى بكافة فئاتهم ومواطنهم معافين من الجزية والمواجب (سائر الالتزامات المالية) ومسلمين من كافة البلايا في البر والبحور.

٥. يؤدي النصراني الذي يقدم لزيارة كنيسة القيامة درهم (درهماً) وثلث من الفضة الى البطرك صفرونيوس.

ولئن استطعنا فهم الأمان على الأنفس والكنائس الممنوح للبطرك صفرونيوس في هذا العهد لأن هذا ما جرى عليه المسلمون في معاملتهم مع أهل الذمة، فاننا لم نجد أي رواية تاريخية تستثني نصارى فلسطين عامة أو بيت المقدس خاصة من دفع الجزية، ذلك الحكم الذي جرى عليه عمل المسلمين في سائر فتوحاتهم، كما أن تركيز هذا النص على تقديم البطرك صفرونيوس على سائر طوائف النصارى وجعلهم تابعين له وتمكينه هو ومن يتسلم الرئاسة بعده من طائفته من جباية درهم وثلث من الفضة من كل نصراني يزور كنيسة القيامة قد يلقي ضوءاً على أنه وضع في فترات لاحقة للفتح لمواجهة أو لقطع الخلافات الطائفية على الرئاسة الروحية لكنيسة القيامة، ونسب الى عمر لاكسابه أهمية والاحتجاج به على أن الرئاسة للطائفة الأرثوذكسية على مر الأيام وهذا ما ركز عليه النص بذكره ثلاث مرات، فبعد أن قال: ((وأما الذين يقبلون الى الزيارة الى القيامة يؤدي النصراني درهم (درهماً) وثلث من الفضة)) أتبعه بالقول ((وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً أم حاكماً أم والياً يجري حكمه في الأرض غني أم فقير (غنياً أم فقيراً) من المسلمين المؤمنين والمؤمنات...)) وقال في موضع بعده: ((فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا و يعمل به)). ثم قال: ((وكل من قرى (قرأ) مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن والى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب باغضاً)).

هذه هي النصوص التي وردت عن صلح بيت المقدس ومنها يظهر مدى ما بينها من اختلافات وما تعرضت له من زيادات بحيث لا يمكن الركون إلى أي نص منها على أنه النص الأصلي الذي وضعه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وأشهد عليه وان كان يمكن الوثوق بأن الصلح قد تم على الأمان للأنفس والأموال والدين مقابل اعطاء الجزية وهذا هو الخط الذي سارت عليه المعاهدات الاسلامية بشكل عام مع أهل الكتاب.

الا أن ابن عساكر وابن قيم الجوزية ومجير الدين الحنبلي (٢٤) أوردوا نصوصاً متقاربة

٢٤. تهذيب ابن عساكر، جـ١، ص ١٤٧؛ ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٤م)، شرح الشروط العمرية: مجرداً من كتاب أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١. ص ١ ـ ٧. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن قيم، العليمي، جـ١، ص ٢٥٤.

الألفاظ والمعنى عن معاهدات صلح ابرمت بين المسلمين وأهل الشام مغايرة لهذه الروح السمحة التي سارت عليها المعاهدات الاسلامية. ومن مجموع هذه الروايات أصبح ما يسمى ((الشروط العمرية))، وقد أوردها ابن عساكر على أنها معاهدة تمت عند صلح دمشق بين أبي عبيدة ومن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم.

أما ابن القيم فقد ذكر روايات ثلاث، الأولى أنها كتبت من أهل الجزيرة الى عبد الرحمن بن غنم، فكتب بها الى عمر بن الخطاب فأقرها عمر مع بعض الاضافات عليها، والثانية: أن عبد الرحمن بن غنم صالح نصارى أهل الشام دون ـ تحديد ـ فكتب الى عمر بما صالحهم عليه، وفي رواية ثالثة: أن عبد الرحمن بن غنم كتب الى عمر وصاغ له شروط نصارى مدينة (كذا وكذا) هكذا بصيغة التجهيل، وهذه هي الرواية التي اعتمدها مجير الدين الحنبلي.

وسأختار احدى روايات ابن القيم التي تعكس صورة لما سواها من روايات لنرى طريقة صياغتها وما بها من شروط قبل مناقشتها، وتبين هذه الرواية أن نصارى الشام اشترطوا على أنفسهم أموراً وكتبوها إلى عبد الرحمن بن غنم، وهي:

«إنا حين قدمت بلادنا طلبنا اليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أنا شرطنا على أنفسنا الا نحدث في مدينتنا كنيسة، ولا فيما حولها ديراً ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً، والا نكتم غشاً للمسلمين، والا نضرب بنواقيسنا الا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليباً ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، والا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين، والا نخرج باعوثاً ـ قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر ـ ولا شعانين، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير ولا ببيع الخمور، ولا نظهر شركاً، ولا نرغب في ديننا، ولا ندعو اليه أحداً، ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، والا نمنع أحداً من أقربائنا أرادوا الدخول في الاسلام، وأن نلزم زينا حيثما كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، وأن نجز مقادم رؤوسنا ولا نفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس (ان) أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحد منا مسلماً في تجارة الا أن يكون الى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمه من أوسط ما نجد. ضمناً لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وأن نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا،

وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق.

فكتب بذلك عبد الرحمن بن غنم الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب اليه عمر ((أن أمض لهم ما سألوا، والحق فيهم حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألا يشتروا من سبايانا، ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده)).

فأنفذ عبد الرحمن بن غنم ذلك (٢٥).

وقريب من هذا النص ما أورده ابن عساكر ومجير الدين. ولو ناقشنا هذه الروايات من حيث الاسناد لوجدناها ضعيفة ففي سند ابن عساكر انقطاع مثلما فيه عدد من المجهولين والضعفاء (٢٦)، وليست روايات ابن القيم بأحسن حالا، فبين آخر الرواة المذكورين وهو اسماعيل بن عياش الذي توفي سنة ١٨١هـ وفتح الشام نحو ١٦٧ سنة، ينقطع السند فيها ولا يذكر الا عبارة ((حدثنا غير واحد من أهل العلم قالوا)): وهذا الانقطاع والتجهيل يؤدي الى ضعف هذه الروايات حتماً، ولعل هذا ما أدركه ابن القيم نفسه عندما قال: (وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها) (٢٧).

الا أن الشهرة وحدها ليست دليل الصحة في الواقع، خصوصاً عندما تكون هذه الشهرة انما حصلت بعد فترة طويلة من وقوع الحدث، فلا يمكن الاستغناء في إسناد الروايات تعويلا على شهرتها فقط، علماً بأن هذه الشروط كما اشتهرت زمن ابن القيم اشتهر أيضاً تضاربها وتناقضها، فقد نصت رواية ابن القيم الأولى على أن أهل الجزيرة هم الذين كتبوا الى عبد الرحمن بن غنم ثم كتب عبد الرحمن الى عمر بن الخطاب، بينما نصت الرواية الثانية على أن عبد الرحمن كتب مباشرة لعمر حين صالح نصارى الشام، وتبين الرواية الثالثة أن عبد الرحمن انما صاغ شروط النصارى الذين ذكرهم بصيغة التجهيل (نصارى مدينة كذا وكذا) في كتاب لعمر، ومع هذا التناقض فانه يبدو عجيباً، أن يملي المغلوبون شروطهم على الغالب كأنه هو في حاجة لأن يوادعوه، ومع هذا التضارب حول الذي اشترط العهد، فقد وقع التضارب في المتن المكتوب نفسه، فقد اشتملت رواية ابن القيم الأولى على شرطين ألحقهما عمر بن الخطاب نفسه بذلك العهد وكتب بهما الى عبد الرحمن بن غنم فأنفذهما، أحدهما: منع الذميين من شراء سبايا المسلمين، والآخر خلع عهد الذمي اذا اعتدى على أحد المسلمين

٢٥. ابن قيم، ص ٣ ـ ٥.

٢٦. حقق الدكتور أحمد عادل كمال سند ورواية ابن عساكر، فأورد الاسناد والتعليقات الآتية: ـ
ابن عساكر: قرأت على أبي القاسم الخضر بن الحسين بن عبد الله، عن القاضي أبي عبد الله الحسن بن أحمد بن عبد الواحد (نجهله)، أنا المعمر المسدد بن علي بن عبد الله الأملوكي (فيه تساهل)، أنبأ أبي (نجهله) أنا أبو القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضي (نجهله)، أنا عبد السلام بن العباس بن الزبير (نجهله) عن أبي مخنف (ضعيف)، حدثني محمد يوسف بن ثابت (نجهله) عن عباس بن سهل بن سعد (نجهله).

٢٧. ابن قيم، ص ٧.

بالضرب، بينما خلت من هذين الشرطين الملحقين الروايتان الباقيتان.

أما ابن عساكر فلم يتعرض للشرط الأول، أما الشرط الثاني فقد جعله أصلياً في صلب نص المعاهدة، وأنه مما اشترطه الذميون على أنفسهم بقولهم: ـ ((ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده))، ولم يتطرق أصلا الى أي زيادة من عمر بن الخطاب على ما اشترطه الذميون على أنفسهم.

ولا يفوتنا أيضاً أن نصارى أهل الشام ـ في رواية ابن عساكر ـ وجهوا كتابهم الى أبي عبيدة والي عمر على الشام وقائد الفتح بعد عزل خالد بن الوليد، فما ندري بعد هذا كله ما عسى أن يكون عمل عبد الرحمن بن غنم في توجيه كتب الصلح اليه في روايات ابن القيم الثلاث.

ولو نظرنا الى متن هذه الشروط لوجدنا فيها أشياء لا تقبل ولا يمكن أن تكون نصاً في معاهدة، مثل ((ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين)). ولا نحسب أن نصارى الروم يقرون على أنفسهم بالشرك، ومثل ((ونقوم لهم من المجالس إن أرادوا الجلوس))، فهل يعقل أن يكون هذا من شروط الصلح و بنداً من بنود معاهدته رغم قول الرسول صلى الله عليه وسلم ((لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا أو توسعوا)) رواه مسلم.

ومثل ((ولا نعلم أولادنا القرآن))، فكيف يشترطون على أنفسهم هذا الشرط؟ وأي جريمة يرتكبون في تعلم القرآن؟ وكيف يرضى به المسلمون مع أنهم ما خرجوا إلا لنشر الدين الذي يعتبر أسماع القرآن الكريم وتعليمه وتعلمه أول أسبابه ووسائله، وكيف نوفق بين هذا و بين قوله تعالى:

((وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)).

ومثل: ((ونشد الزنانير على أوساطنا)) مع باقي الشروط التي تتعلق ـ كما يقول ابن القيم ـ بتغيير لباسهم وتمييزهم عن المسلمين في المركب واللباس وغيره، فهي أمور لم ترد في أي من معاهدات الصلح التي عقدت في بلاد الشام غير هذه الرواية.

والزنانير جمع تكسير للفظ الزنار الذي هو لفظ يوناني موضوع للمنطق أو الحزام، وما كانت الزنانير بهذه الصيغة الجمعية شائعة الاستعمال في عصر عمر ور بما لم تدخل العربية إلا عن طريق الآرامية بعد أن أصبحت علماً على الحزام و بعد أن أصبح الحزام علامة مميزة لأهل الذمة من المسلمين، فكيف يستعمل عمر في عهده لفظاً لما يشع ولما يعرفه الناس وكيف يستعمل هذا اللفظ الا عجمي رغم قيام المنطق أو الحزام مقامه؟ (٢٨).

٢٨. مقدمة شرح الشروط العمرية، ك.

ومما يدعم هذا الاتجاه أن أبا يوسف القاضي المشهور المتوفي سنة ١٨٣هـ تحدث في كتابه الخراج (٢٩) عن (زنارات) عمر لا عن زنانيره، وعن المناطق المشدودة على الأوساط في معرض حديثه عن عمر بن عبد العزيز لا عن عمر بن الخطاب.

وعندما صاغ عبد الرحمن بن غنم شروط النصارى في كتاب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لم ينص على اسم المدينة التي جرى فيها هذا العهد بل اكتفى بعبارة مبهمة هي قوله: مدينة كذا وكذا، فان تكن المدينة المذكورة هنا هي دمشق كما صرح بذلك ابن عساكر، فان المشهور من معاهدة فتح دمشق كما أورده البلاذري وابن عساكر نفسه مخالف تماماً لهذا العهد فأهل دمشق أومنوا (على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية) (٣٠). وان كانت غير دمشق فالمعلوم أن للمعاهدات الاسلامية مع أهل الكتاب استراتيجية عامة طبقت على من صالح في بلاد الشام واتضحت في معاهدة حمص (٣١) و بعلبك (٣٢) و بيت المقدس ودمشق ـ على رواية البلاذري وابن عساكر، فلا يوجد مبرر معقول لخروج المسلمين على هذه الاستراتيجية العامة فيما رواه ابن القيم وابن عساكر من شروط خصوصاً وأنه لم يتعرض لها أي من المؤرخين القدامى كالواقدي والبلاذري والطبري، على أنه يبدو من الصياغات التفصيلية لهذه الشروط أنها تعالج أوضاعاً لم تكن موجودة زمن الفتح وانما ظهرت في فترات لاحقة يمكن ربطها بالتطورات التي حدثت على وضع أهل الذمة ابتداء بأيام عمر بن عبد العزيز الى أيام هارون الرشيد الى قرارات المتوكل. مما يدعو للاعتقاد أنه كثر الادراج في النص الأصلي للمعاهدة ليعبر عن صيغ فقهية وضعت لتنظيم أوضاع تالية.

---

٢٩. أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) كتاب الخراج، نشر ضمن موسوعة الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩. ص ١٢٧ ـ ١٢٨. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو يوسف.

٣٠. البلاذري، جـ١، ص ١٢٨، تهذيب ابن عساكر، جـ١، ص ١٤٩.

٣١. معاهدة حمص كما أوردها البلاذري، جـ١، ص ١٣٧: أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرجائهم.

٣٢. معاهدة بعلبك كما في البلاذري أيضاً ص ١٣٦ أن أهل بعلبك روماً وفرساً وعرباً آمنون على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرجائهم. وللروم أن يرعوا سرحهم (ماشيتهم) ما بينهم و بين خمسة عشر ميلا. ولا ينزلوا قرية عامرة. فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا الى حيث شاءوا. ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها. وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله وكفى بالله شهيدا.

وأياً كان أمر الشروط العمرية، فان أحداً من المؤرخين لم ينص على أنها هي معاهدة فتح بيت المقدس أو أنها تنطبق عليها، بل أن لبيت المقدس معاهدة خاصة اشتهرت باسم العهدة العمرية وأنه وان كان في ألفاظها اختلافات وزيادات حسب الروايات المختلفة بحيث لا يمكن الوثوق بنص معين، فان المؤكد أن فحوى الروايات متفق على سماحة المسلمين في هذا العهد ورعايتهم للحرمات الدينية بما يتفق مع الاستراتيجية العامة للمعاهدات الاسلامية مع أهل الذمة.

وقعة أجنادين
دراسة تحليلية للمصادر والروايات

ناصر الدين الأسد
كلّية الآداب ــ الجامعة الاردنية

مع أن العرب كانوا شديدي العناية بتسجيل مواقعهم وتخليد مآثرهم وحفظ أنسابهم ورواية أشعارهم، فقد اختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً. وقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تفسير هذا الاختلاف. ولم يكن العرب وحدهم منفردين بالاختلاف في تواريخهم وأخبارهم، فقد شاركهم فيه مَنْ كان قبلَهم ومَنْ عاصرهم، من: اليونان، والرومان، والفرس، والبيزنطيين وغيرهم، ثم مَنْ جاء بَعدَهم إلى يومنا، إذ نجد الاختلاف واسعاً بين الناس في تفصيلات الحادثة الواحدة التي تجري في زماننا، بل قد يختلف الناس في أجزاء الحادثة وهم شهود عليها، حضور لوقائعها: كلٌّ يرى جانباً من موقف، أو يسمع طرفاً من حديث، وقد يَزيد على ما رأى أو ما سمع بعضَ ما يظنُّ أنه من تمام الواقعة ومما تكتمل به خطوطُ صورتها أو مما يَشْرَحُ بعضَ غامضها. ومع تعدّد هذه الجوانب والأطراف والخطوط والشروح تتعدد الروايات، وتختلف، وقد تتباعد وتتناقض. ثم تتعاقب الأزمنة، فيَرْوي اللاحقُ عن السابق، و ينقل الخلف عن السلف، وقد يسهو عند السماع، أو ينسى عند الرواية، أو يخطيء في النقل. وقد يضيف أحياناً، عن عَمْد، بعض ما يظنّ أنه ينفع في التأثير في السامعين أو القارئين، وخاصة في قصص الوعظ، وأخبار الصالحين، و بطولات المحاربين، وكثرة جيوش الأعداء وعدد قتلاهم، وما يشبه ذلك، تقرّباً إلى الله وإعلاءً لشأن دينه، وإثارةً للحماسة وحثّاً على الجهاد. فتزداد بذلك رقعة الاختلاف بين الروايات، و يشتدّ التناقض بينها. ومن هنا اقتضى المنهج العلمي ــ أولَ ما اقتضى ــ وجوبَ جمع الروايات والأخبار جمع حصر واستقصاء، من غير إغفال لشيء منها أو انتقاءٍ لبعضها دون بعض، ثم اقتضى معارضةَ هذه الروايات فيما بينها وتحقيقَها وتمحيصَها، وترجيحَ إحداها على غيرها بمرجّحات وأدلّة واضحة الدلالة على الترجيح. و يظلّ الأمر بعد ذلك كلّه بعيداً عن القطع واليقين، مَردُّه الى اجتهاد شخصي

قائمٍ على محاكمات نقلية وعقلية وعلى أدلّة ظنّية. هذا هو التاريخ، وكذلك كانً، في كل عصر وعند كل أمّة. وليس هذا بمنتقصٍ من قيمته ولا بغاضٍّ من قَدْره. فكل أمرٍ بشريٍّ لا بدّ فيه من اختلاف الآراء، وتشعّب الاجتهادات، وتعدّد الاتجاهات والمواقف.

وكان مما اختلف فيه المؤرخون المسلمون بعضُ غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه، وبعض معارك المسلمين الأولى. اختلفوا في تحديد مواقعها وخاصة بعد أن انقضت مئات السنين، وخَرب ما كان معموراً، وهُجِر ما كان مأهولاً، ونشأت مدن وقرى على مواقع كانت قفراً يباباً، وتغيّرت الأسماء أو شابها التحريف. واختلفوا كذلك في عدد المقاتلين المسلمين وعدد المقاتلين من غيرهم، وفي عدد الذين قُتِلوا من كل فريق. واختلفوا أيضاً في تحديد زمان بعض المعارك، وقدّم نفر من المؤرخين معارك أخّرها نفر آخر، واضطربت سنوات حدوثها اضطراباً شديداً. وانبرى المحقّقون الثِّقاتُ من القدماء والمُحْدَثين إلى النظر في الاختلافات، وتمحيص الروايات، ومعارضة بعضها ببعض، حتى استطاعوا في كثير منها استخلاص الصحيح واجتلاء الحقيقة، بالتتبع المستقصي، وتحليل الأسباب، وتفسير الظواهر، وإسقاط الروايات الضعيفة بعد بيان علّة ضعفها. وهكذا ضاقت شقة الخلاف بعد أن كانت للنظرة الأولى واسعةً تدعو إلى الشك والاضطراب.

وكان من هذه الوقائع التي اختلفت فيها الروايات: معركة أجنادين. وكان الظن أن تعين المصادر غير الإسلامية، كالبيزنطية والسريانية، على تحقيق الروايات العربية، وتخليصها من الاختلاف والاضطراب. غير أن هذه المصادر ليس فيها مصدر معاصر لهذه المعركة أو قريبٌ من زمنها. وأقدمها عهداً يرجع إلى نهاية القرن الثاني الهجري. ثم إن هذه المصادر المتأخرة يسودها الغموض والتعميم، فهي لا تذكر أجنادين ذكراً صريحاً واضحاً، وإن كان بعض المحدثين بذلوا جهوداً لاستنتاج ذلك استنتاجاً. ومن هؤلاء المؤرخين البيزنطيين: ثيوفانس Theophanes المتوفى سنة ٨١٩م (نحو ٢٠٤هـ)، وتاريخه Chronogrophia يشمل التاريخ البيزنطي من سنة ١١م إلى سنة ٨١٣م (١٩٨هـ)، ونقفور (نيسوفورس) Nicephorus أو Nikephores المتوفي سنة ٨٢٩م (نحو ٢١٤هـ) وكان بطريقاً للقسطنطينية من ٨٠٦ الى ٨١٥م، ومؤرخاً، وميخائيل السرياني وكان بطريق أنطاكية من ١١٦٦ــ ١١٩٩م، ويعرف كتابه بتاريخ ميخائيل.

وكان كايتاني(١) قد أشار الى هؤلاء المؤرخين، ونقل ما أوردوه في كتبهم، وناقشه وعلّق عليه في خمس صفحات من حولياته. وكان من إشاراته وتعليقاته التي تُبرِز الاضطراب فيما أورده هؤلاء المؤرخون ما يلي: «ان الضوء الذي يلقيه لنا ثيوفانس على أحداث سورية بعد وفاة أبي بكر ضوء قليل، فهو يكاد لا يقدّم لنا أي خبر يتفق صراحة مع المصادر العربية.... وهذا خطأ لا ريب فيه.... ولكن هذا خطأٌ مؤكد.... وعند قراءة هذه النبذة القصيرة يظهر جلياً أن النَّص الذي أورده ثيوفانس كّان مشوشاً تشويشاً مؤسفاً، ومن الصعب أن يرى المرء بوضوح في مثل هذا النسيج المضطرب من الأخبار الناقصة عن أحداث تلك المدّة كلها: ما بين ١٢ و١٧هـ... من مثل هذه الأمور يبدو لي جلياً أنه لا بدّ من وجود ثغرات في النّص اليوناني... إن اضطراب نصّ ثيوفان واضحٌ أيضاً في الأمر التالي...»

ثم يعلّق كايتاني على ما أورده المؤرخ نقفور القسطنطيني بالتعليقات التالية: «يمكن الحصول على معلومات ضئيلةٍ لدى نقفور القسطنطيني مع أنها هي أيضاً لا تخلو من خلطٍ مؤسف». ثم يقرّر كايتاني في الهامش عن نصوص نقفور ما يلي: «الحق أن النصّ قليل الوضوح، وترتيب المادة لا يتبع نظاماً تاريخياً دقيقاً. غير أن من الممكن أن يكون في هذه النبذة إشارة مضطربة إلى معركة أجنادين!!». ويعلّق أيضاً على فصل من تاريخ لمؤرخ مجهول مكتوب باللاتينية في إسبانيا في نحو القرن الثامن الميلادي بقوله «يشتمل على أخبار غير مقطوع بصحتها، ولكنَّ من المستحسن إيرادَها ليطلع الباحث على جميع مواد الدراسة».... ثم يقول كايتاني بعد أن يورد النص باللاتينية:

«ولعل الخبر الوحيد الجدير بالذكر في هذه الفقرة هو التأكيد الواضح الصريح أن الغزوات العربية الأولى كانت لأجل الغنائم، وليس لأجل الفتح. ولا يبدو واضحاً

Leone Caetani, Annali dell'Islam, 10 vol., Georg Olms. Verlag, Hildesheim, 1972. vol. III, p.62.

في أحداث سنة ١٣هـ من آخر ص ٦٢ الى منتصف ص ٦٧، وأوردها باللغة العربية: طه الهاشمي، معركة أجنادين، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج ٢، سنة ١٣٧١هـ/١٩٥١م، ص ٧٥ــ ٧٨، وذكر أن المستشرق الهولندي دي **غويه** أشار إلى هذه المصادر في مذكرته عن فتح سورية. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: **Cactani**

De Goje, Memoire Sur La Conepuete De La Syrie

سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: De Goje

وقد اعتمدت في ترجمة الصفحات الخمس من حوليات كاتياني على الأخ الأستاذ عيسى الناعوري عضو مجمع اللغة العربية الأردني وأمينه العام.

من خلال النصّ إذا كان المقصود هو أجنادين أم وقعة مؤتة، أم أن بين الوقعتين خلطاً».

وقد أورد طه الهاشمي (٢) أقوال هؤلاء المؤرخين اليونان والسريان نقلاً عن كايتاني ودي غويه وأضاف الى هؤلاء الثلاثة هو سيبوس، ذكره دي غويه في مذكرته عن فتح سورية، وكان من تعليقات طه الهاشمي ما يلي: «وردت أخبار الفتوح الأولى في المصادر الرومية واللاتينية والسريانية غامضةً، فهي فيها عبارةٌ عن إشارات وتلميحات قد يصعب استنباط الحقيقة منها، وفيها نُتَفٌ وردت هنا وهناك، من غير ذكر لأسماء المواقع... ومع ذلك يستطيع الباحث المنقب أن يستخرج منها معلومات تساعده على استقصاء أخبار الفتوح الأولى!!».

ومع ذلك فإن المتتبع لما أورده كايتاني ودي غويه وطه الهاشمي من نصوص هذه المصادر البيزنطية واللاتينية والسريانية يرى أن هؤلاء الثلاثة ــ على تفاوتٍ ما بينهم ــ لم يستطيعوا أن يستخلصوا من تلك المصادر الأجنبية معلوماتٍ يقطعون بأنها عن معركة أجنادين، وما وصلوا اليه كان ضرباً من التخمين أو الاستنتاج.

فلم يبق لنا إذن ما نعتمد عليه، ونستمد منه معلومات واضحة، محدّدة، مفصلة عن هذه الوقعة سوى المصادر العربية الإسلامية على ما بينها أحياناً من تفاوت واختلاف.

(٢)

وهذه المصادر العربية الإسلامية توحي في أغلبها بالثقة بها، ومَرَدُّ ذلك إلى أمورٍ، منها:

ــ أنها تتسلسل في رواية الأخبار مع الرواة حتى يصل السند إلى صاحب الحَدَث نفسه، أو إلى معاصر له شاهد هذا الحدث، أو إلى أحد ذوي قرباه ممن عايشه وروى الخبر عنه.

٢. الحاشية السابقة.

ومنها:

ــ أنها لا تقتصر على رواية واحدة للخبر، تنتقيها وتحذف الروايات الأخرى حين يكون الحدَث أو موقعُه أو تاريخه أو شخص القائم به أو المشاركين فيه، موضعَ خلاف، وإنما تورد الروايات المتاحة كلها، وتترك للباحث في العصور اللاحقة أن يحاكم بينها، ويعارضها، ويختار ما يتفق مع مقاييسه العلمية، وقد يدلي بعض الجامعين لهذه الروايات من القدماء بدلوهم، فيناقشونها ويرجّحون بعضها على بعض، أو يقطعون بصحة إحداها وينفون ما سواها.

ومنها أيضاً:

ــ إن مؤلفي تلك المصادر الأولى كانوا معروفين بحرصهم على التحقّق مما يروون بالأساليب التي يصل إليها جهدهم، وبمحاولتهم تتبّع الخبر وملاحقته بمختلف الطرق، مثل: مشاهدة المواقع التي جرت فيها الأحداث، لتحديدها والتثبت من وجودها، وجمع الأخبار عنها.

ولو أخذنا أحد مؤلفي مصادرنا العربية الإسلامية وهو الواقدي، أبو عمر محمد بن عمر، مثالاً لنرى مدى انطباق هذه المزايا عليه، لرأينا ما يلي:

ان حياته شملت الثلثين الأخيرين من القرن الهجري الثاني، فقد ولد سنة ١٣٠ وتوفي ٢٠٧هـ، فكان بينه وبين أحداث أجنادين ثلاثة أجيال تتمثل في راويتين أحياناً وفي ثلاثة رواة أحياناً أخرى. ولذلك نرى تلميذه ابن سعد يروي عنه في طبقاته ويذكر إسناده، ومن ذلك:

«أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني جعفر بن محمد بن خالد، عن ابراهيم بن عُقْبة، عن أم خالد بنت خالد قالت... فلما خرج المسلمون إلى الشام فكان [عمرو بن سعيد بن العاص] فيمن خرج، فقُتِل يوم أجنادين شهيداً في خلافة أبي بكر الصديق في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وكان على الناس يومئذ عمرو بن العاص» (٣).

٣. ابن سعد، محمد بن سعد منيع (٢٣٠ هـ/ ٨٤٥م) الطبقات الكبرى، ٩جـ، طَبعَة دار صادر، بيروت ج ٤، ص ١٠١
سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد: الطبقات.

فهؤلاء ثلاثة رواة ينتهون بأم خالد، وهي بنت خالد بن سعيد بن العاص، أخي عمرو بن سعيد بن العاص. فرواية الخبر إذن متسلسلة مرفوعة إلى معاصرةٍ للحدث ذاتِ قربى بصاحبه هو عمّها. ثم إن الواقدي يحرص على تثبيت الخبر بذكر تفصيلات محيطة به، فهو يقول إن يوم أجنادين كان في خلافة أبي بكر، ولا يكتفي بل يحدّد الشهر والسنة، ولا يكتفي حتى يذكر اسم القائد في تلك الوقعة. وكل ذلك مما يشيع في نفس السامع للخبر أو قارئه الطمأنينة والثقة.

ونرى ابن سعد أيضاً يروي عن الواقدي خبراً يذكره الواقدي بإسنادين، أحد هذين الإسنادين له روايتان، على الوجه التالي:

«أخبرنا محمد بن عمر [الواقدي] قال: أخبرنا عبد الله بن جعفر، عن اسماعيل بن محمد بن سعد، **و**محمد بن عبد الله بن عمرو، **قالا** / وأخبرنا قدامة بن موسى عن عائشة بنت قدامة = **قالوا**: قُتِل طُلَيْب بن عُمَيْر يوم أجنادين شهيداً في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وليس له عَقِب(٤)» فقد روى الواقدي هذا الخبر أولاً عن عبد الله بن جعفر الذي رواه عن اثنين، هما: اسماعيل بن محمد ومحمد بن عبد الله، ثم رواه الواقدي كذلك من طريق آخر، وهو عن قدامة بن موسى الذي رواه عن عائشة بنت قدامة. ونذكر في هذا الخبر — كما ذكرنا في الخبر السابق — حرص الواقدي على ذكر التفصيلات التي تضفي على الرواية جوّاً من الثقة بها.

ونختم هذا الجانب الأول من جوانب الحديث عن الواقدي بما رواه ابن سعد(٥) قال: «أخبرنا محمد بن عمر [الواقدي] قال: حدثني أبو بكر ابن عبد الله بن أبي سَبْرَة، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن يزيد ابن أبي مالك، عن أبي عبيد الله الأودي / قال محمد بن عمر: وحدثني نُجَيْح أبو معشر، عن محمد بن قيس / قال محمد بن عمر: وحدثني ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان = **قالوا**: كانت أول وقعة بين المسلمين والروم أجنادين، وكانت في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة في خلافة أبي بكر الصديق، وكان على الناس يومئذ عمرو بن العاص».

٤. المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٤.

فهذه ثلاثة طرق مختلفة لرواية خبر واحد، حشدها الواقدي معاً، لقيمة الخبر الذي رواه، وهو موعد وقعة أجنادين، واسم القائد فيها، وأنها أول وقعة بين المسلمين والروم. فكأنه كان يريد تأكيد الخبر وتوثيقه عن طريق تعدد طرق الإسناد ورواته.

وقد اقتصرتُ في كل ما ذكرتُه عن الواقدي على أخباره عن أجنادين. ولكنّ بيان منهجه في التحرّي والتحقيق والاستقصاء يقتضينا أن نذكر له أخباراً أخرى تكشف عن خصائص هذا المنهج، منها:

انه كان يقول: ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء، ولا مولى لهم، إلاّ سألتُه: هل سمعتَ أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعاينه. ولقد مضيت إلى المُرَيْسيع فنظرتُ إليها، وما علمت غزاة إلاّ مضيت إلى الموضع حتى أعاينه، أو نحو هذا الكلام(٦).

وهو يذهب في تمحيص الأخبار إلى الاطلاع على الوثائق، ومناقشة الرواة، وتعليل ما ذهبوا اليه تعليلا يجلو جوانب الأمر، ومن ذلك أن عدداً من الرواة ومنهم الهيثم بن عدي، ذكروا أنّ أهل كثير من البلاد الشامية كانوا يصالحون المسلمين على منازلهم وكنائسهم يشاطرونهم إياها ليسكنوا في شطر من المنازل، أو ليبنوا جامعاً في شطر الكنيسة، ومن ذلك دمشق، فقال الواقدي(٧): «قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس. وقد رُوي ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه. ولكن دمشق لمّا فُتِحت لحق بشَر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية، فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون».

٥. ابن سعد، الطبقات، ج ٤، ص ١٩٤.

٦. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣ هـ/١٠٧٢ م) تاريخ بغداد، ج ١٨، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٣، ص ٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد.

أبن سيد الناس، محمد بن محمد (٧٣٤ هـ/ ١٣٣٤ م) عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير، ٢ ج، الناشر: مكتبة القدسي القاهرة، ١٣٥٦ هـ، ج ١، ص ١٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبن سيد الناس: عيون الأثر.

٧. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ق ١، ص ١٤٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح البلدان.

هـذا الأسلوب في تتبع الرواية، والجمع بين عدة طرق في الأسانيد أحياناً، ورَفْع السَّند الى مَنْ عاصرَ الأحداث، ثم هذا المنهجُ العلمي في المشاهدة الشخصية وفي تمحيص الروايات ومناقشتها، كل ذلك جعل المؤرخين بعده يعتمدون عليه، و يرونه عالماً «بالفتوح» (٨) فله كتاب «فتوح الشام» وكتاب «فتوح العراق» (٩)، وغيرهما، ودفعهم إلى أن يختاروا روايته، ومنهم البلاذري الذي كان يقول أحياناً ـــ في معرض الترجيح بين الروايات ـــ «ورواية الواقدي أثبت» (١٠).

(٣)

و يأتي بعد الواقدي ممن ألَّف في الفتوح كتاباً مفرداً ذكرته المصادر: أبو اسماعيل محمد بن عبد الله الأ زدي المتوفى سنة ٢٣١ هـ، وله تاريخ «فتوح الشام» (١١)، ذكره المِزّي (ت ٧٤٢ هـ)، والذهبي (ت ٧٤٨ هـ) وكان يلقّبه بصاحب فتوح الشام، وابن حجر (ت ٨٥٢ هـ)، ووصفه بعضهم بأنه كان شيخاً صدوقاً، ووثّقه نفر منهم ابن حِبّان (١٢).

والأ زدي أيضاً صاحب رواية محكمة واسناد مرفوع إلى صاحب الحادثة، أو أحد ذوي قرباه، أوأحد معاصريه. و بينه و بين الصحابة وشهود فتوح الشام راو ية واحدٌ أو راو يتان في سنده. فهو يروي خبر تجهيز أبي بكر الجنود إلى الشام بقوله «حدثني الحارث ابن كعب عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي، وكانت له صحبة..» (١٣) فكأنما أراد أن يؤكد

٨. ابن النديم، محمد بن إسحاق بن محمد إسحاق أبو الفرج (٤٣٨ هـ/ ١٤٠٧ م) الفهرست، ج ١، المكتبة التجارية بمصر (١٣٤٨ هـ/ ١٩٢٩ م) ص ١٥٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن النديم، الفهرست.

٩. المصدر السابق. وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن هذين الكتابين لم يصلا إلينا، وأن بأيدينا منهما موضوع الواقدي..

١٠. البلاذي، فتوح البلدان ج ١، ص. ١٤١ وانظر مثالا على دقة الواقدي ووضوح روايته في فتوح البلدان ج ١، ص ١٦٦ عن أمر قيسارية رقم ٣٧٤.

١١. الأ زدي، محمد بن عبد الله (ت ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م) فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، نشر مؤسسة سجل العرب/ القاهرة، ١٩٧٠ م. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأ زدي، فتوح الشام.

١٢. انظر مقدمة المحقق، ك، ل.

١٣. الأ زدي، فتوح الشام، ص ١.

صحة إسناده وما يرو يه من خبر، بتقرير صحبة ابن أبي أوفى (١٤) و بأنه عاصر أبا بكر وكان من شهود تجهيز الجنود إلى الشام.

و يروي عن الحارث بن كعب عن قيس بن أبي حازم قوله: «كنت مع خالد بن الوليد حين مرّ بالشام..» (١٥) فهذا معاصر شاهد الحادثة وصاحبها.

و يروي كذلك عن أبي الخزرج الغساني قوله: (١٦) «كانت أمي من ذلك السبي..» يقصد ممن سباهم خالد في وقعة مرج راهط.

وحسبنا ما قدّمنا لننتقل منه إلى الحديث عن رواية الأ زدي لأخبار وقعة أجنادين. فهو يروي هذه الأخبار من طريقين، الأول: عن محمد بن يوسف عن ثابت البُناني عن سهل بن سعد (١٧). والثاني: عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبي سعيد المقبري عن معاذ بن جبل (١٨): والأ زدي يروي عن راو يتيه بقوله: «حدثني» محمد بن يوسف و «حدثني» عبد الملك بن نوفل بن مساحق. أما الأ ول فهو محمد بن يوسف بن واقد بن عثمان الضبي، أبو عبد الله الفريابي، نزل قيسارية من ساحل الشام، روى عن طائفة، منهم: الأ وزاعي ونافع مولى ابن عمر والثوري، وروى عنه كثيرون منهم البخاري، ولد سنة ١٢٠ هـ وتوفي سنة ٢١٢ هـ (١٩). وقد وثّقوه ووصفوه بأنه «صدوق»، ثم إنه نزل بقيسارية، وهي قريبة من أجنادين، وفتحها المسلمون فيما فتحوا بعد أجنادين. فمنزله قريب من موضع الموقعة.

وأما الثاني فهو عبد الملك بن نوفل بن مساحق لم يذكروا سنة وفاته، ولكن ابن

١٤. ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢١. ترجمة عبد الله بن أبي أوفى.

١٥. الأ زدي، فتوح الشام، ص ٨١.

١٦. البلاذري، فتوح البلدان، ق ١، ص ٨٣.

١٧. الأ زدي، فتوح الشام، ص ٨٥، ص ٩٣، وفي الموضعين «عن ثابت بن سهل بن سعد» وهو خطأ واضح، جاءت «بن» مكان «عن».

١٨. الأ زدي، فتوح الشام، ص ٩٠.

١٩. أبن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٩ م) تهذيب التهذيب، ١٢ ج، طبع بمطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٢٦ هـ، ج ٩، ص ٥٣٥ ـــ ٥٣٧ وله فيه ترجمة مسهبة. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبن حجر، تهذيب التهذيب.

حجر(٢٠) نصّ صراحة على أنه روى عن جماعة منهم «كيسان بن سعيد المقبري»، وأنّ جماعة رووا عنه، منهم «أبو اسماعيل الأزدي صاحب فتوح الشام» هكذا نصّاً صريحاً واضحاً، ثم قال إن ابن حِبّان ذكره في الثقات.

أما ثابت البُنَاني (بضم الباء الموحدة ونونين مخففتين) فقد صحب أنس بن مالك أربعين سنة وروى عنه وعن ابن الزبير وابن عمر وغيرهم كثير، وروى عنه جماعة، ووصفوه بأنه «ثقة» «مأمون» «رجل صالح»، وأنه من «أثبت أصحاب أنس» توفي سنة ١٢٧ هـ(٢١). وهنا موضع توقّف، إذ كيف يروي عنه محمد بن يوسف وقد ولد سنة ١٢٠ هـ فبين وفاة الأول وولادة الثاني سبع سنوات. إلاّ إذا كان قد روى عنه بالوساطة وسقط الراوية بينهما في النسخ أو الطبع، أو روى عنه نقلا من كتاب. وهما معاً، وكذلك الأزدي، من الثقات المأمونين الذين لا نملك أن نتهمهم أو نردّ روايتهم، كما رأينا فيما نقلنا من أخبارهم. وسنعود إلى الحديث عن جانب من صفات ثابت البُناني بعد الفراغ من ذكر الراويين الباقيين، وهما:

سهل بن سعد بن مالك، الذي يروي عنه ثابت البُناني. وهو أنصاريٌّ من الخزرج، له ولأبيه صحبة، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن جماعة من الصحابة، وروى عنه من كبار التابعين، ولد قبل الهجرة بخمس سنين ومات سنة ٩٦ هـ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة. كان اسمه حَزْناً فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلاً(٢٢).

أما أبو سعيد المقبري الذي يروي عنه الأزدي عن طريق عبد الملك بن نوفل بن مساحق، فهو كيسان بن سعيد المدني، أدرك نفراً من الصحابة وهو كبير، وروى عنهم، منهم: عمر وعلي وأسامة بن زيد وأبو رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو هريرة، وروى عنه جماعة ذكر ابن حجر منهم: عبد الملك بن نوفل بن مساحق في موضعين، توفي سنة ١٠٠ هـ(٢٣).

٢٠. المصدر السابق ج ٦، ص ٤٢٨.
٢١. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٢ — ٤.
٢٢. ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٦٢٤ — ٦٢٥، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٢٥٢ — ٢٥٣.
٢٣. ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٨٥، ابن حجر، تهذيب التهذيب ج ٨، ص ٤٥٣ — ٤٥٤.

ونسخة كتاب «فتوح الشام» نسخة نفيسة فريدة موثقة. رواها عن أبي اسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري نفر من الرواة تعاقبوا على روايتها من بعده، آخرهم الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي الأصبهاني المتوفى سنة ٥٧٦ هـ كما هو مثبت في أول الكتاب(٢٤). وذكر محقق الكتاب أن صحيفة العنوان عليها عبارة تدلّ على قراءة للحافظ السِّلَفي بغير تاريخ، فهي مكتوبة إذن قبل وفاة السِّلفي، وذهب المحقق إلى ترجيح أن يكون كاتب النسخة واحداً من تلاميذه، فتاريخ نسخها — على هذا — هو القرن السادس الهجري(٢٥).

فكتاب الأزدي — وهذا شأن نسخته الخطية وهؤلاء هم رجاله — له منزلة عالية في تاريخ الرواية عن فتوح الشام، وفيها وقعة أجنادين، والفائدة منه لا تزال غضّة، و يستطيع الدارس له أن يستخرج منه جوانب لا يجدها عند الواقدي فيما رواه عنه تلميذه وكاتبه ابن سعد. فمن هذه الجوانب أنه يتوسّع في ذكر الوقائع، وتصويرها تصويراً يتناول أجزاءها، بل إنه ليورد لنا الحوار المتواصل الذي كان بين عدد من رجال وقعة أجنادين، كأنّ راويته قد سجّل أقوالهم أو دوّنها وهو يسمعها من قائليها. وحفظ لنا نصوصَ كتبٍ مما بعث بها بعض هؤلاء الصحابة إلى بعض، ونصوص الخطب والمواعظ التي ألقوها. حتى إن القارىء لتستغرقه قراءة أخبار الوقعة وكأنه يقرأ قصة متسلسلة تشدّه أحداثها. وهنا نعود إلى ثابت البُناني، الذي روى الأخبار عن الصحابي سهل بن سعد، وروى عنه الأزدي عن طريق محمد بن يوسف. فقد ذكروا عنه أنه «كان يقصّ»، وقال حماد بن سلمة: «كنت أسمع أن القُصّاص لا يحفظون الحديث، فكنت أقلّب على ثابت الأحاديث: أجعل أنساً لابن أبي ليلى، وأجعل ابن أبي ليلى لأنس، أشوّشها عليه، فيجيء بها على الاستواء»(٢٦).

فهل تكون هذه المهارة القصصية والصنعة الروائية هما اللتين حملتاه على أن يضفي على الأخبار التاريخية والروايات المتفرقة المفردة، غلالة من السرد المتسلسل، والحوار الحيّ، والجو القصصي، حتى جاء كتابه على ما هو عليه، مع الدقة في ذكر الأحداث، وتواريخها، وتتابعها، وأسماء الأعلام وأنسابهم والصلات بينهم، كما جاءت في أثبت الكتب

٢٤. الأزدي، فتوح الشام، ص ١.
٢٥. الأزدي، فتوح الشام، مقدمة، المحقق، ص ٢.
٢٦. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٢ — ٤.

الأخرى التي سبقته والتي تلته، والتي خلت من هذا الأسلوب القصصي واكتفت بذكر الرواية التاريخية مجرّدة مقتضبة (٢٧) ؟

هذا كله موضع تدبّر وتأمّل ومراجعة وتمحيص. فقد سار أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي المتوفى سنة ٣١٤هـ في «كتاب الفتوح» (٢٨) على طريق أبي إسماعيل الأزدي في تطعيم أخباره بالقصص ومزجها بالحوار. ومع أن أصول هذه القصص والحكايات والكتب والخطب والمواعظ، التي سردها ابن أعثم في كتابه، واردة في جوهرها وتسلسلها وأشخاصها وحوادثها في كتاب الأزدي، غير أننا نجدها في كتاب ابن أعثم قد اتخذت نطاقاً أوسع، وصوراً قصصية أصرح، فانصبّت الأخبار الصحيحة في قالب من التفصيلات الدقيقة والعبارات العاطفية الحماسية حتى خرجت من إطار الرواية التاريخية الرصينة إلى إطار السَّمَر والحكايات الشعبية التي تشدّ أنظار الناس وآذانهم إلى «الراوي الشعبي» وتبثّ فيهم عوامل الإثارة والهياج، أو إلى إطار الوعظ الذي يلهب المشاعر بقصصه واستشهاداته ومبالغاته رغبةً في اقتحام عقول العامّة ونفوسهم في محاولة لإقناعهم أو لإرضائهم. ومن يتتبع أخبار وقعة أجنادين — بل أخبار الفتوح الأولى كلها — في كتاب ابن أعثم صفحةً صفحة يجده كأنما وقع على كتاب الأزدي، وَقْعَ الحافر على الحافر، وأخذ يسايره خطوة خطوة، مع ما يكاد يكون تطابقاً في الروح والاتجاه العام، ومع اتفاق في كثير من الألفاظ والعبارات، واختلاف يسير اقتضته طبيعة المبالغة القصصية عند ابن أعثم، وربما اختلافُ الرواة، وإن لم نجد فيه ذكراً لرواته كما وجدنا في كتاب الأزدي، فقد كان يكتفي بقوله في مطلع كل خبر أو مجموعة من الأخبار» قال: ... «دون أن يذكر لنا من هو هذا القائل (٢٩).

---

٢٧. جاءت وقعة أجنادين في فتوح الشام، للأزدي، عشر صفحات متوالية من أول ص ٨٤، حتى آخر ص ٩٣، ثم تكرر ذكر أجنادين في مواضع اخرى.

٢٨. ابن أعثم الكوفي، أحمد بن أعثم (ت ٣٢٤هـ/٩٢٦م) الفتوح، ٨ج، طبع باعانة وزارة المعارف الهندية / بمراقبة الدكتور محمد عبد المعين خان، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد / ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبن أعثم، الفتوح.

٢٩. اخبرني الأستاذ عبد العزيز الدوري أنه كانت قد وقعت لبعض اصدقائه نسخة خطية مكتوب عليها أنها «حروب الردة» للواقدي، فلما نظر فيها وفحصها عرف أنها الجزء الأول من كتاب «الفتوح» لابن أعثم، وان فيه زيادات كثيرة على المطبوع، وأن ابن أعثم ذكر في أوله أنه روى أخباره فيه عن أبن إسحاق والواقدي. ثم جمع رواياتهم في درج الكتاب من غير نسبة كل خبر إلى راوية.

فإذا عدنا الى «فتوح الشام» للواقدي — وهو الكتاب المطبوع (٣٠) الذي شكّ في نسبته إلى الواقدي كثير من الباحثين من العرب والمستشرقين — وجدنا بينه وبين كتابي الأزدي وابن أعثم مشابه في سرد أخبار وقعة أجنادين (٣١): في الأحداث وتسلسلها، وفي أسماء الرجال وأنسابها، وفي تحديد الأماكن والسنوات — وهذا كله متّفق بل متطابق مع أصحّ الروايات وأصدق الأخبار وأثبت الكتب — ثم تمتد هذه المشابه إلى اشتراك هذه الكتب الثلاثة في القصص والحوار والمواعظ والرسائل والخطب، ولكن في كتاب الواقدي بعد ذلك أساطير وخرافات واضحة لا تكاد تثبت على التمحيص والتحقيق، بل على النظرة الفاحصة الأولى، غير أنها ذات تأثير عميق في نفوس القارئين والسامعين من عامة الناس وجهلائهم بإثارة الحماسة فيهم والهاب مشاعرهم.

ويبدو لنا بعد هذا العرض الطويل لتلك الكتب الثلاثة أن الاتجاه إلى مزج الأخبار والأنساب بالقصص والسمر كان اتجاهاً قديماً عند المؤرخين ورواة الأخبار والأنساب. فقد رأينا أن ثابتاً البُناني المتوفى سنة ١٢٧هـ كان «يقصّ»، وأن ميله إلى ذكر القصص كاد أن يشكك بعض علماء الحديث النبوي في صدقه.. وأن الحسن البصري — على جلال قدره — كان يقصّ حتى مرّ به علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فنهاه عن سرد القصص في الحجّ لأن قصصه «تشغل الناس عن طواف البيت» (٣٢). وكانت أمّه كذلك «تقصّ للنساء» (٣٣). وقد توفي الحسن البصري سنة ١١٠هـ. وبعدهما هشام بن محمد الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤هـ كان من أعلم الناس بأخبار العرب وأنسابهم وأشعارهم، شديد الضبط والتدقيق لها فيما يروي، وكان يرجع إلى مدوّنات ونقوش لم يرجع إليها غيره، ورجّحت صحتها الكشوف والدراسات الحديثة، ومع ذلك ضعّفه كثير من رواة الأخبار والأنساب وكذّبوه، حتى قال عنه ياقوت (٣٤) «ولله درّ ابن الكلبي، ما تنازع

---

٣٠. الواقدي، محمد بن عمر (ت، ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م) فتوح الشام، ٢ج في مجلد ١، طبع دار الجيل، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، فتوح الشام.

٣١. الوقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٤٨، ص ٦٧.

٣٢. ابن خلكان، أبو العباس، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ج، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ٢، ص ٧٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلكان، وفيات الأعيان.

٣٣. أبن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٧٢.

٣٤. الحموي، ياقوت بن عبد الله (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) معجم الأدباء- ٢٠ج، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ١٥٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت الحموي، معجم الأدباء.

العلماء في شيء من أمور العرب إلاّ وكان قوله أقوى حجّة، وهو مع ذلك مظلوم و بالقوارض مكلوم». وما ذلك في بعضه إلاّ لأنه أقدم «على تدوين الآثار ممزوجة ببعض الأساطير والأقاصيص» كما وصفوها (٣٥)، ولأنه «يروي الغرائب والعجائب والأخبار التي لا أصول لها» كما ذكر السمعاني، ولأنه كان «صاحب سمر» كما وصفه الإمام أحمد بن حنبل (٣٦). وقد ذكر ابن النديم له من الكتب ما جعل عنوانه «كتبه في الأخبار والأسمار» وسرد منها: «كتاب الفتيان الأربعة، كتاب السمر، كتاب الأحاديث، كتاب حبيب العطار، كتاب عجائب البحر» (٣٧) وعناوينها أشبه بالحكايات الشعبية الدارجة التي تضمّها مجموعة «ألف ليلة وليلة». وقد ذكر له ابن النديم عشراتٍ من الكتب الأخرى في الأخلاق، والمآثر والبيوتات والمنافرات والمؤودات، وأخبار الأوائل، وما قارب الإسلام من أمر الجاهلية، وأخبار الإسلام، وأخبار البلدان، وأخبار الشعر وأيام العرب، والأنساب، وغيرها، ولكنّ ابن الكلبي ـ على جلال شأنه وقيمة مؤلفاته وفوائدتها ودقّتها ـ لحقته وصمة «القصص والسمر» فحكم عليه بعضهم بالوضع والكذب.

فهل نستطيع هنا إذن أن نرجّح ـ بسبب كلّ ما قدّمناه ـ أن رواية الحديث مدرسة علمية قائمة بذاتها، تختلف في أسلوبها عن غيرها بما تقتضيه من «تجريد» الحديث وحده، تحرّجاً من أن يختلط كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامٍ غيره، وخاصة حين يكون هذا الكلام قصصاً وسمراً، وحتى يُعين هذا «التجريد» للحديث وحده على فهم روح الأسلوب والنّص، وعلى الاحتجاج به، وعلى نقد «المتن» بالاضافة الى نقد «السند»؟ ومن هنا جاء تضعيف رجال الحديث، المتخصصين فيه المقتصرين عليه، لمن كان يجمع رواية الحديث ورواية الأخبار والأنساب، وخاصة لمن كان يمزج هذه الرواية بالقصص والسمر. ومع ذلك فقد رأينا من كبار رجال الحديث الثقاتِ الأثباتِ مَنْ كان يردّ رأي الآخرين في تضعيف نفر من هؤلاء الأخباريين والنّسابة الذين يجمعون بين الروايتين، و يذهبون إلى توثيقهم وصلاحهم.

٣٥. ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب، (ت ٢٠٤/ ٨١٩م) الاصنام، ج ١، تحقيق أحمد زكي باشا، طبعة ثانية، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م، المقدمة، ص ١٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الكلبي، الأصنام.

٣٦. ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٤.

٣٧. ابن النديم، الفهرست، ص ١٤٢

هذه واحدة، أمّا الثانية فهي: هل نستطيع أن نذهب إلى أن تدوين السيرة والمغازي والطبقات الأولى، مدرسة علمية تختلف عن رواية الأخبار والأنساب، وتقوم في جوهرها على الإيجاز، وعلى الاقتصار على ذكر الحادثة وذكر الاسم وسرد النسب، وعلى ترتيب الأعلام في طبقات، وذكر ما بين يدي المؤلف عن كل عَلَم، وهو قليل، بل إنه أحياناً لا يتجاوز ذكر الاسم من غير ذكر شيء عنه؟

هاتان ثنتان، أما الثالثة فهي: هل نستطيع أن نذهب الى أن رواية الأخبار سارت في طريقين مختلفين، أولهما: مزج هذه الأخبار بقدر من القصص والسمر للتسلية أو المنادمة أو للموعظة: للخلفاء والولاة، أو لعامة الناس. وخاصة حين تكون هذه الأخبار عن الأمم القديمة أو البائدة ـ وفي ذكر قصصها: متعة وفائدة وتشويق وإثارة وتعجيب من أمورهم ـ أو حين تكون هذه الأخبار عن مجد هذه الأمة، وعن انتشار دينها، و بطولات الصحابة، للتذكير بهذه المفاخر الجماعية وبمناقب الأفراد وشمائلهم ومواقفهم ـ بعد نحو قرنين من حوادث هذه الفتوح، والناس لا يزالون مرابطين في الثغور، والأعداء يتربصون بهم من الخارج، والفتن تتحرّك بينهم من الداخل، وكلما امتدّ الزمن إلى أن يصل الى الحروب الصليبية، زاد تربّص الأعداء وزاد انتشار الفتن، وزاد معهما الغلوّ والمبالغة في القصص والحوار والوقائع وفي عدد المتحاربين والقتلى وخاصة بين الأعداء. تحميساً للناس، وإبرازاً للأسوة المتمثلة في السلف، وحثّاً للخلف على الإقتداء بهم.

أما الطريق الثاني فهو القصد في رواية القصص وفي الحوار، وإغفال المبالغات في تفصيلات الوقائع وفي عدد المحاربين والقتلى، والإضراب عن ذكر كل ما تسلّل من خلال تلك القصص مما لم يثبت عند الرواة المحققين من المتقدمين، والاعتدال في كل ذلك والاقتصار على أقلّ القصص لتوضيح الرواية حين تكون مجرّده، أو الخبر حين يكون مقتضباً.

فإذا كان هذا كله على الوجه الذي بيّناه، وإذا صحّت هذه التقسيمات والآراء، فهل نستطيع أن نقول أن كتاب الواقدي «فتوح الشام» الذي بين أيدينا هو في أصله وجوهره صحيح النسبة للواقدي، وأن قَدْراً من قصصه وأخباره صحيح، وأنه وقع بعد ذلك في يدي قاصّ أو أيدي قُصّاص في عصور تالية سادت فيها الحروب والفتن، فشاقهم أسلوب الكتاب، وهزّ مشاعرهم، ورأوا أنه يفيدهم في عملهم في «الدروس» و «الوعظ» و «القصّ» وإثارة الحماسة في نفوس الناس، فاتخذوه أصلاً، وزادوا فيه وتوسّعوا و بالغوا،

فاختلطت الزيادة بالأصل حتى طغت عليه، وأضعفت الثقة به، وجعلت الباحثين المُحْدَثين ينفون نسبته إلى الواقدي.

وانّما قلنا ما قلنا عن «الأصل الصحيح» في هذا الكتاب لثلاثة أسباب، أولها: ما ذكرناه من أن مزج الأخبار بقَدْر معتدل من القصص كان أسلوباً متَّبَعاً أو مدرسة قائمة. وفي هذه الحالة، إذا صحَّ ما ذهبنا إليه، فإن رأس هذه المدرسة هو الواقدي، وأوسطها الأزدي، وختامها ابن أعثم، على ما بينهم من تفاوت وتدرّج في الزيادة. وثاني هذه الأسباب: أن الأخبار «المجرّدة» في كتاب فتوح الشام للواقدي — وفي الأزدي وابن أعثم — والأحداث الأصلية والأسماء والسنوات، صحيحة متفقة مع ما ورد في أصحّ المصادر والروايات الأخرى، عدا ما استدرجته القصص المزيدة الموضوعة في ثناياها من أسماء وحوادث واضحة الزيف والوضع. وثالث هذه الأسباب: أن الواقدي — فيما يبدو — كانت تغلب عليه الطبيعة القصصية. وليس هنا مجال التفصيل والاستكثار من الأدلّة على ذلك، وبحسبنا أن نشير إلى ما ذكره الواقدي عن نفسه، وعن بداية صلته بيحيى بن خالد، وعن مرافقته لهارون الرشيد في المدينة وما فيها من مشاهد ومن قبور الشهداء، ثم خبر رحلته إلى العراق للقاء يحيى، ورحلته إلى الشام ليلحق به هناك إذ لم يجده في العراق، إلى آخر هذا الخبر الواحد المتصل المتسلسل[38]. ففيما ذكره الواقدي عن نفسه ورحلتيه أجلى مثال على أسلوبه القصصي بما فيه من تتبع للتفصيلات الدقيقة، وذكرٍ للحوادث والوقائع الجَزئية الصغيرة، وعَقْدٍ للحوار بين الأشخاص، وتشويقٍ للسامع وشدٍّ لانتباهه، بل أكاد أقول: بما في هذا الأسلوب من تفصيلات تكاد تكون من الزيادة الموضوعة أو المتخيّلة، أو التي تستعيدها الذاكرة بعد زمن، للوصل بين أجزاء القصة المتفرّقة، وربطها معاً في نسق متسلسل. ومع ذلك فإن هذه الزيادات لا تنفي صحّة ما فيها من أخبار في جوهرها. بل ما لنا نذهب بعيداً، ونحن نجد أصول هذه القصص — التي تكاد نفوسنا أن تطمئن إلى صحتها — مبثوثة فيما رواه ابن سعد عن الواقدي نفسه في «الطبقات». وهي كذلك في تاريخ الطبري من روايات متعددة.

والأمر — لا شك — يحتاج إلى مزيد من البحث والتمحيص، وقد تكشف لنا الأيام عن نسخة صحيحة موثَّقة من أصل كتاب «فتوح الشام» للواقدي، وهو الكتاب

38. ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٢٥ — ٣٣

الذي نصّ كثير من القدماء على أنه مما ألّف ونسبوه إليه، وحينئذ نُزيل الشكّ باليقين، ونُصْدِر الأحكام القاطعة أو الشبيهة بالقاطعة، بعد أن أوردنا في الصفحات السابقة «آراء» و «ترجيحات» أوّلية نضعها بين أيدي الدارسين.

(٤)

وآخر كتب «الفتوح» التي وصلت الينا، وخاتمتها، هو «فتوح البلدان»[39] للبلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ، أخذ في العراق عن عدد من الشيوخ منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠ هـ) ثم توجّه إلى الشام، فسمع في دمشق نفراً من علمائها، وطاف في بلاد الشام، فزار حمص، ثم حلب ومنبج وأنطاكية، وثغور الروم، والجزيرة والرقّة وتكريت، وأخذ عن أهل هذه البلاد كثيراً من أخبار فتوحهم وأثبتها في كتابه إلى جانب أخبارٍ أخرى[40].

بدأ كتابه بقوله[41]: «أخبرني جماعة من أهل العلم بالحديث والسيرة وفتوح البلدان، سقت حديثهم، واختصرته، ورددت من بعضه على بعض أنَّ...». وهذه البداية تدل على أمور ثلاثة:

الأول: أن رواته في كتابه فتوح البلدان هم من: رجال الحديث، وأهل السيرة، ورواة أخبار الفتوح المؤرخين. وقد وضّحنا قبل صفحات اختلاف مناهج هذه الطبقات الثلاث.

والثاني: أن البلاذري جمع حديثهم معاً، وساقه متداخلاً، فلم يشر عند كل خبر أو مجموعة أخبار الى سنده من الراوية أو الرواة، الاّ في حالات.

والثالث: أنه «اختصر» أحاديثهم فلم يوردها كاملة على ما وجدها في كتبهم أو سمعها من رواته. وذلك يعني لنا — بعد الذي قدّمناه عن أساليب رواة الأخبار والفتوح في

39. البلاذري، فتوح البلدان، نشر صلاح الدين المنجد. وقد عرفنا بالكتاب فيما سبق.

40. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣ — ١٤، مقدمة الناشر.

41. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١.

مزج الأخبار بالقصص ـ أنه حذف كثيراً من تلك القصص، وهذا يجعله من أصحاب الطريق الثاني الذي أشرنا اليه في الفصل السابق، وهوطريق الذين اختاروا القصد والاعتدال والاختصار.

وحين نحصر حديثنا في مصادر البلاذري ورواته عن وقعة أجنادين وحدها نراه يكتب عنها صفحة ونصف الصفحة (٤٢)، ثم لا يزيد عليهما الا ثلاثة مواضع ذكر فيها أجنادين ذكراً عابراً بمناسبات أخرى. وقد بدأ حديثه عن أجنادين بسرد أخبارها دون أن يذكر راويته، وأكثرَ ـ في درج الكلام عند الحديث عن شهداء أجنادين والاختلاف في مكان استشهاد بعضهم ـ من تكرار: «و يقال» أو «قالوا»، دون نسبة القول إلى قائل، ما عدا خبراً واحداً أسنده إلى هشام بن محمد الكلبي.

وفي موضع من المواضع الثلاثة الأخرى قال (٤٣) «وفي رواية أبي مِخْنَف أن وقعة المرج (يقصد مرج الصُّفَّر) بعد أجنادين بعشرين ليلة وأن فتح مدينة دمشق بعدها، ثم بعد فتح مدينة دمشق وقعة فِحْل. ورواية الواقدي أثبت». هكذا دون أن يكون قد ذكر من قبلُ روايةَ الواقدي على وجه التخصيص، فكأنه كان في حديثه السابق ـ الذي جعل فيه وقعة فِحْل بعد أجنادين، ثم فتح الأردن، ثم مرج الصُّفَّر ثم دمشق ـ يروى عن الواقدي دون أن يذكره ذكراً صريحاً الا عَرَضاً في خبر صغير. فقد ذكر في حديثه السابق أخبار فتح الأردن (٤٤) عن: حفص بن عمر العمري عن الهيثم بن عدي، وعن: أبي حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي، وعن: أبي حفص عن أبي محمد سعيد بن عبد العزيز، وعن: أبي اليسع الأنطاكي عن أبيه عن مشايخ أهل أنطاكية والأردن، وعن: محمد بن سعد عن الواقدي، وعن: هشام بن الليث الصُّوري عن مشايخ من أهل الشام، وعن: محمد بن سهم الأنطاكي عن مشايخ أدركهم، وعن: الواقدي. كل ذلك في ثلاث صفحات ليس غير، وعن فتح الأردن وحده.

ونرى هنا تفاوت طريقة البلاذري، فقد أسهب كثيراً في ذكر رواته عن فتح الأردن، في حين حذف هؤلاء الرواة عند ذكره لأخبار أجنادين. ونراه كذلك قد قبِل من

٤٢ . البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

٤٣ . البلاذري، فتوح البلدان، ج ١، ص ١٤١.

٤٤ . البلاذري، فتوح البلدان، ج ١، ص ١٣٨ ـ ١٤٠.

رواته أن يرووا عن مجاهيل مثل «مشايخ أهل أنطاكية والأردن» و «مشايخ من أهل الشام» و «مشايخ أدركهم»! ثم نراه أيضاً قد روى عن الواقدي مباشرة دون وسيط، وروى عنه أيضاً من طريق تلميذه وكاتبه محمد بن سعد، في صفحة واحدة.

وفي موضع ثان من هذه المواضع الأخرى نراه يقول: «وحدثني محمد بن سعد، قال: حدثني الواقدي قال: اختُلِف علينا في أمر قيسارية فقال قائلون: فتحها معاوية، وقال آخرون: بل فتحها عياض بن غَنْم بعد وفاة أبي عبيدة وهو خليفته، وقال قائلون: بل فتحها عمرو بن العاص، وقال قائلون: خرج عمرو بن العاص الى مصر وخلّف ابنه عبد الله. فكان **التَّثبت من ذلك** والذي **اجتمع عليه العلماء** أن أول الناس الذي حاصرها عمرو بن العاص، نزل عليها **في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة.** فكان يقيم عليها ما أقام، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوّهم سار اليهم، **فشهد أجنادين** وفِحْل والمرج ودمشق واليرموك، ثم رجع الى فلسطين فحاصرها بعد إيلياء، ثم خرج الى مصر من قيسارية .... وقال غير الواقدي..»

ومع أن الحديث هنا عن غير أجنادين، وقد جاء ذكرها عرضاً، غير أننا رأينا أن نورد هذا النص كاملاً لأنه يظهر خصائص البلاذري والواقدي في روايتهما للأخبار، وجمعهما للأقوال المختلفة، ثم محاولة اختيار واحد منها والقطع بأنه الرأي الثبت. وهذا النص وحده يعود بنا الى حقيقة قيمة مصادرنا العربية الإسلامية ورواياتها التاريخية وما فيها من شمول واستقصاء، ومن تحرٍّ وضبط.

وبعد كتب «الفتوح» ـ التي كان آخر ما وصل الينا منها كتاب البلاذري ـ تبدأ كتب التاريخ العام. وسنقتصر في حديثنا على ما بين أيدينا من كتب القرن الثالث الهجري وحده، اذ أن الكتب التالية ـ على عظيم نفعها ـ إنما اعتمدت، أكثر ما اعتمدت، على مؤلفي المصادر السابقة ورواتها. ومع ذلك فسنشير إلى ما فيها من روايات حين الحديث عما ورد فيها من أخبار أجنادين، وذلك في الفصل التالي، وكذلك سنشير فيه الى من عاصر مؤلفي كتب الفتوح ولم يكتبوا فيها ولا في التاريخ العام، وإنما ألّفوا في الأخبار والأنساب والأدب كابن حبيب.

وأسبق المؤرّخين زمناً ـ فيما وصلنا ـ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) يليه أبو زرعة الدمشقي (ت ٢٨١ هـ) ثم ابن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) وآخرهم وأغزرهم مادة أبو

جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ).

أما أبو عمرو، خليفة بن خياط العصفري، الملقب ب «شَبَاب»، فكتابه تاريخ خليفة بن خياط [٤٥] أقدم تاريخ حولي، مرتب على السنوات، وصل إلينا بعد ضياع الحوليات التي كتبت قبله، روى عن جمع غفير من العلماء [٤٦]، وروى عنه جماعة منهم: البخاري في صحيحه، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبو يعلى الموصلي. وثّقه بن حِبّان وقال عنه: «كان متقناً عالماً بأيام الناس وأنسابهم» ووثّقه أيضاً ابن خلكان في ترجمته في «الوَفَيات» وابن الأثير في «اللباب» والذهبي في «تذكرة الحفاظ»، وأعادوا أوصاف ابن حِبّان وعبارته وتوسعوا فيها [٤٧]. وخليفة بن خياط يكثر من الإسناد فيما يروي من أخبار، و يلتزمه فيما يروي من حديث نبوي. ولم يذكر عن أجنادين الآ أربعة أخبار روى اثنين منها عن ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ) من طريق بكر بن سليمان البصري الأسواري، وهو شيخ خليفة و يذكره بقوله «حدثنا بكر»، وعنهما نقل أكثر أخبار سنة ١٣ هـ. وأضاف خبرين قصيرين، أحدهما عن ابن الكلبي (ت ٢٠٤ هـ)، والآخر عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ) وهؤلاء جميعاً ثقات أثبات في الأخبار والأنساب.

وأما أبو زُرْعة الدمشقي [٤٨] فقد أكثروا من توثيقه ووصفه بالحافظ الثَّبْت، وقال عنه أبو بكر الخلّال [٤٩]: «إمام في زمانه، رفيع القدر، حافظ، عالم بالحديث والرجال، وصنّف من حديث الشام ما لم يصنّفه أحد...». وممن روى عنه بعضُ أقرانه مثل: أبي داود السجستاني صاحب السنن، وأبي حاتم الرازي، وأما من روى عنه من تلامذته فعدد كبير [٥٠]، ونقل عنه من كتابه جمع غفير من العلماء والمؤلفين بعده، منهم: القاضي عبد الجبار الخولاني (ت بعد ٣٧٥هـ) في «تاريخ داريّا» والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في

٤٥ . ابن الخياط، خليفة (٢٤٠ هـ/ ٨٥٤م) التاريخ ٢ج، تحقيق اكرم ضياء العمري، دار القلم ومؤسسة الرسالة بيروت، طبعة ثانية ١٩٧٧ م، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خياط، التاريخ.

٤٦ . ابن خياط، التاريخ، مقدمة المحقق، ص ٦.

٤٧ . ابن خياط، التاريخ، مقدمة المحقق، ص ١.

٤٨ . الحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري «بالنون».

٤٩ . أبو زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو النصري ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣م)، التاريخ، ٢ج، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠، مقدمة المحقق، ص ٤٣ ــ ٤٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبي زرعة، التاريخ.

عدد من كتبه منها «تاريخ بغداد»، وابن عبد البرّ (ت ٤٦٣ هـ) في عدد من كتبه منها «الاستيعاب»، وابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) الذي اقتبس معظم تاريخ أبي زرعة في كتابه «تاريخ مدينة دمشق»، والذهبي (ت ٧٤٨هـ) في عدد من كتبه منها «تاريخ الإسلام» و «سير أعلام النبلاء» و «ميزان الاعتدال»، وابن حجر (ت ٨٥٢هـ) وغيرهم كثير [٥١]. وقد تضمّن كتابه «التاريخ» [٥٢] أسانيد تزيد على ألفين ومئتين وخمسين [٥٣]، كلها موصولة سوى بضعة منها، وقد أكثر في هذا الكتاب من الإسناد حتى لا يكاد يذكر نصاً إلاّ أسنده الى صاحبه.

ولم يرد ذكر أجنادين في تاريخ أبي زرعة الآ في أربعة مواضع لم تزد كلها على جمل معدودات في أسطر قليلة، روى الخبر الأول والثاني [٥٤] بقوله: «حدثني عبد الرحمن ابن ابراهيم قال: حدثني الوليد بن مسلم قال: حدثني الأموي..» وعبد الرحمن بن ابراهيم هو ابن عمرو الأموي الدمشقي الملقب بدُحَيم محدّث الشام في عصره (١٧٠ ــ ٢٤٥ هـ)، والوليد بن مسلم هو أبو العباس الأموي الدمشقي (١١٩ ــ ١٩٤)، وكلاهما من مشاهير علماء الشام. أما الخبر الثالث [٥٥] فيرويه عن طريقهما وفيه يقول الوليد بن مسلم: «سمعت أبا عمرو الأوزاعي وغيره من أشياخنا يقولون...» والأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو عالم الشام وإمامها الأشهر (٨٨ ــ ١٥٧ هـ) وفي الموضع الأخير [٥٦] يذكر زمن أجنادين ومكانها و يسميّ عدداً ممن قُتِل فيها، و يقول في آخر الخبر الذي استغرق خمسة أسطر «إلى هنا عن أحمد بن حنبل» وهو الإمام المشهور صاحب المسند (١٦٤ ــ ٢٤١ هـ).

وليس أوثق من هؤلاء العلماء الذين روى عنهم أبو زرعة في إسناده، وإن كان هذا الإسناد ــ في وقعة أجنادين ــ لا يرقى إلى من عاصر الحادثة نفسها.

٥٠ . المصدر السابق، ص ٧٨ ــ ٨١.

٥١ . المصدر السابق، ص ١١٢ ــ ١١٨.

٥٢ . تحقيق شكر الله بن نعمة القوجاني، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٠م.

٥٣ . مقدمة محقق تاريخ أبي زرعة، ص ١٢٨.

٥٤ . أبو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ١٧١، ص ١٧٢.

٥٥ . أبو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ١٧٣.

٥٦ . أبو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ٢١٦ ــ ٢١٧.

أما ابن واضح اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ)، فإن الجزء الأول من تاريخه المطبوع [57] بين أيدينا ناقص في بدايته وليست له مقدّمة، وليس في أخباره إسناد، يضمّ هذا الجزء التاريخ من بدء الخليقة حتى نهاية العصر الجاهلي. ولكن الجزء بدأ بمقدمة ذكر فيها اليعقوبي طريقته في الإسناد والرواية قال [58]: «إنه لما انقضى كتابنا الأول الذي اختصرنا فيه إبتداء كون الدنيا وأخبار الأوائل من الأمم المتقدمة والممالك المفترقة والأسباب المتشعّبة ألّفنا كتابنا هذا على ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السِّيَر والأخبار والتأريخات، ولم نذهب إلى التفرّد بكتاب نصنّفه ونتكلّف منه ما قد سبقنا إليه غيرنا، لكنا قد ذهبنا إلى جمع المقالات والروايات لأنا قد وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم في السنين والأعمال، وزاد بعضهم ونقص بعض، فأردنا أن نجمع ما انتهى إلينا مما جاء به كل امرىء منهم، لأن الواحد لا يحيط بكل العلم.... وكان مَنْ رو ينا عنه ما في هذا الكتاب: إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي عن أشياخ بني هاشم، وأبو البَخْتَرِيّ وهب بن وهب القرشي عن جعفر بن محمد وغيره من رجاله، وأبان بن عثمان عن جعفر بن محمد، ومحمد بن عمر الواقدي عن موسى بن عقبة وغيره من رجاله، وعبد الملك بن هشام عن زياد بن عبد الله البكّائي عن محمد بن إسحاق المطّلبيّ، وأبو حسّان الزيادي عن أبي المنذر الكلبي وغيره من رجاله، وعيسى بن يزيد بن دأب، والهيثم بن عدّي الطائفي عن عبد الله بن عباس الهمداني، ومحمد بن كثير القرشي عن أبي صالح وغيره من رجاله، وعلي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني، وأبو معشر المدني، ومحمد بن موسى الخوارزمي المنجم، وما شاء الله الحاسب في طوالع السنين والأوقات. وأثبتنا عن غير هؤلاء الذين سمّينا جُمَلا جاء بها غيرهم ورواها سواهم... وجعلناه كتاباً مختصراً، حذفنا منه الأشعار وتطويل الأخبار...».

وليس في تاريخ اليعقوبي ذكر لوقعة أجنادين إلاّ في موضع واحد [59]، جمع فيه ثلاثة أخبار، دون أن يذكر راو يتها.

---

٥٧. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (٢٩٢ هـ/٩٠٤م) التاريخ، ٢ ج، نشر دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، التاريخ.

٥٨. اليعقوبي، التاريخ، ص ٥—٦.

٥٩. اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ص ١٣٤.

وهكذا نرى أن هذه المصادر الثلاثة تحتفل بالإسناد احتفالا شديداً وتنصّ على رواتها نصّا صريحا، ولكنها بعد ذلك تختلف: فمنها ما يفرّق رواته على الأخبار ويحرص على ذكر إسناده قبل كل خبر، ومنها ما يجمع أسانيده ورواته معا و يذكرها جملة واحدة ولكنه لا يحرص على نسبة كل خبر مفرد إلي راو يته. وكنّا قد رأينا في كتب الفتوح هذين الأسلوبين معا، التقيا هناك كما التقيا هنا. ولا بدّ لنا أيضا من أن نشير إلى أن الرواية في هذه الكتب الثلاثة لا ترتفع إلى زمن الحادثة نفسها، ولكن الراو ية الأخير في أسانيد هذه المصادر معروف الطريق في الرواية، فذِكْرُ اسمه في السند يدلّ — في الأغلب الأعمّ — على الذي يروي عنه إلى زمن الفتوح نفسها.

وأمر ثالث يجمع بين هذه المصادر الثلاثة وهو الذي عبّر عنه ابن واضح اليعقوبي في آخر مقدمته التي اقتبسناها قبل قليل بقوله عن كتابه «وجعلناه كتاباً مختصراً، حذفنا منه الأشعار وتطو يل الأخبار...» و يبدو لي أنه قصد بقوله «تطو يل الأخبار» القصص والسمر التي حفلت بها بعض المصادر الأخرى على ما رأينا في الصفحات السابقة. وكأنما يوحي قوله بأن الأصل هو وجود تلك الأشعار والأخبار القصصية، وأنه حذفها طلباً للاختصار. وهذا الضرب من المصادر المجّردة من الأشعار ومن القصص عرفناه في كتب الفتوح وكان اتجاهاً واضحاً جمع عدداً من المصادر في طريق واحد كان أشبه شيء بالمدرسة العلمية المتميزة عن مدرسة المصادر الشاملة للأشعار والقصص.

بقي بعد كل هذا أن نختم حديثنا عن تحليل المصادر والروايات بذكر شيء موجز عن «تاريخ الرسل والملوك» [60] لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) إذا كثرت الكتابات عن المؤلف وعن رواة تاريخه فأغنتنا عن تكرار ما قالوه، غير أننا سنحصر حديثنا فيما ورد فيه عن وقعة أجنادين وحدها لا نتجاوزها.

أورد ابن جرير الطبري ذكر وقعة أجنادين في موضوعين من تاريخه بينهما نحو مئتي صفحة في الكتاب المطبوع [61]. وروى أخبار الوقعة في الموضع الأول عن ابن إسحاق

---

٦٠. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٣م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، التاريخ.

٦١. الطبري، التاريخ، الموضع الأول: ص ٤١٧ الى ٤١٩، والثاني ص ٦٠٥، ٦٠٧.

(ت ١٥١ هـ)، وعن المدائني (ت ٢٢٥ هـ)، وفي الموضع الثاني عن سيف بن عمر (ت ٢٠٠ هـ).

أما روايته عن ابن إسحاق فقد جاءت عن طريق ما حدّثه ابنه ابن حُمَيْد (محمد بن حُمَيْد بن حيان الرازي ت ٢٤٨ هـ) عم مسلمة (بن الفضل). أما محمد بن إسحاق فجاءت روايته من طريقين: روى الطريق الأول(٦٢) عن: صالح بن كيسان (نحو ٤٠ — ١٤٠ هـ)، والثاني(٦٣) عن: محمد بن جعفر بن الزبير، عن: عروة بن الزبير (٢٢ — ٩٣ هـ). أما المدائني فقد حدّث أبو زيد عمر بن شبّة (ت ٢٦٢ هـ) الطبريَّ عنه، وروى هو عن أبي معشر نُجَيْح السّندى (ت ١٧٠ هـ) وآخرين، عن مشيختهم.

أما سيف بن عمر، فقد كتب أخباره إلى الطبري: السريُّ عن شعيب(٦٤). ثم روى سيف عن أبي عثمان (يزيد بن أُسَيْد الغسّاني) وأبي حارثة محرز العبشمي، اللذين رويا عن: خالد (بن مُعْدان بن أبي كرب الكلاعي (ت ١٠٤ هـ) وعبادة (بن نُسَيّ الكندي الشامي الأردني(٦٥) (ت ١١٨ هـ).

وأول ما نلحظه في هذه الأسانيد أنها كلّها لا تنتهي إلى معاصر للحوادث نفسها، وإنما تقف قبل زمنها براوية أو براويتين. ولكن الأمر هنا شبيه بما ذكرناه قبل قليل، وهو أن طريق رواية ابن إسحاق والمدائني وسيف، معروفة، و يستطيع الباحث أن يكمل الراوية أو الراويتين بين نهاية الإسناد في هذه الأخبار وزمن الحادثة، على وجه اليقين أو على وجه الترجيح. وجميع المذكورين من الرواة في هذه الأسانيد هم من الذين وثّقهم أهل العلم من القدماء، ولم يطعن عليهم أحد يُعْتَدّ برأيه.

وفي تاريخ الطبري من القصص والأشعار كثير مما جاء في «فتوح الشام» للأزدي، و«كتاب الفتوح» لابن أعثم، وقدْرٌ غير يسير مما جاء في «فتوح الشام» للواقدي

٦٢ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٥ و٤١٥.

٦٣ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤١٧.

٦٤ . الطبري، التاريخ، أنظر أمثلة على ذلك، ج ٣، ص ٤٠٧، وص ٤٠٩، وص ٤١٠.

٦٥ . قاضي طبرية، ينعت بسيد أهل الأردن.

(المطبوع) — وقد مضى حديثنا المفصّل عن هذه المصادر الثلاثة — وتكاد الأشعار تتفق في الطبري وفيما جاء في تلك المصادر، ما عدا ما يقتضيه اختلاف الرواية في كلمات معدودات مما نعرفه في رواية شعرنا العربي عامة، وتكاد القصص أن تكون هي نفسها بما فيها من حكاية وحوار وأسماء — ما عدا المبالغات التي زيدت على فتوح الواقدي — بل تكاد الجمل والكلمات تتكرر في هذه المصادر كلها. ولا سبيل إلى ضرب الأمثلة ففي ذلك توّسع لا يحتمله البحث، ولكن المصادر كلها مطبوعة مبذولة للباحثين، يستطيع من شاء أن يرجع اليها.

ومع هذا الاتفاق العجيب في أصول الأخبار والأشعار والقصص بنصوصها، فقد كان لا بدّ من شيء من الاختلاف في النقص والزيادة، وفي الاختصار والتطويل، وفي الاعتدال والمبالغة. واتفاق الأخبار والأشعار والقصص في أصولها وعمومها، مع تعدّد طرق الرواية واختلاف رجال الأسانيد، أمر لا بدّ من أن يستوقف الباحث، و يدعوه إلى أن يرى في هذا التواتر سببا لترجيح الثقة، فهي — على اختلافها — يسند بعضها بعضا و يقوّيه.

(٥)

وحسبنا ما قدّمنا من دراسة تحليلية لهذه المصادر والروايات، وعسى أن يكون فيها غُنْية ومُقْنَع لمن يكتفي بها، وأن تكون بدءا ومنطلقا لمن أراد التوسع وطلب الزيادة، وسنحاول في الصفحات التالية أن نعرض — عرض مقابلة وموازنة — ما في هذه المصادر من أخبار عن أجنادين تتناول: موقعها، وزمنها، وقادة جيوشها، وشهداءها، و بعض الأشعار التي قيلت فيها(٦٦).

وقد أسهب بعض المُحْدَثين في إبراز الاختلافات بين المؤرخين المسلمين في كل

٦٦ . اتسع البحث وطالت مناقشته بما لا يعين على استيفاء هذه الموضوعات كلها في مثل هذا المجال، وسنقتصر منها على الموقع والزمن، وعلى الله أن يعين على مواصلة البحث في أحوال أخرى.

ذلك (٦٧). و يبدو لنا أن هذه الاختلافات أمر طبيعي، لا مفر منه، حين يتعدّد الرواة و يصل إلى بعضهم ما لا يصل إلى سواهم، ويحرص كل واحد على روايةِ ما بَلَغه وتدو ينِه. بل إن الراو ية الواحد قد يذكر أحياناً روايتين مختلفتين أو ثلاث روايات مختلفة عن خبر واحد، لأنها وصلت إليه كذلك، فوجد من الأمانة العلمية أن يرو يها كما وصلت إليه، وقد يناقشها ويختار منها ما يعتقد أنه الصحيح الثبت، وقد يتركها كما رواها من غير مناقشة ولا ترجيح لرواية على أخرى.

أما موقع أجنادين، فلم أر أحدا من الرواة الأوائل وأصحاب المصادر التي عرضناها يورد تحديدا للموقع مخالفا لما حدّده غيرُه (٦٨). فهم يذكرون أجنادين أحيانا ذكرا مجرّدا دون تعريف ولا تحديد، إما لأنّ المكان مشهور معروف لهم حينئذ، وإما لأنهم في مواضع أخرى من رواياتهم حدّدوه بما يغنيهم عن تكرار هذا التحديد في كل مرّة.

فابن إسحاق (ت ١٥١ هـ) يذكرها مرتين (٦٩) في السيرة و يعرّفها بأنها «من أرض الشام» و يذكرها مرة ثالثة (٧٠) بغير تعريف.

أما محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) فيما روى عنه تلميذه وكاتبه محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) فقد ذكر أجنادين أو «يوم أجنادين» في «الطبقات» في اثني عشر

٠٦٧ في مقدمة هؤلاء ليوني كايتاني الذي استهلك في مناقشة الروايات عن أجنادين وحدها ما يزيد على سبعين صفحة كبيرة محشوة بالحواشي ذات الحروف الصغيرة، وليس في هذا التعليق ما ينتقص من شأن دراسته ففيها فوائد كثيرة يستفيد منها الباحث.

٠٦٨ قابل هذا بما ذكره طه الهاشمي من قوله:
«واذا كان في معرفة التأريخ الذي وقعت فيه معركة (أجنادين) بعض المشقة، فأن معرفة المحل الذي جرت فيه المعركة أشق !!».
طه الهاشمي، «أجنادين: متى وكيف» مجلة المجمع العلمي العراقي، ج ٢، ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١ م، ص ٦٩ — ١٠٢.
ولعله يقصد معرفة آثار المكان الآن وليس تحديده كما أشار إليه القدماء. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: طه الهاشمي.

٠٦٩ ابن إسحاق، محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م) السيرة النبوية، ٤ ج، تحقيق مصطفى السقا وآخرون مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٦ م/ ١٣٥٥ هـ/، ج ٤، ص ٤، ص ٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن إسحاق، السيرة.

٠٧٠ ابن إسحاق، السيرة، ج ٤، ص ٨.

موضعا (٧١)، لم يعرّفها فيها قط إلاّ في موضع واحد تعريفا عامّا قال (٧٢)، «يوم أجنادين بالشام». أما في كتاب «فتوح الشام» فقد جاءت أخبار أجنادين في نحو عشرين صفحة، من غير أن يرد لها تعريف، لا في الأخبار والقصص التي تبدو وأنها للواقدي ولا في الأخبار والقصص الظاهرةِ الوضع والتلفيق.

وكذلك فعل الأزدي (ت ٢٣١ هـ) في «فتوح الشام» فقد ذكر أجنادين بالاسم في عشرين موضعا (٧٣) وذكر عنها أحاديث وأخباراً في صفحات متعددة، ومع ذلك فإنه لم يعرّفها قط سوى في موضع واحد (٧٤) قال: «كانت وقعة أجنادين أول وقعة عظيمة كانت بالشام».

وشبيه بهؤلاء: ابن أعثم (ت ٣١٤ هـ) الذي ذكر قصص أجنادين وأخبارها في صفحات متتالية لم يعرّف في صفحة واحدة موقع أجنادين، سوى ما ذكره من أمر كتاب خالد بن الوليد إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه يبشّره بفتح أجنادين، ففيه: «إنا لقينا المشركين بموضع من أرض الشام يقال له: أجنادين...» (٧٥).

أما خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) فكان أوّل من حدّد موقعها تحديدا فيه تدقيق، قال (٧٦) «ثم ساروا جميعا قِبَلَ فلسطين، فالتقوا بأجنادين بين الرملة و بين بيت جبرين».

وحين جاء بعده البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) ذكر أجنادين وأخبارها ونفرا ممن استشهد فيها، ولكنه لم يعرّف بها ولم يحدّد موقعها قط.

واكتفى أبو زُرْعة الدمشقي (ت ٢٨١ هـ) بقوله عنها في موضع واحد من المواضع

٠٧١ أبن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ١٢٤، ٢٨٢، ج ٤، ص ٩٨، ١٠١، ١٣٥، ١٩٣ (مرتين)، ١٩٤، ج ٥، ص ٤٤٤، ٤٤٥، ج ٧، ص ٤٠٤ مرتين.

٠٧٢ أبن سعد، الطبقات، ج ٤، ص ١٣٥.

٠٧٣ الأزدي، فتوح الشام، أنظر فهرس أسماء البلاد والأماكن في آخر الكتاب.

٠٧٤ الأزدي، فتوح الشام، ص ٩٣.

٠٧٥ أبن أعثم الكوفي، الفتوح، ج ١، ص ١٤٧.

٠٧٦ خليفة بن خياط، التاريخ، ص ١١٩.

التي ذكرها فيها : «وهي من أرض الشام» (٧٧) .

وحين ذكرها اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) لم يزد على أن وصفها في موضع واحد بقوله (٧٨)«وأجنادين من فلسطين» .

أما الطبري (ت ٣١٠ هـ) فقد جاء في موضع واحد من تاريخه قوله (٧٩) : «وأجنادين بلد بين الرملة و بيت جبرين من أرض فلسطين» . وقد جاء هذا التعريف في دَرْجِ خبرٍ ساقه عن ابن إسحاق، ولا ندري أهو من صلب الخبر فيكون من كلام ابن إسحاق او أحدِ رواته أم زيادة من أبي جعفر نفسهِ للتوضيح .

فاذا كانت أجنادين «بين الرملة و بين بيت جبرين» ، وإذا كانت الرملة و بيت جبرين من فلسطين، وكانت فلسطين من بلاد الشام، فإن هذه الأخبار جميعها متفقة متساندة لا خلاف بينها. وأما أولئك الذين ذكروا أجنادين دون تعريف ولا تحديد فلأنها كانت إلى زمانهم — أو إلى زمن الذين رووا عنهم — بلدة قائمة معروفة المكان. فقد ذكرها أبـن زرعة الدمشقي في تاريخه (٨٠) في حوادث سنة ٦٦ هـ وأشار إلى موقعة جرت فيها سماها «وقيعة أجنادين» ثم ذكرها المسعودي (٨١) وقال عنها إن عبد الملك بن مروان «سار إلى فلسطين و بها ناتل بن قيس على جيش أبن الزبير، فالتقوا بأجنادين، فقُتِلَ ناتل بن قيس وعامّة أصحابه، وانهزم الباقون، ونَمَى خبر قتله وهزيمة الجيش إلى مصعب بن الزبير وهو في الطريق [قادماً من المدينة إلى فلسطين] فولّى راجعا إلى المدينة، ففي ذلك يقول رجل من كلب من المَرْوانية :

٧٧ . أبو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ٢١٦ .

٧٨ . اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ص ١٣٤ .

٧٩ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤١٧ .

٨٠ . أبو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ٢٦٣ .

٨١ . المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م)، مروج الذهب، ٤ ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طباعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٢، ١٩٤٨ م، ج ٣، ص ١٠٥ — ١٠٦ . سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : المسعودي، مروج الذهب .

قَـتَـلْنـا بـأجـنـاديـن سعـدا ونـاتـلا قـصـاصـا بما لاقـى حُـبَـيْشٌ ومـنـذر

وذكر المسعودي أيضا أن هذه الوقعة كانت سنة ٦٦ هـ .

وكذلك ذكرها كثيِّر بن عبد الرحمن (صاحب عزة) الذي توفي سنة ١٠٥ هـ، ودلّ على أنها كانت عامرة مأهولة في زمانه، وذلك قوله (٨٢) :

فإن لم تكُنْ بالشامِ داري مُقيمةً فإنّ بأجناديـنِ ركني ومَسْكَني
منازلَ صِدْقٍ، لم تُغَيَّرْ رسومُها وأُخْرَى بمَيّا فارِقين فَمَوْزَنِ

وذكر أيضا في قصيدة أخرى بقوله (٨٣) :

إلى أهلِ أجناديـنِ من أرضِ مَنْبِجٍ على الهَوْلِ إذ ضَفْرُ القُوَى متلاحِمُ

وهذا موضع للاستقصاء والبحث لمن أراد أن يتابع ذكر أجنادين في المصادر العربية في العهود المتوالية لمعرفة آخر العهد بذكرها، إذا لم يبق لها الآن موقع معروف . وقد

٨٢ . الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م)، معجم البلدان ٥ ج، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م، ج ١، ص ١٠٣، أجنادين. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ياقوت الحموي، معجم البلدان. انظر اختلاف رواية البيتين في البكري، معجم ما استعجم أجنادين .

البكري، أبو عُبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م)، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، ٤ ج، تحقيق مصطفى السقا، ط ١، ١٩٤٥م، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج ١، ص ١١٤ (أجنادين). سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البكري، معجم ما استعجم .

٨٣. البكري، معجم ما استعجم، وعرف «مسكن» في الشعر الأول بأنه من أرض العراق، وهو موضع معسكر مصعب، و به قتل. ثم قال : «يخبر كثير أنه كان مع عبد الملك في حرو به تلك» فلعله في هذا الشعر يشير أيضاً إلى الوقفة التي ذكرها أبو زرعة الدمشقي والمسعودي. أما قول البغدادي في مراصد الاطلاع .

— البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ/١٣٣٨ م)، مراصد الاطلاع في الامكنة والبقاع، ٣ ج، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤ م، ج ١، ص ٣٣، «أجنادين» بالفتح ثم السكون، ونون وألف، وتفتح الدال وتكسر معها النون بلفظ التثنية، وتكسر الدال فتفتح النون بلفظ الجمع... وهو موضع معروف في الشام من فلسطين... «فليس دليلاً على أنه ظل معروفاً الى زمنه» مات البغدادي صاحب المراصد سنة ٧٣٩ هـ، والأرجح أنه يعني أنه موضع معروف في التاريخ الاسلامي بالوقعة التي كانت فيه !! .

ذكر كثير من المحدثين من العرب والمستشرقين أنها في الموضع المعروف اليوم بالجنابة الشرقية والجنابة الغربية، وقد يُطْلَقُ عليهما اسم واحد يجمعهما فيقال لهما «الجنابتين» (٨٤)، ومن هؤلاء المُحْدَثين من يربط بين اسم «أجنادين» واسم «الجنابتين» على أنّ أحدهما محرّف عن الآخر. ومنهم من يرى أن لفظ «أجنادَيْن» بالتثنية، وإمّا هو مثنى «أجناد» وهو جمع جُنْد، وإنما كان ذلك لأن المسلمين الذين اجتمعوا في أجنادين لم يكونوا «جيشاً» أو «جندا» واحداً، وإنما كانوا «جيوشاً» أو «أجناداً» عدّة: فجُنْد بقيادة عمرو بن العاص، وجند بقيادة خالد بن الوليد، وجند بقيادة شرحبيل بن حسنة، وجند بقيادة يزيد بن أبي سفيان، فالتقت هذه «الأجناد» في مكان الوقعة (٨٥). وكذلك كان للروم «جيوش» أو «أجناد»، ذكروا منها جيشا بقيادة «القبقلار» وآخر بقيادة «تَذَارق» وثالث بقيادة وَرْدان. فكان اسم «أجنادَيْن» بالتثنية من التقاء «أجناد» العرب في صف و«أجناد» الروم في مقابلهم، ومعنى ذلك بالضرورة أن هذا الاسم عربيّ، وأنه لم يكن قبل هذه الموقعة، ولكنه أطلق على المكان في أثنائها أو بُعيدَها.

وكل ذلك ينتقل بنا مما كنّا فيه قبل قليل: من النصوص والمصادر الأصلية والروايات الموثقة، إلى الافتراضات التي لا سبيل معها إلى يقين يطمئن الباحث معه. وانما ذكرنا ما ذكرنا، استيفاء لجوانب الموضوع، ولأن بعض المُحْدَثين تطرّقوا إليه، فرأينا أن

---

٨٤ • انظر:
Gibb, H. A. R., Adjnadayn in E.I(2), p.208 — 209.
سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: Adjnadayn
وكذلك أحمد سامح الخالدي، أهل العلم والحكمة في ريف فلسطين، طباعة مكتبة ومطبعة عبد الحميد شومان، ١٩٦٨م، ص ٨١، في الحاشية. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أحمد سامح الخالدي، أهل العلم والحكم.
وفليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٢ج، ١٩٦١م، دار الكشاف للطباعة والنشر، ج ١، ص ٢٠٢ حاشية رقم ٦.

٨٥ • المصادر السابقة كلها أشارت إلى هذا، وأنظر خاصة:
الأزدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٨٨ — ٨٩.
الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤١٧ — ٤١٨.

نشير إلى رأيهم، وإلاّ فإن أصل الموضوع هو أقوال الرواة والمؤرخين المسلمين في المصادر الأصلية حتى نهاية القرن الثالث الهجري عن تحديد موقع أجنادين — وقد رأينا أنهم اتفقوا على ذلك اتفاق إجماع — وكل ما سوى هذا فليس من جوهر الموضوع. وأما المؤرخون الذين تعاقبوا بعد القرن الثالث فليس من حقيقة كلامهم وجوهره ما يخرج بنا عما ذكرناه من أقوال المؤرخين والرواة حتى نهاية القرن الثالث (٨٦)، إذ أنهم إنما نقلوا عنهم وأخذوا منهم.

(٦)

أما زمن هذه الوقعة فقد حرص ابن إسحاق في المواضع الثلاثة التي ذكرها فيها في السيرة (٨٧) على النصّ الصريح على أنها «في خلافة أبي بكر رضي الله عنه».

وأما الواقدي — فيما نقله عنه تلميذه ابن سعد في الطبقات — فقد أعاد النّص على زمنها مرّات كثيرة بصيغ مختلفة تتساند كلّها وتتفق، وهو لا يكاد يترك موضعا يذكر فيه أجنادين إلاّ نصّ على زمن حدوثها، ومن ذلك: «قُتل طُلَيب بن عُمير يوم أجنادين شهيدا في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة...» (٨٨) وقوله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٨٩): «وهو أوّل من فتح الفتوح... فَتَحَ العراق... وكُوَرَ الشام ما خلا أجنادين فإنها فتحت في خلافة أبي بكر الصديق رحمه الله..» ثم يجمع بين الأمرين في موضع ثالث من الكتاب

---

٨٦ • أنظر الأختلاف في كل ما ذكرناه عن موقع أجنادين وعن تسميتها في: مقالة طه الهاشمي، مجلة المجمع العلمي العراقي، ص ٨٧ — ١٠٢، فقد ناقش الهاشمي التفصيلات مناقشة موسعة، ورجع إلى ما أورده دي غويه في مذكرته عن فتح سوريه، وما ذكره كايتاني، وسرد آراء المؤرخين المسلمين المتأخرين وآراء المستشرقين، ومع ما في ذلك من فوائد فرعية فانه قليل الغناء في البحث، لا يبقى معظمه بعد التمحيص، وكثير منه افتراضات لا يؤخذ بها. وما ورد في ص ٨٩ من أن «أبا اسماعيل الأزدي يجعل معركة أجنادين بعد معركة اليرموك» خطأ، والصواب غير ذلك فقد جعل الأزدي وقعة أجنادين سنة ١٣ هـ، واليرموك سنة ١٥ هـ على ما سنوضحه بعد قليل.

٨٧ • ابن إسحاق، السيرة، ج ٤، ص ٤، ٧، ٨.

٨٨ • ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ١٢٤.

٨٩ • المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨٢.

فيقول(٩٠) : «فُقتل يوم أجنادين شهيدا في خلافة أبي بكر الصديق في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة». ومن أوثق هذه النصوص وأوكدها وأصرحها ما رواه ابن سعد عن الواقدي من ثلاث طرق، على الوجه التالي(٩١) :

ـ أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني أبوبكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة، عن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، عن يزيد بن أبي مالك، عن أبي عبيد الله الأودي.

ـ قال محمد بن عمر: وحدثني نُجَيْع أبومعشر، عن محمد بن قيس.

ـ قال محمد بن عمر: وحدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن مَعْدان، / قالوا: كانت أول وقعة بين المسلمين والروم أجنادين وكانت في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة في خلافة أبي بكر الصديق.

ويستمرّ الواقديّ على هذا في بقية الأخبار التي رواها عنه ابن سعد في «الطبقات» لا يختلف ولا يتناقض. ومما يستوقف الباحث أن الواقدي يحدّد زمن هذه الوقعة في كتاب «فتوح الشام» الذي أشرنا في السابق الى ما زاده القصّاص والرواة عليه من تفصيلات مصنوعة موضوعة، فقال(٩٢) «وكانت الوقعة بأجنادين ليله (!) خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية، وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة». وهو اتّساق واتفاق يرجّحان ما ذهبنا اليه منأنّ كثيراً مما في «فتوح الشام» المطبوع صحيح، نستطيع استخراجه من بين الزائد الموضوع لو انصرف أحد الدارسين إلى مقابلته مع المصادر الأخرى.

أما الأزدي فيتّفق مع ابن إسحاق والواقدي في الشهر والسنة، ولكنه يذهب مذهبا أبعد منهما في التحديد والتدقيق، قال(٩٣) : «حدثني محمد بن يوسف، عن ثابت

---

٩٠ . المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠١.

٩١ . المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٤.

٩٢ . الواقدي، فتوح بلاد الشام، ج ١، ص ٦٦.

٩٣ . الأزدي، فتوح الشام، ص ٩٣.

[البُناني] عن سهل بن سعد، قال: كانت وقعة أجنادين أوّل وقعة عظيمة كانت بالشام، وكانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى لليلتين بقيتا منه، يوم السبت نصف النهار، وكانت قبل وفاة أبي بكر رضي الله عنه بأربع وعشرين ليلة».

ويذكر خليفه بن خياط في تاريخه أنها كانت «يوم السبت لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة»(٩٤)، وأنها في خلافة أبي بكر.

ويجمع البلاذري أقوالا مختلفة في نصه(٩٥) : «وكانت وقعة أجنادين يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، ويقال لليلتين خلتا من جمادى الآخرة، ويقال لليلتين بقيتا منه».

أما اليعقوبي فيحدّدها بقوله(٩٦) : «وكانت وقعة أجنادين يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة..»

وقال ابن أعثم(٩٧) : «ثم سار خالد في المسلمين حتى وافى الروم بأجنادين في يوم الجمعة فنزل قبالتهم وذلك في وقت العشاء، فلما أمسى خالد ومضى الليل بعضه إذا جيوش المسلمين قد وافته من جميع المواضع، قال: فأصبح خالد يوم السبت يعبّى أصحابه». ولكنه لا يذكر الشهر ولا السنة وان كان قد ذكر أنها في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأنها قبل وفاته بقليل.

أما الطبري فيروي عن ابن إسحاق أن وقعة أجنادين كانت «في سنة ثلاث عشرة

---

٩٤ . ابن خياط، التاريخ، ج ١، ص ١١٩.

٩٥ . البلاذري، فتوح البلدان، ج ١، ص ١٣٦.

٩٦ . اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ص ١٣٤.

٩٧ . ابن أعثم، الفتوح، ج ١، ص ١٤٥.

لليلتين بقيتا من جمادى الأولى» (٩٨) ثم يذكر رواية المدائني فيقول (٩٩) : فالتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة.

ولكنّ أبا جعفر الطبري رحمه الله تعالى أوقع نفسه وأوقعنا معه في مشكلة كان سببها سيف بن عمر وحِرْصَ الطبري على أداء الأمانة العلمية بجمع الروايات المختلفة التي وصلت إليه. فقد ذكر أن محمد بن إسحاق قال: «كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب، وقال أيضا: كانت فِحْل قبل دمشق... سنة ثلاث عشرة...» وأن الواقدي قال «كما قال ابن إسحاق... وأن وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة..» وأن هرقل جَلا في هذه السنة بعد وقعه اليرموك في شعبان من أنطاكية إلى قسطنطينية، وأنه لم يكن بعد اليرموك وقعة» (١٠٠).

ثم قال ابو جعفر: «وقد مضى ذِكْري ما رُوِي عن سيف، عمّن رَوَى عنه، أن وقعة اليرموك كانت في سنة ثلاث عشرة، وأن المسلمين ورد عليهم البريد بوفاة أبي بكر باليرموك، في اليوم الذي هُزِمت الروم في آخره وأن عمر أمرهم بعد فراغهم من اليرموك بالمسير إلى دمشق، وزعم أن فِحْلا كانت بعد دمشق، وأن حروبا بعد ذلك كانت بين المسلمين والروم سوى ذلك، قبل شخوص هرقل إلى قسطنطينية» (١٠١).

ثم قال: «ونذكر الآن أمر فِحْل إذ كان في الخبر.. ما ذكرتُ من فتوح جند الشام. ومن الأمور التي تُسْتَنكَر وقوُع مثل الاختلاف الذي ذكرته في وقته، لقرب بعض ذلك من بعض» (١٠٢).

وما يورده الطبري بعد ذلك من أخبار عن الفتوح من رواية سيف متداخل

٩٨ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤١٨.

٩٩ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤١٨ — ٤١٩.

١٠٠ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٤١.

١٠١ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٤١.

١٠٢ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٤٢.

مضطرب ليس فيه تحديد لأيام ولا شهور ولا سنوات. ولكن الظاهر منه ذكره الطبري من أن سيفا انفرد وحده بأن جعل فِحْلا بعد دمشق، وجعل أجنادين بعد فِحْل، في حين ذهب ابن إسحاق والواقدي والمدائني، فيما روى الطبري، إلى أن فِحْلا كانت قبل دمشق، وكانت قبلها أجنادين.

وقد حاول بعض المُحْدَثين (١٠٣) الذين كتبوا عن أجنادين أن يوفّقوا بين رواية ابن إسحاق ورواية سيف فذهبوا إلى وجود موقعتين إحداهما هي التي وقعت سنة ثلاث عشرة في آخر خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وتنطبق عليها رواية ابن إسحاق، والثانية هي التي حدثت سنة خمس عشرة — بعد الأولى بسنتين — وتنطبق عليها رواية سيف. وكان رأيهم هذا استنتاجا من اختلاف الروايتين وتنزيهاً لهؤلاء الرواة من الخطأ والاختلاف المستنكر، وذهبوا إلى أن الموقعة الثانية إنما حدثت لأن الروم تجمعوا مرّة أخرى في أجنادين فاضطرّ المسلمون إلى معاودة حربهم.

وهذا كله كلام لا يستقيم، فلو كان الخلاف في تاريخ أجنادين وحدها لاستطعنا أن نجد له التأويل والتخريج، ولكنّ رواية سيف تختلف عن رواية الآخرين جميعاً: ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، والأزدي، وخليفة بن الخياط، والبلاذري، وأبو زُرْعة الدمشقي، وابن واضح اليعقوبي، وابن أعثم الكوفي، اختلافا كبيراً يجعل كثيراً من الوقائع المتقدمة في هذه الروايات متأخرة في رواية سيف، والوقائع المتأخرة هناك متأخرة هنا، مع اضطراب عام في ترتيب حدوثها في نطاق هذا التقديم والتأخير. فإذا كان الافتراض السابق بوجود وقعتين في أجنادين يحلّ مشكلة واحدة، فكيف بالوقائع المتعددة الأخرى التي

١٠٣ . انظر مثلا:
ــ حسن ابراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٢٦ م، ص ٤٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: حسن أبراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص.
ــ ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١ م، ص ٢٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياسين سويد، معارك خالد.

اختلف ترتيبها وتغيّر تاريخها [١٠٤]. ثم لو كان الأمر خاصا بأجنادين وحدها لتنبه لذلك الطبري ولأعفى نفسه من هذا التعبير الذي نفثه والذي يدلّ على الحسرة والاستنكار والحيرة لاتّساع شقة الخلاف بين جميع الروايات الأخرى من جانب ورواية سيف بن عمر وحده من جانب آخر.

ويبدو أنه ليس بين أيدينا الآن وسيلة للتوفيق بين رواية سيف والروايات الأخرى، ولا للتخلص من هذا الاختلاف بل التناقض أو تفسيره. وكل ما نستطيع عمله أن نلخّص ما سبق أن ذكرناه لمزيد من التوضيح: فإذا ما استثنينا رواية سيف فإننا نجد أن الروايات والمصادر الأخرى أجمعت إجماعاً بالنصّ الصريح على أن وقعة أجنادين كانت أولى الوقعات الكبرى في الشام، وأنها حدثت بعد أن فتح المسلمون بصرى وصالحوها على الجزية، وأن خالد بن الوليد وأبا عبيدة كانا يوشكان على التوجّه بالجيش إلى دمشق ولكنهما علما بتجّمع جيوش الروم نحو أجنادين حيث كان يقاتل لمساندة عمرو، وتوجّه اليها أيضا يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة بجيشيهما. وأن وقعة أجنادين كانت في شهر جمادى سنة ثلاث عشرة للهجرة في أواخر خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

كل ذلك موضع إجماع لا شك فيه، ثم تختلف الروايات بعد ذلك في تفصيلات يسيرة، في مثل: أيامٍ من جمادى الأولى أو جمادى الآخرة على الوجه الذي وضحناه قبل قليل في الروايات نفسها. وهو اختلاف يشير إلى صدق هؤلاء الرواة، وصحة رواياتهم، وتواتر مصادر أخبارهم، وإلا لجاءت التفصيلات كلها متطابقة تطابقَ تماثلٍ وتكامل، وحينئذ تكون روايةً واحدة، ليس غير، تناقلَها الرواة واحداً بعد واحد، كالشأن في أكثر الكتب

---

١٠٤ . جاء ترتيب الوقائع في رواية جميع الذين ذكرناهم من رواة ومصادر بغير استثناء — سوى سيف بن عمر — على الوجه التالي:
بصرى (صالحت على الجزية) ثم أجنادين سنة ١٣ هـ، ثم فحل و بيسان، ثم مرج الصفر، ثم دمشق، ثم اليرموك سنة ١٥ هـ، وجاء ترتيب تلك الوقائع في رواية سيف وحده على الوجه التالي:
اليرموك سنة ١٣ هـ (ورد البريد عليهم فيها بوفاة أبي بكر فأمرهم عمر بالمسير إلى دمشق) ثم دمشق، فحل ثم انصرف أبو عبيدة وخالد الى حمص، ونزل عمرو وشرحبيل على بيسان فافتتحاها، واجتمع عسكر الروم بأجنادين.... ثم يورد حديثا مبهما لا ينتهي القارىء منه بشيء ولا يعرف متى بدأت معركة أجنادين ولا كيف أنتهت ولا متى كان ذلك على وجه التحديد.

التي ألّفها أصحابها بعد المصادر التي ذكرناها فنقلوا عنها، إذ لم يكن رواة أو مصادر سواها [١٠٥].

والله سبحانه أعلم، وله الحمد على ما أعان وعلّم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١٠٥ . من المظان التي نستثنيها من هذا الحكم ولم نذكرها في حواشي هذه الدراسة:
— محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ)، في كتابه المنمق ص ٢٢ — ٢٤ وفيه ستة أبيات ذكر ابن حبيب أن قرة بن حجل ابن عبد المطلب قالها يوم أجنادين. وأنظر فيه كذلك ص ٢٦٩، وكتابه المحبر ص ٤٦٠، «كلاهما طبع الهند».
— وابن حزم، علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ) في كتابه الجمهرة، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م، وقد جمع في مواضع منه نفرا من الصحابة الذين استشهدوا يوم أجنادين، ص ١٧، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٦، ٤٥٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، الجمهرة.
— وابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن (٥٧٠ هـ) في كتابه: تاريخ مدينة دمشق (تحقيق شكري فيصل، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٧ م) فقد أورد فيه خبرين عن أجنادين أولهما ص ١٠١، وله قيمة خاصة اذ انه ذكر روايته في اسناد متصل إلى أبي عبيد القاسم بن سلام قال فيه: ان وقعة أجنادين و وقعة مرج الصفر كانتا سنة ثلاث عشرة للهجرة ثم ذكّروا نفراً ممن استشهدوا فيها. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تاريخ مدينة دمشق.

الواقوصه

فواز طوقان
كلية الآداب ــ الجامعة الاردنية

تشكّل أسماء المواقع في بلاد الشام أو الأعلام الجغرافية الوارد ذكرها في أحداث صدر الإسلام، أرضاً خصبة للبحث في موضوع الجغرافية التاريخية. وتعود هذه الأهمية إلى حداثة عهد المناطق تلك بالإسلام و بالتالي، افتراضاً، حداثة عهدها بالعربية. بيد أن الدراسات الحديثة في تاريخ صدر الاسلام، و بخاصة حركة الفتوح الاسلامية، تشير إلى أن تعريب أجزاء واسعة من بلاد الشام كان أسبق من الاسلام بكثير. فمن غير المستبعد اذن أن تكون مواقع عديدة قد اكتسبت أسماءها «الجديدة» من العربية قبل دخول الاسلام اليها.

ليس أقرب إلينا من اسم عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية مثالاً نضرب به على ذلك. فبالرغم من التسمية القديمة (ربة عمون) أو التسمية المستحدثة فيلادلفيا، فان الاسم (عمّان) كان معروفاً عند العرب قبل الفتح، وكان ألصق بالمدينة من غيره (١).

ومع وضوح اللغة العربية وأثرها في تعريب الاعلام الجغرافية (اللامعة) كدمشق و بعلبك وحلب وحمص و بيت المقدس (إيلياء)، قبل الاسلام، فان المشكلة تنشأ في المواقع غير المهمة أو المهملة التي اكتسبت أهمية قصوى في الفتوح أو في صدر الإسلام، كالردغة

---

١. قال الشاعر الأموي الفرزدق:

فحبك أغشاني بلاداً بغيضة ... اليّ وروميا بعمان أقشرا

راجع في هذا البيت، وفي موضوع الاعلام الجغرافية في العصر الأموي دراستنا: الحائر: بحث في القصور الأموية في البادية، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩، ص ٤٦، و ص ٣٢ ــ ٥٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: طوقان: الحائر. ورد حديث نبوي شريف برواية مكحول، فقيه أهل الشام، جاءت فيه كلمة عمّان؛ راجع محمود العابدي، عمان في ماضيها وحاضرها، منشورات أمانة العاصمة، عمان، ١٩٧١. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العابدي، عمان وراجع الاشارة الى هذا الحديث وغيره في: ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩ م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٥ ج، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٣ ــ ١٩٦٥، ج ٣، ص ٣٠٤، «... عرضة من مقامي الى عمّان»؛ ج ٤، ص ٣٠٥، «... لتمخرن الروم...». سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، غريب.

والداثـنـة والـواقـوصة. في هذه الدراسة القصيرة سنكرّس الجهد في تحديد موقع الواقوصة على الخريطة الحديثة، حيث جرت موقعة اليرموك.

مـعـركـة اليرموك حملة عسكرية ضخمة. يخطىء من يظن أنها المعركة الفاصلة التي أديل بـهـا مـن الـروم الى العرب [٢]. ولكن يوم اليرموك هو قمة الاستعراضات والتعرضات العسكرية ما بين الطرفين، تلك التي دامت أشهراً طويلة.

أجمعت المصادر التاريخية على أن المعركة جرت عند اليرموك. واليرموك نهر طويل له روافد عدة. يتقدم من تخوم البادية شرقاً الى أن يصب في نهر الأردن بأسفل بحيرة طبرية، وأغلب سيره على وجه التعميم شرق ـــ غرب. ولهذا فانه يفصل هضبة الجولان عن السهول الشمالية في المملكة الأردنية الهاشمية. ولما كانت العمليات العسكرية في الفتوح تجري في كل بلاد الشام، فان تحديد مواقع المعارك أو لنقل أغلبها جاء دقيقاً، لا سيما المعارك الكبرى. غير أن الحظ لم يحالف معركة اليرموك، اذ أخفق القدامى في تحديد ساحتها، أو أغفلوا ذكره، ولأن اليرموك نهر سحيق الهوة واسع الشقة ما بين ضفتيه، فانه من المستحيل أن تكون المعركة الأخيرة قد جرت بين الطرفين عبر الهوّة.

وهنا يطرح السؤال نفسه: على أي الضفتين جرى القتال؟ وأين المكان بالتحديد؟

للاجابة عن هذا السؤال علينا أن نتفحّص مصدرين للمعلومات، الأول كتب التاريخ وفتوح البلدان، والثاني كتب الجغرافية.

تطرقت كتب التاريخ الى ذكر الواقوصة (أو الياقوصة) على أن المكان جزء من منطقة اليرموك اختاره الروم لأسباب عسكرية محض لا علاقة لها بشيء آخر، كالسكان مثلاً أو العمران أو ما إليه. وانما اختار الروم الواقوصة لأنهم طلبوا بتوجيهٍ من هرقل، منزلاً «واسع العَطَن، واسع المُطّرد، ضيّق المَهْرب..» [٣] والعَطَن، للابل، كالوطن للناس

٢. تجدر الاشارة ههنا إلى أن المؤرخين مختلفون في تحديد تاريخ واحد لهذه المعركة. مثلاً التأريخ الذي يضعه الطبري والتأريخ الذي يضعه ابن كثير، الفارق بينهما سنتان اثنتان.

٣. أنظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، ج ٣، ص ٣٩٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، =

[٤] والمطرد هو مكان الطراد والركض الواسع [٥]. و يشرح الطبري سبب اختيار هذا المكان فيقول: «.. وانّما أراد باهان وأصحابه أن تستفيق الروم و يأنسوا بالمسلمين وترجع اليهم أفئدتهم من طيرتها» [٦] وقد يكون لاختيار قادة الروم هذا المكان علاقة بكثرة العدد واختلاط الأجناس فيه وطغيان الفوضى في جيش كهذا على السكان المحليين كما ذكر الواقدي من قصص بطشهم بالنّاس.

وإذا تتبعنا ما قاله المؤرخون عن الواقوصة كموقع نجدهم لا يسعفوننا في شيء كثير. فأغلبهم تناقل الوصف العام، المربك الغامض، لهذا الموقع. يقول الطبري: «... فنزلوا الواقوصة، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، وهو لهب لا يدرك...» [٧] ويجيء كلام ابن خلدون عن الواقوصة ليؤكد لنا أن القرون المتأخرة هي الأخرى ارتبكت في معرفة محددة للموقع أو وصفه: «وتقسموا بين القتل والطَّرْق في الواقوصة والهُوِيّ في الخندق...» [٨].

يضيف المؤرخون لمعلوماتنا عن الواقوصة ثلاثة أمور أخرى يمكن أن نستدرك منها شيئاً. فعندما «نزل» الروم الواقوصة تقدّم المسلمون نحوهم وحصروهم وسدّوا عليهم

= **تاريخ**؛ وانظر كذلك: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م)، تهذيب تاريخ ابن عساكر، ٧ح، هذبه الشيخ عبد القادر بدران، المكتبة العربية: أحمد عبيد، دمشق، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، ج ١، ص ١٤١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تهذيب. هنا يذكر ابن عساكر الخبر بطريقة مختلفة فيقول: «... منزل جامع واسع حصين...». وانظر: الطبري، **تاريخ**، ج ٣، ص ٤٠٣.

٤. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥ ـــ ١٩٥٦. مادة: عطن. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن منظور، لسان العرب.

٥. المصدر السابق، مادة: طرد.

٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩٣.

٧. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩٣؛ وانظر كذلك: ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ح، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٢٩ ـــ ١٩٣٩، إعادة طبع بالاوفست: دار الفكر العربي، بيروت، لا. ت، ج ٧، ص ٦. يقول ابن كثير: «... فنزلوا الواقوصة، قريباً من اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم» وكما يظهر فالنّص غامض في وصفه. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية.

٨. ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون، ٧ج، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٦ ـــ ١٩٦١، ج ٢، ص ٩٠٠، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، تاريخ. والهُوِيّ مصدر من الفعل هوى يهوي، أي سقط؛ والطَّرْق، مصدر للفعل الثلاثي طَرَقَ يَطْرُقُ، وهو الضرب.

« العقبة » أو المضيق الضيق أو المخرج الذي يصعدون منه الى منزلهم الواسع العطن الواسع المطرد الضيق المهرب. يقول الطبري « ... فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم، وليس للروم طريق إلا عليهم ... فأقاموا بازائهم وعلى طريقهم ومخرجهم ... لا يقدرون من الروم على شيء ويخلصون اليهم، اللّهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم ولا يخرجون خرجة الا أديل المسلمون منهم ... » (٩). والأمر التالي يأتينا من البلاذري: « والياقوصة واد فمه الفوّارة » (١٠).

وأما الأمر الثالث وفيه جملة من المعلومات التي تؤدي إلى الارتباك مجرّداً فقد أورده ابن عساكر في التاريخ المطوّل: (١١) « ... ومنزلهم على نهر الرقّاد ومرج الجولان ... » « ... الوقوف بها مما يلي الرقاد ... » « ... حتى نزلوا خلف اليرموك وجعلوا أذرعات خلف ظهورهم، ونزلت الروم فيما بين دير أيوب (١٢) إلى ما يليها من نهر اليرموك بينهم النهر ... ».

بيد أن المتفرّس في هذه الرواية يرى أنها تتعلّق بالأحداث الموصلة الى الحصار في اليرموك، وليس الأمر متعلّقاً بوقت الحصار أو موضعه. فهذه الرواية المطولة تحكي عن أبي سفيان بن حرب، ومشاركته في الجهاد، يوم اليرموك. ولئن ذُكرت مواضعَ بعينيها خلال السياق، فإنها ذُكرت في معرض تسابق الجمْعَيْن، المسلمين والروم، الى احتلال مكان ملائم، وتعرّضهما الواحد للآخر حتى قرّ بالروم مكان بعينه، سرعان ما حاصرهم المسلمون فيه. هذه الأعلام الجغرافية هي نهر الرقاد ومرج الجولان وأذرعات ودير أيوب. و يستوقفنا

---

٩. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩٣.

١٠. البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، ق ١ تحقيق عبد الله أنيس الطباع وآخر، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧، القسم الأول، ص ١٥٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

١١. ابن عسكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ/١١٧٦م)، **تاريخ مدينة دمشق**، جـ ١، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥١، ج ١، ص ٥٣٢ ــ ٥٣٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ دمشق.

١٢. انظر الحاشية المفصلة في: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٣٣. وراجع: لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ترجمة محمود عمايري، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٧٠، ص ٣٧٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لي سترانج، فلسطين.

في هذه الرواية أمر خالد بن الوليد، فإنها تذكره قائداً لجُملةِ التعرّضات العسكرية التي أجبرت الروم على اللجوء الى « محصرهم ». هذا ونعلم من الروايات الأخرى أن عمرواً حصر الروم ثم كتب الى الخليفة يستنجده، فأرسل إلى خالدٍ في العراق يستحثه على نجدة عمرو في اليرموك! وعليه فإننا أمام روايتين متناقضتين. ولسنا في هذا المقام بإزاء إثبات الرواية التاريخية أو نقضها، أو مناقشتها، وحددنا موقع الروم كما ورد في الأعلام الجغرافية: « بين دير أيوب إلى ما يليها من نهر اليرموك بينهم النهر »، وموقع المسلمين « خلف اليرموك » و « أذرعات خلف ظهورهم »، فإن في الأمر تناقضاً. هنا تكون أذرعات (وهي درعا الحديثة) أمام المسلمين عن شمالهم! أما إذا كانت أذرعات خلف ظهورهم، فإنهم بالضرورة كانوا في مكان ما جنوب نهر اليرموك، والى الغرب من أذرعات.

لندرج الآن المسمّيات أو الأعلام الجغرافية والمعلومات الأخرى التي أخذناها من كتب المؤرخين:

١. الواقوصة أو الياقوصة
٢. اللهب
٣. الخندق
٤. مكان واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب
٥. العقبة أو المضيق أو المخرج أو الطريق الى منزل الروم.
٦. الخروج من الحصار والعودة اليه يكون بمعركة.
٧. الياقوصة واد فمه الفوارة.
٨. أذرعات خلف ظهور المسلمين.
٩. منزلهم ــ أي الروم ــ على نهر الرقاد ومرج الجولان.
١٠. وقوف العرب مما يلي الرقاد.
١١. نزل الروم فيما بين دير أيوب الى ما يليها من نهر اليرموك.

(والمعلومات الأربع الأخيرة عن مصدر واحد هو ابن عساكر).

تلك كانت معلومات أفدناها من كتاب التاريخ وفتوح البلدان وهي المصدر الأول الذي اعتمدنا عليه. أما المصدر الثاني فهي كتب الجغرافيين العرب. و يتبادر الى الذهن أن

حظنا ههنا سيكون أوفر مما كان عليه في كتب التاريخ، إلا أن الأمر أسوأ.

لا يسعفنا الجغرافيون بشيء ذي بال، ولا يضيفون على ما نعلمه أي فائدة، وانما هم في تعاريفهم للواقوصة أو لطبغرافية ساح المعركة عيال على المؤرخين كما يبدو(١٣).

مع هذه المعلومات الكثيرة المضطربة، نعود مرة أخرى الى نقطة البداية ونستشير المؤلفات الحديثة علّها حدّدت موقع المعركة.

هونيكمان، كاتب مادة اليرموك في **الموسوعة الاسلامية**، يشير الى أن المعركة جرت عند التقاء نهر الرقاد باليرموك غير بعيد عن الواقوصة / الياقوصة(١٤).

والباحث الفذ أحمد عادل كمال في كتابه الموسوعي **الطريق إلى دمشق** يجري ذات المجرى و يعتمد على الخرائط الحديثة ليدعم بها رأي ابن عساكر فيجعل ساح المعركة عند سهل الشجرة ما بين نهر الرقاد ووادي علان على الضفة الشمالية لليرموك(١٥).

---

١٣. راجع:

١. الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، ٥ح، تحقيق فستنفلد، ف. أ. بركهاوس، ليبزك، ١٨٦٦ــ ١٨٧٠، إعادة طبع بالأوفست: مكتبة الأسدي، طهران، ١٩٦٥، ج ٤، ص ٨٩٢ و ص ٨٩٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحموي: معجم.

٢. الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، تحقيق فستنفلد، منشورات دروك، جوتنغن، ١٨٤٦، اعادة طبع بالأوفست، لا ناشر، لا تاريخ، ص ٤٣٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا.: الحموي، المشترك.

٣. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، معجم ما استعجم، ٥ح، تحقيق مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ج ٤، ص ٨٩٣ــ ٨٩٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، المشترك.

٤. الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥، ص ٥٩٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحميري، الروض.

١٤. E. Honigmann, "al-Yarmuk," in *Encyclopaedia of Islam*, New Edition, Vol. IV, pp. 1159-1160.

و يعتمد على ثيوفانس في طبعة دي بور (ص ٣٣٢) ومصادر أخرى ذكرها ليحدد هذا التحديد الجغرافي الدقيق لموقع المعركة.

١٥. راجع الخريطة رقم ٢٧، مقابل ص ٤٣٥ والخريطة رقم ٢٨ مقابل ص ٤٤٤، في الكتاب: الطريق الى دمشق، دار النفائس، بيروت،، ١٩٨٠، ص ٤٩٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: كمال، الطريق.

وكذلك حاول السير جون باغوت كلوب في كتابه عن الفتوحات الاسلامية أن يحدد بالخرائط الموقع ذاته، بيد أنه اعتمد أغلب ما اعتمد للأسف على الواقدي، وهو كتاب قصصي أقرب إلى نسيج الخيال منه الى كتاب تاريخي في فتوح البلدان.

وعلة المحدثين في اختلافاتهم أنهم لم يتيقنوا من جملة المعلومات المربكة والمتناقضة التي أوردها المؤرخون القدامى، من جهة، وأنهم لم يقوموا ببحوث ميدانية من جهة ثانية.

مهما يكن من أمر معركة اليرموك وعظم نتائجها أو ضخامة وقائعها، فاننا نرى أن مكان تجمع الروم في معسكر واحد للاختفاء قيد تدريب أفواج المرتزقة واستئناس الأفئدة بعد سلسلة الهزائم السابقة، يقع على الضفة الجنوبية لليرموك، لا الشمالية و بالتحديد في سهل عقربة عند التقاء وادي خالد باليرموك.

لدى مراجعة النصوص، نرى أن المعلومات الزائدة التي يحشدها ابن عساكر على لسان أبي سفيان تحتاج الى كثير من التمحيص وتتناقض مع الوضع الجغرافي لكون (أذرعات) ليست خلف ظهور المسلمين حين حصار الروم أو لقائهم، بل هي على شمالهم الى الأمام، لا إلى الخلف. ولئن ذكر نهر الرقاد أو دير أيوب فانما ذكرهما لا للتحديد بل للاستدلال. فانه قال (مما يلي الرقاد) وقال (فيما بين دير أيوب الى ما يليها من نهر اليرموك بينهم النهر)...

وأما التفصيلات الأخرى التي وردت متفرقة في كتب المؤرخين كاللهب والخندق والعقبة أو المضيق والفوارة فانها معلومات غامضة طالما ظلت حبيسة الورق ولم تجد لها تطبيقاً مادياً على الأرض.

يعرف سكان قرية (عقربة) اليوم الوادي الذي يهوي الى اليرموك باسم (الواقوصة). ومع أن المنطقة كلّها على طول الضفة الجنوبية لليرموك مليئة بالواقصات والألهاب (جمع لهب) فان منطقة أخرى غير هذه لا تحمل ذات الاسم، اللهم إلا القرية السورية (الياقوصة) التي تقع غير بعيد عن فيق إحدى المدن العشر الرومانية. هذا والياقوصة هذه بلدة تقع في السهل، لا لهب يهوي الى أسفل.

من استقراء الخريطة الثانية المرفقة بهذا البحث، ودراسة الكونتورات، نتبيّن أن بلدة الياقوصة تقع على فم منحدر، انحداره حوالي مائة متر بطول خمسمائة متر تقريباً. أما السهل خلفها فواسع مفتوح... ولا تنطبق عليه أوصاف «العقبة» «المضيق» و«ضيّق المهرب». وتتحكّم بلدة الياقوصة بممرّ يُفضي الى منطقة شبهِ سهليةٍ، أي إنها ليست منزلاً «واسع العطن واسع المطرد». وتتجه المنطقة هذه باتجاه الجنوب الغربي ويحصرها ثلا ثة أودية مساحتها حوالي ستة كيلومترات مربعة: اليرموك جنوباً ووادي قديل غرباً، ووادي مسعود شمالاً، وانحداراتها تزيد عن انحدار الياقوصة. هذا وإن برز أهل فلسطين والأردن لجيش المسلمين فإنهم لن يحولوا بين المسلمين وبين مددهم من المدينة، كما جاء في رواية ابن عساكر عن أبي سفيان، لأن سهول حوران تكون مفتوحة خلف المسلمين باتجاه الشمال والشمال الشرقي. كما أن بلدة الياقوصة تقع بعيداً عن دير أيوب... وهي ليست «لهباً» يهوي فيه الواحد ولا يطيق العشرة احتمال هُويّة، كما هي الحال في وصف سقوط الروم المقرّنين في الواقوصة.

وأمام هذين العلمين: القرية واللّهب، اللذين يحملان اسم الياقوصة أو الواقوصة، واحدة شمالي اليرموك وواحدة جنوبيّه، نطرح السؤال التالي: أيهما هو مكان المعركة المشهورة بمعركة اليرموك؟

لا بد لنا من معلومات أخرى تفوق ما ذكر وتعضّد احدى الواقوصتين.

لدى زيارة مطولة، متكررة، لسهل عقربة ومعاينة الموقع عن كثب، على الأرض وفي طائرة هيلوكبتر، عام ١٩٨١، تبين لنا أن سهل عقربة المطل على الواقوصة التي تقع أمام (العقبة) أو (المضيق) هو المكان المنشود. و يزداد اليقين عندما نرى القبور الاسلامية الكثيرة بأسفل الهاو ية أو الواقوصة عند ضفة نهر اليرموك الجنوبية ههنا، ونشاهد بقايا الجسر القديمة (١٦). و يغدو الاقتناع يقيناً عندما يؤكد لنا جنود القوات المسلحة الأردنية الذين يحفرون الخنادق هناك بأنهم يعثرون على عظام بشرية كثيرة مختلطة ومتداخلة، وعلى جماجم بشرية... أترى هذه هي بقايا من هوى من الروم في الواقوصة وتعدادهم لا تعلم

١٦. لعلها الجسر التي أشار إليها ابن عساكر «جسر اليرموك» أو «جسر الروم»، ابن عسكر، تاريخ دمشق، ص ٥٣٤.

كثرته، فكان احصاؤه بالقصب (١٧)؟ وأما العين الفوارة فهي عيون الماء الإرتوازية في أسفل المنحدر كما هو ظاهر ومعروف باسم عيون عقربة، وهذا مطابق لقول البلاذري.

نستخلص من كل ما مرّ أن قرية عقربة وسهلها الممتدّ إلى غربيها هما ساح معركة اليرموك، في يومها الفاصل الأخير على الأقل وأن الواقوصة هي الهاو ية أو الأغوار الشديدة شمالي هذا السهل.

١٧. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٠٠.

الفتح الاسلامي وسياسة الاسكان لساحل دمشق «لبنان»

عمر عبد السلام تدمري
كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية بطرابلس

من الملاحظ لكل من يتصدى لكتابة تاريخ ساحل الشام «لبنان» في العصر الوسيط من الفتح الاسلامي (الربع الأول من القرن الأول للهجرة) حتى حركة الحروب الصليبية (العشر الأخير من القرن ٥ هـ) ــ ندرة المعلومات المفصلة عن هذا الجزء الجغرافي والطبيعي من بلاد الشام، كما يلاحظ غموض بعض تلك المعلومات إن وجدت، وتناقضها بين مصدر وآخر، وورود تلك المعلومات بشكل مبستر أو مجتزأ، أو مرورها عرضاً، و بشكل موجز وغير مترابط، بحيث لا توفر للباحث مادة وافية لاغناء بحثه بالمعلومات التاريخية الموضوعية.

وان ندرة المعلومات الخاصة بساحل الشام تفرض على المؤرخ مساراً ومنهجية محددة في عملية التاريخ، كما تفرض عليه أن يبحث في عشرات المصادر المصنفة، ليس في فن التاريخ فحسب، بل وفي مصنفات الجغرافية التي تبحث في الأقاليم، والبلدان، وفي كتب الأدب، ودواو ين الشعراء، وكتب الرحلات، وكتب الزهد والتصوف، وكتب الطبقات، وتراجم الرجال، والأنساب والمعاجم، وحتى في كتب الفقه، والاقتصاد، وغير ذلك مما يفيد و يربط بينها ليؤلف منها مادة تاريخية لها معطياتها المتتابعة حسب تسلسلها التاريخي، ولتأتي مترابطة الأحداث والوقائع، ولينسج منها الفكرة التاريخية، باتجاهاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والحضارية، التي تتوفر له.

واذا كانت هذه المعاناة من البحث تواجه الباحث الذي يتصدى لكتابة تاريخ «بلاد الشام» بكل حدودها التاريخية.. فكيف تكون المعاناة إذا كان البحث قاصراً على التاريخ لجزء صغير من هذه البلاد؟

وفي الواقع، يمكن أن نعزو ندرة معلوماتنا التاريخية عن «ساحل الشام» أو عن المدن «اللبنانية» ــ التي في الأساس يبنى عليها تاريخ «لبنان» ــ في الفترة التي ندرسها إلى عدة معوقات، أهمها:

أولا: أن «ساحل الشام أو لبنان» بمجمل مدنه لم يخرج مؤرخاً يدون الأخبار والوقائع التاريخية، أو يصنف في هذا الفن عن تلك الحقبة من العصر الوسيط، رغم أنه ظهر فيه بعض الاخباريين الذين كانوا يخبرون ببعض الوقائع من المغازي والفتوحات التي عاصروها أو سمعوا بها من شيوخهم، أمثال:

هشام بن الليث الصوري[١]، وهشام بن الغاز الجرشي الصيداوي[٢]، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي البيروتي[٣]: وقد روى عنهم المؤرخ البلاذري (المتوفى حوالي سنة ٢٧٩هـ)[٤].

ومعاوية بن يحيى أبو مطيع الأطرابلسي[٥] روى عنه الحافظ ابن عساكر الدمشقي (توفي ٥٧١هـ) على طريقة الاسناد المتبعة في علم الحديث[٦].

وسليمان بن أبي كريمة الصيداوي[٧]، والليث بن تميم الفارسي الأطرابلسي[٨]: وهما من مشيخة «ساحل دمشق» ينقل عنهما المؤرخ ابن جرير الطبري (توفي ٣١٠هـ) في

---

١. فارسي الأصل ممن أسكنهم معاوية بن أبي سفيان بساحل لبنان. والده هو: الليث بن تميم الفارسي من أهل طرابلس، يروي عن الوليد بن مسلم، عمر تدمري، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان، ٥ ج، المركز الاسلامي للاعلام والانماء، بيروت، ١٩٨٤ ق ١ ج ٥، ص ٢٢٢٦. سيشار الى هذا المرجع عند وروده هكذا: موسوعة علماء المسلمين.

٢. موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٥، ص ٢٢٢٥.

٣. ولد سنة ٩٠هـ. قال ابن عساكر: هو فقيه أهل دمشق ومفتيهم بعد الأوزاعي. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ دمشق، مخطوطة الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية، رقم ١٠٤١، (تاريخ) جـ٢٥ ص ٥٧٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: تاريخ دمشق (مخ)؛ موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٢، ص ٨٦٨.

٤. البلاذري، أبو الحسين بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان ٣ ج، تحقيق صلاح الدين المنجد، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦. أنظر فيما يتعلق بالأخبار عن: هشام بن الليث الصوري، ج ١، ص ١٤٠، وعن هشام ابن الغاز الجرشي الصيداوي جـ١، ص ١٩٥، وعن سعيد بن عبد العزيز التنوخي البيروتي جـ١، ص ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٤، ١٨٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: البلاذري، فتوح.

٥. من أوائل المحدثين الكبار الذين أخرجتهم طرابلس، توفي حول منتصف القرن الثاني الهجري. وهو غير سميه: معاوية بن يحيى المكنى أبا روح الصدفي. أنظر: موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ح ٥، ص ٢١٣٣.

٦. انظر روايته عن فتح طرابلس الشام في عهد الخليفة عثمان، في «تاريخ دمشق (مخ)، جـ١٦، ص ٧٦.

٧. موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٢، ص ٩١٢، ومن أخباره: أنه نظر الى عمود من حجر عليه مكتوب كتاباً فلم يحسن قراءته، فتعلم بعد ذلك قراءة اليونانية فقرأه، فاذا عليه: بنى صيدا صيدون بن سام بن نوح. وهي رابع مدينة بنيت بعد الطوفان. انظر: معجم شيوخ ابن جميع الصيداوي، مخطوط ليدن، رقم ٣٧، ص ١٣٢، سيشار لهذا المصدر. معجم شيوخ ابن جميع، تاريخ دمشق مخ، جـ٢٨، ص ٦٢، جـ٤٢، ص ٢١٥ السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) الأنساب، اعتنى بنشره د. س. مرجليوث، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠ ص ٣٥٨ أ. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: سمعاني.

٨. قال ابن عساكر: انه من أهل ساحل دمشق، من غزاة البحور. وهو أخو أبي خراسان الفارسي الذي ولاه سليمان بن عبد الملك غازية البحر، فغزا الى القسطنطينية. وذكره في رواية فتح طرابلس الشام على يد سفيان بن مجيب الأزدي وقال أنه من أهل طرابلس تاريخ دمشق (مخ)، جـ٣٦، ص ١٩٥، وأنظر ترجمته رقم ١٢١٢ في موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٤، ص ١٥٩٥.

تاريخه[٩].

يضاف إلى هؤلاء: الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، الفقيه المرابط، البعلبكي المولد (٨٨هـ) البيروتي الوفاة (١٥٧هـ)، وقد نقل المؤرخون بعض الأخبار التي رواها، أو التي عايشها، أو شارك بوقائعها وأحداثها بنفسه، وكان في بعضها محوراً أساسياً يساهم في صنعها بمواقفه وآرائه. ولذا يصح أن نطلق عليه لقب «شيخ الاخباريين» في مدرسة بيروت[١٠].

وهناك بعض المصنفين الذين وصلتنا أسماؤهم ممن ينسبون إلى المدن اللبنانية، ولكنهم لم يصنفوا في فن التاريخ البحت، مثل: خيثمة بن سليمان القرشي الأطرابلسي (٢٥٠ ــ ٣٤٣هـ)[١١]: وقد وضع عدة مصنفات، منها واحد بعنوان «الرقائق والحكايات»[١٢] وصلنا منه الجزء العاشر فقط، ولا تزال أجزاؤه مفقودة. ومصنفات خيثمة ــ وان كانت حديثية الموضوع ــ فانها تخدم من جهة أخرى في تسجيل بعض اللمحات الفكرية المعاشة في مدينة طرابلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهذه اللمحات تفيد بشكل أو بآخر في التدوين التاريخي.

ومحمد بن أحمد بن محمد أبو الحسين المعروف بابن جميع الغساني الصيداوي،

---

٩. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧. جـ٤، ص ٢٦٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الطبري. وهو يدعو والد الليث «سعد» بدل «تميم» فيقول: الليث ابن سعد الفارسي.

١٠. أنظر ترجمته المطولة في: موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٣، وكان له ثلاثة كتاب يملي عليهم حديثه وفتاويه وأخباره وهو: أبو سعيد عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين الدمشقي البيروتي، والهقل بن زياد الشامي السكسكي البيروتي، وأبو الفيض يوسف بن السفر الدمشقي. وكان الأوزاعي من أوائل الذين صنفوا الكتب في الفقه ومسائله، فاحترقت كتبه في زلزال ضرب بيروت وساحل لبنان في سنة ١٣٠هـ. فأتى اليه رجل بنسخ لتلك الكتب وقال له: أصلحها بيدك. فما عرض الأوزاعي لشيء منها حتى مات. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، تهذيب التهذيب، ١٢ج، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٣٢٥هـ ــ ١٣٢٧هـ. جـ٦، ص ٢٤٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: تهذيب. ووضع الوليد بن مسلم عن الأوزاعي كتاباً في السير.

وأخبار الأوزاعي التي يمكن أن تؤلف صفحة تاريخية من تاريخ لبنان مبثوثة في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، وفتوح البلدان للبلاذري، وتاريخ دمشق لابن عساكر. والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الاسلام، وسير أعلام النبلاء للذهبي وتهذيب الأسماء واللغات للنووي، والمنتخب من كتاب ذيل المذيل لابن جرير الطبري، وكتاب الأموال لابن سلام، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وغيره.

١١. موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٢، ص ٧٧٧، ترجمة رقم ٥٧٧.

١٢. نشرناه مع أجزاء أخرى في فضائل الصحابة وغيره في كتاب بعنوان: من حديث خيثمة بن سليمان القرشي الأطرابلسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠.

كبير محدثي صيدا ومسندها (٣٠٥ ـ ٤٠٢ هـ)(١٣) وله:

ـ معجم شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم في البلاد التي رحل اليها، و يظهر أن جولته في «لبنان» اقتصرت على مدن الساحل فقط، فأخذ على الشيوخ في بلده صيدا وفي صور، الصرفند، بيروت، طرابلس، وعرقه، ولم يدخل بعلبك، رغم أنه طوف في البلاد ما بين مصر و بلاد فارس مروراً بالحجاز والعراق و بلاد الشام وفلسطين(١٤).

ـ معجم تلاميذه أو سماعاتهم، وهو مصنف لم نقف على اسمه الصحيح، غير أنه يتضمن سماعات الخلق الذين سمعوا من ابن جميع، و يظهر أنه كان يتألف من عدة أجزاء كانت موجودة عند حفيده أبي الحسين أحمد بن الحسن، رآها أبو محمد النخشبي(١٥).

ومحمد بن علي أبو عبد الله الصوري الحافظ (٦/٣٧٧ ـ ٤٤١ هـ)(١٦): وضع كثيراً من المصنفات في مصطلح الحديث، وجرح وتعديل الرجال وطبقاتهم وأنسابهم، وقد استفاد منها تلميذه المؤرخ المحدث الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي(١٧) (توفي ٤٦٣ هـ).

والحسين بن محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي المعروف بالسكن (توفي ٤٣٧ هـ)(١٨) كتب بخطه أحاديث اختارها من سماعاته عن أبيه وجده وجميع شيوخه، وصلنا منها جزء واحد(١٩).

وأبو طاهر الصوري(٢٠): له مصنف جمع فيه أسماء شيوخه من الطرابلسيين الذين

---

١٣. موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٢، ص ١٦٦٥، ترجمة رقم ١٢٧٨.

١٤. أنظر دراسة لنا بعنوان: «المحدث الزاهد الحافظ ابن جميع الصيداوي مسند صيدا» في مجلة الفكر الاسلامي، بيروت، العدد ٥، أيار/ مايو ١٩٧٩. ص ١٠٨. وما بعدها. ولدينا نسخة مصورة من «معجم الشيوخ» عن مخطوطة ليدن قمت بتحقيقها ونشرتها مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.

١٥. السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) الأنساب، ١٠ج، تحقيق محمد عوامة، منشورات محمد أمين دمج، بيروت ١٩٨٠ ـ ١٩٨١. ج ٨، ص ١١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: السمعاني، الأنساب.

١٦. موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٤، ص ١٩٣٥ ترجمة رقم ١٥١٣.

١٧. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم الأدباء، ٢٠ح في ١٠م، نشره مرجليوث، القاهرة، ١٩٣٠، جـ١، ص ٢٤٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الحموي، معجم.

١٨. موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٢، ص ٧١٦ ترجمة ٤٩٩.

١٩. نشرناه في مجلة «الفكر الاسلامي» بيروت، العدد ٩، أيلول/ سبتمبر ١٩٧٩، ص ٢٤ وما بعدها، بعنوان «من تراث لبنان الاسلامي».

٢٠. ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ٢ ج، مصورة بمعهد المخطوطات في القاهرة، رقم ٩٢٩ (تاريخ) جـ١، ١٦٠أ. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن العديم بغية.

لقيهم وتتلمذ عليهم. وقد اطلع عليه غيث بن علي الصوري ونقل عنه(٢١). وهو من المصنفات المفقودة.

وأبو الفرج غيث بن علي بن عبد السلام الأرمنازي الصوري (٤٤٣ ـ ٥٠٩ هـ)(٢٢) كان خطيباً ومحدثاً في المسجد الجامع بصور، وضع للمدينة تاريخاً ولكنه لم يتمه(٢٣). وقد وصلت نسخته المخطوطة الى الحافظ ابن عساكر الدمشقي فنقل عنه في «تاريخ دمشق»(٢٤). ومن تلك النقول نعرف أن كتاب غيث الصوري لم يكن كتاباً في التاريخ بالمعنى الصحيح، وإنما كتاب تراجم وتعريف بالشيوخ الذين لقيهم أو الذين نزلوا صور واجتمع بهم من فقهاء ومحدثين وأدباء وشعراء.. وهو يفيد في تصو ير الحياة العلمية في ساحل لبنان، وفي مدينة صور على وجه الخصوص في القرن الخامس الهجري.

والمحنك أبو عبد الله محمد بن الحسن القاضي المرتضى (توفي ٥٤٩ هـ): وهو طرابلسي الأصل، دخل في خدمة الخلافة الفاطمية وكتب «تاريخ خلفاء مصر»(٢٥)، وهو

---

٢١. شاكر مصطفى «مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده»
بحث القي في الاحتفال بذكرى ابن عساكر في دمشق، ١٩٧٩. ص ٣٩٠
سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: مدرسة الشام.

٢٢. موسوعة علماء المسلمين ق ٢ ج ٣ (حرف الغين)، وهو من مواليد صور وليس من مواليد أرمناز التي عند حلب، كما يقول الدكتور شاكر مصطفى وهو نفسه الذي ورد ذكره في «معجم الأدباء» جـ٤، ص ١٥. وليس غيره كما يقول أيضاً الدكتور شاكر مصطفى. (انظر بحثه: مدرسة الشام التاريخية، ص ٣٩٨ بالمتن والحاشية). و يضيف الدكتور نفسه اسم أحد رجال الحديث إلى قائمة المؤرخين في مدرسة الشام هو: (ابن محبوب أبو الحسين علي بن عبد الله بن محبوب الطرابلسي (ت ٥٢٢هـ/١١٢٨م) ذكره السلفي في «معجم السفر» أنه (صنف تو يريخاً لطرابلس وقفت عليه، وقد كتب عني مؤلفه كثيراً وحدثني به وانتخبت منه ما استغر بته) البحث نفسه، ص ٣٩٩. نقلا عن معجم السفر مصورة دار الكتب المصرية،رقم ٣٩٣٢ تاريخ، ص ٢٩٩، السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الاعلان بالتو بيخ لمن ذم أهل التواريخ، نشره صالح أحمد العلي في كتاب «علم التاريخ عند المسلمين» لفرانز روزنثال، طبعة المثنى، بغداد، ١٩٦٣. ص ٦٣٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: السخاوي، الاعلان. ونقول: ان محبوب هذا من أهل طرابلس الغرب وليس طرابلس الشام، كما يؤكد ذلك ياقوت الحموي الذي ذكره في مادة «طرابلس» الافريقية انظر: الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان ٦، دار البلدان وقد ذكر الدكتور صالح أحمد العلي اسم «عنيسة بن علي» بدلا من «غيث بن علي» وهو تصحيف واضح. انظر: السخاوي، الاعلان، ص ٦٣٥ (ملحوظة رقم ٢٦ بالحاشية) وهو الذي ذكر نأه غير غي بن علي الصوري الذي كان مدرساً وزميلا للخطيب البغدادي ونقل عنه هذه الملحوظة شاكر مصطفى دون تمحيص. فاقتضى منا التنو يه.

٢٣. الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص ١٥٨، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤٠٠، تاريخ دمشق (مخ) جـ٣٤، ص ٣٧٨، السمعاني، ٢٧ أ.

٢٤. أنظر على سبيل المثال لا الحصر: تاريخ دمشق (مخ)، جـ٧، ص ٣٨٩، جـ١٠، ص ٢٥، ٢٧٦، جـ٢٣، ص ٣٥٠، جـ٢٩، ص ١٠٢، جـ٣١، ص ٤٨٣، جـ٣٤، ص ٣١٤، جـ٣٥، ص ٥٤٠، جـ٣٩، ص ١٣، ١٤، جـ٤١، ص ١٦٤.

٢٥. مدرسة الشام التاريخية ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

كتاب مفقود حتى الآن، و يظهر من عنوانه أنه خاص بتاريخ الخلفاء الفاطميين في مصر.

ثانياً: إن حركة التدو ين لم تظهر واضحة الا في أواخر القرن الثاني الهجري، و بعد قيام الدولة العباسية، وقد استأثرت أخبار الخلافة والخلفاء في بغداد باهتمام المؤرخين، فدونوا يوميات الخليفة، وأخبار عاصمة الخلافة، وأهملوا أخبار وحوادث المدن الأخرى الا بالنزر اليسير، خصوصاً النائية منها. ولا شك أن بعد المسافات وصعوبة الاتصالات مع العاصمة المركزية في ذلك الوقت ساهمت في عدم وصول المعلومات والأخبار بشكل سريع، وبالتالي لم تأخذ طريقها في التدو ين التاريخي، ولعل المؤرخين المسلمين كانوا يتحرجون في تدو ين أخبار المدن البعيدة بدافع من الحيطة والحرص على توخي الصدق في تلقي المعلومات التي قد يشكون في أمانة ناقلها اذا لم يتوافر على نقلها جماعة من الثقاة، أو إذا لم تأت في مراسلات رسمية.

ثالثاً: «ان «لبنان» بحدوده الجغرافية المتعارف عليها الآن سياسياً، لم يكن خلال الفترة التي ندرسها إلا إقليماً طبيعياً من بلاد الشام، تابعاً للسلطة المركزية في دمشق تارة (العهد الأموي)، وللسلطة المركزية في بغداد تارة (العهد العباسي) وللسلطة المركزية في الفسطاط، والقطائع، ثم القاهرة تارة بعد أخرى (العهد الطولوني، العهد الاخشيدي، ثم العهد الفاطمي)، ولهذا كانت عملية التاريخ لمدنه «تصنع» خارج «حدوده» أي أنه كان «بلد» «استيراد» للمدونات التاريخية، وليس «بلد» «تصدير»، وإن كان هذا «العجز» في «التبادل» قد أخذ يميل الى التحسن نوعاً ما بعد حركة الحروب الصليبية، بظهور عدد من المؤرخين «اللبنانيين»، أمثال:

قطب الدين موسى اليونيني ـ من بلدة يونين البقاعية (توفي ٧٢٦ هـ)(٢٦) و برهان

٢٦. ولد سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، قرأ عليه الحافظ الذهبي بدمشق و بعلبك. وله: ذيل على مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، نشر قسم منه و بقي القسم الآخر مخطوطاً. ابن رجب الحنبلي، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، ذيل طبقات الحنابلة ٢ج، وقف على طبعه وتحقيقه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢. جـ٢، ٣٧٩ ـ ٣٨٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن رجب، ذيل؛ الحسيني، أبو المحاسن محمد بن علي، من ذيول العبر، الكو يت، د. ت. ص ١٤٥ ـ ١٤٦. سيشار لهذا المصدر الحسيني، من ذيول؛ ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية ١٤ج في ٧م، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦، جـ١٤، ص ١٢٦ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن كثير، البداية؛ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ج، تحقيق محمد سعيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦، جـ٥، ص ١٥٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن حجر، الدرر؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ١١١٣ تاريخ، جـ٣، ص ٣٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: المنهل الصافي.

الدين ابراهيم بن عمر الرباط البقاعي(٢٧) وصالح بن يحيى البحتري البيروتي(٢٨) وأحمد بن سباط العاليهي ـ من بلدة عاليه بجبل لبنان(٢٩)، وغيرهم ممن جاء بعدهم.

رابعاً: إن المدلول الجغرافي لكلمة «لبنان» لم يكن واضحاً ومحدداً عند المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين(٣٠). وكانت الرقعة الجغرافية تضيق وتتسع حسب مفهوم كل منهم. وهذا مدعاة للمعاناة في البحث لارتباط الاطار الجغرافي بالفعل التاريخي. وكثيراً ما يرد في المصادر العربية لفظ: ساحل الشام، ساحل دمشق. ففي اللفظ الأول يشكل «لبنان» الجزء الجنوبي من ساحل الشام. واذا كانت الأخبار تتعلق ب «ساحل الشام» فانها قد تشمل «لبنان» أو جزءاً منه، أو أنها لا تتناوله مطلقاً.

أما إذا كانت الأخبار تتعلق ب «ساحل دمشق»، فهي تتناول «لبنان» أو جزءاً منه بشكل مؤكد. فتعبير «ساحل دمشق» في كتابات المؤرخين يتناول جملة المدن والثغور الواقعة بين عرقة في الشمال وعدلون في الجنوب، وما يوازيهما من البلاد في الداخل، أما الصرفند، وما يليها من الجنوب وما يوازيها، فمن أعمال «ساحل الأردن» و بمعنى آخر وأوضح، فان كلا من: عرقة وطرابلس وأنفة والبترون وجبيل وجونية و بيروت وصيدا وعدلون (على الساحل) و بعلبك والبقاع (في الداخل) وجبل لبنان (في الوسط) من جند دمشق. وأن كلا من: الصرفند وصور (على الساحل) وتبنين والنبطية وجزين، وجبل عاملة (في الداخل) من جند الأردن.

خامساً: ان عدداً وافراً من المؤرخين نزلوا «لبنان» وأخذوا عن شيوخه، ورغم ذلك

٢٧. ولد سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) وتوفي (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) وهو من أهل قرية خربة روحا بالبقاع. له ما يربو على خمسين مصنفاً، أهمها في التاريخ «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران» وهو لا يزال مخطوطاً. أنظر: السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية، نيو يورك، ١٩٢٧. ص ٢٤، ٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، نيو يورك، ١٩٢٧. ص ٢٤، ٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: نظم العقيان؛ القنوجي، التاج المكلل ص ٣٥٨؛ البغدادي اسماعيل بن محمد، هدية العارفين ـ اسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٢ج، استنبول، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢، أعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى، بغداد ج ١، ص ٢١، ٢٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: هدية العارفين؛ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ/٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ج، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. جـ٥، ص ٤٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الضوء اللامع.

٢٨. من مؤرخي القرن التاسع الهجري، له «تاريخ بيروت» مطبوع.

٢٩. له كتاب في التاريخ لا يزال مخطوطاً، نسخته في مكتبة الفاتيكان، منه نسخة مصورة بالجامعة الأمريكية في بيروت.

٣٠. أنظر حول الموضوع: أسد رستم، آراء وأبحاث، منشورات الجامعة الأمريكية بيروت، ١٩٦٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أسد رستم، آراء.

فان معلوماتهم التاريخية التي دونوها عنه لا تزيد على ذكر أسماء الشيوخ الذين أخذوا عنهم. فها هو ابن جرير الطبري المؤرخ الكبير، ينزل بيروت، و يحفظ القرآن الكريم بالقراءات على المقرىء العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي (١٦٩ ــ ٢٧٠هـ)(٣١)، وحين صنف تاريخه الضخم، أغفل بشكل يدعو للاستغراب أي خبر عن بيروت، بلد شيخه واستاذه، فلم يتعرض لها على الاطلاق، كما لم يذكر شيئاً عن فتح المسلمين للمدن اللبنانية رغم أنه تتبع حركة الفتوحات الاسلامية في مختلف أقطارها واتجاهاتها.

وهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة يمكن أن نسوقها في هذا المجال. ومن جهة أخرى فان هناك مجموعة مفقودة من المصنفات الهامة التي نعتقد أنها لو وجدت، ستمدنا ببعض المعلومات التاريخية القيمة عن «لبنان» ومنها:

ــ للمسعودي (المتوفى ٣٤٦هـ) كتاب «أخبار الزمان ومن إباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران»، وهو كتاب لم يطبع منه الا جزء يسير ولا يزال معظمه مفقوداً. و «الكتاب الأوسط»، وكتاب «فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف»، وكتاب «نظم الجواهر في تدبير المالك والعساكر»، وكتاب «الاستذكار لما جرى في سالف الأعمار»، وغيرها من الكتب(٣٢). والمسعودي هو أول مؤرخ مسلم يتحدث عن مواطن «الموارنة» في القرن الرابع الهجري في «التنبيه والاشراف»(٣٣) وهو ينفرد بين جميع المؤرخين المسلمين بالاشارة الى غزوة «ليو الطرابلسي» أمير البحر الى مدينة سالونيكا اليونانية(٣٤). و يعرف به أنه صاحب طرابلس حين زار ميناءها بعد سنة (٣٠٠هـ)(٣٥) ولذا نعتقد أن هناك معلومات لا تقل أهمية عن هذه، موجودة في واحد من كتبه المفقودة.

ــ ولأبي الحسين ادريس بن ابراهيم الواعظ البغدادي، كتاب «أنس الجليس ومسرة الأنيس»: يروي فيه عن خيثمة بن سليمان كبير المحدثين الطرابلسيين، وعن

---

٣١. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ٢ح، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٩، جـ١، ص ٢١٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده، معرفة القراء الكبار، الحموي، معجم، جـ١٨، ص ٥٢، تاريخ دمشق (مخ)، جـ١٩، ص ٥٧٩.

٣٢. انظر: قائمة بأسماء مصنفات المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، في مقدمة كتابه «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان».

٣٣. طبعة دار التراث، بيروت، ١٩٦٨. ص ١٣١.

٣٤. انظر تفاصيل غزوته: في كتابنا، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج ١، طبعة دار البلاد، طرابلس، ١٩٧٨، ص ١٤٣، وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: تاريخ طرابلس.

٣٥. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بيلا، ٧ج، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٥ ــ ١٩٧٩، جـ١، ص ١٤٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: المسعودي، مروج.

خراسان بن عبيد الله الأطرابلسي، وهو والد أمير طرابلس الذي مدحه أبو الطيب المتنبي بين سنتي (٣٢٥ ــ ٣٣٠هـ)(٣٦)، وعن أبي القاسم علي بن محمد الصوري،(٣٧) كما يروي عن غيرهم من الشيوخ. وقد ذكره ابن عساكر، وقال: ان الخطيب لم يذكره في «تاريخ بغداد»(٣٨).

ــ ولأبي الفتح الكراجكي محمد بن علي بن عثمان: «رحلة أشار اليها الحافظ ابن حجر، ذكر فيها مباراة الخطابة التي جرت بين الخطيب البغدادي المؤرخ والحسين بن بشر ــ قاضي طرابلس والناظر على دار العلم بها(٣٩). والكراجكي من العلماء الفلاسفة ومن المصنفين المكثرين، وضع عدة مصنفات بناء لطلب أعيان: طرابلس(٤٠)، وصيدا(٤١)، وصور(٤٢) وتوفي في هذه الأخيرة سنة (٤٤٩هـ)(٤٣). ولو وصلتنا «الرحلة» لوقفنا منها على معلومات غزيرة، ولا شك، عن مدن لبنان الساحلية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري.

ــ ولأمين الدولة أبي طالب عبد الله بن عمار، صاحب طرابلس: كتاب يعرف

---

٣٦. المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، ديوان المتنبي، تحقيق عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٤، ص ٢١٦، ص ٢١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ديوان المتنبي؛ تاريخ طرابلس، جـ١، ص ١٧٩.

٣٧. موسوعة علماء المسلمين، ق ١، ج ٣.

٣٨. موسوعة علماء المسلمين، ق ١، ج ١، ص ٤٥٣ ترجمة رقم ٢٦٧.

٣٩. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، لسان الميزان، ٦ ج، حيدر أباد الدكن، ١٣٢٩هـ ــ ١٣٣١هـ. جـ١، ص ٢٧٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن حجر، لسان

٤٠. ألف فيها: «عدة البصير في حج يوم الغير» و«نهج البيان» لأبي الكتائب ابن عمار، ومختصر طبقات الوارث» وهي رسالة للمبتدئين في طرابلس و «البستان» في الفقه، للقاضي أبي طالب ابن عمار، و «تلقين أولاد المؤمنين» في كراستين و «الاستطراف في ذكر ما ورد من الفقه في الانصاف»، الفه لأبي الفتح عبد الحاكم قاضي طرابلس و «مسألة البيان عن جمل اعتقاد أهل الايمان» وهي رسالة في عقائد الامامية.

٤١. ألف فيها: «المجالس في مقدمات علم الكلام» الفه لصارم الدولة ذي الفضيلتين؟ و«الزاهد في آداب الملوك» لصارم الدولة أيضاً، و «الايضاح عن أحكام النكاح» ألفه بأمر الأمير ذخر الدولة سنة ٤٤١هـ، «انتقاع المؤمنين بما في أيدي السلاطين» ألفه لأهل صيدا، و «تسلية الرؤساء»، ألفه للأمير ناصر الدولة و «المنهاج في معرفة مناسك الحاج» ألفه لصارم الدولة ذي الفضيلتين.

٤٢. ألف فيها: «الأصول في مذهب آل الرسول» في سنة ٤١٦هـ و «روضة العابدين ونزهة الزاهدين» من ثلاثة أجزاء في الفقه ألفه لابنه موسى، و «التعريف بوجوب حق الوالدين» وصيته الى ولده (مطبوعة بطهران، ١٣٧هـ).

٤٣. موسوعة العلماء المسلمين، ق ١، ج ٤، ص ١٩٤٩ ترجمة رقم ١٥١٤.

ب «جراب الدولة»(٤٤)، يظهر أنه فقد بعد احتلال الصليبيين لطرابلس واحراقهم لدار علمها ومكتبتها التي ذاع صيتها في عالم العصر الوسيط(٤٥).

ـ ولابن أبي طي يحيى بن حامد الحلبي (٥٧٥ ــ ٦٣٠هـ) عدة مصنفات في التاريخ، ولكنه يكاد يكون المؤرخ الوحيد الذي خانه الحظ حيث فقد جميع انتاجه في ظروف نجهلها، ربما تعود لتشيعه. ومن مصنفاته التي نعتقد أنها تتضمن معلومات هامة عن تاريخ «لبنان»: معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب، وهو في عدة مجلدات، و«حوادث الزمان على حروف المعجم «في خمسة مجلدات، و«ذيل معادن الذهب» وهو تتمة لتاريخ الملوك والخلفاء، و«سلك النظام في تاريخ الشام»، و«تراجم رجال الأدب والشعراء»، و«أسماء رواة الشيعة ومصنفيها»، و«اشتقاق أسماء البلدان»(٤٦) ونحن نرى أن مصنفات ابن أبي طي، لو وصلتنا لأفدنا منها بثروة من المعلومات التي انفرد بها عن المؤرخين المعاصرين له وخاصة فيما يتعلق بالعصر الفاطمي، نظراً لتشيعه، وأن المعلومتين اللتين وصلتا الينا ــ عن طريق المؤرخين المتأخرين الذين نقلوا عنه، حول مناظرة ابن بشر والخطيب البغدادي في طرابلس، ووصفه الدقيق لعملية احراق مكتبة دار العلم على يد الصليبيين سنة (٥٠٢هـ) ــ تدلان على غزارة المادة التاريخية بالنسبة للمدن اللبنانية في العصر الفاطمي.

وفي واقع الأمر، اذا شئنا أن نسترسل في تعداد المعوقات التي تواجه الباحث للتاريخ للمدن «اللبنانية»، لطال بنا الأمر، بحيث يخشى معه الخروج عن الموضوع الأساسي وقد آثرنا أن نركب المركب الصعب، رغم المعاناة من ضحالة المادة التاريخية المتوفرة في المصادر العربية القديمة، فنتناول حركة الفتح الاسلامي للمدن اللبنانية.

---

٤٤. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٢ج . تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، ١٩٥٦ ــ ١٩٦٢، جـ١ ص ١٠٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن شداد، الأعلاق؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م)، تاريخ الدول والملوك، الأجزاء ٧ ــ ٩، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢. جـ٨، ص ٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن الفرات؛ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ ج، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨، جـ ٥، ٨٦٥، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن خلدون، العبر.

٤٥. أنظر: دراستنا المسهبة عن مكتبة بني عمار في كتابنا «الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٣. ص ٣٩ وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: عمر، الحياة الثقافية.

٤٦. مدرسة الشام التاريخية، ص ٣٦٧، ص ٣٦٨.

فتح بعلبك:

يبدأ تاريخ الاحتكاك الحربي بين العرب المسلمين وأهل المدن اللبنانية في وقت مبكر، يسبق فتح المسلمين لدمشق، وكان ذلك الاحتكاك مع أهل مدينة بعلبك، و بالتحديد عند حضور خالد بن الوليد من العراق الى الشام لنجدة المسلمين في فلسطين سنة (١٣هـ) و بعد خروج سرايا المسلمين الثلاث بقيادة:

عمرو بن العاص: الى فلسطين ومصر، و يزيد بن أبي سفيان، الى بلاد الشام، وشرحبيل بن حسنة: الى الأردن. لقد عبر خالد بادية الشام عبر مدينة تدمر حيث أخذها صلحاً، ثم مر في طريقه على «حوارين»، من جبل «سنير» الواقع بين حمص و بعلبك، فتحصن أهلها منه، فأغار عليهم واستاق مواشيهم وقتل رجالهم، وأقام عليهم أياماً، فبعثوا الى من حولهم ليمدوهم، فجاءهم المدد من بعلبك و بصرى الشام(٤٧). فلما رأى خالد ذلك صف الناس ثم تجرد في مائتي فارس، وحمل على أهل بعلبك، وهم أكثر من ألفي رجل، فقصف بعضهم على بعض وقتل منهم مقتلة عظيمة، وما وقفوا له ساعة حتى انهزموا ودخلوا الحصن الى أن انتهى أمرهم بالصلح(٤٨).

وفي السنة التالية (١٤هـ). وفيما كان المسلمون يحاصرون دمشق، وصلت نجدة من جيش الروم في أنطاكية الى بعلبك لمساعدة أهل دمشق، تتألف من عشرة آلاف رجل عليهم «درنجاران»، كل «درنجار»(٤٩) على خمسة آلاف. وما ان دخلوا بعلبك حتى علموا بسقوط دمشق بيد المسلمين، فلبثوا مقيمين في بعلبك، بانتظار تعليمات الامبراطور هرقل.

وكان أبو عبيدة بن الجراح ــ القائد العام ــ حين منازلته لدمشق، أمر عمرو بن العاص أن يسير عبر الأردن الى فلسطين، فخرج عمرو فواقع أهل الأردن وفلسطين،

---

٤٧. البلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٣٢؛ الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ٢ج، مطبعة عثمان عبد الرزاق، القاهرة، ١٣٣هـ، جـ٢، ص ٢٥٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: الديار بكري، تاريخ.

٤٨. الأزدي، محمد بن عبد الله (ت ق ٢هـ/ ٨ق م)، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٧٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الأزدي، فتوح؛ البلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٣٢؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرون، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٥٥ ــ ١٩٧٥، جـ١٩، ص ١١٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: النويري، نهاية.

٤٩. وردت «الديرجانية» بصيغة الجمع في «فتوح الشام» المنسوب للواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) فتوح الشام، ٢ج، مكتبة المحتسب، عمان د. ت. جـ١، ص ٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الواقدي، فتوح. وردت «طرنجار» (بالطاء) وهو قائد ألف (أنظر نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: قدامة، الخراج.

وأقام عليهم القيامة، وضيق عليهم أشد التضييق حتى تضاعف رعبهم وخوفهم على مدنهم، وعندما وصلتهم أخبار سقوط دمشق، بعثوا الى هرقل، وهو في أنطاكية، لينجدهم، فأرسل الى الجيش الذي كان يرابط في بعلبك ليخرج الى فلسطين. ولقد شعر عمرو بن العاص بخطورة الوضع عندما رأى تجمع الروم من أنحاء البلاد وتصميمهم على التصدي لقواته، ولذا بعث الى أبي عبيدة يطلعه على خطورة الموقف.

كان أبو عبيدة على نية الخروج لمنازلة حمص، حين وصله كتاب عمرو، فاستشار أصحابه فيما يفعل، فأشار عليه يزيد بن أبي سفيان بامداد عمرو بالجند والثبات على قتالهم، وأن يقيم أبو عبيدة في مكانه فلا يقصد حمص. ولكن خالداً أشار عليه أن ينظر ما يصنع الجيش الذي في بعلبك فان هم خرجوا منها وساروا الى اخواننا سرت الى اخوانك فلقيتهم بجماعة الناس، وان هم أقاموا ولم يبرحوا أمددت عمرواً وأنفذت الى هؤلاء من يقاتلهم، وأقمت أنت. بمكانك...»(٥٠). فبعث أبو عبيدة شرحبيل للحاق بعمرو، وطمأنه بأنه سوف يبعث الى بعلبك من يشغل الجيش المرابط فيها عن الخروج منها. وعزم أبو عبيدة أن يخرج بنفسه اليها، ولكن خالداً تقدم لمنازلتها على رأس خمسة آلاف فارس، بعد أن أوصاه أبو عبيدة بقوله: «... يا خالد، اني أوصيك بتقوى الله، واذا أنت لقيت القوم فلا تناظرهم، ولا تطاولهم في حصونهم، ولا تذرهم يأكلون و يشربون و ينتظرون أن تأتيهم أمدادهم فاذا لقيتهم فقاتلهم، فانك ان هزمتهم انقطع رجاؤهم، وسقط في خلدهم، وساء ظنهم. وإن احتجت الى مدد فأعلمني حتى يأتيك من المدد حاجتك. وان احتجت أن آتيك بنفسي أتيتك ان شاء الله»(٥١).

وقبل أن يصل خالد الى بعلبك، كان الامبراطور هرقل قد أرسل الى الجيش فيها يأمره باللحاق بالروم المحاصرين في بيسان، فخرج الجيش ومعه جمع وفير من أهالي بعلبك ممن هم على دينهم، وانضم اليهم عدد وفير من نصارى حمص «غضباً لدينهم وشفقة من أن تفتح مدينتهم كما فتحت مدينة دمشق».

وعندما وافى خالد بعلبك، كان مجموع ما خرج منها أكثر من عشرين ألف رجل، فأغار على نواحيها وقتل من أدرك من الرجال وسبى من وجد من الذرية واستاق معه من الأغنام والبقر والمتاع شيئاً كثيراً. وعاد الى دمشق ليخبر أبا عبيدة. بخروج الجيش من بعلبك الى بيسان، فأرسله أبو عبيدة نجدة لعمرو، ثم لحق به بعد أن استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، فتحول الروم الى «فحل» من أرض الأردن، فجاءهم المسلمون بجموعهم، وانضمت اليهم القبائل العربية النازلة في تلك النواحي من: لخم وجذام وغسان وعاملة وألقين وقضاعة، فكثر عددهم، وراح أهل «فحل» من النصارى الوطنيين يراسلون

٥٠. الأزدي، فتوح، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

٥١. نفس المصدر، ص ١٠٩.

المسلمين، فيقدمون رجلا و يؤخرون أخرى، و يقولون:

«... يا معشر المسلمين، أنتم أحب الينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا. وأحسن ولاية علينا، ولكنهم قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»(٥٢).

وأقام المسلمون يحاصرونهم مدة من الوقت حتى أخذوا «فحل» صلحاً، أما أرض الأردن وقراها فأخذوها عنوة.

عاد أبو عبيدة وخالد الى دمشق، ومنها خرجا الى أرض البقاع و بعلبك(٥٣)، فغلب خالد على أرض البقاع، واتجه شمالا حتى نزل قبلي بعلبك، فخرج اليه رجال من أهلها، فأرسل اليهم نحواً من خمسين فارساً، منهم: «ملحان بن زياد الطائي»(٥٤) و«بنان بن حازم القيسي»(٥٥) و«قنان بن دارم العبسي»(٥٦) فحملوا عليهم وأجبروهم على الانكفاء والاحتماء في حصن المدينة(٥٧).

و يبدو أن خالد بن الوليد كان يصطحب معه ابنه عبد الرحمن عند حصار بعلبك، حيث قال فيه الشاعر كعب بن جعيل بعد موته:

ألا تبكي وما ظلمت قريش ... بأعوال البكاء على فتاها
فلو سئلت دمشق وبعلبك ... وحمص: من أباح لها حماها

٥٢. الأزدي، فتوح، ص ١٤٠.

٥٣. اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، ٢ج، تقديم وتعليق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف ١٩٦٤، جـ٢، ص ١٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: اليعقوبي، تاريخ، ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ دمشق الكبير، ٧ج، تهذيب عبد القادر بدران، ط٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩، جـ١، ص ١٦٠. سيشار لهذا المصدر، ابن عساكر، تهذيب.

٥٤. ضبطه الدكتور المنجد في فتوح البلدان، جـ١، ص ١٥٥ هكذا: «ملحان ابن زيار» بالراء والصحيح «زياد» بالدال. ذكر الأزدي أنه أخا عدي بن حاتم لأمه، وأنه وفد على أبي بكر في نحو ألف رجل من قومه من طيء يعرض عليه الجهاد معه فألحق بجيش أبي عبيده في الشام. قال: «فشهدت معه مواطنه التي شهدها كلها، لم أغب عن يوم منها» واسم أبيه «زياد» ورد في «تهذيب التهذيب» لابن حجر جـ٣، ص ٣٩٠، وهو يروي عن أبي هريرة. روى عنه شمرة بن حبيب الزيات.

٥٥. لم أجد له ترجمة، وأظن أنه هو «قنان» الآتي بعده، ابن عساكر، تاريخ جـ١، ص ٢٧٤.

٥٦. أظن أن «بنان» و«قنان» هما شخص واحد وقع التحريف في اسمه واسم أبيه ونسبه و«بنان» هو «قنان» و«حازم» هو «دارم» والقيسي هو «العبسي» وكان يعد من الفرسان المذكورين ذكره الأزدي، ص ٢٤٠ وابن سعد في الطبقة الرابعة، ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ج، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٢٨هـ. جـ٣، ص ٢٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر، الاصابة.

٥٧. الأزدي، فتوح، ص ١٤٤.

فسيف الله أدخلها المنايا وهدم حصنها وحوى قراها [٥٨]

وبعث أهل بعلبك في طلب الصلح، فأعطاهم أبو عبيدة الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وكتب لهم على يد «عبد الله بن رومان» [٥٩] كتاباً، ذكر ابن المغيرة عن أبيه: أن أبا عبيدة صالحهم فيه على أنصاف منازلهم وكنائسهم ووضع الخراج [٦٠].

وأورد كل من البلاذري وابن عساكر نصين مختلفين حول ذلك الصلح، نوردهما على التوالي:

★ النص عند البلاذري: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك، رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا، ولا ينزلوا قرية عامرة، فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا الى حيث شاؤوا. ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا. ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله، وكفى بالله شهيداً [٦١].

---

٥٨. ومناسبة هذه الأبيات ما زعموا أن معاوية قال لكعب بن جعيل بعد موت عبد الرحمن ـ وكان مداحاً له ـ: «ليس للشاعر عهداً قد كان عبد الرحمن لك صديقاً، فما مات نسيته» قال: «ما فعلت ولقد قلت فيه بعد موته» ثم ذكر الأبيات.... الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، نسب قريش، نشره ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦. ص ٣٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الزبيري، نسب.

٥٩. ابن عساكر، تهذيب، جـ٧، ص٣٩٦، وفي «الاصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني، ٨ج، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢، جـ٥، ص٨٨، ترجمة رقم ٦٣١٨، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الاصابة طبعة مصر، «عبد الله بن أبي رومان الكاتب، قال ابن عساكر: أدرك عهد النبي وشهد فتح بعلبك وكتب الصلح لأهلها. ذكره ابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن اسماعيل بن عياش».

٦٠. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٦٠.

٦١. بلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٥٤، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠/ ٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط، ٢ج، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٦٧، ص ٣٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: خليفة، تاريخ؛ ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٠١. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن العبري، مختصر؛ ابن شداد، الأعلاق، جـ١، ص ٤٢، ٤٣؛ المقدسي، مطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، ٦ج في ٣م، مكتبة الخياط، بيروت، د. ت، جـ٥ ص ١٨٤ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: المقدسي، البدء؛ محمد حميد الله مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الارشاد ١٩٦٩. ص ٢٧٨، رقم ٣٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: محمد حميد الله، مجموعة؛ أحمد عادل كمال، الطريق الى دمشق (فتح بلاد الشام)، دار النفائس، ١٩٨٠، ص ٣٨٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: أحمد عادل، الطريق.

★ النص عند ابن عساكر: «قال اسماعيل بن عياش [٦٢]: ان أبا عبيدة كتب لأهل بعلبك:.. هذا أمان من أبي عبيدة بن الجراح، لفلان بن فلان وفلان وأهل مدينتهم بعلبك، رومها وفرسها وعربها، ولرؤسائها وسكانها الروم والنصارى، ولأموالهم ولدوابهم ولبيعهم ودياراتهم وكل شيء لهم خارج المدينة من المواشي، ولأرحائهم، وانهم على سكنهم لا يكرهون عليه، وان عليهم السمع والنصح والطاعة، ولا عقب بيعة بيننا وبينهم فيما قد خلا من القتال والحرب. وان للروم أن يسرفوا ويظعنوا حيث شاؤوا خمسة عشر ميلا، ولا يلبثوا في قرية أو أبنية. ولأهل المدينة وتجارها وكسابها أن يتجروا في المدينة شهري ربيع وجمادى الأولى، فاذا انسلخ فانهم يسيرون حيث شاؤوا أن يمكثوا بأموالهم ودوابهم. وان مكثوا بعد الثلاثة أشهر فان عليهم مثل ما على أهل المدينة من الطاعة والنصح واعطاء الذي عليهم من السبيل. فان أحبوا أن يسيروا عند نفاد هذه الصحيفة ساروا. وان لنا على الروم وفارس أن لا يحملوا شيئاً كان للمؤتمنين من أموالهم عند النبط والعرب من حيث نفاد هذه الصحيفة.. فان مكثوا فلنا عشور العرب والروم وأهل المدينة، وان شاؤوا أن يذهبوا حيث شاؤوا من الأرض بأموالهم، فان ذمة أبي عبيدة والمؤمنين لهم بهم. وان للمؤتمنين ما عرفوا من أموالهم عند الروم والعرب وان لنا عندهم كل نفس حرة مسلمة فيهم، في رومهم وفرسهم وعربهم ونبطهم. والله هو الشاهد على هذه الصحيفة، ويزيد بن أبي سفيان. ومعمر بن وثاب. وكتب عبد الله بن رومان، وختم أبو عبيدة بخاتمه» [٦٣]

وقد اختصر ياقوت الحموي ما جاء في كتاب العهد بقوله:.. وكتب لهم كتاباً أجلهم فيه الى شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، فمن جلا سار الى حيث شاء، ومن أقام فعليه الجزية [٦٤].

ويهمنا من كتاب الصلح مع أهل بعلبك: النص على أنهم من قوميات مختلفة:

ـ الروم: وهم رعاة الامبراطورية البيزنطية الحاكمة.

ـ الفرس: وهم من بقايا الفرس الذين اخضعوا ساحل الشام لحكمهم أثناء صراعهم ضد الروم، وقد استعرب الكثير منهم، وكانوا في عدة أماكن من بلاد العرب والشام، ثم انتقلوا الى السواحل فيما بعد.

ـ العرب: وكانوا يستوطنون بعلبك قبل حركة الفتح الاسلامي، مما يدل على قدم

---

٦٢. سيأتي التعريف به.

٦٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق (مخ)، جـ٢٠، ص ٤٠٠ وفي النسخة التي حققها شكري فيصل وسكينة الشهابي ومطاع الطرابيشي أكثرهن وهم (انظر: تاريخ دمشق ـ تراجم حرف العين (عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد)، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨١. ص ٣٦٨، ٣٦٩.

٦٤. الحموي، معجم جـ١، ص ٤٥٤.

الوجود العربي في القسم الشرقي من لبنان على الأقل. و يأتي مرور الشاعر المعروف «امرؤ القيس الكندي» بها في وقت مبكر قبل ظهور الاسلام، وهو في طريقه الى حمص، ليؤكد هذه الحقيقة (٦٥).

النصارى: وهم السكان الوطنيون من أهل بعلبك. ومنهم النبط أو الأنباط.

رواية «الواقدي» حول فتح بعلبك: من الواضح، أننا ندين، في معلوماتنا عن فتح بعلبك، بالفضل بشكل رئيس للمؤرخ محمد بن عبد الله البصري الأزدي (المتوفى سنة ٢٣١هـ) في كتابه «فتوح الشام». على أنه ليس في الكتاب الذي وصلنا نص كتاب الصلح. كما ليس فيه أية اشارة لفتح مدن لبنان الأخرى.

وهناك رواية أخرى عن فتح بعلبك منسوبة الى الواقدي (المتوفى ٢٠٧هـ) في كتاب «فتوح الشام ومصر» المنسوب اليه. وهذا الكتاب يعتبره المستشرق مارجليوث كتاباً ظنياً وليس بذي قيمة تاريخية (٦٦). بينما يعتبره جرجي زيدان أشبه بالقصص عنه بالتاريخ لما حواه من التفاصيل والمبالغات، لكنه مؤسس على الحقيقة، وفيه حقائق لا توجد في سواه من كتب الفتوح (٦٧). ونحن نؤيد ما ذكره جرجي زيدان، ففي الكتاب جملة حقائق تاريخية تدعمها المصادر الموثوقة، و يجدر بالباحثين والمحققين أن يوجهوا عنايتهم إليها.

تقول الرواية: ان أبا عبيدة أتى الى بعلبك بعد فتح قنسرين والعواصم، وكان قد عقد مع أهلها صلحاً وكذلك مع أهل حمص وشيزر وغيرها، وإن مدة الصلح أشرفت على الانقضاء ولذلك عاد لتقرير أمرها، خصوصاً بعد أن قدمت جموع هائلة من الروم عن طريق حمص وبعلبك وانتشارها في البقاع، حيث خشي المسلمون أن يحال بينهم و بين اخوانهم المرابطين في سواد الأردن (٦٨). وقبل أن يصل أبو عبيدة الى بعلبك قام جنوده بالاستيلاء على قافلة كانت قادمة من الساحل وفيها أربعمائة حمل من السكر والفستق والتين وغير ذلك. وأخذوا رجال القافلة أسرى، ولكن بعضهم استطاع الافلات والوصول الى المدينة، فأخبروا بقدوم المسلمين (٦٩) وكان في بعلبك بطريق يدعى «هربيس» فخرج الى ظاهرها في

٦٥. ابن عساكر، تهذيب، جـ٣، ص ١٠٥. وكان امرؤ القيس قد مر ببعلبك فلم يستضفه أحد من أهلها، فقال: لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج كان في حمص أنكر انظر: السمعاني، ورقة ٨٦ أ.

٦٦. مارجوليوث، س، دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، دار الثقافة، د. ت. ص ١٠٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: مارجليوث، دراسات.

٦٧. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ٤ ج، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٧. جـ٢ ص ٤٥٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: جرجي زيدان، تاريخ آداب.

٦٨. ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٦١.

٦٩. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٧٥، ص ٧٦.

سبعة آلاف رجل لقتال المسلمين، ولكنه ارتد منهزماً ومثقلا بالجراح، وعندما وصل أبو عبيدة الى أسوار المدينة تبين له أنها تكتظ بالسكان من أهلها وأهل السواد والقرى القريبة منها، وأنها مدينة هائلة وحصن حصين، ولا غرو ففيها القلعة الرومانية التي تعد من عجائب الدنيا (٧٠)، كما لاحظ شدة البرد عندها شتاء وصيفاً (٧١)، فكتب اليهم كتاباً يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم، أبي عبيدة بن الجراح، الى أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين، فان الله سبحانه وتعالى، وله الحمد، أظهر الدين وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الكافرين، وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد، وان كتابنا هذا معذرة بيننا و بينكم وتقدمة الى كبيركم وصغيركم لأننا قوم لا نرى في ديننا البغي، وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم، وان دخلتم فيما دخل فيه أهل المدن من قبلكم من الصلح والأمان صالحناكم، وان أردتم الذمام ذممناكم، وإن أبيتم الا القتال استعنا عليكم بالله وحار بناكم. فأسرعوا بالجواب، والسلام على من اتبع الهدى). إنا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى) (٧٢).

وقد أحدث الكتاب خلفاً بين أهل بعلبك، فمنهم من وافق على تسليم المدينة دون قتال، ومنهم من صمم على المقاومة، وفيهم البطريق «هربيس»، وصعد المقاتلون الى الأسوار وراحوا يقذفون المسلمين بالسهام والحجارة، ثم خرجوا من الأبواب وقاتلوهم يومين، ولكن المسلمين ألجأوهم الى ضيعة حصينة في الجبل فحاصروهم فيها حتى أجبروهم على الاستسلام وصالحوهم على ألفي أوقية من الذهب ومثلها من الفضة، وألفي ثوب من الديباج، وخمسة آلاف سيف، وأن يسلم المقاتلون المحاصرون في الضيعة سلاحهم، و يؤخذ منهم رهائن لضمان تسليم المال المقرر، وأن يؤدوا خراج أرضهم للعام التالي، وأداء

٧٠. انظر عنها. اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، البلدان نشر ضمن الأعلاق النفسية، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٨١. ص ٣٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: اليعقوبي، بلدان، الأصطخري أبو اسحق ابراهيم بن محمد (ت ق ٤هـ/ ١٠م)، الأقاليم، بغداد، مكتبة المثنى، د. ت. ص ٣٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا الأصطخري، الأقاليم؛ الأصطخري، أبو اسحق ابراهيم بن محمد، المسالك والممالك، نشره دي غو يه، ليدن، بريل، ١٩٢٧. ص ٢٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الاصطخري، المسالك، ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، نشره دي خو يه، ليدن، بريل، ١٨٨٥، ص ١١٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر؛ ابن شداد، الأعلاق، ص ٤٢؛ النو يري، نهاية جـ١، ص ٣٨٣؛ محمد أحمد باشميل، حروب الاسلام في الشام، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٤٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد أحمد باشميل، حروب.

٧١. حول هذا يذكر المقدسي في «أحسن التقاسيم، ص ١٧٩»: ان أشد اقليم بالشام برداً: بعلبك وما حولها، ومن أمثالهم: قيل للبرد: أين نطلبك؟ قال: بالبلقاء قال: فان لم نجدك. قال: بعلبك بيتي.

٧٢. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٧٧.

الجزية في كل عام، وأن لا يحملوا سلاحاً على المسلمين ولا يكاتبوا أحداً من ملوكهم، ولا يحدثوا كنيسة، وعليهم أن يقدموا النصح للمسلمين.

واشترط أهل بعلبك في مقابل ذلك أن لا يدخل عسكر المسلمين الى مدينتهم. وأن يرفع الحصار عن مقاتليهم في الضيعة المحاصرة. فوافق أبو عبيدة على ذلك واستعمل على بعلبك رجلا من سادات قريش يدعى «رافع بن عبد الله السهمي» (٧٣). وضم اليه (٥٠٠) فارس من أبناء عشيرته و(٤٠٠) من أخلاط المسلمين، وأوصاه أن يقيم الأرصاد والمسالح في أطراف البلاد، وحذره من الروم الذين في السواحل، وأمره أن يشن الغارات عليهم، وأن تكون الغارة في المائة والمائتي رجل، فالتزم رافع السهمي بتنفيذ أوامر أبي عبيدة ووصاياه، فأقام خارج بعلبك وبعث السرايا لشن الغارات على سواحل الروم، وكان يبعث بالغنائم فيبيعها في أسواق بعلبك عن طريق التجار، ووقف هؤلاء على حسن معاملة المسلمين في البيع والشراء فرغبوا بدخول رافع ومن معه الى المدينة فدخلوها بعد أن أذن لهم أبو عبيدة بذلك (٧٤).

ويلاحظ من يقرأ هذه الرواية المنسوبة للواقدي أنها حافلة بأسماء شخصيات من المشاهير والمجاهيل الذين كان لهم دورهم في فتح بعلبك.

فمن المشاهير الذين ورد ذكرهم:

«عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق»، و«عمرو بن معد يكرب الزبيدي»، و«ضرار بن الأزور»، و«ذو الكلاع الحميري» (٧٥)، و«هاشم بن عتبة» (٧٦)، و«ربيعة بن عامر» (٧٧)، و«سعيد بن عمرو بن نفيل» (٧٨)، و«مالك بن الأشتر» (٧٩)، وهذا الأخير ينسب

---

٧٣. في تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٥٥٥، نجد «رافع بن عبد الله» غير منسوب، وهو ممن شهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص سنة ١٤هـ. وكان خليفة لضرار بن الخطاب الفهري على ماسبذان في بلاد فارس سنة ١٧هـ، الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٩.

٧٤. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٧٥ ــ ٨٦؛ ميخائيل الوف البعلبكي، تاريخ بعلبك، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٩. ص ١٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ميخائيل، تاريخ.

٧٥. قتل في موقعة صفين سنة ٣٧هـ. الدينوري، أبو حنيفة أحمد داود (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٧٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الدينوري، الأخبار.

٧٦. يعرف بالمرقال، قتل في صفين. الدينوري، الأخبار، ص ١٨٣.

٧٧. من الصحابة، يعرف بأبي البراء، ذكره البخاري في التاريخ الكبير، جـ٣، ص ٢٨٠؛ ابن حجر، تهذيب، جـ٣، ٢٥٧.

٧٨. صحابي قدم الشام بعد منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم، مات سنة ٥٨هـ. البخاري، التاريخ، جـ٣، ص ٤٥٢.

٧٩. الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م) كتاب الاشارات في معرفة الزيارات، نشره وحققه =

اليه قبر على باب بعلبك من جهة الشمال (٨٠)، واذا كان المشهور أنه توفي عند القلزم بمصر سنة (٣٧هـ) (٨١)، فان نسبة القبر اليه لا بد وأنها ترتبط بحادثة ما عند بعلبك منها هذه الرواية المنسوبة للواقدي، اذ يقول ياقوت الحموي: «وبها قبر يزعمون أنه قبر مالك بن الأشتر النخعي» (٨٢). ونحن نقول: ليس أمامنا وبين أيدينا من معلومات سوى اشتراك ابن الأشتر في حصار بعلبك، حسب الرواية المنسوبة للواقدي، مما يكسبها بعض التأييد، رغم تحفظنا نحو صحتها لما احتوت عليه من تفصيلات كثيرة.

ومنهم أيضاً: «حبان بن تميم الثقفي» و«حمران بن أسيد الحضرمي»، ولم أجدلهما ترجمة، بل وقفت على ذكر أبو يهما (٨٣).

أما المجاهيل الذين لم أجد لهم ذكراً، فمنهم:

«عامر بن وهب اليشكري» و«غياث بن عدي الطائي»، و«سهل بن صباح العبسي» و«زيد بن ورقة بن عامر الزبيدي»، و«مصعب بن عدي»، فضلا عن «رافع بن عبد الله السهمي» الذي استعمله أبو عبيدة على بعلبك، حسب هذه الرواية. ولعله: رافع بن عبد الله بن حذافة السهمي الذي أسره الروم أيام الخليفة عمر ثم تخلص منهم ــ وقد ذكره الحاكم النيسابوري في (المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٣٠).

ويظل التاريخ لفتح بعلبك متأرجحاً بين سنتي (١٤ و١٥هـ)، حيث يقول ابن اسحاق وغيره: «سنة ١٤: فتحت حمص وبعلبك صلحاً على يدي أبي عبيدة في ذي القعدة، ويقال في سنة ١٥هـ» (٨٤).

ويذكر الواقدي بعد فتح بعلبك أن أبا عبيدة هم بالرحيل الى حمص فورد عليه صاحب «عين الجوز ـ لعلها عين الجر (عنجر الحالية) ـ يطلب الصلح، فصالحه على نصف ما صالحه عليه أهل بعلبك، وولى عليهم «سالم بن ذؤيب السلمي»، وأوصاه بمثل ما

= جانين سورويل طومين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٣، ص ٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الهروي، الزيارات.

٨٠. المصدر نفسه.

٨١. البخاري، التاريخ، جـ٧، ص ٣١١؛ الكندي، محمد بن يوسف (٣٥٥هـ/ ٩٦٥م) الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨، ص ٢٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الكندي، الولاة؛ ابن شداد، الأعلاق، ٢٦٩.

٨٢. الحموي، معجم، جـ١، ص ٤٥٦.

٨٣. تميم الثقفي والد حبان، ويروى عن أبي الدرداء البخاري، التاريخ، جـ٢، ص ١٥٣؛ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن ادريس، الجرح والتعديل حيدر أباد الدكن، جـ٢، ص ٤٤١، رقم ١٧٦١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن أبي حاتم، الجرح.

٨٤. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٦٠.

أوصى به رافع السهمي[٨٥].

أما ساحل الشام، فيبدأ الاحتكاك به ابان حصار بعلبك حيث كان للمسلمين مسلحتان: مسلحة ببرزه، عليها أبو الدرداء الأنصاري[٨٦] وفيها أبو عثمان الصنعاني شراحيل بن مرثد، والأخرى بعين ميسنون فأغار عليهم بطريق، من عقبة بيروت يدعى «سنسناق»، ويبدو أنه نجح في قتل جماعة من أهل تلك المسلحة، ولذا دعيت ميسنون ب «عين الشهداء»[٨٧].

وقد جاءت هذه الغارة لتعجل في فتح القطاع الأوسط من ساحل الشام، والذي يمتد من عرقة شمالا إلى صيدا جنوباً، فبعد فتح دمشق الذي تم في شهر رجب سنة ١٤هـ. خرج يزيد بن أبي سفيان وبصحبته أخوه معاوية نحو بلاد الساحل لفتحها، ولم تحدد المصادر التاريخية الطريق التي سلكها المسلمون الى المدن الساحلية، كما لم يبين البلاذري أي مدينة فتحت قبل الأخرى، إذ يوردها دون مراعاة لترتيب مواقعها الجغرافية فيذكر «صيدا» أولا، وهي في الجنوب من القطاع الأوسط لساحل الشام، ثم يذكر «عرقة» وهي في أقصى الشمال من القطاع، وبعدها يذكر «جبيل» و«بيروت»، وهما في الوسط، فهل سارت حركة الفتح على هذا النحو؟ أم أن الترتيب ــ كما ورد ــ جاء عفواً دون قصد محدد؟

إن الاجابة على هذا التساؤل لا يمكن أن تكون جازمة، ولكن يمكن الظن بأن البلاذري لم يذكر المدن المفتوحة على ذلك النسق اعتباطاً، إذ يحتمل أن تكون القوة الاسلامية المنطلقة من دمشق انقسمت الى فرقتين، توجهت إحداهما جنوباً بقيادة يزيد الى صيدا، وتوجهت الأخرى شمالا بقيادة معاوية إلى عرقة، وهذا الظن يدعمه نص رواية البلاذري حيث يقول: «ان يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق: صيدا وعرقة وجبيل وبيروت ــ وهي سواحل ــ وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً، وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقة معاوية نفسه في ولاية يزيد»[٨٨].

غير أن البلاذري يورد رواية أخرى تفيد أن الفاتح لمدن الساحل هو معاوية لوحده دون أن يوضح اذا كانت حركة الفتح قد تمت قبل فتح دمشق أو بعدها، فيقول: «كان

---

٨٥. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٨٥.

٨٦. البلاذري، فتوح، جـ، ص ١٤٤. وبرزة: قرية من غوطة دمشق.

٨٧. الفسوي، أبو يوسف يعقوب (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، ٣ج، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٤. جـ٣، ص ٢٨٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الفسوي، المعرفة؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٥٠٨، ٥٠٩. ولعل ميسنون هي التي تقع شرقي سوق الغرب، وكيفون في منطقة عالية بجبل لبنان. محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٣. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد علي مكي، لبنان.

٨٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠؛ قدامة، الخراج، ص ٢٩٥.

يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية الى سواحل دمشق، سوى أطرابلس، فانه لم يكن يطمع فيها، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة، فربما قوتل قتالا غير شديد، وربما رمى ففتحها»[٨٩].

أما مدينة صور التابعة لجند الأردن فقد كان أمرها موكولا الى قائد القطاع «شرحبيل بن حسنة» حيث تمكن من فتحها في أواخر سنة ١٣هـ[٩٠]. ولذا تعتبر اولى المدن «اللبنانية» التي دخلها المسلمون. ويبدو أنها لم تبد مقاومة تذكر أمام الفاتحين، ولهذا لا نجد أية تفاصيل عن ظروف فتحها عند البلاذري، مما يوحي بأنها لم تكن مؤهلة للصمود حيث كانت تحصيناتها خربة، وهذا القول ينسحب أيضاً على صيدا وبيروت وجبيل وعرقة، مع فارق نسبي بسيط، حيث كانت كل منها تستسلم بعد يومين أو أيام قليلة من الحصار، مما يؤكد ضآلة شأن تلك المدن، بالمقارنة مع «بعلبك» أو «طرابلس» التي لم تكن آخر المدن «اللبنانية» فتحاً فحسب، بل ربما كانت آخر بلاد الشام كلها فتحاً.

إلا أن الكتاب المنسوب الى الواقدي يزعم أن فتح صور تم على يد راهب نصراني اعتنق الاسلام يدعى «يوقنا»، في الوقت الذي كان يحاصرها يزيد بن أبي سفيان[٩١] وذلك بعد فتح طرابلس على يد الراهب نفسه.

فتح طرابلس

عندما نشرع في البحث لدراسة وتحقيق التاريخ الذي تم فيه فتح طرابلس، لا بد أن نضع بين أيدينا كتاب «فتوح الشام» المنسوب للواقدي، فقد جاء فيه أن الفتح تم على يد الراهب الحلبي المدعو يوقنا، والذي أصبح اسمه بعد اسلامه «عبد الله»، وأن الفتح كان عن طريق خدعة قام بها، وسلم المدينة الى القائد خالد بن الوليد[٩٢].

واذا كانت هذه الرواية غير معتمدة عند المؤرخين، فاننا لا نستطيع أن نهملها كلياً اذ تفيد بأن طرابلس فتحت قبل مدينة قيسارية على ساحل فلسطين التي فتحت في سنة ١٩هـ. وأن أبا عبيدة بن الجراح كتب الى عمر بن الخطاب يبشره بهذا الفتح، وأن الخبر عندما وصل الى أهل الرملة وعكا وعسقلان ونابلس وطبرية، عقدوا كلهم صلحاً مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية[٩٣]. وفي رواية لابن عساكر ان فتح طرابلس كان قبل فتح قيسارية بسنة واحدة. وهذا يعني أنها فتحت سنة ١٨هـ.

---

٨٩. البلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٥٢.

٩٠. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٣٩؛ قدامة، الخراج، ص ٢٩٠.

٩١. الواقدي، فتوح، جـ٢، ص ١٨ ــ ٢١ ــ ٢١.

٩٢. المصدر السابق، جـ٢، ص ١٧.

٩٣. المصدر السابق، جـ٢، صـ٢١.

ورواية ابن عساكر تسترعي النظر، فقد وردت في ترجمة ل «سفيان بن مجيب الأزدي» (٩٤) الذي فتح طرابلس في خلافة عثمان بن عفان، حوالي سنة ٢٥ هـ. و يمكن القول انه اعتمد على رواية البلاذري في نسبة الفتح الى «سفيان» اذ لم يشر بشيء الى الراهب «يوقنا» بطل الرواية المزعومة المنسوبة الى الواقدي، الا أنه ينقل بالسند عن محدث طرابلس في القرن الثاني للهجرة «معاوية بن يحيى الأطرابلسي» قوله: «ان قيسارية فلسطين كانت آخر الشام ومدائنها وحصون سواحلها فتحاً، وأن طرابلس

٩٤. هو «سفيان بن مجيب الأزدي الشامي»، يعد من الشاميين. كان من قدماء الصحابة قال ابن عائد في «المغازي»: «معاوية بن أبي سفيان زوجه حفصة بنت أمية بن حرب». وكان أميراً على بعلبك في خلافة عثمان، حتى ما بعد مقتله في سنة ٣٥هـ. وانفرد «الصفدي» بالقول أنه ولي قضاء بعلبك لمعاوية وتوفي في حدود الخمسين للهجرة. الصفدي، صلاح الدين بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، جـ١٥، تحقيق بيرند راتكه، جمعية المستشرقين الألمان، بيروت، ١٩٧٩. ص ٢٨٣، ٢٨٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الصفدي، الوافي، وكان رأى النبي صلى الله عليه وسلم وحج معه الوداع. روى عنه الحجاج ابن عبد الله الثمالي، وله حديث في صفة جهنم، أخرجه أبو نعيم الأصبهاني والحافظ بن مندة وغيرهما. البخاري، التاريخ، م٨ ق ٢ جـ٤، ص ١٢٤.
وقيل: هو «سفيان بن مجبب، بالباء بعد الجيم. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٢٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، عيون التواريخ والسير، دلهي، ص ٩٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي عيون. وقيل «سفيان بن محبب» بالحاء والباء المشددة. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تقديم آية العد السيد شهاب الدين النجفي، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٣٧، جـ٢ ص ٣٢١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، أسد الغابة. وقيل: بل هو «نفير بن مجيب الثمالي الشامي» ورجحه: الدارقطني، وابن عبد البر، وأبو أحمد العسكري، وابن مندة، وأبو عمر، وابن أبي حاتم، والبخاري، وابن ماكولا، وأبو اليمان. ووقع في رواية عبد الباقي بن قانع «بخيت» بضم الباء وفتح الخاء وسكون الياء والتاء. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٣، ص ٥٥؛
ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ ج، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠، جـ٤، ص ١٥١٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد البر الاستيعاب؛ ابن ماكولا، أبو نصر علي بن هبة الله (ت ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)، الاكمال في رفع الارتياب، تحقيق المعلمي اليماني، طبعة محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٦٢، جـ٧، ص ٢١٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن ماكولا، الاكمال، وخالفه عمر الزيات. والراجح «سفيان» عند أبي حاتم الرازي وأبي زرعة، البخاري، التاريخ، مجلد ٨ق ٢ ج ٤، ص ١٢٤، بيان خطأ البخاري في تاريخه، ابن أبي حاتم، الجرح، ص ١٢٩ بالهامش وكذلك عند بقي بن مخلد، مقدمة بقي بن مخلد تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤. ص ١٦١ رقم ٩١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: بن مخلد، مقدمة. وكذلك عند الخطيب البغدادي، ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٢، ص ١٥٥؛ وابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٣؛ الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، تجريد اسماء الصحابة، ٢ج، طبعة بومباي، ١٩٦٩. جـ١، ص ٣٢٧، جـ٢ ص ١١٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، تجريد؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، المشتبه في الرجال، ٢ج، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٢. جـ٢، ص ٥٧٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، المشتبه؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، تلقيح فهوم أهل الأثر، مكتبة
=

[بساحل] دمشق كانت قبلها فتحاً بسنة أو نحو ذلك».. (٩٥). وهذا القول يؤيد رواية «الواقدي» في أن الفتح كان في سنة ١٨ هـ. ولكن المؤرخ الأزدي المتوفى سنة ٢٣١ هـ. تحدث في كتابه عن فتح قيسارية (٩٦) ولم يذكر شيئاً عن فتح طرابلس ولا غيرها من مدن ساحل دمشق.

ان الرواية المنسوبة الى الواقدي، بالاضافة الى ما جاء في تاريخ ابن عساكر تجعل الفتح مبكراً عن رواية البلاذري، فهما يجعلانه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أما رواية البلاذري ـ ومن بعده قدامة بن جعفر الذي ينقل عنه ـ فتجعله في عهد عثمان بن عفان.

فهل افتتحت طرابلس مرتين؟
أم ان رواية الواقدي لا أساس لها من الصحة؟
ان أحداً لم يناقش هذا السؤال من قبل، بالرغم من أن كثيراً من المؤرخين المحدثين اتفقوا على تاريخ فتح طرابلس في السنة التي تفيدها رواية الواقدي (٩٧).

وقد يكون هذا الغموض في مسألة التاريخ لفتح طرابلس هو الذي حدا بالطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ. لأن يغفل أي ذكر عنها، رغم اعتماده في كثير من رواياته على الواقدي، وقد سبقت الاشارة الى أنه نزل بيروت وقرأ على ابن مزيد البيروتي. وان كان قد ذكر فتح قيسارية ضمن حوادث سنة ١٥ هـ. خصوصاً أنه بدأ يؤرخ بعد وفاة الواقدي بقليل، وعاصر البلاذري وتوفي بعده بواحد وثلاثين عاماً. و يصمت عن ذكر شيء من ذلك كل من «الأزدي» المتوفي سنة ٢٣١ هـ. و «اليعقوبي» المتوفى سنة ٢٨٤هـ. و «المسعودي» المتوفى سنة ٣٤٦ هـ. و يعتبر «البلاذري» المتوفى سنة ٢٧٩ هـ. هو أول من حدثنا عن فتح طرابلس على يد «سفيان بن مجيب الأزدي»، وعنه ينقل «قدامة بن جعفر» المتوفى سنة ٣٢٩ هـ. و يعتمد روايته «ابن الأثير» المتوفى سنة ٦٣٠ هـ. وان كان ذكرها ضمن حوادث سنة ١٣ هـ. (٩٨).

= الآداب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٩٨، ١٩٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي، تلقيح. أما ابن ماكولا، فقد انفرد بقوله: «واختلف في اسمه واسم أبيه فقيل «نفير بن عريب؟ ابن ماكولا، الاكمال، جـ٧، ص ٢١٤، ص ٣٥٩. وانظر ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ص ٣١١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جوامع.

٩٥. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٣.

٩٦. الأزدي، فتوح، ص ٢٧٦ وما بعدها.

٩٧. La Grande Enceklopidia — R. Dasau, Vol. 31, p. 402. Paris; Encyclopaedia Britannica, Vol. 22, p. 481.

٩٨. ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٤٣١.

وسنضطر هنا أن نستعيد النصين الواردين عند البلاذري حول فتح ساحل دمشق لنعلق عليهما، فالأول يقول: «ان يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق: صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهي سواحل، وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقة معاوية نفسه في ولاية يزيد. ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان، فقصد لهم معاوية حتى فتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة، وأعطاهم القطائع»(٩٩).

والنص الثاني يقول: «.. وكان يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية الى سواحل دمشق سوى أطرابلس، فانه لم يكن يطمع فيها..».

ان ما جاء به البلاذري يدعو لطرح سؤال هو:

كيف يفتح يزيد ومعاوية: صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهي سواحل، ولا يطمعان في فتح طرابلس؟

ان هذا وان كان يقوم كدليل قوي على حصانة طرابلس ومنعتها، وأن فتحها لم يكن ميسراً كغيرها من المدن الساحلية، فانه لا يمنع من الاستيلاء على المدينة عن طريق مكيدة حربية كالتي قام بها «يوقنا» على حد الرواية المنسوبة للواقدي، وتاريخ الصراع بين المسلمين والبيزنطيين (الروم) مليء بمواقف الخداع الحربي الذي كان يقوم به الطرفان في عمليات الحصار والقتال وغيرها. فمن المحتمل أن طرابلس سقطت بيد المسلمين قبل قيسارية ولكنها لم تلبث أن عادت الى السيطرة البيزنطية عندما غلبوا على بعض السواحل، كما يقول البلاذري في النص الأسبق.

وثمت رواية أخرى تنسب للواقدي وتتحدث عن موقعة جرت بالقرب من طرابلس في شهر شعبان سنة ١٣هـ. في مرج بينها وبين عرقة يعرف بمرج السلسلة عند حصن يعرف ب«أبي القدس» حيث هاجمت قوة من المسلمين مؤلفة من ٥٠٠ رجل بقيادة «عبد الله بن جعفر «مع جملة من الصحابة، من بينهم «أبو ذر الغفاري» وغيره، جموع الروم وهم في سوق كبير لهم عند دير بالقرب من الحصن(١٠٠). وكادت الغلبة أن تكون للروم الذين بلغوا عشرين ألفاً، لولا أن أنجد المسلمين خالد بن الوليد، وهزم الروم وطاردهم حتى وصل الى النهر خارج طرابلس. وقتل في هذه الموقعة بطريق(١٠١) طرابلس(١٠٢).

٩٩. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٥٩.

١٠٠. يبدو من الوصف أنه في منطقة «البداوي» عند مدخل طرابلس الشمالي.

١٠١. البطريق: هي الصيغة المعرفة للكلمة اللاتينية: باتريكيوس Patricius وقد أنشأ هذه الرتبة الامبراطور قسطنطين (٣٠٦م ـ ٣٣٧م)، وهي رتبة لا تتصل بأي وظيفة، وكانت تمنح لمن يؤدي للدولة خدمات جليلة ـ وقد جرى الاصطلاح على أنها تدل على القائد عند البيزنطيين كالمصطلحات الأخرى «دمستق Domesticus» و«دقس Dux»

١٠٢. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٥٦.

واذا كان الواقدي ينفرد بذكر هذه الموقعة ـ ان جاز لنا القول ـ فاننا لا نستطيع أن نهملها أيضاً، اذ أن «مرج السلسلة» قد ورد ذكره عند «ابن عساكر» أيضاً عند الحديث عن فتح طرابلس، حيث قال ان «سفيان بن مجيب» أقام بعسكره «في مرج السلسلة بينه وبين مدينة أطرابلس خمسة أميال في أصل جبل يقال له طربل، فكانوا هنالك (أي الروم) يسير اليهم منه»...(١٠٣). كما ورد ذكر حصن «أبي القدس» عند الجغرافي «الادريسي» الذي يسميه ب«أبي العدس» (بالعين)، وهو يستعرض الحصون القريبة من طرابلس، فيقول: «.. و ينضاف اليها عدة حصون وقلاع معمورة داخلة في عمالتها مثل أنف الحجر(١٠٤).. وحصن القلمون(١٠٥)، وحصن أبي العدس، وأرطوسية»(١٠٦).

ولا يزال الكبار في السن من أهل طرابلس ونواحيها يذكرون وجود برج يعرف ب«برج العدس» شمالي المدينة على ساحل البحر. وفي سنة (١٨٩٧م) وضع قنصل فرنسا في طرابلس «Paul Savoie» مخططاً صغيراً بين عليه المواقع والأسماء الشائعة للأبراج القائمة على ساحلها في ذلك الوقت، ومنها «برج العدس»، وذكر هذا البرج أيضاً عدد من المستشرقين والمؤرخين والباحثين(١٠٧). وهذا يوثق الى حد ما جانباً من رواية الواقدي على الأقل، و يفرض علينا أن لا نطرحها جانباً برمتها.

١٠٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ٦، ص ٧٦.

١٠٤. حالياً: أنفه، جنوبي طرابلس على ساحل البحر. والطريف أن الأستاذ «فتحي عثمان» يذكر اسمها نقلا عن لسترانج في كتابه بالانكليزية: فلسطين تحت حكم المسلمين «باسم «عناف الهجر» (وهي ترجمة أو تعريب سقيم بالمعنى الأصح). انظر: فتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري جـ١، القاهرة ١٩٦٦. ١٨٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فتحي عثمان، الحدود. وردت «أنفة» في حديث ضعيف هذا نصه:

«قال جرير بن عتبة بن عبد الرحمن: سمعت أبي يحدث الأوزاعي وأنا جالس، قال: حدثني القاسم أبو عبد الرحمن، عن أبي أمامة الباهلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم ستغلبون على الشام وتصيبوا على بحرها حصناً يقال له أنفة، يبعث منه يوم القيامة اثنى عشر ألف شهيداً. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، المعجم الكبير، ١٢ج، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف العراقية بغداد ١٩٨٠، جـ٨، ص ٢٢٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبراني، المعجم.

١٠٥. حالياً القلمون، على بعد سبعة كيلومترات جنوبي طرابلس بينها وبين أنفة على البحر أيضاً.

١٠٦. الشريف الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق تيرولي وآخرون، بابولي، ١٩٧٠، ص ١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الادريسي، نزهة. وارطوسية أو أرتوسية على ضفة نهر البارد بين عرقة وطرابلس على البحر.

١٠٧. Sauvaget, J., "Notes sur les de'fenses de la marine de Tripoli", Bulletin du Musee de Beyrouth. No. II. Paris, 1938; Berchem, Voyage ensuria, Vol. I, p. 124.
لورته، لويس، مشاهدات في لبنان، ترجمة كرم البستاني، بيروت ١٩٥١. ص ١٩، ص ٢٠، بالمتن والحاشية
=

طرابلس قبيل الفتح :

كانت طرابلس تفوق معظم مدن الشام بقوة تحصيناتها، وكان حصارها يتطلب وقتاً طو يلا، كما تتطلب حصاراً خاصاً من البر والبحر، لأن البحر يوفر لها الحماية الطبيعية من جهات ثلاث (الشمال، والغرب، والجنوب)، و يحميها خندق عظيم وأسوار عالية من الجهة الشرقية المطلة على التلال المنتشرة في منبسط السهل. كما كانت تمتاز عن بقية مدن ساحل الشام، بوجود مجموعة الجزر في البحر قرب رأسها(١٠٨). ولا شك في أن هذه الجزر قد لعبت دوراً في مقاومة المدينة للمسلمين، إذ كانت المؤن والنجدات والامدادات تأتي تباعاً من أنحاء الامبراطورية البيزنطية إلى طرابلس وتمر عن طريق هذه الجزر، فتزيد من عناد أهلها، ولم تكن المدينة مهددة بانقطاع مياه النهر عنها، اذ أن أرضها غورية تنبثق منها المياه الصالحة للشرب بشكل آبار على عمق أمتار قليلة.

وحدث في سنة ٢٣هـ/٦٤٤م أن استطاع البيزنطيون أن يستعيدوا بعض المدن الساحلية من المسلمين، وأن يتشبثوا بها سنتين كاملتين، ومن الواضح أن تلك المدن كانت منها بيروت وجبيل وغيرها، وساعدهم على ذلك كثرة الجالية البيزنطية الموجودة في طرابلس وقد راحت الأجناد العربية تدفعهم حتى ارتدوا الى طرابلس التي بقيت كآخر معقل لهم على سواحل الشام(١٠٩).

كان لا بد عند ذلك من فتح طرابلس، بعد أن أطبق عليها الحصار من كل جانب وأصبحت محاطة بالمدن الاسلامية من جهات ثلاث، فمن الشمال استولى المسلمون على عرقة وحصنها المنيع، ومن الجنوب دخلت جبيل و بيروت في حوزتهم، ومن الشرق سقطت بعلبك في أيديهم، وبات أمر فتح طرابلس لا بد منه، اذ ليس من المعقول أن يتغاضى المسلمون عن وجود قاعدة بيزنطية تهدد الفتوح الاسلامية، هذا الى جانب كون طرابلس

= سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لورته، مشاهدات؛ أسد رستم، آراء، ص ٤٣؛ سيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٧. ص ٤٤٠، ٤٤١. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: سيد عبد العزيز، طرابلس؛ سميح الزين، تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩ ص ٤٣٠ ــ ٤٣٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الزين، تاريخ؛ كامل البابا، نبذة عن تاريخ طرابلس (مخطوطة) كتبها في ٧ جمادى الآخرة/٢٦ آذار ١٩٥٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البابا و نبذة. وأنظر كذلك كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر دولة المماليك) جـ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٥٩ ــ ٢٦٥. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عمر، تاريخ جـ٢.

١٠٨. ابراهيم العدوي، الأمو يون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٥٣. ص٥٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابراهيم، الأمو يون.

١٠٩. من تاريخ التحصينات العربية في ساحل الشام (بحث ألقاه محمد عبد الهادي شعيرة في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٣. ص ٤٢٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا. محمد عبد الهادي، من تاريخ التحصينات.

ميناء هاماً لاقليم الشام وثغراً لساحل دمشق وحمص. فكانت العوامل السياسية والاقتصادية والعسكرية تحتم الفتح، ولذا فان معاو ية اهتم بأمرها بعد أن رأى البيزنطيين وهم يحاولون أن يتشبثوا بموطىء قدم لهم على ساحل الشام، وأنهم قد يستخدمون طرابلس كرأس حربة وكمنطلق لتهديد المدن المفتوحة، خصوصاً وأن البيزنطيين كانوا لا يزالون يتفوقون على المسلمين بأساطيلهم البحرية، و بقاء الساحل الاسلامي عرضة لغزواتهم.

وهكذا فان معاو ية حصل على موافقة الخليفة عثمان ــ بعد مقتل عمر ــ بفتح ما تبقى من مدن الشام الساحلية، كما حصل على موافقته بركوب البحر بعد أن كان عمر يمانع في ذلك.

الحصار والفتح

لما استخلف عثمان وولي معاو ية الشام، وجه معاو ية، القائد الصحابي «سفيان بن مجيب الأزدي» الى طرابلس، وهي في ذلك الوقت ثلاث مدن مجتمعة في اللسان الرومي الداخل في البحر،(١١٠) وبها ثلاثة حصون. فجاءها سفيان بعسكر عظيم قادماً من بعلبك ــ حيث كان أميراً عليها ــ وعندما أصبح على بعد خمسة أميال من طرابلس، عسكر بجيشه في مرج عندها كان يعرف بمرج السلسلة عند سفح جبل «تربل» شمالي شرقي المدينة و باشر من هنالك حربه ضد الروم.

ومن الملاحظ أن البلاذري وغيره لم يوضحوا الطريق التي سلكها «سفيان» للوصول الى طرابلس، ولكن يمكن أن نرجح أنه سلك الطريق الداخلية من بعلبك الى الشمال باتجاه نهر العاصي وانعطف غرباً عند المنبسط المعروف بسهل البقيعة، ومن هناك انحدر جنو باً على طريق الساحل حتى وصل مشارف طرابلس الشمالية، و يؤيد هذا ورود ذكر مرج السلسلة وجبل تربل، وهما في الشمال الشرقي من المدينة.

وكان خارج المدينة حصن اعتصم به أهل طرابلس، وهو عند كنيستها الخارجة منها قبلي المدينة(١١١). فقام سفيان بعدة هجمات عليه وعلى المدينة وحصونها، فلم يوفق لمناعتها، ولذا وجد أن من المتعذر عليه أن يحاصر المدينة و يفتحها وهو لا يستند الى قاعدة قريبة يرتكز اليها، وأن أهل طرابلس يتصلون عن طريق البحر بالروم فيحصلون على الامدادات، مما يجعل أمر الحصار طو يلا دون حسم. وعندما طال بالمسلمين الأمر ولم يحرزوا تقدماً يذكر، كتب سفيان الى معاو ية يصف له معاناته أمامها، و يشرح له الموقف، و يطلب منه الرأي والمشورة، فكتب له معاو ية: «ان ابن لك ولعسكرك حصناً يأوون اليه

١١٠. ابن تغري بردي، النجوم، نقلا عن السيرة المنصورية للمقدسي، ج ٧، ص ٣٢٢.

١١١. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص٧٦.

ليلا و يغزونهم نهاراً» (١١٢). وهنا ظهرت براعة سفيان وثباته على منازلة طرابلس، فبدأ بتنفيذ ما أشار عليه معاوية، وانتقل من المرج فعبر النهر الى ضفته الغربية، ونزل في مكان ملائم، يبعد عن المدينة ميلين أو نحو ذلك، وراح يبني حصناً هناك، والأرجح أنه كان فوق التلة الغربية المشرفة على النهر، والتي عرفت عند الصليبيين ب «تلة الحجاج» وليس بمستبعد أن تكون القلعة التي أتى على ذكرها الرحالة الفارسي «ناصر خسرو» قد أقيمت مكان حصن سفيان (١١٣). وكذلك أقيم فيما بعد في المكان نفسه حصن «صنجيل» الصليبي (١١٤).

وبما أن الحصار يحتاج الى قائد يتمتع بمزيتي الضبط الشديد والصبر الجميل، كما يحتاج الى جنود مدربين يتمتعون بالضبط والطاعة، فان انتصار المسلمين على الروم بعد حصار طويل، يدل على شدة ضبط «سفيان» ومقدار صبره، وحسن تدريب رجاله وتكامل ضبطهم (١١٥).

و يعتبر بناء الحصن عملا فذاً قام به سفيان، اذ استطاع أن يشيده بالرغم من تعرض العمال في أي وقت لهجوم يشنه الروم عليهم، وقد جاء بناء الحصن الذي عرف باسم «حصن سفيان» (١١٦) ليكون أول حصن من بناء العرب من ألفه الى يائه استخدم للمرابطة والهجوم (١١٧).

وعندما تم لسفيان بناء الحصن ــ الذي يؤكد الدكتور شعيرة أنه بني بين عامي ٢٣ ــ ٢٥ هـ. على التحقيق (١١٨) ــ أخذ يشدد ضغطه على الروم، فكان يبيت كل ليلة في حصنه و يحصن المسلمين فيه، ثم يغدو على العدو في الصباح، وقطع المادة عن أهل طرابلس من البحر وغيره، كما يقول البلاذري (١١٩)، وان كان لم يوضح كيف قطع سفيان المادة من البحر، هل كان ذلك بواسطة سفن تساعده بحراً؟ أم أنه وضع حرساً على الشواطىء المحيطة بالمدينة لمراقبة سفن الروم التي تأتي بالامدادات؟

---

١١٢. المصدر نفسه.

١١٣. ناصر خسرو علوي، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠ ص ٤٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ناصر خسرو، سفرنامه.

١١٤. انظر كتابنا، تاريخ جـ١، ط٢، ص ٤٠٧ ــ ٤١١.

١١٥. محمود شيت خطاب، قادة الفتح الاسلامي (قادة فتح الشام ومصر)، بيروت، ص ١١٠، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمود شيت، قاده.

١١٦. سمي فيما بعد بحصن «كفر قدح» كما يقول ابن عساكر

١١٧. محمد عبد الهادي، من تاريخ التحصينات، ص ٤٢٩.

١١٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠.

١١٩. المصدر نفسه.

وعلى أية حال فان سفيان ضيق الخناق على طرابلس حتى ألجأ أهلها الى الاعتصام بالحصن الغربي عند رأس الميناء القريب من الجزر (١٢٠)، حيث راحوا يفكرون جدياً في النجاة من قبضة سفيان، بعد أن يئسوا من طول الحصار الذي امتد أشهراً، حيث نفدت منهم المؤن والأقوات. وعجزوا عن الخروج من المدينة للتصدي لقوات سفيان، فكتبوا إلى امبراطور الروم (البيزنطي) «قنسطان الثاني» (٦٤١ ــ ٦٦٨م) يسألونه أن يمدهم بمساعدة حربية، أو يبعث إليهم بمراكب يهربون بها إلى بلاده (١٢١). ولكن قنسطانز كان أعجز من أن يدافع عن ممتلكات الامبراطورية، وأن المسلمين مصممون على اقتلاع حكم الروم من بلاد الشام كلها، ولذا فانه اكتفى بارسال مجموعة من المراكب تسللت ليلا الى ميناء المدينة حتى لا يراها المسلمون، ونرجح أنها رست عند الجزر في البحر، فركبها الروم بعد أن حملوا معهم أمتعتهم وأثاثهم، وأخلوا المدينة من صغيرهم وكبيرهم، وأبحروا تحت جنح الظلام (١٢٢).

و يذكر ابن عساكر أن الروم أشعلوا النيران في جنبات المدينة عند فرارهم، وهم يهدفون بذلك تدميرها حتى لا تصلح لاقامة العرب فيها. وعندما أصبح سفيان في اليوم التالي، قام لشن الغارة عليها كعادته من كل يوم، ولكنه لم يلق مقاومة، ووجد الحصن الذي كان يحتمي به الروم خالياً، فدخله وجنوده. وعندما قام المسلمون بتفتيش المدينة وجدوا يهودياً قد تحصن من النار في سرب فيها، فأخرجوه وأخبرهم خبر الروم ومسيرهم في المراكب (١٢٣).

وهكذا تم لسفيان فتح طرابلس، فدخلها وهي خاوية على عروشها دون قتال سنة ٢٥ هـ/٦٤٦م وكتب الى معاوية في دمشق يبشره بهذا الفتح المبين. وارتفعت راية الاسلام فوق أسوار المدينة. ومنذ ذلك التاريخ دخلت حلبة الصراع بين العرب والبيزنطيين، فسطرت أروع الصفحات المشرفة والمشرقة من النضال والجهاد والصمود.

---

١٢٠. المصدر نفسه.

١٢١. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥١؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ١٩٥، ص ٢٩٦؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦.

١٢٢. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦.

١٢٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦ ــ ٧٧؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٤.

الاحتواء الاسلامي للشعوب غير العربية

إن أهم ما يسترعي اهتمام الباحثين والمؤرخين، وهم يدرسون الحياة السياسية في الدولة الأموية، ذلك الظهور الواضح للعناصر غير العربية على مسرح الأحداث، من: فرس، وروم، وأقباط، وجراجمة، وغيرهم، وهم يشاركون في فتوحات الدولة العربية الاسلامية و يقاتلون أبناء جلدتهم، و يسهمون في بناء الأسطول الاسلامي، و يتولون قيادته وقيادة الجند، و يتسنمون المناصب الرفيعة حتى يصلون إلى إمرة المدن العربية. وهذه ظاهرة جديرة بتسليط الأضواء عليها، من حيث قدرة العنصر العربي على احتواء العناصر والقوميات غير العربية، وتحويل أبناء الفرس والروم، وغيرهم إلى بناة للدولة العربية وحماة لأراضيها، وكذلك قدرة الاسلام والمسلمين على تطويع أبناء الطوائف الأخرى لتعمل في خدمة الدولة الاسلامية، وفي عصر عرف لدى البعض بأنه «عصر التعصب الأموي للعروبة»، فشارك الروم، والفرس، والأقباط، والجراجمة والأنباط، والزط، وغيرهم من الأحباش والبربر فيما بعد، إلى جانب العرب المسلمين في أشهر معاركهم البحرية، وفي مقدمتها موقعة «ذات الصواري» وغزو جزيرة قبرص وأرواد وصقلية وحصار القسطنطينية، وفي الدفاع عن حدود الدولة العربية في الثغور البرية والبحرية وعند الحدود المتاخمة للدولة البيزنطية.

وتمدنا المصادر التاريخية القديمة بروايات كثيرة تؤكد هذه الظاهرة في وقت مبكر يسبق العصر الأموي، حتى أن اليهود كانوا من بين العناصر التي تشملهم تلك الظاهرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان اذ أن المسلمين أسكنوا جماعة منهم في المدن المفتوحة على ساحل الشام، فقد ذكر المؤرخ الحافظ ابن عساكر أن معاوية أسكن جماعة كبيرة من يهود الأردن في طرابلس بعد فتحها وجلاء البيزنطيين عنها حول سنة ٢٥ هـ/٦٤٦م. ولم يسكنها غيرهم لبضع سنين (١٢٤). ونرى اشارة لذلك عند البلاذري (١٢٥) والمنبجي (١٢٦).

الأقباط:

وعن الأقباط واحتواء العروبة لهم، تفيدنا المعلومات التاريخية عن مشاركتهم العملية إلى جانب المسلمين في غزواتهم ومعاركهم البحرية ضد البيزنطيين، واسهامهم الفعال في صناعة المراكب وفي قيادتها أثناء القتال على حد سواء.

ولا غرو، فالأقباط كانوا مرحبين بالفتح العربي الاسلامي، منذ بدأت طلائع القائد

---

١٢٤. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص٧٧؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص١٨٣.

١٢٥. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥١.

١٢٦. المنبجي، اغابيوس بن قسطنطين، كتاب العنوان، جـ٢، ص٣٤٦.

عمرو بن العاص تصل الى حدود مصر الشرقية في شبه جزيرة سيناء، فقد ذكر المؤرخ المصري «عبد الرحمن بن عبد الحكم» المتوفى سنة ٢٥٧هـ «أنه كان بالاسكندرية أسقف يقال له «أبو ميامين» (لعله تصحيف: بنيامين)، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص الى مصر، كتب الى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، و يأمرهم بتلقي عمرو، فيقال: أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعواناً لعمرو».

ثم يقول أنه خرج مع عمرو «جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم» (١٢٧)

ولقد أسهم الأقباط، بشكل أو بآخر، في فتح جزيرة قبرس مع الفاتحين المسلمين من الصحابة حول سنة ٢٨هـ/٦٤٩م. و يتبين ذلك مما أورده «أبو نعيم الأصفهاني» اذ يقول «أخرج معاوية غنائم قبرس الى أنطرطوس من ساحل حمص، ثم جعلها هناك في كنيسة يقال لها كنيسة معاوية، ثم قام في الناس فقال: اني قاسم غنائمكم على ثلاثة أسهم: سهم لكم، وسهم للسفن، وسهم للقبط، فانه لم يكن لكم قوة على عدو البحر الا بالسفن والقبط. فقام أبو ذر (الغفاري) فقال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا تأخذني في الله لومة لائم، أتقسم يا معاوية للسفن سهماً، وانما هي فيئنا؟ وتقسم للقبط سهماً وانما هم أجراؤنا؟ فقسمها معاوية على قول أبي ذر» (١٢٨).

ان في هذا النص اشارة واضحة الى مشاركة القبط في غزو قبرس، وميل معاوية الى إشراكهم في الغنائم تقديراً لدورهم.

و يتجلى احتواء المسلمين للقبط في الموقعة البحرية الكبرى المعروفة ب «ذات الصواري» فقد خرج الأسطول البحري من سواحل مصر بقيادة عبد الله بن أبي السرح حول سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م. لقتال البيزنطيين، ومع الأسطول الاسلامي مراكب للأقباط شاركت في الموقعة مع مراكب العرب المسلمين، حيث يذكر المؤرخ «محمد بن جرير الطبري» في معرض تأريخه للموقعة أن «محمد بن حذيفة» حين تنابذ وقائد الأسطول «ابن أبي السرح» أقسم عليه «ابن أبي السرح»: «والله لا تركب معنا، قال: فاركب مع المسلمين؟ قال: اركب حيث شئت، فركب في مركب وحده ما معه الا القبط، حتى بلغوا ذات الصواري، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة فيها القسطنطين بن هرقل» (١٢٩).

---

١٢٧. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، طبعة نيو يورك، ١٩٣٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد الحكم، فتوح.

١٢٨. أبو نعيم الأصبهاني، عبد الله (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ج دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧. جـ٥، ص ١٣٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو نعيم، حلية.

١٢٩. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٢٩١.

و يذهب «ابن أعثم الكوفي» الى أبعد من ذلك في كتاب «الفتوح» المنسوب اليه، حين يقول ان المركب الذي كان فيه معاو ية وزوجه وأولاده، وهو في الطريق الى غزو قبرس، كان يقوده ملاح قبطي يدعى «طليا»(١٣٠).

وكانت جاليات قبطية لا تزال تسكن مدن ساحل الشام حتى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، (الثامن الميلادي) على الأقل، بدليل مشاركتهم في تشييع جنازة الامام الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ/٧٧٤م. مع المسلمين واليهود والنصارى(١٣١).

الجراجمة:

أما الجراجمة فهم قوم كانوا يسكنون مدينة «الجرجومة» على جبل اللكام، عند معدن الزاج فيما بين بياس و بوقا، بالقرب من أنطاكية. وقد مر الاحتواء العربي لهم في عدة أدوار، وواجه بعض المصاعب حتى تم احتواؤهم في العصر الأموي، و باتوا يشكلون فرقة في جيوش المسلمين في مطلع القرن الثاني الهجري.

وتبدأ قصة علاقات المسلمين بالجراجمة منذ حركة الفتح لشمالي الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، في رواية لمؤرخ الفتوحات الاسلامية «البلاذري» مفادها أنه لما قدم أبو عبيدة بن الجراح الى أنطاكية وفتحها في سنة ١٥هـ/٦٣٦م. لزم أهل الجرجومة مدينتهم، وكان أمرهم الى بطريق أنطاكية وحاكمهم، وهموا باللحاق بالروم، اذ خافوا على أنفسهم فلم ينتبه المسلمون لهم، ولم ينبهوا عليهم. وعندما نقض أهل أنطاكية وغدروا بالمسلمين، وجه اليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية، وولاها «حبيب بن مسلمة الفهري» فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم طلبوا الأمان والصلح فصالحهم على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم، ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم، وأهل القرى في هذا الصلح، فسموا الرواديف(١٣٢). لأنهم تلوهم وليسوا منهم، (أي ليسوا من العرب والمسلمين)، و يقال: انهم جاؤوا بهم الى عسكر المسلمين وهم أرادف لهم فسموا رواديف، فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة و يعوجون أخرى فيكاتبون الروم و يمالئونهم(١٣٣). ولذلك عرفوا بالمردة لكثرة تمردهم على العرب والبيزنطيين على حد سواء.

والجراجمة في الأصل من بلاد فارس، وقد خرجوا مع «سيف بن ذي يزن» الى اليمن

---

١٣٠. ابن أعثم الفتوح، نقلا من كتابات المؤرخين العرب، سهيل زكار، ص ٩٥.

١٣١. ابن أبي حاتم، الجرح، جـ١، ص ٢٠٢ (التقدمة)؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٥، ص ٧١.

١٣٢. ظلت هذه التسمية شائعة حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

١٣٣. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٨٩.

لمساعدته في حربه ضد الأحباش، فعرفوا هناك بـ«الأ بناء» وفي صنعاء بـ«بني الأحرار» واستوطنوا بعد ذلك في البلاد، فعرفوا بالكوفة ب «الأحامرة» و بالبصرة: «الأساورة» و بالجزيرة: «الخضارمة»، و بالشام: «الجراجمة»، ولأمية بن أبي الصلت في «بني الأحرار» قوله وهو ينشد «سيف بن ذي يزن»:

لا يطلب الثأر الا كابن ذي يزن — في البحر خيم للأعداء أحوالا
.. حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم — تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
لله درهم من فتية صبروا — ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا
بيض مرازبة غلب أساورة — أسد تربت في الغيضان أشبالا(١٣٤)

و بعضهم يعرف الجراجمة بأنهم قوم من العجم بالجزيرة، ففي حديث وهب قال: قال طالوت لداود عليه السلام: أنت رجل جريء، وفي جبالنا هذه جراجمة يجترمون الناس، أي لصوص يستلبون الناس و ينتهبونهم. و يقال: الجراجمة، نبط الشام، قال ابن بري: ومنه قول أبي وجزة:

... ... لو أن جمع الروم والجراجما(١٣٥)

وكان الجراجمة في الأصل من جوار «مرعش» المعروفة قديماً (جرما نيقية)، ثم انتقلوا إلى شمالي الشام واتخذوا مدينة الجرجومة عاصمة لهم(١٣٦). وكذلك عرفوا بالجرامقة نسبة الى جرما نيقية، و بالجراجمة نسبة الى الجرجومة، وهما من أصل واحد، ذكرهما المؤرخ «ابن الأثير» في حوادث سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠(١٣٧).

إذن، بدأت العلاقات بين المسلمين والجراجمة في دورها الأول في عهد الفتح أيام الخليفة عمر بن الخطاب، فاتخذهم المسلمون عيوناً لهم ومسالح ترصد الدروب عند جبل اللكام على الحدود المتاخمة للدولة البيزنطية ورفعوا عنهم الجزية، وسمحوا لهم بالحصول على نصيبهم من الغنائم إذا حضروا معهم الحرب، وهذه معاملة فريدة لم يحظ بها غيرهم من رعايا الدولة العربية فيما نعتقد.

على أن الجراجمة قلبوا ظهر المجن في عهد معاو ية فأظهروا العداء للمسلمين

---

١٣٤. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) الأغاني، ٢٠ ح، طبعة بولاق، أعادت نشره بالاوفست دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٧٠. ترجمة «أمية بن أبي الصلت»، جـ١٦، ص ٧٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني.

١٣٥. اللسان، جـ١٤، ص ٣٦٣.

١٣٦. لامنس، هنري، تسريح الأ بصار فيما يحتوي لبنان من آثار، ٢ ج، بيروت، ١٩٨٣، جـ٢، ص ٥١، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا. لامنس، تسريح الأ بصار.

١٣٧. ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص ٧٥.

وشاركوا الروم البيزنطيين في حملتهم البحرية التي استهدفت سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م. وقد ذكرتهم المصادر اليونانية القديمة باسم المردة:

و يلاحظ أن البلاذري لم يورد تفصيلا لغزوة الروم هذه، كما لم يشر اليها غيره من المؤرخين المسلمين، وقد أشار إليها المؤرخ اليوناني «توافانس» المتوفي سنة ٨١٨م. فقال: «في سنة ٦٦٩ للمسيح دخل المردة لبنان واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة المقدسة، وانضم إليهم كثير من أبناء البلاد والعبيد والأسرى، فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدة آلاف»(١٣٨).

وكلمة المردة المستخدمة هنا هي كلمة فارسية مفردها «مرد Marde» ومعناها: الشجاع، وأطلق على الجراجمة أيضاً اسم «الماردية Mardaites» وهي تسمية بيزنطية(١٣٩).

وعاد الجراجمة فساعدوا الروم في غزوة جديدة حيث انتزعوا مدينة حماة من المسلمين مغتنمين فرصة وفاة معاوية، ناقضين للهدنة، وعندما قصد ابنه «يزيد» لاستردادها اعترضه أهل الجبال وردوه عنها في سنة ٦٠ هـ(١٤٠).

واستمر خطرهم واضحاً في أيام عبد الملك بن مروان، ثم في أيام الوليد بن عبد الملك(١٤١)، الى أن أثبتوا مع الأنباط ـ بعد ذلك ـ صدق عهدهم تجاه المسلمين، ونجح هؤلاء في احتوائهم حتى مطلع القرن الثاني للهجرة، على الأقل، حيث نراهم يشكلون جزءاً من عسكر «مسلمة بن عبد الملك» حين خرج بأهل الشام لقتال «يزيد بن المهلب» في البصرة سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م. ونقف على ذلك في نص خطبة «ابن المهلب» التي أوردها ابن الأثير، ومنها قوله: «... يقولون: جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام؟ هل هم الا تسعة أسياف، سبعة منها الي، وسيفان علي؟ وما مسلمة الا جرادة صفراء، أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاحين وأوباش وأخلاط..»(١٤٢).

١٣٨. بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، ٢ج، دار النهار، بيروت، ١٩٧٠، جـ١، ص ٢٨١. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بطرس ضو، تاريخ.

١٣٩. والجراجمة مسيحيون على شيء من الفتور في عقيدتهم. صالح بن يحيى (٨٤٠هـ/١٤٣٦م)، تاريخ بيروت، تحقيق لويس شيخو: بيروت ١٩٦٩. الحاشية ص١٧. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: صالح ابن يحيى، تاريخ. ومفرد جراجمة: جرجماني، كما ورد في الأغاني في قصيدة الأعشى همدان (دائرة المعارف الاسلامية، جـ١١، ص ١٥٠، ١٥١.

١٤٠. طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ٢ ح، بيروت، ١٩٥٤. جـ١، ص ٢٠٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الشدياق أخبار.

١٤١. راجع حركات الجراجمة في: البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٨٩، ص ١٩٠، وانظر كتابنا، تاريخ طرابلس جـ١، ص ١٢٥ ـ ١٣٢، ص ١٤٩ ـ ١٥١.

١٤٢. ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ٧٥.

الفرس:

أما عن اسكان الفرس في ساحل الشام، فان معاوية عندما انفرد بالخلافة سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م. كان يضع نصب عينيه الاهتمام بتدعيم المدن الساحلية وتكثيف سكانها بعد أن هجرها كثير من الروم، والتحقوا بأبناء جلدتهم، كما قام هو وأخوه يزيد باجلاء الكثير منهم عن البلاد لذلك قام بعد وقت قصير بارسال جماعة من الفرس والأساورة(١٤٣) ليسكنوا الساحل ويعمروه فنزل الفرس في ساحل الشام على ما يقول «ابن واضح اليعقوبي» المتوفى سنة ٢٨٤هـ: .... وبعلبك وأهلها قوم من الفرس وفي أطرافها قوم من اليمن وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة.. ولبنان صيدا وبها قوم من قريش ومن اليمن، ولجند دمشق من الكور على الساحل: كورة عرقة ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة، وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة، ومدينة أطرابلس وأهلها قوم من الفرس كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم إليها، ولهم مينا عجيب يحتمل ألف مركب، وجبيل وصيدا وبيروت، وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيا»(١٤٤).

ولم يوضح «اليعقوبي» تاريخ نقل الفرس إلى ساحل الشام، ولكن البلاذري يضع تاريخاً لذلك عند حديثه عن أنطاكية فيقول ان معاوية نقل اليها في سنة ٤٢هـ. جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين(١٤٥). و يذكر في موضع آخر عن أحد الأنطاكيين أن معاوية نقل من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة ٤٢ هـ. ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة(١٤٦). فكان من قواد الفرس «مسلم ابن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن النعمان بن مسلم الأنطاكي»(١٤٧). وهذا يعني أن

١٤٣. الأساورة: جمع سوار أو أسوار، وهو اصطلاح الفرس: القائد أو الرئيس وهم قوم من الفرس، ربما كانوا قواداً قبل ابتداء الدولة الساسانية، فلقبوا بذلك، أو ربما استحدثهم أردشير بن بابك أول ملوك الدولة الساسانية ولقبهم بهذا اللقب أما لكونهم كانوا حماة الحرب مخصوصين بقيادة الجيش أو لأنهم كانوا في مجلس الطبقة الأولى من أصحاب الرتب يجلسون مع أبناء الملوك عن يمين الملك. ونهر الأساورة بالبصرة منسوب إليهم لأن قوماً منهم نزلوا البصرة وحفروه. دائرة معارف البستاني، جـ٤، ص ٣٢١.

١٤٤. اليعقوبي، البلدان، ص٢٣٧. ويذكر ابن المنجم (من رجال القرن الخامس الهجري) في كتابه آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان نشر مكتبة المثنى، بغداد، ص١٦. ما نصه: «مدينة طرابلس..... وهي على البحر الشامي، وفيها مرسى عظيم، فيه ألف مركب، وأهلها من قريش» نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيان... وأقول: ان هذا النص منقول من كتاب البلدان لليعقوبي كما هو واضح وقد خلط ابن المنجم بين طرابلس الشام وطرابلس الغرب اذ يعتبر طرابلس هنا أنها الغربية ومع ذلك يقول أنها على البحر الشامي، كما وقع التصحيف أيضاً بين كلمتي: «فرس» و«قريش» فيلاحظ.

١٤٥. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٧٥.

١٤٦. المصدر نفسه.

١٤٧. المصدر نفسه.

عملية نقل الفرس الى الساحل تمت بعد أن تولى معاو ية الخلافة مباشرة، غير أنه يفهم من السياق أن الفرس كانوا في بلاد الشام ومدنه الداخلية قبل حركة الفتح الاسلامي، و يؤيد ذلك ما ذكره البلاذري وابن عساكر عن فتح بعلبك ونص كتاب الصلح الذي يؤكد على وجود العنصر الفارسي فيها الى جانب الروم والعرب والأنباط.

ولا يقتصر ذكر الفرس واسكانهم في ساحل الشام على اليعقو بي والبلاذري فحسب، وانما ينضم اليهما أبو نعيم الأصبهاني، وابن عساكر الدمشقي، وابن العديم الحلبي. وقد قيل أن معاو ية أغزى ابنه يزيد بلاد الروم ومعه «فرس» أنطاكية و بعلبك وغيرهم في سنة ٤٩ هـ. أو ٥٦ هـ(١٤٨) وممن نزل ساحل الشام من الفرس: الصحابي «سلمان الفارسي» المتوفى سنة ٣٤ هـ./ ٦٥٤م (١٤٩). وقد رابط في بيروت (١٥٠). وفي عهد الوليد بن عبد الملك ولي

١٤٨. البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، ق ٢ ج ٤، نشره ماكس شلوسنجر، القدس، ١٩٣٨. ق ٢، جـ ٤، ص ٣. وق ٤، جـ٦، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩، ص ٨٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري: أنساب؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ١٧، ص ٢١٠، اليعقوبي، تاريخ جـ٢، ص ٢٢٩؛ ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧. ص ٢٨٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جمهرة؛ البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م) معجم ما استعجم، ٤ ح، تحقيق مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٥. جـ١، ص ٥٨٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم؛ ياقوت، معجم، جـ٢، ص ٥٣٤.

١٤٩. ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٢، ص ٣٢٨.

١٥٠. نزل عقب فتحها مباشرة، حيث روى «محمد بن المبارك الصوري» المتوفي سنة ٢١٥هـ. أن سلمان قدم دمشق، فلم يبق فيها شريف الا عرض عليه المنزل، فقال: اني عزمت على بشير بن سعد مرتي هذه، فسأل عن أبي الدرداء، فقيل: مرابط: فقال: وأين مرابطكم يا أهل دمشق؟ قالوا: بيروت. نخرج للرباط معه هناك. وكان يصحبه في رباطه «عبد الملك بن أبي ذر الغفاري» أبو زرعة الدمشقي، ٢ ج، تحقيق شكر الله ابن نعمة الله الفرجاني. مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٠. جـ١، ص ٢٢٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو زرعه، تاريخ؛ البلاذري، أنساب، تحقيق محمد حميد الله. القاهرة، ١٩٥٩،جـ١، ١٨٨؛ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، ١٤ ج، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، جـ١، ص ١٦٢ ــ ١٧١ ــ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ ح، دار صادر بيروت، ١٩٥٧، جـ٢، ص ٦٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ ح، دار صادر بيروت، ١٩٥٧، جـ٢، ص ٦٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، طبقات؛ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، المعارف تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص ٢٧٠، ص ٢٧١، سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، المعارف؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٩٢، جـ٢٤، ص ٣٧٨؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٩٧؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الاسلام، جـ٢، نشره حسام الدين القدسي، القاهرة، ص ١٥٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، تاريخ؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب، جـ٤، ص ١٣٧. وانظر بحثاً لنا بعنوان: «الرباط والمرابطون في ساحل بلاد الشام من الفتح الاسلامي حتى الحروب

غزو البحر الشامي بعض الموالي الفرس مثل: «أبو خراسان» وأخيه «الليث بن تميم الفارسي» (١٥١) و «سفيان الفارسي» (١٥٢). وفي أيام هشام بن عبد الملك كان على مدينة صور أمير فارسي الأصل هو: «خالد بن الحسفان الفارسي» (١٥٣). وحتى القرن الثالث الهجري كان في مدينة صور مسجد اختص به الفرس من أهلها عرف بمسجد الفرس (١٥٤)، وكان أهلها أخلاطاً من الناس (١٥٥). أما بعلبك فكان معظم سكانها من الفرس في عهد معاو ية ثم في عهد عبد الملك الذي قام باعطائهم خمس مدينة طرابلس (١٥٦) ولا شك أن الفرس الذين كانوا في بعلبك تحت أمرة «سفيان بن مجيب الأزدي» شاركوا مع العرب في فتح طرابلس. وفي سنة ٣٥ هـ. خرج سفيان من بعلبك بالفرس و بخيل له سواهم لاقتفاء أثر «عبد الرحمن بن عديس» الذي هرب مع أصحابه من السجن في مصر (١٥٧). وكانت بعلبك مركزاً هاماً لامداد مدن الساحل بالقوات المقاتلة والسكان، فعندما فتح معاو ية قبرس في المرة الثانية سنة ٣٣ هـ. «بعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد، ونقل اليها جماعة من بعلبك، و بنى بها مدينة» (١٥٨).

وقد أيد بعضهم رواية نقل معاو ية للفرس الى سواحل الشام بما فيها طرابلس وجبيل و بيروت وصيدا وأن بني أمية سلموهم السواحل لحراستها من غزوات المردة الذين استقدمهم ملوك القسطنطينية (١٥٩). بينما اعترض بعضهم على هذه الرواية، واعتبرها

الصليبية»، قدم للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية بدمشق (١٦ ــ ٢٢ جمادى الآخر ١٤٠١هـ/ ٢٠ ــ ٢٦ نيسان ١٩٨١م)، ونشرته مجلة دراسات تاريخية بدمشق عدد خاص، ٥/ ٧٧ ــ ٩٩. سيشار لهذا المرجع، عمر تدمري، الرباط والمرابطون.

١٥١. ذكر لهما ابن عساكر غزوة إلى القسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٣٦، ص ١٩٧، ١٩٨.

١٥٢. ابن العديم، عمر بن عبد العزيز (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، مخطوط في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٩٢٩. جـ٧، ص ٢٢٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العديم، بغية، ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ١٥، ١٢٢.

١٥٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ٤٦، ص ٧٦٧.

١٥٤. ابن عساكر، تاريخ جـ٤، ص ١٣٦. وكان أمامه ابراهيم بن اسحق بن أحمد أبو اسحق ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٢٦، ص ١١٥.

١٥٥. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧.

١٥٦. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٨.

١٥٧. ابن عساكر تاريخ (مخ) جـ٣٦. ص ١٠٢، ص ١٠٣؛ ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٢، ص ٥٥.

١٥٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٨٢. وانظر دراسة لنا في مجلة الفكر العربي ع ٢٩، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٠٥ ــ ٢٣٠ بعنوان: «مدينة بعلبك وحضورها التاريخي في المصادر العربية خلال العصر الأموي. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عمر تدمري، مدينة بعلبك.

١٥٩. لو يس شيخو في تحقيقه لكتاب «تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، ص ١٤، بيروت ١٨٩٨.

الأستاذ محمد عزة دروزة غير معقولة لأن الأمويين كانوا يتبعون سياسة عربية، فلم يكن من المعقول أن يأتوا بجماعة من الفرس، ويسكنوهم في سواحل الشام ليتقووا بهم، والعرب في أوج قوتهم وقدرتهم ونشاطهم (١٦٠).

ونحن نرى أنه ليس من المستبعد أن ينقل معاوية جماعة من الفرس الى مدن الساحل الشامي في سنة ٤٢ هـ. كما روى البلاذري، بعد أن آلت الخلافة اليه سنة ٤١ هـ. وتلك سياسة حكيمة اتبعها معاوية ليبعث الحياة على الأقل في المدن الساحلية، تماماً كما فعل من قبل عندما نقل يهوداً من الأردن وأسكنهم في طرابلس عقب فتحها (١٦١). مع ملاحظة أن أحداً من الباحثين لم يعترض على رواية اسكان معاوية لليهود في طرابلس، بل ان أحدهم أيد تلك الرواية (١٦٢).

وقد يقال: بما أن الفرس كانوا أشد أعداء الروم، فمن حسن السياسة أن يكونوا بالثغور الساحلية المواجهة لهم، وبذلك يكفونه مؤونة حماية الثغور والدفاع عنها، خصوصاً وانهم خبروا طرق القتال مع الروم في صراعهم الطويل، وهذه السياسة من مفاخر معاوية. هذا، إلى أن من الممكن القول أن عملية النقل كانت تستهدف فيما استهدفته تخفيف الكثافة السكانية التي كانوا عليها في العراق، الى جانب الاستفادة من خبرتهم في صنع السفن وركوب البحر. ولا شك أن أولئك الفرس كانوا قد دخلوا في الاسلام وأصبحوا من المستعربين فأقاموا مع العرب في المدن المفتوحة، وتعلموا العربية، وحملوا أسماء عربية.

ولو رجعنا إلى كتب التراجم ورجال الحديث لوجدنا كثيراً من المحدثين الذين يغلب على بعضهم لقب «الفارسي» ممن نزلوا المدن الساحلية بالاضافة الى بعلبك، ومنهم: محمد بن موسى أو ابن أبي موسى الذي يحدث عنه الامام الأوزاعي، قال أبو نعيم: هو مولى بني أمية، فارسي الأصل، نقلهم معاوية الى بيروت (١٦٣). وحسان بن عطية أبو بكر المحاربي البصري الأصل من الفرس من موالي محارب من ناقلة الشام، سكن بيروت (١٦٤). وأبو

---

١٦٠. محمد عزة دروزة، العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري، ٣ج، دمشق، ١٩٦٠. جـ١، ص ١٥٣، ص ١٥٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد عزة، العرب.

١٦١. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥١؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص٧٦؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٣.

١٦٢. سيد عبد العزيز، طرابلس، ص ٣٦.

١٦٣. أبو نعيم الأصبهاني، حلية، جـ٦، ص ١٤٧.

١٦٤. البخاري، تاريخ، جـ٣، ص ٣٣؛ ابن حبان، مشاهير علماء الأنصار، نشره فلايشهمر، ض ١٨٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حبان، مشاهير؛ أبو نعيم الأصبهاني، حلية جـ٦، ص ٧٠؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٤، ص ١٤٣؛ الذهبي، تاريخ، جـ٥، ص ٦٠.

اسحاق ابراهيم بن عبد الله الفارسي، وكان بصور (١٦٥). وأبو سعيد أحمد بن سعيد بن غيث الصوري الفارسي الامام المعدل، الذي سمعه ابن جميع الصيداوي في صور (١٦٦). وابراهيم (ابن الحسن بن أبي كريمة الصيداوي الفارسي الأصل (١٦٧). وأشعث بن محمد الأشعث أبو النعمان الفارسي المعروف بأبي صيرة، وقد حدث بطرابلس (١٦٨). وأحمد بن عمرو أبو جعفر الفارسي الذي روى بدمشق عن ابن الضحاك البعلبكي (١٦٩). وأحمد بن هشام بن الليث الفارسي الذي حدث بصور (١٧٠). وجده الليث بن تميم الفارسي، وهو من أهل طرابلس ويروي عنه الوليد بن مسلم المتوفى سنة ١٩٥ هـ (١٧١). وأبو الفضل عقيل بن محمد الفارسي الفقيه نزيل بعلبك (١٧٢). وأبو الرضا محمد بن الرضا من فرس بعلبك وحدث بها عن محمد بن هاشم البعلبكي (١٧٣). وأبو صالح محمد بن حفص الفارسي البعلبكي الذي حدث عن ابن كثير الصوري (١٧٤). وأبو السري محمد بن داود بن بيوس البعلبكي الفارسي (١٧٥). وأبو صالح محمد بن عمر الفارسي الذي حدث ببعلبك عن ابن كثير الصوري (١٧٦). وعلي بن محمد بن حفص الفارسي الذي يروي عن عبد الحميد بن بكار البيروتي (١٧٧). هذا فضلا عن: سلمان الفارسي الصحابي، وسفيان الفارسي، وغيرهما.

وبطبيعة الحال، لم يكن الفرس ليشكلوا الأغلبية الساحقة من سكان المدن التي نقلوا اليها، بل نزلوا الى جانب عناصر أخرى بقيت في تلك المدن أو كانت فيها من الروم واليهود والقبط والأنباط، فضلا عن العرب، فقد ذكر البلاذري عن محدث في مدينة صور هو

---

١٦٥. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٣٧، ص ٣٨٢.

١٦٦. ابن جميع الصيداوي، معجم الشيوخ، مخطوطة ليدن. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن جميع، معجم.

١٦٧. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٤، ص ١٦١؛ ابن عساكر، تهذيب جـ٢، ص ٢٠٤.

١٦٨. ابن عساكر، تاريخ جـ٦، ص ٩٧.

١٦٩. ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ٣، ٨٦، جـ٢٢، ص ١٤٧.

١٧٠. ابن جميع، معجم، ص ٨٢؛ ابن العديم بغية، جـ٢، ص ١١٥؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٢٨، ص ١١١.

١٧١. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦.

١٧٢. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ج، تحقيق محمود محمد الطناجي، وعبد الفتاح الحلو، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦. جـ٢، ص ٢٧٠.

١٧٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ) ج ٤٠، ص ١٧٣.

١٧٤. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٣٧، ص ٤١٣، جـ٤٢، ص ٢٦٦.

١٧٥. المصدر السابق، جـ١١، ص ٥٩٩، جـ٣٧، ص ٤٨٣.

١٧٦. السمعاني، الأنساب، ص ١٨٦أ؛ ابن عساكر، تازيخ (مخ) ٣٩٢، ص ٣٢.

١٧٧. السمعاني، الأنساب، ص ١٩٩أ؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب، جـ٦، ص ١٠٩، جـ١١، ص ٣٨٥.

هشام بن الليث الصوري أن مشايخه قالوا: «نزلنا صور والسواحل و بها جند من العرب وخلق من الروم. ثم نزع إلينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا، وكذلك جميع سواحل الشام (١٧٨) كذلك ذكر الطبري أسماء بعض وجوه أهل الكوفة وأشراف العراق الذين أخرجهم عثمان إلى دمشق ثم أخرجهم معاو ية الى حمص فقام واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأنزلهم ساحل الشام وأجرى عليهم رزقاً وألزمهم الدروب، وذلك في سنة ٣٣ هـ (١٧٩). وذكر ابن عساكر أن عبد الملك أعطى الفرس خمس طرابلس، وهذا يعني أن أر بعة أخماس المدينة الباقية من العرب وغيرهم (١٨٠).

و يبدو أن العرب كانوا يخشون في أول الأمر الاقامة في المواني والمدن الساحلية الشامية التي كانت هدفاً لغارات البيزنطيين، ولذا نجد معاو ية يتبع سياسة اقطاع الأراضي عليهم، ليس لتكو ين طبقة من المزارعين، بل لتدعيم شأن المحار بين المرابطين في الثغور الخطرة، فأغرى العرب بتملك الأ راضي ليحل مشكلة اسكان الساحل (١٨١). وكان عثمان قد أصدر تعليماته الى معاو ية يأمره فيها «بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها قطائع، ففعل» (١٨٢). ولكن العرب لم يتحمسوا في البداية لهذه الاغراءات. ولذلك نرى معاو ية يلجأ ثانية الى الاستعانة بغير العرب ليعمروا المدن الساحلية، فيتجه الى استقدام الفرس من الداخل وانزالهم في الساحل (١٨٣).

و بالرغم من كل ما أسلفناه حول إسكان الفرس في المدن الساحلية، فاننا نرجح أن يكون الذين جلبوا لتلك الثغور كان معظمهم، وان لم يكونوا جميعاً، من الخبراء في صناعة السفن وما يلزمها، و بذلك لن يكون ثمة مانع من وجودهم باعتبارهم جماعة من الفنيين يعملون في صناعة السفن المستحدثة لانشاء أسطول اسلامي يواجه أساطيل الروم في البحر المتوسط، و بذلك لن يكون على معاو ية من حرج في استخدام هؤلاء الفرس وغيرهم حتى من بقايا الروم في اعداد الأساطيل البحرية، شأنهم في ذلك شأن القبط كما مر.

كما أن معاو ية أذن لجماعة من الروم البيزنطيين بالنزول في مدينة طرابلس

---

١٧٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ١٤٠.

١٧٩. البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٤٣، ق ٤ جـ١، ص ٣٥٢، الطبري، تاريخ جـ٤، ص ٣٢٦.

١٨٠. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٨.

١٨١. فتحي عثمان، الحدود، جـ١، ص ٣٣٨.

١٨٢. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٢٧؛ عبد العزيز الدوري، «العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام»، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ١٩٦٢. ص ٢٨.
سيشار لهذا المرجع عبد العزيز، العرب.

١٨٣. اليعقوبي البلدان، ص ٣٢٧؛ نقولا زيادة، جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري، بحث القي في مؤتمر بلاد الشام الثالث سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: نقولا زيادة. جغرافية.

والاقامة فيها بعد أن استأمنوا (١٨٤)، ومن ناحية أخرى نقل فى سنة ٤٩ هـ. أو ٥٠ هـ. قوماً من زط البصرة والسيابجة (١٨٥). وأنزل بعضهم في انطاكية، وقد أطلق اسمهم على المحلة التي نزلوا فيها، فعرفت بمحلة الزط. وانتشروا فيما بعد في نواحي أنطاكية، فكان ببوقا من أعمال أنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط (١٨٦)، وهم من الهنود (١٨٧).

وقد طبق الوليد بن عبد الملك سياسة معاو ية أيضاً، فنقل الى أنطاكية قوماً من الزط السند في أيامه (٨٦ ـ ٩٦هـ./ ٧٠٥ ـ ٧١٥م) ممن حملهم محمد بن القاسم الثقفي عامل الحجاج بن يوسف على السند، فبعث بهم الحجاج الى الشام، فنقلهم الوليد الى أنطاكية مع جواميسهم (١٨٨).

وهكذا نرى احتواء العرو بة والاسلام للعناصر غير العر بية منذ وقت مبكر، وكان لبعض تلك العناصر حضور واضح في مجريات الأحداث في العهد الأموي، وخاصة العنصر الفارسي حيث كان ولاؤهم ثابتاً وقو ياً في بلاد الشام لبني أمية، فاعتمد هؤلاء عليهم وأخلص كل طرف للآخر. وعمل الفرس في صناعة السفن، وقادوا المراكب الحر بية للدولة العر بية، و يظهر ذلك من نص نقف عليه عند ابن عساكر، مفاده أن رجلا رومياً نجح في قتل عامل خراج طرابلس ومن معه، وفر الى القسطنطينية، فتمكن منه اثنان من الفرس من أهل بعلبك، كانا يقودان مركبين، وقد خرجا بهما بناء لأمر أمير البحر من عكا الى جزيرة قبرس للوقوف على أخبار البيزنطيين، و يذكر النص أن اسم احدهما «قابوس» والآخر «سابور» وأنهما كانا في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٥هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) وهما لا يزالان يحسنان التكلم بالفارسية، وحين أتيا بالرومي الى عبد الملك أمر بقتله، وكافأ الفرس بأن أقطعهم خمس مدينة طرابلس فسكنوها (١٨٩).

---

١٨٤. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠، ص ١٥١.

١٨٥. هكذا في فتوح البلدان، ق ١، ص ١٩٢، البلاذري، انساب، جـ٤، ص ١٠٦، ١١٢ وذكرها محمد أسعد طلس: «السبايجة» بتقديم الباء على الياء نقلا عن «المحفص» اذ مفردها «سيبيجي» أنظر تاريخ الأمة العربية (عصر الاتساق)، بيروت، ١٩٥٨، ص ٨٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد طلس: تاريخ الزبيدي، مرتضى، تاج العروس، جـ٦، تحقيق حسين نصار، الكويت ١٩٦٩. السبايجة: قوم ذوو جلد من السند والهند يكونون مع رئيس السفينة البحرية يبذرقونها، واحدهم: سبيجي.

١٨٦. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٩٢.

١٨٧. المسعودي، التنبيه، ص ٣٠٧، ص ٣٠٨.

١٨٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٩٢، ١٩٨.

١٨٩. ابن عساكر، تاريخ (مخ) ١٦، ص ٧٨.

الدور الاداري والثقافي لطبقة الصحابة النازلة في الشام

أحمد بدر
كلية الآداب ــ جامعة دمشق

الصحابي في عرف المحدثين هو من لقي النبي (ص) مؤمناً به ولو كانت اللقيا ساعة (١). وقد قصد الشام ممن تنطبق عليهم هذه الصفة مئات، وكان أكبر حشد لهم في اليرموك إذ ذكر عدته رواية للطبري بالقول «شهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله (ص) فيهم نحو مائة من أهل بدر» (٢). و يهبط هذا العدد لدى ابن سعد في طبقاته الى مائة وسبعة نفر من الصحابة، كان آخرهم وفاة عبد الله بن بسر المازني المتوفى سنة ثمان وثمانين للهجرة. لكن هذا العديد يقل كثيراً عن عدد الصحابة لدى الشاميين الذي يرفعونه تشريفاً لبلدهم بينما يقلله الآخرون. الا أن هذا الخلاف ليس بذي بال بالنسبة لموضوعنا، لأن من يدخله الشاميون في الصحابة يجعله الآخرون من التابعين، ولأن الاختلاف معدوم بالنسبة للصحابة الذين قاموا بدور بارز في الحياة السياسية ــ الادارية والفكرية.

جمعت هذه الفئة سمة الصحبة للرسول الكريم، وان تباين أفرادها في درجتها، أي في مدة التقائهم به وملازمتهم له. و بعد دخولهم في الاسلام، كان منهم من هو من السابقين الأولين كأبي عبيدة بن الجراح، ومنهم من كان من أقدم الأنصار اسلاماً كعبادة بن الصامت، الذي كان ضمن اثني عشر مدنياً بايعوا الرسول (ص) في العقبة الأولى. يتدرج بعد ذلك آخرون ضمن المراتب المعروفة والمشهورة للصحابة، فمنهم البدريون ومنهم أصحاب بيعة الرضوان ومنهم من أسلم عند الفتح، وأخيراً كان منهم من كان إسلامه في عام الوفود إثر ذلك، واقتصرت صحبته بالتالي على أمد قصير ولقاء يسير مع الرسول، إذ عاد الى قبيلته وموطنه بعد اعلان اسلامه. وضمن اطار هذه السمة المشتركة أيضاً كانوا متمايزين قبلياً وعرقياً متفاوتين في السو ية الاجتماعية. فمن الناحية القبلية، كانت نسبة كبيرة منهم تنتمي لقريش أو للأنصار من أوس وخزرج، وتنتسب البقية الى سائر القبائل العر بية الأخرى تقريباً، كما كان بينهم أفراد قليلون من الأحباش الأحرار كخالد بن الحواتري (٣) وذي مخمر ابن

١ ٠ عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، ٧ ج، دار المسيرة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩، ج ٢، ص ١٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: بدران، تهذيب ابن عساكر.

٢ ٠ الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٣ م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر، ١٩٦٢ م، ج ٣، ص ٣٧٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، التاريخ.

٣ ٠ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م)، الطبقات الكبرى ٩ ج، دار صادر، بيروت، ج ٧، ص ٤٣٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.

أخي النجاشي(٤). أما من ناحية المستوى الاجتماعي فقد تراوحت مكانتهم بين أعلى المستويات المتمثلة باشراف القبائل وأدناها المتمثلة بالعبيد المعتقين. وهكذا كان بينهم من جمع في مستواه النبالة من جميع أطرافها كالجاه في النسب والسعة في الأملاك والغنى في الأموال، من أمثال حمزة بن مالك الهمداني، الذي كان ضمن وفد همدان الى الرسول (ص) لاعلان اسلامه. وقد هاجر من اليمن الى الشام في أربعمائة عبد أعتقهم فانتسبوا الى همدان(٥). وماثل هذا في رفعة المكانة ونبالة النسب على الأقل، آخرون من أمثال يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية وعكرمة بن أبي جهل القرشيين، وسعد بن عبادة سيد الخزرج المتشوق الى خلافة الرسول (ص) في اجتماع السقيفة، حيث تم اختيار أبي بكر لهذا المنصب. يتدرج سلم المراتب بعد هؤلاء ليصل الى مرتبة الفقراء المتواضعين كأهل الصفة الذين اشتهر منهم في الشام واثلة بن الأسقع، أصغرهم سناً المتوفى ببيت المقدس سنة ٨٥هـ. وكذلك العرباض بن سارية السلمي نزيل حمص المتوفى سنة ٧٥هـ(٦). ويقع في أدنى مراتب هذا السلم الاجتماعي العبيد كبلال الحبشي المتوفى سنة ٢٠هـ بدمشق على ما يرجح، ووحشي بن حرب الحبشي، الذي اشتهر كما يقول عن نفسه أنه قتل خير الناس قبل اسلامه وهو حمزة، ثم قتل مسيلمة شر الناس بعد اعتناقه للاسلام وقد نزل حمص حيث توفي. وكذلك أبو سلمى الراعي لدى رسول الله وتوبان العبد الذي أعتقه الرسول (ص)، لكنه لازمه اثر ذلك حتى قبض فهاجر الى الشام ونزل حمص حيث توفي سنة ٥٤هـ(٧). وكان في الأصل خبازاً في عشيرة الهان. لكن صحبة الرسول (ص) طغت لحد ما على الوضع الاجتماعي الذي كان للصحابة قبل اسلامهم، وأعطت الجميع مكانة اجتماعية مرموقة، لا عند الدولة وحسب، بل عند الناس أيضاً، الى حد أن عرباً معتزين بنسبهم لم يروا ضيراً في تزويج بناتهم من عبيد أحباش في الأصل. وقد خطب بلال الحبشي لأخيه خالد بن رباح، الذي كان عبداً مثله، امرأة من كندة. وتعكس الرواية التي تتحدث عن ذلك فقدان بلال للثقة الكاملة بقبول مطلبه، اذ تذكر أنه قال: «أنا بلال وهذا أخي، وكنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا ضالين فهدانا الله، وكنا عائلين فأغنانا الله، فان تنكحونا فالحمد لله وان تردونا فلا إله إلا الله» لكن طلبه قبل(٨).

ومن جملة الأمور التي تمايز فيها هؤلاء الصحابة فيما بينهم، ذلك التباين في الدور

٤٠ ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٢٥.
٥٠ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٤، ص ٤٤١.
٦٠ الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م)، سير أعلام النبلاء، ٢٣ ج، تحقيق شعيب أرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ج ٣، ص ٤١٩ ـ ٤٢٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، السير.
٧٠ ابن عساكر، الطبقات، ج ٧، ص ٤٤٠.
٨٠ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٤، ص ٣٧٥، ج ٥، ص ٣٥.

الذي أدوه قبل قدومهم للشام. فبعضهم برز في قيادة السرايا التي كان يرسلها الرسول (ص) كعمرو بن العاص، أو في حروب الردة كشرحبيل، أو في الحروب كلها كخالد بن الوليد الذي برز في جميع مراحل الحروب بدءاً من السرايا الى حرب المرتدين الى الفتوح في العراق. وكان منهم صاحب التجربة في الادارة والمال اضافة للحرب كأبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، الذي أرسله الرسول (ص) الى أهل العهد من نصارى نجران الذين تعهدوا بتقديم مواد عينية للمسلمين من حلل ودواب مقابل الكف عنهم، وكان مندوب الرسول (ص) اليهم أبو عبيدة. وبهذه المناسبة اشتهر نعته له «أمين الأمة»(٩). وكان منهم من تولى التعليم والتفقيه والقضاء كمعاذ الذي خلفه الرسول (ص) بمكة بعد فتحها كي يقرىء أهلها ويفقههم، ثم أرسله الى بلد ذي ماض عريق في تعدد الأديان وما ينتج عن ذلك من توفر أعداد من المنافحين عن الأديان القديمة وهي اليمن. وذلك عندما قسم أعمالها بعدما حج حجة التمام سنة عشر بين حوالي عشرة عمال» وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل البلدين جميعاً اليمن وحضرموت» وبهذه المناسبة سأله عن نهجه في القضاء فأجاب بكتاب الله وبعده بسنة نبيه وان لم يجد فباجتهاده. ثم قدم له الرسول (ص) النصيحة بأن يستشير فيما أشكل فان المستشير معان والمشير مؤتمن، وحذره من اتباع الهوى، ومن جملة أقوال الرسول (ص) له أثناء ذلك كانت كلماته المشهورة «أعلم أمتي بناسخ ومنسوخ معاذ» و«معاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه» ومعاذ «إمام العلماء»(١٠).

الدور العسكري والاداري لصحابة الشام

بعد انتصار الدين الاسلامي في الجزيرة العربية أضحت طبقة الصحابة في مقدمة هذا المجتمع على جميع الصعد السياسية والعسكرية والتوجيهية، وقد شغل المناصب القيادية في هذه المجالات أفراد منها برزوا في هذه المجالات منذ زمن الرسول (ص). وكانت الفتوح في وجه من وجوهها عملية انتقال وانسياح لجزء من هذا المجتمع العربي الاسلامي نحو البلدان المفتوحة، ثم النزول والاستقرار بها بعد الفتح. لذلك كان من الطبيعي أن تحتل فئة الصحابة من الفاتحين للشام مكان الصدارة في الجيش وقت الفتح وفي المجتمع بعد الاستقرار، كما

٩٠ ابن عساكر، علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م)، تاريخ دمشق، تحقيق شكري فيصل (عاصم، عايذ) ص ٢٧٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تاريخ دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
١٠٠ ابن عساكر مخطوطات سليمان باشا (الظاهرية) مجلد ١٦، ورقة ٣١٢ ـ ٣١٧. ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م). سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر (منح)؛ السيرة النبوية، ٤ ج، تحقيق السقا، الأبياري، شلبي، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م، ج ٣، ٤، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة.

احتفظ المبرزون في مجال ما بمواقعهم القيادية في الحرب والادارة والتوجيه، وإن لم تمنعهم قيادتهم في مجال ما من المشاركة في الميادين الأخرى.

وهكذا نجد قادة الجيوش الأولى التي وجهت للشام أول الأمر يقودها صحابة، كما يتبين لنا عند استعراض أسمائهم وهي: يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد، ان كلا منهم كان قد تولى مهام عسكرية أو إدارية في عهد الرسول (ص) أو خلال حروب الردة، باستثناء يزيد بن أبي سفيان الذي عقد له أبو بكر الصديق أول لواء لفتح الشام، وهو أمر يمكن تفسيره بأنه من عائلة ذات خبرة بالشام أرضاً وسكاناً بفعل التجارة قبل الاسلام. كما يلاحظ أن جميعهم من قريش: أربعة منهم صلبية وواحد بالحلف وهو شرحبيل بن حسنة، الذي كان حليفاً لبني زهرة من قريش ومقيماً في الأصل بمكة مع والدته حسنة المتزوجة من رجل من بني جمح القرشيين(١١).

واستمر الحال على هذا المنوال في مراحل فتح الشام كلها. ففي التعبئة يوم اليرموك كان خالد ابن الوليد قائداً، وعلى قيادة القلب أبو عبيدة بن الجراح، وفي الميمنة كان عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وكان على الميسرة يزيد بن أبي سفيان. أما القيادات الأصغر فلم تكن وقفاً على القرشيين، وإن كادت تقتصر على الصحابة كما لاحظ ذلك سيف في معرض حديثه عن موقعه فحل، وذلك بقوله «وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم(١٢). ونلاحظ ذلك في قيادة الكراديس التي شكلها خالد وكون من مجموعات منها الأقسام الرئيسية المذكورة، إذ كان في قيادتها قرشيون عديدون إضافة لمن ذكرناهم مثل عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عبد شمس وحبيب بن مسلمة وعياض بن غنم الفهريين(١٣). بينما قاد كراديس أخرى صحابة من قبائل أخرى أصبحوا عرفاء في قومهم مثل جندب بن عمرو الأزدي الذي جعله الرسول (ص) عريف قومه بعدما أسلم(١٤). ومثله عمرو ابن عبسة من بني سليم والسمط بن الأسود من كندة. أما من كنانة فكان الصحابي قباث بن أشيم لا قائداً لكردوس فقط، بل على طلائع أبي عبيدة. وأحياناً كان قادة بعض الكراديس لا صحبة لهم ولكنهم أسلموا وكانوا أشرافاً سادة في قبائلهم مثل ذي الكلاع الحميري، الذي أسلم وهو في اليمن(١٥).

وانسحب المبدأ على القيادات الأصغر ضمن كل الكردوس، فقد تكون داخله عشائر لها لكل منها رايتها تعقد للصحابي منها مثل ربيعة بن عامر القرشي من بني عامر بن لؤي، الذي عقد له أبو بكر راية قومه وجعله مع يزيد بن أبي سفيان وأوصاه أن يوليه ميمنته إن رأى ذلك

٠١١ أبن هشام، السيرة، ج ١، ص ٣٢٧.
٠١٢ رواية سيف في الطبري، ج ٣، ص ٤٣٨.
٠١٣ رواية سيف في الطبري، ج ٣، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.
٠١٤ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٣، ص ٤١٥.
٠١٥ المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

لأنه من فرسان العرب وصلحاء قومه(١٦).

نظراً لطبيعة عمل الجيش الاسلامي الهادف لتبليغ رسالة، كانت المهام فيه أكثر من عسكرية قتالية بحتة، لذلك كان الى جانب القيادات الحربية ما يمكن تسميته بقيادات روحية. كان من هذه المهام القراءة كقراءة سورة الأنفال قبل المعركة «لأن من السنة التي سن رسول الله (ص) بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي الأنفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك»(١٧). وإلى جانب ذلك مهمة الأقباض يقوم صاحبها بحفظ الغنائم، ومهمة القاص لوعظ الناس، وكذلك القضاء. أضف الى ذلك أن سواد الجيش كان ممن لم يمض على اسلامه وقت طويل إذ لم يمض على عام الوفود التي أسلمت فيه غالبية العرب أكثر من ثلاث سنوات، مما يجعل جمهرة الجند بحاجة لمن يرشدها الى أوامر الدين ونواهيه، وهذا ما يفسر طلب يزيد بن أبي سفيان من المدينة مدداً من هذا القبيل، تقول الرواية التي تتحدث عن طلبه هذا «كتب يزيد بن أبي سفيان إن أهل الشام كثير وقد احتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم(١٨)» فأخرج له عمر من الخمسة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول (ص) الثلاثة القادرين صحياً وهم: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء. وقد ترأس هؤلاء الثلاثة عملية التوجيه في الشام وفي حواضره الثلاث الكبرى آنذاك حمص ودمشق وفلسطين في الرملة وبيت المقدس، ويلاحظ أن الثلاثة كانوا من الأنصار ومن قبيلة الخزرج. وبذلك تكون قريش قد تزعمت عمليات القيادة العسكرية الحربية بينما ترأس الأنصار عملية التوجيه الديني.

مارس أبو الدرداء، أحد الثلاثة، أول المهام فكان قاضي الجيش عشية موقعة اليرموك. وبعد انتهاء عمليات الفتح الكبرى للشام واخضاع مدنها الرئيسية نرى صورة تسلسل الأمرة في الجيش تنعكس على الادارة، فحسب أرجح الروايات أصبح أبو عبيدة بن الجراح القائد العام للجيش بمثابة أمير عام لبلاد الشام، ووزع قادة الجيش كنواب عنه في حكم المناطق: خالد بن الوليد في دمشق، ويزيد بن أبي سفيان في فلسطين، وشرحبيل بن حسنة في الأردن. أما حمص التي أضحت مركزاً كبيراً لمتابعة الفعاليات الحربية اذ تتبعها المناطق المتاخمة للبيزنطيين براً في الشمال وبحراً في الغرب فقد تغير نوابه فيها، ولكن دون اخلال بالمبدأ وهو تأمير الصحابة، وهكذا ولى أولا حبيبه بن مسلمة الفهري ثم عزله، وولى عبد الله بن قرط الثمالي ثم عبادة بن الصامت، ثم أعيد عبد الله بن قرط(١٩)، وفي التغيير الثاني الذي حدث

٠١٦ المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٠٧.
٠١٧ رواية سيف الطبري، ج ٣، ص ٣٩٧.
٠١٨ ابن عساكر، تاريخ دمشق (عبادة بن أوفي، عبد الله بن ابن أيوب) ص ٢٣.
٠١٩ ابن خياط، خليفة (٢٤٠ هـ/ ٨٥٤م)، التاريخ، ٢ ج، تحقيق سهيل زكار، ٢ ج، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٧، ج ٢، ص ١٥٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خياط، التاريخ؛ ابن عساكر، التاريخ (عبد الله بن عمران) ص ٤١٦ ـ ٤١٨.

تحت اشراف عمر بن الخطاب اثر طاعون عمواس ووفاة أبي عبيدة و يزيد بن أبي سفيان، تغير الأشخاص و بقيت القاعدة ثابتة اذ أصبح معاو ية بن أبي سفيان على دمشق، وشرحبيل على الأردن، وعمرو بن العاص على فلسطين. ثم عزل عنها وضمت لمعاو ية، ثم الصحابي الشامي عمير بن سعد على حمص، وقد عزل زمن عثمان وضمت حمص لمعاو ية بن أبي سفيان الذي أصبح أميراً للشام كلها (٢٠).

تبع عمليات الفتح بروز مهام أخرى جديدة وأهمها إنزال الفاتحين. فمن المعروف أن بعض شروط الصلح اقتسام المنازل، أو إسكان المسلمين فيما جلا عنه أهله. أضف الى ذلك أمر عمر لفاتحي الشام بألا يبتدروا إلى القرى و يتركوا المدائن. وقد اختير للقيام بهذه المهمة صحابة أيضاً، حفظت لنا المصادر أسماء القائمين بها بدمشق وحمص. ففي دمشق قام بهذه المهمة الصحابي سمرة بن فاتك الذي راعى حسب قول الرواية إنصاف أهل الذمة» فهو الذي تولى قسمة المساكن بين أهلها بعد الفتح فكان يترك الرومي في العلو و يترك المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي» (٢١). و يظهر أن الصحابي سمرة راعى هنا ما راعاه المشرفون على الانزال في القواعد التي بناها المسلمون، وهو انزال أبناء القبيلة في مكان واحد ما أمكن ذلك، إذ تتردد عند ابن عساكر، رغم مرور زمن طو يل على الفتح حتى عهده، وما أحدثه ذلك من تغيير في خطط المدينة، أسماء معالم تدل على ذلك مثل درب الأسديين ودرب القرشيين ودرب المدنيين. وقد حصل الأمر ذاته في ريف دمشق، حيث نرى تخصص القبيلة بقرية في غالب الأحيان. أما حمص التي فتحت مرتين فقد قسمت أيضاً مرتين، الأولى كان قاسمها الصحابي السمط بن الأسود الكندي، وقام بها في المرة الثانية ابنه شرحبيل (٢٢).

نتجت عن شروط الصلح مهمة جديدة أخرى، ذلك أن هذه الشروط حوت على تقديم أهل الذمة منتجات عينية من قمح وخل وزيت وعسل، كما أنه فرضت للجيش أرزاق، و بالتالي كان لا بد من وجود أهراء (مخازن). وتعزو الرواية إنشاءها لعمر بن الخطاب عند قدومه للجابية وأول من تولاها الصحابي عمرو بن عبسة السلمي (٢٣). وفي الوقت نفسه كانت حدة الهجوم الاسلامي في الشمال قد هدأت نسبياً بعد فتح الشام والجزيرة، وصار الروم يقومون بهجمات برية وأخرى بحرية، مما استلزم توجيه هجمات وقائية براً كان منها تبلور نظام الشواتي والصوائف، وقاد أول واحدة منها الصحابي عمير بن سعد أمير حمص سنة ٢١،

---

٢٠ . ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٠٢.

٢١ . بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٦٤.

٢٢ . البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م)، فتوح البلدان، ١ج، تحقيق رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٤٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح البلدان؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٤٥.

٢٣ . الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ٦٧.

وتوالت إثر ذلك العملية في سنوات عدة قام بها صحابة متعددون كبسر بن أرطاة وفضالة بن عبيد قاضي دمشق زمن معاو ية ومالك بن هبيرة (٢٤). و يبدو أنه ارتبط بهذا النظام اقامة روابط دائمة على الثغور البرية والبحرية منذ هذه الفترة أيضاً، وكان كبار الصحابة يشاركون في الرباط رغم مهامهم التعليمية. ففي رواية أن سلمان الفارسي زار دمشق وسأل عن أبي الدرداء، ولما قيل له انه مرابط سأل عن موضع رباط أهل دمشق فأجيب انه في بيروت. وفي الثغور البرية يورد ابن عساكر عن الصحابي أبي ريحانة شمعون الأزدي الذي شهد فتح دمشق حيث سكن فيها وفي القدس، أنه رابط أمداً بميافارقين (٢٥).

مما مر نستنتج أن القادة العسكريين من الصحابة قد تحولوا الى أمراء في المناطق المفتوحة، أما المعلمون منهم، أو كبار هؤلاء المعلمين، وهم معاذ بن جبل وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت فظلوا في مواقعهم كمشيرين على الأمراء أو القضاة إضافة للتوجيه العام للمسلمين.

نرى معاذ بن جبل الى جانب أبي عبيدة يشير عليه في أمر شروط الصلح المنطبقة على أوامر الشرع. وكان ذلك عندما حول اليه عرض أنباط الرها لقائده عياض بن غنم الذي يحاصرها، بأن يستسلموا على أساس تقديم شيء محدد للمسلمين. وقبل أبو عبيدة بجوابه القائل «انك إن أعطيتهم الصلح على شيء مسمى فعجزوا عنه لم يكن لك أن تقتلهم، ولم تجد بدأ من إبطال ما اشترطت عليهم من التسمية. وإن أبروا به أدوه على غير الصغار الذي أمر الله به فيهم. فأقبل منهم الصلح وأعطهم إياه على أن يؤدوا الطاقة فان أيسروا أو أعسروا لم يكن عليهم إلا ما يطيقون، ثم لك شرطك ولم يبطل» (٢٦). ولم يطل العمر بمعاذ كي يقوم بأدوار أخرى، إذ توفي بطاعون عمواس ودفن في الأقحوانة على بحيرة طبرية التابعة لجند الأردن آنذاك (٢٧)

من ناحية أخرى ظلت وظيفة القضاء التي كانت لهم في الجيش وقفاً عليهم، فقاضي الجند في اليرموك أصبح قاضي دمشق. وما طرأ من جديد عليها هو تعدد القضاة بتعدد الأجناد وهي دمشق والأردن وفلسطين وحمص. كما أن القاضي أصبح صاحب الصلاة أيضاً، اضافة

---

٢٤ . أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو (٢٨٠ هـ/ ٨٩٣)، التاريخ، ٢ ج، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، دمشق، ١٩٨٠، ج ١، ص ٥٩٥ _ ٥٩٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو زرعة، التاريخ؛ البلاذري، الفتوح، ص ١٤٢؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٠٢.

٢٥ . بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٣٤٢ _ ٣٤٣.

٢٦ . ابو يوسف، يقعوب بن ابراهيم (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م)، الخراج، تحقيق محمد ابراهيم البنا، ص ٩٤ _ ٩٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو يوسف، الخراج.

٢٧ . ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م)، معجم البلدان، ٥ ج، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، ج ١، ص ٢٣٤، مادة الاقحوانة. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت الحموي، معجم البلدان.

لنيابته عن الأمير إذا غاب. وقد خرج تعيين القضاة من عمر بن الخطاب الذي عين قاضيين في الشام، عين أبا الدرداء لقضاء دمشق والأردن وصلاتهما. وولى عبادة قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما (٢٨). وظل أبو الدرداء على قضاء دمشق حتى وفاته بها سنة ٣٢هـ على ما يرجح. وعين بعده، حسب نصيحته، أنصاري آخر هو الصحابي فضالة بن عبيد الذي بقي حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين، وكان نائب معاوية بدمشق عند خروجه لصفين. وعندما توفي سنة ٥٣هـ استمر معاوية على التقليد ذاته فعين للقضاء بدمشق النعمان بن بشير الأنصاري وهو صحابي آخر. لكن لا يرد ما يشير لتولي فضالة قضاء الأردن. وينقل أبو زرعة ما يفيد أن فصل قضاء الأردن عن دمشق تم في عهد عمر الذي عين على قضاء الأردن كريب ابن سيف الأنصاري (٢٩). كما أن عبادة بن الصامت يصبح أول من يلي قضاء فلسطين كما ينقل أبو زرعة عن الأوزاعي (٣٠). وقد توفي بها على خلاف في سنة موته ٣٤ أو ٤٥هـ. كما اختلف على دفنه في الرملة أو في بيت المقدس (٣١). ويظهر في قضاء حمص وبتعيين من عمر الصحابي حابس بن سعيد الطائي (٣٢).

من ناحية أخرى لم يتقيد عبادة بن الصامت في نشاطاته بالوظائف أو الخطط المحددة آنذاك، بل قام بمهام أصبحت بعد زمن ليس بالقصير جزءاً أساسياً من خطة خاصة في الدولة هي الحسبة، وتتعلق هذه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ملتزماً بذلك شروط بيعة العقبة الأولى للرسول التي شارك بها والتي نصت في جملة ما نصت عليه حسب قوله «... وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم» (٣٣) ومارس ذلك تجاه الجميع من أمثاله ومن الأمراء والخلفاء ففي غزوة في أنطرطوس أخذ المقداد بن الأسود دابة ولم يدخلها في المغنم كي توزع فيما بعد، فأعلن عبادة على الملأ «ألا إن المقداد بن الأسود قد غل بالأمس حماراً». وفي معسكر لمعاوية قام خطيب ومدحه، فأتى عبادة بتراب في يده فحثاه في فم الخطيب. وعندما غضب معاوية رد عليه بأن الرسول (ص) قال «احثوا في أفواه المداحين التراب». ومرت قطارة عليه فما ان عرف أنها تحمل خمراً حتى أخذ شفرة ولم يذر فيها راوية الا بقرها». وفي مجال البيوع رأى آنية من فضة يباع الاناء بملء ما فيه ونحو ذلك، فأعلن أنه ربا وليس بيعاً. وذكر مقول الرسول (ص) الذهب بالذهب مثلا بمثل، سواء بسواء،

---

٢٨ . البلاذري، فتوح، ص ١٤٦.

٢٩ . ابو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ٢٢٧، ج ٢، ص ٦٩١.

٣٠ . المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٥.

٣١ . ابن عساكر، التاريخ (عبادة بن أوفي، عبد الله أيوب، ص ٣٧ ـ ٣٨).

٣٢ . بدران، تهذيب ابن عساكر ج ٣، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

٣٣ . ابن عساكر، التاريخ (عبادة، عبد الله) ص ٢٦؛ ابن ماجة، ابي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ/ ٨٨٧م)، السنن، ٢ ج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج ٢، ص ٩٥٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن ماجة، السنن.

وزناً بوزن. يداً بيد فما زاد فهو ربا، والحنطة بالحنطة قفيز بقفيز، يداً بيد، فما زاد فهو ربا، والتمر بالتمر قفيز بقفيز، يداً بيد، فما زاد فهو ربا» وكان موقف معاوية الانصياع له عند الحجاج والاعتراف على رؤوس الأشهاد أنه أفقه منه: وفي أحيان أخرى كان يعلن أنه لا يجد شيئاً أبلغ فيما بينه وبين أصحاب محمد (ص) من الصفح عنهم. وتجاوز انتقاده الأمراء ليصل الى الخليفة عمر بالذات في موقفه من جبلة بن الأيهم الذي رغب في البقاء على دينه لكنه أنف من دفع الجزية وعرض الصدقة ورفض عمر الا أداء الجزية في هذه الحال، مما جعل جبلة يغادر مع أتباعه الى بلاد الروم. فعاتب عبادة عمر قائلا «لو قبلت معه الصدقة ثم تألفته لكان أسلم» (٣٤).

الدور الثقافي

كان للصحابة في المجال الثقافي دور مماثل لدورهم الحربي والاداري، اذ يسهمون في ميدانه كلهم أيضاً، وان اختلفت مراتبهم ومقادير إسهامهم. وقد طغى دور المعلمين الثلاثة الكبار الموجهين من المركز: معاذ وعبادة وأبو الدرداء، واستمر المركز في توجيه اهتمامه لهذه الغاية في ارسال النابهين في العلم لديه بعد الفتح ولو لم يكونوا صحابة، كما هو حال عبد الرحمن بن غنم الذي أرسله عمر الى الشام ليفقه الناس فأضحى شيخ أهل فلسطين ورأس التابعين في الشام (٣٥). وكما كان المعلمون الكبار يشاركون في الغزو كقيادة أبي الدرداء المسلحة في برزة أثناء حصار دمشق، وقيام عبادة بن الصامت بقيادة حملة من حمص فتحت اللاذقية بخطة حربية محكمة وبناء مسجد بها (٣٦)، كذلك ندر بين أهل الغزو والادارة والحكم من الصحابة من لم يشارك في الحياة الفكرية، من خلال أحاديث أو قراءة أو حكم فقهي.

نشأت بفعل العمل الفكري مراكز اشعاع فكري في قواعد أجناد الشام: دمشق وحمص والرملة وبيت المقدس، وكانت المساجد الجامعة في هذه الحواضر هي بؤر هذا الاشعاع، لأنها جمعت الناس مع المعلمين، وخاصة أن عمر نهى عن انشاء مساجد للقبائل في الشام كما فعل العرب الفاتحون في القواعد التي بنوها في أماكن أخرى. وكان سامعو العلم يتحلقون

---

٣٤ . ابن عساكر، التاريخ، ج ٥، ص ٣٩؛ البلاذري، فتوح، ص ١٤٢؛ حديث البيع يورده مسلم ٥/ ٣٤.

٣٥ . الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تذكرة الحفاظ، ٤ ج، طباعة المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ج ١، ص ٥١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، تذكرة الحفاظ.

٣٦ . البلاذري، فتوح، ص ١٣٨؛ قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ص ١٩١، ص ٢٩٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة بن جعفر، الخراج.

جماعات، وصف إحداها أبو مسلم الخولاني بقوله «دخلت مسجد حمص فاذا فيه نحو ثلاثين كهلا من الصحابة وفيهم شاب أكحل براق الثنايا ساكت فاذا امتروا في شيء سألوه، وقيل لي هذا معاذ بن جبل[٣٧]. وكان الصحابي شيخ الحلقة يعتبر عمله امتداداً لعمل الرسول (ص) وهو يبلغ الناس ما بلغهم اياه الرسول، سواء أكان آية أم كان حديثاً، و يطلب ممن يتعلمون منه نقله لغيرهم. فقد قال أبو أمامة الباهلي لمن حوله «إن هذا المجلس من بلاغ الله اياكم قد بلغ ما أرسل الينا فبلغوا عنا أحسن ما تسمعون[٣٨]. إضافة لذلك كان الكبار يفتون في القضايا التي تطرأ. يبقى الشيء المشترك الذي أسهم فيه الجميع حتى خارج المساجد هو رواية الحديث. والمعروف أن أعداد الأحاديث التي رواها حتى كبار المحدثين منهم قليلة بالمقارنة مع ما رواه الصحابة في أمصار أخرى كالمدينة من أمثال أبي هريرة بها. ورغم اختلاف أصحاب الصحاح والمسانيد في الأخذ منهم فان أحاديث الكبار منهم، نادراً ما تتجاوز المائة، حتى لدى أكثر المتسامحين في جمع الحديث. والاستثناء الوحيد هو أبو أمامة فحسب ابن العماد روي عنه مائتان وواحد وثمانون حديثاً[٣٩]، أما غيره فقد ساق له في مسنده لعبادة بن الصامت مائة وواحداً وثمانين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على رواية ستة منها، وانفرد البخاري بحديثين ومسلم بحديثين. وروي لأبي الدرداء مائة وتسعة وسبعون حديثاً، واتفق مسلم والبخاري على حديثين، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بثمانية، وكان لمعاوية مائة وثلاثة وستون حديثاً، أما النعمان بن بشير الأنصاري فقد ساق له مائة وأربعة عشر حديثاً، روى منها البخاري حديثاً واحداً ومسلم أربعة واتفقا على خمسة. و يتدنى عدد الأحاديث عن المائة بعد ذلك فيسوق بقي في مسنده لشداد بن أوس خمسين حديثاً، ثم تنزل الى العشرات القليلة وتصل الى ما دون العشرة عند كثيرين، ولا تتجاوز الواحد أو الأحاديث اليسيرة لدى البعض من أهل الغزو والادارة كعمير بن سعد والحجاج بن سهيل النصري وحبيب بن مسلمة الفهري و بسر بن أبي أرطاة. ورغم هذه القلة في الأحاديث التي رووها فان شهرة بعضهم تجاوزت الشام وجعلت أناساً حتى من أهل المدينة يقصدونهم طلباً لبعض أحاديثهم. و ينقل ابن عساكر قولا لأحد جلساء أبي الدرداء جاء فيه «كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء اني أتيتك من المدينة مدينة الرسول (ص) لحديث بلغني أنك تحدث عن رسول الله (ص) فقال أبو الدرداء: ما جئت لحاجة وما جئت لتجارة؟ ما جئت الا لتقرأ الحديث؟ قال: نعم[٤٠]. و يبدو أن قلة مجموع الحديث راجعة لعدم وجود صحابة شاميين لازموا الرسول (ص) لأمد طو يل ولأن هذه

٣٧. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥.

٣٨. ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ٤١٢.

٣٩. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ج، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج ١، ص ٦٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب.

٤٠. بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٧، ص ١٢٥.

الأحاديث لم ترو في الغالب لتحفظ لذاتها، وانما وردت في معرض التعليم للمناسك أو لاستنباط الأحكام. و يبدو هذا الأمر واضحاً لدى من لم يرو عنهم الا أحاديث قليلة، اذ يلاحظ أن هذه الأحاديث القليلة تورد أحكاماً لأمور متعلقة بصميم مهامهم. يبرز من هؤلاء حبيب بن مسلمة الفهري المشهور بقيادته العسكرية في فتح شمال الشام وغزو الروم في الأناضول وفتح أرمينية التي تولى امرتها ومات بها، له حديث يتعلق بفعل الرسول في الأنفال يقول فيه: نفل رسول الله (ص) في البدأة الربع وفي الرجعة الثلث. وقد نقلته عنه عدة كتب من الصحاح وكذلك كتب الأموال[٤١]. ومثله بسر بن أرطأة الذي كان صاحب غزو سواء من أعمال الفتح أو الفتن وقد نقل حديث «لا تقطع الأيدي في الغزو»[٤٢].

أما المكثرون وأغلبهم من الموجهين الذين يقصدهم الناس طلباً للعلم أو للارشاد أو الافتاء، فان مجموع ما رووه يكفي لاعطاء صورة عن الحديث النبوي من ناحية تشعب النواحي التي يعرض لها، والتي تشمل أمور المجتمع الدينية والدنيو ية ما صغر منها وخف أثره وما جل وعظم خطره، في العبادات أو المعاملات، بدءاً من أمور مثل وضع اليد اليمنى فوق اليسرى في الصلاة وضرورة إراحة الذبيحة بشفرة حادة[٤٣]، وانتهاء بماهية الشهادة أو ماهية الايمان. واذا كان في ذلك ما يسهم في تنظيم حياة المجتمع وتكييفها وفق أوامر الدين ونواهيه، فان في بعضها ما يساعد على تسو يد عادات اجتماعية واحدة في المجتمع ككل عن طريق تقديم النموذج الواحد الذي يقلده الجميع، وهو الرسول الكريم. ومن الأمثلة على ذلك ما رواه عبد الله بن بسر عن طريقة الرسول (ص) في الجلوس للطعام وطريقة تناوله للطعام من جهة معينة في الاناء الذي يقدم فيه الطعام. وكذلك تقديم المضيف لضيوفه بدءاً من

٤١. ابو داود، سليمان بن الاشعث السجستاني (٢٧٥هـ/ ٨٨٩م) السنن ٥ ج، تعليق عزب عبيد دعاس، نشر محمد علي السيد، حمص، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ج ٣، ص ١٨١، رقم الحديث ٢٧٤٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابو داود، السنن؛ ابن ماجة، السنن، ج ٢، رقم الحديث ٢٨٥١؛ الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، صحيح الترمذي ٥ ج، تحقيق ابراهيم عطوة عوض، دار احياء التراث العربي، ج ٤، ص ١٣٠ رقم الحديث ١٥٦١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الترمذي الصحيح. ابن عساكر، التاريخ، ج ٧، ص ١٨٣؛ ابو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م) الاموال، تحقيق محمد خليل هراس، ص ٤٣٨ _ ٤٣٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابو عبيد الاموال.

٤٢. النسائي أحمد بن شعيب الخراساني (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، السنن، ٨ج، بشرح السيوطي، دار الكتاب العربي، بيروت ج ٨، ص ٩١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: النسائي، السنن؛ الترمذي، الصحيح، ج ٤، ص ٥٣، رقم الحديث ١٤٥٠.

٤٣. ابن عساكر، التاريخ ج ٦، ص ٢٩٦. اخراج الحافظ ابن عساكر عن شراحيل بن آدة التابعي عن شداد بن أوس الصحابي الشامي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «ان الله كتب الأحسان على كل شيء فاذا ذبحتم فأحسنوا الذبح واذا قتلتم فأحسنوا القتل، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

اليمين (٤٤)، وكذلك ما رواه أبو أمامة في النهي عن القيام للقادم.

من ناحية أخرى ظهرت في الشام أيضاً تلك الخشية التي ظهرت في أماكن أخرى من اختلاط الحديث بالقرآن من جهة ومن التقول على الرسول (ص) ما لم يقل، أو الخلط بين قول صحابي وقول الرسول، أو بمعنى آخر بدأت بالظهور بوادر نظرة نقدية لرواية الحديث. و يبدو أن معاو ية أمير الشام قد تأثر بموقف عمر في هذا المضمار، والذي تمثل باحتجازه لبعض من يكثرون من الحديث دون الأخذ بعين الاعتبار للمحاذير السابقة وقال: «ان حديثكم شر الحديث، ان كلامكم شر الكلام، فانكم قد حدثتم الناس، حتى قيل قال فلان وقال فلان، و يترك كلام الله، من كان فيكم قائماً فليقم بكتاب الله والا فليجلس» وقال لكعب الأحبار «لتتركن الأحاديث أو لألحقنك بأرض القردة». لذلك اعتبر معاو ية أن ما سمح بروايته مضمون الصحة، فقال على المنبر بدمشق «أيها الناس اياكم وأحاديث رسول الله (ص) الا حديثاً كان يذكر على عهد عمر فانه كان يخيف الناس في الله» وذكر عن كعب الأحبار ما يؤيد موقف عمر و يبرره، اذ قال لرهط من قريش في معرض ذكره له، ان كان لمن أصدق هؤلاء المحدثين، الذين يحدثون عن (أهل) الكتاب، وان كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (٤٥). و يظهر من أقوال كبار الصحابة في الشام أنهم كانوا يخشون حتى أي خطأ أو سوء نقل غير مقصود في رواية الحديث، و يحددون لذلك هامشه كأن لا يكون للفظ ذاته بل معناه فقط: وأن يكون لفظاً مشاكلا. فكان أبو الدرداء اذا تحدث يقول: اللهم الا هكذا فشكله. أو يقول «هذا ونحو هذا وشكله». و يرى أبو أمامة أن المحذور من الخطأ في النقل بسبب عدم فهم أحاديث الرسول (ص) غير وارد كما يحصل مع من ينقل عنه الآن، فيقول «اعقلوا ولا إخال العقل الا قد رفع، لنحن للحديث الذي كنا نسمعه على عهد النبي (ص) أعقل عليه منا على حديثكم اليوم» (٤٦). ولذلك يطلب أبو أمامة ممن يأخذ عنه الحديث و يبلغ ما يسمع «بمنزلة الذي يشهد بما علم» (٤٧). أما واثلة بن الأسقع فهو يحدد نوعية الحديث الذي ينقله وأنه منقول بالمعنى فيقول: «اذا حدثتكم بالحديث على معناه فحسبكم» (٤٨). وقال في مكان آخر قولا يبرر له هذا الشكل من النقل لأن الرسول (ص) سمح به، وذلك عندما

---

٤٤. يصف هذا الصحابي جلسة الرسول صلى الله عليه وسلم «... أتى بتلك القصعة فالتفوا عليها فاذا كثر الناس جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأعرابي: ما هذه الجلسة: فقال: ان الله تعلى جعلني عبدا كريما ولم يجعلني جباراً عنيدا. ثم قال: كلوا من جوانبها ودعوا ذروتها يبارك الله فيها....». وفي تقديم الشراب يذكر الصحابي نفسه مسلك الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة أخرى «... ثم شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسقى من عن يمينه قال: فلما انتهم بقدح آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعط الذي انتهى القدح.
ابن عساكر (عبادة ــ بن أيوب) ص ٤٤٣ ــ ٤٤٤.

٤٥. ابو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ٥٤٥.

٤٦. المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٣ ــ ٥٤٤.

٤٧. بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٤٢٣.

٤٨. الذهبي، السيرة، ج ٣، ص ٣٨٥.

طلب منه البعض أن يحدثهم بحديث غض لا يقدم فيه ولا يؤخر حتى كأنهم يسمعونه من رسول الله (ص) فرد قائلا «انا قد أمسكنا عن الأحاديث على عهد رسول الله (ص) حتى سمعناه يقول لا بأس بالحديث قدمت فيه وأخرت اذا أصبت معناه» (٤٩).

مجال آخر من مجالات النشاط الفكري الذي نشطته طبقة الصحابة بالشام وهو تعليم قراءة القرآن والكتابة.

يكرر ابن سعد القول بأن الكتابة في العرب قبل الاسلام كانت قليلة. و يورد السجستاني في كتاب المصاحف رواية مؤداها أن أهل مكة أول العرب تعلماً للكتابة التي وضعها ــ حسب الرواية ــ أهل الأنبار وأخذها عنهم أهل الحيرة. وتعلم لدى هؤلاء الأخيرين بشر بن مروان، الذي خرج الى مكة وتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية. ثم علم هذا الخط أخاها سفيان بن حرب، وقيل عمر بن الخطاب، أيضاً. وتعلم من سفيان بن حرب ابن أخيه معاو ية بن أبي سفيان، وكذلك كل من عرف الكتابة بمكة (٥٠).

أما حول قراءة القرآن فان الاجماع في الروايات قائم على أن القرآن كان مجموعاً حفظاً من قبل عدد من الصحابة. و يأتي الخلاف بين هذه الروايات عند تحديد أعداد هؤلاء. وما يهمنا في مجال بحثنا هو معرفة الجامعين له ممن دخل الشام من الصحابة، هنا لا خلاف بين الروايات على أن معاذ بن جبل كان واحداً من أربعة من الصحابة الجامعين. وأقل منها روايات تضيف عبادة بن الصامت لهؤلاء الأربعة. كما أن بعض الروايات الأخرى تدخل أبا الدرداء عو يمر بن زيد أو عبد الله بن ثعلبة أو تميماً الداري ضمن الجامعين (٥١). لكن وفاة معاذ بن جبل المبكرة، أو بعد أقل من أربع سنوات بعد الفتح، قلل من أهمية الدور الذي يمكن له أن يؤديه في تعليمه. و برز في المقدمة بدلا منه أبو الدرداء.

ومن ناحية الكتابة يوجد من القرائن ما يكفي للدلالة دلالة أكيدة على أن عدداً من الصحابة الداخلين للشام كانوا يعرفون الكتابة. يأتي معاو ية على مقدمتهم وقد كتب سابقاً بين يدي رسول الله، ومنهم سعد بن عبادة (٥٢)، وعبد الله بن رومان كاتب عهد صلح أبي عبيدة لأهل بعلبك. كما عرف عن الصحابي أبي ريحانة شمعون الأزدي أنه أدخل طريقة جديدة في كتابة الرسائل، فهو «أول من طوى الطومار وكتب فيه مدرجاً مقلو باً (٥٣).

---

٤٩. تاريخ ابن عساكر (منح)، مجلد ١٧، ورقة ٣٥٨ ب.

٥٠. ابو داود، سليمان بن الاشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ/ ٨٨٩م) كتاب المصاحف، تحقيق آثر جفري، مؤسسة الخانجي، مصر، ١٩٣٦م، ص ٤ ــ ٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابو داود السجستاني، كتاب المصاحف.

٥١. ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٣٥٥ ــ ٣٥٨.

٥٢. المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠.

٥٣. بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣.

لا تعرف العلاقة بين جامعي القرآن حفظاً والعارفين بالكتابة، وهل قام الكاتبون بتسجيل ما حفظه الآخرون. وما يروى في هذا الصدد أنه أصبح لأهل الشام بعيد الفتح وأثناء خلافة عمر مصحف مكتوب، أي قبل مصحف عثمان. و يروى عن التابعي أبي ادريس الخولاني أن «أبا الدرداء ركب الى المدينة في نفر من أهل دمشق ومعهم المصحف الذي جاء به أهل دمشق ليعرضوه على أبي بن كعب وزيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب وأهل المدينة» و يوجد في الرواية ما يدل على أن العرض قد أنجز على الاثنين الأولين (٥٤).

معروف أن اختلاف مجاهدي العراق ومجاهدي الشام أثناء تشاركهم في الجهاد بثغر أرمينية حول القراءات أثار المخاوف من نشوب فتنة بسبب هذا الموضوع، وكان على الأقل — أحد الأسباب التي جعلت عثمان بن عفان يسارع لتدو ين المصحف الموحد، وحظيت دمشق بنسخة من هذا المصحف الامام، فقبلت ولم يختلف عليها اثنان كما حصل في العراق، حسب قول ابن عساكر.

يفيد ما مر أن تعليم القرآن، سواء من المجموع المحفوظ أو المدون كان ممكناً بالشام، حتى قبل خلافة عثمان وتزو يده الأمصار بمصحف موحد. وفي الواقع كان أكبر المعلمين في هذا المجال أبو الدرداء، الذي توفي قبل عثمان بسنتين، و يعزى اليه ابداع طريقة الحلق، التي يتعلم بها الناس القراءة في المسجد. و يرد وصفها عند ابن عساكر بالقول عن أبي الدرداء انه «يبتدىء في كل غداة اذا انفتل من الصلاة فيقرأ جزءاً من القرآن وأصحابه محدقون به يسمعون ألفاظه، فاذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم في موضعه وأخذ في تعليم مجموعة من المبتدئين، الذين بلغ من كثرتهم أنهم قسموا الى عشرات على رأس كل منها عريف. و يبقى أبو الدرداء قائماً يستفتيه المقرئون فيما أشكل عليهم. فاذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول الى أبي الدرداء. و يروى عن التابعي مسلم بن مشكم كاتب أبي الدرداء قوله «قال لي أبو الدرداء: اعدد من يقرأ عندي القرآن فعددتهم ألفاً وستمائة ونيفاً» (٥٥).

رغم ما يبدو من طابع المبالغة في هذا الخبر فان الاعتقاد يجب أن يبقى قائماً بأن أعداد المتعلمين في المسجد كبيرة، اذ أن البلد أكبر حواضر الشام، أضف الى ذلك أن المسجد كان هو الوحيد بالبلد تنفيذاً لأمر عمر «لأمراء أجناد الشام بأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً وأن لا يتخذوا للقبائل مساجد كما اتخذ أهل الكوفة والبصرة ومصر». ر بما شارك أبا الدرداء في تعليم القرآن أثناء حياته ثم حل محله بعد وفاته عدد من الصحابة كفضالة بن عبيد، خليفته بعد وفاته في القضاء والصلاة بدمشق، والصحابي واثلة بن الأسقع، والمغيرة بن شهاب. وانعقدت ثمرة عمل الجميع بشخص عبد الله بن عامر اليحصبي المولود بقلعة رحاب

٥٤ . ابو داود السجستاني، كتاب المصاحف، ص١٥٧، ص ١٥٥؛ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٢، ص ٣٣٧.

٥٥ . بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ١، ص ٧٠؛الذهبي، السير، ج ٢، ص ٣٤٦.

في البلقاء، والذي أخذ القراءة عرضاً عن هؤلاء، ثم أصبح من مشاهير أصحاب القراءات. وصاحب القراءة السائدة في الشام لأمد طو يل، اذ يقول ابن الجزري في هذا الصدد «وظل أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقيناً الى قريب الخمسمائة» (٥٦).

وممن تتلمذ على أبي الدرداء وكان له أثره في هذا المضمار لأمد طو يل نسبياً زوجته أم الدرداء هجيمة الأوصابية التي تعلمت القراءة منذ الصغر، اذ كانت يتيمة في حجره تختلف معه «في برنس تصلي في صفوف الرجال، وتجلس في حلق الرجال تعلم القرآن حتى قال لها أبو الدرداء يوماً الحقي بصفوف النساء» و يظهر أنها تعلمت إضافة لقراءة القرآن معارف جيلها، وأصبحت بعد موت زوجها مقصودة للأخذ عنها قراءة القرآن، وللتدارس معها في المعارف. و يورد ابن عساكر في هذا المجال رواية تقول «جلسنا الى أم الدرداء فقلنا لها أمللناك: فقالت أملتموني! لقد طلبت العبادة في كل شيء، فما أصبت لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم ثم احتبست وأمرت رجلا يقرأ فقرأ» (٥٧). و برز من بين من أخذوا على أم الدرداء عطية بن قيس الذي أخذ عنها عرضاً وأصبح أحد قراء دمشق المشاهير في الجيل التالي. وتنقل رواية عن شاهد عيان قوله «ان الناس كانوا يصلحون مصاحفهم على قراءة عطية بن قيس وهم جلوس على درجة الكنيسة من مسجد دمشق قبل أن تهدم الكنيسة» (٥٨). وفي الرواية السابقة دلالة لا على كثرة المتعلمين لقراءة القرآن وانما على تزايد أعداد الكاتبين زيادة ملحوظة أيضاً. و يقوم على ذلك شواهد أخرى من بينها توفر نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى توفر لدى الجيش الشامي عدة نسخ رفعت على أسنة الرماح في صفين. وشاهد ثالث على القضية يضيف اليها ما يفيد أن العدد المتزايد من القادرين عليها مهد لظهور بداية الاحتراف في الكتابة في الجيل التالي للصحابة، أي من الذين تعلموا في زمنهم، اذ يذكر ابن سعد في ترجمة التابعي مسلم بن كبيس و يكنى أبا حسنة «كان يكتب المصاحف للناس متطوعاً لا يشترط على ذلك أجراً فاذا فرغ فان أعطي شيئاً أخذه والا لم يسأل أحداً شيئاً» (٥٩).

و يظهر أن المسجد لم يعد يتسع للتعليم بكل درجاته ولكل طالبيه من رجال ونساء وصغار، في وقت كثر فيه عدد الكاتبين مما مهد لظهور بداية الاحتراف في تعليم القرآن والكتابة؛ واذا صحت رواية ابن عساكر الدقيقة في تفاصيلها والقريبة من الاحتمال في ظاهرها، فان الكتاتيب ظهرت في هذه الفترة أيضاً. إذ ترد هذه الرواية في ترجمة أدهم بن

٥٦ . ابن الجزري، محمد بن محمد العمري الدمشقي (ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) غاية النهاية في طبقات القراء، ٣ج في ٢ مجلد، تحقيق جوتهلف برجستر، طباعة، مكتبة الخانجي مصر، ١٩٣٢م، ج ١، ص ٤٢٣ — ٤٢٥ .سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجزري، غاية النهاية.

٥٧ . ابن عساكر، التاريخ، تراجم النساء، ص ٤٢٣ — ٤٢٧.

٥٨ . ابوزرعة التاريخ، ج ١، ص ٣٤٥ — ٣٤٦.

٥٩ . ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٣٦٧.

محرز أحد الشخصيات التي خدمت معاوية منذ معركة صفين، وفيها يقول عن نفسه «انه أول مولود للمسلمين بحمص، وأول مولود فرض له العطاء بها، وإنه أول مولود رئي في كتف، يعني يحمل كتفاً (عظم اللوح) مكتوباً فيه القرآن، وهو يختلف الى الكتاب يتعلم الكتاب يعني القرآن» (٦٠). كذلك أدت كثرة الكاتبين الى تمهيد الظروف لظهور بدايات التدوين، المتمثلة بكتابة بعض الأشخاص لما يسمعونه لديهم. وتدل التساؤلات الموجهة للصحابة وردودهم عليها والقاء معارفهم بطريقة ملائمة على ذلك فقد سأل الحسن بن جابر أبا أمامة الباهلي الصحابي الشامي عن كتابة العلم: فقال: لا بأس بذلك. و يروي ابن عساكر بسند الى بعض من رأى صحابياً شامياً آخر يملي قوله «رأيت واثلة بن الأسقع يملي على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه» (٦١).

تصف مجموعة الروايات السابقة نشاطاً لنشر العلم في دمشق خاصة، لكن المرء يستطيع تعميم ذلك على الحواضر الأخرى لانتشار الصحابة فيها وتوفر الحاجات ذاتها. كما أنها تصف انتقال العلم بخط عمودي صحابي يدرس وتابعون يأخذون عنه. لكن مجموع تراجم الصحابة يدل على انتقال العلم بخط أفقي أيضاً، بين الصحابة اذ يتكرر في تراجم الكثيرين منهم النص على أخذ الصحابي من صحابة آخرين، وهذا أمر طبيعي لأن الصحابة كانوا ــ كما مر معنا ــ متمايزين في مدة ملازمتهم للرسول (ص) مما فوت على بعضهم الكثير من أقواله وأفعاله وأحكامه ومسلكه. والأمر ذاته ينطبق على القرآن الكريم، إذ كان الجامعون له حفظاً قلة قليلة جداً حتى في المدينة. أضف إلى ذلك التفاوت بين هؤلاء الصحابة في المؤهلات والامكانات على تلقي العلم وحفظه أوتدوينه. كما أن الأخذ قد يكون متبادلا فيكمل الواحد ما لديه بأخذه عن آخر، و يعطيه بالمقابل ما ينقصه.

لا شك أن تعليم القرآن جرى بوتائر سريعة، يمكن فهمها في ضوء كونه الأساس بالنسبة للمسلمين وضرورياً لأداء فروضهم الدينية، مما يفسر الاقبال على تعلمه، كما يمكن أن يضاف لذلك حماس المعلمين من الصحابة، لأنهم يسلكون المسلك الذي كان الرسول (ص) يأمرهم به أثناء حياته، فقد روى عبادة بن الصامت بدمشق أنه قال «كان الرجل اذا قدم مهاجراً على النبي (ص) دفعه الى رجل منا يعلمه القرآن» و بالتالي لم يكن المعلم يتقاضى أجراً من أي نوع تمشياً مع أمر الرسول (ص)، إذ أن رواية عبادة بن الصامت تكتمل على هذا الشكل «ثم ان رجلا قدم فأرسله النبي (ص) إلي فعلمته القرآن. فلما انصرف إلى أهله رأي أن لي عليه حقاً فأهداني قوساً لم أر أجود منها عوداً ولا أحسن منها انعطافاً. فأتيت رسول الله (ص) فقلت ما ترى يا رسول الله فقال جمرة بين كتفيك تعلقها أو قال

٦٠ · بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٧، ص ٣٦٧.

٦١ · ابن عساكر، التاريخ، مجلد ١٧، ورقة ١٥٨ ب.

تتقلدها» (٦٢). وقد رواه بشكل آخر مسنداً لأبي الدرداء ابراهيم بن يحيى المخزومي، عندما طلب منه عبد الملك بن مروان تأديب ولده ووعده بأن يعطيه و يثيبه فأجابه «قال رسول الله.. من أخذ على تعليم القرآن قوساً قلده يوم القيامة قوساً من نار». فالتف عبد الملك على المسألة، بأن قال انه يعطيه على تعليم النحو لا على تعليم القرآن. وربما لجأ المؤدبون إلى هذا المخرج في تعليمهم القرآن مع الكتابة (٦٣). و بالمقابل يروي ابن عساكر حديثاً أخرجه الحاكم «النيسابوري» مسنداً للصحابي الشامي أبي أمامة الباهلي «قال رسول الله (ص) من علم عبداً آية من كتاب الله فهو مولاه لا ينبغي له أن يخذله ولا أن يستأثر عليه فان هو فعل فصم عروة من عرى الاسلام» (٦٤).

من الطبيعي أن يترافق تعليم القرآن بتفسيره لمن يسأل عن معناه، أو لاستخراج أحكام منه، وقد أثر عن المعلمين من الصحابة وخاصة الكبار منهم القيام بهذه العملية، وإن كانت الأخبار الوافية لرسم صورة كاملة لنشاطهم في هذا المضمار غير متوفرة، وما يوجد يصلح مؤشراً فقط. في هذه الأخبار ما يدل على شدة الحاجة و بذل المسعى الحثيث من قبل الصحابة للتفسير، فأبو الدرداء يقول «لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحداً يفتحها علي الا رجل ببرك الغماد لرحلت اليه» والمعروف أن المكان موضع على بعد خمسة أميال من مكة أو بلد باليمن، وربما كان مضرب مثل لأهل المدينة في مشقة الوصول (٦٥). و يتبين من طريقة أبي الدرداء في التفسير أنه يلجأ للتفسير بما أثر عن الرسول أولا، فقد سأله رجل من أهل مصر عن الآية (لهم البشرى في الحياة الدنيا) فقال ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله (ص) عنها، فهي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له». لكن أبا الدرداء يرى بأن الآية قد تدل على معان عدة اذ يؤثر عنه قوله «لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً». وتبرر ضرورة ذلك في اشتقاق الأحكام، فقد سئل معاذ بن جبل وكان بفلسطين عن قوله تعالى «الا أن تتقوا منهم تقاة» قال: كانت التقية في جدة الاسلام قبل قوة المسلمين، أما اليوم فقد أعز الله الاسلام أن يتقوا من عدوهم (٦٦).

كانت المهمة الأساسية للفقهاء المعلمين الذين أرسلوا الى الأمصار ومنها الشام اقراء القرآن والتفقيه في الدين. و يعني الأمر الأخير افهام الدين وتعليمه، لأن الفقه يعني العلم بالشيء والفهم له، ثم أصبح يطلق على العلم الخاص باشتقاق الأحكام، أو في معرفة أحكام

٦٢ · بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٣، ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧.

٦٣ · المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١١.

٦٤ · المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٠ ــ ٩١.

٦٥ · ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٩، ماد (برك الغماد).

٦٦ · خليل داود الزرو، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧١م، ص ٤٨ ــ ٤٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: خليل الزرو، الحياة العلمية.

الله تعالى في أفعال المكلفين بالحظر والوجوب والندب والكراهة حسب تعريف ابن خلدون. وفي هذا المجال كان أمام الصحابة الذين نزلوا الشام مهمتان أساسيتان، الأولى تعليم الدين، والثانية رسم طريق لهذا المجتمع يسلك فيها مسلكاً متوافقاً مع الدين، بكل ما في هذه العملية من تعقيدات وصعوبات ناجمة عن قلة المعرفة لكتلة كبيرة من جمهرة الفاتحين لأوامر الدين ونواهيه، اضافة للمستجدات التي طرأت على حياتهم في البيئة الجديدة نتيجة لاختلاطهم بأناس من غير جنسهم، يدينون بدين غير دينهم، معتادين على عادات يجب الحكم عليها في ضوء مفاهيم الدين الاسلامي لرفضها أو تبنيها. وقد قاموا بهذه المهمة على صعد مختلفة بدءاً من القضاة لحل الخصومات واحقاق الحقوق وانتهاء بالاجتهاد لايجاد أحكام في قضايا ناجمة عن الفتح كملكية الأرض والعقارات التي أضحت للمسلمين، أو الموقف من انتشار عادات أهل البلاد لدى الفاتحين، وقد أوجدوا حلولا في بعض هذه القضايا وطلبوا الحل لبعضها من المركز في المدينة. ولا تخفى أهمية هذا العمل لأنه كعمل صحابة أصبح سوابق شرعية اعتمد على أحكامها كثيرون في العصور التالية.

في مجال القضاء لا تتوفر لدينا الأخبار الا عن عمل اثنين من القضاة في دمشق، وهما أبو الدرداء وخلفه فضالة بن عبيد. وأكثر أخبارهما في هذا المضمار انصبت على طريقة ممارستهما لا على اجتهادهما، وقد طبقوا فيها أمر الرسول (ص) «أدرأوا الحدود بالشبهات» أي ادفعوها. ومن الأمثلة على ذلك أن امرأة قدمت لأبي الدرداء متهمة بالسرقة، فقال لها: أسرقت؟ قولي لا. وأتى الرجل الى فضالة بن عبيد بسارق يحمل سرقته، فقال له فضالة لعلك وجدتها، لعلك التقطتها، فقال له الرجل: إنا لله وانا اليه راجعون، انه ليلقنه قال: أي والله أصلحك الله لوجدتها، فخلى فضالة سبيله (٦٧).

أما في مجال استنباط الأحكام، فتوجد أمثلة على اسهامهم في مجالات مختلفة. ففي العبادات قال أبو الدرداء: لا تثو يب في الفجر، والتثو يب هو القول الصلاة خير من النوم مرتين بعد حي على الفلاح (٦٨). وتنسب لمعاو ية بن أبي سفيان عدة أمور في هذا الميدان. فهو أول من أحدث الخطبة قبل الصلاة في العيد حسب قول الزهري، وأول من أحدث الآذان في العيد، وأول من أنقص التكبير حسب قول سعيد بن المسيب (٦٩). ورداً على الأسئلة التي تواردت حول الموقف من طعام وشراب الناس في البيئة الجديدة، كان الصحابة يجدون

٦٧. ابن حيان، وكيع محمد بن خلف، (ت٣٠٦ هـ/ ٩١٨م) أخبار القضاة، ٣ ج، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٤٧م، ج ٣، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حيان، أخبار القضاة.

٦٨. ابن حيان، أخبار القضاة، ج ٣، ص ٤٩.

٦٩. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٢٠٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: السيوطي، تاريخ الخلفاء.

حلولها واضحة في القرآن والسنة. فقد سأل التابعي عمير بن الأسود أبا الدرداء عن أكل لحم كبش ذبح لكنيسة فأجابه «اللهم عفواً انما هم أهل الكتاب طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم «وهذا حكم واضح في الآية ٥ من سورة المائدة» وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم (٧٠). و يرخص أبو ثعلبة الخشني من خلال حديث يرو يه عن الرسول (ص) باستخدام أوانيهم. فقد سئل الرسول (ص) «يا نبي الله ان أرضنا أرض أهل كتاب وانهم يأكلون لحم الخنزير و يشربون الخمر، فكيف أصنع بآنيتهم وقدورهم قال: إن لم تجدوا غيرها فارحضوها وأطبخوا فيها واشربوا» (٧١).

أما الارث والتوريث فقد نصت عليه آيات عديدة في القرآن الكريم و بشكل مفصل، لكن حدوث بعض الحالات التي يكتنف الغموض بعض جوانبها تبقى بحاجة الى قدر من الاجتهاد، وقد عرف حكم لمعاذ بن جبل ورث فيه مسلماً من كافر، وقضى بها فيما بعد أحد القضاة بخراسان (٧٢). والقضية الشائكة الكبرى في الشام نجمت عن طاعون عمواس الذي بلغت ضحاياه من الكثرة حداً أدى الى أن القبيلة تموت حتى يرثها أحدهم في النسب، وكان لدى المسلمين سابقة قريبة في هذا المضمار من حروب الردة في اليمامة، وقضى آنذاك زيد بن ثابت بتوريث الأحياء من الأموات ولم يورث الأموات بعضهم من بعض. أما في هذه الحالة التي لا يؤثر لأهل الشام فيها حل، وطبق فيه أمر عمر الذي أورده وكيع غامضاً نقلا عن الضحاك بين قيس «يرث القبيلة أحدهم في النسب، اذا كان من قبل الأب سواء بينوا، فبنو الأب أحق، وأيهم كان أقرب في باب الحق (٧٣). و يرد الأمر أوضح في رواية سيف في الطبري: ان عمر حل مسألة التوريث بعد فراغه من تنظيم الشام في الجابية سنة ١٧هـ» ورث بعض الورثة من بعض، ثم أخرجها الى الأحياء من ورثة كل امرىء منهم (٧٤) و يبدو أن الحل اختلف عن حل زيد بن ثابت لأن القتلى في معركة أقرب للموت بأن واحد منهم الى المتوفين بالطاعون.

وفي ميدان العقوبات أدلى معاو ية بدلوه في تعديل أمور في اجراءات القسامة، وقد اعتمدت هذه في الكوفة أو أحدثت حسب رواية سيف في الطبري «القسامة على المدعى عليه

٧٠. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٤٢؛ الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م)، جامع البيان عن تأو يل آي القرآن، ١٦ج، تحقيق احمد ومحمود شاكر دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م، ج ٩، ص ٥٧٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري. التفسير.

٧١. ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، المسند، ٦ ج، طباعة المكتب الاسلامي ودار صادر، بيروت، ج ٤، ص ١٩٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: احمد بن حنبل، المسند. ابن ماجة، السنن، ج ٢، رقم ٢٨٣١.

٧٢. ابن حيان، أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٥١.

٧٣. المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٤.

٧٤. الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ٦٥، رواية سيف بن عمر.

على أوليائه، يحلف منهم خمسون رجلا إذا لم تكن بينة، فاذا نقصت قسامتهم، أو نكل رجل واحد ردت قسامتهم ووليها المدعون، واحلفوا، فان حلف منهم خمسون استحقوا» (٧٥). أما اجراء معاوية عندما ادعى أمامة أولياء الدم على آخرين بقتل أحدهم وقدموا بينة غير كاملة، وهي أن القتيل كان معهم وأنه وجد قتيلا في مكان اجتماعهم، فطلب معاوية منهم تعيين الشخص وأن يحلف خمسون منهم على ذلك فنكلوا، فرد الايمان على آل ثلاثة مدعى عليهم فنكلوا أيضاً، فرد الايمان على الثلاثة المتهمين أثلاثاً. و يقول وكيع عند عرضه للأمر ان معاوية أول من رد الايمان، ولم يكن قبل ذلك، كان إذا نقص من الخمسين رجل واحد كرت على الآخرين، فان نقص رجل واحد وضع الدية وعقل القتيل». و يبدو تعديل معاوية هنا لاجراء عثمان، في رد الايمان بأن جعلها على المدعين أولا وعند نكول الطرفين ردها أيضاً على ثلاثة متهمين ولم يفرض عليهم خمسين يميناً لكل منهم بل ثلثها». و يعتبر الزهري هذا الاجراء جاهلياً، وأول من قضى به هو معاوية وذلك بقوله «القود (قتل النفس بالنفس) في القسامة من أمور الجاهلية أول من قضى به معاوية» (٧٦).

وكان من القضايا التي أثيرت نتيجة الفتح قضية المغانم الثابتة من أراض ومساكن. لم يكن بينهم اتفاق حول الأرض، فقد وقف معاذ بن جبل مع رأي عمر بعدم توزيعها على المقاتلة بينما رأى بلال رأياً معاكساً (٧٧). أما المساكن فقد رأينا أنها وزعت وأنزل العرب المسلمون فيها. لكن التساؤل الذي طرح حول حقهم فيها: هل لهم حق الانتفاع أم حق الرقبة أم الامتلاك التام. وقد أفتى الصحابي الشامي واثلة بن الأسقع لمن سأله قائلا: «أرأيت هذه المساكن التي اقتطعوها يوم فتحوا دمشق أماضية هي لأهلها؟ قال: نعم. قال: فان ناساً يقولون هي لهم سكن وليس لهم بيعها ولا اتلافها بوجه من الوجوه في صدقة أو مهر أو غير ذلك فقال واثلة ومن يقول ذلك؟ بل هي ملك ثابت يسكنون و يمهرون و يتصدقون» (٧٨).

كما واجه المسلمون مشكلة في الشام نابعة عن العادات السائدة في المآكل والمشرب فيها والتي انتقلت كلياً أو جزئياً الى الفاتحين. كانت الشام احدى البلاد المشهورة بزراعة الكرمة وتعتمد عليها في التزود بعنصر من العناصر الثلاثة الأساسية للتغذية، وهي المادة السكرية، التي تصنع من غلي عصير العنب الى حد معين يخرج منه بعدها ما يسمى «الرب» كما كانوا يستخرجون الخل والخمر من عصيره. نصت عدة عهود صلح مع بلدان من الشام

٧٥. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٧٢، رواية سيف بن عمر؛ البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠م)، الجامع المسند الصحيح من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره وأيامه، المعروف بـ: صحيح البخاري، بحاشية السندي، ٤ ج، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ج ٢، ص ٣١٢ ـ ٣١٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البخاري، الصحيح.

٧٦. ابن حيان، أخبار القضاة، ج ١، ص ١٢١ ـ ١٢٣.

٧٧. بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ١، ص ١٨١.

٧٨. المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٢.

على تقديم مقادير محددة من النوع الثاني وهو الخل. أما الخمر فكانت محرمة حسب القرآن، والحديث الذي كان يرو يه الصحابي الشامي شرحبيل بن أوس ينص على تحريمها ومعاقبة شاربها «من شرب الخمر فاجلدوه، من شرب الخمر فاجلدوه ثلاثاً، وان عاد فاقتلوه» (٧٩). لكن الواقع أن البعض من الفاتحين كانوا يشربونها على تأو يل، أي اعتبروها غير محرمة. وذكر ابن عساكر قول أحدهم وهو سهيل بن عمرو أبو جندل الذي استدعاه أبو عبيدة في جملة من الشاربين «والله ما شربتها الا على تأو يل: اني سمعت أن الله يقول «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات (سورة المائدة ٥/ ٩٦) (٨٠). و يمكن بذلك تحديد المشاكل التي ثارت: ما هو الموقف من الشاربين؟ اذا وقع عليهم الحد ما هو مقداره؟ ثم كيف يميز بين الخمر والرب؟ يبدو أن الصحابة في الشام على اختلاف مواقعهم لم يتوصلوا الى حل شامل وهم في السنوات الأولى التي أعقبت الفتح. وجاءت الحلول في هذه الأمور من المدينة بالنسبة لحد الشاربين. لم يكن أمام الصحابة في المدينة من قول أو فعل في عهد الرسول يحدد الحد، وانما ثبت: أن النبي (ص) أتي برجل قد شرب، فأمر أصحابه أن يضربوه على معصيته فضرب بالنعال وأطراف الأردية، ووافقوا على رأي علي بن أبي طالب بحد الشارب ثمانين جلدة، لأن من شرب سكر، ومن سكر هذى، ومن هذى افترى، ومن افترى كان حده ثمانين جلده (٨١). وخرج هذا الأمر الى الشام مع أخذه للنتائج بعين الاعتبار فشارب الخمر يحد بحد القاذف، وان مات من هذا الحد فعلى بيت المال ديته. وأول تنفيذ لهذا الحد كان بوحشي في مدينة حمص (٨٢). ثم جاء التمييز بين الرب والخمر عند قدوم عمر للشام حسب الرواية التي يوردها ابن عساكر وتقول «لما كان عمر بن الخطاب بالشام، أتاه أهل ذمتها فقالوا: إنك كلفتنا وفرضت علينا أن نرزق المسلمين العسل ولا نجد... وقالوا ان عندنا شراباً نصنعه من العنب شبه العسل، فقال عمر: ائتوني به، فأتوه فجعل يرفعه باصبعه فيمتد كهيئة العسل، فقال عمر: ان هذا يشبه طلاء الابل ائتوني بماء فأتي به فصبه عليه فشرب وشرب أصحابه. فقال ما أطيب هذا فارزقوا منه المسلمين (٨٣). وحددت أيضاً مواصفاته بدقة بأمر عمر أن يطبخ كل عصير بالشام حتى يذهب ثلثاه. و بهذا توفرت في أرزاق العرب بالشام عناصر الغذاء الثلاثة الأساسية، الحبوب توفر

٧٩. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٣١.

٨٠. ابن عساكر، التاريخ (عاصم ـ عايذ) ص ٩٩ ـ ١٠٠.

٨١. الخشني، محمد بن الحارث بن أسد (ت ٢١٥ هـ/ ٨٣٠م)، قضاة قرطبة وعلماء أفريقية، مكتب نشر الثقافة، القاهرة ١٣٧٢ هـ، ص ٨٩ ـ ٩٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخشني، قضاة؛ النووي، يحيى بن شرف الدين (٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧م)، شرح صحيح مسلم، ١٨ ج في ٩، دار احياء التراث العربي، بيروت ط ٣، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، ج ١، ص ٢١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: النووي، شرح صحيح مسلم.

٨٢. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤١٨ ـ ٤١٩.

٨٣. بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٧، ص ٣٤، ج ٣، ص ١٩٣، ج ٦، ص ١٨٧، ص ١٨٨.

المادة النشوية، والزيت المادة الدهنية، وأخيراً يقدم الرب المادة السكرية. و يظهر أن استخدامات الخمر في الشام لم تكن تقتصر على الشرب فقط، بل تعدتها الى أمور أخرى منها تدليك البدن به في الحمامات، وقد تابع عمر بن الخطاب كل هذه الاستخدامات وحرمها، اذ تذكر رواية لسيف في الطبري أنه «بلغ عمر أن خالداً دخل الحمام، فتدلك بعد النورة بثخين عصفر معجون بخمر، فكتب اليه: بلغني أنك تدلكت بخمر، وأن الله قد حرم ظاهر الاثم و باطنه، وقد حرم من الخمر أن تغسل كما حرم شربها، فلا تمسوها أجسادكم فانها نجس، وإن فعلتم فلا تعودوا»(٨٤).

من القضايا التي تباينت فيها آراء الصحابة، تلك القضية الطارئة مع أنها شديدة الخطر، وهي قضية طاعون عمواس الذي أودى حسب الرواية بأرواح الغالبية منهم. رأى البعض أنها رجس ينبغي تجنبه، أم أن اخلاء البلد يطمع الروم بالعودة ولذا ينبغي البقاء لأنه جزء من عملية الجهاد؟ من الذين قالوا بالرأي الأول عمرو بن العاص (أو عمرو بن عبسة) وممن قالوا بالبقاء أبو عبيدة، فقد ورد في رسالته الى عمر أنه في «جند من أجناد المسلمين لا أرغب بنفسي عنهم»(٨٥). وكذلك معاذ الذي خطب الناس قائلا «يا أيها الناس لم تجعلون دعوة نبيكم ورحمة ربكم عذاباً وتزعمون أن الطاعون هو الطوفان الذي بعث على بني اسرائيل. ان الطاعون لرحمة من ربكم رحمكم بها ودعوة من نبيكم وموت الصالحين قبلكم»(٨٦). ورأى شرحبيل بن حسنة أن التنحي مخالف لأمر الرسول (ص) لأنه سمعه (ص) يقول «اذا وقع الطاعون بأرض وانتم بها فلا تهربوا فان الموت بأعناقكم، واذا كان بأرض فلا تدخلوها فانه يحرق القلوب». وجعله عبادة بن الصامت شهادة مستنداً لما قاله الرسول (ص) «الشهداء المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله والنفساء يقتلها ولدها»(٨٧).

مما مر نستنتج أن الصحابة في الشام كانوا يحاولون استخراج أحكام وحلول لما واجههم من قضايا بالرجوع الى القرآن والسنة حينما وجدوا حكماً صريحاً يذكرونه مع رأيهم. وفي بعض الأحكام لا ترى معه ذكراً صريحاً لما استندوا عليه، مما يقوم دليلا على استخدامهم للرأي بشكل من الأشكال، مما لا يمكن إدخاله تحت مصطلحات الرأي التي أصبحت محددة تحديداً دقيقاً عند نضج المذاهب الفقهية (مصالح مرسلة، قياس، استحسان). و بناء على ذلك

---

٨٤. الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ٦٦، رواية سيف بن عمر.

٨٥. ابن عساكر، التاريخ (عاصم، عايذ) ص ٣١٥.

٨٦. ابن عساكر (منح)، مجلد ١٦، ص ١٣١.

٨٧. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ١٧ ج، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م، ج ٦، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر، فتح الباري.

يمكن أن يفهم ما يورده ابن قيم الجوزية من قول لمعاوية لوفد من قريش «أما بعد فانه قد بلغني أن رجالا منكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله (ص) فأولئك جهالكم»(٨٨). على أنه تعبير لا عن كراهية مطلقة للرأي، وانما للأقوال التي لا تتفق مع القرآن والسنة، لأن معاوية كان من ضمن الصحابة الشاميين الذين قضوا وأفتوا بأحكام غير متضمنة في نصوص صريحة للقرآن والسنة، كما رأينا في قضية القسامة.

ومع استخدام صحابة الشام للرأي، فانهم أمسكوا عن إصدار أحكام في قضايا متعددة منها كبيرة ومرت بنا أمثلة منها، ومنها صغيرة نجد مثلا عليها في قضية وراثة الأحوص القرشي، الذي طلق امرأة له تطليقة واحدة او تطليقتين، ثم مات بعد شهرين ولم تكتمل عدتها بعد، فرفع الأمر إلى معاوية وهو المعروف بنزعته العملية وتبسيط الأمور لا تعقيدها في استنباط الأحكام لأنه الراوي «إن الرسول نهى عن عقل المسائل»(٨٩)، ومع ذلك لم يجد عنده علماً بها، فسأل عنها قاضيه فضالة بن عبيد ومن هناك من أصحاب رسول الله (ص) فلم يجد عندهم بها علم، و بعث من يسأل عنها زيد بن ثابت في المدينة وأتت فتواه بأنها لا ترثه ولو ماتت لم يرثها(٩٠).

بذور أفكار الزهد والتصوف بين صحابة الشام

كانت فترة الخلافة الراشدية فترة قصيرة زمنياً، الا أنها، وفي كل أنحاء الدولة العربية الاسلامية حافلة بالأحداث الجسام غنية بالتطورات التي كونت بمجموعها انقلاباً واسع المدى بعيد الغور في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. ومن الطبيعي أن يصيب الشام ما أصاب غيرها من هذا الانقلاب.

ولعل في مقدمة ما أسهم في هذا الانقلاب تدفق الأموال على العرب الفاتحين من سهمان الغنائم والعقارات المتمثلة بما حواه المسلمون مما فتحوه أو الاقطاعات. وقد مر معنا إنزال العرب على المساكن التي جلا عنها أهلها واعتبارها ملكاً خاصاً، كما رأينا فتوى واثلة ابن الأسقع في إعتبارها ملكاً كاملا لهم. ومن أمثلة الإقطاع في فترة مبكرة ما ناله الصحابي تميم الداري وأخوه نعيم حبري و بيت عينون(٩١)، وربما زاد هذا المال بفعل دورته سواء في العقارات او التجارة. ففي المجال الأول يورد ابن عساكر شاهداً على ذلك متمثلا بعبد الله بن

---

٨٨. ابن قيم الجوزية، ابو عبد الله، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ٤ ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، نشر المكتبة التجارية الكبرى، طباعة مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٤٨٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن القيم، اعلام الموقعين.

٨٩. بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٧، ص ٤٣٧.

٩٠. المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٦.

٩١. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩؛ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٣، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

بكر بن حذلم الأسدي الذي قدم الشام مع خالد بن الوليد ونزل بدمشق داخل باب الجابية في درب الأسديين، ثم اشترى من بني الأزديين دارهم و بناها حماماً، واشترى في زقاق سوق اليهود دوراً. وكذلك بذي الكلاع الحميري الذي نزل حمص وكانت له بدمشق حوانيت (٩٢).
أما من ناحية التجارة فان الشام كانت أحداهم بلدين في تجارة قريش قبل الإسلام، ومن الطبيعي أن يعود النشاط بعد استقرار الفتح، وللوحدة السياسية التي حصلت ولحركة البشر الأوسع نطاقا من ذي قبل للحج أو للأهل وللموطن الأصلي. كما أن الحجاز بحاجة للمنتجات الغذائية التي تقدمها الشام. أضف إلى ذلك أن هناك مؤشرات لتشجيع الدولة للعملية التجارية، إذ ضمنت حرية التجارة لسكان البلاد في عقود الصلح التي عقدتها مع بعضها، كما هو الحال في صلح بعلبك ففيه فقرة تقول «ولأهل المدينة وعربها وكسابها أن يتجروا حيث شاؤوا من الأرض التي صالحناها» (٩٣). وروي عن السائب بن يزيد قوله «كنت عاملا على سوق المدينة في زمن عمر فكنا نأخذ من النبط العشر، وفي رواية ابن سعد عن الزهري: كنا نأخذ نصف العشر مما يتجرون به من الحنطة، فحدثت ابن سالم بن عبد الله بن عمر فقال: كان عمر يأخذ من القبط العشور ولكن إنما وضع نصف العشر من الحنطة يسترضي النبط لتحمل إلى المدينة» (٩٤). واشتهر للبعض نشاط تجاري حتى في البحر. ففيما يسوق ابن عساكر من روايات في ترجمة تميم الداري تقول إحداها إن «تميماً سأل عمر بن الخطاب عن ركوب البحر وكان عظيم التجارة في البحر فأمره بتقصير الصلاة» (٩٥). وربما يضاف للعوامل التي نشطت العمل التجاري ممارسة قريش منذ الجاهلية لنظام تجارة المضاربة أو القراض الذي يمكن صاحب المال غير القادر على ممارسة التجارة من استئجار غيره، مما أفسح المجال حتى لمشاركة النساء، وهكذا استقرضت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان من بيت المال زمن عمر بن الخطاب أربعة آلاف درهم تتجر بها وتضمنها، وحملت تجارتها إلى المدينة حيث باعت» (٩٦).

اختلف موقف الصحابة مسلكاً ورأياً تجاه هذا المال من ناحية وجه إنفاقه، هل للتمتع بمسرات الحياة التي يرخص بها الدين؟ أم للجهاد فقط؟ هل يبقى ما زاد عن نفقته؟ فتباينت الآراء فقهياً، كما كانت له ذيوله الاجتماعية والسياسية.

رأى البعض مثل خالد بن الوليد أن ينفق بسعة وسخاء من كسبه الحلال. ومثال ذلك ما جرى بعد صائفة سنة ١٧ هـ التي قادها مع عياض بن غنم وأصابا أموالا عظيمة. ولما بلغ

٠٩٢ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٥، ص ٢٣٢، زص ٢٧٠.
٠٩٣ ابن عساكر، التاريخ (عبد الله بن جابر، عبد الله بن زيد) ص ٣٦٩.
٠٩٤ بدران، تذهيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٦٥.
٠٩٥ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٣، ص ٣٦٠.
٠٩٦ ابن عساكر، تاريخ دمشق قسم تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق، ١٩٨٢، ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨.

الناس ذلك انتجع خالدا رجال من أهل الآفاق، وقد انتجعه الأشعث بن قيس بقنسرين فاجازه عشرة آلاف. ولما استدعى عمر خالداً الى المدينة وسأله عن مصدر الثراء أجابه بأنه الأنفال والسهمان وما زاد عن الستين فهي لك (٩٧). ونموذج آخر يتمثل بأبي عبيدة لم يشكك في حل المصدر، لكنه وجد في الاقتناء والغنى الواسع أمراً لا يتفق مع ما سمع من الرسول (ص)، حسب ما يرويه ابن عساكر باسناد عدة «ذكر من دخل عليه فوجده يبكي ولما سأله عن السبب أجابه» إن رسول الله (ص) ذكر له «أن ينسىء الله في أجلك يا أبا عبيدة فحسبك من الخدم ثلاثة: خادم يخدمك، وخادم يسافر معك، وخادم يخدم أهلك و يرد عليهم. وحسبك من الدواب ثلاثة: دابة لرحلك، ودابة لتقلك، ودابة لغلامك ثم هذا أنا، انظر إلى بيتي قد امتلأ رقيقاً، وانظر إلى مربطي قد امتلأ خيلا» (٩٨).

انبثق موقف ثالث مثله أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، ومكتبه بالشام، وكان موقفاً جازماً يرى اكتناز المال حراماً يعاقب الله عليه عقوبة شديدة. حدث أبو ذر الناس في الشام بأفكاره هذه قائلا «لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم ولا تبر ولا فضة، الا شيء ينفقه في سبيل الله او يعده لغريم». وكان يدعم رأيه بالحديث والقرآن، فيقول «سمعت حبيبي رسول الله يقول «في إلابل صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البر صدقته، جمع ديناراً أو تبرا أو فضة لا يعده لغريم، ولا ينفقه في سبيل الله كوي به». و يتلو الآية «يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل و يصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» (سورة التوبة ٩/٣٤ و٣٥). وتقول رواية لسيف إنه ما زال على ذلك حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه علي الأغنياء. وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس مما اضطر معاوية بالاتفاق مع عثمان لحمله إلى المدينة. وتعكس الروايات التي تتحدث عن مناقشته مع عثمان بقية آرائه في هذا الصدد. كان رأي عثمان على أن أقضي ما علي وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد. بينما كان رأي أبي ذر أنه بالنسبة للأموال العامة لا ينبغي أن يقال مال الله خشية احتجاب السلطان له، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا، وأن على الخليفة ألا يرضى من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة الا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والأخوان و يصل القرابات. واستند في الأمر الأخير على ما يرد في الآية القرانية «و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (الحشر ٥٩/٩). والآية «و يطعمون الطعام على حبه مسكيناً

٠٩٧ الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ٦٧، رواية سيف بن عمر.
٠٩٨ ابن عساكر، التاريخ، (عايذ ـ عاصم) ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

و يتيماً وأسيرا (الدهر ٧٦/٨)(٩٩). لم يقتصر هجوم أبي ذر على اكتناز الذهب والفضة، بل اعتبر الانفاق عن غير ضرورة سرفاً، فعندما بنى معاوية الخضراء بدمشق قال له: يا معاوية ان كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الاسراف».

إضافة لرأي معاوية وعثمان في دعوة أبي ذر هذه، رأى صحابي آخر في دعوة أبي ذر تشدداً مرده لنقص ما سمعه عن الرسول، وهذا الصحابي هو شداد بن أوس الذي يقول: «كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله (ص) فيه الشدة فيخرج إلى قومه يسلم لعله يشدد عليهم. ثم إن رسول الله (ص) يرخص فيه بعد فلم يسمعه أبو ذر فيتعلق أبو ذر بالأمر الشديد»(١٠٠).

لم تكن آراء أبي ذر هذه آراء فردية بل تعبر عن تيار فكري، أضيف اليه بروز الرواسب السابقة من عصبية وغيرها، فانقلب إلى هياج عام لا يقتصر على آراء يمكن اعتبارها فقهية فكرية، بل إلى هياج اجتماعي وسياسي لف الدولة بدءاً من السنوات الست الأخيرة لخلافة عثمان بن عفان، حتى إنه قال في جملة أقوال بخطبته لأهل المدينة «يا أهل المدينة: إن الناس يتمخضون بالفتنة». ورغم أن الشام لم تكن البؤرة في هذا الهياج، فأن ما يحصل كان ينتقل إليها خبراً او عياناً عن طريق من كانوا يسيرون إليها من العراق خاصة من زعماء الهيج.

تجاه كل ذلك، أي تجاه المنعمين الذين ينفقون عن سعة و يعرضون نعمهم، وأولئك الساعين لجمع المال وتكثيره وآخرين من أصحاب الدعاوي السياسية، رأى فريق كبير من كبار الصحابة وأصاغرهم، أن هذا كله من ظواهر الإقبال على الدنيا الزائلة الفانية وإعراضاً عن الآخرة الباقية، لذلك ركزوا في أقوالهم أو بما سردوه من أحاديث الرسول (ص) على إبراز ذلك الجانب من الاسلام الذي يدعو إلى البساطة في العيش والتقليل من ترف الحياة والا تعاظ بالموت والتوجه إلى الله والعمل لما فيه خير الإنسان في الدار الباقية. و بذروا بذلك بذورا فكرية للزهد والتصوف، ضرب فيها أبو الدرداء بالسهم الأوفر حديثاً وقولا وعملا في مجال الاعراض عن الدنيا ومشاغلها والتفرغ للآخرة ومهامها. يؤثر عن أبي الدرداء قوله «بعث النبي (ص) وأنا تاجر، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة فلم يجتمعا فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة، والذي نفس أبي الدرداء بيده، ما أحب أن لي اليوم حانوتاً على باب المسجد لا تخطئني فيه صلاة أربح فيه كل يوم أربعين ديناراً وأتصدق بها في سبيل الله». كما برز في

٩٩ ـ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٧ ـ ١٨؛ الذهبي، السير، ج ٣، ص ٦٦؛ الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤، رواية سيف بن عمر؛ البلاذري، احمد بن يحي بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، ٥ ج، مكتبة المثنى، بغداد، ج ٥، ص ٥٢ ـ ٥٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، أنساب الأشراف.

١٠٠ ـ احمد بن حنبل، المسند، ج ٤، ص ١٢٥.

سلوكه جانب من ذلك السلوك الذي عرف في الزهد والتصوف، وهو التأمل والتفكر. إذ سئلت أم الدرداء عن أبي الدرداء فقالت: التفكير والاعتبار. كما اشتهر البعض من هؤلاء الصحابة بالانقباض عن الناس، وهو من الخلال المحمودة لدى الزهاد، فالصحابي الأنصاري ابن الحنظلية كان رجلا متوحداً قل ما يجالس الناس وإنما هو في صلاة فاذا انصرف فانما هو يسبح و يحمد(١٠١). كذلك برزت عندهم فكرة الزهد بالجاه والمال فالصحابي ثوبان مولى الرسول يحدث عنه «أن النبي (ص) دعا لأهله فذكر عليا وفاطمة وغيرهما، قال: قلت: يا نبي الله أمن أهل البيت أنا؟ قال: نعم ما لم تقم على باب تسده أو تأتي أميراً تسأله»(١٠٢). ورأى أبو الدرداء في الجاه فتنة عن الدين فقد خطب اليه يزيد بن معاوية ابنة الدرداء فرده، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فقبل. وعندما استفسر منه عن سبب ذلك أجاب «ما ظنكم بالدرداء اذا قامت على رأسها الخصيان؟ ونظرت في بيوت يلتمع فيها مصيرها أين دينها منها يومئذ؟». و ينسحب الجاه الذي يدعو أبو الدرداء للزهد فيه على اتخاذ الخدم والحشم داعماً رأيه بحديث عن الرسول (ص) «لا يزال العبد من الله وهو منه ما لم يخدم، فاذا خدم وجب عليه الحساب» و يقول: إن أم الدرداء سألته خادماً وهو يومئذ موسر فكره ذلك لما سمع من الحساب. و يركز على فكرة عرضية الحياة الدنيا وزوالها بمخاطبة أهل دمشق «يا معشر أهل دمشق ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون. فقد كان القرون قبلكم يجمعون فيوعون، و يأملون فيطيلون و يبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بوراً وأملهم غروراً» وقريب من هذا كان معاذ يرى أن ترف الحياة فتنة عن الدين «إذ يروي عنه رجاء بن حيوة» ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم وستبلون بفتنة السراء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن الذهب والفضة ولبسن رياط الشام (الرقيقة اللينة)(١٠٣). وفي هذا التخوف من الغنى كفتنة وكمظهر من مظاهر التعلق بالدنيا وصرف النظر عن الآخرة، هاجم البعض الغنى هجوماً يقرب من هجوم أبي ذر واعتبر مثله كنز الذهب والفضة حراماً يعذب عليه صاحبه. ومنهم المولى ثوبان مستنداً على ما يرويه عن الرسول (ص) «ما من أحد يترك ذهباً ولا فضة، إلا جعل الله له صفائح ثم كوي بها على قدميه إلى ذقنه»(١٠٤). لكن أبا الدرداء لا ينذر بالعذاب وإنما يدعو الأغنياء لاستخدام أموالهم

١٠١ ـ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٣، ص ٢٥٠.

١٠٢ ـ الأصبهاني، ابو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م)، حلية الأولياء، ١٠ ج، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ج ١، ص ١٨٠ ـ ١٨١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأصبهاني، حلية الأولياء.

١٠٠ ـ احمد بن حنبل، المسند، ج ٤، ص ١٢٥.

١٠٢ ـ الأصبهاني، ابو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م)، حلية الأولياء، ١٠ ج، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ج ١، ص ١٨٠ ـ ١٨١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأصبهاني، حلية الأولياء.

١٠٣ ـ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٢٩٤.

١٠٤ ـ الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ١، ص ١٨٢.

في الدنيا بما يعود بتخفيف العذاب عليهم في الآخرة بقوله «يا معشر أهل الأموال بردوا على جلودكم من أموالكم قبل أن تكون وإياكم فيها سواء، ليس إلا أن تنظروا فيها وتنظر فيكم».

مقابل ذلك مجد هؤلاء الفقر، وهو الوسيلة التي استخدمها الزهاد والمتصوفون كمرحلة أولى لقطع علاقتهم بالدنيا. وقد روى الصحابي الشامي سعيد بن حذيفة حديثاً يفيد أن الفقراء يدخلون الجنة دون حساب بقوله «سمعت النبي (ص) أنه قال: يجيء فقراء المسلمين يدفعون كما يدفع الحمام، و يقال قفوا للحساب فيقولون: والله ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا به. فيقول الله عز وجل، صدق عبادي. فيدخلون الجنة» (١٠٥). وروي عن ثو بان حديث آخر فيه وصف لما ينتظرهم هناك من نعيم، وقد أخرجه له ابن عساكر بطريق شداد بن عبيد الله الخولاني: «سمعت حديث الرسول حوضي كما بين عدن إلى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً. وأول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رؤساء الدنس ثياباً الذين لا تفتح لهم السدد ولا ينكحون المنعمات، الذين يعطون كل الذي عليهم ولا يعطون كل الذي لهم» (١٠٦) ومن أفكار الزهد أيضاً تضخم الشعور بالذنب والخوف من عذاب الآخرة مما يستتبع البكاء من خشية الله إذ يقول أبو الدرداء «لو تعلمون ما أنتم راؤون من الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شراباً على شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل» ومثله يقول الحكم بن عمير الصحابي الشامي «كونوا في الدنيا أضيافاً واتخذوا المساجد بيوتاً وعودوا قلو بكم الرأفة وأكثروا التفكير والبكاء ولا تختلفن بكم الأهواء..» (١٠٧).

و برزت عندهم أيضاً فكرة الصبر والتوكل على الله إذ يقول أبو الدرداء «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضى بالقدر والاخلاص في التوكل والاستسلام للرب عز وجل» وقريب من هذا يقول «إن الله تعالى قال يا عيسى إني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم. قال: يا رب كيف يكون هذا ولا حلم ولا علم؟ قال أعطيتهم من حلمي وعلمي» (١٠٨).

ومن الأفكار المتصلة بالزهد والتصوف في آن واحد تبيان أهمية الذكر واذ يقول معاذ بن جبل «ما عمل آدمي عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله، قالوا: يا أبا عبد الرحمن ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع، ولان الله تعالى يقول في كتابه

---

١٠٥ . بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ١٤٧ ــ ١٤٩.
١٠٦ . رواه كل من مسلم والبخاري بطريق آخر؛ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٢٩٤ ــ ٣٩٤.
١٠٧ . الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ١، ص ٣٥٨.
١٠٨ . المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٧.

«ولذكر الله أكبر». كما تظهر عند أبي الدرداء فكرة الحب إلالهي، وهي الفكرة الأساسية في التصوف، كما هو معروف وذلك بقوله «اللهم إني أسالك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب الي من نفسي وأهلي..» وكذلك فكرة ثانية من أفكار الصوفية وهي محاسبة النفس وإهمال محاسبة الآخرين بقوله «لا تكلفوا الناس ما لم يكلفوا، ولا تحاسبوا الناس دون ربهم، ابن آدم عليك نفسك فان من تتبع ما يرى في الناس يطل حزنه ولا يشف غيظه».

القصص وأثر أهل الكتاب:

من الوسائل التي استخدمها الصحابة في تنفيذ مهمتهم بالتعليم والتفقيه تلك الوسيلة المسماة بالقصص التي يسمى القائم بها قاصاً. و يظهر القاص بين صحابة الشام في معركة اليرموك متمثلا بشخص أبي سفيان بن حرب، وتورد الرواية كلامه آنذاك بقوله للجند «الله الله! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك» (١٠٩). بعد ذلك يستمر عمل القاص في الجيش أثناء الحملات و بين الناس عند الاستقرار، وتعزو الرواية إلى تميم الداري قيامه بهذا العمل باذن من عمر بن الخطاب. وتتبين طريقة القصص هنا من مضمون ما يلقى ومما فهمه عمر بن الخطاب منها وسماها انها وعظ للناس. فقد جاء عن الزهري «أول من قص تميم الداري، استأذن عمر في القصص سنين.. و يأبى عليه فلما أكثر عليه قال ما تقول؟ قال: أقرأ عليهم القرآن وآمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر. قال عمر ذلك الربح. ثم قال: عظ قبل أن أخرج للجمعة. فكان يفعل ذلك، فلما كان عثمان استزاده فزاده يوماً آخر (١١٠). و يبدو مما سجل من عظهم ميلهم للتأثير والإطراف والمبالغة، آخذين بعين الاعتبار توجههم لجمهرة واسعة من عامة الناس، ونجد مثلا على ذلك فيما يروى من قصص الصحابي الشامي أبي ريحانة قاص بيت المقدس وفيها يقول «نهى رسول الله (ص) عن عشرة: عن الوشم والرشوة والنتف وعن مكامعة الرجل الرجل بغير شعار والمرأة المرأة بغير شعار وان يجعل الرجل في أسفل ثيابه حريرا مثل الاعلام وان يجعل على منكبيه حريراً مثل الأعاجم وعن التهني وركوب النمر ولبوس الخاتم إلا لذي سلطان» (١١١). ومن قصص تميم قال رسول (ص) ما من أمرىء نقى لفرسه شعيراً ثم يعلقه عليه إلا كتب الله لكل حبه حسنة». ونظراً لطبيعة القصص هذه ازداد القصاص مع الزمن وازداد إقبال الناس عليهم، مما جعل البعض يستخدمه أيام الفتنة للأغراض السياسية، فقد روى يزيد بن حبيب أن عليا قنت فدعا على قوم من أهل حربه، فبلغ ذاك معاو ية، فأمر رجلا يقص بعد الصبح، و بعد المغرب يدعو له ولأهل الشام. كما زاد

---

١٠٩ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٣٩٧.
١١٠ . الذهبي، السير، ج ٢، ص ٤٤٧.
١١١ . احمد بن حنبل، المسند، ج ٤، ص ٢٠١؛ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣.

من أعدادهم في جيشه، وكان في جيشه الموجه للعراق بعد موت علي بن أبي طالب عشرة
قصاص.

وأدى الميل للاطراف لدى القصاص على توالي السنين إلى الكذب ونشر القصص الخرافية،
وزاد في نشر الخرافة انتشار بعض قصص أهل الكتاب، وكان بعض هؤلاء قد أضحوا من
الصحابة بعد إسلامهم، كتميم الداري الذي كان مسيحيا، و يؤثر عنه ما رواه للرسول الكريم
من قصة الجساسة، وهي دابة او امرأة تجر شعرها قال إنه رآها تتجسس الأخبار
للرجال (١١٢). أما تبيع ابن امرأة كعب الأحبار فيقال إنه أدرك النبي واختلف عليه بين
صحابي وتابعي، وكان قد قرأ الكتب (أي الدينية القديمة) إضافة لما سمعه من كعب، وكان
يتنبأ بحدوث أشياء حتى سماه البعض الكذاب (١١٣). ومثله ذو قربات (بفتحات) الحميري،
اختلف على صحبته، واشتهر بأنه قرأ أيضاً كتب الأوائل وكان البعض يدعوه صاحب أخبار
الملاحم. وقد قدم على معاوية باستدعاء كعب له. أما كعب الأحبار اليهودي الأصل فالمتفق
أنه لم يسلم على عهد الرسول (ص)، لكنه خالط الصحابة في الحجاز ثم في الشام، واعتبر رغم
عدم تصديقه صاحب علم واسع غزير بأخبار الأنبياء وعلم التوراة. لم يكن تأثير هؤلاء مباشرة
بل عن طريق الصحابة الذين يسألونهم أحياناً لضرورات تفسير لمعرفة ما تقول التوراة. فقد
سأل معاوية كعب الأحبار عن مكان غروب الشمس الذي يرد ذكره في الآية «حتى إذا بلغ
مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب
وإما أن تتخذ فيهم حسناً» (سورة الكهف آية ٨٦) فأجاب كعب، أما بالعربية فأنتم أعلم بها
وأما أنا فأخذ الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين (١١٤). لكن أهم ما أثروا فيه بالصحابة
وانتقل. لغيرهم في كثير من الأحيان كان في الملاحم أو التنبؤات التي اشتهر بها الكثير منهم.
وجذب المسلمين لتصديقها في كثير من الأحيان ادعاؤهم بأنهم أخذوها عن التوراة. من
الأمثلة عليها ما رواه أحد اليهود عند مجيئه للشام، فقد أقبل على عمر قائلا السلام عليك يا
فاروق، أنت صاحب إيلياء ولا والله لا نرجع حتى يفتح الله إيلياء». وبعد تمام الصلح مع
إيلياء أو القدس، الذي شهده ذلك اليهودي، سأله عمر عن الدجال، فقال هو من بني
بنيامين، وانتم يا معشر العرب تقتلونه على بضع، عشرة ذراعاً من باب لد» (١١٥)، و يبدو من
هذه القصة مزج هذه التنبؤات بالتزلف للعرب والمسلمين، وهو ما فعله ذو قربات الذي قدم
على معاوية باستدعاء كعب، فحياه بطريقة اليهود ثم قص عليه خبر أمة سيكتب لها النصر
على أهل الضلالة حتى الأعور الدجال ولها العز والتقى والطهارة وحب الخير و يرحمها الله،

---

١١٢ . بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٣، ص ٣٤٧.

١١٣ . المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

١١٤ . ابن الجزري، غاية النهاية، ج ٢، ص ٣٠٣.

١١٥ . الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٦٠٨.

وأن موسى تمنى أن تكون أمته لكن الرب قال إنها أمة محمد (١١٦) .١٤٠
وقد سعى بعض الصحابة لمعرفة أخبار الأنبيا القديمة وما في كتب أهل الكتاب فأخذوا
عن أمثال هؤلاء مثل شداد بن أوس الصحابي الشامي، الذي أخذ عن كعب الأحبار (١١٧)،
واحياناً كانت تأثيراتهم تحمل مع الصحابة حتى قبل قدومهم للشام، كما هو الحال عند أبي
الدرداء الذي آخى الرسول(ص) بينه و بين سلمان الفارسي الحامل للثقافتين الفارسية
والمسيحية (١١٨)، وقد مر معنا كيف يتطرق في بعض مواعظه إلى عيسى عليه السلام.

ولعل من الأمور الجديرة بالذكر في دور الصحابة الثقافي بالشام، الإجابة على تساؤل
يطرح نفسه. وهو أن عملهم كان في الحواضر ومساجدها فماذا عن المسلمين في الأرياف
والقرى؟ من يعظهم و يثقفهم وقد يكونون حديثي عهد بالاسلام أو قلة قليلة يخشى على
ضياعها وسط أكثرية غير مسلمة؟ لا تجود المصادر بأخبار تصلح لأجابة كافية وافية، وقد
يستنتج المرء من ثنايا ترجمة يوردها ابن عساكر للسائب الكلاعي، أن كبار الصحابة لم
يكونوا غافلين عن هذا الموضوع، وأنهم كانوا يطوفون بالقرى يسعون لتثبيت دين هؤلاء
الناس عن طريق التفقه ودعوتهم للتكتل والتجمع واقامة صلاة الجماعة. إذ يروي السائب
هذا عن معدان بن أبي طلحة اليعمري قال: كنت في قرية دون حمص فقال لي أبو الدرداء
«سمعت رسول الله (ص) يقول: ما من ثلاثة في قرية لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة إلا
استحوذ عليهم الشيطان، عليك بالجماعة فانما يأكل الذئب القاصية» (١١٩).

كذلك يبدو أن أبا الدرداء كان يسعى أيضا لنشر الاسلام بين غير المسلمين و يستخدم
الترغيب وسيلة، إذ يرد في رواية أن رجالا من أهل دمشق استعانوا به على معاوية ليكلمه أن
يخفف عنهم من الخراج، فلما لم يؤذن له قال: أنتم أظلم منه قالوا: لم أصلحك الله؟ قال: لو
شئتم فلم يكن له عليكم سبيل». كما حاول تسهيل قراءة القرآن على الأعاجم المسلمين حديثاً
بجعلها على المعنى عند الضرورة. وقد سمح لأحدهم لما صعب عليه لفظ «الأثيم» أن يلفظها
«فاجر» (١٢٠).

الأفكار السياسية لصحابة الشام و بنور العثمانية فكراً وعملا

كان العديد من كبار رجال الصحابة على قيد الحياة عندما أطلت الفتنة برأسها في
السنوات الست الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان، وهي الفترة التي يطلق عليها البعض

---

١١٦ . بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٥، ص ٢٦٥.

١١٧ . ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٠١.

١١٨ . ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٥٠٦.

١١٩ . بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٦، ص ٦١.

١٢٠ . ابن عساكر، التاريخ (منح)، مجلد ١٣، ورقة ٣٩ ب.

فترة السب و وقد وقفوا ضد الانشقاق وراحوا يدعون للجماعة و يحضون على طاعة الخليفة (١٢١). وقد عبروا عن منطلقهم الفكري لهذا الموقف الذي اخفوه بآراء عامة، تعكس صورة فهمهم للدولة وضرورة طاعتها. فالصحابي عمير بن سعد الغني تولى حمص لأمد، ذكر في خطبة له على منبر ما يعكس تصور الارتباط بين الاسلام كدين والدولة كسلطان، وارتباط منعة الإسلام بشدة سلطانه القائمة على العدل. وذلك بقوله «ألا الإسلام حائط منيع و باب وثيق وحائط الإسلام العدل و بابه الحق فاذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان. وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط. ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل (١٢٢)، و يعبر أبو الدرداء عن نظرة مماثلة، و يضيف اللجوء إلى النصيحة للامام بدلا من الانتقاض عليه، لأن خلع الطاعة انفصال عن الإسلام، وذلك بقوله «لا إسلام إلا بطاعة ولا خير إلا في الجماعة والنصح لله عزوجل وللخليفة وللمسلمين عامة» وفي مناسبة أخرى يعرض رأيه بأن إساءة الإمام يجب التعو يض عنها بما يراه عند الله، فقد «كانت له حاجة إلى معاو ية فحجبه لشغل كان فيه، فوجد في نفسه فقال: من أتى باب السلطان قام، ومن وجد بابا مغلقا وجد إلى جنبه باب رحب، إن سأل أعطي وإن دعا أجيب ــ وإن أول نفاق المرء طعنه على إمامه» (١٢٣). اعتمد أبو الدرداء في هذه النظرة على ما يرو يه عن الرسول (ص) من حديث أخرجه له ابن ساكر «قام فينا رسول الله (ص) فقال إن الجنة لا تحل لعاصي، من لقي الله وهو ناكث بعثه يوم القيامة وهو أجزم ومن خرج من الطاعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ومن أصبح ليس لأمير جماعة عليه طاعة بعثه الله يوم القيامة مع من مات ميتة جاهلية» (١٢٤).

ومع توالي السنين انتقلت أكثرية كبار الصحابة في الشام إلى جوار ربها، في وقت كانت الفتنة فيه تتعمق، و بدأت فكرة الطاعة تترجم لدى من بقي من الصحابة، وجلهم من صغارهم، طاعة لصاحب الأمر في الشام. و بذلك تبلور ظهور تيار العثمانية في الشام على الصعيدين السياسي والفكري. وتقدم الجميع على الصعيد السياسي ــ العسكري اسم بسر بن أبي أرطأة العامري القرشي، الذي ينفي أهل المدينة صحبته وروايته عن الرسول (ص)، بينما يؤكد الشاميون صحبته وروايته، ولو أنها يسيرة. والثابت أنه كان صاحب غزو، جعل عمر عطاءه كعطاء أهل الحديبية لبلائه في الجهاد. وقد شارك في الفتح بالشام ومصر وأسهم في بعض عمليات فتح المغرب، حيث تخلد اسمه باطلاقه على قلعة فتحها بالقرب من مجانة في منطقة القيروان وأصبحت تعرف بقلعة بسر. وكذلك شارك في قيادة الشواتي والصوائف حيث

١٢١ ● الطبري، التاريخ، ٤ ج، ص ٣٥١ ــ ٣٥٢.

١٢٢ ● ابن سعد، الطبقات، ج ٤، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥.

١٢٣ ● ابن عساكر، التاريخ، (منح)، مجلد ١٣، ورقة ٦٣٩.

١٢٤ ● بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٣، ص ٣٨٠.

خلد اسمه أيضاً باطلاقه على حمة في منطقة الغزو (١٢٥)، ينعته ابن سعد بأنه كان عثمانياً، والواقع أنه حارب بحماس إلى جانب معاو ية في صفين، حيث كان قائداً لرجالة أهل دمشق، وعندما كان معاو ية يبسط سلطانه على البلاد الخاضعة لعلي بن أبي طالب أرسله على رأس قوات إلى الحجاز واليمن، وقد أصيب بوسواس آخر حياته جعله يتخيل نفسه دائماً أمام قتلة عثمان و يريد الثأر منهم (١٢٦).

كذلك قاد صحابة آخرون جنداً من قومهم في صفين كحمزة بن مالك الهمداني على همدان الأردن. وقاد البعض الآخر أقسام الجيش الرئيسية: كان الصحابي حبيب بن مسلمة الفهري على الميسرة وحابس الطائي على رجال الميمنة كلها (١٢٧). كما حضرها صحابة ليسوا من أهل الغزو أبرزهم صدي بن العجلان أبو أسامة الباهلي المشهور بأنه أحد كبار رواة الحديث في صحابة الشام، وقد رو يت عنه طريقة التعامل بين المتحاربين «شهدت صفين فكانوا لا يجهزون على جريح ولا يطلبون موليا ولا يسلبون قتيلا» (١٢٨).

اما الموقف الفكري فقام على تبيان فضل الشام كموقع إضافة لفضل عثمان ومعاو ية، اذ يقول الصحابي خريم بن فاتك المعروف بصلته الوثيقة بمعاو ية «أهل الشام سوط الله في الأرض ينتقم بهم ممن يشاء كيف يشاء وحرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم ولن يموتوا إلا هماً وغيظاً». أما تبيان فضل عثمان فكان بحديث عن الرسول (ص) يسند للصحابيين الشاميين عبد الله بن حوالة (ت ٥٨ هـ) وكعب بن مرة البهزي (ت ٥٧ هـ) وكلاهما من النازلين في الأردن، وفي الحديث اختلاف في اللفظ بين الاثنين وهو «قال رسول الله (ص) تهجمون على رجل يبايع متفجرا يبايع الناس من أهل الجنة؟ قال: فاذا هو عثمان بن عفان».

وفي لفظ آخر منسوب لابن حوالة؛ قال النبي (ص) يا ابن حوالة كيف تصنع في فتن تخرج في أطراف الأرض كأنها صياصي البقر؟ فقلت ما أدري ما خفار الله ورسوله. فقال فكيف تفعل في أخرى تخرج بعدها كأن الأولى فيها انتفاجة أرنب؟ فقال اتبع هذا، ورجل مقفي حينئذ فانطلقت فسعيت فأخذت بمنكبيه، فأقبلت بوجهه إلى رسول الله (ص) فقلت هذا؟ قال: نعم، فاذا، هو عثمان بن عفان» (١٢٩).

١٢٥ ● البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٢٩؛ ابو زرعة، التاريخ، ج ١، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

١٢٦ ● الذهبي، السير، ج ٣، ص ٤٠٨ ــ ٤٠٩.

١٢٧ ● خليفة بن خياط، التاريخ، ج ٢، ص ٢٢١ ــ ٢٢٣؛ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٤، ص ٤٤٠ ــ ٤٤١، ج ٣، ص ٤٢٢، ٤٢٣.

١٢٨ ● ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤١١.

١٢٩ ● أخرجه الترمذي، وابن ماجة عن كعب بن مرة البهزي مع اختلاف في اللفظ. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٢؛ بدران، تهذيب ابن عساكر، ج ٧، ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨، ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤١٤.

كذلك أفاض هذا التيار في تبيان فضل معاو ية، عن طريق رواية أقوال لأبي الدرداء، أحد كبار الصحابة الذي روى عنه قوله «ما رأيت أشبه صلاة برسول الله (ص) من أميركم هذا» يعني معاو ية (١٣٠). وتجاوزا ذلك فرفعوا للرسول (ص) أحاديث في فضله. وقد ساق ابن عساكر عدداً ضخماً منها في الترجمة المخصصة له، أغلبها ظاهر الوضع (١٣١). ولعل أكثرها اعتدالا وأقواها إسناداً وترددا في مؤلفات أقدم من ابن عساكر هو دعاء الرسول (ص) «اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب» و يسند لاثنين من صحابة الشام، أولهما العرباض بن سارية، وثانيهما عبد الرحمن بن أبي عمير المزني، الذي يسند إليه اضافة لذلك حديث آخر في فضل معاو ية يقول: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به (١٣٢). و يسند الحديث نفسه للصحابي عمير بن سعد أمير حمص. وقد عزله عثمان وضم بلده لامرة معاو ية، فغضب أهل البلد، وقام عمير بتهدئتهم عن شتم معاو ية إنه سمع من الرسول (ص) الحديث المذكور. و يسند ابن سعد للصحابي الشامي عبد الرحمن بن عمير حديثاً آخر يمجد بيعة معاو ية عام الجماعة في القدس ونصه «سمعت رسول الله (ص) يقول تكون في بيت المقدس بيعة هدى» (١٣٣).

من ناحية أخرى عرض عبد الرحمن بن قتادة الصحابي الشامي رأيه في القدر قائلا «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم وأخذ الخلق من ظهره فقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فقال رجل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على موقع القدر» (١٣٤). وكما هو واضح تعكس هذه الأقوال اعتقاداً بالجبرية وهو ما اعتمدته العثمانية متمثلة بالأمو يين.

مما مر نخلص إلى أن طبقة الصحابة بالشام كانت على رأس الجيش الفاتح في مناصب القيادة العسكرية والتوجه الديني. وعند نزول الجيش واستقراره بقيت في مواقعها لأن القيادات العسكرية تحولت لأمرة بلدان، كما شغلوا الوظائف العليا التي استدعى إيجادها تطور الوضع. وفي المجال الفكري عملوا بنشاط على تعليم الناس أمور دينهم إضافة للقراءة والكتابة، كما ساروا بفكرهم قدماً إلى الأمام عن طريق التكامل فيما بين علومهم بأخذهم بعضاً عن بعض، إضافة لترقيهم فكرياً بفعل ما استثاره تفكيرهم من تساؤلات ممن حولهم وتطور الأوضاع حولهم، وتحدي بيئة جديدة لهم، استدعت منهم تكييف مسلكهم ومسلك

---

١٣٠ . الذهبي، السير، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

١٣١ . ابن عساكر، التاريخ (منح)، مجلد ١٦، ورقة ٣٤٥ ـ ٣٥٠.

١٣٢ . الذهبي، السير، ج ٣، ص ١٣٥؛ أحمد بن حنبل، المسند، ج ٤، ص ٢٢٧؛ الترمذي، الصحيح، ج ٥، ص ٦٨٦، رقم ٣٨٤١.

١٣٣ . ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

١٣٤ . المصدر السابق، ج ٧، ص ٤١٧.

الناس كي يبقى منسجما مع الدين. ومن الطبيعي ألا يستطيعوا الاتفاق على جميع الحلول، كما لم يستطيعوا إيجاد أحكام وحلول لكل شيء واضطروا للعودة للمدينة طلباً للأمر أو للفتوى. إلا أنهم أوجدوا في الشام مركزاً فكرياً إسلامياً، أنجب كثيرين من التابعين الذين أخذوا علم الصحابة في الشام، ثم تجاوزوه بعد رحلتهم للأمصار الأخرى فأخذوا علمها، مما سمح لمدرسة الشام الفكرية أن تنطلق فيما بعد من قاعدة علمية أوسع وتستند على معرفة للعلم الاسلامي أشمل.

الادارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين

نجدة خماش
كلية الاداب ــ جامعة دمشق

كانت الشام والطريق المؤدية إليها محط اهتمام الرسول الكريم في الفترة الأخيرة من حياته، و يتضح هذا من نشاطاته العسكرية في شمال الحجاز وأطراف الشام الجنوبية (١).

ويمكن أن نردّ اهتمام الرسول إلى عوامل مختلفة، فالشام طبوغرافياً امتداد طبيعي للجزيرة العربية، كما أن للشام مكانتها الدينية ولا سيما القدس التي كانت قبلة المسلمين قبل مكة وكان إسراء الرسول منها، يضاف الى ذلك كثرة القوافل التجارية التي كانت تتجه إلى القسم الجنوبي من بلاد الشام إلى غزة و بصرى، وكثرة القبائل العربية الموجودة في هذه المنطقة التي أطلق عليها الطبري اسم أرض قضاعة، و يعني بها أرض فلسطين (٢).

ولما كان من أهداف سياسة الرسول الكريم إدخال القبائل العربية ضمن نطاق الدولة الإسلامية، بعد أن تبينت له الأهمية السياسية الناجمة عن دعم هذه القبائل أثناء صراعه مع قريش، فمن الطبيعي أن يعمد الرسول إلى مدّ هذه السيطرة خارج نطاق الحجاز إلى شماله وإلى جنوبي الشام، وهذا يتطلب بذل جهود إضافية، لا سيما وأن الدولة الإسلامية اضطرت إلى أن تواجه منافسة جدية من قبل الدولة البيزنطية التي كانت تحاول أن تخلق أو تعيد خلق تحالف قوي بين القبائل الحليفة لها، إذ أن اجتياح سورية من قبل الساسانيين سنة ٦١١م، ووصولهم إلى مصر سنة ٦١٧، و بقاءهم مدة عقد أو أكثر، قد هزّ السيادة البيزنطية على سورية هزة عنيفة، كما أن الإحتلال

---

١. ذات أطلاح سنة ٨هـ، مؤتة جمادى الأولى سنة ٨هـ، ذات السلاسل تبوك سنة ٩هـ.

٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ أجزاء، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف الطبعة الثانية، السنة ١٩٦٣م، جـ٣، ص ٤٨. سيشار اليه فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

الساساني حطّم ولا شك الكثير من التنظيمات والتسويات التي كانت تميز الحكم البيزنطي، إذ قضي على مملكة الغساسنة، وهذا بدوره قضى على التحالفات القبلية التي كانت الدولة البيزنطية قد سعت إلى تحقيقها بكل جهد في بادية الشام، ولم تكن إعادة بناء هذه التحالفات أمراً سهلاً لحدوث تغييرات ضمن قبائل الشام نفسها، ففي فترة الإحتلال والصراع يبدو طبيعياً ومنطقياً أن تستغل بعض المجموعات القبلية الفوضى الناجمة عن تدهور السلطة المركزية وسقوطها لتهاجر إلى المقاطعات الغنية المتمدنة. ولا شك أن تحالفات وارتباطات قبلية جديدة انبثقت في ظل الأوضاع الجديدة بالرغم من أنه يستحيل وصف التفاصيل الناجمة عن هذه التغييرات، وهكذا نرى أنه في الفترة التي بدأ الرسول يحاول فيها إدخال القبائل العربية في الشمال لسلطان الدولة الإسلامية كانت الإمبراطورية البيزنطية تسعى لعقد تحالفات جديدة مع هذه القبائل، ومن ثم فإن اتجاه حركة التحرير شمالاً باتجاه الشام كان أمراً بالغ الأهمية لعوامل سياسية واستراتيجية بالإضافة إلى العوامل الدينية والاقتصادية.

امتدت حركة الفتح والتحرير، إذا ما نحينا مؤتة وتبوك وبعث أسامة، بين سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤م وهي السنة التي التقت فيها الجيوش الإسلامية بالروم في داثن ووادي عربة(٣) وسنة ١٩ ــ ٢٠ هـ/٦٤٠م وهي السنة التي استسلمت فيها قيسارية. ويبدو من تتبع الفتوح أن فتح دمشق وهزيمة اليرموك كان يشبه تسليم زمام بلاد الشام والجزيرة إلى المسلمين لأنه مكّنهم من السيطرة على هذه المنطقة المتوسطة من الشام والتي تحمي ظهورهم بالبادية، ثم أن يتابعوا هجماتهم في الشمال وفي الجنوب، أما في الجنوب فانتهى بهم الأمر إلى الإستيلاء على بيت المقدس ١٧ هـ/٦٣٨م. أما في الشمال، فقد توالت الفتوح بعد حمص واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تدخل حلب وأنطاكية، حصن المسيحية الحصين في هذه المنطقة الشرقية، ثم توجهت بعد ذلك إلى الشرق نحو الجزيرة التي كانت أسهل البلدان أمراً وأيسرها فتحاً، وكانت تلك السهولة مهجنة عليهم وعلى من أقام فيها من المسلمين.

ويمكننا أن نعتبر سنة ١٧ هـ السنة التي طبق فيها عمر بن الخطاب بعض

٣. البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٢م. سيشار إليه فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

التدابير الادارية، ففي رواية عن السري عن سيف عن الشعبي أن عمر عندما قفل من الشام إلى المدينة في ذي الحجة ١٧ هـ خطب حين أراد القفول، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ألا إني قد وليت عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولاّني الله من أمركم، إن شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا ما لديكم، فجنّدنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج، ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شأمكم وسمينا لكم أطماعكم وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم»(٤). وفي رواية أخرى عن السري عن عثمان والربيع وأبي حارثة بإسنادهم، أن عمر قسم الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها ويسمي ذلك في كلّ كورة واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة(٥).

بالاستناد إلى هاتين الروايتين نستنتج أن اهتمام عمر كان منصبا بالدرجة الأولى على المقاتلة ومنازلهم وتوفير فيئهم وأعطياتهم وتجنيد الأجناد لهم وحماية المنطقة بسد فروج الشام ومسالحها وبوضع نظام الصوائف والشواتي هذا النظام الذي استمر العمل به خلال العهد الراشدي والعصر الأموي.

التقسيمات الإدارية:

قسم عمر بن الخطاب الشام إلى أربعة أجناد، وهي حمص ودمشق والأردن وفلسطين، وهذه الأجناد الإسلامية كما يقول البلاذري أقاليم استقرّت فيها فرق من الجيش لحمايتها وقبض أعطياتهم منها(٦)، وبالرغم من أن فيليب حتي ولي سترانج (Le Strange) يحاولان إظهار التشابه بين هذه الأجناد والتقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في الشام بالاستناد الى ما ورد في قانون ثيودوسيوس (Theodosius) الذي يرجع تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي(٧)، فإن المسعودي يشير الى أوجه الشبه بين

٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٥.

٥. المصدر السابق، ج ١، ص ٦٤.

٦. البلاذري، فتوح ص ١٣٧.

٧. فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٢ ج، ط ٣، دار الكشاف، بيروت، جـ١، ص ٣٨٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حتى: تاريخ،

La Strange, Palestine Under The Muslim, p. 26.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

Palestine Under the Muslim.

البنود البيزنطية والأجناد الإسلامية، إلا أنه يبين أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد[8]. ويعلق ياقوت الحموي أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام[9]. وهو ولا شك قد بنى رأيه على ما ورد عند عدد من الجغرافيين المسلمين كاليعقوبي (ت ٢٨٨هـ) وابن رسته (ت ٢٩٠هـ) والاصطخري (ت ٣٢١هـ) وقدامة ابن جعفر (ت ٣١٠هـ).

ونظام البنود البيزنطية أو ما يسمى باليونانية ثيما (Thema) تعني فرقة من الجيش تعسكر في إقليم، ولم يتسع معناها للدلالة على الأقاليم نفسها إلا في وقت متأخر[10]. ونظام الثيما ليس إلا تطبيقاً لما أقامه هرقل في آسيا الصغرى حيث قسمت الأراضي التي لم تحتلها قوى أجنبية إلى مناطق عسكرية كبيرة وضعت تحت إدارة قواد عسكريين لهم صلاحيات الحكام الإداريين الذين كانوا يديرون المقاطعات في السابق، ويطلق عليهم اسم (Strategus)، وكان طابع الحكم الجديد طابعاً عسكرياً عنصره الأساسي إقامة وحدات عسكرية مستقرة في آسيا الصغرى التي كانت الأخطار تتهددها[11]. وإذا كان هرقل قد طبق هذا التنظيم في آسيا الصغرى فإن الوقت لم يكن مناسباً بالنسبة للشام ومصر التي واجه الامبراطور فيها أعباء تنظيمية ثقيلة بعد تحريرها من الفرس، ثم ما لبثت هذه الأقاليم أن تعرضت لهجوم العرب ودخلت في نطاق الدولة الاسلامية[12]. أي أن عمر بن الخطاب قسم الشام إلى أجناد لا لأنها كانت مقسمة

٨. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، التنبيه والاشراف، مكتبة المثنى، بغداد، ص ١٥٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: التنبيه.

٩. ياقوت الحموي، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م). معجم البلدان، ٥ج، دار صادر: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٣٨. سيشار اليه فيما بعد هكذا: ياقوت الحموي، معجم البلدان.

١٠. ستيفن رونسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٦١، ص ٩٧. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: رونسيمان، الحضارة.

١١. المرجع نفسه.

١٢. فتحي عثمان، الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري (الكتاب الأول)، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ج ١ ص ٩٥، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الحدود الاسلامية.

كذلك عندما دخل العرب إليها، ولكن لأن الضرورات العسكرية هي التي أوجبت هذا التقسيم، ولعله استوحى ما كان البيزنطيون قد بدأوا بتطبيقه في عهد هرقل من نظام البنود في آسيا الصغرى، فالساحل الشامي طويل والشام كانت لا تزال مهددة براً وبحراً من قبل البيزنطيين، فكان لا بد من إيجاد مراكز عسكرية متعددة لكي يتمكن كل جند من الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له، فقد كانت عرقة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة الى جند دمشق[13]. أما اللاذقية وجبلة وبانياس وأنطرطوس فكانت تابعة لجند حمص،[14] وتبعت صور وعكا جند الأردن،[15] وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة جند فلسطين[16].

من دراستنا للمقاطعات التي انقسمت إليها الشام في العهد البيزنطي نلاحظ أنه كان لها مقاطعات ساحلية وأخرى داخلية وأنها أكثر مطابقة للتقسيمات الجغرافية للمنطقة، ونظراً لاعتماد بيزنطة على أسطولها فإن أهم المراكز في العهد البيزنطي كانت المدن الساحلية كأنطاكية وصور وقيسارية، أما أجناد الشام، فكان كلّ جند يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية، بشكل تستطيع معه كل منطقة أن تعتمد على الأخرى حربياً واقتصادياً، وبما أنه لم يكن للعرب في البدء أسطول قادر على حماية السواحل، فإن مراكز الأجناد كلها كانت مدناً داخلية، حمص، دمشق، طبرية، اللد، وبقيت اللد قصبة جند فلسطين حتى خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ولى أخاه سليمان جند فلسطين

١٣. ابن شداد، محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٢ح، تحقيق الدكتور سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢، ص ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠١، ١٠٦. سيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن شداد، الأعلاق؛ اليعقوبي، أحمد بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) البلدان، النجف، المطبعة الحيدرية، ١٩٥٧م، ص ٣٢٧؛ ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن أحمد (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، ليدن، ١٨٨٩، ص ٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، المسالك.

١٤. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٤؛ ابن الفقيه، أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني، كتاب البلدان، بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص ١١٠، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، البلدان؛ ابن خرداذبة، المسالك، ص ٧٥.

١٥. البلاذري، فتوح، ص ١٢٤؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧؛ ابن شداد، الأعلاق، ص ١٢٣.

١٦. البلاذري، فتوح، ص ١٤٤؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٩؛ ابن الفقيه، البلدان، ص ١٠٣.

فابتنى مدينة الرملة (١٧).

كانت القبائل العربية الوافدة إلى الشام تتفرق في حواضرها، وتنزل المنازل التي جلا عنها أهلها أو يقاسمونهم منازلهم أحياناً (١٨)، وكانت المدن أحياناً تقسم خططاً بين المسلمين كما فعل السمط بين الأسود الكندي بحمص (١٩). أما رواية الطبري، فتشير إلى أن أبا عبيدة عندما صالح أهل حمص أنزلها السمط بن الأسود الكندي في بني معاوية، والأشعث بن مئناس في السكون، والمقداد بن الأسود في بلي (٢٠). ورتب أبو عبيدة ببالس جماعةً من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين إليها وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس (٢١)، كما نجد اهتماماً بالغاً بإسكان المقاتلة المدن الساحلية، إذ كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة ويجعلهم مرابطة (٢٢)، واهتم معاوية بشكل خاص سواء في خلافة عمر أو في خلافة عثمان، عندما ولي الشام والجزيرة، بالمدن الساحلية وشحنها بالمقاتلة، كما فعل باللاذقية وانطرطوس وبانياس (٢٣). وساعد معاوية على تحقيق ذلك أن الخليفة عثمان أمر بمنح كل راغب في الإقامة في المدن الساحلية إقطاعات من الأرض يستغلها و يتمتع بخيراتها، و يعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، كما أمره أن يبني المساجد و يكبر ما ابتني منها، فكان هذا سبباً لانتقال الناس إلى السواحل. و يروي الواقدي، عن مشايخ من أهل الشام، أن

١٧. اليعقوبي، البلدان؛ ص ٣٢٨؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي أحمد، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ١٤ج، ج ٤، ص ٩٩. سيشار اليه فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

١٨. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٤٤٤.

١٩. البلاذري، فتوح، ص ١٣٧.

٢٠. بنو معاوية من كندة من قبائل اليمن، وكذلك السكون، أما بلي فمن قضاعة. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) الأنباه على قبائل الرواة، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٥٦م، ص ١١٣، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٢٣، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد البر، الأنباه؛ البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

٢١. المصدر السابق، ص ١٥٥.

٢٢. المصدر السابق، ص ١٥٣.

٢٣. المصدر السابق، ص ١٤٠، ١٣٩.

معاوية رمّ عكا عند ركوبه الى قبرص ورمّ صور، وأنهم نزلوا صور والسواحل وبها جند من العرب، وخلق من الروم، ثم لم يلبث أن نزع اليهم أهل بلدان شتى فنزلوها معهم وكذلك جميع السواحل (٢٤).

استقرت القبائل العربية والمقاتلة العرب، في مختلف أجناد الشام، ولم يستقروا في مدن معينة كالبصرة والكوفة في العراق حيث اتبع نظام الأخماس والأسباع، ولذلك نجد أن عمر يكتب الى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ومساجد للقبائل، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، و يكتب إلى سعد بن أبي وقاص في الكوفة وإلى عمرو بن العاص في مصر بمثل ذلك، بينما نراه يكتب إلى أمراء الأجناد في الشام ألا يتبددوا إلى القرى وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً، ولا تتخذ القبائل مساجد، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده (٢٥).

الإدارة وأهم الموظفين الإداريين:

من الصعب إعطاء صورة دقيقة عن الإدارة في الشام لعدم وجود سجلات تعود الى هذه الفترة المبكرة كما هو الأمر في مصر، وجلّ اعتمادنا يقع على المصادر التاريخية والفقهية التي يعود أقدمها الى القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نرسم الخطوط العريضة للإدارة في الشام وأهم الموظفين والمؤسسات الإدارية في هذه الفترة.

نلاحظ أولى بوادر التنظيم الإداري عندما عمد أبو بكر الى تعيين القادة الذين أرسلهم لفتح الشام ولاة على المناطق التي كلفوا بفتحها، فقد روى الواقدي أن أبا بكر ولى عمرو بن العاص فلسطين وشرحبيل الأردن و يزيد دمشق، وأنه إذا حدث قتال فأميرهم هو الذي يكونون في عمله (٢٦). كما روي أنه أمر عمراً مشافهة أن يصلي بالناس

٢٤. البلاذري، فتوح، ص ١٢٤.

٢٥. المقريزي، أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) الخطط المقريزية، ٣ج، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ، ج ٣، ص ١٠٥، سيشار اليه فيما بعد هكذا: المقريزي، الخطط.

٢٦. البلاذري، فتوح، ص ١١٦، ١١٧.

إذا اجتمعوا، واذا تفرّقوا صلى كل أمير بأصحابه. فلما جاء خالد مدداً، فلاحظ توحيداً للقيادات استمر في خلافة عمر بن الخطاب الذي جمع أمر الشام كله وإمرة الأمراء في الحرب والسلم لأبي عبيدة بن الجراح لمكانته وعظيم ثقته (٢٧)، وعمد أبو عبيدة أثناء عملية الفتوح إلى تعيين والٍ على كل مدينة صالحهُ أهلها (٢٨)، وضم جماعة من المسلمين إليه، وكانت مهمة هذا الوالي بالدرجة الأولى أن يمنع أهل المدينة، وأن يجبي الجزية والخراج (٢٩) وبقي لرؤساء أهل كل مدينة مكانتهم في إدارة شؤون رعاياهم من أهل الذمة (٣٠)، وبقيت قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجنائية والقضائية مرتبطة برؤسائهم الروحيين إلا إذا كانت القضية تمس المسلمين (٣١).

ويتبين لنا من النصوص التي بين أيدينا أن أبا عبيدة كان يتمتع بصلاحيات واسعة عسكرية ومدنية، فهو الذي يوجه القادة ويعين العمال على الكور (٣٢)، ويوافق على عقود الصلح التي يبرمها قواده (٣٣)، كما يلي أمر القضاء (٣٤)، واستمرت إمرته على الشام حتى وفاته في طاعون عمواس ١٨ هـ (٣٥).

٢٧. المصدر السابق، ص ١٢٣. خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط، ٢ج، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف، الأشراف، ١٩٦٧، ج ١، ص ١٥٧. سيشار اليه فيما بعد هكذا: خليفة بن خياط، تاريخ؛ ابن سعد، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) كتاب الطبقات الكبير، ٩ج، ليدن، ١٣٢٢هـ، جـ٧، قسم ٢، ص ١١١، ١١٢. سيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.

٢٨. أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٦هـ، ص ١٦٦. سيشار اليه فيما بعد هكذا: أبو يوسف، الخراج.

٢٩. البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

٣٠. أبو يوسف، الخراج، ص ١٦٦، ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ١٣ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، جـ٢، ص ٤٩٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل.

٣١. مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخباره الحقائق، بغداد، مكتبة المثنى، ص ٦٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: العيون والحدائق.

٣٢. البلاذري، فتوح، ص ١٣٧، ١٥٢.

٣٣. المصدر السابق، ص ١٥٢.

٣٤. أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٠.

٣٥. ابن سعد، الطبقات، جـ٧، قسم ٢، ص ١١١ — ١١٣.

ولم يجمع عمر بن الخطاب الشام لعامل واحد بعد وفاة أبي عبيدة ١٨ هـ، إذ عيّن عياض بن غنم على حمص وقنسرين والجزيرة، ولم تكن الجزيرة قد فتحت بعد، وإنما كان من عادة الخلفاء أنهم إذا أرسلوا قائداً لفتح بلد ولّوه عليه قبل خروجه لفتحه (٣٦)، وولى معاوية دمشق والكور التابعة لها، وعمرو بن العاص فلسطين والأردن (٣٧). وكان ولاة الشام عند وفاة عمر معاوية على دمشق والأردن، وعلقمة بن مجزر على فلسطين، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين والجزيرة، وكانت صلاحيات الولاة تتوقف على ما يرد في نص التعيين من ولاية على الصلاة أو الحرب أو الخراج أو ثلاثتها معاً، ولم يتبع الخليفة عمر نهجاً معيناً، إذ يبدو أن ذلك كان يتوقف على شخصية الوالي وعلى المصر، فمثلاً أن عمر يعين ٢١هـ على الكوفة عمار بن ياسر على الصلاة والحرب، وعبد الله بن مسعود على بيت المال، وعثمان بن حنيف على الخراج (٣٨)، ويعين معاوية بن أبي سفيان على جند دمشق وخراجها، وشرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها (٣٩)، ولم يكن عمر يعين الولاة فقط وإنما كان يعين عمال الخراج وكتاب الدواوين والقضاة في الأمصار. واذا كانت معظم الروايات في هذا المضمار متعلقة بالكوفة والبصرة، فإن الروايات تشير إلى تعيينه القضاة في الشام، فقد ولى أبا الدرداء قضاء دمشق وصلاتها، وعبادة بن الصامت قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما (٤٠)، وفي رواية أخرى أنه ولى حابس بن سعد بن المنذر قضاء حمص، وعبادة قضاء فلسطين (٤١)، وكريب بن سيف الأنصاري قضاء الأردن (٤٢). ولا تهمنا الأسماء

٣٦. البلاذري، فتوح، ص ١٧٧.

٣٧. خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٥٧.

٣٨. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٤٤؛ الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، دار المسيرة، بيروت، ١٩٥٩، ص ١٢٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الدينوري، الأخبار؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ٣.

٣٩. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٢.

٤٠. البلاذري، فتوح، ص ١٤٦.

٤١. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م) جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨. ص ٣٧٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جمهرة.

٤٢. أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله الدمشقي (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ٢ج، =

هنا بقدر اهتمامنا بأنه وجد قضاة في مراكز الأجناد الى جانب الولاة، وكان يوكل اليهم أحياناً بالإضافة إلى القضاء ولاية الصلاة.

بعد وفاة عمر جمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها (٤٣)، وأصبح معاوية يتمتع بصلاحيات واسعة جداً، لأنه عهد إليه بولاية الصلاة والحرب والخراج، وكانت إمامة الوالي على الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالي وعلى رئاسته العليا السياسية في الدولة، وبما أن الإدارة المالية جمعت له كذلك، فإنه أصبح مطلق التصرف في ولايته، وكان تعيين الولاة على الأجناد عائداً اليه (٤٤)، وهؤلاء بدورهم كانوا مسؤولين أمامه، كما أنه بالرغم من أن الخليفة عثمان سار على نهج عمر في تعيين القضاة في الأمصار، في مصر، والكوفة، والبصرة، فإننا نجد معاوية في الشام يستشير أبا الدرداء فيمن يرشح لهذا المنصب من بعده، فيشير عليه بفضالة بن عبيد (٤٥).

إن هذه الصلاحيات الواسعة هي التي مكنت معاوية خلال خلافة عثمان من تثبيت سلطانه، ومن ثم فإنه عندما بدأت الفتنة ووفد معاوية على عثمان ٣٤هـ مع سائر ولاة بني أمية للتشاور في أمر الفتنة التي انتشرت في أرجاء الدولة، اقترح معاوية على عثمان أن ينطلق معه الى الشام (٤٦)، وكانت نصيحة معاوية لعثمان بالانتقال الى الشام وبإظهاره أهمية اعتماد البيت الأموي على هذا الإقليم تمثل مفهوماً جديداً في التطور السياسي الذي شهدته الدولة الإسلامية إذ ذاك، فقد أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شؤون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها، وهاجر القسم الأعظم من القبائل منها، إن لم نقل قبائل هامة برمتها، وأقامت في

= تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠، ج ١، ص ٢٢٤، ابن عساكر، علي ابن الحسن بن عبد الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) تاريخ دمشق الكبير، ٧ج، هذبه ورتبه عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م، جـ٧، ص ٢٠٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تهذيب تاريخ دمشق.

٤٣. البلاذري، فتوح، ص ١٨٢، ١٨٨، ١٨٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٣، قسم ٢، ص ١٢٨.

٤٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٢١.

٤٥. ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٢هـ/١٥٤٦م) الثغر البسام فيمن ولي قضاء الشام، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٥٦. ص ٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الثغر البسام.

٤٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣٤٥.

المعسكرات التي تحولت إلى مدن زاهرة في الأقاليم المفتوحة، وتناقصت أهمية الحجاز ولم تعد المصر الأوحد الذي تقرر منه سياسة الدولة، ومن ثم فإن علياً نفسه خرج إلى العراق واتخذ من الكوفة مركزاً له عندما أيقن أن الخلاف بينه وبين معاوية لن ينتهي إلا بالحرب، واستطاع معاوية بالاعتماد على أهل الشام أن يقف في وجه علي بن أبي طالب وأن يصبح خليفة للمسلمين.

نلاحظ من دراستنا للولاة والقادة في الفترة الراشدة أنهم كانوا من الصحابة، فبالإضافة إلى الصحابة من الفقهاء الذين كان يحوطهم المسلمون بكثير من الاحترام والرعاية، كانت للصحابة المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة؛ وعندما أصبح معاوية والياً على الشام والجزيرة نجده يعين ولاته على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة أو أبنائهم، فقد عين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على جند حمص (٤٧)، لعظم قدره في أهل الشام ولما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد (٤٨)، وولى على قنسرين حبيب بن مسلمة الفهري (٤٩)، وعلى الأردن أبا الأعور السلمي (٥٠)، وعلى

٤٧. المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢١، ٣٢٦.

٤٨. مصعب الزبيري، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م)، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٣٢٤، ٣٢٥، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الزبيري، نسب.

٤٩. حبيب بن مسلمة له صحبة ورواية، وجاهد في خلافة أبي بكر وشهد اليرموك أميراً، ولاه أبو عبيدة أنطاكية واستعمله عمر بن الخطاب على عجم الجزيرة وحربها، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء، ٣ج، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١. جـ٣، الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣٥، ص ١٥٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: سير أعلام النبلاء؛

ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم بن أحمد بن هبة الله، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ج، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، ص ٣٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: زبدة الحلب.

٥٠. هو عمرو بن سفيان من بني سليم من بطون قيس عيلان، وهو من قادة الفتوح، اشترك في معركة اليرموك وكان من القادة الذين وجههم أبو عبيدة الى فحل والذي صالح أهل طبرية، أبو عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٤٢م) العقد الفريد، ٧ج، ابراهيم الابياري، شرحه وضبطه أحمد أمين، أحمد الزين، القاهرة، ١٩٥٢م، ج ٣، ص ٣٩٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: العقد الفريد؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩٦، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٤، ٦٠٥.

فلسطين علقمة بن حكيم الكناني (٥١)، وعلى القضاء أبا الدرداء. ومما يلفت الإنتباه أن ولاة معاوية في خلافة عثمان كانوا كلهم من القيسية، وأنه عينهم في المناطق التي كان لهم فيها ذكر نابه، كما يتبين لنا ذلك من تتبع أعمالهم، أما أبو الدرداء، فقد كان أنصارياً خزرجياً، وكان قد عينه قاضياً منذ خلافة عمر بن الخطاب وبأمر منه. واستطاع هؤلاء الولاة أن يفرضوا احترامهم على القبائل العربية في الشام التي كان معظمها إما قضاعية أو يمانية، بحيث أن الشام هي الولاية الوحيدة التي لم تشترك في الثورة على عثمان، وعندما تنقل عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم في خلافة عثمان يحاول ضلالة الناس، لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر. إلا أنه كان من نتيجة معركة صفين ازدياد نفوذ القبائل اليمانية لأنها اعتبرت أن مؤازرتها ودعمها له كانت سبباً في نجاحه ووصوله الى سدة الخلافة (٥٢)، كما أوضح له أشراف اليمن وساداتهم بصراحة، أنه إذا مالأ بني نزار ولم يآس بينهم وبين قومه، فسوف يكون هو الخاسر، لأنهم أكثر منه نفراً وجمعاً (٥٣)، ولذلك نجد معاوية في خلافته، ثم يزيداً من بعده، يتجهان اتجاهاً مختلفاً في تعيين ولاة الأجناد، فيعمدان الى انتقائهم من زعماء القبائل حسبما توافر لهم من استقرار وكثرة، فكانت قنسرين والجزيرة بأيدي عمال من عرب الشمال أو القيسية، بينما كانت حمص والأردن وفلسطين بأيدي عمال من عرب الجنوب أو قضاعة (٥٤). ونلاحظ أن معاوية لا ينقاد لليمانية تماماً لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعاً من التوازن، وانضمام قضاعة إليه منحه تأييداً حربياً وسياسياً عظيم الخطر؛ إلا أن هذا التأييد كانت له شروطه، وهو أن يفرض معاوية لألفي رجل منهم ألفين، ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وأن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس وكل ما كان من

٥١. قائد من الصحابة، دخل دمشق مع خالد بن الوليد وتوجه مع مسروق الى ايلياء وعينه عمر بن الخطاب على نصف فلسطين وأنزله الرملة؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٤١، ٦٠٨، ٦١٠.

٥٢. تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٣٠.

٥٣. المصدر السابق، ج ٧، ص ٣١.

٥٤. سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ١٤٥؛ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٣١؛ البلاذري، أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) أنساب الأشراف، ج ٥، صورته بالأوفست، مكتبة المثنى بغداد، ص ١٢٧ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أنساب الأشراف.

حل أو عقد فعن رأي ومشورة منهم (٥٥).

بالرغم من أن الوالي والقاضي هما الموظفان الإداريان الأساسيان في الشام اللذان تذكرهما المصادر، فلا بد من وجود عدد كبير من الموظفين الإداريين في الكور والنواحي وجباة الضرائب، والكتاب الذين يعملون في الدواوين، ولا شك أن هؤلاء الموظفين كانوا، إما من العرب أو الموالي أو أهل الذمة؛ وهنا لا بد من الإشارة الى أن الوضع في الشام كان يختلف عن الوضع في العراق، فالأكثرية الساحقة من الروم ومرتزقتهم نزحوا عن المدن الساحلية والداخلية الهامة ولحقوا بهرقل الى آسيا الصغرى والقسطنطينية، والقبائل العربية النصرانية، التي كانت تشكل نسبة سكانية لا يستهان بها في الشام قبل الفتح، اعتبرت اجتماعياً بمستوى العرب المسلمين الفاتحين حال اعتناقها الاسلام، ومن أسلم من أهل الذمة من غير العرب على أرض الخراج رفعت الجزية عن رأسه وانتقلت أرضه الى أصحابه من أهل قريته يؤدون خراجها عنها وأسلموا له ماله ورقيقه وفرضوا له في ديوان المسلمين (٥٦)، وهؤلاء كانت نسبتهم قليلة لأن دخولهم في الإسلام كان بطيئاً. وأغلب الظن أن النسبة الكبرى من الموالي في الشام كانت موالي عتاقة، إما من الرقيق الذي كان موجوداً قبل الفتح، أو من السبي الذي كان يوزع على المقاتلة، لأن الخمس من الأسرى كان يرسل في هذه الفترة الى المدينة، ولذلك وبناء على ما ذكرت وعلى دراسة قوائم الإداريين في الفترة السفيانية يمكن القول إن الاعتماد على الموالي في هذه الفترة كان محدوداً واستمر محدوداً حتى نهاية الفترة السفيانية.

أما فيما يتعلق بأهل الذمة، فإن المصادر تشير الى أن الخليفة عمر بن الخطاب ترك تصريف الشؤون المحلية للسكان من أهل الذمة، ولكنه كان يكره استخدام غير

٥٥. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، (ت ٣٤٦هـ/٩٧٥م) مروج الذهب، ٧ج، عني بتنقيحها وتصحيحها شارل بلا، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٥ — ١٩٧٩. جـ ٣، ص ٨٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مروج الذهب.

٥٦. ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) تاريخ دمشق، المجلة الأولى، محمد أحمد الدهان، دمشق، ١٩٥١، المجلد الأول، ص ٢٩٣.

المسلمين في الأمور المتعلقة بالمسلمين (٥٧). و يرد في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية، أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب : أما بعد يا أمير المؤمنين فإن في عملي كاتباً نصرانياً لا يتم أمر الخراج إلا به، فكرهت أن أقلده دون أمرك، فكتب اليه : «عافانا الله وإياك، قرأت كتابك في أمر النصراني، أما بعد فإن النصراني قد مات والسلام» (٥٨)، أي ماذا تعمل إذا مات ؟ ألا تجدون حينئذ من يقوم مقامه ؟ ثم يضيف ابن الجوزية أن الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة درجوا على ما طبقه الرسول وعمر بن الخطاب في عدم استخدام أهل الذمة في أعمال المسلمين، فيذكر أسماء بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشيد والمهدي والمأمون (٥٩)، وفي هذا إشارة إلى أن خلفاء بني أمية كافة باستثناء عمر بن عبد العزيز، استعانوا بأهل الذمة، كما أنه يورد روايات مختلفة تظهر منع عمر بن الخطاب عماله من استخدام أهل الذمة، و يطلب من المسلمين أن يتعلموا الكتابة، فإنما هي حلية الرجال (٦٠)، وهذه الأقوال على ما أعتقد لا تنطبق على أحوال زمان الخليفة عمر بن الخطاب وما عرف عنه من اهتمام بأمور رعيته، وكل عارف بأخبار عمر ومعاوية يعلم أن دواوين الخراج وقتئذ كانت في الشام بالرومية وأن كل كتابات الخراج والجباية لم تكن تدون إلا بالرومية، فلم يكن بد للعرب من كتاب بلديين، يجيدون فهم الرومية، ولذلك لم يكن عند معاوية كاتب نصراني واحد فقط بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصناعة، وكلهم من المسيحيين، فلم يكن ثمة من سبيل للاستغناء عن النصارى سكان البلاد، وقد شهد

٥٧. ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) عيون الأخبار، ٤ مجلدات، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١، ص ٤٣، وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : ابن قتيبة، عيون الأخبار، الأبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمدبن أحمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) المستطرف في كل فن مستظرف، ٢ ج، مكتبة محمد عبد الواحد الطوبي، القاهرة، ١٣٢٠هـ. ج ١ ص ١١٠، ١١١، وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : الأبشيهي، المستطرف.

٥٨. ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) أحكام أهل الذمة، ٢ق، تحقيق صبحي الصالح، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٦١م، ق ١، ص ٢١٠. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا : ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة.

٥٩. المصدر السابق، جـ ١، ص ٢١٢.

٦٠. المصدر السابق، ج ١، ص ٢١١.

عمر بن عبد العزيز بحاجة المسلمين إليهم «لأن المسلمين استعانوا بهم في أول الأمر لعلمهم بالجباية والكتابة، والتدبير فكان لهم في ذلك مدة قضاها الله» (٦١)، ولذلك فإن ما يذكره ابن الجوزية عن استئذان معاوية عمر في استخدام كاتب نصراني واحد واجابته بأن النصراني قد مات رواية لا يقبلها العقل والمنطق، ولكن قد تقبل من الخليفة الناصر لدين الله الذي كتب عن ابن زطينا النصراني كاتب الإنشاء ببغداد حين أبى أن يفارق دينه النصراني، «مات ابن زطينا والسلام».

المؤسسات الإدارية :

يؤكد كثير من المستشرقين أن الادارة العربية اقتصرت على الناحية المالية وأن ديوان إدارة الدولة كان عبارة عن ديوان حساب (٦٢)، ونحن وإن كنا لا ننكر أهمية الناحية المالية فإن الإدارة العربية في الواقع لم تقتصر عليها، وانما أولت اهتمامها لأمور مختلفة، كان في مقدمتها نشر الدين الإسلامي واللغة العربية وتعليم الناس دينهم وسننهم. و بالرغم من أن ليفي يحاول في كتابه أن يظهر أن التعليم كان من اختصاص الفرد (٦٣)، فإن هذا يتناقض مع الأهمية الكبرى التي كان يعلقها الخليفة عمر بن الخطاب على تعليم المسلمين دينهم وسننهم، ففي خطاب لعمر بن الخطاب قال : «والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه اليّ» (٦٤)، وفي قول لعمر بن

٦١. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م) سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، ط ٣، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٣٦، سيشار اليه فيما بعد هكذا : ابن عبد الحكم سيرة عمر.

٦٢. فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣١. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : فلهوزن، تاريخ الدولة.

٦٣. Levy, R., The Social Structure of Islam, London, Cambridge Un. Press, 1982, p. 298.
سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : The Social Structure.

٦٤. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، تاريخ عمر بن الخطاب، قدم له وعلق عليه أسامة عبد الكريم الرفاعي، دار احياء علوم الدين، دمشق، ١٩٧٥م، ص ١١٤. سيشار اليه فيما بعد هكذا : ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب.

الخطاب : «اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار فاني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، ويقسموا فيهم فيأهم، ويعدلوا عليهم، فمن أشكل عليه شيء رفعه اليّ» (٦٥). وفي مخطوطة الأموال لابن زنجويه أن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عماله : «أن اعط الناس على تعلم القرآن»، فكتب اليه : «إنك كتبت اليّ أن اعط الناس على تعلم القرآن فتعلمه من ليست له فيه رغبة إلا رغبة الجعل»، فكتب اليه : «أن أعط الناس على المروءة والصحابة» (٦٦).

اعتمد الخلفاء الراشدون في نشر الإسلام على اقتداء الناس بالمسلمين وخاصة بالمقاتلة، فأصدروا تعليمات أخلاقية محكمة لجند المسلمين، فتعليمات أبي بكر لأسامة بن زيد (٦٧)، لا نكاد نجد ما يماثلها في تعليمات أي ملك أو أمير أو قائد جيش في التاريخ كله قديماً وحديثاً، كما استطاع القادة العرب في عهد الخلفاء الراشدين أن يحصلوا على ثقة سكان البلاد نتيجة للسياسة السمحة التي اتبعوها عندما أدركوا أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في النفوس، وأن يملأ عليهم آفاقهم، لأنه إذا توافرت لهم الأجواء المسالمة التي لا يفسدها الخوف، فإنما تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والإعجاب بما يؤمنون به، وقد يكون الإعجاب طريقاً للمشاركة والإيمان. ومن أجل هذا نجد أن كتب الصلح المختلفة تؤكد على إعطاء الأمان للسكان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، جاء هذا في كتاب خالد لأهل دمشق (٦٨)، وفي كتاب عمرو بن العاص لأهل غزة وسبسطية ونابلس (٦٩)، وفي كتاب أبي عبيدة لأهل بصرى وحمص وبعلبك (٧٠)، وفي كتاب شرحبيل بن حسنة لأهل طبرية (٧١)، وفي كتاب

---

٦٥. أبو يوسف، الخراج، ص ١٦؛ الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٠٤.

٦٦. محمد حميد الله الحيدرأبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٣، دار الارشاد، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٩٢. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : مجموعة الوثائق.

٦٧. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

٦٨. البلاذري، فتوح، ص ١٢٨.

٦٩. المصدر السابق، ص ١٤٤.

٧٠. المصدر السابق، ص ١٢٠، ١٣٦، ١٣٧.

٧١. المصدر السابق، ص ١٢٣.

عمر بن الخطاب إلى أهل بيت المقدس، وبذلك استطاع هؤلاء السكان أن يتنفسوا في جو حر، فالأنفس والأموال في عرف المسلمين آمنة، والأموال كلها مدنية تتصل بالأرض والمنازل ودينية تتصل بالكنائس والصلبان، والأنفس كلها ضعيفها وقويها سقيمها وبريئها وسائر ملتها فلهذه الأنفس جميعاً مكانها في المجتمع الجديد، لا يضطهد ضعيفها ولا يهمل مريضها، ولا تنسى فيه حقوق وواجبات، وتدرج كتاب الصلح الذي كتبه عمر لأهل إيلياء تدرجاً رائعاً، فهو لم يقتصر على منح الأمان لسكان البلاد وحدهم، وإنما منح الأمان للروم كذلك، ومن كان بإيلياء من أمم الأرض جميعاً لم يهمل شأنهم وأتاح لهم الأمان ما أتاح لغيرهم، وأمنهم أن يلحقوا بأرضهم أو يظلوا في مكانهم أو يلتحقوا بالروم (٧٢). وهكذا تمتع أهل الشام بحرية لم تتح في ذلك الوقت في العالم الا في أضيق الحدود، فقد آمنهم عمر على عقائدهم وآمنهم كذلك على كل ما يتصل بهذه العقائد من مقدسات وصلبان وكنائس ووقف بذمته بينها وبين أن تسكن أو تهدم أو ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم، وأباح لهم أن يستمتعوا بما يعتقدون في مدى واسع من الحرية «فلا يتطلع اليهم أحد بإكراه ولا ينالهم من أحد إجبار ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم» (٧٣).

ونظراً لانتشار المسيحية الواسع في الشام وكثرة الكنائس فيها، فقد اتبع عمر في الشام سياسة خاصة لنشر الدين الإسلامي وهي بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة (٧٤)، فانتشرت المساجد في بلاد الشام، وتابع الأمويون هذه السياسة في بنائها (٧٥)، وساعد على نشر الدين كثرة الصحابة الذين اشتركوا في الفتح من المهاجرين والأنصار، فقد بلغ عددهم حسب ما ورد في كتاب الطبقات ١١٣ صحابياً (٧٦). ويبدو أن حمص كانت ملتقى لأصحاب الرسول، فعن أبي مسلم الخولاني أنه دخل مسجد حمص، فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي (صلعم) وأدرك كثير بن مرّة

---

٧٢. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٩، من عهد عمر لأهل ايلياء.

٧٣. المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٠٩، ٦١٠.

٧٤. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢١.

٧٥. البلاذري، فتوح، ص ١٣٥، ١٤٨، ١٤٩.

٧٦. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، قسم ٢، ص ١١١ — ١٥١.

الحضرمي في حمص سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله، ولذلك كان يسمى الجند المقدم (٧٧).

أدى هؤلاء الصحابة الذين خرجوا مجاهدين وتوزعوا في الأجناد دوراً كبيراً في إرساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم، فكانوا أساتذة لمن خلفهم، وتفقه معظم أفراد الطبقة الأولى من التابعين في الشام على يد عبادة بن الصامت وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل (٧٨). ومنذ أن كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب «أن أهل الشام كثير وقد احتاجوا الى من يعلمهم القرآن و يفقههم بالدين» أرسل عمر معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء وطلب منهم أن يبدأوا بحمص ثم أن يخرج واحد منهم الى دمشق وآخر الى فلسطين، فأقام عبادة في حمص، وخرج أبو الدرداء الى دمشق، ومعاذ الى فلسطين، وأصبحت المساجد هي دور العلم في العصر الراشدي والمراكز التي يتدفق عليها الناس طلباً لسماع الحديث، ولا نجد ذلك في مساجد مراكز الأجناد فقط بل في الساحل أيضاً؛ فعن شراحيل العنسي قال: «أتيت بيروت أنا وعمير بن هانيء العنسي، فإذا نحن برجل عليه الناس في المسجد فإذا عليه قميص كرابيس، إلى نصف ساقيه، وقلنسوة صغيرة، يقال له حيان بن وبرة المري، فقلت لعمير بن هانيء: أمن أصحاب رسول الله (صلعم) هو؟، قال: لا، ولكنه صاحب لأبي بكر (٧٩).

وقد مدّ الله بعمر بعض هؤلاء الفقهاء من الصحابة، فتوفي واثلة بن الأسقع بن عبد العزى سنة ٨٥هـ وقيل ٨٣هـ، وكان ينزل بيت المقدس ومات فيها، ولكنه كان يمر بدمشق وحمص حين يشهد المغازي (٨٠). وكان آخر من توفي بالشام من أصحاب رسول الله (صلعم) عبد الله بن بسر المازني، توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨١)،

٧٧. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، قسم ٢، ص ١٥٧.

٧٨. تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢١٣، ج ٦، ص ٢٩٠، ٣٤٣.

٧٩. المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١، ٢٢، الخولاني، أبو علي عبد الجبار بن عبد الله، تاريخ داريا، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٠، ص ٩٤. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الخولاني، تاريخ داريا.

٨٠. ابن سعد، الطبقات، ج ٣، قسم ٢، ص ١٢٩.

٨١. المصدر السابق، ج ٧، قسم ٢، ص ١٣٣.

وتوفي أبو أمامة الباهلي قبله بسنتين سنة ٨٦هـ (٨٢).

بالرغم من أن انتشار الإسلام كان يساعد على انتشار العربية لأنه كان يسبقها ويمهد لها، فإن انتشار الإسلام واللغة العربية لم يسيرا في خطين متوازيين، فقد كان انتشار اللغة العربية في بعض المناطق أبطأ من انتشار الإسلام، أما في الشام فقد كان انتشار اللغة أسرع من انتشار الدين، إذ أن قسماً كبيراً من سكان الشام بقي على مسيحيته إلى القرن الثالث الهجري، في حين أن اللغة العربية التي جاء العرب المسلمون يحملونها و يتكلمون بها لم يكن لها من وقع أو معنى غريب، فقد كانت واضحة في مسامع العرب يعونها و يتجاوبون معها، لأنها كانت لغتهم، وإن كان قد طرأ عليها بعض التغيير بسبب بعدها عن الموطن ومجاورتهم للأعاجم، كما أن اللغة العربية لم تكن نابية في مسامع الآراميين، وكانت اللغتان عضوين في أسرة واحدة لم يبعد الزمن في التفريق بينهما، ولم يكن هناك إلا الروم وحدهم لا يتكلمون هذه اللغة وكانوا بالقياس، إلى العرب والآراميين قلة، لا سيما بعد جلاء القسم الأكبر منهم، ولذلك لم يكن في هذا الاتصال اللغوي الذي نشأ عن التقاء المسلمين بالسكان المقيمين في بلاد الشام عنصر غريب متنافر. وكان من الطبيعي أن ينتهي الصراع بين اللغتين العربية والآرامية بتغلب العربية لأنها كانت لغة الدين ولغة الدولة معاً ولغة فريق كبير من السكان، وكان يلجأ اليها الذين يسلمون والذين يتعربون، ومع ذلك بقيت دواوين الخراج في الشام تكتب بالرومية حتى سنة ٨١هـ، عندما أمر عبد الملك بنقل ديوان الشام إلى العربية، وأجبرت عملية التعريب هذه كل من يرغب في العمل في دواوين الدولة أن يتعلم اللغة العربية و يتقنها.

ديوان العطاء:

كان ديوان العطاء الديوان الوحيد الذي أسس في عهد عمر بن الخطاب لتحديد العطاء لجميع العرب والجند الإسلامي، وكان يعرف بالمدينة باسم الديوان لأنه لم يكن يوجد غيره، ولم يحتاجوا إلى تمييزه بلفظ آخر يضاف إليه، ومنذ أن أسس عمر هذا الديوان وجد في الكوفة والبصرة والشام ومصر ديوانان، أحدهما بالعربية لإحصاء الناس

٨٢. المصدر السابق، ج ٧، قسم ٢، ص ١٣١.

وأعطياتهم والآخر لوجوه الأموال باللغة الفارسية في العراق، وباللغة الرومية في الشام، وباللغة القبطية في مصر، (٨٣) وسيتبين لنا مهام ديوان الخراج من خلال بحثنا للنظام الضريبي في الشام.

يذكر الواقدي عن محمد بن عبد الله عن الزهري، أن تاريخ وضع الديوان كان في المحرم من سنة ٢٠ هـ (٨٤)، كما أن الرواية التي تربط بين قدوم أبي هريرة بأموال من البحرين وتدوين الديوان تؤكد ذلك، حيث أن أبا هريرة كان والياً على البحرين سنة ٢٠ هـ (٨٥). أما سيف فيذكر أن عمر دوّن الديوان سنة ١٥ هـ (٨٦)، ونقل هذه الرواية بعض المؤرخين كالمقريزي وابن الوردي والقلقشندي (٨٧)، كما يذكر سيف أنه وزع على المسلمين قبل دخولهم المدائن سنة ١٦ هـ عطاء وقبل رحيلهم للكوفة سنة ١٧ هـ عطاء آخر (٨٨).

ولعل رواية سيف تشير إلى ما كان يجري فعلاً في الأمصار بعكس ما كان في المدينة من توزيع للأموال حين حضورها، لذا قيل عن توزيع الأموال بشكل راتب معين في كل سنة عطاء، ويبين ذلك الشعبي فيقول عمن رأى عمر بن الخطاب أنه قال لما

---

٨٣. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٣٨. سيشار إليه فيما بعد هكذا: الجهشياري، الوزراء والكتاب؛

المقريزي، الخطط، ص ١٨١؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٢.

٨٤. ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٢١٣؛ البلاذري، فتوح، ص ٤٢٦، الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١١٢؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٥٣.

٨٥. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١١٢؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٣.

٨٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٥.

٨٧. المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٢؛ ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) تاريخ ابن الوردي، ٢ج، جمعية المعارف القاهرة، ١٨٦٨م، ج ١، ص ١٤٥. سيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الوردي، تاريخ؛ القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ٣ج، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، وزارة الأرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٤، ج ٣، ص ٣٣٥. سيشار إليه فيما بعد هكذا: القلقشندي، مآثر الإنافة.

٨٨. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٢ — ٨٣.

فتح الله عليه وفتح فارس والروم، جمع أناساً من أصحاب رسول الله فقال: «ما ترون؟، فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فإنه أعظم بركة..»، ففرض الأعطيات (٨٩).

ويبدو أن العطاء بقي يوزع بالتساوي بين المقاتلة في العراق والشام حتى سنة ٢٠ هـ مع زيادة أهل البلاء في أعطياتهم (٩٠)، إلا أن زيادة وارد الدولة بعد استقرار فتح الشام والعراق ومصر وحصول اختلاف في الرأي حول أحقية المسلمين الأوائل ومن أسلم بعدهم في المدينة في نصيبهم في الأموال وبين الفاتحين والروادف في الأمصار في وارد البلاد إضافة الى توسع رقعة الدولة الإسلامية دفع عمر الى وضع ديوان العطاء على التفصيل سنة ٢٠ هـ.

وأوضح عمر منذ البدء أن العطاء هو لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم، وهم أهل المدائن، فصاروا بعد الى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر (٩١)، وقال: الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم، ولم يفرض لغيرهم، «ألا فيهم سكنت المدائن والقرى عليهم جرى الصلح وإليهم أدي الجزاء وبهم سُدت الفروج ودوخ العدو» (٩٢).

كان عطاء المقاتلة في الشام في العهد الراشدي بين أهل الأيام ومقاتلة اليرموك، ومن أتى بعدهم والروادف، فعطاء أهل الأيام ثلاثة آلاف وأهل اليرموك ألفان ولأهل البلاء الرائع منهم ألفان وخمسمائة، وفرض لمن بعد اليرموك ألفاً، ثم فرض للروادف حسب تتابعهم خمسمائة وثلاثمائة ومائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد على مائتين، وسوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم،

---

٨٩. أبو يوسف، الخراج، ص ٤٩.

٩٠. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٦، ج ٤، ص ٦٤؛ أبو زرعة الدمشقي، تاريخ، ج ١، ص ١٨٧؛ تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ١٧٦.

٩١. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٩؛ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، مكتبة المثنى، بغداد، نسخة بالأفست عن طبعة بريل ١٩٨١، ص ١٠٧، سيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن رسته، الأعلاق.

٩٢. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٥.

وفرض لنساء اليرموك مائتين، ثم سوى بين النساء وجعل الصبيان سواء على مائة: (٩٣)
ويذكر البلاذري أن عمر فرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة بينما يشير النص الذي أورده الطبري الى أن الحد الأدنى كان مائتين(٩٤).

وهناك في الواقع فرق في تنظيم الديوان في الأمصار عنه في المدينة زمن الخلافة الراشدة، فقد كانت القبيلة في ديوان المدينة وحدة عسكرية ومالية، وسجلت القبائل في الديوان، والأقرب فالأقرب لبني هاشم، وفرض العطاء حسب السابقة وحضور المشاهد الأولى، أما في الأمصار فقد كانت هناك بعض المرونة في فرض العطاء حسب تدرج الفاتحين ثم من تلاهم من الروادف، وكان المقاتلة في الشام يسجلون حسب مكان إقامتهم فكان لكل جند مقاتلته الذين يأخذون أعطياتهم من مراكز أجنادهم، ويتم تسجيل المقاتلة وفقاً لأنسابهم، وإن كانوا عجماً لا يجتمعون على نسب ألحقوا أحياناً بديوان قبيلة من القبائل يختارونها، فعندما دون عمر الدواوين في الشام، سأل بلال عمر أن يجعل ديوانه مع أبي رويحة الخثعمي، وقال: فإني غير مفارقه أبداً، فقد آخى رسول الله (صلعم) بيني وبينه، فضم ديوان الحبشة إلى خثعم، فلم يبق بالشام حبشي إلا صار ديوانه مع خثعم(٩٥). كما أن الخليفة عمر كان يحاول قدر الإمكان عند التسجيل أن لا يفرق بين الولد وأبيه، فقد أبلى السمط بن الأسود الكندي بالشام وكان ابنه شرحبيل بن السمط في الكوفة، فحوّل عمر شرحبيل الى الشام فنزل حمص مع أبيه(٩٦).

استدعى فرض نظام العطاء تصنيف الناس حسب قبائلهم وأصولهم فنشط النسابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل، فتحددت معالم الرابطتين العدنانية والقحطانية، وكان لهذا التدوين أثره في عناية القبائل بأنسابها وحرصها على تدوينها،

٩٣. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦١٤.
٩٤. البلاذري، فتوح، ص٤٣٨.
٩٥. البلاذري، أنساب، تحقيق محمد عبد الله، دار المعارف، القاهرة، جـ١، ص١٩٢.
٩٦. البلاذري، فتوح، ص١٤٣.

وبالرغم من أن عمر وقف من الأنساب موقف الرسول منها، وحض القوم على رعايتها لا ليتعصبوا لها، وانما ليصلوا أرحامهم، فإن وضع الديوان أدّى عن طريق غير مباشر الى استقرار الروابط القبلية وشيوع المعارف النسبية وبالتالي إلى ظهور العصبية في صورها المختلفة.

نظام الضرائب في الشام في العصر الراشدي:

قبل البحث في النظام المالي الذي طبق في الشام، لا بد من ملاحظة بعض النقاط التي تتعلق بالنظام المالي بشكل عام في صدر الإسلام، فبعض الضرائب والتدابير العملية مثل الجزية، فردية أو مشتركة، والعشر والزكاة، ومعاملة الأراضي العربية، فرضت في عهد الرسول (صلعم) وكان لها أثرها على نظام الضرائب(٩٧)، كما أن نظامي الضرائب اللذين وجدهما العرب في الأراضي المفتوحة استعملا مصطلحات لم يخل بعضهما من تداخل(٩٨)، مما دفع عدداً كبيراً من المستشرقين أمثال فلهوزن (Wellhausen)، وبيكر (Becker)، وكايتاني (Caetani) وأدولف جروهمان (Adolf Grohman) ومارتن هارتمان (Martin Hartman) الى القول بأن المصادر الإسلامية تميل إلى أن تنسب إلى عمر بن الخطاب كثيراً من التنظيمات التي تمت في وقت متأخر وإن لم يكونوا متفقين في تحديد ذلك الوقت، ففلهوزن يعتبر ١٢١هـ السنة التي ظهر فيها هذا التمييز في خراسان، بينما يرى بيكر أن ذلك حدث سنة ١٠٦، ١٠٧هـ في مصر، ويجعل جروهمان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة، ولكننا عندما ندقق بالروايات، خاصة تلك المتعلقة بالشام، نلاحظ ذلك التمييز منذ البدء بين ضريبة الرأس وضريبة الأرض بالرغم من التبادل في الألفاظ، كقول أبي يوسف مثلا خراج على الرؤوس، وكقول البلاذري أرض الجزية(٩٩)، لأن القرينة حددت المعنى المقصود وأكدت وجود ضريبتين متميزتين منذ البدء، ثم إن مجال الإعفاء من ضريبة أو أخرى

٩٧. عبد العزيز الدوري «نظام الضرائب في صدر الاسلام، ملاحظات وتقييم» فصله من مجلة مجمع اللغة العربية، ج٢، م٤٩، دمشق، ١٣٩٤هـ، ص١.
٩٨. المرجع السابق، ص٢.
٩٩. أبو يوسف، الخراج، ص١٤٦، ١٥٤، ١٥٧؛ البلاذري، فتوح، ص٣٢٦.

يساعد بدوره على تأكيد التمييز بين الضريبتين، فهناك روايات متعددة متعلقة بأرض العنوة تشير إلى طرح الجزية عن من أسلم بينما تبقى الأرض خراجية لأنها فيء للمسلمين (١٠٠).

لكي نفهم النظام الضريبي في الشام لا بد من العودة إلى النظام المالي البيزنطي الذي كان مطبقاً فيها، ودراسة بعض أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذي يبدو لأول وهلة عندما تدرس الروايات المختلفة بعهود الصلح التي عقدت مع بعض المدن الشامية.

إن معلوماتنا عن النظام المالي قليلة جداً، تعتمد كما يقول دانيل دينيت (Daniel Dennette) على استنتاجات مبنية بشكل خاص على دراسة مجموعة القوانين السورية اليونانية، إلا أن الملامح الأساسية للمؤسسات البيزنطية في الشام تعود إلى عهد قسطنطين (Constantine) وديوكليسيان (Diocletian) وإصلاحاتهما، فقد أمر ديوكليسيان باجراء إحصاء للأرض والناس أدى الى تقسيم المنطقة إلى وحدات لا تتساوى بالمساحة وإنما في قيمة المحصول، وكانت هذه الوحدة يطلق عليها اسم (iugum) وكانت كل وحدة تدفع نفس الضريبة الثابتة، وأخذ الإحصاء بعين الاعتبار عدد الوحدات التابعة لكل مدينة ذات حكومة محلية (Municipality) وما يتبعها من أرض وقرى وضياع، وفي كل سنة، عند إعلان الضريبة الأساسية عن الوحدة، كان على موظفي المدينة ذات الحكم المحلي (Curials) أن يقوموا بجمع مقدار من المال يساوي مقدار الضريبة الأساسي عن الوحدة مضروباً في عدد وحدات كل مدينة (١٠١).

ومن الواضح أن الأساس في هذا البناء المالي كان المدينة ذات الحكومة المحلية،

---

١٠٠. ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ١٥٤؛ يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) كتاب الخراج، شرح وتصحيح أحمد محمد شاكر، ط ٢، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٤هـ.، ص ٧؛ البلاذري، فتوح، ص ٢٦٨، سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: يحيى بن آدم، الخراج؛ أبو عبيد، القاسم بن سلام الهروي، (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م)، الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٧٢، سيشار اليه فيما بعد هكذا: أبو عبيد، الأموال.

١٠١. Dennette, Conversion and The Poll Tax in Early Islam, p. 51.
سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: Dennette, Conversion

الأمر الذي يفسر لنا كثرة المعاهدات التي عقدها العرب في الشام؛ إن هذه الضرائب التي كانت تفرض على الوحدة لم تكن ثابتة بقدر ما كانت تختلف تبعاً للظروف، وكانت قيمة الضريبة تعتمد على قرارات السلطات العسكرية أو المدنية. وكان هذا يسبب الإجحاف لدافعي الضرائب وللخزينة في نفس الوقت (١٠٢).

إلى جانب الأراضي العامة في المدينة والقرى، كانت هناك ضياع امبراطورية وأخرى خاصة لها امتيازات معينة، وأراضي صغيرة يملكها مزارعون أحرار (١٠٣)، أما العمل الزراعي الأساسي فكان يقوم به بشكل واسع عبيد الأرض (Coloni)، ثم إن الدولة كانت قد اعتادت أن تمنح أراضٍ بعقود طويلة الأمد، ولذلك ظهر في القرن الخامس عادة منح أرض الموات لمن يريد إحياءها مقابل دفع أجر ثابت، وكان هذا الإجراء يطلق عليه اسم (Emphyteusis) (١٠٤).

كان النظام البيزنطي سبباً في عسف كبير كان ينعكس أثره خاصة على موظفي الحكومة المحلية (١٠٥)، الذين ألقيت على عاتقهم مسؤولية جمع مقدار معين من المال كل عام، فإذا حدث لسبب من الأسباب أن خرجت عن سلطتهم أرض من مجموع الأراضي التي كانوا مسؤولين عن جمع ضرائبها، فإن العبء على بقية الجماعة كان يزيد بذلك المقدار.

كما أن بعض أصحاب الضياع كان يملك حق دفع الضرائب مباشرة للحكومة الامبراطورية، وليس عن طريق موظفي المدينة، وكان هذا الحق يسمى أوتوبراجيا

---

١٠٢. Andre M. Andreades, Public Finances, Byzaantium, II p. 48.
سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: Public finances

١٠٣. Dennette, Op. Cit, p. 52.

١٠٤. Bury, J., A History of Later Roman Empire, Ares, Chicago, 1974, Vol. I. pp. 57-59.
سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: A History of Later:
Ostrogorsky, History of the Byzantine State, Tr. Joan Hussy, Oxford, 1956, p. 39.
سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: Ostrogorsky:

١٠٥. Bury, Op. Cit, pp. 46, 48.

(Autopragia) وكانت هذه الضياع تسمى (Agri Excepti)، وكانت ملكاً للأشراف والكنيسة، وهذه الأراضي لم تكن معفاة من الضرائب، ولكنها كانت خارج سلطة موظفي الحكومة المحلية، وكان لها وضع متميز دفع عدداً كبيراً من الملاكين الصغار إلى أن يلحقوا أراضيهم بهؤلاء الأشراف ليحصلوا على حمايتهم، وهكذا ازدادت أراضي هؤلاء الحماة من الأشراف وخف العبء الضريبي عن أتباعهم، وازدادت أعباء الموظفين المحليين حتى أضحوا عاجزين عن مواجهة مسؤولياتهم، وبالرغم من التشريعات كان الامبراطور عاجزاً عن القضاء على هذه الحركة، لا سيما وأن هذه التشريعات تسمي هؤلاء بتسميات مختلفة(١٠٦)، بمعنى أن هؤلاء لم يكونوا يمثلون الفلاحين المرتبطين بالأرض فقط، وإنما كل الطبقات، وليس في مقدور الباحث أن يقدر مدى اتساع الأراضي العامة والكنسية والخاصة والامبراطورية، ولكن كايتاني يميل إلى الإعتقاد بأن أراضي المدينة ذات الحكومة المحلية كانت واسعة المدى، ثم تليها الأراضي التابعة للكنيسة، ثم الممتلكات الامبراطورية والخاصة، وبنى استنتاجه على ما فعله الأمويون عندما منحوا الإقطاعات لأتباعهم، فقد تبين له أن معظم هذه الإقطاعات كانت في العراق، بينما كانت الإقطاعات قليلة في الشام، وكانت هذه الإقطاعات تعطى من أرض الصوافي وهي الأراضي التي كانت ملكاً للامبراطور والأشراف(١٠٧). ولكن دانيل دينيت يبين أن الروايات المتعلقة بالشام قليلة إذا ما قيست بالروايات المتعلقة بالعراق، وهذا يفسر جهلنا بالإقطاعات في بلاد الشام، كما أن الأمويين، لمصلحتهم السياسية، كانوا يفضلون منح إقطاعات لأتباعهم المخلصين في العراق، ولذلك لا يمكن إطلاقاً كما يقول دينيت أن نقدر ولو تقديراً مبدئياً نسبة هذه الأراضي، ونسبة الطبقات المختلفة بعضها الى بعض.

بالاضافة الى ضريبة الأرض وجدت ضريبة الرأس إلا أن الاختلاف بين

---

١٠٦. Coloni, Vicani, Agricolae, Possessores, Homologicoloni, George Mclean Harper, Village Administration of The Roman Province of Syria, Princeton, 1980, pp. 58, 62:

سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: Coloni, Vicani:

١٠٧. Leone Caetani, Annali dell'Islam, George Olms Verlag, Hildestieim, 1972. Vol.V, pp. 438 - 439.

المؤرخين كبير حول هذا الموضوع، كما أن الجدال حول هذه النقطة يلقي ضوءاً على الجدال الذي قام حول قضية جزية الرأس الإسلامية.

يتفق الجميع على وجود ضريبة رأس في أوائل عهد الامبراطورية، وأن هذه الضريبة كانت تجبى حسب رأي أولبيان (Ulpian) من كل الذكور من ١٤ — ١٦ ومن الإناث كذلك، أما بيجانول (Piganiol) وثيبولت (Thibault) فيشيران إلى أن ضريبة الرأس (tribitum Capitis) قد ألغيت في عهد قسطنطين، في حين يحاول فرديناند لوت (Ferdinand Lot) أن يبرهن على وجود ضريبة للرأس في فترة الفتح الإسلامي، وبنى استنتاجه على ما ورد في مدونة جستينان، وعلى دراسة للقوانين التي صدرت في سنوات مختلفة وأماكن مختلفة كانت تعفي دهماء المدن والنساء غير المتزوجات والأولاد والمسنين وذوي العاهات من جزية الرأس، ويضيف لوت شواهد إضافية تبرهن على أن الطبقة الأرستقراطية في المدن والتجار والعمال الذين يدفعون ضريبة (Aurumnegotiatorum) وضريبة (Chrysargyron) لم يكونوا يدفعون ضريبة الرأس، واستنتج لوت أن ضريبة الرأس أصبحت بعد القرن الرابع الميلادي تجبى فقط من الفلاحين وأصبحت سمة لهذه الطبقة من المجتمع، ودلالة على المذلة كما يتبين من التعبير(١٠٨) (Plebaie Capitationis injuria).

إذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار، أمكننا الآن أن نتتبع أحداث الفتح الإسلامي للشام، فنأخذ مثلا حمص حيث نلاحظ مجموعة من الروايات التي قد تبدو متناقضة لأول وهلة عندما نغفل الفترة الأولى قبل استقرار التنظيم ونغفل التطور الحاصل، فقد أورد البلاذري رواية أبي مخنف التي تذكر أن أهل حمص صالحوا المسلمين على مائة ألف وسبعين ديناراً(١٠٩) ثم رواية الواقدي وغيره أنّ أبا عبيدة صالح أهل حمص واشترط الخراج على من أقام منهم ورواية أبي حفص الدمشقي عن سعيد بن

---

١٠٨. Dinnette, OP, Cit., pp. 54 - 55; Ostrogorsky, OP. Cit., pp, 37, 38 - 39; Hodgson, The Venture of Islam, Conscience, and History in a World of Civilization, The University of Chicago Press, p. 242.

سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: The venture:

١٠٩. البلاذري، فتوح، ص١٣٦.

عبد العزيز أنه صالح أهل حمص على صلح بعلبك، وكان صلح بعلبك ينص على الجزية والخراج (١١٠).

و يورد الطبري في أحداث سنة ١٥هـ حول فتح حمص وعن أشياخ من غسان وبلقين أن أهل حمص صالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبداً أيسروا أو أعسروا، وصالح بعضهم على قدر طاقته، إن زاد ماله زيد عليه وإن نقص نقص، وكذلك كان صلح دمشق والأردن، بعضهم على شيء إن أيسروا وإن أعسروا وبعضهم على قدر طاقته، وَوُلُّوا معاملة ما جلا ملوكهم عنه (١١١).

إن هذه الروايات المتعددة إذا اقترنت بمراحل الفتح زال عنها التضارب، إذ أن رواية الواقدي عندما تدرس بكاملها تعطي تفسيراً لرواية أبي مخنف بأن أول حملة وجهت إلى حمص كانت قبل فتح دمشق لرد تلك القوة التي وجهت للعرب المحاصرين لدمشق، وكان قائدها السمط بن الأسود الكندي الذي أمن أهل حمص مقابل دفعهم لمائة ألف وسبعين ديناراً، فقد كان العرب بحاجة إلى الأموال، وكان أهل حمص بحاجة إلى أن يشعروا بالأمان، وكان هذا الوضع شبيهاً بصلح الحيرة، ولكن هذا الصلح جدد بعد أن انتهى أبو عبيدة من فتح دمشق وتتفق هنا رواية الواقدي مع أبي حفص، وإن كانت رواية أبي حفص تشير الى أنه صالحهم على صلح بعلبك ففرض على من أقام الجزية والخراج، واتبع العرب وفق رواية الطبري أسلوبين في الشام، فبعضهم صالح على أساس دفع ضريبة ثابتة تقدر بدينار وطعام عن كل جريب سواء أيسروا أو أعسروا في حين صالح بعضهم على قدر طاقته، إن زاد ماله زيد عليه، وإن نقص نقص، استناداً إلى هذه الرواية بنى بيكر (Becker) استنتاجه بأن العرب قد احتفظوا بالنظام البيزنطي، حيث كانت أراضي الدولة والأراضي ذات الامتيازات الخاصة (Autopract) تدفع ضريبة تتناسب مع المحصول في حين كانت الأراضي العامة التابعة للمدينة ذات الحكومة المحلية تدفع ضريبة ثابتة (١١٢).

---

١١٠. المصدر السابق، ص ١٣٦ — ١٣٧.

١١١. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٠؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ٢٧.

١١٢. Dennette, OP. Cit. p. 59.

يمكن اعتبار فرضية بيكر مقبولة لا سيما أننا نلاحظ فرض جزية ثابتة مؤلفة من دينار وجريب طعام في صلح أنطاكية ومنبج ودلوك ورعبان (١١٣)، وفي صلح دمشق، وحلب (١١٤)، وصلح طبرية وبيسان (١١٥)، وصلح بصرى (١١٦).

ومن الطبيعي أن يستند العرب على المسؤولين عن الإدارة المحلية للمدن في المعاهدات وعقود الصلح التي عقدوها معهم وأن يتخذوهم وكلاء عنهم في جباية الضرائب (١١٧)، فهل تبنى العرب كذلك النظام البيزنطي القائم على أساس الوحدة المتساوية في قيمة المحصول (Iugum)؟.

إنه افتراض مغر أن نرى في ضريبة الدينار العربية على كل رجل وضريبة الدينار عن كل وحدة التي قررها الامبراطور في المنشور السنوي (Delegation) شيئاً واحداً، وقد يؤيد هذا القول، أن هذه الوحدة نظرياً تساوي مساحة الأرض التي يستطيع رجل واحد القيام بزراعتها (١١٨)، ولكن ليس ثمة من دليل واحد لسوء الحظ يؤيد هذه النظرية، كما أننا لا نستطيع تجاهل الإجماع في الروايات على أن الضريبة كانت على الفرد، هذا إلى أن الإدارات المحلية ذاتها في المدن كان لديها من الحوافز القوية ما يدعوها إلى التخلص من الطريقة المعقدة المتبعة في النظام البيزنطي، في حين أن جمع مبلغ سنوي يساوي عدد الذكور البالغين من السكان أمر سهل إدراكه وتنفيذه، وقد تبنى العرب هذا المبدأ في الجزيرة ومصر. وبالرغم من إبقاء العرب على ضريبة الأرض وضريبة الرأس وضريبة الغلال (Embole) في مصر، إلا أن الطريقة التي اتبعت في

---

١١٣. البلاذري، فتوح، ص ١٥٢، ١٥٥، ودلوك بليدة من نواحي حلب، ورعبان مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات.

١١٤. المصدر السابق، ص ١٣١، ١٥٢.

١١٥. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٤٤.

١١٦. البلاذري، فتوح، ص ١٢٠.

١١٧. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٠.

١١٨. كانت الدولة البيزنطية تحرص على أن يكون لكل وحدة فلاح، وأصبح هذا العمل صعباً لانخفاض نسبة السكان العاملين في الأرض من جهة، وقلة عدد الفلاحين الذين كانوا كثيراً ما يهربون نتيجة للفقر وللأوضاع غير المستقرة في المنطقة، ولذلك كانت الدولة تعمد بكل وسيلة ممكنة أن تربط الفلاح بمساحة الأرض التي عهدت إليه؛ Ostrogorsky. OP. Cit. p. 39.

جباية الضرائب وجمعها تحسنت نتيجة لتبسيطها، فإذا لم يحافظ العرب على النظام البيزنطي، كما هو في مصر، فمن الصعب أن نفترض إبقاءهَم لهذا النظام في الشام، وبينما نجد شواهد كثيرة على تبني العرب للنظام الساساني في الشرق، فإن الإشارات المتعلقة بهذا الخصوص بالشام غير متوافرة، بل إن الرواية الساسانية المجهولة المؤلفة تنص على العكس، إذ تذكر أن الخليفة قد أمر قواده عند إجراء الصلح أن ينصوا على أن أهل المدن المفتوحة «يبقون إذا شاؤوا يواصلون حياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح، ولكن عليهم أن يؤدوا الضريبة حسبما فرضت عليهم» (١١٩). ولذلك يرجح أن يكون فرض الضرائب على أساس الوحدة (Iugum) قد انتهى بالفتح العربي، وأن موظفي الإدارة المحليين جمعوا بدلاً من ذلك مبلغاً من المال على أساس عدد السكان الذكور ومساحة الأراضي.

إن أول تغيير في النظام البيزنطي، حدث عندما قرر عمر فرض ضريبة الرأس على جميع الذكور البالغين (١٢٠)، إلا العبد فلم يكن عليه جزية سواء أكان سيده مسلماً أم من أهل الذمة (١٢١). وبذلك ألغى الامتيازات التي كانت تتمتع بها بعض الطبقات والتي كانت معفاة منها، ويشير ميخائيل السرياني إلى أن عمر أمر باجراء إحصاء من أجل ضريبة الرأس التي فرضت على النصارى في سنة ٩٥١ من الحكم البيزنطي أي سنة ٦٣٩، ٦٤٠م/٢٠هـ. ويذكر تيوفانس أنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل عمد عمر إلى إجراء إحصاء للرجال والأراضي والحيوانات وأشجار النخيل (١٢٢).

وتؤكد الرواية التي تتحدث عن جبلة بن الأيهم وأنفته من دفع الجزية لأنه عربي والجزية لا يدفعها إلا العلوج أن ضريبة الرأس كانت مفروضة على الفلاحين في العهد البيزنطي، وكانت دلالة على المهانة والمذلة؛ ومن الواضح أن الملك الغساني لم يكن يدفع هذه الضريبة وأنفته من هذا الصغار هي التي دفعته إلى ترك الشام ودخوله

١١٩. Dennette, OP, Cit. p. 60.
١٢٠. البلاذري، فتوح، ص ١٣١.
١٢١. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٥٥.
١٢٢. Dennette, OP, Cit. p. 61.

بلاد الروم (١٢٣).

نلاحظ أن كل المعاهدات التي عقدت مع مدن الشام تنص على وجود جزية وخراج (١٢٤)، وإن كان التركيز في المرحلة الأولى كما سيتبين لنا هو على الجزية، فقد كانت الجزية في الشام في بادىء الأمر جريباً وديناراً على كل جمجمة، وذكر بعض الرواة أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم أن ألزم كل رجل من الجزية ديناراً وجريب حنطة وخلاً وزيتاً لقوت المسلمين (١٢٥). ونجد ذكراً لهذه الجزية التي قيمتها دينار وجريب طعام في رواية سيف المتعلقة بصلح بيسان وطبرية وأن هذا الصلح كان على صلح دمشق (١٢٦)، ويشير البلاذري إلى أن صلح بصرى كان أيضاً ينص على أداء الجزية عن كل عام ديناراً وجريب حنطة، وكذلك صلح حلب (١٢٧).

هذه الجزية المؤلفة من دينار وأرزاق لم يلبث أن أصابها التعديل، إذ أن رواية أبي عبيد تشير الى أن عمر عمد بعد ذلك إلى جعلها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعين درهماً على أهل الورق، وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل، وتوسط المتوسط (١٢٨)، وتتفق رواية عمر الناقد عن أسلم مولى عمر مع رواية عمرو بن حماد بن أبي حنيفة عن أسلم مولى عمر بأن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى، على أهل الورق، على كل رجل أربعين درهماً وعلى أهل الذهب أربعة دنانير، إلا أن الرواية الأولى تضيف: وأن عليهم أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت، مدان حنطة وثلاثة أقساط زيتاً كل شهر لكل إنسان بالشام والجزيرة، وجعل عليهم ودكاً وعسلاً، أما في الرواية الثانية فيذكر أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام (١٢٩).

١٢٣. البلاذري، فتوح، ص ١٤٢.
١٢٤. المصدر السابق، ص ١٢٢، ١٢٤، ١٣٧، ١٧٦.
١٢٥. البلاذري، فتوح، ص ١٣١.
١٢٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٤٤.
١٢٧. البلاذري، فتوح، ص ١٢٠، ١٥٢.
١٢٨. المصدر السابق، ص ١٣٠، ١٣١.
١٢٩. المصدر نفسه، ص ١٣١؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٣٩ — ٤٠.

و يبدو أن الأرزاق على أهل الريف فقط دون أهل المدن، وذلك لأن الأرضين لهم وبإمكانهم دفعها، فيذكر أبو يوسف «إنهم إنما فعلوا ذلك لأن أهل الرساتيق هم أصحاب الأرضين والزرع وأهل المدائن ليسوا كذلك» (١٣٠).

أخذت الجزية في الشام والجزيرة كما في عهد الرسول من أهل الذمة، فقد أمر الرسول أن يقاتل أهل الكتاب من العرب وغير العرب حتى يعطوا الجزية، وقد قبل الرسول الجزية من أهل اليمن وهم عرب إذ كانوا أهل كتاب، وقبلها أبو بكر من أهل الحيرة حين افتتحها خالد بن الوليد صلحاً وهم أخلاط من أفناء العرب من تميم وطيء وغسان وتنوخ (١٣١)، إلا أن قادة العرب واجهتهم في الشام والجزيرة قضية العرب الذين رفضوا دفع الجزية أنفة، فقد رفض جبلة بن الأيهم دفعها وغادر الشام إلى بلاد الروم، مما دفع عبادة بن الصامت إلى معاتبة عمر قائلاً له: لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته، ولذلك اضطر عمر إلى أن يضعف الصدقة على نصارى تغلب الذين انطلقوا هاربين عندما أراد عمر أن يأخذ الجزية منهم، فنصحه زرعة بن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبي قائلاً: أنشدك الله فيهم فإنهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك فأضعف عليهم الصدقة وشرط عليهم ألاّ ينصروا أولادهم (١٣٢)، أي أن تؤخذ الصدقة مضاعفة على صدقة المسلمين، من كل شيء على المسلمين فيه الزكاة، من الإبل والبقر والغنم والزرع والثمار، ولا يؤخذ من أقل مما تجب فيه الزكاة على المسلم (١٣٣). وبما أن ما فرض على بني تغلب هو صدقة مضاعفة فالمرأة والرجل من بني تغلب في الصلح سواء لأنه ليس على رؤوسهم وإنما هو على أرضهم، وكذلك من كان عليه دين ومن لم يكن عليه دين فهو سواء يؤخذ منهم جميعاً (١٣٤)، وبالرغم من أن ما فرض على نصارى تغلب هو ضعف الصدقة التي تؤخذ من أرض المسلمين إلا أن سبيل

١٣٠. أبو يوسف، الخراج، ص ٤٨.
١٣١. البلاذري، فتوح، ص ٧٨؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٢٨؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٣٩.
١٣٢. البلاذري، فتوح، ص ١٧٨؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٢٨؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٤١.
١٣٣. يحيى بن آدم، الخراج، ص ٦٧؛ ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٧٥ — ٨٦.
١٣٤. يحيى بن آدم، الخراج، ص ٦٦.

ما يؤخذ من أموال بني تغلب سبيل مال الخراج، لأنه بدل الجزية وفي هذا إجماع (١٣٥).

وكان للجراجمة وضعهم الخاص كذلك لأن حبيب بن مسلمة عندما غزا الجرجومة لم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينقلوا أسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين اذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم، ودخل كل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم من أهل القرى في هذا الصلح فسموا بالروادف لأنهم تلوهم وليسوا منهم (١٣٦)، أي أن حبيب بن مسلمة وضع الجزية عن الجراجمة مقابل استعانة المسلمين بهم، وقد اتبع قادة العرب، فيما بعد، ذلك في عهودهم المختلفة، فنجد ذلك في معاهدة جرجان ومعاهدة عبد الله بن عامر مع عظيم هراة وبوشنج وبادغيس (١٣٧)، وفي معاهدة عتبة بن فرقد مع أهل أذربيجان ومعاهدة سراقة بن عمر مع شهربراز وأهل أرمينية (١٣٨)، إذ نجد تكراراً لهذه العبارة «ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً عن جزائه».

الملكية العقارية وضريبة الأرض أو الخراج:

يتضح من الروايات المتعلقة بمعاهدات الصلح في الشام ذلك التمييز الواضح بين الجزية والخراج، فنجد عمرو بن العاص يعطي الأمان في خلافة أبي بكر لغزة ثم سبسطية ثم نابلس «على أن يؤدوا الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم»، وأن أهل إيلياء طلبوا الصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج (١٣٩)، وسأل أهل فحل الأمان على أداء الجزية على رؤوسهم والخراج عن أرضهم (١٤٠)، وكذلك فعل أهل حماة ومعرة حمص وأفامية (١٤١).

١٣٥. البلاذري، فتوح، ص ١٨٧.
١٣٦. البلاذري، فتوح، ص ١٦٤.
١٣٧. محمد حميد الله، الوثائق، ص ١٦٧، ٣٦١.
١٣٨. المرجع السابق، ص ٢٦٣، ٣٧٤.
١٣٩. البلاذري، فتوح، ص ١٤٤.
١٤٠. المصدر السابق، ص ١٢٢.
١٤١. المصدر السابق، ص ١٣٧.

ونلاحظ في هذه المعاهدات التركيز دوماً على أن المدن صولحت بالرغم من مقاومتها في بادىء الأمر وأن الأرض أخذت عنوة، ففي رواية الهيثم بن عدي أن شرحبيل بن حسنة فتح مدن الأردن وحصونها على صلح طبرية فتحاً يسيراً بغير قتال وأنه غلب على سواد الأردن وجميع أرضها (١٤٢)، وأن المسلمين افتتحوا جميع أرض كورة حوران وغلبوا عليها (١٤٣) وأن جميع أرض البثنية أرض خراج وأن يزيد غلب على أرض البلقاء (١٤٤).

و يبدو أن الفقهاء يستخدمون تعبير صلح وعنوة للدلالة على الطريقة التي كانت تؤخذ فيها الضريبة في البدء، فان كانت جزية رأس فهي صلح، وان كانت خراجاً فهي عنوة، وهذا ما حصل أثناء الفتح وقبل بداية التنظيم الضريبي سنة ٢٠، ٢١ هـ، فقد عقدت عهود صلح مع المدن أخذت منهم فيها الجزية، بينما لم يحدث ذلك في الريف حيث وضعت عليهم الجزية إلى جانب الأرزاق، و يتضح هذا من رواية سيف عن صلح طبرية التي تشير إلى فرض دينارعلى كل رأس وجريب بر أو شعير عن كل جريب أرض (١٤٥)، ثم مسحت الأراضي بعد استقرار الأوضاع ووضع الخراج عليها وعلى هذا قال الفقهاء، إن مدن الشام والجزيرة والحيرة و بانقيا وأليس صلحاً و باقي الأرض أي الريف عنوة (١٤٦).

والأرض التي تفتح عنوة تكون في حكم الغنيمة، وتقسم بين الفاتحين طبقاً للآية الكريمة: «واعلموا إن غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (١٤٧)، أما الباقي فيقسم بين الجند من أهل الديوان وغيرهم (١٤٨). وحسب رواية هشام بن عمار، أن عمر لما قدم الجابية، أراد قسمة

١٤٢. المصدر السابق، ص ١٢٣؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٤٧.

١٤٣. البلاذري، فتوح، ص ١٢٢.

١٤٤. المصدر السابق، ص ١٣٢.

١٤٥. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٤٢.

١٤٦. أبو يوسف، الخراج، ص ٨٢؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٤٠٠.

١٤٧. سورة الأنفال، آية ٤١؛ أبو يوسف، الخراج، ص ٢٨.

١٤٨. أبو يوسف، الخراج، ص ٢١؛ يحيى بن آدم، الخراج، ص ٣؛ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد

الأرض بين المسلمين لأنها فتحت عنوة، فقال معاذ بن جبل: «والله لئن قسمتها ليكونن ما نكره، و يصير الشيء الكثير في أيدي القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون الإسلام سداً فلا يجدون شيئاً، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم فصار الى قول معاذ (١٤٩). ونجد روايتين حول موضوع أرض الشام، الأولى تشير الى أن بلالاً وأصحابه سألوا عمر بن الخطاب قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام، وأن يقسم الأرض بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر، وأن عمر أبى ذلك وتلا هذه الآيات: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» (١٥٠)، وأما الرواية الثانية فتشير الى أن أبا عبيدة كتب بعد فتح الشام إلى عمر ينبئه أن المسلمين سألوه أن يقسم بينهم المدن وأهلها والأرض وما فيها من شجر وزرع وأنه أبى ذلك عليهم حتى يبعث إليه عمر برأيه (١٥١)، وكان من رأي عمر أنه إذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها، فما تسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد و بغيره من أهل الشام والعراق، واستشار عمر المهاجرين الأولين فاختلفوا ثم أرسل إلى عشرة من الأنصار، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، من كبرائهم وأشرافهم، وشرح لهم الموقف وفائدة ترك الأرض لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم فتكون فيئاً للمسلمين والمقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، فأقروه على رأيه (١٥٢).

إن كل الروايات المتعلقة بالفتح بالشام تشير الى الأرزاق إلى جانب الجزية، ولا توجد إشارات واضحة إلى ما فرض في الخراج، وربما كانت هذه الأرزاق تشكل الضريبة على الأرض في هذه الفترة المبكرة، كما أن الروايات المتعلقة بما فرض من

الحليم (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، تحقيق علي سامي النشارة، وأحمد زكي عطية، ط ٢، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٠ سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تيمية، السياسة الشرعية.

١٤٩. البلاذري، فتوح، ص ١٥٦.

١٥٠. أبو يوسف، الخراج، ص ٢٩؛ البلاذري، فتوح، ص ١٦٥؛ ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص ١١٢.

١٥١. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق، ص ٣٧٦.

١٥٢. أبو يوسف، الخراج، ص ٣٠.

خراج بعد ذلك غير متوفرة، ولكن استناداً الى رواية الماوردي التي تشير إلى أن عمر بن الخطاب راعى في كل أرضٍ ما تحتمله في الشام(١٥٣) وإلى الرواية التي يوردها أبو يوسف والتي تتعلق بالتعديل الذي حدث في عهد عبد الملك(١٥٤)، نستنتج أن الاجراءات التي تمت في الشام قد تكون شبيهة بتلك التي تمت في سواد العراق، من مسح للأراضي واختلاف فيما فرض على الأرض باختلاف نوع الحاصل وطريقة الري والبعد والقرب من الأسواق، وأن هذه الأمور لم تتم مرة واحدة وانما تدريجياً. وتشير رواية تيوفانس بأنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل (٦١٠ــ ٦٤١) عمد عمر الى اجراء احصاء للرجال والأراضي والحيوانات والأشجار والنخيل، والسنة الثلاثون من حكم هرقل هي ٦٤٠/ ٢٠هـ، وهي السنة التي تم فيها السيطرة على الشام والجزيرة وانحسر فيها الخطر الفارسي عن العراق تقريباً، فأصبح بالإمكان تنظيم النواحي الإدارية والمالية، لا سيما وأن ما يذكره تيوفانس يتفق مع ما يذكره الطبري وخليفة بن خياط من أن الخليفة بعث ابن حنيف سنة ٢١هـ لمساحة السواد، فربما بدىء بمسح بلاد الشام والجزيرة أولاً وبعد أن زال الخطر الفارسي المباشر إثر معركة نهاوند سنة ٢١هـ عمد الى مسح العراق(١٥٥)، ولذلك فان نظرة سريعة الى ما اتبع في العراق قد تلقي ضوءاً على ما طبق في الشام.

إن ابتداء الخراج في العراق كان درهماً وقفيزاً من القمح والشعير على كل جريب عامر أو غامر دون النظر الى ما يزرع فيه من المحاصيل الأخرى(١٥٦). ومن المتوقع أن لا تجد ضريبة القفيز والدرهم قبولاً عند بعض الفلاحين لأن الأراضي التي تزرع فيها الأشجار المثمرة والمحاصيل التي لها قيمة أكثر يدفع صاحبها كالذي يزرع الحنطة أو الشعير في أرضه، فكان لا بد من فرض خراج حسب نوع المحصول، ويوضح ذلك قول محمد بن عبد الله الثقفي، كتب المغيرة بن شعبة وهو على السواد، إن قبلنا أصنافاً من الغلة لها مزيد على الحنطة والشعير، فذكر الماش والكروم والرطبة والسماسم، فوضع

١٥٣. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٨.

١٥٤. أبو يوسف، الخراج، ص ٤٩.

١٥٥. خليفة بن خياط، تاريخه، ج ١، ص ١٤٦؛ الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٤٤.

١٥٦. أبو يوسف، الخراج، ص ٤٠، ٥١؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٥٨؛ البلاذري، فتوح، ص ٢٦٩؛ الماوردي الأحكام السلطانية، ص ١٧٥؛ ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ١٨؛ ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص ٦٦.

عليها ثمانية ثمانية وألغى النخل(١٥٧).

ويورد البلاذري مجموعة من الروايات كلها تنسب إلى عهد عمر بن الخطاب، تشير إلى فرض الخراج على كل جريب حسب نوع المحاصيل(١٥٨)، كما أن الروايات المتعلقة بالخراج عند أبي يوسف وأبي عبيد تشير إلى اختلاف في مقادير الخراج على الجريب الواحد من المحصول نفسه وقد يعود ذلك إلى خصوبة الأرض من مكان لآخر وبعد المناطق عن الأسواق وقربها منها، ويوضح ذلك رواية يحيى بن آدم عن الحسن ابن صالح، قال: قلت للحسن، ما هذه الطسوق المختلفة؟ فقال: كل قد وضع حالاً بعد حال على قدر قرب الأرضين من الأسواق وبعدها(١٥٩). ولذلك نرى أن عبد الملك عندما أراد أن يعاد تقدير الخراج أعاده على الغلات الرئيسية الثلاث في منطقة الشام والجزيرة وهي الحنطة والكروم والزيتون(١٦٠).

أما فيما يتعلق بالوقت المحدد لجباية الخراج من أهل الريف، فليس لدينا سوى روايتين تعودان الى عهد الفتح، ترد الأولى عند الطبري في الحديث عن صلح ايلياء «أن لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم»(١٦١)، والثانية يوردها أبو عبيد في كتابه الأموال عن أبي مسهر بن سعيد بن عبد العزيز، عندما سأل عمر بن الخطاب عامله سعد ابن عامر بن حذيم (والى حمص سنة ٢٠هـ) عن سبب تباطئه في إرسال الخراج، فبيّن له أنه إنما يؤخرهم الى غلاتهم؛ قال أبو مسهر «ليس لأهل الشام حديث في الخراج غير هذا». ويعلق أبو عبيدة «وانما وجد التأخير إلى الغلة، الرفق بهم ولم نسمع في استيفاء الخراج والجزية وقتاً من الزمان يجتبى غير هذا»(١٦٢).

وكما كان أهل الذمة يعفون من الجزية أحياناً مقابل مساعدتهم للمسلمين

١٥٧. البلاذري، فتوح، ص ٢٦٩.

١٥٨. المصدر السابق، ص ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٢٧.

١٥٩. المصدر السابق، ص ٢٧١.

١٦٠. أبو يوسف، الخراج، ص ٤٩.

١٦١. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٩.

١٦٢. أبو عبيد، الأموال، ص ٤٢ ــ ٤٣.

كذلك نلاحظ أن أبا عبيدة أطعم أهل السامرة أرضهم عندما صالحهم بالأردن وفلسطين على أن يكونوا عيوناً وأدلاء لهم، وفرض عليهم الجزية فقط، واستمر هذا الوضع حتى خلافة يزيد بن معاوية الذي وضع الخراج على أرضهم (١٦٣).

أما أرض الخراج في الشام فمن أسلم من أهل الذمة رفعت الجزية عن رأسه، وصار ما كان بيده من الأرض بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه (١٦٤)، وصار من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم، ولا يرون أنه وإن أسلم أولى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه، من أهل بيته وقرابته، لا يجعلونها صافية للمسلمين، فسمّوا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين، ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرضين كرهاً، وكرهوا للمسلمين شراءها، طوعاً لما كان من إيقاف عمر وأصحاب الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين (١٦٥). **ونفهم** من نص يورده ابن عساكر أن القرية كانت مسؤولة عن دفع مبلغ الخراج متضامنة، فإذا أسلم الذمي أسقطت الجزية عن رأسه وبقيت الأرض لأهل قريته يقومون بزراعتها وبدفع الخراج عنها (١٦٦)، وليس معنى هذا أن من يسلم من أهل الذمة مجبر على ترك أرضه لأهل قريته، إذ أنه وفقاً لما يورده يحيى بن آدم نقلاً عن يحيى بن حسن أن له الخيار في أرضه، إن شاء أقام فيها يؤدي ما كانت تؤدي وإن شاء تركها (١٦٧).

بالإضافة إلى أرض الخراج، وجدت في الشام والجزيرة أراض كان يدفع عنها أصحابها العشر، وهي ما أسلمت عليه العرب أو عمرته من الموات (١٦٨)، الذي ليس

١٦٣. البلاذري، فتوح، ص ١٦٢.
١٦٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٩٣.
١٦٥. المصدر نفسه.
١٦٦. المصدر السابق، ص ٥٩٦.
١٦٧. يحيى بن آدم، الخراج، ص ٧، ٤٣.
١٦٨. اذا لم يكن في الأرض أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئاً لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة، ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم، وليست بملك أحد ولا في يد أحد فهي موات، أبو يوسف، الخراج، ص ٧٥، ٧٦.

لأحد ورفضه النصارى فمات وغلب عليه الدغل فأقطعه العرب (١٦٩). كما أن كل أرض أسلم عليها أهلها وهي من أرض العرب أو أرض العجم فهي لهم وهي أرض عشر، وكل أرض قسمت بين الذين غنموها فهي أرض عشر (١٧٠) وعن مكحول أن كل عشري بالشام، هو ممن جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه، وكان مواتاً لا حق فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة.

الصوافي:

تذكر الروايات عموماً أن الأراضي التي كانت تابعة لقيصر وآله ولرجال الدين أو الأشراف ضمها عمر إلى بيت مال المسلمين وعرفت بالصوافي، لأنه استصفاها أي جعلها خالصة للمسلمين، وسميت أيضاً بالقطائع لأنها اقتطعت فيما بعد لمن يتعهدونها، وكان عمر بن الخطاب يقطع هذه لمن أقطع (١٧٢)، ويعتبر أبو يوسف الصوافي بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام، ويضع ذلك موضعه ولا يحابي به (١٧٣)، وأن أرض القطائع قد يؤخذ منها العشر، أو يؤخذ منها الخراج اذا كانت تشرب من أنهار الخراج، وهذا يعود الى رأي الإمام، ويؤخذ العشر من أصحابها إذا اضطر الى حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض لأن في ذلك مشقة عظيمة على صاحب الإقطاع، ويبدو أن أبا يوسف اعتمد في قوله على ما كان متبعاً في العصر الأموي، لأننا نستنتج من روايات سيف الأربع التي يوردها الطبري (١٧٤)، أن الصوافي تركت للفاتحين وأن عمر سمح لهم بتوزيعها على من أفاء الله عليه أربعة أخماس للجند وخمس للدولة، وأن ما ذكر في العراق ينطبق على الشام، وأن الصوافي كانت متفرقة في عدة مناطق، ولذلك اتفق رأي **المقاتلة على عدم**

١٦٩. البلاذري، فتوح، ص ١٥٤.
١٧٠. أبو يوسف، الخراج، ص ٨٢.
١٧١. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨.
١٧٢. أبو يوسف، الخراج، ص ٦٨ــ ٦٩، ١٥٠، (عسقلان)؛ يحيى بن آدم، الخراج، ص ٢٥.
١٧٣. أبو يوسف، الخراج، ص ٦٩.
١٧٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣١، ٣٢، ٢٨٠.

اقتسامها وترك إدارتها للأمراء لفائدتهم، وعدم بيع هذه الأراضي، وبالرغم من أنه ليست لدينا روايات أخرى تؤكد أو تنفي ما يذكر سيف، فإن التطورات التي حدثت في الكوفة تشير الى أن روايات سيف صحيحة من حيث الأساس، إذ أن أول رد فعل في الكوفة كان ضد أميرها سعيد بن العاص (٣٠ ــ ٣٤هـ) بسبب عبارة فهمها الإشراف بأنها تنطوي على نية الدولة في الاستحواذ على الصوافي (١٧٥)، وقد منح عثمان بعض الإقطاعات من الصوافي، وسمح للبعض أن يبادلوا حصتهم فيها بأراض في الجزيرة العربية (١٧٦). ويبدو أن ضم الصوافي الى بيت المال حصل أخيراً زمن معاوية بن أبي سفيان، إذ يذكر اليعقوبي أن معاوية استصفى ما كان للملوك من الضياع بالشام والجزيرة والعراق وصيرها خالصة لنفسه وأقطعها أهل بيته وخاصته (١٧٧)، وبذلك لم تعد أرض الصوافي في العراق تابعة للفاتحين وإنما أصبحت تحت تصرف الخلافة في دمشق، وصار واردها كل سنة يحمل إلى دمشق (١٧٨)، ويشير اليعقوبي إلى أن معاوية قام باستصفاء أراض جديدة وذلك بالرجوع إلى ديوان الفرس (١٧٩)، وهذا يعني أن عمر بن الخطاب لم يرجع إلى هذا الديوان في استخلاص الصوافي، فكانت الفرصة مهيأة للمزارعين والدهاقين بحيازة أراض فيها **سواء التي** هرب أصحابها أو التي كانت للفرس (١٨٠)، فقام معاوية باستخلاص هذه الأراضي بالرجوع إلى ديوان الفرس في حلوان.

أما فيما يتعلق بالشام، فإننا نلاحظ أن القادة العرب كانوا يسكنون المقاتلة منذ البدء في كل مرفوض جلا أهله أو مساحة متروكة (١٨١)، وعندما توجه أبو عبيدة نحو

١٧٥. الطبري، تاريخ، ص ٣١٨، ٣٢٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٤.

١٧٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٨٠.

١٧٧. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

١٧٨. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، (ت ٩٤٦م/١٥٣٩م) أدب الكاتب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المكتبة العربية، بغداد، ١٣٤١هـ، ص ٢١٩، سيشار اليه فيما بعد هكذا: الصولي، أدب الكاتب.

١٧٩. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨.

١٨٠. Lokkegaard, Islamic Taxation in the Calssic Period, Copenhagen, 1950, p. 111.
سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: Islamic Taxation

١٨١. البلاذري، فتوح، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

بالس وقاصرين (١٨٢) وكانتا لأخوين من أشراف الروم أقطعا القرى التي بالقرب منهما وجعلا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام، جلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة، فعمد أبو عبيدة الى ترتيب المقاتلة فيها كما أسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام، فأسلموا بعد قدوم المسلمين، وتضيف الرواية أن بالس والقرى المنسوبة إليها في حدها الأعلى والأوسط والأسفل عشرية (١٨٣)، كما أنهم أقطعوا المقاتلة الاقطاعات في منطقة الساحل لتشجيعهم على البقاء فيه، وقد حدث ذلك في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان عندما هاجم الروم الساحل وغلبوا على بعض مناطقه، فأخرجهم معاوية وشحن المناطق المعرضة للخطر بالمقاتلة وأعطاهم القطائع (١٨٤)، وفعل معاوية ذلك أيضاً بأنطرطوس التي مصرها فأقطع بها القطائع وبمرقية وبلنياس، (١٨٥)، كما أن عثمان أمر معاوية أن يلزم أنطاكية قوماً وأن يقطعهم القطائع (١٨٦)، أي أننا نلاحظ كثرة القطائع التي وزعت على المسلمين في فترة خلافة عمر وخاصة في خلافة عثمان، ومن المؤكد أن هذه الأراضي التي أقطعت لم تكن من أرض الخراج وإنما هي من الأراضي التي جلا عنها أهلها من الروم (والاشارات في هذا الصدد كثيرة في الساحل) أو بلفظ آخر من الصوافي. ولذلك فإنه يمكننا اعتبار الرواية التي يوردها ابن عساكر عن الصوافي في الشام متعلقة بأراضي الصوافي التي كانت للدولة بحكم الخمس الذي يؤول إليها لا سيما وأننا سنرى وفقاً لهذه الرواية أن أراضي الصوافي في الشام كانت محدودة.

يذكر ابن عساكر أن القطائع في الشام كانت في البدء من أرض الصوافي، وأن الصوافي هي الأراضي التي كانت لبطارقة الروم وأشرافهم عندما كانوا مسيطرين على الشام، فلما هزم الروم وهرب البطارقة والأشراف أو قتلوا، أصبحت هذه المزارع والقرى

١٨٢. بالس، بلدة بالشام بين الرقة، وحلب، وكانت بويلس وقاصرين وعابدين وصفين قرى منسوبة لها، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨.

١٨٣. البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

١٨٤. المصدر السابق، ص ١٢٣، ١٣٢، ١٣٥.

١٨٥. المصدر السابق، ص ١٣٩.

١٨٦. المصدر السابق، ص ١٥٣

صافية للمسلمين يقبلها والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته (١٨٧)، كما أن الأموال التي تصل بيت مال المسلمين من الصوافي كانت تخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج، حت كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان، أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يكفيه لاستقبال من يفد عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها، ووصف له هذه المزارع الصافية وسما هاله، يسأله أن يقطعه إياها ليستطيع القيام بواجباته تجاه الوفود، وأكد معاوية لعثمان أنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، فكتب اليه عثمان بذلك كتاباً، ويضيف ابن عساكر أن هذه الأراضي بقيت بيد معاوية حتى قتل عثمان، فلما أصبح معاوية خليفة أقرها على حالها ثم جعلها حبيسة من بعده على فقراء أهل بيته والمسلمين، كما أقطع معاوية أناساً من قريش وأشراف العرب قطائع من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعه إياها.

الضرائب الإضافية:

بالإضافة إلى الجزية والخراج ودخل الدولة من الصوافي، فرض على التجار العشور وهي أشبه بما نسميه اليوم بالضرائب الجمركية، وكان عمر بن الخطاب أول من عَشَّرَ أهل الحرب، عندما كتب قوم من أهل الحرب إلى عمر طالبين منه أن يسمح لهم بدخول أرض المسلمين كتجار مقابل أن يدفعوا العشر، فاستشار عمر أصحاب رسول الله (صلعم) في ذلك فأشاروا اليه أن يفعل (١٨٨)، أما فيما يتعلق بالتجار المسلمين

١٨٧. نلاحظ أن ابن عساكر يستعمل في نصه لفظ التقبل، والتقبل هو أن يجعل الشخص قبيلا، والقبيل هو الكفيل والعريف والضامن، أي أن يقوم شخص بتحصيل المال واخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه، وهو ما عرف فيما بعد باسم نظام الالتزام فيستفيد السلطان تعجيل المال و يستفيد المتقبل الفرق بين ما يدفعه وما يحصله.

الفيروزابادي، مجد الدين أبو الطاهر بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ/١٤٢٤م) القاموس المحيط، ٢ج، القاهرة، ١٢٧٢هـ، (مادة قبل) سيشار اليه فيما بعد هكذا: الفيروزابادي، قاموس المحيط؛ الخضري، محمد، محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية، ٤ج، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٤هـ، ص ٦٩٩. سيشار اليه فيما بعد هكذا: الخضري؛ محاضرات. وكلمة التقبل لا ترد الا بشكل نادر عند التكلم عن العصر الأموي، وربما استخدم ابن عساكر لفظاً كان شائعاً في عصره، و يبدو أن هذا النظام سيأخذ في الانتشار في العصر العباسي، لأن أبا يوسف ينصح الخليفة هارون الرشيد أن لا يقبل شيئاً من السواد وغيره، لأن المتقبل لا يبالي بهلاك أهل الخراج بصلاح أمره في قبالته.

الطبري، ج ٧، ص ١٤٢؛ أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٥، ١٢٦.

١٨٨. أبو يوسف، الخراج، ص ١٦١؛ المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٥٠٨ — ٥٠٩.

والمعاهدين فإن يحيى بن آدم يورد روايتين، الأولى تذكر أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري أن يأخذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم أي ربع العشر ومن تجار أهل الخراج نصف العشر ومن أهل الحرب العشر، وهذه الرواية تتفق مع ما يذكره أبو يوسف (١٨٩)، أما الرواية الثانية فهي عن عبد الله بن مغفل عن زياد بن جرير قال: «ما كنا نعشر مسلماً ولا معاهداً، وإنما كنا نعشر تجار أهل الحرب كما يعشروننا إذا أتيناهم» (١٩٠) ويفسر أبو عبيد حديث زياد «ما كنا نعشر مسلماً ولا معاهداً» أنه أراد أنه كان يؤخذ من المسلمين ربع العشر ومن أهل الذمة نصف العشر، وقد جاءت فريضة الزكاة بربع العشر عن كل مائتي درهم فمن أخذها منهم على فرضها فليس بعاشر لأنه لم يأخذ العشر وانما أخذ ربعه، ويتابع أبو عبيد أنه لم يستطع أن يعلل سبب أخذ نصف العشر من أهل الذمة لأنهم ليسوا بمسلمين فتؤخذ منهم الصدقة ولا من أهل الحرب فيؤخذ منهم كما يؤخذ من أهل الحرب حتى وجد حديثاً للخليفة عمر بن الخطاب فوجد أنه صالحهم على ذلك صلحاً سوى جزية الرؤوس وخراج الأرضين إذ جعل في أموال أهل الذمة التي يختلفون فيها من كل عشرين درهماً درهماً (١٩١). ويذكر مالك، رحمه الله، أنه إذا أقام أهل الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها إلا الجزية، إلا أن يتجروا في بلاد المسلمين ويختلفوا فيها فيؤخذ منهم العشر فيما يريدون من التجارة، وإذا اتجر الذمي في بلاده من أعلاها إلى أسفلها ولم يخرج منها إلى غيرها فليس عليه شيء كأن يتجر الذمي الشامي في جميع الشام أو الذمي المصري في جميع مصر أو الذمي العراقي في جميع العراق (١٩٢)، وكان سبيل ما يؤخذ من المسلمين من العشور سبيل الصدقة وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً وأهل الحرب سبيل الخراج (١٩٣).

ويلاحظ في بعض شروط الصلح التي عقدت مع أهل الذمة في الشام والجزيرة

١٨٩. أبو يوسف، الخراج، ص ١٦١؛ يحيى بن آدم، ص ١٢٦.

١٩٠. يحيى بن آدم، الخراج، ص ١٢٦.

١٩١. أبو عبيد، الأموال، ٧٠٧ — ٧١٠، فقرة ١٦٣٧، ١٦٤١، ١٦٤١، ١٦٤٣، ١٦٥١، ١٦٥٢، ١٦٥٣.

١٩٢. المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٥٠٨.

١٩٣. أبو يوسف، الخراج، ص ١٦٠.

أنه فرضت عليهم ضرائب أخرى غير تلك التي ذكرناها، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجند المسلمين الذين يمرون من هذه الضرائب، فقد اشترط قادة العرب واجب الضيافة التي كان أقصى مدة لها ثلاثة أيام[١٩٤]. وعن أسلم مولى عمر أن عمر ابن الخطاب لما قدم الشام شكا إليه أهل الذمة قائلين: يا أمير المؤمنين أنهم يكلفونا مالا نطيق يكلفونا الدجاج والشاة، فقال: لا تطعموهم الا مما تأكلون مما يحل لهم من طعامكم[١٩٥]؛ وعن عبد الملك بن عمير أن عمر بن الخطاب اشترط على أنباط الشام للمسلمين أن يصيبوا من ثمارهم ولا يحملوا[١٩٦] كما اتفق مع السكان في البداية أن يقوموا بإصلاح الطرق والجسور والقناطر[١٩٧]، ثم أخذت الدولة على عاتقها هذه الأمور عندما انتظمت وارداتها.

بالاستناد إلى ما ذكرناه عن نظام الضرائب الذي طبق في الشام يمكننا أن نتبين مهام ديوان الخراج الذي كان يسجل فيه كل ما يرد من أموال الفيء، كما كان يسجل في دواوين الخراج مساحات الأراضي الخراجية، وكذلك من في كل بلد من أهل الذمة، وما استقر عليه في عقد الجزية فإن كانت مختلفة باليسار والإعسار سموا في الديوان مع ذكر عددهم ليختبر حال يسارهم وإعسارهم، وإن لم تختلف في اليسار، والإعسار جاز الإقتصار على ذكر عددهم ووجب مراعاتهم في كل عام لتثبيت من بلغ وإسقاط من دخل في الإسلام أو من مات، كما أن كل أرض خراجية إذا تحولت الى عشرية يثبت ذلك في الديوان حتى يسقط الخراج عن تلك الأراضي وعن أهل قراهم.

نلاحظ أن العرب طبقوا الجزية والخراج وهي ضرائب كانت مفروضة في بلاد الشام. ولكنهم أعادوا تنظيم الضرائب وأشرفوا على جباتها وجعلوا الخراج وفقاً للمساحة ونوع الزرع، وأبطلوا الامتيازات السابقة، وهذه أمور ولا شك قد انعكست على أوضاع

١٩٤. البلاذري، فتوح، ص ١٣١، ١٥٦، ١٧٨؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٦٣ — ٥٦٥، ٥٦٦.

١٩٥. ابن عساكر، المصدر السابق، ص ٥٧٣.

١٩٦. المصدر السابق، ص ٥٧٤.

١٩٧. البلاذري، فتوح، ص ١٧٨.

المزارعين في المنطقة لا سيما وأن خطة العرب منذ البداية كانت قائمة على عدم الإضرار بالفلاحين، بل إن قادة العرب بذلوا جهودهم لتوفير الطمأنينة في نفوسهم وإبقائهم على الأرض واعتبروا الفلاحين أحراراً، ومن الطبيعي أن تستمر أساليب الزراعة والحياة القروية على ما كانت عليه في العهد البيزنطي، إلا أن العرب وفروا للمزارعين استقراراً أكثر من الفترة البيزنطية المتأخرة المضطربة، وكان للوضع الجديد أثره الذي ظهر جلياً واضحاً في العصر الأموي وهو موضوع يحتاج إلى بحث خاص.

تنظيمات عمر بن الخطاب «الضرائب في بلاد الشام»

عبد العزيز الدوري
كلية الآداب ــ الجامعة الاردنية

قبل تناول تنظيم الضرائب زمن عمر بن الخطاب، نقدم فكرة أولية عن نظام الضرائب البيزنطي في بلاد الشام*.

تعود أسس التنظيم البيزنطي إلى ديوكليتيان وقسطنطين. كانت الضرائب الأساسية في سورية (وبخاصة على القرى) نوعان ــ الأول ضرائب نظامية، والثاني ضرائب غير نظامية لمواجهة طلبات خاصة.

وأهم الضرائب النظامية ما يفرض على الأرض (١) وكانت تجبى بنسبة معينة من تقدير قيمة الأرض (وهي ١٪، ثم صارت نسبة معينة من الحاصل (١٢٫٥٪)، وضريبة الرأس (٢) و يدفعها كلا الجنسين.

وهناك ضرائب إضافية تفرض في مناسبات خاصة، وكانت هذه أكثر إرهاقاً من

---

* في نظام الضرائب البيزنطي، انظر المصادر الآتية:

Cambridge Economic History, I, ch.V, pp.194 off.

F.M. Heichelheim-Roman Syria, in: an Economic Survey of Ancient Rome, Vol, IV, 1947, pp. 121 off.

A.E.M. Jones, The Later Roman Empire, 3 vols, Oxford 1964.

H. Idris Bell, Egypt from Alaxander the Great to the Arab Conquest, Oxford 1948.

A.Ch. Johnson & L.C. West, Byzabtine Egypt, Princeton Univ. Press 1949.

N.H. Baynes and A.H. Moss, edit.- An Introduction to East Roman Civilization (Oxford 1948).

1. Tributum Soli
2. Tribtum Cappitis

الضرائب النظامية، مثل ضريبة حرب أيام هادريان وضريبة التاج (٣)، وهي ضريبة نقدية، وضريبة الطعام (٤) لسد الحاجات المتغيرة للحاميات وللادارة الرومانية. وصارت هذه الضريبة في النصف الثاني للقرن الثالث أهم ضريبة في الامبراطورية.

جاء ديوكلتيان (٢٨٤ ــ ٣٠٥م) وأعاد النظر في الضرائب، فأمر بمسح الأرض وباحصاء الناس، ونظم الضرائب التي كانت غير منتظمة فقسمت الأرض لغرض الضريبة الى وحدات متساوية في قيمة الانتاج لا المساحة، تدعى Jugum (٥) وكل منها تدفع ضريبة ثابتة.

وأحصي السكان الريفيون وقدروا بوحدات ضريبية للرؤوس (Caput)، وفرضت ضريبة الرأس في الشام على الذكور من ١٤ إلى ٦٥ عاماً، وعلى الاناث من ١٢ الى ٦٥ عاماً. وحسبت كل قرية وكل ملكية ومزرعة بكذا وحدة أرض ضريبية (أو بأجزائها) وكذا ضريبة رأس، ومن هذه المعلومات يحسب ما على المدن والمقاطعات.

و يبدو أن الجزية زمن ديوكلتيان كانت نقدية، ولكن في أيام قسطنطين (٣٠٨ ــ ٣٣٧م) أضيفت ضريبة الأرض الى ضريبة الرأس وصار مجموع الوحدات (Capitatio-Jugatio) التي تجمع بين الناس والأرض أساساً للتقدير وللميزانية. وهذا يعني الربط بين الانسان والأرض لوحدة الضريبة وحفظ التوازن ما أمكن بين الرأس والأرض، وهو ما حرصت عليه الدولة وهذا يعني أن أعداداً متزايدة ترتبط بالأرض.

ومن جهة أخرى حصل الملاكون الأقوياء من الحكومة على حق ال Autopragia أي أن صاحبها يخول جباية الضرائب المستحقة على ضياعه وأدائها للخزينة الاقليمية مباشرة، أي أن الجباة لا سلطة لهم عليه.

وكان المجلس البلدي مسؤولا عن توزيع الضرائب وجمعها من القرى التابعة للمدينة، مركز ادارة المنطقة.

وفي نطاق اشراف المجلس البلدي كانت القرية منطقة ضريبية تفرض عليها ضريبة عامة ثم توزع هذه على الأملاك القروية (٦). وكانت جماعة القرية عادة مسؤولة بصورة

3. Aurum Coronariun

4. Annone Mititaris

٥. ال Jugum ــ هي مقدار الأرض الزراعية التي يمكن أن يستغلها رجل واحد وهكذا اعتبرت كل عشرين Jugera (أو ٨/٥ أيكر) من الأرض الزراعية من الدرجة الأولى. وكل أربعين Jugera «من الدرجة الثانية» وكل ستين Jugera من الدرجة الثالثة، ومدة أرض ضريبية Jugum، وكذلك كل خمس وحدات من أرض الكروم وكل ٢٢٠ شجرة زيتون جيد، وكل ٤٥٠ زيتونة جبلية وحدة Jugum.

٦. ما يعفى من الضريبة أو يفرض عليه ضريبة خاصة كالاقطاعيات لا يدخل في حساب القرية.

مشتركة عن دفع الضرائب، و يتولى مجلس القرية أو لجنة فيها توزيع الضرائب وجبايتها.

صار العبء الأكبر للضرائب يقع على الزراع والفلاحين فضريبة الأرض (Jugatio) كانت على الأرض الزراعية فقط ولا تشمل الحدائق أو العقار، وضريبة الرأس (Capitatio) كانت باستثناء افريقية و بعض الولايات الغربية، على السكان الريفيين فقط.

وأدت التدابير الجديدة إلى ربط الفلاحين بالأرض التي سجلوا عليها (وكذلك أطفالهم) وذلك لتيسير جمع الضرائب ولضمان زراعة الأرض. كما أن سوء الجباية والارهاق دفع الكثيرين الى طلب حماية المتنفذين، وخاصة إذا كان ملاكاً قوياً مجاوراً، ليتولى الحامي مسؤولية دفع الضرائب مقابل تنازل الملاكين عن أراضيهم للحامي (أو ببيع صوري) و بذلك يصبحون مزارعين أو فلاحين مرتبطين بالأرض. وصار مألوفاً في القرن الرابع وما بعده أن يأخذ المتنفذون ضياعاً كبيرة أو قرى تحت حمايتهم بهدف توسيع ملكياتهم. و بهذا يفقد موظفو القرية كل سلطة و يضعف تنظيم القرى وتزيد أعباء المجلس البلدي.

ومع أن السلطات الامبراطورية لم تكن تحبذ الحماية وحاولت الحد منها الا أنها سلمت بها في مطلع القرن الخامس الميلادي.

وقد يكون العرب أفادوا من الأجهزة الادارية للجباية ابتداء، ولكن بعد تبسيطها، وجعل الاشراف المركزي مباشراً، و يبدو أن الجباية في القرى استمرت بيد مجالس القرى أو لجان فيها (كما يبدو من برديات نصتان) ولكن الفلاح اعتبر حراً ابتداء، هذا الى الغاء الامتيازات كافة. واعتبرت الأراضي الامبراطورية وأراضي البطارقة وأراضي من قتل في الحرب ومن جلا من البلاد، صوافي.

تشير الروايات إلى عهود صلح للعرب مع مدن شامية بين سنة ١٣ و١٦هـ ولكن تنظيم الادارة جاء بعد زيارة عمر للشام واجتماعه بالقادة في الجابية سنة ١٦هـ، إذ أن الاحصاء لغرض الجزية كان عام ١٨/٦٣٩ ــ ٤٠م (٧) وقد عقد القادة سلسلة اتفاقيات مع المدن، كان بعضها مؤقتاً بطبيعته مثل الاتفاقيات الأولى مع بصرى ودمشق وحمص، و بعضها له صفة الدوام، ولذلك أثره في الروايات.

و يحسن في فحص الروايات معرفة مصدرها فبعضها روايات محلية شامية، و بعضها روايات عراقية ومدنية، ولهذا أهمية في تقييمها.

و يتكرر في الروايات الاشارة الى فتح المدن صلحاً والريف عنوة (٨)، وقد تطرق أبو

٧. ميخائيل السوري، جـ٢ ق٣، ص ٤٢٦.

٨. قال أبو عبيد القاسم بن سلام أن مدينة دمشق افتتحها خالد بن الوليد صلحاً وزاد على هذا أن مدن الشام كانت صلحاً دون أرضها. ابن عساكر، علي بن أبي محمد (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ط، تحقيق صلاح المنجد، دمشق، ١٩٥١، ص ١٥٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا: ابن عساكر، تاريخ.

يوسف الى ذلك، ثم ذكر أن أهل الرساتيق والقرى هم تبع للمدن(٩). ومثل هذه الاشارة انما تعبر عن واقع تنظيم الضرائب، ذلك أن الزراعة في بلاد الشام تعتمد بصورة أساسية على مياه الأمطار لا الري المنظم، ولذا لم تفرض ضرائب ثابتة على الأرض كما هو الحال في السواد، بل كانت تتبع حال الزرع، أي أنها كانت تستند إلى الانتاج، وتمثل هذا في الروايات بالاشارة إلى الطاقة.

و ينتظر أن يفيد العرب من الارث المحلي في الضرائب، ولكن يلاحظ أنه لم تكن هناك جزية في بلاد الشام قبل الفتح، في حين تؤكد الروايات كافة على فرض الجزية (وفق آية الجزية). كما أن وحدة المساحة في تقدير الخراج كانت الجريب، وهذا واضح من التعديل الذي أجراه عبد الملك(١٠).

و يلاحظ أن الاتفاقيات عقدت مع المدن لتشمل المدن والقرى والأرياف التابعة لها اداريا، اذ كانت المجالس البلدية هي المسؤولة عن جباية الضرائب عليها في الادارة البيزنطية(١١) ولعل هذا يساعد على فهم مضمون بعض الروايات.

ولننظر للروايات

بصرى — ذكر البلاذري أن صاحب بصرى ذكر أنه صالح المسلمين على طعام وزيت وخل، فسأل عمر أن يكتب له بذلك، وكذبه أبو عبيدة وقال: انما صالحناه على شيء يتبع به المسلمون لمشتاهم، فرض عليه الجزية على الطبقات والأرض(١٢). وهذا يعني أن الصلح الأول

---

٩. يقول أبو يوسف «فأما القرى والرساتيق فان أحداً منهم لم يدع ولم يمتنع إلا أن أهل كل كورة كانوا اذا فتحت مدينتهم يقولون نحن أسوة أهل مدينتنا ورؤسائنا. أبو يوسف، يعقوب (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) كتاب الخراج، البولاق، القاهرة، ص ٢٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا: أبو يوسف، الخراج.

١٠. المصدر السابق، ص ٢٤.

١١. يقول الأزدي مثلا عن صلح حمص «وصالحوا على أرض حمص كلها على أن عليهم الجزية. الأزدي، محمد بن عبد الله (ت ١٦٠هـ/ ٧٨١م) تاريخ فتوح الشام. تحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأزدي ــ فتوح الشام. دانيال دنيت، الجزية والاسلام، ترجمة فوزي فهيم جاد الله، مكتبة الحياة، مؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٩٧٠. سيشار الى هذا المرجع فيما بعد هكذا: دنيت، الجزية والاسلام.
R. Hill, The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests, Luzac, London, 1971, p.83.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Hill, The Termination.

١٢. رواية عن مشايخ من الجزريين. البلاذري، أحمد بن جابر، (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، طبع وي غويه بريل، ليدن، ١٨٦٦. ص ١١٣. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح. و يقول بن عساكر، صالحت بصرى على الجزية وكانت أول جزية وقعت بالشام على عهد أبي بكر. ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ١٣٨.

هو إجراء مؤقت لتموين المقاتلة. وفي البلاذري رواية (عن بعض الرواة) تفيد أن أهل بصرى صالحوا على أن يؤدوا عن كل حالم دينارا وجريب حنطة(١٣). وفي الطبري أن بصرى صالحت المسلمين «على الجزية»(١٤). وفيه عن المدائني «فصالحهم (خالد) على كل رأس دينار في كل عام وجريب حنطة»(١٥). هذه الروايات تشير إلى التنظيم الثابت لبصرى.

ثم صولحت مآب من أرض البلقاء(١٦) وأذرعات وعمان(١٧) مثل صلح بصرى.

دمشق —

والروايات عنها لا تخلو من تعقيد. ففي صلح خالد لأهل دمشق، الأمان لأهل دمشق لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية(١٨). وتشير رواية لابن اسحاق الى صلح دمشق على الجزية(١٩).

و يذكر ابن أعثم أن المسلمين أخذوا في هذا الصلح مبلغاً في الجزية فيقول: ووقع صلحهم على ١٠٠٠٠٠ دينار والجزية بعد ذلك «على كل محتلم أربعة دنانير في كل سنة وعلى نسائهم ديناران»(٢٠). ومع أن تفاصيل الجزية غير مقبولة، فان الاشارة الى المبلغ سليمة، فهو سلف على الجزية لحاجة المقاتلة. و يؤيد ذلك الأزدي اذ يذكر أن أبا عبيدة، قبيل الانسحاب من دمشق باتجاه اليرموك «أمر سو يد بن كلثوم القرشي أن يرد على أهل دمشق ما كان اجتبى منهم، الذين كانوا أومنوا وصولحوا»(٢١) وأعيد فتح دمشق بعد اليرموك وجدد الصلح.

---

١٣. البلاذري، فتوح، ص ١١٣،
قدامة بن جعفر، (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، كتاب الخراج وصناعة الكتابة، (مخطوط). ص ١٣٤ب، ص ١٣٤. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا قدامة ــ كتاب الخراج.

١٤. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، طبع وي خو يه، بريل، ليدن، ١٨٧٩، ج ١، ص ٢١٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

١٥. المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢٧. والارتباك في الاشارة الى خالد بدل أبي عبيدة.

١٦. البلاذري، فتوح، ص ١١٣. قدامة، كتاب الخراج، ص ١٢٥ وأ.

١٧. البلاذري، المصدر السابق، ص ١٢٦. قدامة، كتاب الخراج، ص ١٢٥ وأ.

١٨. البلاذري، فتوح ص ١٢١، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠م ص ٤٥٧، رقم ٥٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: حميد الله ــ الوثائق السياسية.

١٩. الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٢١٤٦، الأزدي، فتوح الشام، ص ١٠٦، حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٤٧٢.

٢٠. ابن أعثم الكوفي، أبي محمد احمد بن أعثم (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م)، كتاب الفتوح ٦ ج، وزارة المعارف الهندية، ١٣٨٨هـ، ج ١، ص ١٦٠. سيشار الى هذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا، ابن أعثم، الفتوح.

٢١. الأزدي، فتوح الشام. ص ١٦٠.

و يروى سيف بن عمر، وهو اخباري كوفي أنه فرض في صلح دمشق دينار على كل رجل وجريب (من حنطة أو شعير) على كل جريب أرض[٢٢]. و يبدو سيف هنا متأثراً بالأسلوب المتبع في السواد في فرض ضريبة محددة على الرأس، وأخرى على وحدة المساحة من الأرض، فاعتبر الدينار والجريب ضريبتين بينما هما ضريبة الرأس. و يورد سيف رواية أخرى حين يقول «وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار، وديناراً عن كل رأس... وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب عن كل جريب أرض»[٢٣]. وهو يكرر في القسم الثاني من روايته ما جاء في الرواية السابقة، وأما القسم الأول منها فانه يتحدث بصورة عامة عن الريف كما يبدو دون تحديد.

و يورد ابن عساكر رواية (باسناد جمعي)، و يقول «قالوا: وكان (خالد) صالح أهل دمشق على دينارين وشيء من طعام، و بعضهم على الطاقة، ان زاد المال زاد عليهم وان نقص ترك ذلك عنهم»[٢٤]. وهي رواية تشير إلى التنظيمات التي وضعت بعد فترة من انتهاء الفتح، إذ يشير القسم الأول منها إلى الجزية، في حين يشير القسم الثاني الى ما فرض على الأرض في الريف. ولكنها مضطربة بشأن القسم النقدي.

أما ما أورده ابن عساكر من مصالحة دمشق على مبلغ محدد لا يزاد عليهم أن استغنوا ولا ينقص أن قلوا[٢٥] فلا دلالة فيه الا اذا قصد تحديد الجزية النقدية فيما بعد كما سنرى.

و يورد البلاذري رواية تفيد أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم على أن الزم كل رجل من الجزية ديناراً وجريب حنطة وخلا وزيتاً لقوت المسلمين[٢٦]. وهذه الرواية لا تميز بين ما جرى بموجب الصلح و بين التنظيمات التي وضعت بعد فترة.

فيذكر البلاذري في رواية شامية (عن الأوزاعي) أنه فرض بموجب الصلح في بادىء الأمر جزية قدرها دينار وجريب على كل جمجمة[٢٧]. ثم جاء تنظيم الضرائب بعد سنة ١٦هـ.

٢٢. الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٢١٥٩.

٢٣. رواية سيف في الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٢١٥٤، ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ١٥٠.

٢٤. ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ٥١٠.
ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ٧ جـ، هذبه الشيخ عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) بيروت، دار المسيرة، ١٩٧٩م، ج ١، ص ١٥٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تهذيب.

٢٥. ابن عساكر. تاريخ، ج ١، ص ٥١٠، ص ٥٣٠.

٢٦. البلاذري، فتوح، ص ١٢٤.

٢٧. ذكر البلاذري، حدثني أبو عبيد قال حدثنا هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي أنه قال: كانت الجزية بالشام في بادىء الأمر جريباً وديناراً على كل جمجعة، البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، قدامة بن جعفر، الخراج، ص ١٣٨أ.

حمص ـ

تشير الروايات الى الصلح الأول مع حمص والذي اقتصر على أخذ مبلغ محدد نقداً. فيذكر أبو مخنف أن أهل حمص صالحوا أبا عبيدة على مائة وسبعين ألف دينار. و يقول الأزدي أن المسلمين صالحوا أهل حمص «على أرض حمص كلها على أن عليهم مائة وسبعين ألف دينار»[٢٨]. و يذكر ابن الكلبي أن أبا عبيدة حاصر أهل حمص «فسألوا الصلح عن أموالهم وأنفسهم وكنائسهم وعلى أرض حمص مائة وسبعين ألف دينار»[٢٩]. و يقول اليعقوبي «فصالحهم عن جميع بلادهم على أن عليهم خراجاً ١٧٠٫٠٠٠ دينار، وهو[٣٠] يستعمل لفظ «الخراج» بمعنى الجزية العامة.

و ينفرد ابن أعثم بأن الصلح كان «على سبعين ألف دينار عاجلة، وعلى أداء الجزية عن كل محتلم في كل سنة أربعة دنانير وعلى أنهم يضيفون المسلم اذا نزل بهم»[٣١].

وهكذا تتفق عامة الروايات على أن المسلمين أخذوا في الصلح الأول مائة وسبعين ألف دينار جزية. أما رواية ابن أعثم فتساعد على تحديد المقصود بهذه الجزية وهي أنها مبلغ عاجل في اطار الجزية.

ولما انسحب المسلمون من حمص قبيل اليرموك، ردوا هذا المال الى أهل حمص كما جاء في رواية لأبي جعفر الدمشقي، وفي الأزدي[٣٢].

وكان صلح حمص بعد اليرموك (١٥هـ/٦٣٦م) للمر الثانية. و يذكر البلاذري أن أبا عبيدة صالح أهلها على نحو صلح بعلبك، أي على الجزية والخراج[٣٣]. ولا ينتظر أن تتغير أسس الصلح، وهي الجزية (والضيافة). يذكر اليعقوبي والبلاذري (في رواية) أن ما فرض على حمص هو الخراج (أي الجزية)[٣٤]. و يذكر سعيد بن البطريق أن حمص

٢٨. البلاذري، فتوح. ص ١٣٠، الأزدي، فتوح الشام، ص ١٣٠، حميد الله ـ الوثائق السياسية، ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

٢٩. خليفة بن خياط، أبو عمر البصري، (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤) تاريخ خليفة بن خياط، رواية تقي بن مخلد، ٢ج، تحقيق سهيل زكار، وزارة الثقافة والارشاد، دمشق، ١٩٦٧، ص ٩٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: تاريخ خليفة.

٣٠. اليعقوبي، ص ٩٩، أحمد بن يعقوب (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، نشره هوتسما، بريل، ليدن، ١٧٨٣. ص ١٦٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ.

٣١. ابن أعثم، الفتوح، ص ٢١٦.

٣٢. البلاذري، فتوح، ص ١٣١، حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٤٧٠.

٣٣. البلاذري، فتوح، ص ١٣١، وانظر ص ١٣٠ عن صلح بعلبك.

٣٤. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٦١، البلاذري، فتوح، ص ١٣١.

صولحت على صلح دمشق (٣٥). وهذا يعني أن صلح حمص استمر على أساس الجزية.

و يورد الطبري رواية (عن أشياخ من غسان و بلقين) تذكر أن أبا عبيدة «صالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبدا أيسروا أو أعسروا، وصالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه وان نقص نقص»، ثم يضيف «وكذلك صلح دمشق والأردن بعضهم على شيء ان أيسروا وان أعسروا و بعضهم على قدر طاقته» (٣٦). وهي رواية تشير الى التنظيمات التالية، فالجزية كانت محدودة ابتداء بدينار وجريب (٣٧) وهي محددة، بينما الطاقة تتعلق بما فرض على الأرض من خراج كما حصل بعد التنظيم.

و يذكر اليعقوبي أن حلب وقنسرين ومنبج صولحت على الخراج على غرار حمص (٣٨) وصالح أبو عبيدة انطاكية «فأمنهم ووضع على كل حالم منهم ديناراً وجريباً» (٣٩). و يذكر البلاذري أن أبا عبيدة صالح أهل حماة «على الجزية في رؤوسهم والخراج في أرضهم»، وأنه صالح أهل شيزر وأهل فامية على مثل ذلك (٤٠). و يذكر أن أهل بعلبك صالحوا على الجزية والخراج (٤١).

يذكر الطبري (عن سيف) أن المسلمين (شرحبيل) صالحوا أهل طبرية على صلح دمشق، وأنهم فرضوا «على كل رأس ديناراً كل سنة وعن كل جريب أرض جريب بر أو شعير، أي ذلك حرث» (٤٢)، وهذا ما فهمه سيف بن عمر من جزية الدينار والجريب. و يذكر البلاذري أن شرحبيل بن حسنة فتح جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح، و يعدد بيسان وسوسية وأفيق وجرش و بيت راس وقدس والجولان (٤٣).

و يذكر البلاذري أن المسلمين حاصروا فحل حتى سألوا الأمان «على أداء الجزية

---

٣٥. من دنيت، الجزية والاسلام، ص ١٠٢.
عن تاريخ سعيد بن البطريق.
(عن سعيد بن البطريق «افتيشيوس») التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الأدباء اليسوعيين، بيروت، ص ١٦. ١٩٠٥. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: بن البطريق، التاريخ.

٣٦. الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٢٣٩٢.

٣٧. يلاحظ أن روايات الطبري. تفصل الجريب عن الدَينار، فتعتبر جريب الطعام عن جريب الأرض.

٣٨. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٦١، البلاذري، فتوح، ص ١٤٤. بالنسبة لقنسرين، و يذكر البلاذري ص ١٤٤ أن صلح منبج مثل صلح أنطاكية ودلوك مثل منبج، ص ١٥٠.

٣٩. البلاذري، فتوح، ص ١٤٧.

٤٠. البلاذري، فتوح، ص ١٣١، قدامة، كتاب الخراج، ص ١٤٠أ.

٤١. البلاذري، فتوح، ص ١٣٠.

٤٢. الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٢١٥٨.

٤٣. البلاذري، فتوح، ص ١١٦.

عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم» (٤٤)، و بينما يشير البلاذري هنا الى الجزية والخراج، يشير الأزدي واليعقوبي الى فرض الجزية على فحل (٤٥)، ومن الواضح أن الأزدي واليعقوبي يشيران إلى الصلح وأن البلاذري يشير الى ما تم بعد التنظيم.

و يذكر البلاذري بالنسبة لفلسطين أن عمرو بن العاص صالح غزة وسبسطية ونابلس «على أن الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم» وان ذلك حصل مع يافا و بيت جبرين وعمواس ورفح واللد» (٤٦). أما الطبري (عن سيف) فيشير للجزية وحدها اذ يقول: «وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام» (٤٧). و يرد مثل ذلك بالنسبة لايلياء، ففي البلاذري «ثم طلب أهل إيلياء من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج» (٤٨)، في حين يذكر الطبري «وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن» (٤٩).

وتحدث البلاذري عن فتح اللاذقية وذكر أن أهلها «قوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو أكثروا» (٥٠). وأورد رواية شامية (عن هشام بن عمار) أن أبا عبيدة بن الجراح صالح السامرة بفلسطين والأردن. وكانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم، وأطعمهم أرضهم (٥١). وواضح أن التسامح مع السامرة كان لخدماتهم للمسلمين، أما اللاذقية فلعل لحصانتها وموقعها الطبيعي أثراً في طبيعة الاتفاق معها.

و يلاحظ مما ذكر أن الاتفاقيات الأولى مع بصرى ودمشق وحمص كانت على الجزية، وأن المسلمين أخذوا مبالغ نقدية (أو عينية) في هذا الاطار لمواجهة نفقات المقاتلة، وأنهم ردوها في دمشق وحمص حين اقتضت ضرورات الحرب الانسحاب منهما.

ومع أن عهود الصلح عقدت مع أحد الأمراء الأربعة، خالد وأبي عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، الا أنها سارت على نهج واحد، وهو فرض الجزية على أهل المناطق المختلفة. وكانت الجزية ابتداء على دينار وجريب على كل جمجمة، وفرضت على

---

٤٤. البلاذري، فتوح، ص ١١٥.

٤٥. حميد الله، الوثائق السياسية ص ٤٦٥، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٦٠، الأزدي، فتوح الشام، ص ١٤٠.

٤٦. البلاذري، فتوح، ص ١٣٨، قدامة، كتاب الخراج، ص ١٤٠ب ـ ص ١٤١أ.

٤٧. الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٢٤٠٧. (كتاب عمر).

٤٨. البلاذري، فتوح، ص ١٣٨، قدامة، كتاب الخراج، ص ١٤١أ.

٤٩. الطبري، تاريخ، ج ١، ص ٢٤٠٦.

٥٠. البلاذري، فتوح، (عن أبي حفص الدمشقي) ص ١٣٣.

٥١. البلاذري، فتوح، ص ١٥٨.

من جرت عليه المواس، وأعفي منها النساء والصبيان(٥٢). وفرضت الجزية على أهل المدن والأرياف.

وبعد أن استقر الفتح بدأ تنظيم الادارة في البلاد سنة ١٧/١٨هـ بتحديد الأجناد وفرض الأعطيات والأرزاق أثر مجيء عمر للجابية. كما تقرر اعتبار الأراضي المفتوحة وقف للمسلمين لتكون مورداً دائماً لهم، ولينصرفوا بدورهم للجهاد(٥٣). و يبدو أن التنظيم سبقه اجراء مسح للأراضي واحصاء للسكان كما حصل في السواد. فيذكر ميخائيل السوري أن عمر أمر باجراء احصاء «فيما يختص بمال الرأس في كل أنحاء البلاد وأن ضريبة الرأس فرضت على المسيحيين في عام ٩٥١/٦٣٩ ـ ٤٠ م أي ١٨ هـ(٥٤). كما يذكر ثيوفانس أنه في العام الثلاثين من حكم هرقل أمر عمر في كل البلاد والأرض التي اخضعت له أنه تمسح وتوصف ليس فقط بالنسبة للرجال بل وكذلك احصاء بالأشجار المثمرة والزروع(٥٥). وفرضت الآن جزية موحدة في المدن والقرى، مقدارها دينار ومقادير من الحنطة (مديان) ومن الزيت (قسطان) ومن الخل، على كل فرد واعفي النساء والأطفال منها(٥٦). وفرض الخراج على الأرض، ولكنه لم يكن محدداً بل يعتمد على الماء وحالة الزرع والأرض(٥٧).

وترد اشارات الى أن عمر بن الخطاب أعاد النظر في الجزية على المدن؛ بأن جعلها نقدية وصنفها على ثلاث طبقات حسب الوضع المالي للفرد كما في السواد، في حين أبقاها في الريف (حيث الزرع) على حالها(٥٨).

وتجابهنا مشكلة في الروايات، لها صداها في كتب الفقه، اذ تتكرر الاشارة الى أن

٥٢. انظر البلاذري، فتوح، ص ١١٣، ص ١٢٤، ابن عساكر، تاريخ، جـ١. ص ٥١٧، ص ٥٧٣.

٥٣. ابن عساكر، تاريخ، جـ١، ص ٥٧٦ ـ ٧٨، ص ٥٨٢، ص ٥٨٥.

٥٤. ميخائيل السوري، تاريخ II، ق ٣، ص ٤٢٦، وانظر دينيت، الجزية والاسلام، ص ١٠٨.

٥٥. دينيت مروان ـ (رسالة دكتوراة لم تنشر)، ص ٣٨.

٥٦. انظر البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، ص ١٧٣، ص ١٧٤، ص ١٧٥، ١٧٦، أبو يوسف، الخراج، ص ٢٣. أبو عبيد، أبو عبيد القاسم بن سلام الهوري (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م)، الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٣٨. ص ٣٩ وما يليها. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو عبيد، الأموال. وتذكر بعض الروايات ثلاثة أقساط زيت ولكن برديات نصتان تؤكد القسطين.

٥٧. البلاذري، فتوح، ص ١٧٣، ص ١٧٧.

٥٨. يقول البلاذري (في الفتوح) ص ١٢٤: حدثنا أبو عبيد قال حدثنا هشام بن عمار بن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي أنه قال: كانت الجزية بالشام في بدىء الأمر جريباً وديناراً على كل جمجمة، ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط، وأنظر أبو يوسف، الخراج، ص ٢٣، وقدامة كتاب الخراج، ص ١٣٨ب، أبو عبيد الأموال، ص ١٢٥، ابن عساكر، تاريخ، جـ١، ص ١٧٩.

المدن فتحت صلحاً والى أخذ القرى والأرياف عنوة(٥٩). هذا في حين أن الأرياف تبع للمدن إدارياً(٦٠). ولكن تبقى لهذه الاشارات دلالتها إذ أن الضرائب في المدن محددة، ومن هنا الاشارة للصلح، في حين أنها على الطاقة في الريف (على الأرض) ومن هنا الاشارة إلى أن الأرض أخذت عنوة(٦١).

واعتبرت أراضي البطارقة، وأراضي من قتل في الحرب وأراضي من جلا أثناء الفتح صوافي للمسلمين. وقد أعطيت منها قطائع لأفراد أو لقبائل، بينما كان الباقي يعطى بالمزارعة (لقاء نسبة من الحاصل)(٦٢).

وكان على أهل الذمة ابتداء أن يقوموا بارشاد الضالة وأن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين (الرسل، وعابري السبيل) ثلاثة أيام (وفي الأزدي يوماً وليلة)، ولكن هذا رفع بعد الاستقرار والتنظيم(٦٣).

و يبدو من برديات نصتان (بين ٥٤ ـ ٥٧هـ) أن مسؤولية القرية عن دفع الجزية (بالنقد والنوع) مشتركة وأن مجلساً أو لجنة من وجهاء القرية تتولى جمع الضرائب. و يشار الى الجانب النوعي من الجزية في القرى بـ(الرزق) أو أرزاق المقاتلة، وهو مديان من القمح وقسطان من الزيت على كل رجل. وكان الرزق يجبى كل شهرين، وقد يحصل تأخير في الجباية، فتجبى الأرزاق لشهرين بالنوع، ولشهرين تليها نقداً وفق المعدل الذي تضعه الادارة للثمن (١٥ مدى قمح + ١٥ قسط زيت = ديناراً أو نوسماً)(٦٤).

٥٩. بالنسبة لدمشق «صالح أبو عبيدة على ذلك أهل المدينة، وأخذ سائر الأرض عنوة «ابن عساكر، تاريخ، جـ١، ص ١٧٨. حمص» وأخذ سائر أرضهم عنوة «تاريخ خليفة بن خياط، ص ٩٩. قنسرين» وغلب المسلمون على أرضها وقراها «البلاذري، فتوح، ص ١٤٤، وانظر ابن عساكر، جـ١، ص ١٢٤، أذرعات «وأتاهم صاحب أذرعات فطلب الصلح على مثل ما صولح عليه أهل بصرى على أن جميع أرض البثنية أرض خراج» البلاذري، فتوح، ص ١٢٦.

٦٠. أبو يوسف، الخراج، ص ٢٣.

٦١. المصدر نفسه، البلاذري، فتوح، ص ١٧٥، ١٧٦، ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ٥٨٩.

٦٢. ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٨١، ١٨٢.

٦٣. ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ١٥٠، ص ١٧٩، الأزدي، فتوح الشام، ص ١٤١.

٦٤. انظر: C.J. Kramer, Excavations at Nessana, Vol, 3 Non—Literary Papyrii, Princeton University Press, Princeton, 1958.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Kramer, Excavations.

منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة، وصلتها ببلاد الشام في صدر الاسلام والخلافة الاموية، اعتماداً على الاكتشافات الحديثة

سعد الراشد
كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود بالرياض

يتناول هذا البحث الصلات بين الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية و بلاد الشام خلال صدر الاسلام والخلافة الأموية وذلك على ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة. والواقع أن الصلات الحضارية بين بلاد الشام والجزيرة العربية بصفة عامة تعود الى عدة قرون قبل الاسلام. فقد شهدت بلاد الشام هجرات القبائل العربية التي استوطنت المنطقة نفسها(١).

وتأسست في بلاد الشام والأردن وشمال غرب الجزيرة دول وممالك عربية شكلت عاملا هاماً للروابط الوثيقة بينها و بين باقي أنحاء الجزيرة العربية. ومن أبرز هذه الدول والممالك دولة الأنباط ومملكة تدمر ومملكة الغساسنة. ولعبت التجارة عاملا مهماً في تبادل التراث الحضاري بين بلاد الشام والجزيرة العربية، وأصبحت طرق التجارة تمثل عصب الحياة بين الجزيرة العربية والعراق و بلاد الشام ومصر. فالمواقع الأثرية العديدة المعروفة والمكتشفة على طرق التجارة الداخلية والساحلية توضح لنا مسار ذلك الاتصال(٢). ومن أبرز هذه المواقع قرية الفاو ودومة الجندل وتيماء ووادي القرى (العلا) والحجر (مدائن صالح) وقرية والجار والحوراء (أم لج)، وقد كشفت لنا أعمال المسوحات الأثرية والحفائر شواهد أثرية هامة توضح لنا مدى عمق الاتصال الحضاري بين المنطقتين. فعلى سبيل المثال أمدتنا حفائر قرية الفاو بشواهد أثرية هامة توضح مدى الصلات الحضارية بين مملكة الأنباط ومنطقة الفاو، و يتمثل ذلك في نوعية الأواني الفخارية المكتشفة والعملات والكتابات، كما أن الآثار المعمارية الباقية توضح عمق الاتصال الحضاري في النواحي الهندسية والتكنولوجية(٣).

---

١. عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في صدر الاسلام. المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الطبعة الأولى، الدار المتحدة للنشر، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٤م. ص ٢٥ ـ ٣٨. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، العرب والأرض.

٢. عبد الرحمن محمد الطيب الأنصاري، «لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية». مجلة الداره، العدد الأول. ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م. ص ٧٤ ـ ٨٧. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عبد الرحمن الأنصاري، لمحات عن بعض المدن القديمة.

٣. عبد الرحمن محمد الطيب الأنصاري، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكة العربية السعودية، مطبوعات جامعة الرياض ١٩٨٢م. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عبد الرحمن الأنصاري، قرية الفاو صورة للحضارة العربية.

أما منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة فلها أهمية تاريخية بالنسبة لموقعها الجغرافي ذي الأهمية الاستراتيجية وكونها آهلة بالسكان من حضر و بادية. وزاد من أهمية المنطقة ظهور الاسلام الذي انتشر منها إلى أرجاء الأرض.

وشهدت بلاد الشام طلائع القبائل العربية التي شاركت في الفتوحات الاسلامية. وأصبحت الحجاز مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع بلاد الشام في فترة الخلافة الرائدة، وتجسد ذلك الارتباط بحضور الخليفة عمر بن الخطاب الى فلسطين ليشهد تسليم بيت المقدس في سنة ١٦هـ(٤).

وعلى الرغم من أن دمشق أصبحت منذ عهد الخليفة معاو ية بن أبي سفيان عاصمة للخلافة الاسلامية فان خلفاء بني أمية وأمراءهم لم تنقطع صلتهم بالحجاز وذلك لعدة أسباب: ــ

١. الجانب الروحي وهذا يتعلق بنسك الحج والعمرة وأهمية مكة المكرمة والمدينة المنورة وضرورة تأمين المواصلات لهما مع بلاد الشام.

٢. الجانب الاقتصادي حيث تحتوي أرض الحجاز وشمال الجزيرة على خامات المعادن و بالأخص الذهب والفضة والنحاس. كما أن المنطقة مشهورة بواحاتها الزراعية وأوديتها الغنية بالانتاج الزراعي. وكان خلفاء بني أمية وأمراء البيت الأموي يولون منطقة الحجاز أهمية خاصة على الرغم من الحوادث والفتن التي جرت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان وحتى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان. وكان لبني أمية أملاك وأراض زراعية وتجارات كثيرة في منطقة الحجاز.

والاكتشافات الأثرية تؤكد ذلك حيث يشير نقش الطائف المؤرخ في سنة ٥٨هـ إلى اهتمامات معاو ية بن أبي سفيان بالجانب الزراعي بانشائه سداً هناك(٥) ولعل سدود منطقة الطائف السابقة للعهد الأموي أو التي انشئت في العصر نفسه استغلت جميعها في توفير المياه لأغراض الزراعة(٦).

---

٤. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي محمد الحبزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ١٢ح، بيروت. دار صادر، ١٩٦٥/ ١٩٦٦م. ج ٢، ص ٤٩٩ ــ ٥٠٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل، فتحية عبد الفتاح النبراوي، دراسات في عصر الخلفاء الراشدين، الرياض، ١٩٧٧م. ص ١٣٩، ص ١٤٤.
سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فتحية النبراوي، دراسات في عصر الخلفاء.

٥. G.C. Miles, Early Islamic Inscriptions Near Ta'if in the Hijaz. JNES, Vol. 7. 1984, pp. 236-242. Plts, XVII - ZVIII
سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Miles, Early Islamic.

٦. عن السدود القديمة في الطائف انظر: أطلال: حولية الآثار العربية السعودية، العدد السادس. السنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. ص ١٢٥ ــ ١٣٤. وأنظر القسم الأجنبي في نفس العدد. PP. 125-135 سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أطلال.

و يروى «أنه كان بالمدينة على زمن معاو ية صوافي كثيرة، وأن معاو ية كان يجد بالمدينة وأعراضها مائة ألف وسق وخمسين ألف وسق و يحصد مائة ألف وسق حنطة»(٧)

وتميزت الطائف بأنها أكثر بلاد الله عنباً، «و بها كرم الرهط، كرم كان لعمرو بن العاص معروشاً على ألف ألف خشبة، شرى كل خشبة درهم، فلما حج سليمان بن عبد الملك أحب أن ينظر اليه فلما رآه قال: ما رأيت لأحد مثله لولا أن هذه الحرة في وسطه. قالوا: ليس بحرة بل مسطاح الز بيب. وكان ز بيبه جمع في وسطه ليجف، فرآه من بعيد فظنه حرة»(٨).

و يروى عن معاو ية أنه كان يقول: «أغبط الناس عيشاً عبدي أو قال مولاي سعد، وكان يلي أمواله بالحجاز و يتربع جدة و يتقيظ الطائف و يشتو بمكة، ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية فقال:

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف»(٩)

واستقطبت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم أعداداً من أفراد الأسرة الأمو ية ومناصريها فعمروا المنطقة بحفر العيون والآبار وأقاموا السدود وعمروا الدور والقصور التي لا تزال بعض معالمها قائمة حتى وقتنا الحاضر(١٠).

ولعل من نافلة القول أن نشير الى اصلاحات بعض خلفاء بني أمية وعمارتهم للحرمين الشريفين. ففي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦/ ٧٠٥ ــ ٧١٥) نجده يعطي تعليماته في سنة ٩١هـ/ ٧٠٩م لأميره على المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز للبدء في عمارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقام عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد «و بناه بالحجارة المنقوشة المطابقة وقصة بطن نخل وعمله بالفسيفساء والمرمر، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب وهدم حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلها في المسجد» كما أدخل قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام بالمسجد وجعل عمر بن عبد العزيز للمسجد أر بع مآذن في كل

---

٧. السمهوري، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ٣ج، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م)، ص ٩٨٨.
سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: السمهوري، وفاء الوفاء.

٨. القزو يني، زكريا بن محمد بن محمد (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. ص ٩٨.
سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القزو يني، آثار البلاد.

٩. ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) معجم البلدان، ٥ ح، دار صادر، بيروت. ١٩٥٧. جـ٤. ص ١٥.
سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم.

١٠. انظر في هذا الموضوع: عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، ط٣، المدينة المنورة. ١٣٩٣. ص ٤٦ ــ ٦١.
سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة.

زاو ية مئذنة (١١). و يعتبر عمر بن عبد العزيز أول من أحدث الشرفات والمحراب (١٢) في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و يروي الأزرقي أن الخليفة عبد الملك بن مروان عمر المسجد الحرام بمكة المكرمة «ولم يزد فيه ولكنه رفع جدرانه وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة» (١٣). ثم عمر الوليد بن عبد الملك المسجد الحرام. «فنقض عمل عبد الملك وعمله عملا محكماً وهو أول من نقل اليه أساطين الرخام فعمله بطاق واحد بأساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف وجعل على رؤوس الأساطين الذهب على صفايح الشبه من الصفر. وأزر المسجد بالرخام من داخله، وجعل في وجه الطيقان في أعلاه الفسيفساء وهو أول من عمله في المسجد الحرام، وجعل للمسجد شرافات وكانت هذه عمارة الوليد بن عبد الملك» (١٤).

ولا نستبعد أن تكون إصلاحات خلفاء بني أمية قد امتدت الى مساجد أخرى، خاصة المساجد والمواضع التي صلى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فيذكر «أن عمر بن عبد العزيز حين بنى مسجد المدينة سأل الناس يومئذ عن المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم ثم بناها بالحجارة المطابقة» (١٥).

كما أمن خلفاء بني أمية طرق المواصلات بين بلاد الشام والحجاز، فتذكر المصادر أن الوليد بن عبد الملك كان: «محبوباً عند أهل الشام لأنه صاحب عمارة و بناء ووضع المنار في الطرقات....» (١٦) كما أنه «حفر المياه في طريق مكة من الشام الى مكة وهو أول من عمل البيمارستانات للمرضى في الاسلام....» (١٧) و يذكر القلقشندي أن الوليد بن عبد الملك «أول

١١. للمزيد من المعلومات انظر: السمهوري، وفاء الوفاء، ج ٢، ص ٥١٣ ـ ٥٢٦.

١٢. كتاب «المناسك» وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م. ص ٣٦٤ ـ ٣٧٠.
سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب المناسك.

١٣. الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ٢ ح، تحقيق رشيد الصالح، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م. جـ٢، ص ٧١. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأزرقي، أخبار مكة.

١٤. الأزرقي، أخبار مكة، ج ٢، ص ٧١ ـ ٧٢.

١٥. أحمد بن الحميد العباسي، عمدة الأخبار في مدينة المختار، الطبعة الخامسة، المدينة المنورة. ص ١٦٦. سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أحمد العباسي، عمدة الأخبار.

١٦. انظر: الجزء الثالث من العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق M. J. De Geoje Et P. De Jong طبع ليدن، ١٨٦٩. ص ١١. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: العيون والحدائق.

١٧. العيون والحدائق، ج ٣، ص ١٢.

من بنى الأميال في الطرقات» (١٨)، و يروي الطبري أن الوليد بن عبد الملك كتب الى عمر بن عبد العزيز «في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة وخرجت كتبه الى البلدان بذلك» (١٩).

وتؤكد بعض المصادر بأن عمر بن عبد العزيز «أول من اتخذ دار ضيافة من الخلفاء، وأول من اتخذ الخانات للمسافرين...» (٢٠)، و يضاف الى ذلك أنه بنى الحجفة (٢١) وهي محطة على طريق الحج من الشام الى مكة المكرمة، و يروى عن هشام بن عبد الملك بأنه «اتخذ القنى والبرك بطريق مكة...» (٢٢).

وقد دلت الاكتشافات الأثرية في بلاد الشام على اهتمامات خلفاء بني أمية بطرق المواصلات بين دمشق والحجاز. فأول هذه المكتشفات ما عثر عليه في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي من أحجار ميليه تحمل اسم الخليفة عبد الملك بن مروان (٢٣). وهذه الأحجار يبدو أنها سلسلة من علامات المسافة التي وضعت على الطريق الواصل بين دمشق و بيت المقدس ولعل ذلك كان جزءاً من مشروع كبير لربط حاضرة الدولة الاسلامية (دمشق) مع باقي أقاليم الدولة، كما عثر في منطقة الجليل في سنة ١٩٦١م على حجر تذكاري يحمل اسم الخليفة عبد الملك بن مروان ومؤرخ في سنة ٧٣/ ٦٩٢ و يفيد النص المنقوش على الحجر

١٨. القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ٣ج، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤ ج ١، ص ١٣٦. سيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، مآثر الانافة.

١٩. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، جـ٦، ص ٤٣٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

٢٠. العيون والحدائق، ج ٣، ص ٦٣.

٢١. المصدر نفسه.

٢٢. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٧ج، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٦ ـ ١٩٧٩، جـ٤، ص ٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج.

٢٣. Charles Clermont - Ganneau,
Archaeological Researches in Palestine During the Years 1873 - 1874, Vol. II, London, 1896, pp. 35 - 36.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:
Archaeological Researches.

وأنظر أيضاً:
Memoires de institut francais d'Archeologie orientale du caire, Vol. 43, Paris, 1922, pp. 17-29.

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Memoires de Institut Francais

بان الخليفة عبد الملك أمر يحيى بن الحكم بتسهيل منطقة وعرة تعترض مسار الطريق (٢٤). ولا يستغرب أن نجد الأزرقي عند رصده لحدود المسجد الحرام والمشاعر المقدسة يذكر الأميال التي تحدد المسافة بأنها أميال مروانية. و يصف الميل وهو حجر المسافة، بأنه «حجر مرواني طوله ثلاثة أذرع» (٢٥).

وهكذا نرى أن المكتشفات الأثرية أثبتت أن الخليفة عبد الملك بن مروان بدأ في ربط أقاليم الدولة الاسلامية بطرق سهلة الاجتياز ووضعت عليها أحجار المسافة المكتوبة، وقد سار على هذا النهج خلفاء بني أمية من بعده بتعهد طرق المواصلات بالاصلاح والعمارة وتزويدها بكافة المرافق الضرورية، ومن أهم ذلك القنوات و برك المياه. وتنتشر برك المياه على وجه الخصوص بكثرة في بادية الشام والأردن وجنوب فلسطين وصحراء سيناء ومنطقة شمال غرب الجزيرة العربية، وتتشابه هذه البرك في كثير من تفاصيلها المعمارية من حيث أشكالها الهندسية وأساليب تصريف المياه فيها. وقد أمكن لنا أن نتتبع تطور عمارة برك المياه من جنوب الجزيرة العربية وحتى بلاد الشام وشمال افريقيا واتضح لنا بأن أصولها تعود الى عرب جنوب الجزيرة وتطورت في أساليبها المعمارية في الفترة الأموية حتى العصور الاسلامية المتأخرة (٢٦).

ولعلنا نشير بهذا الخصوص الى النقش التذكاري الذي عثر عليه بالقرب من قرية ريمة حازم التي تبعد حوالي ٧ كم جنوب مدينة السويداء في سورية. و يشير النقش المكون من خمسة أسطر الى قيام الخليفة هشام بن عبد الملك بعمارة بركة في ذلك الموقع (٢٧).

إن هذا الاكتشاف الأثري يتفق تماماً مع رواية المسعودي بخصوص الاصلاحات التي تمت على يدي الخليفة هشام، كما يجدر بنا الاشارة للنص التذكاري الذي عثر عليه في بركة

٢٤. Moshe Sharon, "Notes and Communications: An Arabic Inscription from the time of the Caliph "Abdel - Malik", BSOAS, Vol. XXIX, (1966) pp. 366 - 372.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Sharon, Notes.

٢٥. الأزرقي، أخبار مكة، ج ٢، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

٢٦. للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر: Saad A. Al-Rashid, Darb Zubaydah: The Pilgrim Road from Kufa to Mecca, Riyadh University Libraries, 1980.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Darb Zubaydah.

٢٧. Abdul Kader Rihaoui, "Decon Verte Deux Inscription Arabes" Annales Archeologique Du Syrie, Vols. 11 - 1961- 62, pp. 207 - 211 and Figs . 207 - 211 and Figs . 1 - 2.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Rihaoui, "Décou Verte Deux".

الموقر والذي يشير الى قيام الخليفة يزيد بن عبد الملك ببناء تلك البركة (٢٨).

إن هذه المعلومات التاريخية والأثرية التي ذكرناها تقودنا إلى الربط بينها و بين المكتشفات الأثرية في منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية.

فقد أثمرت النتائج الأولى لمشروع المسح الأثري الشامل للمملكة العربية السعودية في تسجيل عشرات المواقع الأثرية الواقعة على مسار الطرق التجارية القديمة وطرق الحج الواصلة بين بلاد الشام ومنطقة الحجاز بالاضافة الى الطرق الرئيسية والفرعية التي تربط مصر وشمال افريقيا بالمنطقة نفسها. وقد لاحظنا في كثير من هذه المواقع دلائل الترابط الحضاري بين فترة ما قبل الاسلام وعصر صدر الاسلام والفترة الأموية وما بعدها و يتضح ذلك في البقايا الفخارية التي تثبت الصلات بين الأردن بوجه خاص والمنطقة المعنية. ومن المواقع الأثرية الهامة: موقع ميناء الجار الواقع الى الجنوب من ينبع البحر والذي وصف بأنه ميناء المدينة المنورة، و يشتمل الموقع على مجموعات من التلول الأثرية التي تظهر فيها أسس المباني كما عثر على بعض الأعمدة المرجانية أسطوانية الشكل ذات قواعد مربعة، و يفهم من الدراسات المبدئية بأن الميناء كان معاصراً للفترة الرومانية حيث عثر على بعض قطع العملة التي يعود تاريخها الى الفترة بين ٣٥٠ ـ ٣٥٥م.

وعلى الرغم من العثور على فخار من العصر الهلنستي إلا أن الغالبية العظمى من الفخار والخزف تعود إلى عصور اسلامية مختلفة تبدأ من الفترة الأموية وما قبلها وحتى العصر العثماني، وعلى أي حال فان المصادر التاريخية والجغرافية تؤكد أن ميناء الجار كان عامراً منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد ورد ذكر هذا الميناء لدى ابن سعد والطبري واليعقوبي وعرام والمقدسي والاصطخري وابن حوقل و ياقوت وغيرهم (٢٩).

ومن المواقع الأثرية الأخرى ذات الأهمية الكبيرة الموقع الأثري الذي يعتقد أنه ميناء

٢٨. L.A. Mayer, "Notes on the Inscriptions from al- Muwaqqar", The Quarterly of Department of Antiquities in Palestine, Vol. XII, Nos. 3 - 4, 1964. pp. 73 - 74.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Mayer, Notes

٢٩. حول هذا الموضوع انظر. حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، الرياض، ١٣٩٠/ ١٩٧٠. ص ١٦٧ ـ ٢١٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حمد الجاسر، في شمال الجزيرة؛ عبد القدوس الأنصاري، «رحلتان من مدينة جدة إلى أطلال الجار، ميناء المدنية القديم»، المنهل، السنة، ٠٣٧ المجلد ٠٣٢ ١٣٩١/ ١٩٧١م. ج ٥ عدد خاص. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: رحلتان من مدينة جدة؛ وأنظر أيضاً: عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز، مكة المكرمة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، جـ٢، ص ١٠٤ ـ ١٠٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: معجم الحجاز؛ وله أيضاً على طريق البحرة، مكة المكرمة، ١٩٣٨، ص ٢٠٩ ـ ٢١٣، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: على طريق البحرة؛ وانظر أيضاً: الأطلال حولية الآثار العربية السعودية، عدد ٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، القسم العربي، ص ٤٦ ـ ٤٧، ص ٥٢ ـ ٥٣ من القسم الأجنبي. وانظر مخطط مدينة الجار (لوحة ٥٨) وكذلك اللوحات ٦٣أ، ٦٣ب، ٦٤أ.

الحوراء الذي يقع بالقرب من منطقة أم لج على ساحل البحر الأحمر، فعلى الرغم من أنه حتى الآن لا نجد معلومات وافية عن الموقع الا أنه من خلال مشاهداتنا اتضح لنا أنه موقع أثري كبير وقد غطت الرمال معظم أجزائه، ومع ذلك يمكن تمييز الأسس الجدارية المبنية بالحجارة الجيرية والطوب المحروق.

كما تنتشر على أجزاء الموقع كميات هائلة من الكسر الفخارية والخزفية والزجاجية، و يتراوح الزمن التاريخي لهذه الكسر من عصور نبطية ورومانية وأمو ية وعباسية، وكلها تعطي صورة مبدئية لحجم استمرارية الاستيطان عبر حقب طو يلة (٣٠).

ونجد على أجزاء من الطرق التجارية القديمة آثار معمارية ولقى أثرية تدل على استمرارية الاتصال الحضاري بين الشام والجزيرة العربية، ومن هذه المواقع آثار منطقة العيص الواقعة في المنتصف بين العلا و ينبع النخل، ومن آثار هذه المنطقة قلعة الفرع المبنية بالأحجار البازلتية المنحوتة.

ودلت الدراسات الأولية أن أساسات القلعة تعود الى الفترة الرومانية، أما جدرانها العالية فهي من فترات لاحقة، والقلعة مستطيلة الشكل تقريباً وترتفع جدرانها حوالي ٨ ـ ١٠ م، وهناك ساحة داخلية تساقطت في داخلها أكوام الحجارة من الأسقف والجدران، ودعمت جدران القلعة من الداخل بأكتاف نصف مربعة ولها فتحات طولية للدفاع، ومداخل مقوسة على شكل عقود نصف دائرية ذات طراز جيد، والقلعة لا شك كانت مكونة من أكثر من دور حيث لا زلنا نلاحظ بقايا السلالم و بقايا الأسقف المقببة ذات مداخل على شكل عقود على غرار ما نلاحظه في القصور الأموية المبكرة كالمشتى وقصير عمره وقصر الحير الشرقي، و يضاف الى ذلك قصر الأخيضر بالعراق.

والعقود الباقية التابعة للغرف المقببة مبنية بالطوب المحروق و يلاحظ بقايا فتحات لتصريف المياه أو جمعها عبر فتحات كانت مهيئة لادخال الأنابيب الفخارية فيها، وتنتشر الأسس الجدارية التابعة للمستوطنة التي كانت القلعة تحميها حول كافة المنطقة.

و يبدو أن أحجار القلعة والمباني الأخرى قد استخدمت في العصور المتأخرة لبناء منازل القرية الحديثة التي ما زالت عامرة بالزراعة خاصة النخيل والتي تعتمد على بعض الآبار القديمة.

والملاحظ أن القلعة سابقة للفترة الاسلامية، غير أنها تعرضت لكثافة من الاستيطان في العصور الاسلامية المبكرة، و يلاحظ أيضاً أن اللقى الفخارية قليلة وما عثر عليه حتى الآن هو كسر فخارية وأجزاء من أوان تشابه في صفاتها الفخار النبطي والروماني والأموي

٣٠. أنظر بعض المعلومات المختصرة عن الحوراء في: الأطلال، ج ٥ ص ٧٣، «القسم العربي» و ص ٧٨ «القسم الأجنبي».

المبكر (٣١).

وعلى أي حال فان هذه القلعة تحتاج الى دراسة علمية مكثفة حتى نصل الى معلومات متكاملة نستطيع أن نربط من خلالها العصور التاريخية السابقة للاسلام مع بداية العصر الاسلامي، وخاصة أن منطقة العيص وساحل البحر الأحمر من أول المناطق التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته مباشرة لاعتراض قوافل قريش القادمة من الشام (٣٢).

وهناك من الدلائل الأثرية الأخرى ما يؤيد أهمية هذا الطريق التجاري القديم، فهو محصور بين سلسلة جبال الحجاز الشمالية و يمر عبر أودية مشهورة بالمنطقة من أهمها وادي العيص ووادي الحمض وتوجد على مسافات متباعدة أطلال لقلاع وأبراج للمراقبة ومحطات و برك لتجميع المياه، ومن أهمها الموقع الأثري في شعيب النورة الواقع الى الشمال من بلدة العيص بحوالي ٣٥ كم. ونجد في هذا الموقع بركة مربعة الشكل ومساحتها حوالي ٣٥ × ٣٥ متراً يتوسطها عمود دائري الشكل ربما استخدم لقياس كمية المياه داخل البركة، على غرار بعض برك المياه في بلاد الشام.

وننتقل من منطقة الحجاز إلى الجزء الشمالي للجزيرة العربية حيث نأخذ منطقة الجوف وقريات الملح كمثال واقعي على مدى الارتباط الحضاري بين الجزيرة و بلاد الشام.

فقد اشتهرت دومة الجندل بأنها من المدن العربية القديمة وكانت من الأسواق العربية المهمة قبل الاسلام ودخلها الاسلام على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ هـ/٦٣٣م (٣٣) بعد نقض ملكها الأكيدر بن عبد الملك للمعاهدة التي تمت بينه و بين الرسول صلى الله عليه وسلم في سنة ٩ هـ/ ٦٣٠م وما زالت آثار مدينة دومة الجندل وحصنها المشهور «بحصن مارد» قائمة حتى الآن، وعلى الرغم من أن الدراسات الأثرية في المنطقة ما زالت في مرحلة الكشف والتحري فان آثار المنطقة الباقية تشير إلى استمرارية الاستيطان الحضاري من الألف الأول

٣١. ستجد اشارة مختصرة عن هذه القلعة في: الأطلال، ج ٥ ص ٧٠ ـ ٧١ «القسم العربي» وص ٧٦ «القسم الأجنبي» ولوحة رقم ٩٤ أ.

٣٢. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـ/ ٩٢٥م). السيرة النبو ية، ٢م تحقيق. مصطفى السقا وآخرون. ط٢، القاهرة، ١٣٧٥/ ١٩٥٥م. م ١، ص ٥٩٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة.

٣٣. ابن سعد، أبو عبد الله محمد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) الطبقات الكبرى، ٨ح، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، جـ٢، ص ١٦٦ ـ ١٦٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد. الطبقات؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) كتاب المغازي، جـ٣، ص ١٠٢٥ ـ ١٠٣٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، المغازي.

قبل الميلاد وحتى العصور الاسلامية المتأخرة (٣٤). فبالاضافة إلى آثار دومة الجندل توجد مواقع أثرية أخرى في المنطقة نفسها من أهمها موقع الطوير القريب من سكاكة والذي تدل الكسر الفخارية المنتشرة على سطحه على وجود كثافة استيطان في المنطقة حتى القرن الأول الهجري.

واذا ما اجتزنا منخفض وادي السرحان من منطقة الجوف باتجاه الأردن فاننا نلاحظ الترابط الحضاري بين شمال الجزيرة العربية و بلاد الشام. فعلى سبيل المثال نجد مواقع أثرية كثيرة في الجزء الشمالي من وادي السرحان وهي منطقة قريات الملح، ومن هذه المواقع: —

كاف، منوا، القرقر، أثرا، البنك وحديثه (٣٥). وعلى ضوء الاستطلاعات الأثرية التي تمت حتى الآن فقد اتضح وجود مراحل استيطان حضارية واضحة تمتد من الألف الأول ق.م وحتى العصور الاسلامية المتأخرة. هذا مع العلم أن هناك دلائل أثرية أخرى تؤكد وجود مراحل استيطان موغلة في القدم ليس من اختصاصنا الخوض فيها، و يعتقد بناء على الكسر الفخارية والآثار العمارية بوجود فترات حضارية تعاصر الاطار الزمني لملكة الأنباط والعصر الغساني الذي لازم الوجود البيزنطي حتى ظهور الاسلام (٣٦).

وعلى الرغم من تأخر الحفريات الأثرية في هذه المنطقة إلا أن الفترة الاسلامية وخاصة في العصر الأموي تبدو واضحة في ذلك بناء على الآثار المعمارية والنقوش الخطية، فمنطقة الجوف كان لها أهمية خاصة من حيث موقعها الجغرافي ومكانها الاقتصادي، فهي واحة غنية بمياهها العذبة التي تستنبط بواسطة الآبار والقنوات و يتوفر فيها الانتاج الزراعي ومن أهمه التمور والحبوب، وصلة المنطقة بالعراق و بلاد الشام لا توجد أمامها عوائق طبيعية، ولذلك نجد أن هذه المنطقة دخلها الاسلام وأصبحت قاعدة مهمة قبل مرحلة الفتوحات الاسلامية الكبرى بوقت قصير.

والآثار الخطية المكتشفة بالمنطقة تؤكد على وجود كثافة استيطان في عصر صدر الاسلام والفترة الأموية على وجه الخصوص، والنقوش الخطية التي شوهدت في منطقة الجوف وقريات الملح لاحظنا أنها تنتشر على واجهات الصخور أو منقوشة أحياناً على مبان من عهود سابقة للقرن الأول الهجري، ومن أهم المواقع التي تنتشر عليها عشرات من النقوش

٣٤. الأطلال، عدد ١، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ٤٣ — ٤٥، الأطلال، عدد ٢، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ٤٩ — ٥٠.
وانظر:
F.V. Winnett and W.L. Reed.
Ancient Records from North Arabia, University of Toronto, 1970, pp. 7 - 19.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:
Winnet, Ancient Records.
Winnet, Ibid, pp. 56 - 64.

٣٥.

٣٦. انظر: الأطلال، عدد ١ (١٣٩٧/ ١٩٧٧م)، ص ٤١ — ٤٢ «القسم العربي».

الخطية المبكرة هو جبل النيصة بالقرب من دومة الجندل، ومن بين هذه النقوش نقش واحد مؤرخ في سنة ١٢١هـ، وهذا التاريخ يدخل في فترة حكم الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥هـ/ ٧٢٤ — ٧٤٣م).

ان ظاهرة هذه النقوش وصيغها وتعبيراتها توحي بأهمية منطقة الجوف في ذلك العصر، و يوجد على بوابة قصر اثرا (المسمى بقصر محمد السلطان) نقش كوفي من الفترة الأموية ولكنه غير مؤرخ ولا يوحي بأنه حجر تأسيس اذ أن القصر نفسه مصمم على غرار العمارة النبطية والقصور العربية السابقة للاسلام، ومن المواقع الأخرى التي عثر فيها على نقوش خطية (من القرنين الأول والثاني للهجرة) منطقة خيبر التي اشتهرت بانتاجها من التمور منذ عصر صدر الاسلام وذلك نتيجة لكثرة العيون فيها وخصوبة تربتها، فقد عثر على عشرات من النقوش الخطية على الواجهات الصخرية وجميعها غير مؤرخة عدا نقش واحد باسم سليمان بن أسعد مؤرخ في رجب سنة ١٢٨هـ، وهذا التاريخ يقع في فترة حكم آخر خليفة للأسرة الأموية وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٧ — ١٣٢هـ/ ٧٤٤ — ٧٥٠م).

والأمثلة كثيرة جداً على أنواع النقوش الخطية المنتشرة في منطقة الحجاز وشمال الجزيرة العربية، ولا يخلو موقع اسلامي في الجزيرة العربية من انتشار الكتابات الاسلامية حوله، كما أن طرق الحج والتجارة تنتشر على أطرافها الكتابات الاسلامية التي يعود تاريخها من العصر الاسلامي المبكر وحتى العصور الاسلامية المتأخرة. فمن الاكتشافات الحديثة ما عثر عليه الباحث علي ابراهيم حامد (الذي يدرس في جامعة اكس بروفانس) (٣٧) من كتابات ونقوش اسلامية على طريقي الحج الشامي والمصري. ومن أهم هذه الكتابات نقش مؤرخ عثر عليه بالقرب من تبوك. والنقش مكون من ستة أسطر و يقرأ على النحو التالي: —

(اللهم اغفر لمخلد بن أبي مخلد
مولى علي وتقبل منه حجتــه
آمين رب العالمين وكتــب
في ذي القعدة من سنة إحدى
وسبعين رحم الله من قــرأ
هذا الكتب وقال آميــن)

وهناك مجموعات من النقوش غير مؤرخة ولكنها تحوي أسماء من التابعين من الذين

٣٧. يتركز بحث السيد علي ابراهيم حامد في دراسة المواقع الأثرية المنتشرة على طريق الحج الشامي والمصري من خلال الفخار، وقد جاءت الدراسات الميدانية التي قام بها على هذين الطريقين بكثير من الحقائق العلمية الجديدة فيما يتعلق بالتسلسل الحضاري، وتحديد المسار التاريخي لنشوء المحطات على طريق الحج، وفي حالة ظهور هذه الدراسات فانها لا شك ستثري معرفتنا عن هذه المنطقة وصلتها ببلاد الشام ومصر وشمال افريقيا.

توفوا في النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

ان جمع هذه النقوش ودراستها ستكون مكملة للنقوش التي اكتشفت في أنحاء متفرقة من سورية وفلسطين والأردن.

وقبل أن نختتم هذا البحث المختصر يجدر بنا أن نعرج على حفائر الربذة (٣٨) التي أمدتنا بمعلومات تاريخية وحضارية عن عصر صدر الاسلام والفترة الأموية وجزء من العصر العباسي، فالربذة نشأت كمدينة عربية اسلامية في وسط حمى الربذة الواقع الى الشرق من المدينة المنورة. وزاد من أهمية هذه المدينة أن طريق الكوفة ـ مكة المكرمة يمر عليها بالاضافة الى وجود شبكة من الطرق الداخلية التي تربط الربذة مع المدينة المنورة ووسط الجزيرة، وأصبحت الربذة من أحسن المنازل الواقعة عليها.

واستقطبت الربذة شخصيات اسلامية من الصحابة والتابعين والعلماء طوال فترة وجودها، ومن أبرز هذه الشخصيات أبو ذر الغفاري الذي مات فيها سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م.

وازدهرت الربذة في القرون الثلاثة الأولى للهجرة حتى خربت على يد القرامطة في سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م (٣٩).

وجاءت التنقيبات الأثرية في الموقع (٤٠) بمعلومات كثيرة عن العمارة الاسلامية والاكتشافات الأثرية الأخرى. فقصور الربذة ومنازلها تميزت بأسوارها السميكة المدعمة بأبراج دائرية ونصف دائرية وهي في ذلك مشابهة للطابع المعماري الذي عرف في بلاد الشام في العصور الأولى للاسلام، و يؤكد الفخار الأموي المكتشف في الموقع أن الربذة كانت عامرة خلال القرن الأول والثاني للهجرة وازدادت عمارتها وسعتها بعد انتقال حاضرة الدولة الاسلامية من دمشق الى بغداد.

وقد طور سكان الربذة نظاماً هندسياً في جمع المياه العذبة للشرب، فبالاضافة الى البرك الضخمة المخصصة لتجميع مياه السيول والآبار المحفورة على أعماق بعيدة للوصول إلى المياه المخزونة في باطن الأرض، نجدهم يصممون مستودعات مبنية باتقان داخل الغرف السكنية في القصور والمساكن المحصنة، وتحفر هذه المستودعات في الطبقة الصخرية وتبنى

---

٣٨. عن تحقيق موقع الربذة أنظر:
Saad, A. Al-Rashid, "Lights on the histroy and archaeology of Rabadhah" Proceedings of the seminar for Arabian studies, Vol. 9, 1979, pp. 88-101.
سيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا Saad Al-Rashid, Light on the history.

٣٩. السمهوري، وفاء الوفاء، جـ٣، ص ١٠٩١؛ ياقوت، معجم، جـ٣، ص ٢٤ ـ ٢٥.

٤٠. تم الانتهاء هذا العام (١٩٨٥م) من الموسم السابع ـ وكان الموسم الأول قد بدأ في ٧ جمادى الثانية ١٣٩٩هـ/ مايو ١٩٧٩م.

بالحجارة وتغطى جدرانها وأرضياتها بطبقة جصية قو ية وناعمة في الوقت نفسه، وتغطى أسقف المستودعات بجدائل حجرية بحيث تتساوى مع أرضيات الغرف ولا يبرز منها الا الفتحة الخاصة بغرف المياه والتنظيف، وزودت هذه المستودعات بأنابيب حجرية لنقل المياه إما من أسطح المنازل عند سقوط الأمطار الغزيرة أو بواسطة قنوات متصلة بالآبار الكثيرة التي كانت تنتشر في المنطقة. لقد عثرنا على عشرات من المستودعات المائية المبنية تحت الأرض وهي تعود الى مراحل سكنية مبكرة ومتأخرة، وهذا النظام الهندسي لم نشاهد له مثيلا في المواقع الاسلامية التي حفرت حتى الآن. كما كشفت لنا حفائر الربذة عن عينات فخارية توضح التسلسل الحضاري في المنطقة منذ بداية القرن الأول للهجرة وحتى القرن الرابع الهجري، و يضاف الى ذلك أنواع كثيرة من الصناعات الزجاجية والحلي وأدوات معدنية وخشبية وأصناف من الحجر الصابوني المصنوع محلياً. كما أمدتنا الحفائر الأثرية في الربذة بأنواع من الكتابات الاسلامية وهي اما شواهد قبور أو بقايا نصوص كتبت على العظم أو نقشت على بعض الكسر الفخارية والخزفية، ولعل من الاكتشافات الأخرى الهامة العثور على قطع العملة من دنانير ودراهم وفلوس نحاسية بعضها أموي والأخرى عباسية مبكرة (٤١).

ولقد اتضح لنا حتى الآن بأن الربذة لم تسكن بعد تخريبها، ولذلك فان دراسة المكتشفات الأثرية المختلفة ستعطينا صورة واضحة للمدينة العربية الاسلامية في الجزيرة العربية في العصور الاسلامية المبكرة من حيث تخطيط المدينة العربية وهندستها المعمارية وطبيعة الحياة فيها وفعاليات السكان المختلفة في مجال العلوم والصناعة والتجارة وغيرها.

وكما هو معروف تاريخياً فان القبائل العربية هاجرت الى أقاليم كثيرة من الدولة الاسلامية، ولا شك أن الجماعات المهاجرة، من الربذة بعد تخريبها حملت معها تجاربها وتقاليدها الى المناطق التي هاجرت اليها.

---

٤١. للمزيد من المعلومات انظر الكتاب الذي سيصدر حديثاً بعنوان: الربذة: صورة للحضارة العربية الاسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية. والكتاب من تأليف كاتب هذا المقال وتصدره جامعة الملك سعود.

فتوح الشام في الشعر العربي

عادل أبو عمشه
كلية الآداب ــ جامعة النجاح

كانت هجرة الرسول «ص» من مكة إلى المدينة من أهم الأحداث في حياة المسلمين، إذ أصبح الإسلام ديناً ودولة، وكان صلح الحديبية الذي عقدهُ الرسول «ص» مع قريش في السنة السادسة للهجرة ذا أثر كبير في حياة المسلمين على الرغم من أن بعض الصحابة قد أنكره عليه(١)، ولكنه استطاع بمقتضاه أن ينتزع من مكة أول اعتراف بزعامته، واستغل هذه الهدنة حتى ينشر دعوته بين القبائل، و يبلّغ رسالته إلى ملوك الدول المجاورة، فبعث في نفس السنة التي تم فيها صلح الحديبية رسلاً من أصحابه إلى الملوك، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل «شجاع بن وهب الأسدي» إلى الحارث بن أبي شمر، وبعث «دحية بن خليفة الكبي» إلى قيصر ملك الروم(٢)، ولكن الحارث قتل شجاع بن وهب، وهدد بالمسير إلى قتال المسلمين(٣).

ولم تبد امبراطورية الروم اهتماماً بالدعوة التي وصلتها من داخل الجزيرة، ولم تدرك ما انطوت عليه من عقيدة جديدة، كما لم يخطر على بالها أن جزيرة العرب سوف

---

١. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) السيرة النبوية ٤ج، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط ٢، ج ٢، ص ٣١٦ يشار إليه فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة.

٢. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦١م، ج ٣، ص ٦٤٤، سيشار اليه فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ؛ ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٦٠٧؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) تاريخ ابن خلدون، ٧ج، بيروت، دار البيان، بيروت، المجلد الثاني، ص ٣٦، سيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن خلدون، تاريخ؛ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) المعارف: صححه وعلق عليه وراجعه محمد اسماعيل عبد الله الصاوي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٠م، ص ٧٢، سيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، المعارف. حيث ذكر أن الرسول (ص) أرسل رسله في العام العاشر.

٣. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ١٢ج، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ٢١٣، سيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه فارس وآخرين، مكتبة السروجي، عكا، ط ٦، ص ٥٩. سيشار اليه فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ.

تصبح بفضل تلك العقيدة وحدةً واحدة لها خطرها ونفوذها، فأدى النبي «ص» رسالته وهي في غفلة، فكانت العقيدة الإسلامية بما فيها من حض على الجهاد وتبليغ الدعوة إلى الناس كافة، هي النور الذي أضاء للجيوش الإسلامية سبيلها (٤).

وهكذا أنفذ النبي «ص» إلى تخوم الشام في السنة الثامنة للهجرة جيشاً يتألف من ثلاثة آلاف، وقد استعمل عليهم مولاه زيد بن حارثة، وقال: إن اصيب زيد فجعفر ابن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة (٥).

ومما يلفت النظر في هذه الغزوة أن الشعر واكبها منذ لحظة انطلاقها من المدينة، ووصف الشعراء الذين رافقوها مشاعر جنود المسلمين الذين اتجهوا صوب الروم، فعبّر عبد الله بن رواحة عن شدة حماسه للقاء الروم ورغبته في الشهادة، حتى إنه تمنى أن يصاب بطعنة تجهز عليه، لينال الشهادة، وذلك عندما ودّع المسلمون الجيش، ودعوا له بالعودة، فقال (٦):

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فرغ تقذفُ الزبدا
أو طعنةً بيديْ حرّانَ مجهزةً ... بحربةٍ تنفذُ الأحشاءَ والكبدا
حتى يقالَ إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غازٍ وقد رَشَدا

ثم مضى جيش المسلمين حتى نزل معان، فبلغهم أن هرقل قد نزل مؤاب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، انضم اليهم مثلهم من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء، يقودهم رجل من بلي يدعى مالك بن زافلة، وهذا الحشد الكثيف من الروم والعرب يعني أنهم قد عرفوا باستعداد المسلمين لغزوهم، وبالتالي فوجيء المسلمون، فأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، واجتمع أمرهم على أن يكتبوا إلى رسول الله «ص» حتى يرى رأيه (٧)، ولكن عبد الله بن رواحة رأى أن كثرة العدو لن تغني عنه

٤. الدكتور ابراهيم العدوي، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، ط ٢، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٤٢، ٤٣. سيشار إليه فيما بعد هكذا: العدوي، الدولة الاسلامية.

٥. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٧٣؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٦.

٦. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٧٤؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٧.

شيئاً، وعدّ الانتظار نكوصاً عن طلب الشهادة، وأقسم على المسلمين أن يتجهوا إلى مؤآب، حيث نزل الروم، وقد وصف ذلك بقوله (٨):

أقامت ليلتين على معان ... وأعقب بعد فترتها جمومُ
فرحنا والجيادُ مسوّمات ... تنفّس في مناخرها السمومُ
فلا وأبي مآبَ لنأتينها ... وإن كانت بها عرب ورومُ

ولم يكن حماس جعفر لقتال الروم وطمعه بالشهادة بأقلَّ من حماس صاحبه، لأنه كان يرى أن محاربة الروم الكفرة واجب على المسلمين، وبالتالي فهو وسيلته إلى الجنة، وقد عبّر جعفر عن موقفه، فقال (٩):

يا حبذا الجنةُ واقترابُها ... طيبةً وباردا شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها ... كافرة بعيدة أنسابُها
عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

وكان من نتيجة ذلك أن استشهد زيد وجعفر، فتسلم عبد الله بن رواحة القيادة، وقد بدأت كفة النصر تميل إلى صالح الروم، فبدأ القائد الثالث يفكر فيما يصنعه ولكن جو المعركة فرض عليه الاستمرار على نهج صاحبيه، خصوصاً وأنه هو الذي أشار على المسلمين بعدم الانتظار حتى يأتيهم أمر الرسول «ص»، فدخل ميدان المعركة وهو يرتجز (١٠):

يا نفسُ إلا تُقتَلي تموتي ... هذا حمامُ الموتِ قد صليت
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ ... إن تفعلي فعلهما هديت

٧. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٧٥؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٧؛ ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق، جـ١، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥١م، جـ١، ص ٣٩٢. سيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ دمشق.

٨. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٧٥ — ٣٧٦.

٩. المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٨.

١٠. المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٩.

وهكذا استشهد القائد الثالث، فاصطلح المسلمون على خالد بن الوليد الذي دافع الروم، حتى انصرف بالناس عائداً بهم، فحمّل أهل المدينة جيش مؤتة مسئولية الهزيمة، وقد عبّروا عن رأيهم هذا بالاستقبال غير الودي الذي استقبلوه للجيش عند عودته، يقول ابن هشام: «وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، و يقولون: يا فرار؛ فررتم في سبيل الله» (١١)، واستمروا في تعييرهم لهم حتى أقعدوهم في بيوتهم لا يستطيعون خروجاً، وجعلوهم يشعرون بالندم؛ ويحملون أنفسهم مسئولية الفشل، مما جعل بعضهم يعد انحياز خالد بن الوليد بهم من أرض المعركة هروباً من الموت، حتى أن قيس بن المُسَحَّرِ اليعمري أحد جنود مؤتة اعتذر عما صنعه قائلاً (١٢):

فوالله لا تنفكُّ نفسي تلومني   على موقفي والخيلُ قابعةٌ قُبْلُ (١٣)
وقفتُ بها لا مستحيزاً فنافذاً   ولا مانعاً من كان حُمَّ له القتل (١٤)
على أنني آسيت نفسي بخالدٍ   ألا خالد في القوم ليس له مثلُ

وإذا كان قيس قد اعتذر عما أصاب الجيش، وتحمّل مع أصحابه المسئولية، فإن شاعراً آخر ممن شاركوا في مؤتة عدّ رجوعه إلى المدينة سالماً دون قادة الجيش بلوى لا تحتمل، فقال (١٥):

كفى حَزَناً أني رجعتُ وجعفرٌ   وزيد وعبد الله في رَمْس أقْبُر
قضوْا نحبهم لما مضوْا لسبيلهم   وخُلِّفْتُ للبلوى مع المُتَغَيِّرِ (١٦)

على أن الهزيمة لا تعني أنهم استسلموا لعدوهم دون قتال، بل إننا نجد شاعراً

١١. المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٢ — ٣٨٣؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٢.

١٢. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٨٣.

١٣. قابعة: منقبضة، قبل: جمع أقبل وقبلاء، وهو الذي يمثل عينة في النظر الى جهة العين الأخرى.

١٤. مستحيزاً: أي منحازاً إلى ناحية.

١٥. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٨٨.

١٦. المتغيّر: الباقي.

مثل قُطْبة بن قتادة العذري الذي كان على ميمنة المسلمين في مؤتة يذكر في شعر له أنه قتل قائد عرب الشام في مؤتة، حيث قال (١٧):

طعنتُ ابن زافلةَ بنِ الأرا   شي برمحٍ مضى فيه ثم انحطمْ
ضربتُ على جيده ضربةً   فمال كما مال غصنُ السَّلمْ

وكان وقع هزيمة مؤتة سيئاً على نفوس المسلمين إلى درجة أنهم لم يفطنوا إلى الأسباب الحقيقية، فلم يخطر على بالهم أن العدد الضخم الذي حشده الروم وعرب الشام كان له تأثير على نتيجة المعركة، إلى جانب أنهم حاربوا عدوهم فوق أرضه، هذا إلى أن القبائل العربية التي كانت تقيم على تخوم الشام أنهكت جيش المسلمين قبل بدء المعركة، وأصروا على أن فرار جيش مؤتة كان السببَ المباشر في وقوع الهزيمة، فهذا حسان بن ثابت يسمي غزوة مؤتة «وقعة التغوير» إي الإسراع إلى الفرار، على الرغم من أن تسعة أسياف قد انقطعت في يدي خالد في مؤتة (١٨)، يقول حسان (١٩):

عينُ؛ جودي بدمعك المنزورِ   واذكري في الرخاءِ أهلَ القبورِ
واذكري مؤتةً وما كان فيها   يومَ ولَّوْا في وقعة التغوير
قد أتانا من قتلهم ما أتانا   فبحزن نبيتُ غيرَ سرور

واستمر حسان يعير العائدين من مؤتة، و يبكتهم لعدم إصرارهم على الشهادة، كما فعل قادتهم الذين عدهم خيار المسلمين، ولو أنهم تمثّلوا بقادتهم لما تأخروا عنهم، يقول حسان (٢٠):

رأيت خيارَ المسلمين تتابعوا   بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيد وعبد الله حين تتابعوا   جميعاً وأسباب المنية تخطرُ
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم   إلى الموت ميمونُ النقيبة أزهر

١٧. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٨١.

١٨. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٦٧.

١٩. حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق، الدكتور وليد عرفات، بيروت، ١٩٧٤م، ج ١، ص ٢٩٥. سيشار إليه فيما بعد هكذا: حسان، ديوان.

٢٠. المصدر السابق، ج ١، ص ٩٨.

وهذا كعب بن مالك الأنصاري الذي اشتد وجده على مقتل القادة الثلاثة، بعد أن عرف بأنهم عاهدوا الله على القتال حتى الشهادة، وبذلك عصموا أنفسهم عن الفرار، ومما ضاعف حزنه عليهم أن إخوانهم الذين عادوا من مؤتة تركوا جثثهم في العراء دون أن يواروهم الثرى، يقول (٢١) :

وكأنما بين الجوانح والحشا ... مما تأوبني شهابٌ مُدْخَلُ
وجْداً على النفر الذين تتابعوا ... ومن بمؤتةَ أُسْنِدوا لم يُنْقَلوا
صبروا بمؤتة للإلهِ نفوسَهم ... حذر الردى ومخافةً أن يَنْكُلوا

وعلى الرغم من الجراح العميقة التي خلّفتها غزوة مؤتة في نفوس المسلمين، فإن **آثارها كانت** بعيدة المدى، إذ جعلت المسلمين يتطلعون إلى ما وراء الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وظل الأمر على ما هو عليه حتى فتح المسلمون مكة، وأصبحوا بذلك

القوة المسيطرة داخل الجزيرة، مما شجع بعض العرب المقيمين في أطراف الشام على الدخول في الإسلام، فقد بعث فروة بن عمرو الجذامي والي الروم على معان إلى الرسول «ص» بإسلامه، فلما علم الروم بأمره أجمعوا على طلبه، فقال (٢٢) :

بلّغ سراةَ المسلمين بأنني ... سَلْمٌ لربي أعظُمي وبناني

هذا إلى أن بني عبد الدار كانوا قد ساروا من الشام إلى المدينة، وفيهم تميم بن أوس الداري (٢٣).

لهذه الأسباب ولغيرها عزم هرقل الروم ومن عنده من متنصرة العرب مثل عاملة

٢١. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٨٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤٠١ — ٤٠٢.

٢٢. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥٩٢، ابن الأثير، عز الدين أبو الحسين علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ج، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٧٧هـ، ج ٣، ص ٢٨٩ — ٢٩٠. سيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الأثير، أسد الغابة.

٢٣. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٩٦؛ ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٣٥٤.

ولخم وجذام (٢٤) أن يجمعوا الجيوش لحرب المسلمين، فأمر الرسول «ص» بالتوجه إلى جلاد بني الأصفر، وسار حتى بلغ تبوك، فبعث منها علقمة بن مُجَزِّز إلى فلسطين وبعث خالد بن الوليد إلى دومة، وأثناء مكوثه في تبوك حضرت إليه وفود أذرح وجرباء وأيلة، فصالحهم على الجزية (٢٥)، ثم رجع خالد ومعه أكيدر ملك دومة، فصالحه الرسول «ص» على الجزية، وقد أشار إلى ذلك شاعر من طيء، حيث قال (٢٦) :

فمن يك حائداً عن ذي تبوكٍ ... فإنّا قد أُمرنا بالجهادِ

وأقام الرسول في تبوك لم يجاوزها، ولم يقدم عليه الروم والعرب المتنصرة، وبعودته خاب أمل المخلّفين الذين كانوا يخوّفون المسلمين بقولهم: «أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنكم غداً مقرّنين في الحبال» (٢٧).

وعلى الرغم من المكاسب التي حققها المسلمون في هذه الغزوة دون قتال، إلا أن أنظارهم ظلت تتجه نحو الشام، فلما عاد الرسول «ص» من حجة الوداع ضرب بعثاً إلى الشام، وأمر قائده أسامة بن زيد أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم (٢٨)، ولكن مرض الرسول «ص» أخّر إنفاذ البعث، إلا أن أبا بكر عمل بوصية الرسول «ص» وأصرّ على إنفاذ بعث أسامة، وأمره أن يبدأ ببلاد قضاعة، فلما توسطها بث

٢٤. البلاذري، أبو العباس، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٧١، سيشار إليه فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٧٦ — ٢٧٧؛ ابن عساكر تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤١٣.

٢٥. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥٢٥ — ٥٢٦؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٠٨ — ١٠٩، البلاذري، فتوح، ص ١٨٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٨٠، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤٠٩.

٢٦. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥٢٦ — ٥٢٧؛ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، ٥ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥م، ج ٢، ص ١٥، سيشار إليه فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم البلدان.

٢٧. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥٢٤ — ٥٢٥.

٢٨. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٨٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣١٧؛ ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٦٠٦ — ٦٥١. والداروم قلعة تبعد فرسخاً عن ساحل البحر عند غزة.

خيوله فيها، وأمر من أقام منهم على الإسلام أن ينهضوا إلى من رجع عنه، ثم أغار على آبل الزيت التي كانت دار إقامة لجذام ولخم، ووصل إلى يبنى (٢٩)، وقد استطاع في هذه الغزوة أن ينتقم من القبائل التي أنزلت بالمسلمين الهزيمة في مؤتة، حتى أن السميط ابن النعمان اللخمي رأى أن انتصار أسامة على لخم وجذام لا يعدو كونه انتقاماً من القبائل العربية التي شاركت الروم في حربهم للمسلمين في مؤتة، حيث قال (٣٠) :

أما تنفكُّ من زيدٍ جذامٌ ولا لخمٌ وإن رُمّتْ عظامُه

وهكذا كان أسامةُ أول قائد مسلم تجرّأ على مهاجمة الروم، فكانت معركته معركة معنويات حاسمة حفظت على المسلمين هيبتهم داخل الجزيرة وخارجها، حتى قالت العرب: «لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفّوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه» (٣١).

هذا إلى أن إنفاذ أبي بكر لبعث أسامة يعد تنفيذاً للخطة التي وضعها الرسول «ص»، كما أن الغزوات التي شنها المسلمون على تخوم الشام تعد تمهيداً لفتح الشام.

ومما يلفت نظر الدارس لهذه الغزوات أن الشعر العربي الذي واكب المعارك التي خاضها الرسول «ص» ضد مشركي مكة، لم يواكب ما حدث في الغزوات التي بعثها الرسول «ص» إلى حدود الشام باستثناء غزوة مؤتة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن جيوش المسلمين لم تصطدم مع الروم في غزوة تبوك وبعث أسامة، علاوة على أن جيش المسلمين في هاتين الغزوتين لم يكن بين أفراده شعراء كما كان الأمر في مؤتة إلى

٢٩. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٢٣ — ٢٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٣٤ — ٣٣٥، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٨٥ — ٣٨٦، ٤٣٢ — ٤٣٣، ابراهيم العدوي، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٤٦ سيشار اليه فيما بعد هكذا: العدوي، الدولة الاسلامية. تقع يبنى بين يافا وعسقلان.

٣٠. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٤٣٣.

٣١. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٣٦؛ محمود شيت الخطاب، قادة فتح الشام ومصر، دار الفتح، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٥٠، سيشار اليه فيما بعد هكذا: محمود شيت خطاب، قادة، وأنظر عباس محمود العقاد، عبقرية الصديق، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ص ١١٥. سيشار اليه فيما بعد هكذا: عباس العقاد، عبقرية.

جانب انعدام وجود العصبية القبلية التي كان يثيرها شعراء مكة المشركون، والتي كانت تدفع شعراء المسلمين إلى الرد عليهم، فمثلاً لا نجد لغزوة تبوك أي صدى في الشعر، على الرغم من المكاسب التي حققها المسلمون في هذه الغزوة، ولم نجد في المصادر المختلفة التي تحدثت عنها سوى بيت واحد من الشعر افتخر فيه حسان بن ثابت بمشاركة الأنصار فيها، ضمن قصيدة عدّد فيها أيامهم، فقال (٣٢) :

ويومَ سار رسول الله محتسباً إلى تبوكَ وهم راياتُه الأُوَلُ

أنهت الجيوش التي أرسلها أبو بكر إلى المرتدين في مختلف أرجاء الجزيرة مهمتها بنجاح، وبسطت الخلافة سلطتها على سائر أنحاء الجزيرة، وكان المثنى بن حارثة قد استأذن أبا بكر أثناء الردة أن يغزو بالعراق فأذن له (٣٣)، ولما فرغ خالد بن الوليد من أمر اليمامة بعث اليه أبو بكر بالمسير إلى العراق (٣٤)، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة للهجرة، ولما اطمأن أبو بكر لسير الفتوح في العراق، أراد أن يغزو الروم، فشاور جماعة من الصحابة (٣٥)، ثم أمر خالد بن سعيد أن يكون ردءاً للمسلمين بتيماء، وأمره أن يدعو من حوله من العرب إلى الانضمام اليها وألا يبرحها إلا بأمره، وألا يقاتل إلا من قاتله، حتى صار جيشه عظيماً، فبلغ ذلك الروم فضربوا على العرب البعوث، فأرسل خالد بن سعيد إلى أبي بكر يخبره، **فأمده بمن** وصل إليه ممن استنفرهم للجهاد، فلما علم خالد بقدوم المُستنفرين أوغل حتى نزل مرج الصفر قرب دمشق، فكانت مغبة تصرفه وخيمة العواقب، وخرج هارباً حتى وصل إلى ذي المروة قرب المدينة (٣٧).

٣٢. ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥٥٥.

٣٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٨٤.

٣٤. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٤٣، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٨٥؛ ابن خلدون، تاريخ، ج ٢، ص ٧٨.

٣٥. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر تاريخ اليعقوبي، ٢ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ج ٢، ص ١٣٢ — ١٣٣. سيشار اليه فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ.

٣٦. الطبري، تاريخ، خ ٣، ص ٣٨٨ — ٣٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ٤٠٣؛ ابن خلدون، تاريخ، ج ٢، ص ٨٢.

٣٧. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٥؛ العدوى، الدولة الاسلامية، ص ٧٦.

ورأى أبو بكر أن يزيل آثار هذه الهزيمة، فاهتاج للشام وعناه أمره (٣٨)، فدعا يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص وعقد لهم الألوية، وأمر كلَّ واحد منهم أن يتوجه إلى المنطقة التي حددها له (٣٩). فلما بلغ هرقل ذلك، سيّر قوات عظيمة وقفت إزاء كل جيش من جيوش المسلمين، ليشغلهم عن نجدة بعضهم، فكان رأي عمرو بن العاص أن تجتمع الجيوش، وأن يستمدوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد ليلحق بهم (٤٠)، وأمره أن يأخذ معه نصف جند العراق.

وكان خالد في طريقه إلى العراق قد جمع إليه ثمانية آلاف من مضر وربيعة إلى ألفين ممن قاتلوا معه في حروب الردة، وكان المثنى قد خرج في ثمانية آلاف من قومه، وهذا يعني أن أكثر الجنود الذين شاركوا في فتح العراق بقيادة خالد بن الوليد والمثنى ابن حارثة كانوا من مضر وربيعة (٤١)، وأن أكثر قبائلهم كانت تقيم في نجد، ومعرفتنا لهذا الأمر تساعدنا على تفسير ظاهرة أدبية يلاحظها الدارس لشعر الفتوح، ونعني بذلك أن كثرة الشعر الذي تحدث عن فتح العراق والشام ينسب إلى شعراء ينتمون إلى مضر وربيعة، وقليل منهم من كان من أصل يمني، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الدارس لا يجد أثراً لشعر فيه وصف لفتح الشام قبل مجيء خالد بن الوليد إليها، وحتى الشعر الذي ينسب إلى جنود خالد لا يعدُّ شيئاً بالقياس إلى الشعر الذي تحدث عن فتح العراق لأسباب متعددة سنقف عندها فيما بعد.

وسنحاول في الصفحات التالية أن نرسم صورة لفتح الشام من خلال المعارك التي خاضها جيش الفتح معتمدين في ذلك على الانطباعات التي قدمها لنا الشعراء الذين شاركوا في هذا الفتح، منبهين إلى أن هذه الصورة لن تكون واضحة المعالم لقلة الشعر الذي استطعنا أن نجمعه من المصادر المختلفة.

ولما كنا قد ذكرنا أن الشعر لا وجود له بين جند الشام قبل مجيء خالد بن

٣٨. الطبري، تاريخ، ص ٣٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٣.

٣٩. البلاذري، فتوح، ص ١١٦؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٣.

٤٠. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩٣، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٦، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٣٣.

٤١. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٤٧ — ٣٤٨، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٧، ابن خلدون، تاريخ، ج ٢، ص ٧٩.

الوليد إليهم، لذلك فإننا سنبحث في مواكبته لفتوح الشام ابتداء من اللحظة التي تحرك فيها خالد بعد أن تلقى أمراً بأن يأتي جموع المسلمين في اليرموك.

دعا خالد أدلته، فارتحل من الحيرة متوجهاً الى دومة، ومنها إلى قراقر وهو ماء لكلب، ثم طلب من أدلته أن يدلّوه على طريق يخرج فيه من وراء جموع الروم، فلم يجبه أحد منهم إلا رافع بن عميرة الطائي على تهيب شديد، وبعد أن احتاط للماء سار بالجيش مفوّزاً من قراقر إلى «سوى» حيث تابع سيره طيلة خمسة أيام تنفس المسلمون بعدها الصعداء (٤٢)، مما دفع بعض الشعراء أن يعبروا عن إعجابهم برافع، وعدوا عمله هذا مغامرة جريئة لا يقدم عليها إلا مغامر وأشاروا إلى ما لاقاه رافع أثناء رحلته من عنت، من جراء إصابته بالرمد، وكان أبو أحيحة القرشي من الرجاز الذين خلّدوا مغامرة خالد ودليله رافع بمقطوعة شعرية قال فيها (٤٣):

لله عينا رافع أنّى اهتدى   في مهمه مشتبه نحو سوى
والعين منه قد تغشاها القذى   معصوبةً كأنها ملآى ثرى
فهو يرى بقلبه ما لا نرى   من الصوى تترى له إثر الصوى (٤٤)
أو النقا بعد النقا إذا سرى   وهو به خبّرنا وما دنا (٤٥)
وما رآه ليس بالقلب حسا   قلبٌ حفيظ وفؤاد قد وعى
فوّز من قراقرٍ الى سُوى   والسير زَعْزاعٌ فما فيه ونى (٤٦)
خمس إذا ما سارها الجيش بكى   في اليوم يومين رواحاً وَسُرى
ما سارها من قبل إنسي أرى   هذا لعمري رافعٌ هو الهدى

٤٢. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٠٨، ٤١٦، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٩.

٤٣. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٤٦٩ — ٤٧٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٩، الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤١٦؛ ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ٤ج في ٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ج ١، ص ١٤٢ سيشار الى هذا المصدر فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، عيون الأخبار؛ البلاذري، فتوح، ص ١١٨.

٤٤. الصوى، الأعلام من الحجارة، ومفردها: صوة.

٤٥. النقا: كثيب الرمل.

٤٦. زعزاع: شديد، وتزعزع: تحرك بشدة.

وأضاف الطبري أن خالد بن الوليد لما خرج من سوى أتى تدمر فصالحه أهلها، ثم أتى حوران فقاتل أهلها وهزمهم، وانتقل بعدها إلى مرج الصُفّر فأرسل سرية إلى غوطة دمشق، ثم خرج من المرج حتى نزل على قناة بصرى، فأغار على غسان في يوم فصحهم، وعليهم الحارث بن جبلة، فكانت بصرى أول مدينة في الشام، افتتحت على يد جند العراق(٤٧)، وقد أشار القعقاع بن عمرو في شعر له إلى فتح بصرى وإلى الانتصار الذي حققه خالد على بني غسان، فقال(٤٨):

بدأنا بجمع الصفّرين فلم ندعْ   لغسان أنفاً فوق تلك المناخرِ
صبيحةَ صاح الحارثان ومن به   سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمةٌ   فألقتْ إلينا بالحشا والمعاذرِ
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت   بنا العِيسُ في اليرموك جمع العشائر

وكان خالد بن سعيد من أكثر المتحمسين لمحاربة غسان في مرج الصفّر، انتقاماً للهزيمة التي لحقت بجيشه في بداية الفتح، علاوة على أن أبا بكر كان قد منعه من العودة إلى المدينة إلا اذا أبلى في حرب الروم فقال(٤٩):

مَن فارسٌ كرهَ الطعانَ يعيرُني   رمحاً إذا نزلوا بمرج الصفرِ

على أن انفراد جيش خالد بن الوليد في حربه للروم في مرج الصفر وفتحه بصرى دون مشاركة جيوش الفتح الأخرى، دفع أحد شعراء بني سُليْم إلى الافتخار بقبيلته ولوم القبائل التي تغيبت عنها حيث قال(٥٠):

٤٧. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٤٠٧، ٤١٠، ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص٤٠٩، اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٣٤.

٤٨. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٣٤.

٤٩. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٤٠٦، ٤٣٥ — ٤٣٦؛ البلاذري.، فتوح، ص١٢٥.

٥٠. البلاذري، فتوح، ص١٢٥، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الاصابة في تمييز الصحابة، ٨ج، تحقيق علي البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢، ج٥، ص٩٦، سيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن حجر العسقلاني، الأصابة.

شهدتْ قبائل مالكٍ وتغيبتْ   عنّي عميرةُ يومَ مرْجِ الصُفَّر

وعندما وصل خالد بن الوليد إلى الشام، وجد أن القادة الأربعة كانوا يقاتلون الروم متساندين «كل جيش على حدّة»، ووافقهم في اليرموك وهم متضايقون لكثرة المدد الذي أرسله هرقل بقيادة «باهان»، وكان الروم قد لزموا خنادقهم شهراً يحضضهم أثناءه الرهبان، قبل أن يخرجوا للقتال، وقد وصف الأسود بن قطبة انتظار المسلمين لجموع الروم وكثرة الكتائب التي جمعوها، فقال(٥٢):

أقمنا على اليرموكِ حتى تجمّعتْ   جلائبُ رومٍ في كتائبها العضلِ

وعندما رأى خالد حسن استعداد الروم اقترح على القادة أن يقاتلوا مجتمعين تحت قيادة واحدة، فبلغ عدد جيش المسلمين في اليرموك ستة وأربعين ألفاً، ولما لاحظ خالد أن جنود الروم أضعاف جنود المسلمين، نظم تعبية لم تعبها العرب من قبل، فقسم الجيش إلى كراديس، وجعل أبا عبيدة على القلب وعمرو بن العاص على الميمنة، و يزيد ابن أبي سفيان على الميسرة، وسلم قيادة بعض كراديس القلب للقعقاع بن عمرو وعكرمة ابن أبي جهل، وأمرهما أن ينشبا القتال(٥٣)، فارتجز القعقاع يحمس جنوده، و يرفع روحهم المعنوية قائلاً(٥٤):

يا ليتني القاكِ في الطرادِ   قبل اعترامِ الجحفلِ الورّادِ
وأنتِ في حلبتِكِ الورادِ

وتبعه عكرمة قائلاً(٥٥):

قد علمتْ بهكنةُ الجواري   أنّي على مكرمةٍ أُحامي

٥١. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٩٥.

٥٢. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج١، ص١٩٨.

٥٣. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٩٤ — ٣٩٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص٤١٠ — ٤١٢؛ البلاذري، فتوح، ص١٤٠ — ١٤٢.

٥٤. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٩٨.

٥٥. الطبري، المصدر نفسه.

ولما اشتدَّ القتالُ، وحمل الروم على المسلمين فأزالوهم عن مواقفهم، تتابع المسلمون على الموت، وكان الروم أثناء المعركة يرددون اسم هرقل، بينما كان المسلمون يدعون الله كي يمنّ عليهم بالنصر، وكانت جنود الروم تتيمن بباهان، كما كانت جنود المسلمين تتيمن بخالد (٥٦)، وقد عبّر عن ذلك أحد جنود خالد قائلاً (٥٧):

دعوا هرقلاً ودعونا الرحمنْ — والله قد أخزى جنود باهانْ
بخالدِ اللج أبي سليمانْ — ليس بوهواهٍ ولا بوان (٥٨)
لا نَزِقٌ ولا إرْنانْ

وكانت قبيلة الأزد قد أبلت في اليرموك بلاء حسناً بقيادة الطفيل بن عمرو الدوسي الذي كان قد أوصى جنده قبل مقتله ألا يؤتى المسلمون من قبلهم، فقال يفتخر بشجاعته (٥٩):

قد علمتْ دَوْسٌ و يشكرُ تعلمْ — أني أخو البيض ليوم مظلمْ
وأغْزِلُ الشكيمَ شدَّ الأيهم — كنت عزيزاً في الوغى وضيغم

وقد عبّر الأسود التميمي عن الأهوال التي عانى منها جنود المسلمين في اليرموك، إذ لولا صبرهم وشنهم الغارة بعد الغارة، ونجدة بعضهم بعضاً، لما استطاعوا أن يحرزوا النصر، ثم يضيف بأن اهتمام مقدمة المسلمين بالغنائم ضيّعتْ عليهم فرصة أسر قائد الروم، ويختتم الأسود أبياته محذراً هرقل من مغبة التعرض للمسلمين ثانية، لأن كتائبهم لن تسلم له بشيء، يقول (٦٠):

---

٥٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٠٠ — ٤٠١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٤٩.

٥٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٤٩، ج ٣، ص ٣٩٤.

٥٨. اللج — السيف، الوهواه: المنخوب الفؤاد، الأرنان: الاسترخاء والضعف.

٥٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٤٠؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٠٢.

٦٠. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥٢.

وكم قد أغرنا غارةً بعد غارة — و يوماً و يوماً قد كشفنا أهاولَه
ولولا رجالٌ كان حشوَ غنيمةٍ — لدى مأقِطٍ رجّت [...] أوائله
كفيناهم اليرموكَ لما تضايقت — بمن حلّ باليرموك منه حمائلُه
فلا يعدُ مَنْ منا هِرقلٌ كتائباً — إذا رامها رام الذي لا يحاولُه

وكان قباثُ بن أشيم أحد قادة الكراديس التي هاجم خالد بها الروم، قد قاتل قتالاً شديداً، فقال يفتخر بقوة بأسه وحسن رئاسته (٦١):

إن تفقدوني تفقدوا خير فارس — لدى الغمراتِ والرئيسَ المحاميا
وذا فَخَرٍ لا يملأ الهولُ قلبَهُ — ضروباً بفضلِ السيفِ أرْوعَ ماضيا

وكان القعقاع بن عمرو من فرسان المسلمين الذين كانت لهم مشاركة واضحة في اليرموك، حيث عهد له خالد بقيادة كردوس من كراديس القلب في اليرموك، ومن خلال موقعه وصف الهزيمة التي حلت بالروم، حيث هوى جنود الروم في الواقوصة على إحدى ضفتي اليرموك، وكان قسم كبير منهم مقرّنين بالسلاسل (٦٢)، وهكذا أتيح للقعقاع أن يعيش هذه اللحظات الحاسمة من حياة المسلمين في هذه المعركة، وأن يعبر عن ثقته بأن جند خالد الذين أحرزوا النصر في ميدان العراق سيكون النصر حليفهم في ميدان الشام. و يبدو أن شجاعة القعقاع التي ظهرت في اليرموك ليست حديثة عهد، فعندما استمد خالد أبا بكر وهو في طريقه إلى العراق أمده أبو بكر بالقعقاع، فقيل له:

«أتمد رجلاً قد أرفضّ عنه جنوده برجل! فقال: لا يُهزمُ جيش فيه مثل هذا» (٦٣)، فقال القعقاع يصف ما أصاب الروم في اليرموك (٦٤):

---

٦١. المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٢.

٦٢. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٤٦ — ٣٤٧.

٦٣. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٥٤ — ٣٥٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥١ — ٥٥٢.

٦٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٥٤ — ٣٥٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥١ — ٥٥٢.

ألم ترنا على اليرموك فزنا	كما فزنا بأيام العراق
قتلنا الرومَ حتى ما تساوي	على اليرموك ثفروقَ الوراق (٦٥)
فضضنا جمعهم لما استحالوا	على الواقوصة البتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا	إلى أمر تعضّل بالذّواق (٦٦)

أما قيس بن هبيرة بن المكشوح المرادي الذي كان من أوائل مُستنفري اليمن الذين بعثهم أبو بكر مدداً لخالد بن سعيد، وهو الذي بعثه أبو عبيدة مدداً من الشام إلى العراق، لما طلب منه عمر أن يمد سعداً، وذلك عندما حشد رستم جنوده في القادسية (٦٧)، وقد وصف ابن هبيرة الطريق التي سلكها من صنعاء حتى وصل الشام، وافتخر بصلابة جنوده وحسن استعدادهم، ثم أشار الى أن جنوده بعد أن حققوا النصر في اليرموك أسرعوا إلى القادسية، وهذا يعني أن قيادتي العراق والشام كانتا تتبادلان الأمداد عند الحاجة، يقول ابن هبيرة (٦٨):

جلبتُ الخيل من صنعاء تردي	بكل مدجّج كالليثِ حامي
إلى وادي القرى فديارُ كلبٍ	إلى اليرموكِ فالبلد الشّامي
فلما أن زوينا الرومَ عنها	عطفناها ضوامرَ كالجِلامِ

وأما حارثة بن النمر الذي شهد اليرموك، فقد أبدى إعجابه بجنود المسلمين، ورأى أن انتصارهم قضى على جبروت الروم وأحسابهم، وأن كنائسهم التي امتلأت بالقساوسة وزخرفت بالرخام قد أصبحت خاوية حيث قال (٦٩):

٦٥. الوراق: الوقت الذي يورق فيه الشجر، والورق: الدراهم المضروبة.

٦٦. الذواق: طعم الشيء.

٦٧. البلاذري، فتوح، ص٢٥٦؛ الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٩٨، الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) فتوح الشام، ٢ج، دار الجليل، بيروت، ج١، ص٧. سيشار اليه فيما بعد هكذا: الواقدي، فتوح.

٦٨. الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود بن وتند (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م) الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٥٩، ص١٢٦ سيشار اليه فيما بعد هكذا: الدينوري، الأخبار الطوال، البلاذري، فتوح، ص٢٦١.

٦٩. العسقلاني، الاصابة، ج٢، ص١٦٣.

لله باليرموك قومٌ طحطحوا	أحسابَ عاتي الروم بالأقدام
فتعطلتْ منهم كنائسُ زُخْرِفتْ	بالشامِ ذاتُ قساقسٍ ورخامِ (٧٠)

وإذا كنا قد تعرفنا على مواقف الشعراء المسلمين في معركة اليرموك من خلال الأشعار القليلة التي روتها كتب التراجم والسير والتاريخ، فإنه يمكننا أن نتعرف على ما حدث في معارك الشام الأخرى مع ملاحظة أن اهتمام هؤلاء الشعراء بمعركة اليرموك كان أكثر من اهتمامهم بسائر المعارك، لكونها أكثر عنفاً من ناحية ولأنها قررت مصير الشام كله من ناحية أخرى.

ولما فرغ المسلمون من أمر اليرموك سار بهم أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر فأتاه الخبر أن فلول الروم اجتمعت بفحل، ونزل قسم آخر منها دمشق، فآثر أبو عبيدة أن يبدأ بفحل، فلما رأى الروم أن جنود المسلمين يقصدونهم أفاضوا المياه حول فحل، فأوحلت الأرض وحصر المسلمون وطال انتظارهم، ثم هجم عليهم الروم على حين غرة، فثبت لهم المسلمون وألجأوهم إلى الوحل، فلم يفلت منهم إلا الشريد، وقد سميت تلك المعركة «ذات الردغة» (٧١)، وعلى الرغم من أن المصادر التي تحدثت عن غزوة فحل لم تذكر الدور الذي لعبه القعقاع أو عن مشاركته فيها، إلا أنه ذكرها في شعره في أكثر من موضع، وأثنى على فروسيته، ووصف نفسه بأنه ميمون النقيبة مجرب، ثم وصف ما لقيه الروم من بلاء على أيدي المسلمين، حيث تبعهم فرسان المسلمين على خيولهم يرمونهم برماحهم، فقال (٧٢):

٧٠. قساقس: قساوسة جمع قس.

٧١. الطبري، تاريخ، ج٣، ص٤٣٨، ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص٤٢٩ — ٤٣٢.

٧٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص٤٨٧ — ٤٨٨، ياقوت، المعجم، ج٤، ص٢٣٧.

وغـداةَ فـحـلٍ قـد رأوني مُعْلَمـا   والخـيـلُ تـنـحـطُ والـبـلا أطـوار[٧٣]
يـفـدي بـلائـي عـنـدهـا مـتـكـلـفٌ   سَـلِـسُ المـيـاسـر عُـودُه خـوّار
سلس الميـاسر مـا تَسامـى مـأقطاً   عـنـد الـرهـان مُـعَـيَّـرٌ عَـيّـارُ[٧٤]
مـا زالت الخـيـلُ العِرابُ تـدوسُهم   في حَـوْم فِـحْـلٍ والهـبـا مـوّار[٧٥]
حتـى رَمَيْنَ سَراتـهـم عـن أسْرِهِمْ   في ردْغـةٍ مـا بـعـدَهـا اسـتـمـرارُ
يـوم الـرِّداغ بُـعَـيْـدَ فِحْلٍ ساعـةً   وَخْـزُ الـرمـاحِ عـلـيـهـم مِـدْرارُ[٧٦]
ولـقـد أبَـرْنـا في الـرّداغ جموعَـهـم   طُـرّاً ونـحـوي تـشـخَـصُ الأ بـصـارُ

و يبدو أن مشاركة القعقاع بن عمرو لم تكن محدودة في فحل، إذ أنه عاد وافتخر ثانيةً بأنه شهد فحلاً، حيث رمى جيش الروم بفرس له دعاه «كاملاً» وأضاف بأنه شهد فتح العراق قبل ذلك فقال[٧٧] :

وغـداةَ فـحـل قـد شـهـدنـا مـأقطاً   يُـنْـسى الـكـمـيَّ سلاحَـه في الـدار
مـا زلت أرمـيـهـم بـقـرْحـةِ كـامـلٍ   كـرَّ المـنـيـح ربـابـة الأ يـسـار[٧٨]
حـتـى فـضـضـنـا جمـعـهـم بمـردّس   يـنـفـي الـعـدو اذا سـمـا جـرار[٧٩]
نـحـن الألى جـسـنـا الـعـراق بـخيلنا   والـشـامَ جـسـنـا في ذرى الأشـفـار

ولما فرغ المسلمون من فحل نهد شرحبيل وعمرو بن العاص إلى بيسان وتوجه أبو الأعور إلى طبرية فصالحت بيسان بعد مقاومة ضئيلة، وصالحت طبرية أبا الأعور[٨٠]، وفي ذلك يقول الربيع بن مطرف التميمي أحد جنود أبي الأعور[٨١] :

---

٧٣. معلم : ذو علامة، تنحط : تزفر من شدة الاعياء.

٧٤. المأقط : المضيف في الحرب.

٧٥. الهباموار: الغبار متموج متحرك.

٧٦. الرداغ : الوحل الشديد.

٧٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤٨٨.

٧٨. القرحة : دون الغرة، كامل : اسم فرسه، المنيح : قدح بلا نصيب، الأ يسار: الضاربون بالقداح.

٧٩. مردس : ردس الشيء أي دكّه بشيء صلب.

٨٠. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٤٣ — ٤٤٤.

٨١. العسقلاني، الاصابة، ج ٢، ص ٢١٩.

وإنـا لحـلالـون بـالـثـغـر نـحـتـوي   ولـسـنـا كـمـن هرَّ الحروبَ من الرعبِ
مـنـعـنـاهـمُ مـاءَ الـبـحـيـرةِ بـعـدمـا   سـمـا جمـعُـهـم **فاستهولوه** من الرهب

وكان أبو عبيدةَ قد أرسل ذا الكلاع ليكون بين دمشق وحمص، ثم قدم أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى دمشق، وكان عليها نسطاس بن نسطورس، فحاصروا دمشق ونزلوا حولها، فكان أبو عبيدة بباب الجابية وخالد بباب الشرقي وعمر بباب توما و يزيد بباب الصغير، وطال حصار المسلمين لدمشق دون أن تستسلم، لأنها كانت تنتظر قدوم المدد من هرقل، ولكن ذا الكلاع عطّل وصول الامداد إليهم فوهنوا وتحيروا، خصوصاً وأن موسم الشتاء ببرده لم يجبر المسلمين على ترك حصار دمشق، فطمع المسلمون فيهم، واستغل خالد فرصة انشغالهم بعيدٍ من أعيادهم، فتسلق أسوار المدينة بحبال كان قد أعدها، ثم فتح الباب الذي قبله، فدخلها من جهته عنوة، ودخلها أبو عبيدة سلماً، فأجريت ناحية خالد مجرى الصلح[٨٢].

ومما يؤيد رأي الطبري في أن خالداً دخل دمشق عنوة، ما قاله القعقاع بن عمرو التميمي عندما وصف في شعر له محاصرة المسلمين لدمشق، وتصميم الروم على عدم الاستسلام، ثم الفزع الذي أصابهم من هول المفاجأة، فقال[٨٣] :

أقـمـنـا على داري سـلـيـمـان أشـهـراً   نـجـالـد رومـاً قد حُموا بالصوارم[٨٤]
فـضـضـنـا بـهـا الـبـابَ العراقيَّ عنوةً   فـدان لـنـا مـسـتـسلماً كل قائم[٨٥]
أقـول وقـد دارت رحـانـا بـدارهـم   أقـيـمـوا لهـم حـزَّ الـذرى بـالغلاصم
فـلـمـا زأدنـا في دمـشـق نـحـورهـم   وتـدمـر عـضّـوا مـنـهـما بالأ باهم[٨٦]

---

٨٢. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٣٨ — ٤٤٠؛ البلاذري، فتوح، ص ١٢٧ — ١٢٩، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ١٢٧ — ١٢٩.

٨٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥١٨.

٨٤. داري سليمان، يعني دمشق وتدمر اللتين يروى أن جن سليمان بنتهما.

٨٥. فض : كسر.

٨٦. زأد : أفرغ.

وإذا كان القعقاع قد بين ظروف فتح دمشق، فإن أبا نجيد نافع بن الأسود التميمي قد فخر بمشاركة قومه تميم في فتح دمشق، بعد أن كانوا قد حاربوا معه في العراق، و يبدو أن الشاعر كان يقف في أكثر جهات دمشق تحصيناً، وهي الجهة التي دخلها المسلمون عنوة عندما تسلّق خالد والقعقاع أسوار دمشق، وإلى جانب فخره بشجاعة قومه، وصفهم بالتدين، حيث قال (٨٧) :

من ذا على الأحداث عزّ كعزِّنا إذا الحرب قامت بالجموع على قصرِ

فسائل بنا نسطاسَ والرومُ حوله غداةَ دمشقٍ والحتوفُ بها تجري

يُنبّوكَ أنّا في الحروب مصالتٌ نسيل إذا جاش الأعاجم بالثغر

بقومٍ تراهم في الدهور أعزّةً لهم عَرْضُ ما بين الفرائض والوتر

وواضح أن نافع بن الأسود لم يقتصر على الافتخار ببطولة تميم أثناء فتح دمشق، بل ذكر في قصيدة أخرى أن قبيلته تفوقت على غيرها من القبائل لأنها كانت قد شاركت في فتح بصرى قبل فتح دمشق، حيث طاردوا بني لهب، وهم بطن من الأزد صمدوا للمسلمين في بصرى، والمتأمل في الأبيات يلاحظ أن نافعاً كان يرد على جماعة حاولوا أن ينتقصوا من قدر تميم ومن أهمية الدور الذي اضطلعت به أثناء فتح الشام، وهذا يعني أن العصبية القبلية التي لم نلحظها من قبل، بدأت تظهر عند بعض شعراء القبائل التي شاركت في الفتوح ولو بشكل غير واضح، يقول نافع (٨٨)

لا تحسبنّي وابنَ أميَ صلصلاً كهامسة الباكين من كُبَّة الحرب

تركنا دمشقاً منهلاً بطريقنا نجرُّ اليها ما نجرُّ من الكرب

كأنك لم تشهد دمشقاً وحائلاً ويوماً بِبُصرى حيث فاظ بنو لِهبِ (٨٩)

---

٨٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥١٩.

٨٨. نفس المصدر، ج ٣، ص ٥١٨ — ٥١٩.

٨٩. بنو لهب، بطن من بطون الأزد.

كأنّا وإياهم سحابٌ بقفرةٍ تلقّحها الأرواح بالصّبب السكب

منعناكمو منهمْ وقد زعزعوا القنا وكنّا قديماً نمنع الجار ذا الذنب

هنالك إذ لا يمنعُ الناسُ وَسْمَةً وإذ أنت محروبٌ بمدْرَجَةِ التّرب

وقد علمت أفنا تميمي بأنّنا لنا العِزّ قِدْماً عند ذائدة النهب

وأنّ موالينا تعِزُّ بعزّنا ومولاكُمُ المأكولُ إن كان ذا سَهْب

على أن فتح المسلمين لدمشق سبقته معارك حولها، ومن ذلك أن هرقل بعث قائده توذرا البطريق، حتى نزل بمرج دمشق، ثم اتبعه بجيش آخر يقوده «شنس» الرومي ولكن خالداً تبع جيش توذرا الذي قصد دمشق، حتى قضى عليه بمساعدة يزيد ابن أبي سفيان وقتله، وكان أبو عبيدة قد قتل «شنس» وتروى في ذلك أبيات من الرجز نسبها الطبري إلى خالد بن الوليد، حيث صوّر صنيع المسلمين بالروم، فقال (٩٠) :

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضةَ الأكيدرا

و يبدو أن أبا سفيان الذي أصيبت عينه يوم اليرموك، شارك في حصار دمشق إلى جانب ابنه يزيد، و يظهر من خلال أبيات لعبد الرحمن بن حنبل الجمحي أحد جنود يزيد، أن أبا سفيان أبدى قلقه على جيش المسلمين، لأنهم قضوا الشتاء خارج الأسوار، مما حدا بالجمحي أن يطمئنه بقوله (٩١) :

أبلغ أبا سفيانَ عنّا فإننا علي خير حالٍ كان جيشَ يكونُها

وإنّا على بابيْ دِمشقةَ نرتمي وقد حان من بابيْ دمشقة حَيْنُها

ومع أن فتح الشام قد تم بتضافر جهود كل القادة والجنود، إلا أننا نجد شاعراً مثل كعب بن جعيل ينسب الفضل في فتح الشام إلى خالد بن الوليد، وذلك في معرض رثائه لابنه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي مات مسموماً في خلافة معاو ية، حيث قال (٩٢) :

---

٩٠. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٨ — ٥٩٩.

٩١. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٩٧، ٤٠١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤١٤؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤١٨؛ العسقلاني، الاصابة، ج ٤، ص ٢٩٧ — ٢٩٨.

٩٢. العسقلاني، الاصابة، ج ٥، ص ٣٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٣، ص ٣٨٩ — ٣٩٠.

ألا تبكي وما ظلمتْ قريشٌ … بإعوالِ البكاء على فتاها
ولو سُئلَتْ دمشقُ لأخبرتكُمْ … وبُصرى من أباحَ لها حماها
وسيفُ اللهِ أوردها المنايا … وهدّم حصنها وحمى حماها

هذا وبعد أن انتصر المسلمون في فحل، وتم لهم فتح بيْسان وطبريا عسكرت فلول الروم بقيادة الأرطبون في أجنادين، وأنزل بعض جنده في الرملة وبيت المقدس، فأرسل إليه أبو عبيدة عمرو بن العاص، فوجده قد تحصّن، فكتب عمرو بشأنه الى عمر ابن الخطاب، فأجابه: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب» ثم بعث له أبو عبيدة بالأمداد، فاقتتل الجيشان في أجنادين وَهُزِمَ الأرطبون، ففرّ على أثر ذلك إلى بيت المقدس(٩٣)، وقد وصف زياد بن حنظلة التميمي الهزيمة التي لحقت بأرطبون، والجأته مع فلوله الى بيت المقدس، حيث قال(٩٤):

ونحن تركنا أرطبون مُطَرّدا … إلى المسجد الأقصى، وفيه حُسورُ
عشيةَ أجنادَيْن لما تتابعوا … وقامت عليهم بالعراء نُسورُ
عطفنا له تحت العجاج بطعنةٍ … لها نَشَجٌ نائي الشهيق غزيرُ
فطمنا به الرومَ العريضة، بُعْدُهُ … عن الشام أدنى ما هناك شطيرُ
فولت جموعُ الروم تتبع إثْرَهُ … تكاد من الذعْر الشديدِ تطيرُ
وغودِرَ صرعى في المكرّ كثيرةٌ … وعاد اليه الفَلّ، وهو حسيرُ

وكان عمرو بن العاص قبل انتصاره في أجنادين، قد بعث إلى عمر يقول: «إني أعالج حرباً كئوداً صدوماً، فرأيك»، فجمع عمر جيشاً سار به من المدينة حتى نزل الجابية(٩٥)، فقال زياد بن حنظلة التميمي يذكر قدوم عمر إلى الشام(٩٦):

٩٣. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٥ — ٦٠٧؛ البلاذري، فتوح، ص ١٤٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٩٨ — ٤٩٩.

٩٤. ياقوت، المعجم، ج ١، ص ١٠٣ — ١٠٤.

٩٥. الطبري، تاريخه، ج ٣، ص ٦٠٧ — ٦٠٨.

٩٦. المصدر السابق، ج ٣، ص ٦١٢.

تذكرتُ حرب الروم لما تطاولتْ … وإذ نحنُ في عامٍ كثيرٍ نزائلُهْ
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا … مسيرة شهر بينهن بلابله
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده … يحاوله قرْم هناك يساجله
فلما رأى الفاروق أزمانَ فتحها … سما بجنود الله كيما يصاوله
فلما أحسّوه وخافوا صِوالَه … أتَوْه وقالوا: أنت ممن نواصله
وألْقت اليه الشام أفلاذَ بطنها … وعيشاً خصيباً ما تُعَدُّ مآكِلُه

وصادف انتصار عمرو بن العاص بأجنادين وحصار أبي عبيدة لبيت المقدس، وصول عمر الجابية، فطلب أهل بيت المقدس أن يصالحهم أبو عبيدة على صلح أهل الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فسار عمر إلى بيت المقدس من الجابية(٩٧)، وصالحهم على الجزية وكتب لهم أماناً، ثم أسكن الجند فيها وكان من نتيجة هذا الصلح أن لحق أرطبون ومن أبي الصلح بمصر، بعد أن أمّنهم عمر(٩٨)، فقال زياد بن حنظلة يصف قدوم عمر إلى الشام(٩٩):

سما عُمَرٌ لما أتته رسائلٌ … كأصْيَدَ يحمي صرمةَ الحيِّ أغيدا
وقد عضَّلتْ بالشام أرضٌ بأهلها … تريدُ من الأقوام من كان أنجدا
فلما أتاه ما أتاه أجابهم … بجيشٍ ترى منه الشبائكَ سجدا
وأقبلتِ الشامُ العريضةُ بالذي … أراد أبو حفصٍ وأزكى وأزيدا
فقسّط فيما بينهم كلَّ جزيةٍ … وكُلَّ رِفادٍ كان أهنا وأحمدا

وكان أبو عبيدة قبل ذلك قد سار من دمشق إلى حمص وحاصرها، ثم صالحه أهلها، وفي أثناء ذلك عبر هرقل الجزيرة، فأرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين(١٠٠)، فزحف عليه الروم، ولكنه انتصر عليهم وقتل قائدهم، ودخل قنسرين،

٩٧. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٠؛ البلاذري، فتوح، ص ١٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٥٠٠ — ٥٠١.

٩٨. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١١ — ٦١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٥٢١.

٩٩. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٣.

١٠٠. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٩٠ — ٤٩٣؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠١.

فآثر هرقل أن ينسحب بجنوده تاركاً الرها، بعد أن عرف بأن جيوش المسلمين طوقته من جهتي الشام والعراق، وكان زياد بن حنظلة التميمي أول من دخل الرها بعد هروب هرقل(١٠١)، **فوصف** بلاء المسلمين في فتوح الجزيرة، والانتصارات التي حققوها في كل معركة خاضوها، **والأسرى الذين** قيدوهم بالسلاسل فقال(١٠٢):

سائل هرقلاً حيث شئتَ وفودَه ... شببنا له حرباً تهرّ القبائلا
قتلناهمُ في كلّ دار وقيعةٍ ... وأُبْنا بأسراهم تعاف السلاسلا

وكان خالد قد اضطر إلى العودة إلى حمص بعد نقض أهلها الصلح، وراسل أبو عبيدة عمر بعد أن ألفى نفسه محاصراً فيها، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص في العراق: «أن اندب الناس مع القعقاع وسرحهم من يومهم، فإن أبا عبيدة قد أحيط به»(١٠٣)، وطلب إليه أن يسرح سهيل بن عدي إلى الرقة، لأن أهل الجزيرة هم الذين شجعوا الروم **على استثارة** حمص ضد أبي عبيدة، فسار سهيل إلى الرقة على أن يكون تحت إمرة عياض بن غنم، فحاصرها حتى صالحه أهلها على الخراج ودانوا له بالطاعة، وقد وصف سهيل ظروف فتح الرقة، فقال(١٠٤):

وصادمنا الفراتَ غداة سرنا ... إلى أهل الجزيرةِ بالعوالي
أخذنا الرقةَ البيضاءَ لما ... رأينا الشهر لَوّحَ بالهلال
وأزعجتِ الجزيرةُ بعد خفض ... وقد كانت تُخَوَّفُ بالزوال
وصار الخرْجُ ضاحيةً الينا ... بأكنافِ الجزيرة عن تقالي

وسرح سعد بن أبي وقاص عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ثم إلى حران والرها قادماً من الموصل، فلما وصل نصيبين لاقاه أهلها بالصلح، و يبدو أن أحد زعماء نصيبين قد فرَّ من المدينة على أثر دخول المسلمين اليها، فقال عبد الله بن عتبان يؤمنه و يدعوه إلى العودة، و يعده أن يتجاوز عن ماضيه(١٠٥):

١٠١. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠١ ــ ٦٠٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٩٣ ــ ٤٩٤.

١٠٢. العسقلاني، الاصابة، ج ٢، ص ٥٨٣.

١٠٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٥٣١.

١٠٤. ياقوت، المعجم، ج ٣، ص ٥٩.

١٠٥. ياقوت، المعجم، ج ٥، ص ٢٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٥٣١.

ألا من مبلغٌ عنّي بجيْراً ... فما بيني وبينَكَ من تعادي
فإن تقبل تلاقِ العدلَ فينا ... فأنسى ما لقيت من الجهادِ
وإنْ تُدْبِرْ فمالكَ من نصيبٍ ... نصيبين فتلحقَ بالعبادِ
وقد ألقت نصيبين إلينا ... سوادَ البطن بالخَرْجِ الشداد
لقد لقيت نصيبين الدواهي ... بِدُهْم الخيل والجُرْدِ الوراد

وكان سعد بأمر من عمر قد أمَّر عياض بن غنم على الجيوش التي انتدبها لقتال أهل الجزيرة ومنعهم من إرسال المدد إلى حمص، مما اضطر هرقل أن ينسحب عن سائر الشام والجزيرة، فقال عياض مبشراً بفتح الجزيرة(١٠٦):

من مبلغ الأقوام أن جموعنا ... حوت الجزيرة يوم ذاتِ زحام
جمعوا الجزيرة والغياث فنفّسوا ... عمن بحمص غيابةَ القُدَامِ
ان الأعِزّةَ والمكارمَ مَعْشَرٌ ... فضّوا الجزيرة من فراخ الهام
غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو من يأوي بلاد الشام

هذا وقد كانت الأراضي الواقعة على تخوم الشام والعراق هدفاً مبكراً لغارات المسلمين من جهة العراق، ذلك أن خالد بن الوليد لما قصد بني تغلب في الفراض (وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة)، اجتمعت عليه الروم والفرس وقبائل العرب من تغلب وإياد والنمر(١٠٧)، فأوقع بهم موقعة عظيمة، وذلك في السنة الثانية عشرة للهجرة، أي قبل مجيء خالد إلى الشام فقال القعقاع بن عمرو التميمي في ذلك(١٠٨):

لقينا بالفراض جموع روم ... وفرس غمّها طول السَّلام
أبدنا جمعهم لما التقينا ... وبيتنا لجمع بني رزام
فما فتئتْ جنودُ السلمِ حتى ... رأينا القوم كالغنم السوام

على الرغم من الحماسة التي كانت تملأ قلوب المسلمين أثناء عملية الفتح،

١٠٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٥.

١٠٧. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٨٣ ــ ٣٨٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٩٩.

١٠٨. ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٤٤.

وعلى الرغم من وجود بعض الشعراء بين جنود الشام، إلا أننا نلاحظ مما سبق أن الشعر الذي وصف فتح الشام كان قليلاً جداً، وأن هذا الشعر على قلته لم يتناول في ثناياه الحديث عن البطولات الجماعية ولم يشر بوضوح إلى دور الشخصيات القيادية مثل خالد وأبي عبيدة، كما أنه لم يتحدث عن المعاناة التي كان يشعر بها الجنود أثناء المعارك وجلّ ما وجدناه في الشعر إشارات سريعة إلى بطولات فردية أو قبلية، ونتيجة لذلك يمكننا القول بأن الشعر الذي نظم أثناء الفتح لا يقدم صورة واضحة المعالم لعملية الفتح نفسها.

وعلى الرغم من عدم وضوح صورة الفتح في الشعر الذي تعرضنا إليه، فإنه يجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند بعض الموضوعات التي أشار اليها بعض الشعراء إشارات عابرة في ثنايا مقطوعاتهم، ومن ذلك، موقف عرب الشام من جنود الفتح، وبالمقابل موقف الفاتحين من عرب الشام، وإذا ما عدنا إلى بداية هذا البحث، وإلى ما ذكرناه عن غزوة مؤتة، فإننا نجد أن عرب الشام من النصارى حاربوا إلى جانب الروم بأعداد كبيرة وأنهم كانوا تحت قيادة مالك بن زافلة الذي قتله قطبة بن قتادة العذري، حيث قال (١٠٩):

طعنت ابن زافلة بن الأرا ش برمح مضى فيه ثم انحطم

لكن موقف عرب الشام لم يبق على ما هو عليه، إذ أنهم بدأوا يشعرون بالخوف على مصيرهم، فعندما أغار خالد بن الوليد على سوى وهو في طريقه إلى الشام، وجد جماعة من بهراء مجتمعين على شراب، وفيهم **شاعر يدعى** حرقوص بن النعمان ينشدهم شعراً عبر فيه عن مخاوفه من المصير الذي سيلاقونه على يدي جيش أبي بكر بقيادة خالد مما دفعه أن يدعوهم إلى الارتحال، قبل أن تحيط بهم خيول المسلمين حيث قال (١١٠):

١٠٩. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٧٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٩٦ — ٣٩٧.

١١٠. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٤٢ — ١٤٣؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤١٦ — ٤١٧؛ العسقلاني، الإصابة، ج ٣، ص ٥٦٤.

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب وما ندري

ألا عللاني بالزجاج وكرّرا عليَّ كميت اللون صافية تجري

أظن خيولَ المسلمين وخالداً سيطرقكم قبل الصباح **من البشر**

فهل لكمُ في السير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر

وقد ظل بعض عرب الشام على ولائهم للروم، إذ حاربوا إلى جانبهم في أكثر المعارك التي خاضوها، وقد عبر بعض الشعراء عن موقفه السلبي من الفاتحين، حيث ذكر العسقلاني في الإصابة أن أحد جنود ميسرة المسلمين يوم اليرموك سمع أحد جنود الروم من عرب الشام يقول للمسلمين: «الحقوا بوادي القرى و يثرب» وارتجز قائلاً (١١١):

أكُلَّ حين منكم مغيرُ يحلُّ في البلقاء والسدير

هيهاتَ يأبى ذلك الأميرُ والملكُ المُتوَّجُ المحبورُ

وهذا يعني أن قسماً من عرب الشام قد رأوا في عملية الفتح غارة من الغارات التي كان يشنها البدو على حدود الشام في الجاهلية.

أما في معركة اليرموك، فقد انقسم عرب الشام قسمين، حيث انضم القسم الذي بقي على نصرانيته إلى الروم، ذكر الطبري أن الروم عندما ساروا إلى المسلمين في اليرموك سارت معه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة وقضاعة وغسان وعليها جبلة بن الأيهم، وبالمقابل انضم إلى المسلمين ناس من لخم وجذام، و يضيف الطبري أنهم لما رأوا جد القتال فروا ونجوا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين (١١٢)، فلما رأى عمرو بن العاص ذلك منهم، عيّرهم بقوله (١١٣):

القوم لخم وجذام في الهربْ

١١١. العسقلاني، الاصابة، ج ٦، ص ٣١٠. وفي البيت الثاني من المقطوعة اقواء.

١١٢. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٧٠ — ٥٧١.

١١٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥٢؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٧١.

ونحن والروم بمرج نضطربْ

فإن يعودوا بعدها لا نصطحبْ

بل نَعْصِبُ الفُرارَ بالضربِ الكَلِبْ

ويدل ذلك على أن عرب الشام ممن أسلموا لم يرجحوا كفة المسلمين في اليرموك، بل على العكس من ذلك كشفوا ظهور المسلمين للروم، مما يدعونا إلى القول: إن تصرفات عرب الشام سواء من أسلم منهم أو من بقي على نصرانيته ظلت مضطربة.

ولم يكن فتح المسلمين للشام سهلاً، ميسوراً، وانما كلفهم كثيراً من التضحيات حيث استشهد منهم من استشهد، وأصيب كثير من الجنود إصابات متنوعة، ففقد بعضهم قدمه، أو يده، ومات قسم كبير منهم بالطاعون، وكان حياض بن قيس القشيري الذي أبلى يوم اليرموك، وقتل عدداً من العلوج، قد فقد قدمه، ولكن ذلك لم يثنه عن متابعة القتال، وقد خلد هذا الموقف في رجز له، افتخر فيه بإقدامه وعدم مبالاته بفقد قدمه أثناء مواجهته للروم حيث قال(١١٤):

أَقْدِمْ حَذامِ إنّها الأساورة	ولا تغرنك رجل نادرة
أنا القشيريُ أخو المهاجرة	أضرب بالسيف رؤوس الكافرة

وقد كان إقدام القشيري وفقده قدمه في اليرموك مثار اعتزاز سوار بن أوفى الذي هاجى النابغة الجعدي، فقال يفتخر(١١٥):

ومنا ابن عتاب وناشدُ رجله	ومنا الذي أدى الى الحيِّ حاجبا

ولكن النابغة الجعدي ردَّ عليه بقصيدة له تسمى «الفاضحة»، وبين له أن فقدان أحد بني قشير قدمه، لا يجوز أن يكون محل فخر، لأن كثيراً من الجند فقدوا أيديهم وأرجلهم، فقال(١١٦):

١١٤. العسقلاني، الاصابة، ج ٢، ص ١٨٧.

١١٥. البلاذري، فتوح، ص ١٤٢ — ١٤٣.

١١٦. النابغة الجعدي، قيس بن عبد العال، شعر النابغة الجعدي، ط ١، دمشق ١٩٦٤م، ص ١١٠. سيشار اليه فيما بعد هكذا: النابغة، شعر؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٥١٧ — ٥١٨.

فإن يكن قدم بالشام ينشُدُها	فإنّ بالشام أقداماً وأوصالا
من الجنود وممن لا تعد فلا	تفخر بما كان فيه الناس أمثالا

ووصف عبد الله بن سبرة الحرشي مبارزة وقعت بينه وبين أحد قادة الروم انتهت بقتل الرومي الذي قطع يد عبد الله، وقد أسف الشاعر لأنه لم يلحق بيده، ثم أشاد بفروسية خصمه الذي حامى عن أحساب الروم الذين فروا عنه، ثم ذكر أنه لم يجزع ولم يجبن، وقد ختم ابن سبرة مقطوعته بقوله إن قطع يده لن **يقعده** عن القتال فقال(١١٧):

ويلُ أمِّ جارٍ غداةَ الروع فارقني	أهْونْ عليَّ به إذ بان فانقطعا
يُمنى يديّ غدت مني مفارقةً	لم أستطع يوم خلطاس لها تبعا
وقائل غاب عن شأني وقائلةٍ	هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
ويلُ أمه فارساً أجلتْ عشيرته	حامي وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا
يمشي إلى مستجيب مثله بطلٍ	حتى إذا أمكنا سيفيهما انقطعا
حاسيته الموت حتى استق آخره	فما استكان لما لاقى ولا جزعا
فإن يكن أرطبون الروم قطعها	فإن فيها بحمد الله منتفعا

وإذا عدنا ننظر في الأبيات التي تحدث فيها الشعراء عن تقطيع أطرافهم، لما وجدناهم يألمون وكأنهم احتسبوا هذه الطعنات، ولأن النصر كان حليفهم في أغلب المعارك التي خاضوا غمارها مما خفف وقع مصابهم عليهم.

وإذا كان بعض جنود المسلمين قد استشهدوا في قتالهم مع الروم، فإن طاعون عمواس حصد أضعاف الأعداد التي قضت في الحروب، فقد ذكر الذهبي، أن جند أبي

١١٧. العسقلاني، الاصابة، ج ٥، ص ١١ — ١٢؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٩٢ — ١٩٣؛ أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م)، الوحشيات، تحقيق عبد العزيز الميمني ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ٢٥ — ٢٦. سيشار اليه فيما بعد هكذا: أبو تمام، الوحشيات؛ القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) الأمالي، ٢ج، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٤٧ — ٤٨. سيشار إليه فيما بعد هكذا: القالي، الأمالي.

عبيدة كانوا ستة وثلاثين ألفاً قبل الطاعون، فلم يبق منهم إلا ستة آلاف (١١٨).

وقد كان طاعون عمواس في السنة الثامنة عشرة للهجرة، حيث وقع في مصر والعراق والشام ولكنه استقر في الشام، وكان من نتيجة ذلك أن ضاعت المواريث وفيه مات أبو عبيدة، و يزيد بن أبي سفيان، ومعاذ بن جبل وغيرهم من أشراف الناس كثير (١١٩).

وعلى الرغم من احتياط المسلمين بتفرقهم في الجبال، إلا أنه كان ذا أثر بالغ الطبري بقوله: «كان ذلك الطاعون — يعني طاعون عمواس — موتاناً لم ير مثله، طمع له العدو في المسلمين، وتخوفت له قلوب المسلمين، كثر موته، وطال مكثه» (١٢٠).

وربما كان الشعراء أكثر جزعاً من غيرهم، عندما رأوه يحصد الناس فلا يفرق بين فتيان وفتيات، ولكنهم لم يجدوا وسيلة للوقوف في وجهه غير التأسي بالصبر، قال أحدهم (١٢١):

رب خِرْقٍ مثلِ الهلالِ وبيضاء ... لَعوبٍ بالجِزْعِ من عِمواس
قد لقوا الله غيرَ باغٍ عليهم ... فأحلّوا بغير دار ائتناس
وصبرنا حقاً كما وعد الله ... وكنا في الصبر قومَ تآسي

و يبدو أن طاعون عمواس قد أفنى أسراً بأكملها، ومن ذلك أن الحارث بن هشام المخزومي خرج إلى الحجاز في سبعين من أهل بيته، فاستشهد بعضهم وقضى الآخرون في الطاعون، فلم يبق منهم غير أربعة، فقال المهاجر بن خالد بن الوليد في ذلك (١٢٢):

١١٨. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء، ٣ح، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧ — ١٩٦٢، ج ١، ص ١١ — ١٢، سيشار اليه فيما بعد هكذا: الذهبي، سير؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥٨.

١١٩. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٩٦، ٥٧ — ٥٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٥٥٥ — ٥٦٢.

١٢٠. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٢ — ٦٣.

١٢١. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥٤، ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥٧ — ١٥٨.

١٢٢. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٥؛ العسقلاني، الاصابة، ج ٦، ص ٢٦٥.

من يسكنِ الشامَ يُعَرِّسْ به ... والشامُ إن يفننا كاربُ
أفنى بني ريطةَ فرسانهم ... عشرون لم يُقصصْ لهم شارب (١٢٣)
ومن بني أعمامهم مثلهم ... لمثلِ هذا عجبَ العاجب
طعناً وطاعوناً مناياهمُ ... ذلك ما خطَّ لنا الكاتبُ

وكان عبد الله بن سبرة ممن عبر عن خوفه من فناء المسلمين في الشام بسبب تكالب الحروب والطاعون عليهم، فقال (١٢٤):

إن أقلب الطعن فالطاعون يرصدني ... كيف البقاءُ على طعنٍ وطاعونِ

وقد وقف حسان بن ثابت مشدوهاً أمام هذه الآفة لأنها حصدت سكان قرى بأكملها وقد حاول أن يوجد لها تفسيراً، فذكر أنها ناجمة عن وخز الجن الذي لا سبيل إلى الوصول إليه فقال (١٢٥):

صابت شعائره بصرى وفي رمح ... منه دخانُ حريقٍ كالأعاصير
فأعجل القومَ عن حاجاتهم شغلٌ ... من وخز جنٍّ بأرض الروم مذكور

وإلى جانب شكوى الشعراء من الطاعون، فإن بعضهم عبر عن عدم ارتياحه للإقامة في الشام، خصوصاً الجنود الذين كانوا يقيمون على السواحل لحمايتها من هجمات الروم حيث شكا بعضهم من كثرة البراغيث التي تحرمهم النوم، مما دفع أحد الأعراب الذين خرجوا في بعث إلى الشام ألا يفكر بالعودة ثانية، قال (١٢٦):

أأنصر أهل الشام ممن أكاءهم ... وأهلي بنجد ذاك حرصٌ على النصرِ
براغيث تؤذيني إذ الناسُ نوَّمٌ ... وليلٌ أقاسيه على ساحل البحرِ
فان يكُ بعثٌ بعدها لم أعد لهُ ... ولو صلصلوا للبحر منقوشة الحمرِ

١٢٣. ريطة: وهي زوج المغيرة بن عبد الله المخزومي.

١٢٤. العسقلاني، الاصابة، ج ٥، ص ١٢.

١٢٥. حسان، ديوان، ج ١، ص ٢٢٨.

١٢٦. ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣١٣.

وعلى الرغم من عدم ارتياح بعضهم لطقس الشام، فإن غيبتهم عن مواطنهم في نجد والحجاز قد طالت لانشغالهم في الحرب، مما دفع آباءهم أن يناشدوهم إلى أن يرأفوا بعجزهم وضعفهم، ولكن هذه المناشدة لم تكن تؤدي إلى نتيجة في أكثر الأحيان، مما دفع أبا خراش الهذلي إلى أن يفد على المدينة شاكياً إلى عمر شوقه إلى ابنه خراش الذي أوغل مع جيوش المسلمين إلى الشام وخلفه وحيداً، فقال[١٢٧] :

ألا من مبلغ عني خراشاً   وقد يأتيك بالنبأ البعيد

وقد يأتيك بالأخبار من لا   نجهز بالحُداء ولا تزيد

يناديه ليغبقه كليب   ولا يأتي لقد سفه الوليد

فرد إناءه لا شيءَ فيه   كأن دموع عينيه الفريد

وأصبح دون غابقه وأمسى   جبال من حرار الشام سود

ألا فاعلم خراش بأن خير أل   مهاجر بعد هجرته زهيد

رأيتك وابتغاءَ البردوني   كمغبوق اللبان ولا يصيد

وواضح أن عمر بن الخطاب لم يكن يهمل مثل هذه الشكاوي، فقد روى العسقلاني في الإصابة، أن رجلاً يدعى شيبان غزا نحو الشام، وخلف وراءه شيخاً كبيراً قد ضعف بصره، وكان بحاجة إلى رعاية ابنه، فقال[١٢٨] :

أشيبان ما يدريك أن ربَّ ليلةٍ   غبقتك فيها والغبوق حبيبُ

أأمهلتني حتى إذا ما تركتني   أرى الشخص كالشخصين وهو قريبُ

أشيبان إن تأت الجنودَ تجدهمُ   يقاسون أياماً بهنّ خطوب

فلما سمع عمر ذلك من أبي شيبان رقَّ له وردّ ابنه إليه.

---

١٢٧. ديوان الهذليين ٣ج، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٧٠. سيشار إليه فيما بعد هكذا : الهذليين، ديوان.

١٢٨. العسقلاني، الاصابة، ج ١١، ص ٢١٣ — ٢١٤.

وقد كان طول غياب جنود الفتح حقباً طويلة سبباً في عذل زوجاتهم لهم، ودعوتهن لهم إلى أن يقيموا بالقرب منهن، وقد وصف جعيدة بن عبيدة الكلابي الذي كان مع خالد بن الوليد في حروب الردة وفي فتح الشام مشاعر زوجته عندما علمت نيته بالسفر، حيث بكت ورجته ألا يسافر، ولكن محاولتها باءت بالفشل، ووعدها أن يحقق لها في ميادين القتال أمجاداً تفتخر بها، فقال[١٢٩] :

تقول ابنةُ المجنون هل أنت قاعدٌ   ولا وأبيها حِلفةً لا أطيعها

ومن يُكْثِرِ التطوافَ في جيش خالد   من الروم مصبوغ عليها دموعها

فلا بد يوماً أن تُحَدَّثَ عِرْسُه   اذا حُدِّثَتْ عنه حديثاً يروعها

هذا ومن يطلع على شعر الفتح في العراق يلاحظ أن شعراء العراق شاركوا شعراء الشام مشاعرهم نحو زوجاتهم، إذ أن النابغة الجعدي حاول أن يقنع زوجته بضرورة مشاركته في الفتوح، لأنه لم يجد عذراً شرعياً يبقيه إلى جانبها حيث قال[١٣٠] :

باتت تذكرني بالله قاعدة   والدمعُ ينهلُّ من شأنيهما سَبَلا[١٣١]

يا ابنةَ عمي كتابُ الله أخرجني   كرهاً، وهل امنعنَّ الله ما فعلا !

فإن رجعتُ فربُّ الناس يُرْجِعُني   وإن لحقت بربي فابتغي بدلا

ما كنت أعرجَ أو أعمى فيعذرني   أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حولا

وهكذا انطلق جنود الفتح يجيبون داعي الجهاد، حتى أضحت مضاربهم داخل الجزيرة خلاء موحشاً، ليس فيها غير الذئاب، وقد صور أسامة بن الحارث الهذلي ذلك قائلاً[١٣٣] :

فمو شكة أرضنا أن تعود   خلافَ الأنيس وحوشاً يبابا

---

١٢٩. المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣٨.

١٣٠. النابغة الجعدي، شعر، ص ١٩٤.

١٣١. الشأن : مجرى الدمع، سبل : هطل.

١٣٢. الضارع : النحيف الضاوي، الضنى : المرض.

١٣٣. ديوان الهذليين، ج ٢، ص ١٩٩.

وكان بعض الجنود قد اصطحبوا معهم زوجاتهم إلى ميادين الجهاد، ومن ذلك أن أبا سفيان لما قدم الشام حمل زوجته هند بنت عتبة التي شاركت في اليرموك إلى جانب نساء أخريات (١٣٤)، وقد ذكر ابن عساكر أن أبا سفيان أجلس يوم اليرموك كثيراً من النساء اللواتي حضرن مع أزواجهن أو أبنائهن خلف صفوف المسلمين وأوصاهن أن يرمين من يفر من المسلمين بهذه الحجارة، وقد زجرت خوله بنت ثعلبة الأنصارية جندياً مسلماً لما رأته يفر من ميدان القتال قائلة (١٣٥):

يا هارباً عن نسوة تقيات   فعن قليلٍ ما ترى سبيات
ولا حظيات ولا رضيات

ولم يقف الأمر عند مجرد اصطحاب الجنود لزوجاتهم في ميادين الفتح، بل أن بعضهم تزوج في أرض المعركة، كما فعل خالد بن سعيد عندما أعرس بأم حكيم امرأة عكرمة ابن أبي جهل صبيحة مرج الصفر (١٣٦):

على أن عادة اصطحاب النساء في المعارك لم تكن حكراً على المسلمين وإنما كان الروم أو عرب الشام من النصارى يصطحبون نساءهم أيضاً، و يتضح ذلك من خلال أبيات منسوبة إلى صفوان بن المعطل، الذي حمل بداريا (قرية من قرى دمشق) على رجل من الروم، فصرعه، فلما رأته امرأته صاحت وأقبلت نحوه، فقال صفوان (١٣٧):

ولقد شهدت الخيل يسطع نقعها   ما بين داريّا دمشق إلى نوى
فطعنتُ ذاحلي فصاحت عِرْسُه   يا ابن المُعَطَّلِ ما تريد بما أرى
فأجبتُها إني سأترك بعلها   بالدير منعفرَ الضواحك بالثرى

وذكر علقمة بن الأرت الذي قاد قبيلته «بلقين» في غزوة فحل أن الروم لما

١٣٤. البلاذري، فتوح، ص ١٤١، الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٠١، ٥٧١.

١٣٥. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ٥٣٧.

١٣٦. البلاذري، فتوح، ص ١٢٥.

١٣٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٣٩٢.

هزموا في هذه المعركة عرّضوا نساءهم لرماح المسلمين الذين تبعوهم بعد فرارهم حين قال (١٣٨):

ونحن قتلنا كلَّ واف سباله   من الروم معروف النجار مُنَطَّقِ
ونحن طلقنا بالرماح نساءهم   وأبنا إلى أزواجنا لم تُطَلَّقِ

وكانت الخمرة من الموضوعات التي تطرّق اليها شعراء الفتح، إذ من المعروف أن معاقرة الخمرة كانت من أشد الآفات فتكاً بالعرب في جاهليتهم حتى أن شعراءهم عكفوا على وصف مجالسها وأنواعها وتأثيرها عليهم وتفننوا في وصف أوعيتها، وكان لهم غرام بخمر الشام، وكان حسان بن ثابت من أكثر الشعراء افتتاناً بها في جاهليته، ومن ذلك قوله في مديح الغساسنة (١٣٩):

لله در عصابة نادمتهم   يوماً بجلَّقَ في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم   بردى يُصفَّقُ بالرحيق السلسل

ومن هنا كانت حكمة تحريم الخمر على فترات، ومع ذلك بقيت قلة قليلة من المسلمين غير قادرة على التخلص من هذه العادة السيئة، فقد ذكر الطبري أن أبا عبيدة كتب إلى عمر أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، منهم ضرار وأبو جندل فأمر عمر باقامة الحد عليهم (١٤٠)، وتضيف الرواية أن المتهمين رجوا أن يؤجل جلدهم حتى الانتهاء من قتال الروم في اليرموك، فأما ضرار فاستشهد، وأما من بقي من المتهمين على قيد الحياة فحد، وكان أبو الزهراء القشيري من هؤلاء فقال (١٤١):

ألم ترَ أن الدهر يعثرُ بالفتى   وليس على صرف المنون بقادر
صبرتُ ولم أجزع وقد مات إخوتي   ولست عن الصهباء يوماً بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها   فخلانها يبكون حول المعاصر

١٣٨. العسقلاني، الإصابة، ج ٥، ص ١٣٥.

١٣٩. حسان، ديوانه، ج ١، ص ٧٤.

١٤٠. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٩٧ — ٩٨، ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٧، ص ١٦٤.

١٤١. الطبري، ج ٤، ص ٩٦ — ٩٧.

و يبدو أن هذا الداء قد تفشى بين بعض الجند لكثرة إنتاجها في الشام وتوافرها، مما دفع عمر أن يكتب إلى عامله على الشام أن يأمر بطبخ كل عصير بالشام، حتى يذهب ثلثاه، فقال ذو الكلاع [١٤٢]:

رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخلانها يبكون حول المعاصر
فلا تجلدوهم واجلدوها فإنها ... هي العيش للباقي ومن في المقابر

والأبيات السابقة نفسها تنسب إلى أبي محجن الثقفي الذي حبسه سعد بن أبي وقاص في العراق لمعاقرته الخمرة قبل القادسية [١٤٣]، مما يدل على أن بعض جنود العراق عانى من الآفة نفسها.

هذا وبعد أن تحدثنا عن فتح الشام معتمدين على شعر الشعراء الذين شاركوا في عملية الفتح، وبعد أن عرضنا لبعض الموضوعات التي شغلت بال الجنود الشعراء، نود أن نقول: إن الشعر الذي تعرض للحديث عن فتوح الشام كان ضئيلاً جداً بالقياس إلى الشعر الذي خلفته حركة فتح العراق وفارس، وبالتالي لم يصور بوضوح الفروسية العربية أثناء الفتح، ولم يوضح طبيعة الاحتكاك الذي حدث بين المسلمين وبيئة الشام حيث الروم الذين كانت لهم عاداتهم وتقاليدهم التي لا بد وأن لفتت انتباه الفاتحين إليها، كما أنه لم يقدم صورة واضحة لما عاناه المسلمون من قلق، وما قاموا به من حركة انتشار وتمدد، ولم يتحدث عن غبار المعارك وصليل السيوف وصياح المحاربين، هذا إلى أن شعر الفتح أهمل الحديث عن موضوعات مهمة مثل فتح بيت المقدس وزيارة عمر لها، على الرغم من ارتباط بيت المقدس في أذهان المسلمين بالإسراء والمعراج، ومثل موت أبي عبيدة قائدهم، وباختصار كنا نتوقع أن نجد في هذا الشعر صورة واضحة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الشام، ولكننا لم نجد إلا نتفاً قليلة.

وربما يرجع الأمر في ذلك إلى عدة أسباب منها:

أولاً: إن أكثر المشاركين في فتوح الشام كانوا من عرب اليمن سواء من كان منهم

١٤٢. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٢، ص ٤٢٩، الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٢.

١٤٣. أبو تمام، الوحشيات، ص ١٩٢.

يسكن جنوب الجزيرة العربية أو من كان يسكن منهم على أطراف الشام، فقد ذكر الطبري أن أبا بكر عندما أرسل خالد بن سعيد ردءاً إلى تيماء، طلب منه أن يدعو من حوله من عرب الشام للانضمام إليه، ولما طلب خالد بن سعيد المدد من أبي بكر، ووافق ذلك قدوم أوائل مستنفري اليمن، ومَن بين مكة واليمن، وفيهم ذو الكلاع، وقدم عليه عكرمة قافلاً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو، فقدموا على خالد بن سعيد، وندب عمرو بن العاص والوليد بن عقبة قضاعة [١٤٤].

وهذا يعني أن غالبية الجنود الذين دخلوا الشام في بداية الفتح كانوا من اليمن، ومعروف أنه ليس لهم كلف بالشعر أو احتفال به أو معرفة تماثل معرفة عرب نجد والحجاز، لأن العربية الفصحى التي كانت لغة الشعر، لم تكن قد ثبتت بينهم، مما يدفعنا إلى القول: إن قبائل اليمن التي شاركت في فتح الشام، جنت على الشعر في هذه المناطق، ووصمتها بالإجداب والضحالة [١٤٥].

ومما يؤيد وجهة النظر الآنفة الذكر، أن جل الشعر الذي وصل إلينا عن فتح الشام على ندرته وضآلته، خلفه شعراء من جند خالد بن الوليد الذين رافقوه من العراق، عندما أمره أبو بكر أن يردف أبا عبيدة والمسلمين في الشام، وكان جل جند خالد من نجد، حيث ذكر الطبري: أن خالداً جمع إليه ثمانية آلاف من مضر وربيعة إلى ألفين ممن قاتلوا معه في حروب الردة [١٤٦].

ثانياً: و يبدو أن عدم مشاركة شعراء الطبقة الأولى من الشعراء المسلمين، وربما شعراء الطبقة الثانية في فتوح الشام أو في وصف أثر هذه الفتوح على نفوسهم، كانا من العوامل المهمة التي أدت إلى قلة الشعر، فحسان بن ثابت لم نجد في ديوانه كله ذكراً للفتوح سوى بيتين ذكر فيهما الكارثة التي حلت بالمسلمين في معركة الجسر في العراق [١٤٧]، وأما كعب بن مالك الأنصاري فلم يؤثر عنه شعر في فتوح الشام على الرغم من أنه توفي

١٤٤. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٨٩ — ٣٩٠.

١٤٥. النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الاسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٥١، سيشار اليه فيما بعد هكذا: النعمان، شعر الفتوح الاسلامية.

١٤٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٤٦ — ٣٤٧.

١٤٧. ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤٠.

سنة خمسين للهجرة (١٤٨)، وأما عبد الله بن رواحة فكان قد استشهد في مؤتة، وأما لبيد **ابن ربيعة** العامري فكان قد هجر الشعر بعد أن أسلم، واستقر في الكوفة (١٤٩).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هناك شعراء كان لهم باع طويل في الشعر، وقد شاركوا في فتوح الشام، ومنهم الحارث بن هشام الذي نظم الشعر في بدر، ومات في طاعون عمواس (١٥٠)، وكذلك أبو سفيان بن حرب وزوجه هند بنت عتبة وعمرو بن العاص لم يؤثر عنهم شعر في هذه الفتوح، سوى أرجوزة صغيرة منسوبة لعمرو **ابن العاص** (١٥١)، مما يدل على أن هؤلاء الشعراء إما أن يكونوا قد زهدوا في الشعر، وإما أنهم نظموه ثم ضاع.

ثالثاً: وقد كان زهد قادة فتح الشام في الشعر والشعراء وعدم ترحيبهم بهم وإغداق المال عليهم واكتفاؤهم بثواب الجهاد وإعراضهم عن المديح، من الأسباب التي دفعت الشعراء الذين كانت لديهم رغبة في التكسب بأشعارهم إلى عدم المجيء إلى الشام، وعلى رأس هؤلاء الشعراء الحطيئة، حيث قدم حوران ليمدح علقمة بن علاثة واليها من قبل عمر، فوجده قد مات، فقال (١٥٢):

فما كان بيني لو لقيتك سالماً ... وبين الغنى إلا ليال قلائل

لعمري لنعم المرء من آل جعفر ... بحوران أن أمسى أدركته الحبائل

وقد كان أبو عبيدة من أزهد الناس في عرض الدنيا وأكثرهم حرصاً على أموال المسلمين ومن ذلك أن عمر لما قدم الشام، سار مع أبي عبيدة إلى منزله، فلم يجد في بيته

١٤٨. يحيى الجبوري، خصائص شعر المخضرمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١، ص ٧٤. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الجبوري، خصائص.

١٤٩. لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص ١١. سيشار إليه فيما بعد هكذا: لبيد، ديوان.

١٥٠. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٦٠.

١٥١. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥١، الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٧٠.

١٥٢. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٤، ص ٥٥٦ ــ ٥٥٧؛ البلاذري، فتوح ص ١٣٥.

إلا سيفه وترسه، فقال له عمر: «لو اتخذت متاعاً، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيل (١٥٣).

رابعاً: وربما كان لتجمع القبائل التي ينتمي أكثرها الى مضر وربيعة، والتي نزلت الكوفة والبصرة أثناء فتح العراق وبعده أثر كبير في إذكاء نار العصبية القبلية التي ألهبت حماس كثير من الشعراء لتصوير مواقفهم في الفتوح، على العكس مما حدث في الشام، فلم يقم الفاتحون بتأسيس مدن خاصة بهم، وانما سكنوا بين أهل الشام، فقد ذكر البلاذري أن أبا عبيدة عندما أنفذ الصلح مع أهل حمص أسكن المسلمين في كل بيت جلا أهله عنه، أو ساحة متروكة (١٥٤)، وهذا يعني أن فاتحي الشام لم يقيموا فيها تجمعات خاصة بهم، مما كان له أثر كبير في عدم ظهور الروح القبلية أثناء فتح الشام.

خامساً: أن فتح الشام لم يستغرق حقبة زمنية طويلة، حيث بدأ في عهد أبي بكر وانتهى في عهد عمر، على العكس من فتح العراق وفارس الذي استمر حتى أواخر عهد عثمان، مما أعطى الفرصة لشعراء العراق أن يستمروا في نظم الشعر مدة أطول.

سادساً: أن طاعون عمواس واستشهاد عدد غير قليل من المسلمين في المعارك التي خاضوها كانا من أهمّ الأسباب التي أدت الى عدم وصول قسم كبير من الشعر الذي نظمه شعراء فتح الشام على قلته، لأن عشرين ألفاً أو يزيد من جنود الفتح قضوا في هذا الطاعون، وهذا يعني أن كل ما نظمه هؤلاء الجنود من شعر أو حفظوه قد دفن معهم، دون أن يتمكن أحد من روايته عنهم.

وقد أثار ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء قضية ضياع كثير من الشعر العربي في تلك الحقبة بشكل عام، فقال: «.... وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت ــ أي العرب ــ عن الشعر فلما كثر الإسلام، لم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت أو القتل، فحفظوا

١٥٣. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٤، ص ١٢، ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٣، ص ٨٦؛ ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) الطبقات الكبرى، ٨ج، دار بيروت ودار صادر، ١٣٧٦هـ، ج ٣، ص ٤١٣. سيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.

١٥٤. البلاذري، فتوح، ص ١٣٧.

أقل ذلك، وذهب عليهم فيه كثير» (١٥٥). وهكذا ذهب كثير من الشعر الذي تحدث عن فتوح الشام.

سابعاً: أن علماء اللغة والنحو ومن إليهم ممن اهتموا بجمع الشعر ودراسته، لم يلتفتوا إلى الشعر الذي نظم في فتوح الشام، لأنهم عندما بدأوا بمرحلة الجمع، كانوا يوجهون جل اهتمامهم إلى بوادي نجد والحجاز وبديهي أن قسماً كبيراً من شعر الفتح لم يصل الى البوادي، حتى يتناقله الرواة الذين كانوا يرفضون الأخذ عمن يعيش في المدن (١٥٦)، ومن هنا فإننا عندما عدنا إلى أهم مجموعات الشعر العربي مثل المفضليات والأصمعيات والحماسات لم نجد شيئاً من هذا الشعر، لأن هؤلاء العلماء كانوا يبحثون قبل كل شيء عما يمكن أن يكون حجة لهم في دراساتهم، وهذا الأمر قد يكون غير متوافر في شعر الفتوح الشامية.

ومن خلال دراستنا السابقة لشعر الفتوح، ووقوفنا على الموضوعات المختلفة التي نظم فيها الشعراء، استطعنا أن نلاحظ بعض السمات أو الخصائص التي يمكن اعتبارها عاملاً مشتركاً في شعر الفتح، ومن هذه السمات:

أولاً : أن جل الشعر الذي وصل إلينا عن فتح الشام روته كتب التاريخ والسير والأخبار والتراجم، وذلك من خلال حديثها عن الأحداث التاريخية التي عنيت بتسجيلها، كما أن رواته كانوا ممن يعنون برواية الأخبار، وليسوا من رواة الأشعار، فقد ذكر صاحب الإصابة في تمييز الصحابة في رواية له عن زياد بن حنظلة أحد شعراء فتح الشام قوله «... وأنشد سيف له في الفتوح أشعاراً كثيرة...» (١٥٧).

ثانياً : من أهم السمات التي توافرت في شعراء الفتوح، أن جلهم كانوا من الشعراء

---

١٥٥. الجمحي، أبو عبد الله محمد بن سلام (ت ٢٣٣هـ/٨٤٧م) طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمد شاكر، دار المعارف بمصر، القاهره، ص ٢٢. سيشار إليه فيما بعد هكذا: الجمحي، طبقات.

١٥٦. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥م، ص ١٣٨ وما بعدها. سيشار اليه فيما بعد هكذا: شوقي ضيف، العصر الجاهلي.

١٥٧. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٢، ص ٥٨٤.

المغمورين أو المجهولين، ومن هؤلاء: زياد بن حنظلة التميمي، وأبو أحيحة القرشي، وحارثة بن النمر، ونافع بن الأسود، وعبد الرحمن بن حنبل الجمحي، وعياض بن غنم، وعبد الله بن سبرة الحرشي، وغير هؤلاء كثير (١٥٨).

ثالثاً : وجود اختلاف كبير في نسبة المقطوعات إلى قائليها، واختلاف في ترتيب الأبيات وزيادة ونقص، وفي أحيان أخرى نجد أن بعض المقطوعات التي تتحدث عن الفتح غير منسوبة إلى قائل بعينه، فمثلا لو رجعنا إلى الأبيات التي مدح بها رافع الطائي دليل خالد بن الوليد عندما قطع به المفازة في طريقه إلى الشام، لوجدنا أن الطبري ينسبها إلى شاعر من المسلمين دون أن يعينه (١٥٩) وكذلك البلاذري وابن الأثير (١٦٠)، أما ابن عساكر فينسبها إلى أبي أحيحة القرشي (١٦١)، وأما ابن قتيبة فينسبها إلى راجز من المسلمين (١٦٢).

رابعاً : الشعر الذي وصل إلينا أكثره شعر مقطوعات أطول مقطوعة منه وصلت الينا لا يزيد عدد أبياتها عن أربعة عشر بيتاً، ونشير بذلك إلى المقطوعة التي نظمها عبد الله بن سبرة الحرشي حين قطعت يده (١٦٣)، وهناك مقطوعة أخرى بلغ عدد أبياتها اثني عشر بيتاً، وهي منسوبة إلى القعقاع بن عمرو، وقد نظمها في يوم فحل (١٦٤)، وهذا اللون من المقطوعات يندر وجوده، لأن أكثر المقطوعات التي روتها المصادر لا يزيد عدد أبياتها في أغلب الأحيان عن عدد أصابع اليد الواحدة.

خامساً: أن أكثر شعر الفتح نظم أكثره على البحر الرجز، لأنه يناسب إلى حد بعيد

---

١٥٨. راجع في ثنايا البحث بعض النماذج التي وردت منسوبة الى الشعراء الذين ذكرت اسماؤهم أو غيرهم.

١٥٩. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤١٦.

١٦٠. البلاذري، فتوح، ص ١١٨، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٠٩.

١٦١. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٤٦٩ — ٤٧٠.

١٦٢. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٤٣.

١٦٣. المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٢ — ١٩٣.

١٦٤. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٤٨٧ — ٤٨٨.

ظروف القتال، حيث يحتاج الجنود إلى ما يحمسهم و يرفع من روحهم المعنوية، هذا إلى أن انشغال المقاتلين في المعركة لم يتح لهم فرصة التعبير عن أنفسهم في قصائد متأنية، ولهذا لجأوا إلى الأوزان القصيرة التي تناسب سرعة حركتهم وتلاحق الأحداث حولهم (١٦٥).

سادساً: تخلّى شعر الفتح الذي وقفنا عليه عن بعض التقاليد الفنية التي صبغت الشعر العربي، فمثلاً لا نجد في المقطوعات أدنى اهتمام بالمقدمات سواء أكانت غزلية أم طللية، كما لاحظنا أن هذه المقطوعات خلت من أي استطراد، كما أن الموضوعات في شعر الفتح لا تتعدد، لأن الشعراء الفاتحين كانوا مهتمين بالتعبير عما في نفوسهم في أقل عدد من الأبيات، ودون التمسك بتقاليد فنية تحتاج منهم إلى جهد ووقت (١٦٦)، هم في أمس الحاجة اليهما.

سابعاً: طور شعراء الفتوح موضوعات جديدة لم تكن معروفة بحد ذاتها من قبل، وإن كانت تمت بصلة إلى أغراض تقليدية، ونقصد بذلك أن بعض الشعراء راحوا يرثون أعضاءهم وأشلاءهم، التي فقدوها في المعارك، بصورة تمتلىء بالشجاعة وقوة الاحتمال، وحتى الرثاء الذي صدر عن شعراء الفتح لم يعد يصور جزعهم على من مات، وإنما صور إيمانهم بقضاء الله وطمعهم في جنته، هذا إلى جانب حنينهم إلى ديارهم ووصفهم لمشاعر آبائهم وزوجاتهم اللواتي عانين من غربتهم.

ثامناً: تأثر مضمون شعر الفتح بالروح الإسلامية، فلم يعد الشاعر يفخر ببطولته الفردية فقط، وإنما يحاول أن يشيد ببلاء المسلمين، و يتحدث بضمير الجماعة في أكثر الأحيان، وكأنه استبدل بالعلاقات القبلية العلاقات القائمة على الأخوة الإسلامية (١٦٧)، وإن كان ذلك لا يمنع من وجود شعراء أشادوا بقبائلهم، وبأشخاصهم على اعتبار أن بعض القبائل والأشخاص أبدوا ضروباً خارقة من

---

١٦٥. النعمان، شعر الفتوح الاسلامية، ص ٢٣٨.

١٦٦. المرجع السابق، ص ٢٤٠.

١٦٧. المرجع السابق، ص ٢٦٨.

البسالة.

تاسعاً: عدم اهتمام شعر الفتح بالصور الفنية المستوحاة من الخيال، وإنما كان الشعراء يميلون في شعرهم إلى تصوير الواقع أو إعطاء وصف دقيق لما كان يجري في المعارك، ولذلك افتقدنا في شعرهم الصور التي نراها في أشعار غيرهم، ممن نظموا شعراً في الأغراض التقليدية.

عاشراً: اهتم الشعر بذكر أسماء المعارك التي خاضوها وأسماء بعض القواد الذين جاهدوا تحت ألويتهم والمدة التي استغرقها فتح بعض مدن الشام، إلى جانب اهتمامهم بذكر أسماء قادة الروم، وكأنهم بذلك ساعدوا المؤرخين على الإفادة من أشعارهم في التأكد من بعض الأحداث التاريخية التي اكتنفها بعض الغموض.

الأعـــلام

الجماعات والشعوب والقبائـــل

الأمكنة والبقاع

فايل ٠٣ ديسك ١٢

برنامج

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

من مطلع العهد البيزنطي إلى أواخر العهد الأموي

الندوة الثانية

بلاد الشام في صدر الإسلام

٢٤ - ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ

١٦ - ٢١ آزار ١٩٨٥ م

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

الندوة الثانية

بلاد الشام في صدر الاسلام

٢٤ _ ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ

١٦ _ ٢١ آذار ١٩٨٥ م

رئيس المؤتمر : سمو ولي العهد الأمير الحسن بن طلال المعظم

لجنة تاريخ بلاد الشام

١ _ الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري — الجامعة الأردنية _ مقرراً.
٢ _ الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت — الجامعة الأردنية _ مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات.
٣ _ الأستاذ الدكتور علي محافظة — جامعة مؤتة _ مقرر لجنة التحرير والنشر.
٤ _ الدكتور كامل العسلي — الجامعة الأردنية _ مقرر لجنة الوثائق والمخطوطات.
٥ _ الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة — الجامعة الأردنية
٦ _ الدكتور معاوية ابراهيم — جامعة اليرموك
٧ _ الدكتور محمد خير ياسين — الجامعة الأردنية
٨ _ الدكتور علي الزغل — جامعة اليرموك
٩ _ الدكتور يوسف غوانمة — جامعة اليرموك
١٠ _ الدكتور عدنان الحديدي — المدير العام للآثار
١١ _ السيد محمد صالح عبد العاطي/الأمين العام — الجامعة الأردنية
١٢ _ مدير العلاقات العامة — الجامعة الأردنية

بسم الله الرحمن الرحيم

حرصت الجامعة الأردنية منذ ربيع ١٩٧٢ على عقد مؤتمرات وندوات علمية متخصصة تتناول تاريخ بلاد الشام من جميع جوانبه وعصوره. ورأت أن يكون هذا التوجه مبنياً على قاعدة علمية أصيلة، تهدف الى الافادة من جهود المؤرخين العرب، وجهود المعنيين بالدراسات العربية الاسلامية المشهود لهم بالموضوعية والتجرد عن الهوى في هذا المجال.

وانطلاقاً من إيمان الجامعات الأردنية الكبير بجدوى هذه المؤتمرات، وحرصاً منها على استمرارية هذا العمل وديمومته وتعميم فائدته فقد رأت أن تعهد بتنفيذ هذه المهمة إلى لجنة علمية أطلقت عليها اسم «لجنة تاريخ بلاد الشام».

وايماناً من الجامعة الأردنية بالمشاركة العلمية الفعالة، ورغبة منها في الاستفادة من الجهود العلمية في تاريخ بلاد الشام واستقطابها فقد رحبت الجامعة بمشاركة شقيقتيها اليرموك ومؤتة والجامعات العربية في بلاد الشام وبخاصة جامعة دمشق في هذه المؤتمرات والندوات.

ومن أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من الفائدة العلمية المجزية، وتنظيم أغراض المؤتمر، وتحقيق غاياته وأهدافه فقد رأت اللجنة التحضيرية أن يكون عمل المؤتمرات على شكل ندوات علمية متخصصة، يشارك فيها علماء أجلاء من مختلف أنحاء العالم ببحوث مكتوبة.

وقسمت اللجنة عمل المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام على ثلاث ندوات متخصصة. عقدت الندوة الأولى ما بين ١٠/١٥ ـ ١٩٨٣/١٠/١٩ وتناولت العهد البيزنطي، أما الندوة الثانية التي تعقد حالياً في رحاب الجامعة الأردنية ما بين ٣/١٦ ـ ١٩٨٥/٣/٢١ فهي تتناول بلاد الشام في صدر الاسلام. وستكون الندوة الثالثة التي ستعقد في المستقبل إن شاء الله عن بلاد الشام في العهد الأموي.

واقترحت اللجنة التحضيرية للمؤتمر على السادة المشاركين أن تكون موضوعات الندوة الثانية المنعقدة حالياً كما يلي ليسترشد بها الباحثون من جهة ولأهميتها وضرورة بحثها واستجلاء جوانبها بشكل علمي دقيق من جهة ثانية. وهذه الموضوعات هي :

١ ـ مصادر هذه الفترة والدراسات الحديثة عنها (مسح ببليوغرافي مع دراسة تقييمية).

٢ ـ الجغرافية التاريخية لبلاد الشام.

٣ ـ المراسلات والاتصالات النبوية مع بعض زعماء القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام. (دومة الجندل، تبوك، أيلة، أذرح، جرباء، غزة..).

٤ ـ الاتصالات مع الجهات البيزنطية.

٥ ـ الفرس في بلاد الشام.

٦ ـ تجربة مؤتة.

٧ ـ تكوين الجيوش وتحليل بنيتها وتموينها.

٨ ـ طرق سير جيوش الفتح مع بيان تواريخ اخضاع المواقع وكيف تم الفتح.

٩ ـ موقف سكان بلاد الشام من الفتوح.

١٠ـ دراسة العهود الاسلامية.

١١ـ ادارة البلاد وأنظمة الضرائب.

١٢ـ السكان والعمران في بلاد الشام خلال هذه المرحلة.

وتحقيقاً لتنفيذ توصيات المؤتمرات السابقة فقد ركزت الجامعة جهودها على تصوير المخطوطات العربية من مختلف مكتبات العالم، وبخاصة المخطوطات التي اهتمت ببلاد الشام، كما شرعت، وبشكل مكثف وواسع، بتصوير سجلات المحاكم الشرعية، وقيود الأوقاف في مدن بلاد الشام، وذلك من أجل إتاحة الفرصة للدارسين والباحثين للاستفادة من هذه المخطوطات والسجلات.

واستكمالا للجهود المبذولة في هذا الصدد فقد قامت الجامعة الأردنية باصدار عدد من فهارس هذه المخطوطات بالتعاون مع مؤسسات أردنية شقيقة. وبالاضافة إلى ذلك فقد قامت اللجنة التحضيرية باعداد (ببليوغرافيات) متخصصة عن المقالات ورسائل الدكتوراة التي كتبت عن بلاد الشام، ووضعت نصب عينيها توجيه طلبة الدراسات العليا في الكليات الانسانية إلى اختيار موضوعات تتعلق بتاريخ بلاد الشام لاستيفاء ما يحتاج إلى بحث واستقصاء علمي في مختلف عهوده. كما فرغت اللجنة من نشر محاضر المؤتمر الأول والثاني والثالث، وهي بصدد إصدار محاضر الندوة الأولى من المؤتمر الرابع. كما تسعى اللجنة جادة إلى وضع خطة علمية مدروسة من أجل القيام بترجمة النصوص المتعلقة بتاريخ بلاد الشام إلى اللغة العربية، هذا بجانب وضع الأطالس التاريخية. واللجنة ترحب باقتراحات وأراء السادة الضيوف والزملاء المشاركين من أجل الاستنارة بها في تحقيق هذا المسعى. ورأت اللجنة التحضيرية العمل على نقل نتائج هذه البحوث العلمية إلى غالبية المواطنين والمهتمين عن طريق صياغتها من جديد بصورة مبسطة تزيد من تعميم فائدتها مع الحفاظ على مستوأها العلمي.

ويسعد اللجنة أن تقترح تشكيل لجنة دولية تسمى «لجنة أصدقاء تاريخ بلاد الشام» تكون حلقة وصل بيننا وبين المعنيين بتاريخ بلاد الشام في العالم، وذلك من أجل دفع حركة التأليف التاريخي لهذه المنطقة وزيادة الاهتمام بها.

إن الجامعات الأردنية التي تسعد باستضافة هذه النخبة الطيبة من العلماء الأجلاء، سيكون سرورها أعظم عندما تجد أن نتاج هذه الندوات قد وجه الى خدمة التأليف التاريخي من جهة، ولتلبية الحاجات التربوية والثقافية من جهة أخرى.

ونغتنم هذه المناسبة لنوجه شكرنا الجزيل للأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة الأردنية، الذي حرص دائماً على دعم وتوجيه ومتابعة المؤتمر، فكان لجهوده المحمودة أثر كبير في إنجاح الاعداد لعقد هذا المؤتمر. كما نوجه الشكر للأستاذين: الدكتور عدنان بدران رئيس جامعة اليرموك، والدكتور علي محافظة رئيس جامعة مؤتة.

ويسرنا هنا أن ننوه بالجهد الكبير الذي بذله الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر. وانه لمن دواعي سرورنا أن ننوه أيضاً بالجهود الكبيرة التي بذلها السيد محمود البوريني مشرف مطبعة الجامعة وزملاؤه أعضاء أسرة المطبعة الذين أمضوا الليالي الطوال من أجل استنساخ بحوث هذا المؤتمر وطباعة أوراقه.

ويسعدنا هنا أن نوجه الشكر لجميع المؤسسات التي مدت لنا يد العون أثناء الاعداد لعقد هذه الندوة.

وصدق الله العظيم «ونعم أجر العاملين».

مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات

الدكتور محمد عدنان البخيت

الجامعة الأردنية ــ عمان
٢٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ
١٢ آذار ١٩٨٥م

الندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

السبت ١٦ آذار ١٩٨٥

٨٫٠٠ صباحاً مغادرة المشاركين مقر إقامتهم في فندق عمرة الى حرم الجامعة الأردنية

٩٫٠٠ الاجتماع في بهو كلية الهندسة والتكنولوجيا.

١٠٫٠٠ حفل الافتتاح
- السلام الملكي.
- أي من الذكر الحكيم.
- كلمة الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات.
- كلمة معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة الأردنية.
- كلمة سمو ولي العهد الأمير الحسن بن طلال المعظم رئيس المؤتمر.
- استراحة قصيرة.
- زيارة المعارض في مكتبة الجامعة الأردنية.

١٫٣٠ غداء يقيمه الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة الأردنية تكريماً للمشاركين في المؤتمر.

٣٫٠٠ زيارة مجمع اللغة العربية الأردني.

برنامج أعمال الندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

السبت ١٦ آذار ١٩٨٥

الجلسة المسائية الأولى (٠٠ر٤ ـ ٠٠ر٦)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

٢ ـ الدكتور شاكر مصطفى — «الفتوح العربية في الاطار العالمي».

٢ ـ الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى — «استقبال بلاد الشام للفتح العربي : الخلفية الثقافية»

٣ ـ الدكتور إحسان عباس — «فتح الشام : مؤشرات وارهاصات»

٤ ـ الدكتور يوسف غوانمة — «في استراتيجية الفتوحات الاسلامية للشام»

الجلسة المسائية الثانية (٢٠ر٦ ـ ٠٠ر٨)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ الدكتور نبيه عاقل — «موقف سكان بلاد الشام من الفتح».

٢ ـ الدكتور صالح درادكة — «مقدمات في فتح بلاد الشام».

٣ ـ الدكتور عواد مجيد الأعظمي — «بلاد الشام ـ الأرضية والقاعدة ـ في التطلع العربي والاسلامي لفتح مدينة القسطنطينية : دراسة عسكرية حضارية».

٤ ـ Dr. Hugh Kennedy — «The Origins of the Qays-Yaman Dispute in Bilad al-Sham»

٥ ـ Dr. Stefan Leder — «The Attitude of the Jews and Their Role Towards the Arab-Islamic Conquest of Bilad al-Sham»

★ (٠٠ر٦ ـ ٢٠ر٦) استراحة قصيرة.

الأحد ١٧ آذار ١٩٨٥

الجلسة الصباحية الأولى (٠٠ر٩ ـ ٠٠ر١١)

اللجنة الأولى

(المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ الدكتور عبد المنعم ماجد — «موقف الروم العرب من الاسلام»

٢ ـ الدكتور صالح حمارنة — «دور جذام في الفتوح»

٣ ـ الدكتور محمد خريسات — «دور العرب المتنصرة في الفتوحات».

٤ ـ الدكتور ضيف الله البطاينة — «القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي».

اللجنة الثانية

(المدرج الصغير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ Prof. Toufic Fahd — «محمد وبحيرا : هل وطئت أقدام نبي العرب أرض الشام ؟»

٢ ـ الدكتور ابراهيم زيد الكيلاني — «المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام : دراسة ونقد»

٣ ـ الدكتو جاسر أبو صفية — «المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام : دراسة نقدية»

★ (٠٠ر١١ ـ ٢٠ر١١) استراحة قصيرة.

الجلسة الصباحية الثانية (٢٠ر١١ – ٣٠ر١)

اللجنة الأولى

(المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – الدكتور سامي مكي العاني «تجربة مؤتة»

٢ – الدكتور يحيى الجبوري «تجربة مؤتة بين التاريخ والشعر».

٣ – الدكتور ابراهيم بيضون «حملة مؤتة : مقارنة للمشروع السياسي الأول للدولة الاسلامية في بلاد الشام».

٤ – الدكتور علي عتوم «تجربة مؤتة»

اللجنة الثانية

(المدرج الصغير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – الدكتور جوزيف نسيم يوسف «العلاقات الاسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الاسلام في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى».

٢ – الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور «الامبراطور هرقل ومقاومة الفتح الاسلامي لبلاد الشام»

٣ – الدكتورجاسم صكبان علي «الاتصالات مع الجهات البيزنطية الرسمية في الشام في العهد الراشدي من خلال المصادر العربية»

٤ – Pro. Walter Emil Kaegi, R. «Heraclius and Byzantine Mesopotamia».

٥ – Dr. Stefan Gero «Early Contacts Between Byzantium and the Arab Empire: A Review and Some Reconsiderations».

★ (٣٠ر١) حفل غداء يقيمه الأستاذ الدكتور عدنان بدران رئيس جامعة اليرموك في مكتب ارتباط جامعة اليرموك بعمان تكريماً للمشاركين في الندوة.

الجلسة المسائية الأولى (٠٠ر٤ – ٠٠ر٦)

اللجنة الأولى

(المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – الدكتور عبد الله سلوم السامرائي «الفرس في بلاد الشام»

٢ – Dr. Maurice Fiey «The Last Byzantine Campaign into Persia and its Influence on The Attitude of the Local Populations Towards the Muslim Conquerors 7 — 16 A.H/ 628 — 636 A.D.»

٣ – Dr. Michael G. Morony « Syria Under the Persians,610 — 629 A.D».

اللجنة الثانية

(المدرج الصغير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – الدكتور سعد عبد العزيز الراشد «منطقة الحجاز وشمال غربي الجزيرة وصلتها ببلاد الشام في صدر الاسلام والخلافة الأموية اعتماداً على الاكتشافات الحديثة»

٢ – Prof. Henry MacAdam «The Earliest Islamic Fortifications in Jordan and their Roman- Byazntine Predecessors.»

٣ – Prof. Maurice Sartre «Le Hawran Byzantin a la veille de la Conquete Musulmane»

★ (٠٠ر٦ – ٢٠ر٦) استراحة قصيرة.

الجلسة المسائية الثانية (٢٠ر٦ – ٠٠ر٨)

اللجنة الأولى

(المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – الدكتورة وداد القاضي — «مدخل الى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح»

٢ – الدكتور محمد الشبول — «العهود الاسلامية»

٣ – الدكتور زكريا القضاة — «معاهدة فتح بيت المقدس : العهدة العمرية»

٤ – الدكتور علي سعود عطية — «عمر بن الخطاب وفتح بيت المقدس»

اللجنة الثانية

(المدرج الصغير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – Dr. Jeoffrey King — «Recent Research on the Late Byzantine and Early Islamic Period in Jordan».

٢ – Dr. Vassilios Christides — «The Coastal Towns of Bilad al-sham At The Time of the Rashidin, 632-666 A.D.»

٣ – Dr. Robert Hillenbrand — «The Fate of the Classical Heritage in Early Islamic Art»

الاثنين ١٧ آذار ١٩٨٥

الجلسة الصباحية الأولى (٠٠ر٩ – ٠٠ر١١)

اللجنة الأولى

(المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – الدكتور كوركيس عواد — «مصادر الفتوحات العربية لبلاد الشام».

٢ – الآنسة سكينة الشهابي — «تاريخ مدينة دمشق : مصدر لم يدرس وأهميته في تأريخ عصر صدر الاسلام»

٣ – الدكتور محمود سعيد عمران — «كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين»

٤ – الدكتور عادل أبو عمشة — «فتوح الشام في الشعر العربي»

٥ – الدكتور ابراهيم السعافين — «الرواية التاريخية حول صدر الاسلام في بلاد الشام بين الفن والحقيقة التاريخية»

اللجنة الثانية

(المدرج الصغير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ – الدكتور نقولا زيادة — «تموين الجيوش العربية الاسلامية أثناء فتوح بلاد الشام»

٢ – الدكتور شكري فيصل — «فتوح الشام»

٣ – الدكتور محمد ضيف الله البطاينة — «تموين الجيش الاسلامي في الحرب زمن النبي «صلى الله عليه وسلم» والخلفاء الراشدين»

٤ – الدكتور فالح حسين فالح — «الفروض العينية – الضيافة والأرزاق – كمصدر لتموين جيش الفتح»

٥ – الدكتور شحادة الناطور — «إشكالية البحرية عند عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان».

★ (٠٠ر١١ – ٢٠ر١١) استراحة قصيرة.

الجلسة الصباحية الثانية (٢٠ر١١ ـ ٣٠ر١)

اللجنة الأولى

(المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ Prof. Fred M. Donner — «The Problem of Early Arabic Historiography in Syria».

٢ ـ Dr. E. Van Donzel — «Arabic and Islam in Holland During the XVIIth Century».

٣ ـ Dr. Lawrance Conrad — «Al-Azdi's History of the Arab Conquest of Bilad al-Sham»

٤ ـ Dr. Carole Hillenbrand — «A Christian source on the «Early Muslim Conquests: The Contribution of Eutychius (Sa'id b. Bitriq)»

اللجنة الثانية

(المدرج الصغير في كلية الهندسة والتكنولوجيا)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ Dr. Raymond J. Hebert — «The Early Coinage of Bilad. al-Sham».

٢ ـ الدكتور محمد باقر الحسيني — «الدور الاسلامي والتاريخي للنقود العربية الاسلامية في بلاد الشام في صدر الاسلام»

٣ ـ الدكتور هشام جعيط — «الاستيطان العربي ببلاد الشام بعد الفتوح الاسلامية»

★ (٣٠ر١) حفل غداء يقيمه الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية «مؤسسة آل البيت» تكريماً للمشاركين في الندوة.

★ (٠٠ر٤) نوبة مساء تقيمها فرقة موسيقات القوات المسلحة الأردنية على ستاد الجامعة الأردنية.

الثلاثاء ١٩ آذار ١٩٨٥

الجلسة الصباحية الأولى (٠٠ر٩ ـ ٠٠ر١١)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ الدكتور ناصر الدين الأسد — «وقعة أجنادين : دراسة تحليلية للمصادر والروايات».

٢ ـ الدكتور صلاح الدين أمين طه — «معركة أجنادين وأثرها في فتوح الشام»

٣ ـ الدكتور عرفان شهيد — «أسرار النصر العربي في فتوح الشام : معركة اليرموك».

الجلسة الصباحية الثانية (٢٠ر١١ ـ ٣٠ر١)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ الدكتور جاسر أبو صفية — «معركة اليرموك : دراسة تاريخية نقدية».

٢ ـ الدكتور فواز أحمد طوقان — «الواقوصة».

٣ ـ Dr. Ernst Axel Knauf — «Aspects of Historical Topography Relating to The Battles of Mu'ta and The Yarmuk».

★ (٠٠ر١١ ـ ٢٠ ر١١) استراحة قصيرة.

★ (٣٠ر١) حفل غداء في مطاعم الجامعة الأردنية.

الجلسة المسائية الأولى (٠٠ر٤ ـ ٠٠ر٦)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ Dr. Albrecht Noth — «The Muslim Conquest of Damascus Futuh-History and Futuh Historiography»

٢ ـ الدكتور عمر عبد السلام تدمري — «الفتح الاسلامي وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان)

٣ ـ الدكتورة سهيلة الريماوي — «مدينة حمص عند الفتح الاسلامي».

الجلسة المسائية الثانية (٢٠ر٦ ـ ٠٠ر٨)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ الدكتور محمد مخزوم — «الفتح الاسلامي لمنطقة الجزيرة»

٢ ـ Prof. Walter Emil Kaegi, R. — « The Strategy of Heraclius»

٣ ـ Prof. C. Edmund Bosworth — «The Byzantine Defence System in Asia Minor and the First Arab Incursions.

★ (٠٠ر٦ ـ ٢٠ ر٦) استراحة قصيرة.

الأربعاء ٢٠ آذار ١٩٨٥

الجلسة الصباحية الأولى (٠٠ر٩ ـ ٠٠ر١١)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ الدكتور عبد العزيز الدوري — «تنظيمات عمر بن الخطاب : الضرائب في بلاد الشام»

٢ ـ الدكتور مصطفى عبد الحميد العبادي — «وثائق بردية عن ضرائب نصتان في صدر الاسلام»

٣ ـ الدكتور جمال جوده — «الخلافة والقبائل والنظرة للأرض المفتوحة»

الجلسة الصباحية الثانية (٢٠ر١١ ـ ٣٠ر١)

المدرج الكبير في كلية الهندسة والتكنولوجيا

رئيس الجلسة

المشاركون

١ ـ الدكتور أحمد بدر — «الدور الاداري والثقافي لطبقة الصحابة النازلة بالشام»

٢ ـ الدكتورة نجدة الخماش — «الادارة ونظام الضرائب في الشام في العصر الراشدي»

٣ ـ الدكتور عبد الواحد ذنون طه — «إدارة بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب»

★ (٠٠ر١١ ـ ٢٠ ر١١) استراحة قصيرة.

★ (٣٠ر١) حفل غداء في مطاعم الجامعة الأردنية.

★ (٠٠ر٣) زيارة : صرح الشهيد، قلعة عمان، متحف الآثار الأردني.

الندوة الثانية

بلاد الشام في صدر الاسلام

قائمة المشاركين وعناوين بحوثهم

٢٤ ـ ٢٩/ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ
١٦ ـ ٢١/ آذار ١٩٨٥م

المملكة الأردنية الهاشمية

الجامعة الأردنية

كلية الآداب

١ ـ الدكتور ناصر الدين الأسد — «وقعة أجنادين : دراسة تحليلية للمصادر والروايات».

٢ ـ الدكتور عبد العزيز الدوري — «تنظيمات عمر بن الخطاب : الضرائب في بلاد الشام».

٣ ـ الدكتور صالح حمارنة — «دور جذام في الفتوح».

٤ ـ الدكتور صالح درادكة — «مقدمات في فتح بلاد الشام».

٥ ـ الدكتور فالح حسين فالح — «الفروض العينية ـ الضيافة والأرزاق ـ كمصدر لتموين جيش الفتح».

٦ ـ الدكتور فواز أحمد طوقان — «الواقوصة».

٧ ـ الدكتور جاسر أبو صفية — ١. «المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام : دراسة نقدية».
٢. «معركة اليرموك : دراسة تاريخية نقدية».

٨ ـ الدكتورة سهيلة الريماوي — «مدينة حمص عند الفتح الاسلامي».

٩ ـ الدكتور محمد خريسات — «دور العرب المتنصرة في الفتوحات».

كلية الشريعة

١٠ـ الدكتور ابراهيم زيد الكيلاني — «المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام :دراسة ونقد».

جامعة اليرموك

١ ـ الدكتور ابراهيم السعافين — «الرواية التاريخية حول صدر الاسلام في بلاد الشام بين الفن والحقيقة التاريخية».

٢ ـ الدكتور محمد الشبول — «العهود الاسلامية».

٣ ـ الدكتور يوسف غوانمة — «في استراتيجية الفتوحات الاسلامية للشام».

٤ ـ الدكتور علي العتوم — «تجربة مؤتة».

٥ ـ الدكتور زكريا القضاة — «معاهدة فتح بيت المقدس : العهدة العمرية».

٦ ـ الدكتور شحادة الناطور — «إشكالية البحرية عند عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان».

٧ ـ الدكتور محمد ضيف الله بطاينة —
١. «تموين الجيش الاسلامي في الحرب زمن النبي «صلى الله عليه وسلم» والخلفاء الراشدين».
٢. «القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي».

جامعات الضفة الغربية

١ ـ الدكتور جمال جودة
جامعة النجاح
نابلس
— «الخلافة والقبائل والنظرة للأرض المفتوحة».

٢ ـ الدكتور عادل أبو عمشة
جامعة النجاح
نابلس
— «فتوح الشام في الشعر العربي»

المشاركون من غير الجامعات

١ ـ Dr. Ernst Axel Knauf
المعهد الألماني
عمان
— «Aspects of Historical Topography Relating to the Battles of Mu'ta and The Yarmuk».

الجمهورية التونسية

١ ـ الدكتور هشام جعيط
كلية الآداب
الجامعة التونسية
— «الاستيطان العربي ببلاد الشام بعد الفتوح الاسلامية».

المملكة العربية السعودية

١ ـ الدكتور سعد عبد العزيز الراشد
قسم الآثار والمتاحف
جامعة الملك سعود ـ الرياض
«منطقة الحجاز وشمال غربي الجزيرة وصلتها ببلاد الشام في صدر الاسلام والخلافة الأموية اعتماداً على الاكتشافات الحديثة».

٢ ـ الدكتور شكري فيصل
قسم الدراسات العليا
الجامعة الاسلامية ـ المدينة المنورة
« فتوح الشام »

٣ ـ Dr. Jeoffrey King
جامعة الملك سعود ـ الرياض
«Recent Research on the Late Byzantine and Early Islamic Period in Jordan».

الجمهورية العربية السورية

١ ـ الدكتور أحمد بدر
كلية الآداب
جامعة دمشق
«الدور الاداري والثقافي لطبقة الصحابة النازلة بالشام».

٢ ـ الدكتور نبيه عاقل
كلية الآداب
جامعة دمشق
«موقف سكان بلاد الشام من الفتح».

٣ ـ الدكتورة نجدة الخماش
كلية الآداب
جامعة دمشق
«الادارة ونظام الضرائب في الشام في العصر الراشدي».

٤ ـ الآنسة سكينة الشهابي
مجمع اللغة العربية
دمشق
«تاريخ مدينة دمشق : مصدر لم يدرس وأهميته في تأريخ عصر صدر الاسلام».

الجمهورية العراقيـــة

١ ـ الدكتور كوركيس عواد — «مصادر الفتوحات العربية لبلاد الشام».
المجمع العلمي العراقي
بغداد

٢ ـ الدكتور صلاح الدين أمين طه — «معركة أجنادين وأثرها في فتوح الشام»
كلية التربية
جامعة الموصل

٣ ـ الدكتور عبد الواحد ذنون طه — ادارة بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب»
كلية التربية
جامعة الموصل

٤ ـ الدكتور عواد مجيد الأعظمي — «بلاد الشام ـ الأرضية والقاعدة ـ في التطلع العربي الاسلامي لفتح مدينة القسطنطينية (دراسة عسكرية حضارية)».
كلية الآداب
جامعة بغداد

٥ ـ الدكتور جاسم صكبان علي — «الاتصالات مع الجهات البيزنطية الرسمية في الشام في العهد الراشدي من خلال المصادر العربية».
كلية التربية
جامعة البصرة

٦ ـ الدكتور عبد الله سلوم السامرائي — «الفرس في بلاد الشام»
كلية التربية
جامعة بغداد

٧ ـ الدكتور سامي مكي العاني — «تجربة مؤتة»
كلية الآداب
الجامعة المستنصرية

٨ ـ الدكتور محمد باقر الحسيني — «الدور الاسلامي والتاريخي للنقود العربية الاسلامية في بلاد الشام في صدر الاسلام».
المؤسسة العامة للآثار والتراث
بغداد

دولـة قطـر

١ ـ الدكتور يحيى الجبوري — «تجربة مؤتة بين التاريخ والشعر».
كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية
جامعة قطر

دولة الكويت

١ ـ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
كلية الآداب
جامعة الكويت
«الامبراطور هرقل ومقاومة الفتح الاسلامي لبلاد الشام»

٢ ـ الدكتور علي سعود عطية
وزارة التربية والتعليم
الكويت
«عمر بن الخطاب وفتح بيت المقدس».

٣ ـ الدكتور شاكر مصطفى
كلية الآداب
جامعة الكويت
«الفتوح العربية في الاطار العالمي».

الجمهورية اللبنانية

١ ـ الدكتورة وداد القاضي
الجامعة الأمريكية
«مدخل الى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح».

٢ ـ الدكتور ابراهيم بيضون
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الجامعة اللبنانية
«حملة مؤتة: مقارنة للمشروع السياسي الأول للدولة الاسلامية في بلاد الشام».

٣ ـ الدكتور نقولا زيادة
الجامعة الأمريكية
«تموين الجيوش العربية الاسلامية أثناء فتوح بلاد الشام».

٤ ـ الدكتور عمر عبد السلام تدمري
كلية الآداب
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس
«الفتح الاسلامي وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان)».

٥ ـ الدكتور محمد مخزوم
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الجامعة اللبنانية
«الفتح الاسلامي لمنطقة الجزيرة».

٦ ـ الدكتور احسان عباس
الجامعة الأمريكية
«فتح الشام: مؤشرات وإرهاصات».

٧ ـ Dr. Henry MacAdam
الجامعة الأمريكية
«The Earliest Islamic Fortifications in Jordan and their Roman- Byaznt‌ine Predecessors.»

٨ ـ Dr. Maurice Fiey
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة القديس يوسف
«The Last Byzantine Campaign into Persia and its Influence on the Attitude of the Local Populations Towards the Muslim Conquerors 7 — 16 A.H/ 628 — 636 A.D.»

٩ ـ Dr. Lawrance Conrad
الجامعة الأمريكية
«Al-Azdi's History of the Arab Conquest of Bilad al-Sham»

جمهورية مصر العربيـــة

١ ـ الدكـتـور لطفي عبد الوهاب يحيـى
كليــة الآداب
جامعة الاسكندرية
«اسـتـقـبـال بـلاد الـشـام للـفـتح العـربـي : الخلفية الثقافية»

٢ ـ الـدكـتـور جوزيـف نـسـيم يـوسف
كليــة الآداب
جامعة الاسكندرية
«الـعـلاقـات الاسـلامـيـة الـبـيـزنطية في الشام وتـخـومـه في صـدر الاسـلام في ضـوء صراع الـقـوى بـين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى».

٣ ـ الـدكـتـور عـبـد المـنـعـم مـاجـد
كليــة الآداب
جامعة عين شمس
«موقف الروم العرب من الاسلام»

٤ ـ الـدكـتـور مـصـطـفـى عـبـد الـحـمـيـد العبادي
كليــة الآداب
جامعة الاسكندرية
«وثـائـق بـرديـة عـن ضـرائـب نـصـتـان في صدر الاسلام»

٥ ـ الـدكـتـور عـادل أبـو عـمـشـــة
كليــة الآداب
جامعة الاسكندرية
«كـتـابـات الـرحـالـة أركـولـف كـمـصـدر لـبـلاد الشام في عصر الراشدين»

المانيا الغربيـــة

WEST GERMANY

1. Dr. Albrecht Noth
   Orientalisches Seminar
   Universität Hamburg
   «The Muslim Conquest of Damascus Futuh-History and Futuh Historiography»

2. Dr. Stefan Leder
   Johann Wolfgang Goeth
   Universität
   Frankfurt
   «The Attitude of the Jews and Their Role Towards the Arab-Islamic Conquest of Bilad al-Sham»

3. Dr. Stefan Gerö
   Tübingen Universität
   «Early Contacts Between Byzantium and the Arab Empire: A Review and Some Reconsidera-tion»

فرنســا

FRANCE

1. Prof. Maurice Sartre Universite' de Tours	«Le Hawran Byzantin a la veille de la Conquete Musulmane»
2. Prof. Toufic Fahd Universite' de Sciences Humaines de Strasbourg	«محمد و بحيرا : هل وطئت أقدام نبي العرب أرض الشام؟».

المملكة المتحدة

UNITED KINGDOM

1. Prof. C. Edmund Bosworth University of Manchester	«The Byzantine Defence System in Asia Minor and the First Arab Incursions.
2. Dr. Carole Hillenbrand. The Muir Institute Edinburgh	«A Christian Source on the Early Muslim Conquests: the contribution of Eutychius (Sa'id b. Bitriq)»
3. Dr. Hugh Kennedy University of St. Andrews Scotland	«The Origins of the Qays-Yaman Dispute in Bilad al-Sham»
4. Dr. Robert Hillenbrand University of Edinburgh	«The Fate of the Classical Heritage in Early Islamic Art»
5. Dr. Lawrence Conrad	«al-Azdi's History of the Arab Conquest of Bilad al-Sham»

هولنـــــدا

HOLLAND

1. Dr. E. Van Donzel The Netherlands Institute For the Near East Netherland	«Arabic and Islam in Holland During the XVIIth Century».

الولايات المتحدة الأمريكية

U. S. A.

1. Prof. Fred M. Donner The University of Chicago Chicago	«The Problem of Early Arabic Historiography in Syria».
2. Dr. Walter Emil Kaegi, R. The University of Chicago. Chicago	1. « The Strategy of Heraclius» 2. «Heraclius and Byzantine Mesopotamia».
3. Dr. Raymond J. Hebert National Museum of American History. Washington	«The Early Coinage of Bilad al-Sham».
4. Dr. Michael G. Morony University of California Los Angeles.	« Syria Under the Persians,610 — 629 A.D».
5. الدكتور عرفان شهيد. Georgetown University. Washington	«أسرار النصر العربي في فتوح الشام : معركة اليرموك».

اليــونــان

GREECE

1. Dr. Vassilios Christides University of Athens	«The Coastal Towns of Bilad al-sham At The Time of the Rashidin, 632-666 A.D.»

المحتويـــات

تتوجه لجنة التحرير بالشكر والتقدير لكل من:

محمد يونس العبادي

نوفان رجا الحمود

حامد الزغـول

على ما بذلوه من جهد في سبيل اخراج هذا المجلد.

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

١٩٨٧/٢/٦٨

University of Jordan



Yarmouk University

Proceedings of the Second Symposium on the History of Bilad al-Sham During The Early Islamic Period Up to 40 A.H./640 A.D.



Letter of MOHAMMAD God's Messenger to Heraclius

Edited by

Muhammad Adnan Bakhit

Ihsan Abbas

Vol. II Amman 1987